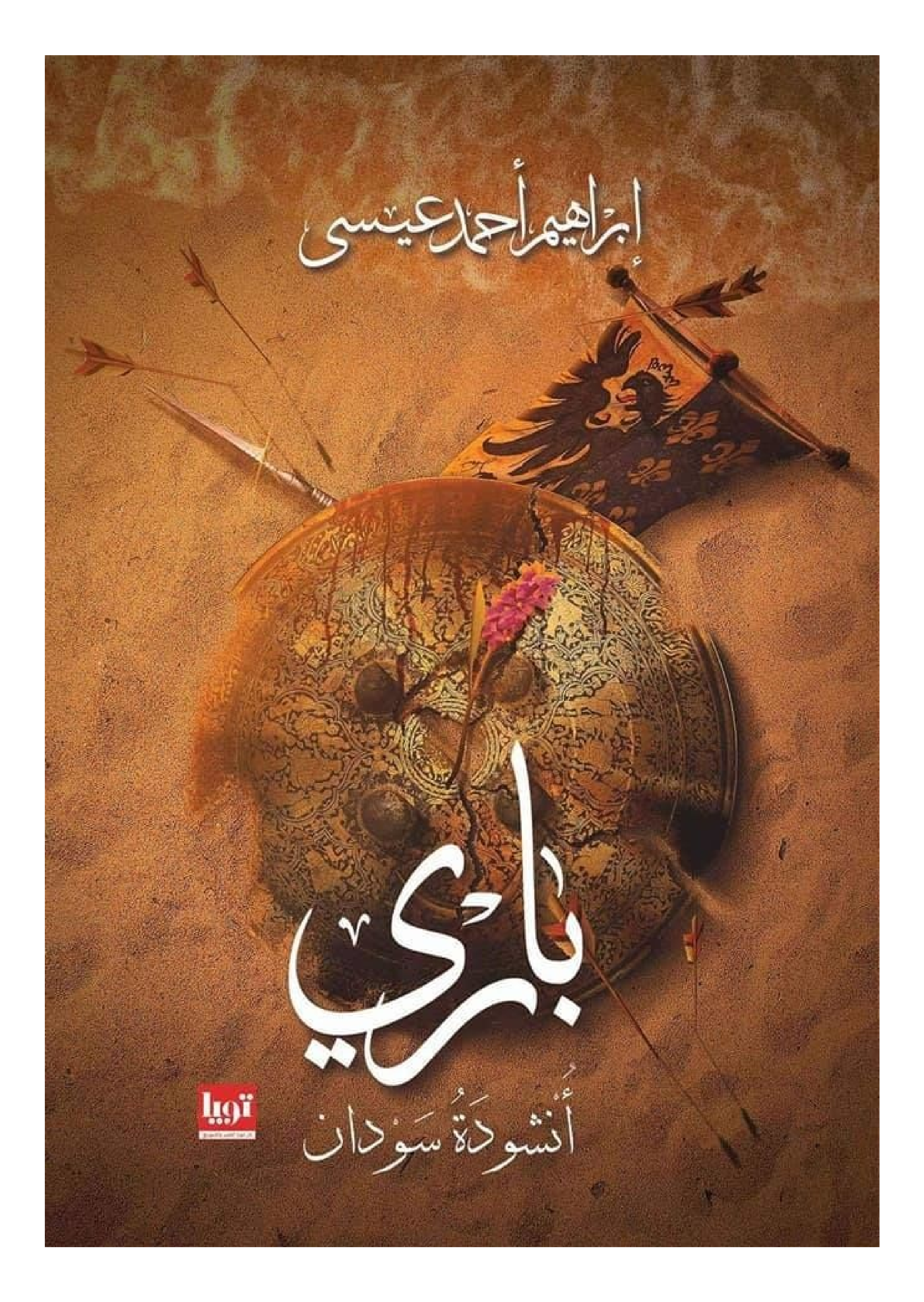
إبراهيم أحمد عيسى

باري

أُنشودة سودان

تويا


إبراهيم أحمد عيسى
باري
أنشودة سودان
تويا

رواية

باري

أنشودة سَودان

إهداءٌ إلى ذلك الجزءِ النقيِّ بنفوسِنا... اثبتْ!

أنشودة سَودان مِن وإلى التاريخِ

(1)

ابتلعَ الغيمُ شمسَ العَشِيةِ، وتلاحمتْ سُحبه مزمجرةً برعدٍ يُنذر بصَيِّبٍ قريبٍ، قد يروي ظمأ غابةٍ لم تُودع ضوءِ النهار الأخير. أسدلت الأشجارُ ظلالها مهيمنةً على فراغ الغابةً، وتوقف الهزيمُ، ليسودَ السكونُ مرةً أخرى، إلا أن يقطعَ الصمتَ بين الحينِ والآخر شدو كرَوان يترنم بين الأغصان.

كانت منهمكةً في استنشاقِ هواءٍ باردٍ، قادم من ناحية السفح حاملًا معه رائحة المطر، بينما راحت تُداعب بعض الأغصان اليانعة. رفعت إلى بقّايا الشمس عينًا مكتحلةً بالشجن، تُنصت إلى غناء الكروان يُؤنس وِحدتها ويمنحها سكينةً تحتاجها. يوميا تفر من الموت.. تُفلت من بين براثن مَن يشتهيها، لتراوغ ذئاب الغابة، فتُمنَح فرصة للحياة ليومٍ آخر. أرهفت السمع .. أهناك شيء يربضُ بين الأغصانِ المرتفعة؟.. ألقت نظرةً، قبل أن تعودَ للعبَث بالحشائش. ليس هناك ما يدعو للخوف، الهواء يعبثُ بالشجيرات، هذا كل ما في الأمر. اعتصرت مطمئنةً بضع حباتٍ من توتٍ صبغ فمها بلونٍ أحمر قانٍ، تسيلُ عصارته بينما تلوكها في تلذذٍ ببطءٍ. مرة أخرى عاد الصوتُ الخافتُ من بين الأشجار، فرفعَت رأسها في حذرٍ، ودارتْ عيناها في المكان .

ثم رأته يقفُ على مقربةٍ منها.. ظهر من العدم وقد ضاقت حدقتا عينيْه، وهو يرمقها بظفرٍ، بينما تشد أصابعُه وترَ قوسٍ يئنُّ من قسوةِ قبضته. انتفضَتْ مع دويِّ الرعد، لتمنح أقدامها محاولةً بائسةً للهرب، ولكن لا مفر، فقد أصاب ضلعها الأيسر سهمٌ أسقطها أرضًا. حاولت النهوضَ فخانتها قوتها.. تعثرتْ، وأدركتْ أن لا حول لها ولا قوة الآن.. إنها النهاية المحتومة. الألم كان أقوى من حبها للحياة، ألقت رأسَها في أحضان عُشب ملطخ بقطراتٍ من دمائها، وعينُها ترمق سماءً تكدستْ بسحبٍ تذرف قطراتٍ لفراقها. حرَّكت أذنيْها تستشعرُ صوت أقدامهم وضحكاتهم يقتربون أكثر. تمنت أن

يُعجلِ الموتِ بها قبلٍ أن تراهم. أرخت جفنها، وقد حقق القدرُ لها ما تمنت. انتفض ذيلها، وتبعته رجفةٌ أخيرةٌ ثم زفرةٌ.. وسكن الجسد.

"لم أرَ أمهر منك يا سَودان"

نطق بها شُعيب وهو يشير إلى صيدِهما. تجاوزه مرافقه وهو يُزيح الأغصان عن طريقه: ألم أقل لك إن رحلة الصيد هذه ستكون موفقةً.. ظبية كبيرة، أليس كذلك؟

أخرج شُعيب خنجره وهو ينحني نحوها قائلًا:

- يبدو أنها تاهت عن القطيع وقت العاصفة.

تفحصها سَودان بعينيْه:

- أأسلمت الروح؟

أجابه شُعيب وهو يشرع في إخراج السهم من ضلعها:

- نعم.. هل يجب ذبحها بعد موتها؟

التقط سَودان السهم الملوث بدمائها:

- إذا أدرك الصياد الصيد وفيه حياة، لم يحل أكله إلا بذبحه. أما إذا لم يكن فيه حياة، فهو كالمذبوح لا تجب التذكية والذبح إذن، فالسلاح هو ذكاؤه. أما إذا جُرِح ووُجد ميتًا بعد حينٍ وفيه أثر سلاحنا، جاز أكله، وإن لم يكن أثر سلاحنا فهو ميتة لا تحل لنا.

حمل شُعيب الظبية على كتفيْه مُتتبعًا خُطى صاحبه. توجها نحو السهل المنبسط خارج الغابة حيث مُخيم الصيد: خيمتان رماديتان من صوفٍ، رُقعَ سقفاهما بجلود الماعز، غريبتان في أرضٍ روميةٍ، لا تنتسبان إلى الجبال الرمادية الشاهقة ذات القمم البيضاء وأشجار البلوط الكثيفة في الخلف. قرب المجرى المائي المنسدل من الجبل، كان يقف رجلان آخران، ملابسهما وعمامتاهما تُفصح عن هويتِهما. صاح أحدهما مع رؤيته للقادمين.. ركض، بعد أن ترك دلوه قرب نيران المخيم. اقترب باسطًا يديه ليحمل الظبية، تناولها وهو يصيح ليسمع صاحبه:

- قلتُ لك إنهما سيأتيان بصيدٍ يستحق كل هذا العناء.

أتاه صياحُ صاحبه الذي ما زال بقرب الجدول:

- يا لك من كاذب! ألم تكن تقول إنه لا داعي للصيد وعلينا العودة للمدينة قبل العاصفة؟

تلعثم حاملُ الظبية، مع ضحكات شعيب الذي ربت على كتف سَودان قائلًا:

- مولانا سَودان من اصطادها.. كاد أن يُغشى عليَّ من طول صبره.

منحهم سَودان ابتسامةً هادئةً وهو يمر إلى خيمته. وضع عنه قوسه وسيفه، وأخذ يخلع عمامته، عندما جاء صوتُ خادمه:

- سيدي، أحضرت لك الماء للوضوء.

حدثه دون أن يلتفت:

- حسنًا يا بيرسباي، ضعه هنا وساعد الأمير شعيب وعلِيّ في تجهيز عشائنا.

خلع سَودان ملابسه دون أن يأبه ببرودة نفثها الجبل عبر قنوات المياه الجارية. شرع في مسح جسده بقطعةٍ من قماشٍ نقعها في الدلو، ثم بدأ وضوءه. انتهى ملتقطًا ملابسَ نظيفة كان قد وضعها الفتى بجانبه قبل خروجه. وتناهى صوتُ شعيب إلى مسامعه يؤذن العشاء.

صلى الرفاق على وهج نيرانٍ تشوي فخذ الظبية المسكينة، ثم حان عشاءٌ صامتٌ انتهى سريعًا بأمرٍ من المطر الذي اشتد حتى توترت الجيادُ من شدته. راح بيرسباي يغط في نوم عميق، بعد يوم شاقٍّ اختتمه بتحصين الخيمتين من المياه ببعض الأحجار والطين. وفي الخيمة الأخرى، كان شعيبٌ يقصُّ على مسامع صاحبه قصة إقريطش، لا يكف عن ذكر أصله الأندلسي، وقصة أبيه الذي كان صغيرًا حين حملته سفن التهجير عن بلاده، بعد ثورةٍ قام بها أهل الربض بقرطبة ضد أمير الأندلس الحكم بن هشام، صارت نيرانها تلتهم المدينة، رغم ما حمله الرجال من مياه النهر لإخمادها، حتى إن صرخات النساء والأطفال سُمعت خارج أسوار قرطبة؛ وما كان هذا إلا عقابهم إذ جاهروا بأن أميرهم يُعاقر الخمر، وأن حياته ماجنةٌ، أفصح بها الفقهاء على المنابر وتجولت الحكايات في أزقة المدينة. ثار الناس.. ثم خمدت النيرانُ ولم يعد لها أثرٌ، إلا بركة من وحلِ الرماد، وشعيب ما زال يقص على مسامعِ الفتى الناعس رحلة رآها في عينِ أبيه. لقد حُكم على أهل الربض جميعًا بالترحيل، كيلا يبقى في أرضِ أندلس ذكر لهم.

وألقى البحر بالمهجَّرين إلى الإسكندرية، فنزلوا على شاطئها باحثين عن فرصةٍ جديدةٍ للعيش. كانت المدينةُ تبعث في النفس السرور، رائحة البحر تجوب طرقاتها المحاطة بمنازل بيضاء ومنارة شاهقة لا مثيل لها، الأشجار مثمرة والظلال ممتدة عبر الدروب. في جنباتها عراقة، وحكايات لأقوام مروا من هنا مثلهم. وسرعان ما ازدهرت أحوال أبناء الأندلس في وطنهم الجديد، فقد كانوا أهل صُنعٍ وحرف، وفي غضون أعوامٍ قليلةٍ أصبحوا يُسيطرونَ على مقاليد الإسكندرية تجاريًّا وفكريًّا، والتفَّ حولهم الكثير من الناس، إلى أن أعلنوا المدينة إمارةً مستقلةً. خمس سنوات وأكثر كانوا يديرون أحوال المدينة، يتحكمون في كل شيء، ولم يعد لبني العباس ومريديهم مكانٌ في الإسكندرية. بُنيت السفن تباعًا، وأصبح للأندلسيين أسطولٌ قوي يربض بالميناء. جعلوا على أسوار المدينة جندًا، وعلقت الرايات الخضراء بدلًا عن تلك السوداء العباسية، بينما لم يزل تصارع الأخوان المأمون والأمين هو كل ما يشغلهما في الدولة المترامية. لكن لم تطب الأيام أكثر، فقد انتبه والي مصر العباسي عبد الله بن طاهر لما فعل الوافدون بالإسكندرية، فحشد الجند وجاء لحصار المدينة. ومرة أخرى وجد القوم أنفسهم في البحر، ولكن باتفاقٍ رابح بعض الشيء: أن يحملوا أولادهم وأموالهم وسلاحهم ويرحلوا، على ألا يدخلوا أراضي الدولة العبَّاسية أينما كانت. وأخيرًا، نام الفتى دون أن تنتهي قصص شعيب، الذي أوى هو الآخر لفراشه، وقد زين مخيلته بعائلته الصغيرة.

لم ينم سَودان، فقد أصابه أرقٌ، جلس يُراقب قطرات الغيث، بينما لم يعد الظلام هو المهيمن على المكان، فالبرق يهتك ستره بين الفينة والأخرى ليضرب عقل سَودان. راح يضغط على سكينه لتبرد قطعة من الخشب بين يديه، وانهمك في نحتها بعنايةٍ فائقةٍ، بصره ويداه مشغولتان بما يصنع، ولكن عقله شرد، يعيد عليه مشهدًا من زمنٍ مضى. هناك على مرسى السفن في "بلرم"، كانت الأشرعة تنسدلُ على الصواري، والرجال على متنها يهللون ويكبرون. ودعتهم المدينة بالتكبير والصيحات.. زهور وأهازيج وبيارق مختلف ألوانها.. تودع الزوجات أزواجهن الذاهبين إلى الحرب، واختلط الدمع بالفرح، وأبحرت السفن في بطء. أما هو، فركض خارجًا من المرفأ متجاوزًا الزحام.. عبر بوابات القلعة مسرعًا حتى الشاطئ الرملي.. بأنفاسٍ متلاحقةٍ جلس على ركبتيْه، يتأمل في صمتٍ فلكًا تحملُ على ظهرها أباه. كان يتمنى الذهاب معه، تتوق نفسه للمشاركة في حملة الفتح، ليحصلَ على نصيبهِ من بشارةٍ لقنها له أبوه وسمع أهل صقلية يذكرونها كثيرًا.. فتح رومية.

****

أغلقت السماءُ أبوابها، وتخاصمت السُّحب الرمادية لتفرج عن زرقة السماء. غردت الطيور في بهجةٍ، متنقلة على أغصانٍ قد تطهرت خضرتها بأمطار ليلةٍ شتويةٍ قاسيةٍ. أخذ بيرسباي في إعداد الخيل وتجهيزها للرحيل، محدثًا عَليَّ الذي كان يطوي الخيمة: ألن توقظ سيدي سَودان؟

- لم ينم، كانت ليلته مؤرقة.

جاءهما صوتُ شعيب المتوجه لخيمة سَودان. نفض رأسه، لتتطاير قطرات من أثر غسله لشعره الأشقر الكثيف، قبل أن يدلف. كان سَودان راقدًا بفراشه، مَلك النوم عينيه، ويده ما زالت تقبض على قطعة الخشب والسكين. اقترب منه في حذرٍ، ومد يده ليلتقط ما يُمسك به، فجاءه صوتُ سَودان المغمض العين:

- ماذا تريد يا شعيب؟

- كنتُ أحاول إيقاظك سيدي.

قال سَودان دون أن يفتح عينيه:

- أنا مستيقظ.. هل جهزتم كل شيء؟

أشار شعيب خارج الخيمة، وهو يقول:

- أعد بيرسباي الخيل، وعليٌّ ينتظر أن تنهض ليجمع أغراضك.

نهض سَودان من فراشه، ليضع سكينه جانبًا قبل أن يفرك صلعته الخشنة، وما زالت يدُه الأخرى تقبضُ على القطعة الخشبية، التي يُحاول شعيب معرفة ماهيتها. ابتسم سَودان حين رأى الفضول ينسابُ من عينيْ صاحبه، فما كان منه إلا أن رفع ما بيده أمام وجه شعيب، الذي تفحص قطعة خشب كانت بالأمس مجرد جزءٍ من غصنٍ، ولكنها أصبحت شيئًا آخر.. تمثالًا لحصانٍ صغيرٍ منحوتٍ بعنايةٍ فائقةٍ، زينت أحدَ جانبيه نقوشٌ متداخلةٌ. تأمله شعيب مبهورًا ليقول بعد ذلك: أهذا ما أرَّق ليلتك؟!

حرَّك سَودان التمثال الصغير للجهة الأخرى قائلًا:

- بل هذه.

كان النقشُ على الجانب الآخر جليًا، بأحرفٍ لاتينيةٍ يفقهها شعيب جيدًا.. كلمة تحمل حلمًا طمح إليه سَودان منذ الصغر: روما!

طوت الخيلُ الأرضَ من تحتها، حاملةً على ظهورِها الرجالِ الأربعة. عبروا مروجًا خضراء شاسعة، تحكمها سلسلة من الجبال ذات القمم الثلجية، تقفُ مهيبةً شامخةً تُعانق سُحب السماء. كانوا قد توغلوا في أراضي دوقية بنفينتو أكثر مما ينبغي. رحلة صيد تحمل في جنباتها استكشافًا واستطلاعًا. وفقوا بالصيد، كما عرفوا سُبلًا جديدة، وسهولًا للتخييم تحيط بها غاباتُ الصنوبر، وهضابًا صخرية تسكنها قطعان الوعول الجبلية والغزلان. إنها أرضٌ خَمل أهلها منذ زمنٍ، بعد أن كانوا أسياد العالم..

لا شيء يبقى على حاله.

اندثرت روما، وما بقي من القياصرة أطلال مدن قديمة وقواعد لتماثيل نبت حولها العُشب. انفرطت الإمبراطورية إلى ممالك صغيرة، تابعة للقسطنطينية وإمبراطورها تارة، وللكارولنجيين وإمبراطورهم المقدس تارة. عبثت السنين بهذه الأرض، حتى وصل الأمر أن أصبح أهلها خدمًا لثلةٍ من النبلاء التابعين للأملاك البابوية، ولم يبق من إرثٍ قديم سوى بضع مدن زُينت بها أحلامُ مغامرين عرب، أمثال سَودان البعيد جدًّا عن دياره. كانت الرحلة تستَحق العناء؛ فحملاتُ الأمير الصيفية تحتاجُ لمعرفة الطرق وأماكن القرى، لذا قرر الذهاب بنفسه في هذه الرحلة الطويلة، برفقة ثلاثة من رجاله المقربين. مروا بقرى من دافعي الجزية، تلاحقهم نظراتٌ متوجسةٌ وأخرى تُظهر المقت.. في بعض القرى وجد الإسلام، يُنبئ عنه مسجدٌ صغيرٌ وملابسٍ عربية تطغى على أهل القرية. أحيانًا وليس دومًا، كانوا يُرحب بهم دون معرفة هويتهم، وأحيانًا لا يجدون الترحيب فيرحلوا سريعًا، تلاحقهم صيحاتُ الصغار فرحةً بالخيول القوية. كانت لهم كذلك أيام قضوها على تخوم كمبانيا، وإذ انتهوا من صيدهم حملوا الفراء معهم، أما اللحم فمنحوه لراهب يسكن صومعةً قديمةً، قرب مدخل الوادي. في بادئ الأمر رفض هديتهم وتوجس منهم، فقد عاش أكثر من نصف عمره يقتاتُ بقليلٍ من الزيت والعسل. ولما طال الحديث قليلًا، تعجب من لطفهم، وسألهم عما جاء بهم إلى تلك الأنحاء، فادعوا أنهم صيادون مروا بالصومعة باحثين عن الدفء، فدعاهم ليقضوا يومهم معه، فقبلوا، ثم ساعدوه في إصلاح جدار صومعته قبل أن يُغادروا، متخذين الطريق إلى الجنوب.. تتبعهم أعين الموت من فوق ربوةٍ قريبةٍ!

عند الغروب، أوقف شعيب جواده صاحب الزفير المرتفع ملوحًا بيده:

- علينا أن نريح الجياد ونسقيها، قبل أن نكمل طريقنا إلى حاضرة أفيليانو.

جذب سَودان لجام فرسه بدوره:

- لن نتوقف بأفيليانو، يجب أن نصل إلى باري قبل شروق الغد. الطريق ما زال طويلًا، وإن دخلنا المدينة سيستقبلنا محمد الأغلبي، وما بين الضيافة والمكوث سنبقى لأيامٍ؛ فلا داعي لهذا.

ترجَّل عن الفرس، التي ما إن نزل عنها حتى خطت ناحية بركة المياه. لحظات من الارتواء، داعب فيها سَودان خصلات شعرها الأبيض وهو يقول لبيرسباي:

- أتدري يا بيرسباي، جَد هذه الفرس رُبط يومًا في ساحة قلعة القديس أنج بروما.

ابتسم بيرسباي وهَمَّ بقول شيء، حينما جاء صوتُ شعيب كالعادة:

- ولتفتحن رومية.. يومًا ما ستدخل الهجان روما وأنت على صهوتها.

راود سَودان مشهد دخوله روما ممتطيًا فرسه البيضاء، تسير في خيلاء، ومن حوله البيارق والرايات، وخلفه كتائب جيشه الجرار، لكن سرعان ما تبخرت أحلام اليقظة، مع حثٍّ مرافقيه له للمضي. امتطى الجميع خيولهم، وتأخر بيرسباي عنهم، لكن ما هي إلا بضع خطوات، ليأتي صهيلٌ قوي من خلفهم، فالتفتوا إلى حيث بيرسباي، لتتجمد أعينهم، فقد كان يقف ممسكًا بسهم قصير استقر بصدره، تنبثق الدماء حوله، وعيناه الزرقاوان تُغلقَان في تهالكٍ وألمٍ!.. سقط رفيقهم أرضًا، في

الوقت الذي ركض فيه جواده في الاتجاه المعاكس، فزعًا من أصوات الصيحات الهمجية القادمة من مسافةٍ قريبةٍ جدًّا.

برزوا مِن بين الآجام والصخور، بخوذاتٍ ذهبيةٍ يعلوها عرف من ريشٍ أحمر، يحملون نِشابًا قصيرةً مصوبةً ناحية سَودان ورفاقه، ملابسهم ذات خطوط بيضاء وحمراء، ويتوسط صدورهم نقشٌ لخنزير بري يُفصح عن هويتهم، جند دوقية بنفينتو، تفيض أعينهم بالغضب والقتل. لحظات مرَّت، قبل أن ينطلقوا راكضين باتجاههم، مطلقين وابلًا من السهام القصيرة. أصيب شعيب بسهمٍ انتشله من دهشته، ليسقطه عن صهوة جواده، الذي حصد جسده بضعة أسهم هو الآخر. نهضَ شعيب مستندًا إلى ظهر الجواد الصريع، وبيدٍ مُخضبةٍ بالدماء أشهر سيفه، غير مبالٍ بألم راح يغزو جانبه. انقضَّ عليهم، في الوقت الذي كان الفتى عَليٌّ يحث جواده على التقدم ناحية المهاَجمين، وراح يصول ويجول بين الجند، حتى تكالبوا عليه، فسقط بعد أن عُقرت مطيته، ولم تُمهله السيوف، غُمدت في جسده لتحلق روحه في سماء تزأر من جديد. كَسر شعيب السهم المستقر بجانبه الأيسر، بعد أن أسقط أحد مبارزيه، ليستدير لمواجهة زمرة أخرى منهم. كان يُقاتل في بسالةٍ منقطعة النظير، قتالًا لا هوادة فيه، وأجنحة الموت تحلق فوق الرؤوس تحصد ما تشاء من الأرواح، وتنتظر روحه. هكذا هم الشجعان يُقاتلون حتى النهاية ببسالة. حفظ عن ظهر قلب « وَإِذا لم يَكُنْ مِنَ المَوْتِ بُدٌّ, فَمِنَ العَجْزِ أَنْ تكُونَ جَبَانَا». لم يفلح أحد في إسقاط سَودان عن الهجان، التي كانت تُصارع بدورها مهاجمي فارسها، فتركل بساقيْها الأماميتيْن أحدهم، بينما يشَج سَودانٍ بسيفه رأس مبارزه. يجذب لجامها، لتدورَ حول نفسها، وتقف على قائميْها الخلفييْن مُطلقة صهيلًا قويًّا، امتزج بصيحة ألم خرجت من حلق شعيب، الذي خرَّ على ركبتيْه متألمًا إثر جرح أصاب ساقه، لكن لم يثْنه عن مواصَلة القتال، فلم يفلت سيفه، وظل يدفع مبارزيه عنه، ويجرح هذاً ويصَرع ذاك، حتى باغته نصلٌ اخترق عنقه من الخلف، أمام أعين سَودان الذي جُرح هو الآخر، وأصبح الأمر محسومًا.. عشرات مقابل رجلٍ واحدٍ الآن.

****

كل شيء تحرَّك بنشاطٍ داخل قرية "سان فيلي"، بعد ليلةٍ ممطرةٍ. الأكواخ البسيطة لم تتحمل وطأة المياه، فتسربت لداخل المنازل الطينية ذات الأسقف الخشبية. وجوه النساء عابسة وقد انهمكن في إخراج المياه من أكواخهن، بملابس مبللةٍ تلتصق بأجسادهن المكتنزة. معظم الرجال شحذوا الفؤوس واتجهوا ناحية الغابة، يلحق بهم أطفالٌ ملطخون بالطين متعثرون بالوحل. بضع أوزات يُثرن الفوضى على جانبيْ الطريق، بينما يمر حصانٌ ضخمٌ ببطء، ساحبًا خلفه محراثًا خشبيًّا مسطحًا، يزيح الطمي عن الطريق. سلال الطعام والخبز تُنقل إلى منزل النبيل لورينزو، الذي يقفُ مرتديًا ثوبًا أزرق من قماش الموسلين، وعلى كتفيْه انسدل معطفٌ من الفراء الرمادي، متابعًا بعينيْه الزرقاويْن الثاقبتيْن كل ما يدور في ساحة قريته. البيت الكبير- كما يُسمونه- يجثم أعلى التل بجدرانه الحجرية، ليُهيمن على الأكواخ الطينية عند السفح، ويزيده سقف القرميد الأحمر فخامة تفصح عن مكانة صاحبه الذي يُتابع باهتمام إصلاح أسقف الأكواخ، ولا ينفك يرصد الطريق لخارج القرية. تمنى قدوم الربيع.. لطالما أحبه، ففيهِ يُحمِّل العربات بالكروم والفاكهة، ويتجه إلى روما عبر تلك البوابة الخشبية المتآكلة، فيجد مهجته هناك في الزحام والبنايات القديمة وبقايا المعابد العملاقة، وفي

التجول في الأسواق المكتظة بعد بيع ثماره. لا يحصل على سعرٍ مرتفع بقدر ما إن باعه للغزاة في الجنوب، كما يفعل الكثيرون؛ ولكنه يتبرك بروما، ولن يبيع للوثنيين البرابرة شيئًا. يُبغضهم، ويُناجي القديسين كل ليلة على أمل محوهم من الوجود، كأصحاب بومبي وهيركلينيوم.

خلف البيت الكبير، وفي الجانب المطل على الوادي، كان كل شيء ساكنًا.. فقط خرير الجدول القريب هو ما يؤرق الصمت، وأنامل رقيقة تعبث بأقحوانة حمراء أضناها المطر والبَرد ثم تقطفها لتمنحها موتًا سريعًا، بدلًا من الموت البطيء بفعل الصقيع. رفعتها إلى أنفها الدقيق، لتلتقط شهيقًا مفعمًا بعطرٍ فريدٍ، يليق بعيونٍ جذابةٍ تعكس خضرة الحقول وزرقة السماء، ثم ثبتتها فوق أذنها، لتحتضنها خصلاتُ شعرها الكستنائي المتموج. أزاحت خصلة تطايرت على جبينها وهي تتطلع للسماء، وقد أفلت من بين الغيوم شعاعُ شمس داعب وجهها وزاد من رونق ثوبها الأزرق، ثم سارت بخطى بطيئةٍ عبر الحقل الذي لم ينج منه إلا بضع زهور. لو رآها أحدٌ لظن أنها روح قديسة هائمة تبحث عن الخلاص.

حملت ماريا سلة الثمار، وارتقت التل إلى منزلها. لم تمنعها الأجواء الممطرة من عادتها اليومية في زرع وحصد حقلها الصغير، من الملفوف والبصل وأيضًا اللفت، فهي جيدة عندما تطهو مع شرائح لحم الخنزير وبعض البهارات التي أتى بها أبوها من رحلته الأخيرة إلى البندقية. وعدها أن تذهب معه في رحلة الربيع إلى روما، عوضًا عن أخيها إليساندروا الذي لا يصلح لشيء سوى جلب المتاعب. يفعل إليساندرو ما يفعل ولا يُعاقبه أحد. كيف وهو الفتى المدلل. أما هي، ابنة نبيل القرية، تظل فتاة مغلوبة على أمرها كباقي النسوة، لا يصلحن سوى لحلب الماعز وقطف الثمار وعصر الكروم، والمضاجعة.

تناهى إلى مسامعها صوتٌ قادمٌ من الحظيرة، فتوقفت وأرهفت السمع.. كأن أحدهم تتوالى عليه الطعنات! وضعت السلة قرب الجدار، وبخطواتٍ حذرةٍ توارت بالباب الخشبي القديم. أمسكته برفقٍ لتكتم صريره، تلصصت ببصرها متوجسة، تبحث عن مصدر الآهات المكتومة. لم يكن أمامها سوى خنزير العائلة يلتهم الروث في نهم. ضحكة أنثوية أفصحت عن صاحبتها، جذبت عينيها لما يحدث في الزاوية فوق الحشائش الجافة. إنها الملعونة فيولا عارية تعتلي شخصًا ما. اضطربت أنفاس ماريا، وتهاوى عقلها في بئر حيائها، ووضعت يدها على فمها غير مصدقةٍ لما يحدث في حظيرة منزلها.

"تلك الوقحة فيولا، كيف لها أن تفعل هذا في منزلنـا؟!"

التقطت عصا كانت جوار باب الحظيرة، ودخلت صارخة:

- كيف تجرؤين على فعل هذا في منزلنا أيتها العاهرة؟

ابتلعت كلمتها الأخيرة وهي تحدق في وجه إليساندرو الفزع، والذي أطاح بفيولا من فوقه، وراح يداري سوأته بملابسه المكسوة بالقش والغبار، وعيناه تجولان في المكان للتأكد من أنها وحدها:

- ما الذي أتى بك إلى هنا الآن؟!

أشاحت ماريا بوجهها في اشمئزاز، وبصقت ناحية فيولا غير المبالية بما يحدث، وما زالت يدها تُداعب شعر إليساندرو البني. قالت ماريا بنبرةٍ غاضبةٍ:

- أقسم أن أخبر أبي عن تدنيسك المنزل.

ألقتها وهي تتجه لخارج الحظيرة، فيما ركض إليساندرو ناحيتها ممسكًا بملابسه أمامه وهو يصرخ قائلًا:

- فلتفعلي ما يحلو لك.. وسأفعل ما يحلو لي.. لست الوصية عليَّ.

قبض على رسغها بعنفٍ وهو يُواجهها وعيناه تفيضان شرًّا:

- إياك أن تنطقي بحرفٍ واحدٍ مما شاهدتِه الآن.

بثقةٍ وحزمٍ نظرت ماريا في عين أخيها بتحد:

- أفلت يدي.. أيها الزاني!

فوجئت بصاعقةٍ تضرب خدها الأيسر، أطاحت بها لترتطم بالأرض، ليطفئ الطين البارد لهيب الصفعة. خرجت فيولا فزعةً وقد ارتدت ملابسها على عجلٍ، وعدلت من وضع ثدييها داخل الملابس في سرعةٍ وهي تُلقي نظرة على ماريا، قبل أن تركض باتجاه القرية، فيما رمقها إليساندرو صائحًا:

- لا تنسي موعدنا غدًا!

وحين عاد ببصره إلى حيث جسد أخته، تجمَّد كتمثالٍ من الرخام الأبيض لأحد أنصاف الآلهة العارية الصدر والخصر. رفعت ماريا رأسها في ألم، وقد اختلطت دموعها بالطمي، يقسم عقلها على البوح لأبيها، وإن لم يَعدل ويقتص لها فسترد له الصاع. نهضت متألمةً تشيح بوجهها عنه مشمئزة، وتمسح الطين عن خدها المتورم، ولكنه لم يبالِ بها، فقد كان يحدق مدققا باتجاه الغابة فاغرًا فاه. التفتت إلى حيث ينظر، ليجتاحها هي الأخرى طوفانٌ من الفضول!

****

من بين أجمةٍ كثيفةٍ، خرجت الهَجان تسيرُ ببطء باتجاه جدول المياه. أعياها الركض لفترةٍ طويلةٍ، أنفاسها متسارعةً، تجر أقدامها على الأرض جرًّا. تلوث نقاء لونها بدماء خلفتها معركةً طاحنةً، وعلى ظهرها صاحبها المغشي عليه. نزف جرحُ جانبه الأيمن كثيرًا. لم تتحمل الفرس، أفزعتها كثرتهم، وكادوا أن يفتكوا بها، فلم تنتظر ليسقط فارسها، وقررت الفرار به ودهس بعضهم.

تقدمت ماريا بضع خطوات للأمام، لتقف بجوار أخيها وقد ضاقت عيناها لتتأكد مما تراه. مع اقتراب الفرس أكثر تجلى الأمر. هناك شخصٌ يتدلى على صهوتها، وجسد الفرس صُبغ بالدماء. تطلعت ماريا متفحصة المحيط حولها لتتأكد من خلو المكان، ثم همت بالتقدم، ولكن إليساندرو أمسك بكتفها بقوةٍ قائلًا:

- ماذا أنتِ فاعلة يا مجنونة؟!

لم يتم جملته إلا وقبضتها قد عانقت أنفه. تراجع صارخًا متألمًا، وما عاد يدري أيمسك أنفه المتورم،

أم يلتقط ملابسه التي سقطت أرضًا. تركته خلفها. ونزلت التل بحذر، عيناها لا تفارقان الفرس الواهنة. كانت ترتوي من الجدول.. مع اقتراب ماريا، رفعت رأسها وانتصبت أذناها. صهيلها المنخفض وشى بتوترها. ضربت الأرض بحافرها، قبل أن تلف بعنقها في قلق، تنظر تجاه من يقفون فوق التل. لم يعد بجسدها قوة لتركض مبتعدةً، وتقدمت ماريا وأمسكت لجامها وراحت تهمس: اهدئي! استكانت لعذوبة صوت ماريا، وهدأت حين لامست أنامل ماريا ناصيتها، وأحست بالطمأنينة تسري بعروقها المنقبضة. أسرع لورينزو يقترب منها والقلق يعصف بعقله، بينما يُحاول إلباس صوته هدوءًا، لم يخل من ريبةٍ:

- ماريا، ما كان يجدر بك فعل هذا.

أشار إلى الرجال من خلفه، فأفسحت ماريا لهم مكانها. رفع أحدهم رأس الصريع، وتطلع إلى ملامحه وثم ملابسه، وقال: "سيدي، إنه من السراسنة.. جروحه بليغة".

هذا ما كان ينقص لورينزو! يقسم دومًا أنه لا يُحبهم ويتمنى هلاكهم وقتلهم جميعًا، والآن يقف على شاطئ الحيرة، لا يعرف كيف الخلاص من هذه الورطة. باغته قول ماريا:

- أبي علينا حمله إلى المنزل، إنه حي.

لا يعرف لِمَ صمت وأومأ برأسه، أهي رحمة الرب ألقيت فى قلبه، أم أن القتل لن يصح أمام ابنته التي أحرجته أمام الرجال المتوجسين لأوامره؟

****

لم تكف السماء عن الهزيم المتواصل، ولم يتوقف الصيِّب عن الارتطام بسقف منزل لورينزو، الذي وَدع الطبيب كاراس، ثم جلس في ركن غرفته المعتمة إلا من ضوء مشعلٍ أثار سحابةً من الدخان بدلًا من بعث الدفء في صدرٍ باردٍ يجيش بالحيرة. ذلك الراقد في الغرفة المجاورة عربي، ملامحه وملابسه تُفصحُ عن هويته. ما الذي أتى به إلى هذه الأنحاء وما قصته؟ لولا ابنته لأفزع الفرس لتركض به بعيدًا، ليموت على ظهرها أو يجده أحدهم. هذه المرة الأولى التي لا يفي فيها لورينزو بقسمه للرب، كما أن خبر إيوائه لذاك الجريح قد يتفشى، فماذا سيكون جوابه حينما تنهمر عليه الأسئلة كصواعق جوبيتر؟ أيام تفصله عن اجتماع النبلاء في بنفينتو لذا عليه إنهاء الأمر قبل الذهاب.

بينما كان عقل لورينزو يبحث عن مخرج لمأزقٍ وشيكٍ، كانت ماريا تتفحص الجريح الغائب عن الوعي. جسده المفتول يحمل آثار عشراتِ الجروحِ القديمة، التي تُوحي بأنه قد نجا من الموت مرارًا. إنه فارسٌ على الأرجح، هكذا قال عمها الطبيب كاراس؛ ولكنه لا يشبه أيًّا ممن وصفهم القس ليو عبر قصصه المرعبة عن السراسنة المتوحشين. لم تكن له أنيابٌ بارزةٌ من حديدٍ ولا تنبت من أصابعه مخالب من نحاسٍ، بل إنه يُشبه منحوتات القياصرة القدامى، طويل القامة، بشرته تميلُ للسمرة، رأسه حُلق حديثًا بشفرةٍ حادةٍ على ما يبدو، أنفه أقنى دقيق التفاصيل وله لحية سوداء تُضفي عليه وقارًا مُحلى بالوسامة، رغم السواد الجاثم على جفنيْه. حين حمله الرجال إلى منزلهم عبر الباب الخلفي، ذهب أحدهم بالفرس المتعبة إلى الحظيرة، أما هي فركضت دونٍ وعي إلى منزل عمها، فأخبرته بالأمر في عجالةٍ، وحملت حقيبته الجلدية، وسحبته من يده مسرعةً حتى فشل في مجاراة سرعتها، بجسده الذي أنهكته سنواتُ عمرٍ تُشرف على نهايتها. العم كاراس رأى من

الأهوال ما لم يره أحد. حارب في صفوف الإمبراطورية البيزنطية، رغم كونه كاثوليكيا. عمل كمسعفٍ للجرحى، وقضى معظم حياته بين أطرافٍ مبتورةٍ وجروح غائرةٍ. رائحة الدماء لازمته، لم ينجده منها سوى الأسْر الذي جعله عبدًا، بعد اجتياح الأغالبة لإقليم كالبيرا، ولولا حرفته ومهارته في مداواة الجرحى لكان بين الموتى أو بيع في أسواق النخاسة بالقيروان أو الأندلس. وقتها عمل تحت إمرة طبيبٍ مسلم، درَّبه وأضاف له الكثير من العلوم، حتى أتقن حرفته وأصبح ماهرًا في تحضير الدواء. ولكنه اشتاق لوطنه.. غابات البلوط، البحيرة وشجرة الصفصاف.. كوخه الصغير وقريته سان فيلي. لم يهرب، ولكن مُنِح الحرية، وما أجملها رغم كونه لم يعامَل يومًا كعبدٍ. وعاد لوطنه حاملًا معه لغةً اكتسبها، ومهنةً زاد فيها إتقانًا، ولكن منذ أن عاد يُعامله القس ليو على أنه مشعوذٌ غريب الأطوار، مهرطق استحوذ الشيطان على عقله. حاول مرارًا أن يوضح الأمور لمن يعرفهم، حتى يئس من العقول الموصدة. ورغم ذلك، كانوا يعودون إليه دومًا، فهو الوحيد الذي يستطيع أن يُعالج جروحهم وتقرحاتهم، ويعج منزله بالأعشاب والقوارير. لم يجد العم من يؤنس وحدته سوى ماريا، التي تواظب على الحضور يوميًّا له، تتحدث معه ويُعلمها بعض الكلمات من لغة العرب سرًّا، ويقص عليها حكاياتٍ من حياته العامرة. كان لا يرفض لها طلبًا، فقد كان قلبها حنونًا معه، عكس أبيها لورينزو المتعنت، وإن كان يحميه من بطش الكنيسة.

بعد انصراف العم الطبيب، دخلت ماريا إلى غرفتها البسيطة، وبشمعةٍ كانت بيدها أضاءت المشعل الصغير المُعلق بالجدار. أغلقت النافذة الخشبية، ليعمر الغرفة سكونٌ، بعد توقف صوت الريح. فكت خيوط ثوبها، فانساب عن جسدها الناعم وسقط أرضًا، والتقطت آخر أبيض اللون، ارتدته وجلست إلى مائدةٍ صغيرةٍ وُضع فوقها تمثالٌ ملون للعذراء. تلت صلواتها سريعًا، ثم ألقت بجسدها على الفراش، ومعها رفيقٌ جديدٌ.. دميةٌ لحصانٍ خشبي صغير، نقش عليه باللاتينية "روما"، وعلى الجهة الأخرى نقش لم يكتمل. كانت قد أخَذَت ملابس الجريح لغسلها، فلفت نظرها أنها من قماشٍ ثمينٍ سميكٍ مُزين بزخارف ورسوم دقيقة لأوراق أشجار، فقررت أن تخيط فيه ما تقطع من أثر الجروح، وبينما تقلبها متأملة، وجدت الدمية بين طياتها. بعد أن غسلت الثياب، وضعتها بجوار المدفأة لتجف، واحتفظت بالحصان الخشبي معها. قلبت الحصان في يدها كثيرًا، ثم أسندته إلى وسادتها واقفًا، وتمتمت تُحادثه:

- ألا تُخبرني بقصة صاحبك؟

تنفس الصبح، وتوقف المطر، ولم يفق سَودان. لم يراودِ النوم لورينزو، ظل جالسًا على مقعدٍ غير مريح بالقرب من ضيفٍ فُرض عليه، متمنيًا له موتًا عاجلًا. فليمت الغريب، ووقتئذ سيواريه الثرى كأنه لم يكن، ويرث الفرس الأصيل. إن من يملك مطيةً مثلها لا يكون سوى نبيل ذي شأن في قومه. نظر إلى الغِمد الفضي المركون إلى الحائط، يحتضن سيفًا مقبضه مرصع بالزبرجد الأزرق. تذكر النصل المقوس الذي صُقل بعنايةٍ، ونُقشت عليه كلمات بالعربية، متداخلة مع زخارف دقيقة. سمع جلبة تأتي من الحظيرة، فنهض متثاقلًا إلى الكوة المطلة على الفناء، يتابع بعينيْه ابنته ماريا، التي استيقظت مبكرًا لمهامها اليومية.

ماريا كانت قد خبأت الدمية بين ملابسها، وأحكمت غلق صندوق الملابس، قبل أن تنزل مبكرةً كعادتها. وقفت بمنتصف الحظيرة، تعقد شعرها خلف ظهرها. نثرت الحبوب، فهرع الديك ومن خلفه بضع دجاجات، تجاوزتها، لتحمل بعض العُشب المُتيبس إلى الفرس التي تقف بركن الحظيرة. مدت يدها بالعشب، فأبت الفرس أن تأكل. لامست ماريا رقبة الفرس بلطفٍ. تأملتها وفكرت أن عينيْها

حزينتان، وأن قلبها الذي يحترق شوقا لمعرفة مصير صاحبها سبب هذا النفور منها، رغم أنها تعرف أنها لن تؤذيها، فربتت على عنقها وهمست لها: إنه بخير يا جميلة.. لا أعرف لك اسمًا، ولكن صاحبك بأمانٍ الآن.

****

خرج لروينزو من صومعة الأب ليو غاضبًا. لم يتوقع كل هذا التجهم والتوبيخ، فقط لأنه اقترح قتل الغريب المُصاب. أم تراه يُوبخه لأنه رفض إعطاء ربع المحصول القادم للكنيسة؟! هو النبيل صاحب الأرض بموجب صكوك ملكيةٍ ورثها عن أجداده، وإن كان يُخرج الهبات للكنيسة فلأنه مسيحي مُخلص، أما الزيادة التي يطلبها الأب ليو فهي غاشمة. إن الأمور تزداد سوءًا، والسراسنة يزحفون شمالًا، وقريبًا سيصلون إلى بنفينتو ومن بعدها روما، ولا أحد يوجه قوته لمحاربة الغزاة، فقط يتبارزون من أجل عروشهم، وعلى النبلاء تسديد الثمن. سيأتي يومٌ يحمل فيه عائلته ويرحل عن تلك البلاد. هذه النهاية التى لطالما تخيلها، سيتوغل العرب عاجلًا أو آجلًا باتجاه روما ولن يوقفهم أحدٌ، إن لم يهرب سيُردى قتيلًا ويُسبى أفراد عائلته، ليباعوا في أسواق دمشق وبغداد. قرر التخلص من ذلك البربري مهما كلف الأمر، وبعدها سيبحث عن سبيل للتخلص من الأب ليو. كل شيء له ثمن، وكل باب له مفتاح، وآخر ما ينقصه هو أخوه كاراس.. كان قادمًا نحوه بابتسامته البلهاء المستفزة، فحاول أن يتحاشى النظر إليه مكملًا دربه، لكن كاراس توقف أمامه مباشرة، فاتحًا ذراعيه:

- أرى أن النبيل قرر أن يلوث حذاءه الثمين بطين الطرقات أخيرًا..

رمقه لورينزو بامتعاضٍ:

- لماذا لا تكف عن الهراء؟!!

قهقه كاراس:

- لماذا تأخذ كل شيء على هذا المحمل.. صدقني يا أخي، لا أسخر منك. فقط كل ما كنتُ أريد قوله: ماذا أتى بك إلى هذه الأنحاء؟

لا يعلم لمَ يصبر على جنون وصفاقة هذا المهرطق؛ ألأنه أخوه، أم لأنه يحتاج إلى وجوده في هذا المكان، حيث يُداوي الفلاحين وأهل القرية، ولا يكلفه سوى بضع دوقيات من ذهب تقدم للقس ليو، الذي لا يكف عن الطلبات. شحذ عقله مرارًا للتخلص منهما معًا، ولكن له في كل منهما حاجة. هكذا تسير الأمور.. الهبات والعطايا للكنيسة، مقابل الحفاظ على الضيعة وحقول الكَرم، والتي تحتاج بدورها لمن يعمل فيها، وهم أيضًا يحتاجون رعاية طبية ممنوعة في الأنحاء، فالاتجار بالأعشاب وتطبيب الجروح والأمراض ضد إرادة الرب، وكاراس- الذي عاد من أسْره مجنونًا حسبما يراه الجميع- يعرف كيف يشفي المرض العضال، ترافقه الشياطين تحميه من بطش الرب وأمراضه. كان كاراس يتحدث سريعًا عن حالة الجريح العربي، حينما جحظت عيناه فجأة، محدقًا في شيء ما خلف لورينزو، الذي التفت ليرى ما يحدث خلفه..

وسط الأكواخ المتناثرة في ساحة القرية، احتشد الصغار بملابسهم الرثة ووجوههم الملطخة بالطين

حول إليساندرو، يتطلعون إليه فاغرين أفواههم، بينما راحت رؤوس النساء تشرف من الأكواخ، والمارة من الكبار يتلفتون يتأملونه خائفين أن يقفوا فيعاقَبوا. كان يقف في تباهٍ، يرفل في ثياب الغريب الفاخرة، يسدل شعره البني الطويل على كتفيه، رافعًا رأسه في شموخ مصطنع، وعلى خصره شَد حزامًا جلديًّا يحمل نقوشًا مدبوغةً، يحتضن خنجر العربي وغمده الفضي. لَم يكن يملك مما عليه إلا صليبًا ذهبيًّا مرصعًا بأحجارٍ ملونةٍ عُلِّق على صدره، كان قد أحضره له أبوه من روما. تحرك لورينزو في غضبٍ باتجاه الحشد، بينما كان الفتى يُخرج السيف المعقوف من غمده. قفز الأطفال للخلف فزعين، وضاعت شهقات النساء وسط همهمات الرجال من حوله، والتي سرعان ما خفتت مع ضحكات إليساندرو المدوية. كاد أن يقول شيئًا، ولكنه توقف حين رأى أباه المتجهم يشق الجمع. أخفض النصل بسرعةٍ وصوت أبيه يُداهمه: ماذا تفعل أيها السفيه؟

غمغم الفتى وهو يُخفض رأسه متحاشيًا النظر إليه:

- لا شيء..

ساد الصمتُ لبرهةٍ، العيون تترصد القادم، لا أحد يفهم ما يحدث.. لورينزو كان في موقفٍ لا يُحسد عليه. أزاح كاراس أحدهم عن طريقه، ليقف بينهما، وبدت سخريته حين نطق:

- ما كان عليك أن تفعل هذا يا فتى، فأبوك يكره تلك الأزياء، رغم كونها من القماش العربي الفاخر.

فجَّرت كلماته الغضب بصدر الأب، الذي راح ينهال على وجه وصدر الفتى بسيلٍ من الصفعات واللكمات. حاول كاراس أن يقف بينهما، ولكنه دُفع بعيدًا، وارتطم بإليساندرو، الذي ترنح وقد جاءته فرصةٌ للهرب من قبضة أبيه. ركض مبتعدًا بعد أن ألقى السيف، فالتقطه لورينزو بأنفاسٍ تلاحقت بفعل ما بذله من مجهود. كان الناس يحدقون فيه بوجوهٍ متسائلةٍ يعتريها الفضول. دار ببصره بينهم، قبل أن يصيح بهم: فليذهب كل منكم إلى عمله.

هرع الجميع مبتعدين إلى ما خلف أبواب الأكواخ وبين ثنايا الشجيرات. ربت كاراس على كتفه ليهدئ من ثورته، ولكنه فوجئ به يلتفت ويدفعه مرة أخرى شاهرًا السيف في وجهه، وقد حمل صوته جدية مفرطةً: إن لم ترحل الآن سأقتلك وأصلبك هنا في الساحة أيها المهرطق.

ضحك كاراس بجنونه المعهود: أتعرف يا لورينزو، لا أراك سوى صبي ضجر. أبعدْ ذلك السيف عن متناول طفلك الأزعر، فأصحاب تلك السيوف لا يثرثرون كثيرًا، وفي المرة القادمة إن أردت قتلي يا ابن أمِّ، ليس عليك سوى أن تضع النصل هنا.

أشار لموضع قلبه، قبل أن يبتسمٍ وتتبدلٍ ملامحه. استدار راحلًا يُطلق صفيرًا يُشبه أصوات طيور غابت عن المشهد، ويتمايل ملتقطًا ورقةً من فرع شجرة يتدلى بالطريق، ثم يتمتم بأنشودةٍ قديمةٍ يحفظها لورينزو جيدًا. اختفى كاراس بين ثنايا الطريق، ووقف لورينزو جمادًا، لم يعد يتحمل كل ذلك.. في أقل من يومين تتحول حياته لجحيمٍ يصلى جنباته، والحل الوحيد هو التخلص من ذلك الغريب.

****

ليلة صافية باردة، سماء نَثرت فيها ملائكة الرب آلاف النجوم في ظلمة ليلٍ جاثم على قرية سان فيلي. بضعة أكواخ تضيء نوافذها بضوءٍ شحيح، ويقلق الصمت عواء ذئبٍ وحيدٍ، ابتعد عن غياهب الغابة ليبحثٍ عن رفيقةٍ ربما، أو لعله يقول إنه مَلك الليل وأن لا منافس له ولا قرين. قام لورينزو من فراشه ساخطًا، وخرج إلى غرفة المعيشة ليحكم إغلاق باب منزله. كان يُغمغم بسُباب للذئاب ومن أنجبهم، رغم علمه أن العواء ليس سبب أرقه، فقد كان يومه حافلًا بالتوتر. أحزنه أن أهان ولده بالساحة أمام الجميع. متى يكبر ويتحمل المسؤولية؟ لم يكن يتوقع يومًا أن يكيل له اللكمات وسطٍ العامة، ولكن ذلك الأرعن يستحق. كان يقف عند أقدام سَودان المُدثر بفراء الغنم. تطلع إليه محدثًا نفسه: "تبًّا.. لم كل هذه الحيرة.. لا لن أقتل جريحًا غائبًا عن الوعي" هكذا تعلم من الكتاب المُقدس، حتى وإن كان لا يُطبق جُل ما فيه من تعاليم. سيبقي عليه، كما أمره الأب ليو، الذي رفض فكرة قتل الوثني.

بخطواتٍ ثقيلةٍ، راح يخطو نحو غرفته. دلف متأملًا جوالًا ضخمًا يحتل جزءًا كبيرًا من فراشه. نعم، جوال من لحم ودم.. صوتُ أنفاسها هو آخر ما يُريد سماعه. ليست هذه بالتأكيد من حارب الدنيا من أجل الزواج بها، إيلينا الجميلة البيضاء التي زيَّن وجهها نمشٌ منحها حمرةً بديعةً. كانت رشيقة يومًا ما، والآن تحولت لكتلةٍ من الشحم، حتى شفاهها الدقيقة صارت غليظة. تبًّا! كيف تحولت لهذا الكائن؟!.. أطفأ شمعةً كانت مصدر الضوء الوحيد، مستغلًا عتمة الظلام ليستلقي إلى جوارها. حاول جاهدًا أن يصم أذنيْه، فلا يسمع شهيقًا لها ولا زفيرًا، لكنه لم يفلح، ومضى الوقت ثقيلًا حتى طاف به النوم وانساب إلى جفنيْه وحواسه. وما إن غشته سكينة النعاس، حتى انتفض بفعل شيء ثقيلٍ جثم على صدره. شهق فزعًا ممسكًا بيدها ليزيحها عنه، لكن دون جدوى، فوضعية جسدها جعلت ذراعها مستقرةً فوق صدره. يبدو أنه قد كتب عليه ألا ينام هذه الليلة.

خمس ليالٍ مضت على وجود الغريب، الذي لم يَفق بعد، يزوره بين الفينة والأخرى كاراس يجرعه بعض رشفَات من دواء أعدَّه، ويضع بعضًا من عجين زهرة البابونج على الجرح حتى لا يتعفن، تراقبه ماريا جيدًا وتتعلم منه، وتساعده في تعديل وضع الجسد، وتنظف حول الجرح بماء دافئ. لم يتملكها كل هذا الفضول من قبل. نسيت وتناست أحلامها البسيطة، وأصبح ذلك الغريب يحتل يومها. تُراقبه لعله يفيق، تسقيه الماء في توجس، وتنتظر أن يأتي عمها لتتبادل معه أطراف الحديث. اقترح نقل الجريح إلى منزله، فبيت لورينزو وإن كان مختلفًا تمامًا عن بقية منازل القرية، إلا أنه مرتعٌ للجرذان والحشرات. أقنعها بضرورة نقله، لكن عليه أن يقنع أخاه بذلك. انتظر حتى عاد من جولته الصباحية بحقول العنب والخضراوات خاصته، واستقبله كاراس بابتسامته المعتادة، بينما لم يُعره لورينزو أي اهتمام. أشار لخادمه بوضع سلال الثمار، فحملتها ماريا ودخلت بها إلى حيث تقبع أمها. جلس لورينزو قبالة أخيه سائلًا: متى يسترد وعيه؟

ألقى كاراس نظره خاطفةً على مريضه: لا أعلم.. لولا جسده القوى لمات فور إصابته.. لقد فقد الكثير من الدماء وقد نجحت في تقطيب الجرح بقدر المستطاع.

غمغم لورينزو بشيء غير مفهوم وكاراس يُتابع: عليَّ نقله إلى منزلي، حتى تتسنى لي معالجته جيدًا، كما أن المنزل هنا قد يتسببَ في تفشي الالتهاب الذي قد يُودي بحياته.

لم يهتم لورينزو إن كان أخوه أهان المنزل وصاحبه، فقط وجد خلاصًا مؤقتًا في رحيل ذلك الغريب. فليأخذه كاراس إلى الجحيم إن أراد، فربما يتذوق طعم النوم مرةً أخرى، وكل شيء بعد ذلك هيِّن، نهض من مقعده دون أن ينطق بموافقة أو رفض، وتوجه إلى باب المنزل.. دقائق غاب فيها بالخارج، وعاد معه ثلة من الرجال، مشيرًا إلى الجريح الغائب عن الوعي: احملوه إلى حيث يريد

الطبيب.

لم يتوقع كاراس ما فعله أخوه. هذه المرة الأولى التي يُحقق له طلبًا منذ أمدٍ بعيدٍ. سَعد بتلك البادرة الحسنة، وخرج يتقدم الرجال، يأمرهم بتوخي الحذر حتى لا يتفاقم وضع الجريح. هبطوا التل إلى القرية، ومروا مسرعين تلاحقهم الأعين، التي عرفت القليل عن ذلك الجريح بعدما حدث للفتى المغرور في الساحةِ. أما لورينزو، فكان يُراقبهم حتى دلفوا إلى منزل كاراس بجنوب القرية، ثم رفع رأسه للسماء سائلًا الرب أن يُنهي تلك المسألة. عاد إلى الداخل، ليجد ماريا تحمل أغراضَ الغريب، فعقد حاجبيْه: ماذا تفعلين؟

بابتسامةٍ هادئةٍ ارتسمت على شفاهها ردت: سأودع تلك الأغراض منزل عمي.

اقترب منها مادًّا يديْه وقد حمل صوته غلظة: ستظل تلك الأشياء هنا حتى يفيق أو يموت.

سحب منها السيف والملابس عنوة، لكنه لم يلحظ الحصان الخشبي الصغير الذي كان بيدها. تجاوزها في لامبالاةٍ متجهًا لغرفته، حَزنت، رغم أنها تعودت على تلك الخشونة في التعامل، فقد تخطت عامها العشرين منذ أشهر ولم تتزوج، وهو يعتبِرها قد خرقت التقاليد وضربت بالأعراف عرض الحائط. كانت تحدث نفسها دومًا أنها ليست واحدةً من حيوانات الحظيرة تُباع لمن يدفع أكثر. إن كان لا بد من الزواج، فهي لا تريد سوى كوخ بسيطٍ في غياهب غابةٍ هادئةٍ، وزوج يكون سندًا ودفئًا، يعوضها عن سنواتٍ عاشتها بمفردها رغم صَخب القرية حولها. ماريا لم تذهب يومًا للحفلات التي يُقيمها النبلاء في القرى المجاورة، فهي تكره المجون وحياة اللهو، وتجد في رفقة العذراء صفاءها، لكنها كذلك لا تحب الوحدة. أودعت الحصان الخشبي صَندوق ملابسها، واتجهت إلى غرفة الطبخ، حيث سلال الطعام والفواكه. اختارت بضع حبات من الثمار الطازجة خلسةً من أمها، التى انهمكت في تقليب قدر الطعام، وخرجت من المنزل متوجهة إلى منزل عمها كاراس. لا تعلم سر البهجة التي دبت في قلبها، ألأنها ستحصل على مزيدٍ من الوقت خارج المنزل، أم ستجد الفرصة لتتعلم المزيد من عمها. طرقت البابَ، وانتظرت حتى فتح لها كاراس، فوضعت الفاكهة على المنضدة القريبة: جئت لك ببعض الثمار خلسةً.

ضحك وهو يلتقط حباتٍ من عنقود عنب: لو علم أبوك، قد يمنعك من الحضور إلى هنا.

حَملت جرة الماء، وراحت تسقي بعض أحواض الأعشاب ذات الرائحة الطيبة، بينما أخذ هو في تفحص بعض رقع من الجلد. كان منزله مكانًا مثاليا للشفاء.. لا ذباب، لا فئران، لا رائحة كريهةٍ. ليس مثل أكواخ القرية، فهو نظيفٌ مرتبٌ، يتوسط غرفته الرئيسية منضدة تحوي أطباقًا فخارية صغيرةً امتلأت كل منها بصنفٍ مختلفٍ من الأعشاب المجففة، وتحتل الجدار مكتبةٌ كبيرةٌ تتزاحم فيها لفائفُ المخطوطات، ونسخة من الكتاب المقدس. لم يمنعها عمها يومًا من لمسه أو قراءته، كما يفعل أبوها، وكما ينصح دومًا القس ليو، الذي يُصر على أن المرأة أقل شأنًا من الرجل. كان كاراس منهمكًا في البحث عن إحدى أدواته، قد سقطت أسفل المكتبة، حين سألته: عماه، كيف هم نساء السراسنة؟

جاء السؤالُ مباغتًا له، رغم أنها سألته مرارًا قبل ذلك. رفع رأسه فارتطم بأحد الأرفف، تأوه وهو يُحاول أن يمنع سقوط المخطوطات. أطلقت ماريا العنان لضحكاتها الرقيقة وهي تهب لمساعدته: كل هذا من مجرد أن ذكرتك بالنساء؟

ارتفعت ضحكاته وهو يلتفتَ لها:

- ذكرتُ لك من قبل أن القلة التي رأيتها من النساء جميلات بيضاوات، عيونهن مكتحلة دومًا، ويُغطين وجوههن عندما يُغادرن بيوتهن، بغض النظر عن رفعة مراتبهن. جميعهن يقرأن ويكتبن ويدرسن أيضًا، ينسخن الكتب ويغزلن الملابس.. يا بنيتي، للمرأة هناك مكانة وعزة، لا يضربهن أحدٌ، ومن يمسهن بسوءٍ يتعرض لعقابٍ غليظٍ. لكنهم ليسوا مثلنا في أمور الزواج، حيث يحق للمرء أن يتزوج أربع نساء.

عقدت حاجبيْها مغمغمةً:

- نعم أذكر أنك عرجت على هذا الأمر في حديثٍ سابقٍ.. ولكن كيف لهذا أن يحدث؟

وضع ما في يده على المنضدة، ليسحب بعد ذلك كرسيا ليجلس:

- هناك شرط أن يعدل بينهن.. هكذا ورد في كتابهم، وهم ينفذون ما أتى فيه. ولذلك، ليست هناك أحياءٌ للبغاء ولا وجود للعاهرات؛ فقط الجواري والخدم، وهناك أمورٌ تنظم حياة هذه الفئة.

طال الحديث مع عمها، لا تمل من الاستماع له. كيف لا، وهو من علمها القراءة والكتابة، ومزج زيوت الزهور واستخلاص العطور. كل هذا محرم في قريتها وأنحائها، ولكن نفوذ أبيها فقط ما يجعل هذا المكان حصينًا. انتهت من طحن حبوب الشوفان، واستعدت للخروج، حينما سمعت تأوهاتٍ تأتي من غرفة كاراس، حيث يرقد الغريبُ. بخطواتٍ بطيئةٍ مرتجفةٍ اقتربت من باب الغرفة، اختلست النظرات.. كان يتأوه ويُغمغم بشيء ما. تقدمت محملقةً في قسمات وجهه، حيث تجسَّد الألم.. ترددت قبل أن تلمس جبهته، التي تتصبب عرقًا رغم برودة الجو. أتى صوتُ عمها من خلفها، فأفزعها: ماريا!! ماذا هناك؟

- إنه محمومٌ. هذه المرة الأولى التي يتأوه فيها بتلك الطريقة.

كانت مرتاعةً. ربت على كتفها: اذهبي وأغلي بعض قشور الرمان جيدًا، وأحضري إناءً به ماء بارد. لا تقلقي، سيكون بخير.

لماذا عليها أن تقلق؟ قد يكون الفضول، الشفقة أو شيء من هذا القبيل. أعدت مشروب قشر الرمان الدافئ، وناولته لكاراس، الذي أشار إليها، فعدلت من وضع رأس المريض، حتى يتسنى لكاراس أن يُعطيه بعضًا منه. غربت الشمس، وبقي مسحٌ من ضوئها الأحمر على سحبٍ متناثرةٍ، فودعت ماريا عمها، على وعدٍ بالعودة مبكرًا. أسراب الطيور تعود لأشجارها، والمزارعون يجمعون خرافهم للمبيت.. كلب سباستيان الحطّاب ينفض فراءه في كسل. كل ما حولها يأتنس ببعضه بعضًا، ومنزلهم وحده يربضُ فوق الربوة كئيبًا. للمرة الأولى يُراودها ذلك الشعور، لا تريد العودة إلى البيت.

على غير عادتها، دخلت دون أن تلقى التحية. أي تحية تلقيها على أب أعياه الخمر، يجلس محتضنًا قنينة، تعوضه عن زوجةٍ سَلبت قوتها الأعمال المنزلية الشاقة؟! مرَّت إلى غرفتها دون أن يشعر بها أحدٌ. انسابت الوحدة إلى روحها.. هذه الليلة مختلفة. في وقتٍ مضى، كان حوضُ زهورها كل اهتمامها، إلى جوار بعض الأعمال مع عمها. لا أصدقاء لها منذ طفولتها سوى فيولا، وقد ابتعدت عنها لسوء أخلاقها. يقول أبوها إن فتيات القرية لا يصلحن لصحبة نبيلةٍ مثلها؛ ولكنها تشعر دومًا أنهم أقل شأنًا من غيرهم من النبلاء، فعزلت نفسها، لا تختلط بالناس إلا حين تذهب للكنيسة أو

لمناسبةٍ ما. فيضَ من الفضول اجتاحها لمعرفة الغد. قد يكون ذلك الغريب السبب، اهتمامها به خلال الأيام الماضية كان يشغل حيزًا كبيرًا من وقتها. أمسكت خصلات شعرها البني، وانهمكت في صنع جَديلة، وعقلها يركضُ في غابات فوجيا المكسوة بورود الخزامى البنفسجية بأقدامٍ حافيةٍ يُداعبها عشبٌ رطب مبلل، تحت أشجارٍ تشابكت أغصانها، تتخللها أشعة الشمس الذهبية. أعمدة الضياء غمرتها بدفء لامس قلبها، فأغمضت عينيْها، وحين فتحتهما وجدته يقف عاقدًا يديه أمام صدره، في كامل عافيته، مبتسمًا، وعمامته تمنحه مزيدًا من الوسامة. كيف جاء إلى هنا؟... كيف توغل في غابات أحلامها؟!

****

ضبابٌ راح ينقشع، لتظهر حشائش خضراء نضرة تتهوج حوافها بضياء لامع، ومجموعات من ظباء ذهبية تجول تحت ظلال أشجار قطوفها دانية. شعيب، وبيريسباي، والصغير علي متكئين على سرر خضر، تطوف الحور حول مضاجعهم، وكل شيء يسكنه نورٌ سرمدي. كان يقفُ على مسافةٍ منهم، يراهم ولا يرونه. وجوههم باسمة، ويتبادلون حديثًا لا يصل إلى مسامعه. إن كانت هذه الجنة، فلماذا لم يحظ بالاجتباء مثلهم؟ سالت الدماء من جرحه، فتحسس موضعه. شعر بالألم، فعرف أنه لم يحن دوره بعد، فالفردوس ليس فيها ألم ولا ملل. كأس من فضة كان بيده، يحوي سائلًا أصفر لزجًا، قرَّبه من فمه وتجرع مرارته. انتابته نوبةٌ من سعالٍ عنيفٍ، ألم رهيب راح يغزو جنبه، وعتمة أبدية تحيط به، وصهيل وصيحات وصليل يصم الآذان.. ثم وجوه مخضبة بالدماء ابتلع الظلام ملامحها. لم يتحمل المزيد من الوجع، فصرخ وفتح عينيه. وجد الظلام ما زال يُحيط به، وتحسس الفراش، ليدرك أنه ليس بغرفته. حاول النهوض، ولكن رجفة انتابته.. أهو بالبرزخ؟ أهو من الظالمين وهذا عذابٌ أليم؟ سَودان الماوري الذي لا يهاب الموت بات خائفًا يرتجف، والبرودة تغزو أطرافه! كم هو ضعيفٌ، وحيدٌ، يُحملق في العدم، نادى بصوتٍ عالٍ: يا الله!.... لحظات، ثم أتاه ضوءٌ شحيحٌ ينسابُ ببطءٍ إلى الحائط عن يساره، كشف المدخل رويدًا، وانقشع الظلام. هناك من يقترب حاملًا مشعلًا، أهو أحد ملائكة العذاب؟.. تحدثه نفسه: هل صنعت ما يُخيفك يا سَودان؟.. تمتم بخفوتٍ: وما يفيد السؤال يا نفس بعد الممات؟!..

غمر الضوء الغرفة أكثر فأكثر، وانجلى وعيه أكثر.. إنه على فراش، وعلى الحائط ملابس أو أسمال، وهناك تمثالٌ لمنحوتٍ رخامي عارٍ يعتمر خوذة من رأس أسد، فهذا ليس قبرًا. التفت بوجهه مضيقًا عينيه متحاشيًا الضوء، ووجه كاراس الأشيب يقترب، بابتسامته التي بعثت طمأنينة لم تمح الدهشة العالقة بعقله وبعربيته ذات اللكنة الأعجمية يسأله:

- كيف حالك يا أخي؟

رد بتهدج: أين أنا؟

- لا تخف يا صديقي أنت بمكان آمن.

ألقاها كاراس وهو يخطو ناحية سَودان، الذي ما زال يُحدق فيه بعينٍ واهيةٍ أرهقها ضوء المشعل، الذي ثبته العجوز في حاملٍ حديدي بالحائط، وأخذ يكمل حديثه موليًا سَودان ظهره:

- أنت بقرية سان فيلي، وهي من أملاك دوقية بنفينتو.

كانت الغرفة بسيطة، خاوية إلا من ذلك التمثال العاري وفراش خشن من قش وخشب، يرتفع عن الأرض قليلًا يرقد عليه. اقترب منه كاراس بهدوءٍ، وابتسامته لم تفارق وجهه: دعني ألقي نظرة على جرحك..

أطال سَودان النظر بوجهه، دون أن يُجيب، فما كان من كاراس إلا أن رفع الغطاء عن صدره. ساحبًا الأسمال التي غطت جسده، ثم أخذ يتفحص جرحه المقطب والمغطى بمادةٍ بنيةٍ حول حوافه. تبادلا النظرات، قبل يسترخي في استسلام، مفسحًا المجال للعجوز ليتم عمله. أخذ الطبيب يمسح الجرح بقطعةٍ من قماشٍ بللها من قنينة، ثم أعاد وضع بعضٍ من المادة اللزجة البنية مرة أخرى. انتهى قائلًا:

- ستشفى قريبًا.

اقترب منه كاراس حاملًا كأسًا، فعقد سَودان حاجبيه: ما هذا؟

- ماء.. أنت كثير السؤال يا سيد....؟

لم ينطق، شرد.. كمن سُلب عقله، تراصت أمامه آلاف الوجوه.. المرفأ المكتظ بالسفن، صفحة البحر تعكس أشعة الشمس الذهبية، ساحة محاطة بأشجارِ النارنج والبرتقال، وبناء كبير تكسوه سقالات من خشب احتضنت المئذنة الشاهقة، عمال وعبيد كُثر، يتحركون هنا وهناك، يحملون مواد البناء، الكل يعمل دون كللٍ لإتمام العمل بمسجد باري الجامع. هو من يُشرف على إتمام البناء والتوسعة منذ وفاة الأمير مفرق بن سلام، حيث أصبح هو الأمير.. نعم هو الأمير سَودان الماوري، صاحب باري وأنحائها.. إقليم كالابيرا وبوليا وكمبانيا يدينون له بالولاء، ونابولي وسالرينو يدفعان له الجزية.. هو ملك جنوب إيطالية كما يُطلق عليه أعداؤه. ولكنه الآن شخصٌ آخر.. أو هكذا عليه أن يكون. فطن لحركة يد كاراس أمام وجهه. نظرته خاوية وابتسامته هادئة. منحه إجابته أخيرًا:

- أنا عبد الله.. من الجنوب. كنت أحمل رسالة إلى روما، حين هاجمني قطاع الطريق شمال أفيليانو.

شَرد، وعُقد لسانه وعيناه تتابعان شعيبًا، الذي كان يُبارز في مهارةٍ، حتى بعد سقوطه عن فرسه.. صدره المخضب بالدماء، وعيناه الزرقاوان تبتهلان للسماء. بيرسباي، أول من ارتقت روحه إلى السماوات كان يقف وسط الحشائش مبتسمًا يقطر دمًا، وسهم يستقر بصدره. عليٌّ أيضًا كان ماهرًا في المبارزة، لكنهم تكالبوا عليه.. والهجان تصهل وتركل وتُصارع بدورها.. ترى أين هي؟ دار بعينيه في المكان مرة أخرى، ليصطدم بصره بوجه كاراس يحملق فيه..

- لا بأس.. لا تقص البقية إن كنت لا تحب البوح.. اخلد للنوم الآن، وللحديث بقية.

ثقيلٌ هو الكذب، حتى لو كنتَ مضطرًّا، فمهما طال الوقت سينكشف الأمر. ربما عليه الرحيل في هدوءٍ وصمتٍ، كما رحل العجوز دون أن يُطفئ المشعل. دومًا من يرحل يترك خلفه أثرًا، تبقى الندوب لتذكرنا مهما التأم الجرح.. شعيب رفيق العمر، رحل في ومضة عين، مخلفًا زوجة وطفلين لن يعود أبوهما مرة أخرى. أهو الملام، أم أنه القدر؟ حاول النهوض، فعاد الألم مرةً أخرى. الجرح غائرٌ ولم يلتئم بعد، وحتى إن استطاع التسلل والهرب من هذا المكان الذي لا يعلم عنه سوى جدران أربعة تحتويه، إلى أين سيذهب؟ أين الهجان؟ أقتلت هي الأخرى؟ آخر ما يذكره أنها ركضت به بعيدًا، صفوف الأشجار المتسارعة حوله آخر ما رآه، طرقات حوافرها آخر ما سمع. سيصبر.. كان هذا قراره. نعم، سيصبر حتى يشفى، وبعدها يرحل. في الصباح، عليه أن يسأل ذلك الشخص عن كل

شيء.. وعليه الحرص والحذر.

****

اعتلى أحد ديوك حظيرة لورينزو السطح، وراح يسيرُ على سطح القرميد بزهو، إلى أن وصل للقمة. نفض ريشه الملون، قبل أن يصيح، ليعلن لأهل سان فيلي أن الصباح قد أتى، وأن عليهم أن يستيقظوا لأعمالهم. يظن البعض أن صاحبه دربه على هذا الأمر. تكاثفت قطرات الندى على وريقات الأشجار، وراحت تنسابُ لتغسل وجه الأغصان، وانقشع الضباب ببطء، ليعيد الديك الصياح مجددًا. أسراب من عصافير غادرت الأشجار، ترفرف أجنحتها في سرعةٍ ونشاطٍ، بينما سار كلب سباستيان الحطاب ببطء نحو كومة قش قرب منزل كاراس. دس جسده باحثًا عن الدفء، بعد ليلة حراسةٍ طويلةٍ، تحاشى فيها مواجهة ضواري الغابة. ومن خلف الجبل، قدمت الشمس.. قرصٌ برتقالي فاترٍ يُرى بوضوح، أرسل أشعةً لا دفء فيها، لتتسلل عبر نافذة ماريا النائمة. غمر وجهها الضياء. رقيقةٌ كزنبقةٍ نبتت بين صخور جبلٍ قاسٍ. لو رآها هوميروس لخلدها في إحدى ملاحمه، حسناء تسعى إليها آلهة الأولمب، تتنافس ليظفرَ كل منها بها. ربما لو كانت بعصرٍ سابقٍ، لحظيت برعاية جوبيتير، ولغارت منها جونو ومينيرفا، أو لربما لم يُقتل أنطونيو من أجل كليوباترا..

فتحت عينيها، فأشرقت شمسُ غرفتها. حركت رأسها في كسلٍ جميلٍ، بعد أحلام ورديةٍ لم تفارق ليلتها الهادئة. لبثت في الفراش قليلًا تسترجع أحلامها منتشيةً، قبل أن تنهض متثاقلةً وقد تناهى إلى مسامعها صوتُ أبيها يصيحُ في إليساندرو كالعادة. رتبت فراشها، وفتحت صندوق ملابسها، لامست بأطراف أصابعها موضع الحصان الخشبي، ثم أغلقته ولم تستهلك الكثير من الوقت لتختار ثوبًا قرمزيًّا زُينت أطرافه بنسيج أبيض، قديمًا بعض الشيء، لكنها تفضله. لم تخرج من الباب الخلفي كعادتها اليومية، لتختلي بروح الغابة وأنفاس الجبل، بل كانت عيناها تجذبانها إلى حيث منزل عمها كاراس. أطالت النظر، قبل أن تلتف حول البيت متجهةً للحظيرة على مهلٍ.. العنزة تلتقط بعضًا من الحشائش الجافة، بينما استلقى الخنزير في بركة من وحل وروث، وفي الزاوية الجافة كانت الفرس ترقد أرضًا! لم تعهدها كذلك طوال الأيام السابقة. اقتربت منها بخطواتٍ قلقةٍ، فداعبت خصلاتها، وتحسست عنقها. عيناها واهيتان تغمضهما، وكأنما هناك دمعٌ ينساب من طرفها! اغرورقت عينا ماريا بالدمع.. حاولت فهم ذلك الشعور، ولكنها عجزت، لم تبك منذ زمنٍ، ولم تبتل وجنتاها هكذا. قبّلت رقبة الفرس، وهمست مداعبةً شعرها:

- أعلم أنكِ حزينة من أجله.. أعدك أنه سيكون بخير.

نهضت، وراحت لزاوية بالحظيرة حيث تتراص أجولة كبيرة، فأخذت منها بعض الجزرات، عادت بها لتجلس إلى جوار الفرس على بقايا العشب الجاف، تلقمها بيدها وتحدثها:

- يجب أن تأكلي، حتى يجدك قويةً كما عهدك.

التقطت الهجان الجزرات بلطفٍ، وكف ماريا الآخر يربت على خطمها الأسود. كانت تفهمها بشكلٍ ما، وانهمكت في المضغ، بينما راحت يدا ماريا تجدل شعرها الكثيف، تُداعبها برفقٍ، تجمع خصلًا وتفرق بينها، تعقدها بسلاسةٍ، وتترنم بصوتٍ عذبٍ:

كانت هناك فرس بيضاء..

كقمةٍ تكسوها ثلوج أشد بياضًا من الحليب..

يجدل الجبل من نقائها ضفائر للنهر الفياض..

نسيت الوقت.. لم تدر إلا وأمها تسد باب الحظيرة بجسدها الضخم:

- ماريا.. ماذا تفعلين؟!

ابتسمت ماريا وهي تنهض:

- أخيرًا وجدت رفيقة يا أمي..

عقدت الأم حاجبيْها:

- لم تحلبي العنزة بعد؟

فغرت ماريا فمها، وهي تتابع تحرك أمها داخل الحظيرة. لم تبال بما تشعر به ابنتها، لم تتجاوب معها في الحديث حتى. أخذت الأم ترتب بعض الأغراض، وتلقي الحبوب لدجاجات أثرن فوضى من حولها، بينما كان قُباع الخنزير يشبه الضحكات، وكأنه يضحك على ما فعلته أمها بها. أحست ماريا أنها تكرهه وتشمئز منه. تركت رفيقتها وبدأت مهام يومها المملة، وقبل أن تترك الحظيرة ألقت نظرةً إلى الفرس النائمة وتساءلت: هل تحلم مثلنا؟.. هل يزورها طيف صاحبها كما تطفَّل على أحلامي؟!

.....

انشغل كاراس في إعداد خليط البابونج مع أوراق أخرى ذات رائحة عِطرية. أخذ يطحن المسحوق جيدًا، قبل أن يضع قليلًا من الماء. بضع تقليبات، وأصبح الخليط كتلةً من عجينٍ بني مائلٍ للخضرة، فحمل الطبق وتوجه إلى حيث يرقد ضيفه. كان يجلس على طرف الفراش، متتبعًا خطواتِ مضيفه المبتسم دومًا، فأشار إليه كاراس ليرقد. أزال عنه الأسمال، وتفحص الجرح، قبل أن يضغط عليه برفقٍ. انتفض جسده، فما زال الألم يسكن ضلعه. أخذ العجوز ينظف الجرح دون أن يتوقف عن الحديث. كان هذا حاله منذ أن تشرق الشمس، فيقص على مسامعه حكايات الحرب والمعاناة، وكيف تعلم العربية في مدينة "مرسى علي" بصقلية، على يد طبيبٍ مسلم من الأغالبة. إنه يرد الجميل؛ هكذا قال. حكى لمريضه كيف أنه بعد وقوعه في الأسْر، ظن أنه هالك لا محالة، أو أن عمره سينقضي هناك على الجزيرة عبدًا وحيدًا، لكن الحرية كانت من نصيبه. لا ينفك أن يذكر حضارة أسلافه الرومان، حكام العالم القديم، ويردد أن الحضارات كالعنقاء في انبعاثها، فمن رماد حضارة تنهض أخرى جديدة، ويأخذ في وصف الرقي والحضارة التي تُبنى بسواعد المسلمين هناك، قادمة من الشرق البعيد حيث الصحراء الشاسعة. لم يرها، ولكنه سمع قصص الرجال القادمين من جزيرة العرب متجهين إلى الأندلس بحرًا. لا يكف كذلك عن ذكر قرطبة وبغداد، حيث تدرس شتى العلوم، وقد أفصح عن أمنيته زيارتهما.. يقولون إن بهما أعظم المكتبات في الدنيا.

نقل الأطباق لخارج الغرفة، وعاد سريعًا، وكأنه قد سره أن وجد من يُسامره بالعربية. سحب كرسيا إلى جوار الفراش، وجلس وعيناه تبتهجان بالذكريات:

- أتعرف يا عبد الله.. كان الرهبان القادمون من الشرق قديمًا يقولون بأنكم عقابٌ لنا، فتصارُع المذاهب بعد مجمع خلقدونية، كان كفيلًا بأن يسلطكم علينا الرب. سمعت قصصًا مرعبة عنكم.. قالوا إن السراسنة الوثنيين يفتكون بكل ما هو حي، يحرقون ويدمرون، يقتلون النساء والولدان. حين ذهبت للحرب، رأيت أنكم بشر مثلنا، اجتمعتم من أجل هدفٍ ما.. هكذا هي الإمبراطوريات الكبرى. لقد ظلت روما تحكم العالم لقرون، ومن بعدها بيزنطة، وكان الناس يتفاخرون أنهم أسياد المشرق والمغرب، ويعامل الرومي الناس كافة على أنهم أدنى مرتبة منه. أما أنتم، فأكثر أسمائكم عباد.. كاسمك عبد الله. كنت قبل ذلك أحارب في صفوف البيزنطيين كما قصصتُ عليك، وكان علينا الوقوف أمام المد البربري المتوحش، حتى أُسِرت عندكم، فعرفت أن تاريخ الإنسانية تُبنى مرحلة جديدة منه على أيديكم. جيوش القياصرة صار كل ما تفعله هو تمهيد الطرق لتصل مدن العالم ببعضها، فتساعدهم في جباية الضرائب ومطاردة اليهود. نسوا تشييد الصروح الضخمة ونشر العلم.. أنتم من حملتم الراية، والميزة الأهم فيكم أنكم لا تكتمون علمًا. عجبتُ أيضًا من أن أرى فيكم الأسود يحكم الأبيض، بل ويوقره.

كان كاراس يفتخر أنه حضر مجالس الشعراء واستمع لقوافيهم. لهفته في الحديث المتواصل، وانبهاره باللسان العربي، ولباسه الأقرب لملابس المستعربين في طارنت وصقلية، كل ذلك جعل سَودان يطمئن له ويشرد عنه يفكر كيف ستمضي الأحوال، بينما يستطرد العجوز بقصةٍ جديدةٍ:

- كنت يومًا مع الطبيب محمد، بمنزل الأمير إبراهيم بن الأغلب، الذي كان رغم مرضه الشديد يُتابع أمور الرعية، فجاءت في طلبه أرملة يهودية، فأذن لها. دخلت، ولم يرفع عينه ليتفحصها، بل أشاح بنظره مطالعًا بعض الأوراق، مستمعًا لشكواها. أحد جنوده راودها عن نفسها، وحين صدت مساعيه، ترصد لها ولأهالي الحي، وشاع الخبر وكثر الكلام. انتحبت واختفى صوتها، رأيتها بعينيَّ تبكي، كانت صادقة عفيفة افترستها ألسنة الناس. وجيء بالجندي، واعترف بخطئه، فحكم عليه بالجلد وحكم لها بالستر، ومُنحت من بيت المال بعض ما يُساعدها على العيش، وأهداها الأمير ابن الأغلب بقرةً لتحلبها وتبيع وتكسب رزق يومها. رغم أنها يهودية، كان العدل حاضرًا.

كان كاراس يقص على سَودان بلغته العربية الركيكة، وسَودان يضحك من مواقف كان لا يراها ولا يهتم بها من قبل؛ فمن ير الأمور من خارج دائرتها يفهم أكثر. لم يفت كاراس أن يخبره كيف وجدوه، وأن فرسه سليمة معافاة، وسيأخذه لعندها بعد أن يتم شفاؤه. غاب خارج الغرفة قليلًا، ليعود ومن خلفه رائحة طعام أثارت شهيته، فالعجوز طباخٌ ماهرٌ أيضًا، وقد أعد طبقًا من خضراوات ولحم ومرق، قدَّمه لسَودان صاحب النظرات المتسائلة قائلًا:

- إنه لحم الأوز.. أعرف أنك لن تأكل لحم خنزير.

****

ربض الليل على القرية سريعًا، ولم تذهب ماريا إلى دار عمها. كان يومها شاقًا، فسيذهب أبوها لاجتماع النبلاء في بنفينتو، وعليها أن تُساعده وتُجهز ما يحتاجه في الطريق مع أمها. الاجتماع عاجل، ولورينزو عليه أن يذهب، لعله يجد سبيلًا للتخلص من الأب ليو، أو لعله يعرف شيئًا عن ذلك العربي. الحيرة والشك يسحبان روحه ببطءٍ، فقد يجد نفسه مذنبًا إن أفصح عن أمر ذلك الغريب. قرر

ألا يأتي على ذكره، وأن يذهب وحده مع حارسيْه فقط. ارتدى أفخم ما لديه: عباءة سوداء نقش على صدرها رسمًا دقيقًا لخنزير بري ذهبي. كانت ماريا تُساعده لارتداء ملابسه، بينما تنظف أمها حذاءه الجلدي الطويل.

الهواء البارد تلاعب بنيران المشاعل، وبجوار باب المنزل كان يقف إليساندرو ممسكًا بلجام حصانٍ أصهب، يتبادل الحديث مع صديقيْه، اللذين قبلا أن يقوما بدور حارسيْ أبيه. كان يتمنى أن يكون أبوه نبيلًا في إحدى المدن الشمالية، البندقية، لومبارديا، أو من أهل روما وأحوازها.. كان سيفرق ذلك حتمًا. فإن كان أبوه نبيلًا، فهو في النهاية مزارعٌ غني.. فلاح لا يرقى لطبقة القصور الضخمة التي تكتظ بها بنفينتو.. هذه هي الحقيقة. على أي حال، سيتغيب أبوه لخمس ليالٍ، وسيصبح هو المسؤول عن كل كبيرةٍ وصغيرةٍ حتى يعود. سيكون ملك القرية، يختال بطرقاتها كقارون في قوم موسى.. كقياصرة القسطنطينية وروما القديمة. أفاق من خيالاته حين رأى وجه أبيه الصارم يقدم عليه. لم يدم وداعهما كثيرًا، وبكلماتٍ مقتضبةٍ حذره من صنع المشاكل، وأوصاه بأن يكون على قدر المسؤولية. امتطى الحصان وهو يتأمل حارسيْه الجديديْن: ألم تجد أفضل من هذين الأحمقين؟!

....

ولد الهلال فوق رؤوس الأشجار. أَنست وحدته نجوم السماء، زاحمته لتقتبس من ضوئه الخافت. أما هو، فكان وحيدًا، غريبًا في قريةٍ بعيدةٍ عن الديار، بينه وبينها سهولٌ لم تطأها قدمه من قبل، وغرفة غادرها منهكًا، ليجد نفسه حبيس منزل ضيق. يرتعش الضوء قادمًا عبر نافذة الدار، من مشعلٍ يُقاوم رياحًا تمر بطرقات القرية. الألم ينخر جانبه، فتتأرجح الأرض من تحته، لكنه يُحاول ألا يسقط. هوى على ركبتيه.. لا يعلم للقبلة اتجاهًا، ولا سبيل للاغتسال. الظلام والوحدة، الخوف من الموت ربما.. لم يخشه يومًا، ولكن ابن آدم كأبيه يبحث عن الخلد، أو على الأقل يومًا آخر ليراجع نفسه.. ليصفح ويعدل ويتصدق. قلَّب سَودان وجهه في السماء مناجيًا ربه أن يمنحه السكينة والأمان. أن يكون موته في ساحة الوغى، وليس أسيرًا تركله الأقدام. أن يلحقه بزوجته وطفله إلى الجنان. انعكست بعينيه السوداوين نيران تلتهم السفينة ببطء، تتلذذ بمذاق من فيها.. الصرخات انسابت لها دموع العجز قطرات في بحر ابتلع الفُلك بما تحمل. لعل جرح جانبه أقل ألمًا من جرح لم يشف بعد. الفتوحات والمعارك.. الرايات والدروع.. البحث عن الموت.. السلطة والحكم ودنيا فتحت أبوابها له على مصراعيْها.. تضرع إلى الله أن تكون النية خالصة، وأن يُمنح فرصة أخرى... هكذا هم بنو آدم إن أصابتهم ضراء، كان التضرع والبكاء حاضريْن وبقوةٍ، وعهودهم أن يرى الله ما يصنعون إن نجوا من ذلك الكرب. اشتد الألم ينشب مخالبه بجسده الواهي، فلم يستطع المقاومة، وخرَّ ساجدًا.

...

استيقظ كاراس على صوت ماريا وطرقاتها المتتالية. تقلب بالفراش، قبل أن ينهض متثائبًا يجر قدميْه. أزاح المزلاج فاتحًا المجال لضوء الشمس، الذي ضرب وجهه فتراجع مشيحًا، فمرت ماريا إلى الداخل وقد غمرتها أشعة الشمس الذهبية. كانت مشرقةً في ثوبها الذي جمع بين زرقة السماء وبياض الثلج، وقد زينت ثغرها ابتسامةٌ جعلت غمازتيْ خدها تظهران بوضوح:

- ألم يفتقدني أحدٌ هنا؟

أشار إليها كاراس بعد أن تثاءب أن تضع سلة الطعام على الطاولة:

- كانت ليلة طويلة، ورأيت أباك يغادر القرية في المساء.

وضعت ماريا ما في يدها، وهَمت بالرد، عندما تعلق بصرها بجسدٍ مكوم على الأرض.. أطلقت شهقة، التفت على إثرها كاراس، فإذا بسَودان ملقى على جانبه وقد ضم ركبتيهً إلى صدره. كان فاقدًا للوعي، فحملاه معا، وعقل ماريا يتساءل هل استفاق الغريب؟ دثروه بالفراش، بحثًا عن دفءٍ يُطفئ برودة جسده وتيبس جلده وأسنانه التي لا تكف عن الاصطكاك.

أعد له كاراس شراب ليمون دافئًا، ثم انهمك في تقطيع بعض الأعشاب، فيما تسقيه ماريا الليمون وتتفحصه، وهي تستمع إلى عمها يحكي لها كيف أن "عبد الله" استفاق بالأمس، وأنه رسولٌ من باري إلى روما، وقد هاجمه اللصوص. كانت تتحسر لعدم حضورها أمس، لعلها كانت رأته كيف يتحدث وكيف يجلس.. الأنثى والفضول لا ينفصلان أبدًا، حتى ليقال إن بذرة الفضول احتفظت بها أرحام النساء، فلا تورثها إلا لذات رحم. صارت الآن تعرف اسمه، تُحاول نطقه كما أُلقي على مسامعها.. تهمس به، وتلتفت ناحية العجوز، تتأكد إن كان قد سمعها.. تبتسم وتُعيد الكرة.. «عبد الله»..

فوجئت بكاراس يقفُ فوق رأسها:

- هل قلتِ شيئًا؟

تلعثمت، وحاولت إخفاء خجلها بسؤال:

- أتساءل ماذا يعني اسمه، عبد الله؟

رمق كاراس سَودان بنظرةٍ طويلةٍ:

- تعني أنه عبد الرب..

سألت:

- أهو عبد؟

ضحك كاراس وهو يلوح بيده:

- لا لا، ليس الأمر كذلك. المسلمون يضعون أنفسهم في مرتبة العبودية للرب، كما نقول نحن أننا أبناء الرب.

أومأت برأسها كاستدلالٍ على الفهم؛ بينما أخذ يستطرد مشيرًا إلى سَودان:

- إنه يُخفي حقيقته، لكنه من علية القوم.. له من الوقار وحُسن الحديث ما لشخصٍ مهم، كما أنه يتقن لغتنا جيدًا، وهذه ميزة خاصة بالسفراء والقادة.

ساعدت عمها في طهو الفاصولياء على طريقة أهل صقلية، بينما يسرد لها مجمل حديثه مع سَودان، وهي تستمع بشغفٍ، وأسئلتها لا تتوقف. العرب يضيفون للطعام نكهاتٍ من بهار ومزيج من الزيوت التي يدخر منها عمها قدرًا لا بأس به. ثم باغتته بسؤالٍ حول ما إذا جاء السراسنة الغزاة إلى سان

فيلي، فتوقف عما يفعله، وتردد في الإجابة، وتلفت حوله، قبل أن يخفت صوته:

- إنهم يُسمون أنفسهم فاتحين وليسوا غزاةً.. يُخيرون الناس بين الدخول في دينهم أو الجزية أو الرحيل..

- الرحيل!

هزَّ رأسه بالإيجاب:

- نعم.. إما أن ندخل دينهم ونصبح مثلهم، لنا ما لهم وعلينا ما عليهم، أو ندفع ضريبة سنوية ونبقى على ديننا، مقابل أن يقدموا لنا الحماية والأمن ولا يظلمونا شيئًا، وأيضًا يكون لنا ما لهم وعلينا ما عليهم. لكن هذه الضريبة لا يدفعها النساء والأطفال ولا الرهبان.. فقط المقتدر هو من يدفع، إنها تُشبه حكم الزكاة عليهم هم أنفسهم، فهي مساواةٌ بهم وليست ظلمًا للآخرين. أما من يقرر الرحيل، فليرحل. يا بُنيتي، هؤلاء قومٌ كأسود الكليسيوم، لا تهاب الدروع والسيوف اللامعة، ولو ظلُّوا على مبادئهم صادقين، فقريبًا ستكون أوربا كلها تحت سيطرتهم..

تنهد، وأضاف:

- إن كانوا عقاب الرب كما يقول البابوات، فسيخرج لهم عباد صالحون من أبناء ديننا ليوقفوا زحفهم.. وإن كانوا بناة حضارة، سيخرج عليهم أبناء ديننا غيرةً من تلك الحضارة.. هكذا هي الحياة منذ عَمر بنو آدم الأرض..

عدلت ماريا من وضع ضفيرتها، وأخذ صوتها منحى حذرًا وهي تسأل:

- أتلك الجزية مثل الضرائب التي يدفعها أبي لدوقية بنفينتو، وكما كان يفعل جدي من قبل مع البيزنطيين؟

هزَّ رأسه أن لا، فلم تنتظر شرحه وسألته:

- أهم يقتلون النساء والأطفال والعجائز؟

كان قد أنهى طهو الفاصوليا، فاتجه إلى كرسي، ليجلس عليه يرأف بشيخوخته من الجهد الكبير. قال:

- تنص عقيدتهم على ألا يفعلوا مثل هذا.. لكن لكل حرب ضحايا.. الحرب أسوأ ما اخترع البشر، وهم ليسوا ملائكة بالتأكيد ولكن لا أظنهم شياطين، ومن يسمع قصص الرهبان والنبلاء، يُفاجأ بواقعٍ آخر عندما يتعامل معهم.

كل هذه الأسئلة سبق وسألتها ماريا لعمها مئات المرات، لكنها هذه المرة أمام حالة جديدة. إن عمها يمجد في الغزاة ويقول إنهم ضوء المستقبل، أبوها يبغضهم، كذلك أهل القرية، بل وكل دوقيات إيطاليا تكرههم. انتبهت لهمهمة سَودان، فاقتربت منه تترقب.. جفناه كانتا تُصارعان الوهن، حتى فتح عينيه ببطء، فوجدها تحتل مجال رؤيته والقلق يظهر على وجهها، وابتسامة متوترة على شفتيْها، وقد منحها ضوء النهار من خلفها هالة حولها. تبدلت الوجوه كثيرًا بعقله، لكنها لم تكن كأي وجه رآه من قبل. كانت كأنها حورية، رغم الظل الذي يكسو وجهها. أغمض عينيه لعله يفتحها مجددًا فلا يجدها، فهي بالتأكيد ليست إلا هلاوس الحمى. فاجأته كلماتها بعربية توترت حروفها:

- أأنت بخير؟

حاصره سؤالها مرارًا.. راح يتردد في عقله، الذي يحثه على فتح عينيه وتأملها. لحظة فتح عينيه كانت تزيح خصلة من شعرها جانبًا. ابتسمت مستحية من نظرته التي غزتها. كانت المرة الأولى التي تسمع صوته فيها حين سألها:

- من أنتِ؟ أين الطبيب كاراس؟

ردت في رفقٍ:

- ماريا اسمي.. ماريا.

تأوه سَودان، فيما استطردت هي:

- الطبيب كاراس عمي، أنا هنا لأساعده.

كانت تُحدثه بلسانه العربي، ولكن بحروفٍ مبعثرةٍ ركيكةٍ. قاوم الابتسام حتى لا يتألم، فأعادت سؤالها مرةً أخرى:

- أأنت بخير؟

أومأ برأسه في تهالك، فابتسمت وهي تضع على جبينه رقعةً مبللةً جديدةً، وتأخذ عنه تلك التي امتصت سخونته. مرت دقائق من الصمت، عاد بعدها كاراس مناديًا يسألها:

- ماذا هناك؟

استدارت وهي تشير إلى سَودان، فتقدم منه كاراس باسمًا:

- لا أعلم ما الذي جعلك تنهض في الليل.. وجدناك ملقى أرضًا.

غمغم سَودان:

- الصلاة.

وضع كاراس كفه على كتف ماريا التي تُحاول فهم فحوى الحديث:

- كيف نسيت هذا.. لكنكم في المرض تصلون قعودًا أو حتى رقودًا..

أومأ سَودان في وهنٍ:

- نعم، أنت على حق.. أخطأت أن لم آخذ برخصة التيسير.

ربت كاراس على كتف ماريا قائلًا:

- نسيت أن أعرفك بابنة أخي.. ماريا.

حاول سَودان الاعتدال في فراشه، فهمَّت ماريا لمساعدته، فرفع يده يكفُّها عن ذلك وهو يقول:

- تعرفنا قبل قليل..

استدار كاراس موجهًا حديثه لماريا، يرفع عنها الحرج، إلى حين أن يشرح لها سبب صدود العربي:

- ألن نعد الغداء لضيفنا؟

منحتهما ابتسامةً لم تخف ضيقها، ثم ذهبت وعادت بأطباق الفاصوليا. مضت تُراقب حركاته القليلة، وتُداعب طبقها الذي لم ينقص.. إنه بشر مثلهم، ليس من جنسٍ آخر، كما تقول قصص الأب ليو، لكن فيه غلظة في معاملتها. في نهاية الأمر، ساعدت كاراس في ترتيب الغرفة قبل أن تودعه، ثم- وبإصرارٍ داخلي على فرض وجودها على ذلك الغريبِ- لوَّحت بيدها لسَودان قبل أن تخرج، ولمحت ابتسامتهً قبل أن يشيح بوجهه. خرجت فرحةً، سعيدةً بانتصارها الصغير الذي أعلنته تلك الابتسامة التي لم ينجح في إخفائها. تخطت برك الوحل، ممسكة بتلابيب ثوبها حتى لا يتسخ، تلقي التحية على منِ تقابل من النسوة، حتى صعدت الربوة إلى المنزل، ولكن كان عليها أولًا أن تمر على الحظيرة، لتُطمئن الفرس الحزينة على صاحبها.

****

بنفينتو..

حلقت أسرابُ الحمام فزعةً من رنين الأجراس الذي فاجأها يصم الآذان. ومن بعيدٍ، رددت جبال الأبنيني الصدى. تراكمت السحب في سماء المدينة العريقة، بنفينتو ابنة النهرين ساباتو وكالوري إربينو، يحتضنانها منذ مولدها في عصر ما قبل روما، يمنحان أهلها من فيض مائهما العذب، ويُشكلان حدودًا منيعةً من ماءٍ جارٍ، عبوره لا يتم إلا من فوق قنطرتين بناهما الرومان قديمًا. أسوار المدينة الحجرية الرمادية تلتف حولها كثعبانٍ ضخمٍ، فمه ناحية الجنوب، حيث البوابة العملاقة انسدلت على جانبيْها رايات بيضاء يتوسطهاً خنزيرً بري أحمر، شعار دوقية بنفينتو.
أُلقيت الأزهار المختلفة ألوانُها فوق موكب النبلاء، الذي يمر وسط تجمعاتٍ من الفقراء، يتهافتون على رؤية أصحاب الفخامة من دوقيات وممالك إيطاليا. في الطليعة، كانت صفوفٌ من جندٍ مهيبٍ، دروعهم فضية ذات نقوش ذهبية، وخوذات ذات حواف مدببة تُضفي عليهم رهبة، يحملون راياتٍ حمراء تقاطع بداخلها مفتاحان، أحدهما ذهبي والآخر فضي، يتوسطهما التاج البابوي. ومن خلفهم صفان من الرهبان، يرتدون عباءاتٍ حمراء ذات أحزمة بيضاء، نقشت عليها عبارات ذهبية، يعتمرون قبعاتٍ كبيرةً من اللون نفسه تمنحهم الغموض. ثم تتوسطهم عربة تجرها أربعة خيول بيضاء بسروجٍ سوداء، حليها من فضة تحمل شعار الأملاك البابوية.
تًقرع الأجراسً أكثر فأكثر، فينحني الناس. وبداخل العربة الكاردينال أدريان، مساعد البابا والرجل الثاني في الكنيسة، يرسم على وجهه ابتسامةً عريضةً، ثيابه البيضاء ووشاحه الأحمر يضفيان عليه وقارًا وهيبةً، وقد أخفى صلعة رأسه بقلنسوة بيضاء صغيرة، بينما يُمسك بصولجانٍ يزين قمته صليبٌ ذهبي كبير، وراح يُلقي الصلوات والتبريكات على الجموع الغفيرة المتراصة على الجانبين. خلف عربته كان ركاب النبلاء يمر.. خيول مختلفة ألوانها وحليها، يمتطيها نبلاء من أنحاء إيطاليا، اختلفت أزياؤهم وراياتهم. كان من بينهم لورينزو وحارساه المبهوران بالاستقبال الكبير، ورفع هو رأسه في زهو رامقًا العامة بغرورٍ، محاولًا تناسي أنه نبيلٌ قروي لا يُشبه مَن يُحيطون به من نبلاء

لومبارديا وبنفينتو وروما.

وأخيرًا، انتهى الموكب، وتوقف رنين الأجراس. وحين ظن الناس أن مراسم الاستقبال انتهت، فوجئ الجميع بصوت الأبواق تعلو من فوق الأسوار مرة أخرى، لضيفٍ أخير آثر أن يدخل بمفرده. تقدمت فرقةٌ من المشاة، ترتدي دروعًا قديمة قصيرة، وصديريات من الصلب الخفيف، وتنورات جلدية سميكة، ولهم سيوفٌ قصيرةٌ تتدلى وخوذات فضية ذات عُرف قرمزي. صوت اصطكاك أقدامهم بالأرض طرق الآذان، وتقدمهم حاملو رايات صفراء وأخرى قرمزية، زينها رسم لنسرٍ مزدوج الرأس، ثم تبعهم اثنا عشر فارسًا مدرعًا، يتقدمهم البطريق نيكتاس مندوب بيزنطة. اتسعت أعين الناس لما رأوا من عرضٍ مبهر. أخذ الموكب طريقه إلى ساحة الكاتدرائية، بينما توقفت بوسط الطريق عربة كبيرة يجرها ثوران عظيمان، عُلق على مقدمتها مجسمٌ لنسرٍ ذهبي برأسين، وهي عربة الهبات والعطايا، عرفها العامة حين بدأ الجند بإلقاء العملات الذهبية وبعض قطع القماش. حالة من الهرج سادت الشارع، وبضع لحظات كانت تكفي لإفراغ الحمولة من الهبة البيزنطية. إنهم يحبون المال أكثر من حبهم للبابا.. كيف لا وهم من دفعوا رسوم الاستقبال في صورة ضرائب فُرضت عليهم من أجل أن يتم توحيد الجهود والتصدي للسراسنة الغزاة. لا بأس إذن من عطايا قليلة تسد الرمق.

تراص القديسون بهالاتهم الذهبية في جنبات القاعة، زجاج النوافذ يحمل صورهم الملونة، يرمقون بصمتٍ زوار القاعة التي أحاطتها أجنحة ملائكة تبحث عن سلام فقد أثره وسط الصخب، إذ إن مدرجاتها اكتظت بأحاديث جانبيةٍ بين النبلاء. ضحكات زائفة نبتَت من بذور المجاملة والتملق. أتى بعضهم للاجتماع، رغم اليقين بأن لا شيء جديدًا سيحدث، والبعض أتى للحفاظ على أملاكه. كان محور أحاديثهم عن غياب ممثلي نابولي وساليرنو، لم يحضروا الاجتماع لأنهم حلفاء السراسنة، كذلك بعض نبلاء كامبانيا، يدينون بالولاء للغزاة، يُفضلونهم على تسلط البابا والقوة البيزنطية. جلس لورينزو صامتًا، يتابع فقط دخول النبلاء، سلامهم وابتساماتهم، وأحاديث تمنى أن يشارك بها. لا يظهر عليه أنه أقل منهم، فعباءته السوداء وشعارها الذهبي، يفصحان أنه أحد رجال دوقية بنفينتو، لكنه هو من ترسخ بداخله أنه قروي يدير الحقول ويجمع الضرائب من أجل الدوق، هذا كل ما له، بينما هؤلاء يكنزون الذهب ويسكنون قصورًا فخمة، مليئةً بالعبيد والنبيذ، وتُحيط أفخاذ العذارى أجسادهم في فراشٍ وثيرٍ ليلًا. امتعض لتذكره زوجته إيلينا بشحومها الزائدة..

"هل تسمح لي بالجلوس هنا؟"

اعتدل لورينزو مفسحًا المجال لمحدثه:

- بالتأكيد.

ألقاها دون أن ينظر له، بينما مد الآخر يده:

- دوق ماركيزيو دي لابورتا اللومباردي.. من كابو.

اعتدل في سرعةٍ مادًّا يده للدوق. صافحه بحرارةٍ وقد زين وجهه بابتسامةٍ عريضةٍ:
أنا النبيل لورينزو.. من سان فيلي.

عقد ماركيزيو حاجبيْه في محاولةٍ لتذكر موقع "سان فيلي"، فيما عاجله لورينزو: إنها إحدى مقاطعات دوقية بنفينتو، وقد كانت من قبل تابعةً لإقليم لوكانيا، وذلك قبل قدوم السراسنة.

ابتسم الدوق، بينما أشار إليه أحد الحضور في الجهة الأخرى. حرك رأسه محييًا الرجل وهو يُحدث لورينزو:

- إنه الدوق كورتينا.. ممثل الملك لويس الثاني الكارولينجي ملك إيطاليا..

كان لورينزو يتابع حديث الدوق باهتمام بالغ، فها هو ذا يجلس بجانب شخصيةٍ مرموقةٍ، جميع من في القاعة يعرفونه ويلقون عليه التحيةَ. كانَ ماركيزيو ممثل لومبارديا في ذلك المجلس المصغر، رجلًا شارف على إتمام عقده الرابع، شعره البني اختلط به بعض البياض قرب فوديْه، لحيته قصيرة مشذبة، وعيناه السوداوان تمنحانه مزيدًا من الغموض والرهبة. آثر لورينزو الصمت على أن يفصح بشيء يجعله سخيفًا أو قليل الشأن، بينما أخذ الدوق يستطرد:

- اجتمعنا اليوم من أجل لا شيء..

أشار بيده ناحية الصفوف المقابلة، حيث انهمكت مجموعاتٌ من النبلاء في حديثٍ:

- إنهم فقط هنا من أجل مصالحهم الخاصة.. بعضهم يكره البابا ويميل للإمبراطور البيزنطي.. أو تعرف، أحترم قرار نبلاء نابولي بعدم الحضور.. كما تعلم، الهدنة بينهم وبين السراسنة تمنعهم من المجيء لمثل هذه الاجتماعات. أما هؤلاء.. فمنهم من يتاجر ويستثمر أمواله ويدين بالولاء للغزاة؛ ورغم ذلك جاؤوا إلى هنا.

امتقع وجه لورينزو وهو يتذكر ذلك الجريح في بيته. كان يستمع في سكونٍ لكلمات الدوق المحملة بالغرور والفهم الواضح لكل من حضر، ولكنه انتفض مع سؤال الأخير له:
- لماذا جئت إلى هنا سيد..؟

تلعثم وقد تعرَّق جبينه:

- لورينزو.. اسمي لورينزو سيدي..

ضحك الدوق، فيما أكمل لورينزو:

- جئتُ من أجل الدفاع عن أرضنا..

قاطعه الدوق بهدوءٍ:

- أنت من الجنوب.. أليس كذلك؟

- نعم.. نعم.

انحنى هامسًا بأذن لورينزو:

- إذن أنت في خط التماس مع البرابرة..

رد مسرعًا وهو يُحاول الثبات:

- هذا لا يعني أبدًا أنني على علاقة بهم.

ضجت القاعة بضحكات الدوق ماركيزيو، مما جعل الجميع يلتفت إلى حيث يجلس. انكمش لورينزو، وراحت عيناه تجولان بالوجوه في ريبٍ، فيما توقف الدوق عن ضحكاته:

- عذرًا.. لكنك أضحكتني.

كان قلب لورينزو ينتفض بعنفٍ. صمت أذناه عما يقول الدوق. فقط كان عقله هناك في سان فيلي. ماذا لو عرف الجميع بأمر العربي الجريح؟ سيكون الأمر سيئًا. عليه أن ينتهي من ذلك الاجتماع ويعود ليتخلص فورًا من ذلك الجريح، أو عساه الآن قد مات.. وتمنى لو أنه لم يأتِ إلى هنا قط.

مرَّ الوقت ببطء، حتى دخل إلى القاعة حاجبٌ، تقدم ليقف أسفل المنصة، وصاح معلنًا عن دخول الكاردينال. دلف بعده الكاردينال مرتديًا عباءة بيضاء طرزت بخيوطٍ ذهبيةٍ، معتمرًا قبعة طويلة من نفس اللون. صعد الدرج الخشبي متكئًا على صولجانه الكبير، ومن خلفه الدوق إديلكي صاحب بنفينتو، وهو رجلٌ قصير القامة عيناه الضيقتان تمتلئان بالزهو والغرور، كان يرفع رأسه محييًا الجلوس في تفاخر. تبعه البطريقِ البيزنطي نيكتاس، رجل طويل القامة عريض المنكبين صارم الوجه، يسير بخطى ثابتة، متأبطا خوذته اللامعة وعيناه تدوران في وجوه الحضور. جلس الثلاثة يتوسطهم الكاردينال، وتوقفت الهمهمات مع غلق الباب الضخم، فساد القاعة سكون الموتى. لحظاتٌ مرَّت، قبل أن يكسر الدوق إديلكي أمير بنفينتو الجمود الجاثم على القاعة، حيث نهض منحنيًا لرفيقيه على المنصة، ثم اعتدل رامقًا الحضور بنظرةٍ متفحصةٍ:

- في البدء، أرحب بقداسة الكاردينال أدريان مندوب الأملاك البابوية. كما أرحب بصديقي البطريق نيكتاس قائد جيوش الإمبراطورية البيزنطية. سعيد أن أرى رفقاء قدامى، وفخورٌ بتواجدكم جميعًا في دوقية بنفينتو، التي تصدت يومًا للغزو البربري. لقد ظلت تلك المدينة تحت حكم السراسنة لمدةٍ تقل عن السنوات العشر، استطعنا بعدها أن ننهي تواجدهم في الأنحاء، ليرجعوا خاسئين للجنوب، الذي ينتظر وحدتنا لتحريره من أيدي الغاصبين الوثنيين. لقد اجتمعنا هنا من أجل المسيحية، ومن أجل إيطاليا. ولقد اخترنا أن يُقام هذا الاجتماع في ضيافتنا، كبرهانٍ على مدى صدقنا. وإن دوقية بنفينتو لم تعد تدفع الجزية لهؤلاء البرابرة.. فاليوم هو إعلان فك ارتباطنا مع السراسنة ووقف الهدنة بيننا وبينهم.

أنهى كلماته بابتسامةٍ، أخفاها بخفض رأسه قليلًا. التصفيق والتعليقات الجانبية زامنت عودته لكرسيه، لينهض نيكتاس ممسكًا بطرف بردته الحمراء، ويتحرك بعيدًا عن مقعده في خيلاء، حتى توسط القاعة. شعره الأشيب المائل للصفرة، وابتسامته المصطنعة، إلى جانب عينيه الزرقاوين كبحرٍ عميقٍ كانوا محط أنظار الجميع. انتظر عودة الجميع للسكون التام قبل أن ينطق:

- جئنا إلى هنا من أجل الحرب، وليس من أجل المجاملات والأحاديث الفارغة وما يتبعها من ضحكاتٍ سخيفةٍ.. جئنا من أجل أن نُعيد هيبة روما، التي تدفع الجزية لقراصنة صقلية.

كانت كلماته قويةً مُهينةً، تنبع من شخصيته المتسلطة المغرورة. ورغم أنها حملت إهانةً للبابا الغائب، إلا إنها لامست في قلوبهم عزًّا بائدًا..

- سنعيد المدن التي سلبها منا السراسنة الوثنيون، سنوقف زحفهم البربري، وسنطردهم من إيطاليا وأوربا كلها. رؤوس قادتهم ستصبح زينة لأبواب منازلنا، وسنصنع من عظامهم جبالًا تشهد على انتقامنا.

تزامنت جملته الأخيرة مع قبضته التي ضربت الطاولة بعنفٍ، وهو يتابع:

- فلنترك خلافاتنا ونتوحد خلف الإمبراطور..

سرت همهماتٌ بين الصفوف.. البعض يرفض فكرة التوحد خلف الإمبراطور الأرثوذكسي، والبعض يتمنى أن يتوحد الجميع تحت راية النسر ذي الرأسين، فهو الأقوى في الوقت الحالي؛ وإن كان مُني بهزائم متتاليةٍ في البحر والبر إلا أنه ما زال قويًا، وما زالت القسطنطينية حصينة. تحولت بعض الهمهمات إلى صيحات استهجان، لم يبال بها الجنرال وهو يُكمل:

- فلننسَ خلافاتنا، ونتوحد من أجل دفع الخطر عن أراضينا. نحن مسيحيون مخلصون وإن اختلفت مذاهبنا. إن أردتم دحر الغزاة عن أراضيكم، فلتنضموا لنا، وتدينوا بالولاء لبيزنطة وإمبراطورها.

أنهى حديثه المقتضب عائدًا إلى كرسيه، رامقًا بطرف عينه الكاردينال، الذي حدَّثه ساخرًا:

- ما هكذا تكون القيادة!

احتقن وجه الجنرال.. فيما نهض الكاردينال رافعًا صولجانه الذهبي، والذي ما إن رآه الجميع حتى صمتوا للصليب. سار ببطءٍ، يجر عباءته البيضاء خلفه، وسرى صوته الهادئ بقلوبهم:

- لا يمكننا أن ننام بسلام وأطفالنا يُباعون بأسواق العبيد. الرب يرى تنازعنا وتفرقنا.. والعالم ممتلئ بالضجيج، فلا تكونوا مثل الدواب، يركل وينطح بعضنا البعض.. هل أنتم غاضبون من أحدٍ ما؟

لم يجرؤ أحدٌ على الرد، فأكمل:

- إن كان علينا أن نغضب، فلنغضب من أنفسنا جميعًا.. وعلينا أن نجيب على عدة أسئلة قبل هذا.. لماذا يُغير علينا البرابرة؟ لماذا تُهاجمنا قوات السراسنة؟ لماذا وقع الدمار والنهب؟ لقد أكلت جوارح السماء أجساد البشر.. هُدمت الكنائس وصار الوثنيون يحكمون مشارق الأرض ومغاربها.. أتعلمون لماذ؟ لأننا غارقون في الآثام، وأخذنا على عاتقنا محاربة بعضنا البعض بحثًا عن ألقاب وضيعات وقصور. ولهذا يجول السراسنة الكارهون لله في أراضينا.. يدمرون الحقول، وينهبون المدن، ويضرمون النيران في القرى والأديرة.. لقد انهزمت قوات بيزنطة في الشام وفي مصر وإفريقية.. وسرعان ما دخل السراسنة إلى فاندولسيا.. لم يوقفهم سوى الرب في بواتييه.. منح النصر للقديس شارل مارتل، الذي تصدى لتوغلهم نحو بلادنا. المسيح يفهم صراعنا من أجل الحياة.. يقدر ذلك، ويمنحنا المعاناة لنعود للكنيسة.. لنخضع جميعًا ونحني رؤوسنا للصليب.. نحن أخوة قبل الخلاف.. نحن أبناء الرب، مهما كانت التضحيات.. وليعم السلام علينا، يجب أن نعيد الأمان لبلادنا.. ولن يأتي الأمان مع زخم الآثام والضرائب الباهظة على الفقراء. لن تشعروا بالأمن، ما دام العدل غائبًا في مدنكم. طبقوا العدل، وارفعوا أمر الرب فوق رؤوسكم التي يجب أن تنحني خاضعة ذليلة. لنوحد جهودنا لمجابهة الكفار، علينا أن نزيل البغض من قلوبنا جميعًا.. وليعم الخير والسلام، يجب أن نفعل ما نعوض به هؤلاء اليتامى والجوعى..

أثارت كلماته عواطف النبلاء، بينما استهان بها البطريق الذي تمتم:

- لم يأت بجديدٍ عما قلته..

وهمس الدوق إديكلي:

- رجال الدين لهم تأثيرُ السحر يا صديقي.. كلماتهم أقوى من السيوف.

دار الكاردينال في الوجوه المنفعلة بكلماته مستطردًا بنبرةٍ قويةٍ:

- منذ فترةٍ ليست ببعيدةٍ سقطت مدن كابوا.. كونزا.. ليبوريا وأفيليانو. بيد كفار باري. لا تتوقف غاراتهم على تخوم بنفينتو. إن لم نوقف أميرهم الدموي ستسقط روما بأيديهم. ألا تستحيون أن تدفع روما الجزية إلى أغالبة صقلية؟!.. نحن مُحاطون بالأعداء من كل جانب، وعلينا أن نصل إلى حل يُنهي صراعاتنا قبل فوات الأوان.. اجعلوا كلمات الرب فوق رؤوسكم..

برقت عيناه ورفع صولجانه عاليًا، وصاح بصوتٍ هادرٍ:

- ولتعلموا أني ما جئتُ لألقي سلامًا.. لا بل سيفًا.

****

ساعاتٌ قضاها النبلاء في طرح وجهات نظرهم. الخوف من سيطرة البيزنطيين على مقاليد الأمور في إيطاليا هو ما يقلق الكاردينال، كما يقلق كل نبيلٍ على هذه الأرض؛ فالسيد الجديد سيكون مجرد جامع ضرائب آخر، والكاثوليكية ستكون مهددةً، والصراع بين البيزنطيين والكارولنجيين- الفرنجة- على وشك البدء أيضًا، فأحفاد شارلمانٍ قسَّموا إمبراطوريته المقدسة فيما بينهم، وعدوهم يملك البحر المتوسط، حتى صار بحيرةً عربيةً تجوبها أساطيل العباسيين شرقًا، ويُسيطر على طرق تجارتها الأغالبة أصحاب إفريقية وصقلية، والغرب وبحر الظلمات ملكية خاصة للأمويين بالأندلس..

وأخيرًا، جاء اقتراحُ الدوق ماركيزيو كحل مؤقتٍ لتوقيف تمدد الغزاة. فكل قريةٍ ومدينةٍ عليها تشكيل فرق مقاومة، تُهاجم الأنحاء التابعة والمتحالفة مع السراسنة، على أن يتواصلَ النبلاء مع من يثقون بهم من سكان المناطق الجنوبية في كالابيرا وكمبانيا، ويُكونون جماعاتٍ سريةً تُثير الفتن وتؤرق مضاجع جامعي الجزية، ويحصل النبلاء على حصتهم من الغنائم والسبي كمكافأة.

استفتى الدوق على اقتراحه. حين جاء الدور على لورينزو، كان زائغ العينين يتعرق، فقد تحدث منذ قليلٍ أحد نبلاء فوجيا عن معركةٍ قامت بين مجموعةٍ من رجاله وفرقةٍ عربيةٍ في محيط دوقية بنفينتو منذ أيام. أثنى على البابا والحضور، ثم صمت برهةً وأخذ نفسًا عميقًا:

- حسنًا.. قد لا أملك رؤية أو حلًّا للأمور السياسية بقدر فخامتكم، ولكني أتفق مع ما قاله الدوق ماركيزيو، وسأبذل ما في وسعي لتجهيز قوةٍ تستطيع صدَّ هجمات البرابرة الكفار.

أنهى كلماته المتيبسة وهمَّ بالجلوس، حين أتى صوتُ أحد النبلاء ساخرًا:

- لم تعرِّف نفسك بالشكل الصحيح أيها النبيل.

حرَّك لورينزو رأسه مبتسمًا في محاولةٍ لإخفاء توتره:

- عذرًا.. أنا النبيل لوريزنو دي سان فيلي.. تابع لبلاط دوقية بنفينتو المعظمة.

أشار إليه سيده الدوق إديلكي بالجلوس، وكان ممتعضًا مما فعله نبيل فوجيا، فقد وضعه في مأزقٍ أمام الجميع، إذ إنه لم يُخبره بأمر الفرقة العربية قبل الاجتماع، متعمدًا أن يمرغ أنفه في عقر داره. كيف سيبرر للكاردينال هذا الأمر؟.. كان يبحث عن مخرج لأزمته، وعيناه لا تفارقان نبيل فوجيا ذا الابتسامة الساخرة، حتى جاء المساء وانتهى الاجتماع.

أنارت المشاعل جنبات الحديقة وممرات القصر. الستائر الحمراء الجديدة زينت الأروقة ومدخل القاعة الكبيرة، حيث حفل العشاء للنبلاء. ضاع شدو القيثارات وسط الصخب، وتمايلت مجموعةٌ من الحسناوات في دلالٍ في ملابس تكشف أكثر مما تُخفي، يتبادلن الضحكات مع أصحاب الموائد العامرة بصنوفٍ شتى من الطعام، وكؤوس كلما فرغت مُلئت من أباريق تحملها جوارٍ رقائق كسا وجوههن الغنج. وسرعان ما لعب الخمر برؤوس النبلاء، فمنهم من يتأبط فتاة باحثًا عن إحدى الزوايا الخالية، وآخر يحتضن إحداهن، بينما تُطعمه أخرى حباتٍ من عنب.

- الكل غارقٌ فى الملذات والشهوات.

نطق بها الكاردينال أدريان، فيما جلس في غرفةٍ أعدت خصيصًا له، كثرت فيها شموع كافورية ذات رائحة زكية، وعلق على حائطها صليب ضخم يتوسطه مجسمٌ لجسد يسوع، الذي ضحى من أجل خطيئة البشر، وها هم أولاء يعودون مرة أخرى للخطايا. كان يجلس على ركبتيه مطأطأ الرأس، وخلفه يقف الدوق إديلكي، وإلى جانبه لورينزو، الذي أتى به الدوق ليفصح عما يُخفيه، على أن ينال الغفران. تلاشى قلقه بصلواتٍ سريعةٍ، تمتم بها قبل أن يقدمه الدوق للكاردينال:

- هذا النبيل لورينزو من قرية سان فيلي.. إنه مخلصٌ ودافع جيد لاحتياجات الكنيسة.. هباته لا تتوقف، وصلوات أهل قريته لا تنقطع.

انحنى لورينزو مقبلًا يد الكاردينال، الذي تجاوزه بنظرةٍ متفحصةٍ، والدوق يُكمل:

- لقد أخبرني منذ قليلٍ أنه أمسك بأسيرٍ عربي قرب قريته.. وأنه لم يشأ أن يُفصح بذلك الأمر أمام النبلاء..

كان لورينزو قد قرر بعد انتهاء الاجتماع أن يُخبر سيده بالأمر، فروى على مسامعه عن تصديه لمجموعةٍ من فرسان السراسنة، قد يكونون فروا من المعركة التي ذكرها النبيل، وكيف أنه ببسالةٍ استطاع أن يأسر أحدهم. طمح إلى إرضاء الدوق، الذي يبحث بدوره عن سبيل لإرضاء الكاردينال.. حلم أن يصبح بطلًا وأن يمنح وسامًا، أو على الأقل أن يقتطع أراضي جديدة، ولربما وجد نفسه دوقًا ويمنح من الأموال ما يستطيع به بناء حصنٍ كبيرٍ..

بجملٍ مقتضبةٍ متوترةٍ قص على مسامع الكاردينال قصةً اختلقها، محاولًا أن يبدو حقيقيًّا في وصف إقدامه وبطولته وهزيمته لقوات السراسنة. أنصت الكاردينال إليه باهتمام ثم منحه بعض الصلوات والتبريكات، قبل أن يطرق الباب، فيتوجه الدوق فاتحًا إياه بهدوءٍ. تغيرتْ ملامح وجهه مع الخبر

الآتي، ثم أغلق الباب برفقٍ وعاد إلى حيث يجلس الكاردينال أدريان، الذي أومأ برأسه في إشارةٍ ليفصح الدوق بما في سريرته، فأخبره في وجلٍ:

- سيدي، لقد مضى القديس نيقولا إلى الملكوت.

جثم الصمتُ على صدورهم.. وتوقف صوت العزف خارج الغرفة. حاول لورينزو إظهار الأسى لموت البابا، فيما كان الدوق ينتظر رد فعل الكاردينال، الذي كانت عيناه معلقتين بالصليب المعلق على الحائط، وجسد المسيح الذي يعكس ضوء شموع الغرفة. برهة من صمت، نطق بعدها موجهًا حديثه إلى لورينزو:

- اذهب وائتِ لي بالأسير..

قالها وهو ينهض مشيرًا للدوق إديلكي متابعًا: امنحه فرقةً من فرسانك.. وليُحمل الأسير إلى روما.

تناول صولجانه الذهبي، فيما أسرع لورينزو لمساعدته في ارتداء عباءته السوداء، أتبعها بلف حزامٍ أحمر قانٍ حول وسطه. كان عقل الكاردينال يطوي المكان والزمان إلى روما، حيث سيتجمع الكرادلةً لاختيار البابا الجديد.

****

تقلبت بالفراش، وأزاحت خصلات شعرها، وهي تسترجع حديث كاراس عن صقلية. لم يخطر ببالها يومًا أن تُجالس عربيًّا وتتحدث معه ببعض كلماتٍ من لغته.. وأن ترى صلاته وتعبُّده، من خلال شق بباب الغرفة، بعد أن ساعده عمها في الاغتسال الذي أصر عليه. المسلمون يتطهرون بالماء دومًا قبل صلاتهم، كما فهمت. لقد تحسن كثيرًا واسترد كثيرًا من عافيته، ولكنه ما زال يتحاشى النظر إليها، ويجول بعينيْه بعيدًا ينشغل بتفحص أي شيء، أو يخفض بصره للأرض، رغم أنه يُعاملها بلطف. التفتت إلى المنضدة بجوارها، وأخذت مرآتها الصغيرة تنظر فيها إلى وجهها ولم تزل على تساؤلها حتى خلدت للنوم.

في منزل كاراس، كان سَودان يقيم ليله. لقد استعاد عقله الوعي جيدًا، وحدد اتجاه القبلة عن طريق النجوم في الليلة الماضية. بحارٌ هو قبل أن يكون فارسًا، قضى جزءًا من حياته في بالريمو حيث الميناء ودار صناعة السفن. أنهى صلاته، ثم أوى إلى الفراش يبحر في ذاكرته. وجوهٌ عديدةٌ مرَّت به، قبل أن يتوقف كثيرًا امام وجه أبيه. كان مبتسمًا كما عهده. قُتل أبوه مدافعًا عن فاتح باري، الأمير خلفون، فاستقبل الأمير ابن الشهيد ومنحه ثقته. كان يرى فيه الكثير من صفات أبيه الراحل، فأوكل لأبي المغوار الإفريقي رعايته وتعليمه كافة أمور الحرب والحكم. كان يتمتع بالقدر الكافي من النبوغ لتعلم الحكمة من القاضي، الذي كثيرًا ما كان يُعاقبه، فيتقبل الأمر ومشقته، فلا يبخل القاضي عليه بالثناء. تدرب بالركض على شاطئ باري، والسباحة في الخليج المتجمد، وفي دروس الفروسية والمبارزة تفوق على أقرانه. وحين أتم حفظ القرآن، مُنح مُهرةً من الأمير مفرق بن سلام، أسماها الهجان لبياضها الشديد. كانت فرسًا رشيقةً، كبرت على يديْه، ومنحها اهتمامه ورعايته. فَهِم بعد ذلك أن هذه الهدية كانت الطريق لهديةٍ أخرى، فكما يقول أبو المغوار إن النساء تحتاج من يروضهن كما تروَّض الخيل؛ فكانت الهدية سليمة ابنة القاضي الصغرى، زوجة صالحة، ملأت حياته بهجة. كان رقيقًا معها، وكانت تبجله وتحبه، وأضاءت حياته بطفلٍ كبدر التمام، ولكن سرعان ما انطفأ الضوء.

كان كلب سباستيان الحطاب يتنعم بقسطٍ من دفء شمس الظهيرة، حين ألقمه العجوز كاراس حجرًا، جعله يقفز عن مدخل الحظيرة. كان قد زمجر على سَودان يمنعه من الدخول، وربما أثاره صهيل الفرس بالداخل اشتمت صاحبها. أطلت ماريا من شباكها تستطلع سبب الضوضاء، فرأتهما، فنزلت مسرعةً تتبعهما إلى الحظيرة؛ ولكنها توقفت على عتبتها أمام مشهدٍ من أسطورة يتجسد أمام عينيها.. الفرس تصهل وتثب لاستقبال صاحبها، وتقاوم رباطها لتركض نحوه. حث خطاه تجاهها، وأمسك بلجامها محتضنًا عنقها. كان باسم الثغر سعيدًا، بينما كانت زفراتها تقترن بصهيلٍ خافتٍ. انتصبت أذناها وراحت تضرب الأرض بقدميها الأماميتين كأنها ترقص.. كانا عاشقين تلاقيا بعد غياب.

- مَن جدل لك الضفائر يا جميلتي الجامحة؟

داعب خطم الفرس المبتهجة، موجهًا حديثه لماريا:

- شكرًا على اعتنائك بها.

توردت وجنتاها خجلًا، وضاعت الحروفُ في طريقها لشفتيها الورديتين المرتعشتين. بدا ارتباكها جليًّا، فشغلت أصابعها المرتعشة بخصلات شعرها الكستنائي تسوِّيها. أضاف كاراس يريد أن يسرَّها ويشكر لها مجهودها الكبير:

- إن الجميلات يعشقن كل جميل، وهكذا ماريا.

لم تكن تعتاد هذه الجرعة المضاعفة من الإطراء، فأحست بحرارةٍ تغزوها، وتلعثمت خجلًا..

- سأذهب لأرى أمي.. اسمحوا لي!

هرعت خارج الحظيرة، ووقفت تستند للجدار بكلتا يديْها، عساه يحمل عنها بعض ما ألمَّ بها من خطب. أغمضت عينيْها وهي تتذكر عينيْه الواسعتيْن.. هوة من الغموض الآسر. إنه مهذبٌ، لم يلتهم تفاصيل جسدها كما يفعل غيره من أقران أخيها وحتى زوار والدها. بريقُ ابتسامته محا ذكرى نظرات الرجال المقززة لها. حاولت أن تأخذ شهيقًا ثم زفيرًا بطيئيْن عساها تهدأ قليلًا، ثم دارت حول الحظيرة، ونظرت من كوةٍ صغيرةٍ إلى حيث ما زال سَودان يُلاعب فرسه البيضاء. كان يمرر راحته على ظهرها برفقٍ بينما يتحدث مع كاراس، والفرس تُحرك رأسها نحوه كلما ربت على عنقها. رقته في مداعبة الفرس غمرت قلبها بنشوةٍ جديدةٍ عليها. لوهلةٍ، أحست أنها تحسدها، ولكن سرعان ما سخرت من نفسها، كيف لها أن تحسد حيوانًا على رفق صاحبه!

أخذ كاراس رفيقه ليتجولا في القرية. منحه كاراس بعض ملابسه.. ضيقة بعض الشيء، فوشت بقوامه الممشوق. كانا يسيران ببطءٍ، هذا لشيخوخته، وذاك مغالبًا جرحهٍ. لم يكن سَودان معتادًا السير بين العامة دون عمامته. منح الوجوه البائسة التي تراقبه ابتسامة هادئة، قابلتها الأعين بذهول أن أحد السراسنة الوثنيين يسير بينهم. توقف الأطفال عن اللعب، وألقوا ما في أيديهم من عصي وحجارة، ركضوا إلى أحضان أمهاتهم، وسكن كل شيء. لقد سمع هؤلاء القرويون عن السراسنة قصصًا عديدة، ولكنهم لم يروهم، فمن ذهب من شباب القرية للحرب لم يعد. فقط كاراس وحده من عاد، ليقص على مسامعهم قصصًا مختلفة عمَّا صدقوه من عظات الأب ليو، التي يؤازرها غياب من ذهبوا للحرب إلى غير رجعةٍ.

تحفز الناسُ حين توقف الرفيقان وسط الأغراض المبعثرة، حيث كان يلعب الأطفال. انحنى سَودان ليلتقط دمية من الصوف المحشو بالقش، ذكرته بحصانه الخشبي الصغير. تأمل الدمية المتسخة، قبل أن يدور بعينه حتى توقف عند طفلةٍ صغيرةٍ تختبئ خلف جدار أحد الأكواخ، تُراقب دميتها في خوفٍ، تنتظر اللحظة التي سيقضم فيها الغول صديقتها الشعثاء. أمسك بالدمية ومد يده بها ناحيتها.. لم يلتهمها، ولم تذهب هي له. كانت خائفة، يكاد يسمع صوت أنفاسها وصدرها يعلو ويهبط وعينها تترقرق في نصف وجهها البادي من خلف الجدار. رفع يده الأخرى قائلًا باللاتينية:

- الأميرات لا يخفن.. تعالي خذي لُعبتك!

في ترددٍ خرجت الفتاة من مخبئها، ثم أسرعت بخطوتها دون أن تُبالي بشهقات النسوة وارتياعهن، فهدفها يستحق أن تواجه الوَحش. أشار إليها:

- أهذه العروس لك؟

أومأت الفتاة ذات العينين الواسعتين والشعر الأشقر المجدول خلف ظهرها، وأمام مرأى ومسمع من الجميع التقطت الدمية من يد سَودان، الذي حيَّاها برأسه في تبجيلٍ لها قائلًا بود: تفضلي أيتها الأميرة..

ابتسمت في مرحٍ وهي تحتضن دميتها، فبادلها الابتسام وسألها: ما اسمك؟

أجابت الفتاة ببراءةٍ: كاثرينا.

مع آخر حروف اسمها، رددت جنبات القرية صراخًا مدويًا، جعل سَودان يلتفت إلى مصدر الصوت كما فعل الجميع. كانت امرأة شعثاء شاحبة الوجه رثة الملابس، تركض ناحيته ملتاعة، وقد أفسح لها كاراس الطريق، ما إن رأتها الطفلة حتى صاحت: أمي.

جذبتها بقوةٍ، واحتضنتها وعيناها ترمقان سَودان بمزيجٍ من خوفٍ ومقتٍ، وأخذت تتفحصها بلهفةٍ..

- هل أنت بخير صغيرتي؟

ضحكت الصغيرة وهي تشير ناحية سَودان هامسةً:

- لقد قال إني أميرة يا أمي..

أدارت المرأة وجهها، لترمي سَودان بنظرةٍ سريعةٍ، قبل أن تترك الساحة وتمضي حاملةً طفلتها. ربت كاراس على ظهر سَودان، الذي كان لا يزال مقرفصًا في مكانه:

- هيا بنا؛ كفاك اليوم هذا الجهد، فما زال جرحك لم يلتئم.

****

دار كلب الحطاب عدة مراتٍ حول بيت كاراس، تجذبه رائحة الشواء المنبعثة داخل المنزل. تصاعدت الأبخرة من قدر الطعام المُعلق بموقدٍ حجري، وجلس الطبيبُ قرب النافذة يُطالع بعض الرقع الجلدية،

فيما كانت ماريا تَعد لحم الأوز المشوي على طريقة سَودان، الذي أصر على أن يُساعدها ويمنح للطعام مذاقًا جديدًا. ذبح الأوزة حسب شريعته، فسال دمها يُخلي لحمها من الضرر، ثم قام بتنظيفها وطهوها بنفسه. لم تكن تتوقع أن يكون طباخًا ماهرًا، فالرجال لا يطهون إلا مضطرين، وقد لا يطهون طوال حياتهم. أما سَودان، فقد أضاف قليلًا من التوابل والريحان لشرائح اللحم الأبيض مع زيت الزيتون، وقام بتقليبها على صفيحة الشواء، مما جعل البيت يضج بالرائحة الشهية. إنه مختلفٌ عن بقية الرجال، وابتسامته لا تفارق وجهه وصوته هادئ رغم حزمه الواضح، وينشر في المحيط بهجة لا تعرف أسبابها.

- ماريا!

انتبهت لاسمها كأنها أول مرة تسمعه. التفتت إليه، فتلاقت عيناها بعينين كأنهما هوة لا قرار لها، جميلتين، سوادهما نقي عصف بكيانها.

- يجب ألا تتركي الحساء حتى يَغلي.

انتشلتها جملته من بئر عينيه، ووجد الخجل في وجنتيْها مرتعًا، فالتفتت ترفع قِدر المرق المكتظ بقطع الخضار عن النار، وأخذته إلى الطاولة الجانبية في سرعةٍ، لتحاول إخفاء ما حل بها. كان يوليها ظهره، منشغلًا بنقل قطع اللحم إلى طبقٍ كبيرٍ، فتمنت ألا يكون قد شعر بما حل بها، من فوضى عمت رأسها، وأسئلة تطرح وعقل يبحث عن إجاباتٍ. سألته باللاتينية:

- أتطبخ مع زوجتك في منزلك؟

توقف سَودان عن تقطيع ثمرة اللفت في يده، وتوترت أصابعه على السكين، وشعر بغصةٍ تسد مجرى الهواء في حلقه الذي جف، فعقد لسانه. أحست أنه لم يكن لها أن تسأل عن مثل تلك الأمور، وكادت أن تعتذر، لكن جاء صوته العميق يُخبرها: ماتت زوجتي منذ زمنٍ بعيدٍ.

ألقى جملته، وسكب دلو الماء مُخمدًا النار. لحظاتٌ مرَّت قبل أن يلتفت إلى ماريا، حاملًا طبقيْ الأوز المشوي، والتقت عيناهما مرةً أخرى. احتوته عيناها الخضراوان كمروج كالابيرا. لم تترفق به، بل جذبته إلى وديان خضراء شاسعة يقفان وحدهما بها. انتبه لصوتها عذبًا، يمنحه اعتذارًا رقيقًا عن سؤالها الذي كان قد نسي تفاصيله. حاولت الهرب مما ألَمَّ بها من رجفةٍ، وبصوتٍ مرتعشٍ لا يكاد يُسمَع سألته:

- ألن نأكل؟

أنقذه صوتُ كاراس يهتف: قادمون. حث الخطى نحو المائدة، بينما قلَّب كاراس نظراته بينهما، دون تعليق. حملت ماريا الخبز وطبق الحساء، واتجهت إلى حيث يجلسان. تشابكت أصابع ماريا مع عمها، الذي مدَّ يده بدوره ناحية سَودان، دار بعينيْه في وجهيهما لا يفهم ما يُريدان، فباغتته ماريا تُلامس راحته الخشنة بأناملها الرقيقة، فارتجف وكاد أن يسحب يده. أغمضت عينيْها وهي تشعر برجفته فتتزايد ضربات قلبها، وتُحاول التركيز فيما تتلو:

- باركنا يا رب، وبارك هذا الطعام الذي نتناوله، من جودك.. وارزق الجائع والفقير.. آمين.

وجد نفسه يردد معهما: آمين، بينما أفلتت ماريا يده وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة رضا هادئة،

لم تفارق مخيلته لأيام. مضوا يأكلون الطعام وقد حل على مجلسهم الصفاء.. كاراس يأكل بنهم واستمتاعٍ، وهي تختلَسُ النظرات لسَودان، وسَودان يتظاهر بانشغاله بالطعام، يحاول مقاومةً الاعترافً بالنشوة التي تركتها في راحة يده، ويلوم نفسه على نظرته لها، راحمًا ذاته من التأنيب بأنها كانت الأولى له، ولذا عليه أن يتحاشى الثانية.

عادت ماريا لمنزلها وصعدت إلى غرفتها غير مباليةٍ بتقريعٍ أمها. لن تُعكر صفو خيالها بشجارٍ مسائي حول إطعام الدجاجات. بدلت ملابسها، وما زال صوتُ أمها يأتيها من الخارج، تندب حظًها في أولادها، فالبنت لا تُساعدها في أعمال المنزل، وقد قضت النهار بأكمله في منزل عمها، أما إليساندرو فلا يكاد تراه في البيت، وإن عاد سيلقي بجسده في أقرب مكانٍ للنوم. أخذت ماريا تقلب الحصان الخشبي في يدها، وقررت أن تُعيده لصاحبه في الصباح. هذه الليلة سيبقى معها، لتقص عليه حكاية صاحبهِ، وكيف خفق قلبها بقوةٍ حين لامست يده، وسرى الدفء إلى روحها من يده الغليظة. ابتسمت معترفةً أنها كانت مشاغبةً بأكثر من عادتها كثيرًا، فلم تمنحه فرصةً للتراجع حين قبضت على أصابعه عامدةً. حدثت عقلها ضاحكةً أن ما فعلته ليس سوى صلاة الطعام، ولهذا أمسكت يده، فليس عليه تأنيبها.

أما سَودان، فقد ظل بعد صلاة أطال في ختامها، يلوم نفسه على ما فعل خلال اليوم.. نظراته التي اختلسها، وملامستها ليده. حارت نفسه بين اللوم وبين سريان جمالها إلى روحه مسترجعًا خضرة عينيها وابتسامة الرضا التي توَّجت مشهدها بعد أن تركت يده. جذب نفسه من التفكير فيها بالتفكير في واقع حقيقته كأمير فارس، عليه أن يرحل سريعًا عن تلك القرية ومكث في حيرته حتى داهمه النوم.

****

صُمت أذنا ماريا عن شجارٍ صباحي معتادٍ بين إليساندرو نصف النائم وأمه، وتركت عقلها يشرد في مكانٍ آخر، حيث لامست يدها ليلة أمس ببيت عمها كاراس ضيفهم الغريب المثير الفضول، هل كل السراسنة مثله، أم هو حالة فريدة؟

عكست صفحة البحيرة وجه شمس الظهيرة الخالية من الدفء، واختلطت زقزقات العصافير بهديل يمامات تنقلن بين أغصان غابة الصنوبر، مع خرير شلالٍ صغيرٍ يمنح البحيرة والمكان حياة. رغم برودة المياه الداكنة، فإن جسد سَودان اجتاز مرحلة الألم. داعبَ البَرد بشرته، فتدفقت الدماء الباردة في عروقه، فأغمض عينيه وترك جسده يطفو فوق المياه، التي حملته كقربانٍ للسماء. أرخى لجام عقله الجامح، ليذهب إلى حيث كان يستلقى واضعًا رأسه في حِجر أمه، يتابع بعينيْه الصغيرتيْن أسرابًا من طيرٍ تسبحُ فى الأفق، ويسألها ببراءةٍ:

- هل ترى الطيور الله يا أمي؟

ابتسمت وهي تُداعب خصلات شعره الفاحم:

- نعم يا سَودان.. كل مخلوقات الله تراه وتسبحه وتحمده.

قاطعها بسرعةٍ:

- أنا أصلي وأسبح أيضًا.. وأنظر للسماء ولا أرى الله.

- يا بُني، إن كنت لا تراه فهو يراك، ويعلم ما في سرك وما تُخفيه، إنه هنا وهنا..

أشارت إلى قلبه وعقله، وتركته في حيرةٍ لبرهةٍ قبل أن تُكمل:

- جائزة المؤمن أن يرى وجه الله في الجنة.. اسعَ لها!

اعتدل جالسًا وهو ينظر في وجهها:

- هل تدخل الطيور الجنة؟

ضحكت أمه قبل أن تقول:

- نعم يا سَودان.. الجنة بها طيورٌ أجمل من طيور الدنيا.. تحلق فوق قصور من فضة على شواطئ رملها وحصاها من اللؤلؤ والزبرجد.. وأنهار عذبة....

قاطعها ببراءة وعيناه تزدادان اتساعًا:

- أريد أن أكون طيرًا في الجنة.

احتضنته بحنانٍ وفرحةٍ:

- لماذا يا طيري الصغير؟

- لأحلق في سماء الجنة.

"لأحلق في سماء الجنة".. تمتم بها سَودان وهو يفتح عينيه مطيلًا النظر في السماء. السحب كقطع ثلج صغيرة ترتحل في بطء جنوبًا، ناحية باري.. تجدر به العودة، حتى وإن لم يتم شفاؤه، فوجوده في هذه القرية خطر، عليه العودة لحياته وأهله. حمل همَّ إخبار زوجة شعيب بما صار لزوجها.. الحربُ لا ترحم المحبين. سبح عائدًا للشاطئ، حاملًا حجر الذكريات على قلبه. ألم جرحه عاد مرةً أخرى، حين أسرعت ذراعاه في اختراق الماء. أحس كأن شيئًا يسحبه لأسفل، فصار يضرب الماء أكثر بذراعيْه وقدميْه. يشعر بأن عليه أن يسبح إلى ما لا نهاية، وعيناه تلمحان السفينة المحترقة.. تخور قواه.. يتوقف. لامست قدماه حصى البحيرة، فوقف متحسسًا خطواته يُحاول ضبط أنفاسه، واستدار في بطءٍ ليرمق صفحة البحيرة السوداء.. لا أثر لسفينة الفراق المشتعلة، ليست سوى ذكرى بائسة لا تنفك تُطارده.

أسند ظهره إلى سنديانة وحيدةٍ بين جيرانها من الصنوبر، تمد أطراف جذورها كثعابين ترتوي من مياه البركة. تفقد جرحه النظيف بفعل المياه الباردة. تحسس القطب البارزة برفقٍ.. لو لم تأتِ به الهجان إلى هذه الأنحاء، لقضى نحبه على ظهرها. لقد جيء به إلى هنا لشيء ما، هكذا دومًا ترتيبات القدر. سيشكر الطبيب العجوز وابنة أخيه الحسناء ويرحل في صمتٍ، قبل أن تنكشف كذبته. لربما أرسل إليهما هدية بعد عودته لباري. أمسك عودًا جافًا وأخذ يعبث به في رمال الشاطئ، قبل أن يخط شيئًا، انتهى من رسمه، وتأمله لحظات قبل أن يردده هامسًا. ومع انتهاء حروفه، فاجأه صوتٌ من

خلفه:

- ماذا يعني ذلك النقش؟

كانت ماريا قد أتت متسللة عبر الآجام لترى ماذا يفعل. دفعها خجلها للتراجع، حين رأته يخرج من الماء عاري الصدر، لكن ثبتها فضولها بمكانها لتتعرف أكثر على ما يفعل. أحست بتوتره ومحاولته إخفاء انفعال ملامحه وهو يُجيب:

- لا شيء، مجرد رسم..

اقتربت أكثر لتتحقق من رسمته:

- إنها كلمة على ما يبدو.

- هذا اسمي.

لسانه تحدث بالصدق بتلقائيةٍ لم يراجعها عقله.. أفسح يده لترى نقشه وهو يعلم أنها تتحدث العربية قليلًا، ولكن لا تقرأها. انحنت تتحسس بأصابعها مجرى الحروف على الرمال:

- عبد الله.. أليس كذلك.

أومأ موافقًا. كانت عيناها تفيضان بالبهجة، وقفت أمامه تشير لاسمه المنقوش بالرمل:

- هل تعلمني كيف أكتب اسمي أيضًا؟

رد في تردد:

- نعم.. لِم لا؟

انحنى ليخط اسمها بحروفٍ واضحةٍ. تابعته ببصرها، فيما كان ينطق كل حرف يكتبه. شعرت بالحرارة تلفح قلبها كلما مرَّ لحرفٍ آخر. حاولت مغالبة فضولها، لكن لسانها انطلق بسؤالٍ من فيض أسئلة تجري بدمائها منذ يوم رأته:

- عبد الله.. هل تُعاملون نساءكم هكذا؟

اعتدل عاقدًا حاجبيْه:

- كيف؟

تطلعت بوجهه:

- أقصد، لماذا تتحاشى النظر لي دومًا؟

ولَّى سَودان وجهه للبحيرة. ظل صامتًا لبرهة قبل أن يقول:

- لقد أمرنا الله أن نغض بصرنا عما ليس لنا.

تأملت تفاصيل وجهه في صمتٍ، ثم سألته:

- هل كل السراسنة مثلك؟

ضحك سَودان حتى ظهرت نواجذه. هذه المرة الأولى التي تراه يضحك فيها. قالت بصوتٍ شابه القلق:

- هل قلتُ شيئًا خاطئًا؟

لوَّح سَودان بيده، بعد أن ذهبت عنه نوبة الضحك:

- عذرًا.. لم أقصد ذلك. ولكن الاسم الذي ذكرتِه يثير عندي حالة من الضحك، فكلما قابلنا مجموعةً من الناس يحكون لنا قصصًا مرعبة عن السراسنة، وحين يعرفون أننا المقصودون بالاسم يتعجبون من الأمر..

ألقى العصا بعيدًا وهو يستطرد:

- ليس هناك شيء اسمه سراسنة، ولا يوجد قوم بهذا الاسم، لا نعرف من هم هؤلاء السراسنة.

نطق بالكلمة الأخيرة وهو يرفع يديه في الهواء، في حركةٍ كالتي يُخيف بها الكبار أطفالهم. ضحكت من فعلته، فيما أكمل هو:

- ها أنا ذا أمامك.. هل لي أذنان كبيرتان وشَعر أشعث يمتلئ بالحشرات؟ هل هناك لُعابٌ يسيل من فمٍ تزاحمت فيه الأنياب وانبعثت منه روائح كريهة؟!

أحست بالخجل من أسئلته. كانت تسير إلى جواره على شاطئ البحيرة، حين باغتته بسؤالٍ آخر:

- إذن ماذا تُسمون أنفسكم؟

- نحن المسلمون.. ولقد بُعث فينا نبي تمَّم لنا مكارم الأخلاق، فسرنا على دربه ودرب أصحابه، نفتح البلدان المقهورة ونفشي السلام، والأهم أن نقيم العدل بين الناس.. ألم يحكِ لك عمك كاراس شيئًا؟

- لقد قص الكثير.. هل نساؤكم جميلات؟

كانت كطفلةٍ لا تكف عن السؤال، وقد وجدت متعتها في إجاباته. طال الحديث بينهما، وقص عليها كل ما تريد معرفته وأكثر. لم تشعر بالوقت في صحبته. قبضت أصابعها على الحصان الخشبي، لم تره إياه بعد. كانت تنتظر لحظةً سانحة لتعيده له. غزلت أشعة الشمس خيوطًا من الضوء تخللت ظلال الغابة. كان يُحاول بكل السبل الحفاظ على المسافات بينهما، لكن لم يكن الشيطان بحاجةٍ ليكون ثالثهما، فنفسه كانت تحثه على الاقتراب منها أكثر. يغض طرفه عنها، ولكن تجذبه كزهرةٍ تفوح بعطرها الفريد، فيما يملأ هو الدنيا بطنينٍ لا يتوقف. لم يكن يعلم أشيطان يُراوده عنها أم عقله.. جمالها الهادئ بعث في قلبه نبضاتٍ مختلفة، وفضولها سيلتقي حتمًا بجموحه. رغم جرأتها المختلفة عن بنات قومه، تزينت بحياءٍ جميل. اختلس النظرات لثغرها المبتسم، وأيقن بأن هناك قصة تُحاك بينهما، ولعل الهجان أتت به هنا لتشرق بدايتها.

جلست على صخرةٍ كبيرةٍ، ولملمت طرف ثوبها الأخضر، وأخذت تَداعب المياه بأطراف أصابعها، فيما كان يرجم هو سطح البحيرة بسبع حصوات:

- عبد الله، أهذا الحصان لك؟

قالتها وهي تفتح كفها لتكشفه لعينيه. تجلت السعادة على وجهه وفي نبرته..

- لقد ظننت أني أضعته يوم إصابتي!

تبادلا النظرات الباشَّة، قبل أن تقول هي:

- لقد قلت لك من قبل إن أغراضك محفوظة بأمان.. أهو مجسمٌ صغيرٌ لفرسك البيضاء؟ هل اسمها روما؟

- لا ليس اسمها روما.. بل الهجان.

رددت اسمها مراتٍ، تلعثمت حتى خرج بالنطق الصحيح. لم ينتظر أسئلتها، أخبرها أن الهجان تعني شديدةِ البياض، وعن كلمة روما المنقوشة على الحصان، أخبرها أنه يتمنى زيارة المدينة. منحها إجابة تكفي لجعلها تتوقف عن طرح الأسئلة، وفي قرارة نفسه كانت تتجسد له أسوار روما العالية بتلالها السبع تُهيمن على فراغ الغابة، حيث يجلس برفقتها. كان ينوي أن يكون ذلك الحصان الخشبي لطفله.. ولكن لا أولاد لديه ولا زوجة. مدت يدها به إليه، فرفع راحته أمامها:

- لا بأس، احتفظي به!

اتسعت عينا ماريا غير مصدقةٍ. لم يهدها أحدٌ شيئًا من قبل سوى أبيها. قبضت على الدمية بسعادةٍ بالغةٍ، نهضت وقد اعتراها شعورٌ غريبٌ، خليط من الخجل والتوتر والبهجة:

- سأعود للمنزل الآن..

تركته مبتعدةً تضم كفها على هديته. كفراشة خرجت للتو من شرنقتها، راحت ماريا تتقافز فرحةً بين العُشبِ النضر. لقد حظيت برفقته وحدهما، تحدثت معه كثيرًا، حتى أوشكت الشمس على الرحيل شاهدةً على نقاء لقائهما. كانت عيناه تتابعانها رغم إرادته. أهداها الحصان الخشبي كعرفان بما قدمته له من رعاية، وقريبًا سيرحل وينساها بسرعة، كما فوجئ بها تقتحم حياته، أو ربما هو من ألقى به القدر لقريتها، ليختبر إيمانه وقدرته على الصمود أمام جمالها.. جميلة هي كظبية في غابةٍ خريفيةٍ، ولها رونق خاص كزهرةٍ نبتت على سفح من جلمود صخر، زاحمت أفكاره ووجدت سبيلها إلى روحه، كجدول ماء بارد يشق صحراء جافة.

****

طارد كلب الحطاب هرًّا صغيرًا، هرب منه وتسلق شجرة بالقرب من منزل كاراس. وصل الصغير إلى الأفرع المرتفعة، وجلس ينظر إلى من ينبح ويتقافز بالأسفل غير مبالٍ، وثب الكلب، وضرب بمخالبه جذع الشجرة وارتفع نباحه مغتاظًا، فترك العجوز شفرةً كان يهذب بها شاربه، وأطل من النافذة

غاضبًا، بعدما رأى شجرته قد تعرضت للأذى إثر مخالب الكلب، فصاح ملوحًا بيديه: اذهب بعيدًا أيها الغبي..

رماه الكلب بنظرةٍ سريعةٍ وعاد لزمجرته، فيما كان القط يقفز من أحد الفروع لسطح المنزل. دار الكلب حول نفسه، قبل أن يرفع ذيله ويتابع تحرك غريمه الذي يسير منتصرًا على حافة السطح. فتح كاراس الباب صائحًا في الكلب، الذي ركض مبتعدًا مع رؤيته. تفحص الشجرةَ وقد تملكه بغضُ ذلك الكلب الذي لا جدوى منه، يستأسد فقط على الضعفاء ويختفي خلال الليل خوفًا من قطيع ذئاب يجوب الغابة. استدار عائدًا، فوقعت عيناه على سَودان قادمًا من ناحية البحيرة، يتخطى سياج القرية ملقيًا التحية على بعض المارة، لكن لم يرد أحدهم، فما زالت صدورهم تفيض بالتوجس والريبة منه. اقترب عاقدًا حاجبيْه مدقق النظر في وجه كاراس الذي تعجب من تعابير وجهه:

- ماذا هناك؟

ضحك وهو يشير لشاربه، مما جعله يتحسسه. جحظت عيناه، قبل أن ينفجر بالضحك ويسرع للداخل ليكمل حلق شاربه. تبعه سَودان للداخل:

- ما الذي حدث لشاربك؟..

أمسك كاراس الشفرة ليعاود ما كان قد بدأه:

- الكلب اللعين..

قاطعه سَودان مازحًا:

- أأكله الكلب؟

رماه بنظرةٍ صارمةٍ قبل أن يقول:

- كيف كان الوقت قرب البحيرة؟ استمتعت؟

جلس سَودان قرب المنضدة:

- نعم، المكان رائع..

شرد قليلًا، قبل أن يُكمل:

- أظن أن عليَّ الرحيل.

توقف كاراس عن حف ما تبقى من شاربه، واستدار متفحصًا إياه:

- ولكن لم يشف جرحك بعد.

اكتفى سَودان بالصمت ردًّا. عمَّ الصمت، فنهض متجهًا حيث فراشه يأوي إليه، وعقله هناك على شاطئ البحيرة مع تلك الفاتنة الرومية. حاول إزاحتها عن مخيلته مرارًا ولكن لا مفر. أغمض عينيه وراح يسترجع حديثهما. منذ وفاة زوجته لم يمس امرأة. تعجب الكثير من قادته ورجال الديوان

عندما أعتق رقاب ملكات يمينه. منح وقته لإدارة شئون إمارته، التي تتوسع يومًا بعد يوم، يُحاول أن ينشر العدل ويزيح الظلم عن العباد. راوده سؤالٌ حائرٌ، أيبحث عن المجد في الأرض والسَّماء من أجل قضيته ودينه، أم من أجل نفسه؟ من أجل الانتقام لزوجته وطفله، أم ليخلد اسمه بحروفٍ من ذهبٍ في كتب التاريخ، لتروى قصص تحقيقه لنبوءة فتح رومية على يديْه. تساءل كثيرًا عن جدوى ما يفعله، إن لم يكن له ابن يحمل اسمه ويُكمل المسيرة.. خاض الكثير من الحروب، وحصل على غنائم لا حصر لها.. لم يكره أحدًا على الدخول في الدين.. صفح عن قرى ومدن كاملة.. لم يعث في الأرض فسادًا، فقط يُحارب من يقف في طريق الخلاص.. ولكن شيئًا ما يبقى في نفسه يسأله سؤالًا غريزيًّا: ثم ماذا بعد؟!!

أمام منزلها أمسكت بحصانها الخشبي تجعله يركضُ على سياج الحديقة، وتُحاول نسيان تعنيف أخيها الذي كاد أن يضربها حين سمعها تتحدث مع أمها أن حوارًا دار بينها والغريب عند البحيرة. لم يكن ينبغي أن تفعل هذا، هكذا حدثتها أمها، لكن برفق. أخوها يخاف عليها، ويحق له ذلك، وقد فوضه أبوه ليكون وكيله على المنزل قبل القرية لحين عودته. لقد أنهت أمهما الشجار ليغادر إليساندرو المنزل مغاضبًا، ورأته يتجه للبحيرة وقد لحقت به فيولا، فلماذا يغضب أنها حادثت رجلًا؟ تركت متابعة أخيها، وابتسمت لمشهد النسوة يحلقن على أطفالهن كدجاجاتٍ يُجمعن للمبيت، حتى انسحبت الشمس خلف الجبل في رحلتها إلى المغيب. سيعم الظلام قريبًا، وتأوي لفراشها حيث تجد متعتها في أمنياتٍ ربما تحققها يومًا. أتتها ضحكاتٌ من بين الأشجار، قبل أن تلمح فارسين يعبران سياج القرية. تحققت منهما، كانا كازميرو وألبرتو صديقيْ أخيها وحارسيْ أبيها الغائب. عقدت حاجبيْها وهي تتابع سيرهما عبر طرقات القرية الخالية من المارة، وصوت سنابك الخيل فقط ما يردده الصدى. لماذا لم يأت أبوها معهما؟ نزلت عن سور المنزل حيث كانت تجلس، ونادت بصوتٍ عالٍ على أمها:

- أمي، لقد عاد أبي..

لم تنتظر إجابة أمها، وركضت عبر المنحدر متجهةً ناحية الأكواخ حيث يقف الفتيان، وما إن رآها كازميرو حتى صاح مبتسمًا:

- ماريا.. كيف حالك؟

تخطت جمعًا من الناس خرج لاستقبالهما وعيناها تفيضان بالتساؤلات والقلق: أين أبي؟

أجاب ألبرتو بلثغته سريعًا:

- لقد سبقناه إلى هنا كما أمرنا، فهو سيأتي مع فرقة من فرسان بنفينتو.

حاولت فهم ما قاله صاحب اللثغة، ونقلت بصرها لكازميرو، الذي حرك رأسه مكملًا لما قاله صديقه:

- أبلغنا ابوك أن نخبر إليساندرو أن ينقل الأسير- حتى وإن لم يفق بعد- من منزل عمك إلى حظيرتكم، وأن يبقى تحت الحراسة. أين إليساندرو؟

عقدت المفاجأة لسان ماريا، بينما أعاد كازميرو سؤاله مرة أخرى: أين إليساندرو؟

- بالغابة قرب سفح الجبل.. ستجدانه هناك.

أرسلت الشابين إلى الجهة الأخرى، رغم علمها أن إليساندرو خرج للبحيرة، لتمنح عبد الله بعض الوقت للتفكير أو الهرب. انتظرت حتى اطمأنت لانصراف الأعين عنها، وأسرعت تركض إلى بيت عمها. الأسير.. فرسان من بنفينتو.. حراسة.. بأنفاسٍ متلاحقةٍ وعينيْن واسعتيْن برزت أمام كاراس، وبصوتٍ متهدجٍ خرج بصعوبةٍ من بين شفتيْها:

- إنهم قادمون من أجله..

أشارت لسَودان الذي كان يقف على باب غرفته، ينصت إلى حديثها، بينما غمغم كاراس:

- مَن؟

بنبراتٍ مترددةٍ جاوبت:

- أبي، ومعه فرسان دوقية بنفينتو.

****

تمضي السنون دون أن نشعر.. نبلغ من العمر عتيًّا، ولكن تبقى لنا أحلام مؤجلة، قليلون من يتمسكون بها. أسمى أحلام ذلك العجوز عريض المنكبين ذي الوجه النضر الذي لا تشوبه تجاعيد، واللحية الكثة التي نالها الشيب، ورغم تجاوزه الخامسة والستين ما زال ثابتًا قوي البنيان، لم يفارقه أمل تحققها. يقف فوق بُرج القصبة متأملًا شروق الشمس، وقد غطت عينه اليمنى عصابةٍ سوداء، وإلى جواره ثبتت راية خضراء، منحتها تياراتُ الهواء خفقاتٍ أحيتها. تابع ببصره عوسقًا مثابرًا يُطارد بضعة نوارس اتخذت من جدار القلعة أعشاشًا لها، يُحاول إبعادها عن جحورها، فيما يتسنى لرفيقته الانقضاض على الفراخ الضعيفة. تُحلق بصيدها فوق صواري الفلك العتيقة، في خليج صغيرٍ تناثرت في جنباته قوارب صيد صغيرة، بينما تعود النوارس لأعشاشها تُحصي صغارها، وقد نقصت واحدًا كالعادة. أغمض عينه، واستنشق الهواء البارد الآتي عبر الخليج الذي تحتضنه مرتفعاتٌ صخريةٌ تعتليها منازل حجرية قديمة. فتح عينه ببطء وهو يُطلق زفرةً هادئة. يختلف العالم كثيرًا إن رأيناه بعينٍ واحدةٍ. كان يُحدث نفسه وعقله يسبر أغوار الذكريات..

يوم فتح صقلية، كان قد أتم عقده الثاني. لم يُصدق حينها أنه ضُم للحملة. كانت عيناه تتابعان القاضي الفقيه أسد بن الفرات أينما ذهب، يريد أن يحظى بسمته ويرى كيف يتعامل مع العامة، فهو القاضي المبجل، العالم والقائد، خير قدوة لشباب القيروان، وفارس لا يُشق له غبار، كما سمع من الناس أنه التقى بالإمامين مالك بن أنس وأبي حنيفة..

تابع ارتقاء الشمس في الأفق، مبتسمًا لذكرى معركته الأولى، حين اشتد حصار الفاتحين على باليرمو، واستبسل المدافعون عن المدينة أمام شجاعة جند المسلمين. ولكن الشجاعة وحدها لا تكفي، أصابه الرهاب جراء قرع السيوف، ارتجف وكاد أن يولي دبره، لكن التراجع والارتباك سيمنحانه موتًا مخزيًا أمام الله. الحرب والحصار.. الخوف والانتصار.. الأسلاب والغنائم.. لحظات عابرة في سنواتٍ متشابهةٍ، كافية ليُصيب قلبه جَلد، حتى أصبح لا يخشى الموت، بل يبحث عنه، وصار يشتاق لشهادةٍ تمنحه الخلود في الجنان، لذا خرج مع الجيش إلى روما. حَملتهم سفن الأغالبة إلى شاطئ أوستيا. هزموا القوات البابوية في معركةٍ لم تطل، وسرعان ما فرضوا سيطرتهم على المدينة الساحلية، أو كما تُسمى ميناء روما. لم يوقفهم نهر التيبر عند ذلك الحد، أعدوا سفنًا صغيرةً كانت ملكًا للروم، وركبوا النهر متجهين صوب أعالي البر الطويل إلى المدينة المقدسة.. روما مدينة التلال السبعة. حملتهم السفن إلى محيطها وأحيائها الخارجية، راجلين وفرسانًا يمتطون خيلًا رشيقة، اجتاحوا طرقات المدينة الخارجية شاهرين سيوفهم، تثير فيهم الأعمدة الشاهقة وأطلال مجد عريق رهبة قوية. معابد المدينة القديمة التي صمدت لسنواتٍ تتحدى الزمان والغزاة، والساحات الواسعة المبلطة بالحجر وبقايا منحوتات الأباطرة، كل جزء في المدينة يثبت أنها بقيت رغم كل شيء.
سيطروا على كل الأجزاء خارج الجدار الأورلياني، ذلك الجدار القديم بقدم روما، والذي شهد أمجادها وانكسارها. كان يومها ضمن فرقة الأمير أبو العباس بن الأغلب، المكلفة بحصار المدينة التي منعتهم أسوارها من الدخول. اشتدت المعارك في محيط المدينة، وخاصة تلة الفاتيكان، التي قاومت بعنفٍ، وتكاتف أهلها ورهبانها وصدوا الهجمات في بسالةٍ. كان يخوض قتالًا شرسًا، حين باغته نصلٌ حاد كاد أن يشطر وجهه لنصفين، ولكن أحد رفاقه دفعه بعيدًا وقتل مهاجمه، وفقد هو إحدى عينيه. لم تتوقف المعارك إلا مع غروب الشمس، بعد أن ارتوت الطرقات بالدماء، وسقط مئات من رفاقه ومن جند الروم. ظن وقتها أنها النهاية، واستلقى على ضفاف التيبر منعزلًا، وتعلم أن لا أحد يكفكف دمعه إلا يداه. لكنه كان مخطئًا، فصاحبه الذي أنقذه من الموت كان دومًا إلى جواره، وقد مرت أيام الحصار وسرعان ما شاهد بعينٍ واحدةٍ خروج البابا سيرجيوس الثاني طالبًا المهادنة. صارت المعاهدة على

دفع الجزية والتعايش بالحسنى، وانتهت الحملة. لم يكن عددهم بالكثير، ولكنهم نجحوا في حملتهم، التي كللت بالغنائم. كان يتمنى أن تفتح المدينة، وترفع فوقها الرايات، ويتردد الأذان في جنباتها؛ ولكن من الجيد أن تسفر عن بسط السيطرة وإضعاف الأملاك البابوية، التي دفعت الجزية وتصالحت عليها.

عاد لصقلية بعينٍ واحدةٍ وعصابةٍ سوداء تُخفي جرحًا سيرافقه حتى القبر، ومجد يُطارده أينما حَل. مرت الأعوام، وسئم زخم الحياة في بالريمو، لذا كانت باري مقصده، حيث الرباط والخلوة. وجد روحه في تلك المدينة الساحلية الهادئة، بجوها البديع وخلجانها الصافية، يرافقه الجندي الذي أنقذه من الموت تحت أسوار روما، ثم بعد عام أصبحا مساعديْن للأمير خلفون البربري، حتى مات صديقه في ليلةٍ باردةٍ ما زال يتذكر تفاصيلها المؤلمة. ومع تولي الأمير مفرق لزمام الأمور في المدينة، أصبح أبو المغوار قاضي المدينة، يُساعد الفقراء ويرفع قواعد البناء ويُرسي العدل بين العامة والخاصة.. يلقي على مسامع الرجال دروس العلم، وفي الصيف يكون جنديًّا ضمن قوات باري المغيرة على ثغور الأعداء في الشمال. أحبه الجميع لزهده في الإمارة، فقد رفض توليها بعد مقتل الأميريْن خلفون ومفرق. كان يرى في الإمارة والقيادة شهوةً تُودي بحياة صاحبهما، فالشهوات متتاليات، ما إن تتخلل قلبك شهوة ما حتى تتبعها الأخرى، وينفرط عِقد الإيمان، فإما أن تُحاول جمع شتاتك، أو تنزلق قدماك بفعل حبات العقد. لهذا فارق بالريمو وقصور الأغالبة. زهد الجواري والمحظيات، واكتفى بزوجةٍ رحلت عن الدنيا منذ أمدٍ بعيدٍ. أما بناته الثلاث، فتزوجن، ورحلت الكبرى إلى مصر مع زوجها، والوسطى مع زوجها إلى بغداد، حاملتيْن رسالة الأمير مفرق بن سلام للخليفة المتوكل. لم تعودا مع رد الرسالة، التي حملت نبأ تنصيب أمير باري واليًا بأمرٍ من الخليفة. جاءت الرسالة بعد وفاة مِفرق بشهورٍ، وأصبح والي باري وأميرها هو زوج ابنته الصغرى، ابن صديقه الذي أنقذه تحت أسوار روما، وهو أيضًا الفتى الذي تولى رعايته وتربيته، وكفله بأمرٍ من الأمير خلفون، وعلَّمه أمورًا شتى، حتى أصبح الشاب الصغير أمير باري الغائب.

- تقف هنا منذ انتهاء صلاة الفجر سيدي!

التفت العجوز لمحدثه الذي جذبه من بحر الذكريات:

- أحب ذلك المشهد.

قالها وهو يشير ناحية الخليج، فيما حك شَرحبيل رأسه في عدم فهم، وأبو المغوار يستطرد:

- لا تكف النوارس عن وضع البيض.. ولا تكف الصقور عن التهام الفراخ ومداهمة الأعشاش.

كان يظهر على وجه الرجل قدرٌ من البلاهة رغم وسامته وهيبته. أفرج أبو المغوار عن ابتسامةٍ وهو يربت على كتفه:

- لا تتعب عقلك في الفهم؛ سيأتي يوم ينضج فيه. وحتى ذلك اليوم لا تكن سوى صقرٍ لا يرتضي إلا بأن يملك السماء.. حلق مرتفعًا واحذر السقوط، فالسقوط هو الموت.

ترك شَرحبيل، ونزل درجات السلم الحجري الملتوي. فتح الباب، فغمرت أشعة الشمس القاعة الكبيرة، ودخل فألقى التحية على الحراس وهو يعبر إلى الفناء.. سِت نخلات باسقات- جاءت بها سفنٌ آتيةٌ من مصر، كانت قد مرت في طريقها بإقريطش لتحمل معها العسل والجبن وثمار الكرز، ثم

تعود أدراجها محملة بأخشاب الصنوبر والبلوط لدار السفن بالإسكندرية- تزين مدخل القصبة، أشرف على غرسها رغم اهتماماته الأخرى، فقد أوصى الأمير سَودان بجلبها إلى باري. ما كان ينبغي عليه أن يتركه يذهب لرحلة الاستطلاع هذه، لقد أثقل كاهله بحمل مسئولية الإمارة، وقد غاب أكثر من اللازم. لقد مضى شهرٌ على خروجه هو وشعيب، الذي تنتظره زوجته بقلقٍ، ولا تنفك تأتي للسؤال عنه، ويلمحها دومًا في الشرفة قبالة البحر تنتظر قدوم الغائب.. كحاله ينتظِّر عودة ابنٍ ليس من صُلبه، أقلقه غيابه.

امتطى أبو المغوار بغلته خارجًا من بوابة الحصن، يشق طريقه بين عبارات التبجيل والترحيب، قاصدًا المرفأ حيث دار صناعة السفن. الهياكل الخشبية العملاقة تملأ المكان، بينما يُدهن بدن القوارب بالنفطِ الأسود، ويحمل النجارون قطع الأخشاب كقبيلة من نملٍ عاملٍ تستعد لفصول البيات. صدور عارية كُسيت بالعَرق، ووجوهٌ ملطخة بالطلاء استقبلته بترحابٍ واسعٍ. جاء ليرى آخر تطويراتهم، النيران الإغريقية أو- النيران السائلة- كما يسمونها. لقد قاموا بإضافة قاذفاتٍ صغيرةٍ في مقدمة سفنٍ صغيرة الحجم، ومنحوها أشرعة كبيرة تمنحها سرعة فائقة، إلى جانب قدرةٍ تدميريةٍ هائلةٍ بفضل النيران. راقب تجربة لها في الخليج الحربي، حيث راح القارب يرمي بنيرانه على أهدافٍ خشبيةٍ طافيةٍ، فاشتعلت وسط المياه الهادئة. أنهى جولته بالمرفأ بمقابلة أمير البحر طلحة السكندري، ربان إحدى السفن الحربية التي تتبع الخلافة العباسية، وتطوف بحر الروم بمرافقة سفن التجارة. سلمه رسالة من ابنته التي تقيم بمصر، ثم تناول معه بعض الأخبار عن مصر وواليها الجديد، يُدعى ابن طولون وهو رجل صالح عادل. رافقه بعد ذلك إلى حيث سوق المدينة، في جولةٍ يوميةٍ يقوم بها منذ تم تكليفه واليًا سيره الله لإدارة شئون الرعية، يرعى مصالحهم ويرى ما يشغلهم ويكون قسطاس العدل بين الناس كافة، مسلمين كانوا أو أهل كتاب. رائحة الأسماك والبهارات زكمت الأنوف، فقد عج السوق بالباعة في تلك الساعة من الصباح، يفترشون الأرض والعربات، وتختلط لهجاتهم وأشكالهم، وتتنوع أزياؤهم كثمارهم وبضاعتهم، روم وعرب وبربر، لا يحمل أحدهم للآخر ضغينة، بل الكل يتشارك ابتسامة للصباح.

فُتحت باري بعد حصار، استطاع فيه الأمير خلفون أن يدلف للمدينة عبر كهوفٍ بحريةٍ. لم تُسفك الدماء، فقد استيقظت المدينة والعرب على أسوارها وفي شوارعها، فأبرمت معاهدة أمان لأهلها المذعورين. سنوات مرت، ودخل الكثير منهم للدين الجديد، ومن بقي على دينه تمتع بكافة الحقوق، فالعدل يسري على الجميع هنا. قلة من الناس فقط من رحلوا للشمال، وظلوا يبغضون المسلمين ويرون أنهم غزاة، أتوا لنهب أراضيهم وسبي نسائهم، مثلهم كمثل البيزنطيين أو اللومبارديين.

أمضى أبو المغوار وقته في تفحص الأسعار واختبار جودة البضائع بنفسه. كان محط اهتمام الناس، يُتابع أمورهم ويقضي حوائجهم. رغم كونه عجوزًا بعينٍ واحدةٍ، توقف أمام فتى صغير يَجر جوالًا يحوي ثمار القرع، فحمله بدلًا عنه إلى حيث يريد الصغير. أنهى جولته اليومية في مدينته، هكذا يدعوها، فقد شاهد تطورها ووضع لبنات أساس كل شيء فيها منذ جاء إليها. في باري امتزج عبق التاريخ بسحر الشرق، وحملت الأعمدة الرومانية العتيقة أقواسًا دائرية مستحدثة، زينت بالنقوش والزخارف العربية، وتجملت وجوه المنازل بخليطٍ من حضارتين مختلفتين، وتشابكت في جنباتها فنون العمارة. لقد نفضت المدينة عنها غبار قرونٍ من الفوضى والتبعية لكل غازٍ، وتزين الخليج بقوارب الصيد الصغيرة الملونة، وتراصت سفن الأسطول الحربي في المرفأ الجديد قرب السفح الصخري. مُهدت الطرقات، وعمرت الأسواق تحت ظل مئذنة المسجد الجامع، التي تقف شامخة بلونها الأبيض، زين تاجها بقطع من الزليج والفسيفساء الخضراء، تعلوها ثلاث تفاحات ذهبية

تعكس أشعة الشمس، كانت تهيمن على المدينة ذات الأسوار القديمة الرمادية، والتي أضيفت لها أبراج حراسة دائرية تبدو جديدةً بألوان حجارتها الصفراء. تحولت باري ذات الثلاثة خلجان من قرية صيد صغيرة إلى مدينةٍ كبيرةٍ عامرةٍ، جُلبت لها محاصيل القصب والزيتون وأنواع شتى من الغلال، وكسيت مساحات كبيرة خارجها بأشجار البرتقال والليمون، وأحاطت بها مروج خضراء من كل جانب. صارت جنة، نبتت من رماد الإمبراطورية الرومانية الغربية، ومن مدينةٍ صغيرةٍ على الساحل الصخري، وأصبحت ملتقى الرحالة والتجار، وميناؤها قاعدة تحوي قطعًا بحريةً متطورةً. لقد أرَّقت باري مضاجع دوقيات وممالك إيطاليا، فالجنوب الإيطالي بأسره يخضع لها.

توجه أبو المغوار إلى ديوان المظالم، حيث يقضي وقته هناك يباشر أمور العامة، وينظر في قضاياهم. لم يأت أحد منذ أيام، لذا جمع الحرس والعاملين بالديوان وجلس معهم يتسامر في أمور الدين والدنيا، فينصتون وينهلون من علمه وحكمته. وبينما هم على ذلك، دوى صوت طرقات، دخل بعدها إلى المجلس كهلٌ نال الزمن منه، يتكئ على عصاه ويسير ببطء محني الظهر. نادى بعربية بلسان أعجمي:

- عذرًا، لم أجد الحاجب أو أحد الحراس بالباب، فدخلت.

كان ينظر إلى المجلس الذي جمع أطياف العمال حول القاضي أبي المغوار، يجلسون أرضًا بمن فيهم صاحب المقام الرفيع، الذي أذن له بالقدوم إلى المجلس. نهض أحد الشباب يساعده على الجلوس، فيما أفسح الحاضرون المكان ليجلس الكهل الرومي بينهم، ولا تزال الدهشة واضحةً على وجهه الممتلئ بالتجاعيد. بادره أبو المغوار:

- خيرًا إن شاء الله.

دار العجوز ببصره في وجوه الحضور، وأحنى رأسه قليلًا، ففهم القاضي أن للعجوز حاجةً تأبى نفسه عرضها على الملأ، فأشار لجماعته بالانصراف، فخرج الجميع، وهمَّ الحاجب بقول شيء، إلا أن أبا المغوار أمره هو الآخر بالخروج. وما إن خلا المجلس وأغلق الباب، تحدث العجوز:

- سيدي القاضي.. لي مظلمة وشكوى..

ابتسم أبو المغوار وهو يجذب رقعةً من جلد الماعز وريشة ومحبرة:

- أفصح عن شكواك يا أخي.. هات ما عندك!

اغرورقت عينا العجوز بالدمع:

- اسمي باولو وولدت في باري وعشت بها سنين عمري. كانت لي ابنة، تزوجت من بني جلدتكم، وأصبحت على دينكم، ومنذ ذلك الحين لم أرها. هجرتني، وكما ترى فأنا عجوز لا أقوى على شيء، وليس هناك من يُساعدني ويقوم بخدمتي، وقد شارفت الرحلة على النهاية..

أجهش العجوز بالبكاء، وبيدٍ مرتعشةٍ أخذ يمسح دموعًا بللت وجهه ولحيته:

- عذرًا سيدي القاضي.. كيف لها أن تجحدني وقد أفنيت عمري في تربيتها هي وإخوتها؟ رحلوا جميعًا إلى روما، ولم يبق سواها. لم أجبرها على البقاء على ديننا، وتركت لها حرية الاختيار، وكان

هذا جزائي.. أوليس دينكم يأمر بأن يُطيع الولد أبويه وأن يرحمهما؟.. أو ليس الرب محبة؟

حرك أبو المغوار رأسه في أسى:

- نعم، إن الله هو الرحيم الرؤوف، وقد أمر عباده أن يُحسنوا إلى والديهم، حتى وإن كانوا على غير الملة. ما تفعله ابنتك خطأ، ولكن هكذا هم الصغار، نربيهم لليوم الذي يرحلون فيه عنا. أين تسكن ابنتك، وما اسم زوجها؟

- تسكن بحي الصيادين قرب الخليج الجنوبي.. وزوجها اسمه زيد الغافقي..

سجَّل أبو المغوار ما أملاه إياه العجوز، الذي استطرد:

- أرجوك سيدي القاضي، لا تؤذها.. فقط أريد رؤيتها وعناق أطفالها.. لا أريد شيئًا سوى هذا..

ربت على فخذ الكهل:

- لا تخف سيدي.. لقد قُضيت مظلمتك بإذن الله..

رحل الكهل فرحًا، بعد أن طمأنه أبو المغوار، الذي ما إن خرج العجوز حتى صاح مناديًا على الحاجب، الذي دخل للقاعة مسرعًا:

- أمرك سيدي..

مد أبو المغوار يده بلفافةٍ ناولها إياه:

- اذهب بكتابي هذا لحي الصيادين، وسلمه لشخصٍ يُدعى زيد الغافقي، وقل له إني أريده على عجلٍ هو وزوجته.

أحنى الحاجب رأسه:

- سأفعل سيدي..

انهمك أبو المغوار في ترتيب بعض الرقع:

- لماذا تقف هكذا؟

أجاب الحاجب متلعثمًا:

- سيدي.. الأميرة رَمْلَة زوجة القائد شعيب القرطبي بالباب، تستأذنك في الدخول.

عقد حاجبيْه:

- أدخلها على الفور، وامضِ إلى حيث أمرتك.

****

دخلت رَملة تتسربل في ثوب أخضر مطرز، وحجاب أبيض يغطي وجهها، يتبعها طفلها المتجهم يصطنع الصرامة، يُحاول أنْ يفعل ما علمته أمه. رحب بهما واضعًا يده على كتف الصغير، داعيًا إياها إلى الجلوس، ولكنها جاوبته باقتضابٍ:

- ما جئت لأجلس سيدي القاضي الفقيه.. ولكن لقد طال غياب الأمير سَودان، وكما تعلم أن زوجي معه في تلك الرحلة.. فهل هناك خبرٌ عن قدومهما قريبًا؟

تجاهلها وتبادل النظرات مع الفتى قبل أن يحدثه:

- أتدري يا عمر أنك تُشبه أباك؟

ابتسم الفتى، في حين كانت أمه تستشيط غضبًا لتجاهله إياها وهو يُتابع حديثه للفتى:

- ستكون مثله يومًا، بطلًا لا يُشق لك غبار. يومًا ما ستكون إلى جانبي في الحرب.. أتريد أن تبقى إلى جوار الفرسان الشجعان في ساحة الوغى؟

قطعت حديثه مع الفتى وقد حمل صوتها عصبيةً واضحةً:

- إنه لم يتجاوز الخامسة يا أبا المغوار.

لم تبجله، ولم تنادِه بلقب القاضي. حاولت أن تجعل رأسها برأسه، وهو يتفهم قلقها على زوجها الغائب.. داعب رأس الفتى وهو ينظر تجاهها:

- لا تكوني سببًا في تثبيط زوجك وأولادك يا بُنيتي.. سيعود زوجك قريبًا بإذن الله؛ فقط اصبري وصابري.. وعلمي أولادك أن أباهم ذهب ليردع العدو ويطلع على أخبارهم.. يا أم عمر، أقدر قلقك وحبك لزوجك وأتفهم ذلك.

فارقت دمعةٌ عينيها وهي تقول بصوتٍ متهدجٍ:

- لقد سئمت الحرب والقلق عليه.. سئمت غيابه وانشغاله بأمور القتال.. كل ما أريده أن نعيش معًا ما تبقى من العمر نربي أطفالنا. لا أريد أن نتنقل كل يوم ببلد.. جدي وأبي تم نفيهما من الأندلس للإسكندرية، ومنها تم نفيهما مرة أخرى لجزيرة إقريطش.. لا أريد أن يحدث نفس الشيء لأولادي.

وكزت كلماتها قلبه. أشاحت بوجهها لتخفي دموعها المنسابة، أمسك بيد الطفل المرتاع لرؤية أمه تبكي، وقال لها:

- يا بنيتي ارفقي بنفسك.. زوجك في رعاية الله، وكل شيء مقدر وفي كتاب. لو كان زوجك بحارًا أو حتى حدادًا، هل ستخافين عليه من البحر والنار؟ هل ستقولين له توقف عن ذلك العمل؟ إنه يقوم بعمله. يا ليت زوجتي حية تُرزق.

قهقه أبو المغوار قبل أن يُتابع:

- كانت دومًا تتشاجر معي كلما عُدت سليمًا مُعافى.. كانت تُريد أن أجرح دومًا، حتى تطيب جراحي وتقوم برعايتي لتحصلَ على نصيبها من الثواب. أتدرين، طعامها كان سيئًا، لا تُجيد الطهو.. لذا كنتُ

أغيب دومًا عن المنزل.. أظن أنك أيضًا لا تَجيدين الطهو..

كانت تحب زوجها وتخشى عليه، وكان يقول دومًا إن لكل روح قرينًا، ويُناديها دومًا قرينة الروح، يكملان بعضهما بعضًا. لا لم يفر يومًا من طعامها، الذي تطهوه بنفسها، رغم كونها سليلة بيت الإمارة في أقريطش. استمعت لأبي المغوار ونصائحه، فوجدت في حديثه سبيلًا للبوح، وقد منحها بعض الوصفات لاستقبال زوجها عند عودته، وحذرها من أن انهيارها أمام طفليها سيشكل عقبة في حياتهما دومًا. عليها أن تكون قوية، وأن تكون بمثابة الأب في غياب زوجها.

في خليج صخري صغير أسفل القصبة، خلعت رَمْلَة حجابها، وألقته على الصخور المبللة برذاذ موج ليلة ماضية، وخاضت البحر لعل مياهه الصافية تمحو أثر قلق يسري بعروقها. لم تبالِ ببرودة الماء، كما لم يعنها أن يبتل ثوبها الفاخر الفضفاض، التصق بجسدها قبل أن تدفع نفسها لتغوص بالماء، شعرها الأسود الطويل أخذ يتموج حولها، حورية بحر راحت تغوص للعمق، سبَّاحة ماهرة ترعرعت في جزيرة إقريطش. فتحت عينيها في الماء تُراقب السمك الصغير حولها. تحب البحر منذ صغرها، كلما أحست بالضيق تلقي بجسدها إليه، لعله يغسل عنها الهم والحزن. طال الغياب وتحول انتظارها لخوفٍ يحفر خنادقه بقلبها. لا يكف صغيراها عن السؤال، فتطمئنهما بأن والدهما سيعود قريبًا، تأخذهما في جولةٍ إلى الشاطئ كل يوم لعل اللهو والركض يُنسيهما الغائب، لكنهما لا ينسيان. ويُفجران المزيد من الهواجس بداخلها. يُراودها ذلك الإحساس في الآونة الأخيرة.

جاءت معه إلى باري منذ زمنٍ، وأراد أن يكون عونًا لصاحبه سَودان الماوري، فهما صديقان مقربان منذ الصغر، كما أن العلاقات جيدةٌ بين الإمارتين منذ نشأتهما، يكفلان بعضهما البعض. أخرجت رأسها من الماء، ورمقت بقعةً عند مدخل كهفٍ صخري يختفي نصفه بالماء، ثم أخذت نفسًا عميقًا وعيناها البُنيتان تخيلان لها وجوده حيث كان يجلس دومًا يُراقب سباحتها. كان يأتي بها إلى هذا الخليج دومًا، أخبرها أن من ذلك الكهف دخلت فرقُ المسلمين بقيادة الأمير خلفون. لم يكن يشغلها الحديث عن خلفون وكهفه، فقط كل ما يهمها أنها تقضي معه وقتًا رائعًا، بعيدًا عن صخب الحياة. كانت تجد الأمن بين ذراعيْه، والشوق في عينيْه لا يفتر. تستيقظ في الصباح على لمسته لوجهها، قبل أن يهمس بأذنها أنها أجمل من رأى في حياته من النساء. سبحت عائدة للشاطئ الصخري، وكلام أبي المغوار يتردد في ثنايا عقلها.. عليها أن تصبر، فالغائب دومًا له حُجة.

****

توقفت الفرس أخيرًا عن الركض. ضَبحت وتلاحقت أنفاسها، ونال التعب منها كما هو حال صاحبها. ترجل, وقد انتابته نوبةٌ من سعالٍ حاد جعلته يجثو على ركبتيْه ويتحسس جانبه، حيث جرحه الذي لم يتم الشفاء بعد. استلقى على العشب البارد، لعله يُطفئ حرارة جسده المرتفعة، ونظم أنفاسه وهو يُحدق بسماءٍ امتزجت فيها ألوانٌ عجيبةٌ، أحاطت بتجمع للنجوم تشع وتخفت وقد أنار ضوؤها وسط عتمة السماء. لم يشعر بـالهجان التي ألقت بجسدها إلى جواره مطلقة خوارًا خافتًا، وهو يعود بروحه إلى ماضٍ ليس ببعيدٍ، هناك في قرية سان فيلي، تلك الليلة التي جاءت فيها ماريا والهلع على قسمات وجهها، تُخبرهما أن أباها قادمٌ مع فرقةٍ من الفرسان، وأن عليه الرحيل. في دقائق، كان الطبيب يضمد جرحه جيدًا، بينما تسللت ماريا لمنزلها وأتت بملابسه وسيفه من غرفة أبيها، وبالفرس من الحظيرة. عيناه لم تفارقا وجهها الحزين، ونظراتها تُخبره عن سؤالها: أحقا سترحل

فجأة كما جئت فجأة؟ هل سيبقى مجرد عابر سبيل نثر بذور الأمل في روحها، ورحل؟.. أهو فقط ممتن لما قدمته له خلال فترة مكوثه في ديارهم، أم أن ما بقلبه شيء آخر يؤثر أن ينكره ويفر منه؟

تفقد كاراس الوضع لطرقات القرية الخاوية منحهما فرصة لحديث مقتضب حمل أمل اللقاء مجددًا. قالت له إنه أنيقٌ في ملابسة العربية، وأن اللون الأسود ذا الرسوم الدقيقة منحه مظهرًا خاصًا، كما لم تره من قبل. ساعدته لوضع حزام سيفه على خصره، فمد يده يضبطه، فقبضت على يده برفقٍ، فانتفض جسده واتسعت عيناه، وتناسى العالم من حوله، وهو يرى عينيها الدامعتين، حتى إنه لَم يسمع كاراس وهو يدعوه للإسرع بالخروج. حدثه هاجس بعدم الذهاب وبالبقاء مهما كانت العواقب.. حدثته نفسه بأن العذاب في حضورها حياة. جال ببصره في ظلام القرية، بينما مد كاراس يده بجعبةٍ صغيرةٍ:

- سعدت بضيافتك في منزلي المتواضع يا أخي.. لقد وضعت لك بعض الزاد وقربة ماء.

احتضنه كاراس وربت على ظهره، وهي تقف على مقربةٍ منهما تكاد تصرخ وتقول له ألا تذهب، بينما كان يتجنب النظر في عينيها الحزينتين:

- شكرًا لكما لما قدمتماه لي من رعايةٍ وكرم ضيافة.. لن أنسى جميلكما هذا.

امتطى ظهر الفرس برشاقةٍ، وما إن استقر على صهوتها عقفت الفرس عنقها وراحت تتحرك للأمام والخلف وتضرب الأرض بقوائمها في خفة، رقصة فرح بعودة صاحبها لصهوتها، فهمس في أذنها كي تهدأ ولا تفضح حاله لأعدائه، فانصاعت في ذكاء. لامست ماريا ناصيتها:

- سأشتاق لك يا جميلة.

لثمت جبين الفرس، أدارت أذنيها، وضربت بحافرها في توتر. كان إليساندرو ورفيقاه قادمين من ناحية الجبل، وصوت ضحكاتهم يتعالى مع اقترابهم من المكان. اقتربت ماريا منه، رفعت يدها بوشاحٍ قرمزي من حرير:

- قد تحتاجه.

قبض على أناملها برفقٍ، قبل أن يسحب الوشاح، وأحس برجفتها، لكن لم يكن بد من أن يفلت أصابعها بسرعة، ويضعَ الوشاح حول رقبته وعيناه لا تفارقانها وهي تهمسُ:

- هل ستعود مرة أخرى؟

لكز فرسه، التى انطلقت على الفور، ولم يُجب سؤال ماريا. أخذت الهجان تشق ظلام الغابة كبرق يضوي بين الأشجار. لم يمض كثيرٌ من الوقت، حتى سمع صوت سنابك الخيل من خلفه. المرة الأولى التي يعرف فيها كيف يكون مذاق الهرب. بداخله شخصٌ آخر يحثه على البقاء على قيد الحياة.. يُجبره على الهرب.. شخصٌ تعرَّف عليه في ليالي الوحدة بمنزل كاراس. جذوع الأشجار تمر من حوله في سرعة، والبدر ينير دربه لكنه في نفس الوقت يكشفه، وبياض الهجان الناصع يضوي تحت نوره الفضي.

مرت ساعاتٌ، ولم يعد هناك صوتٌ وراءه. كان قد ابتعد بالقدر الكافي عن مطارديه، فخفف من سرعة فرسه، فتهادت فوق الحشائش الرطبة. نعيق بومة جعله يتلفت حوله.. لم يتطيَّر من قبل، ولا

آمن بالخرافات يومًا، ولكنه أحسه نذيرًا بشيء قادم.. لعله الموت الذي لا ينفك يُطارده في الوقت الذي لا يُريده. هبَّ الهواء باردًا، وصمتت البومة. كان القمر قد أفل، فصار للظلام مُلكُ الغابة. سيئ هو شعور الطريدة يتربص بها صياد يتشح بظلام الليل.. أوقف الفرس، وتحسس مقبض سيفه، مرهفًا السمع لصوتٍ يعبث بالحشائش. أفزعته قفزة ظبية صغيرة راحت تركض مبتعدة، ثم عاد فابتسم وقد خجل من نفسه، فهو من يراه الجميع دومًا شجاعًا مقدامًا. تذكر كلمة قالها كاراس في إحدى شطحاته مع حكاياته الماضية، أن من لا يخاف يموت، وأن الخوف جزءٌ من طبيعة البشر، وهو بالأصل بذرة الشجاعة. كان سَودان في تلك اللحظة على قدرٍ من الشجاعة ليشتهي الحياة الدنيا.. أن يشتهي الحب.. أن يشتهي ماريا.

أخذته سِنة من نومٍ على ظهر الفرس، التي لم تتوقف عن المسير. مع خيوط الفجر الأولى، كان يحلم بخيولٍ كثيرةٍ تركضُ مخلفةً سحابةً من غبار. الصهيل هو ما أيقظه من حلمه، لكنه ليس صهيل الهجان، بل كان على مقربةٍ منه رجلان يمتطيان جوادَيْن مرتفعيْن، ضاقت حدقتاه محاولًا معرفة هويتهما، فوجد أحدهما ممسكًا برمح، فيما كان يشهر الآخر سيفًا قصيرًا. في سرعةٍ، سحب سيفه من غمده وقد عرفهما.. لقد اقتفيا أثَرَه طوال الليل حتى وجداه. دومًا المواجهة أفضل سبله، فاستدار بفرسِه، وركض بها تجاههما. زاد سرعته، مع إلقاء أحدهما بالرمح تجاهه، فلم يصبه، فقد كانت رميةً ضعيفةً تُوحي بأن صاحبها لم يقذف رمحًا من قبل. ما فعله الفارس الغض بعد ذلك أثبت لسَودان صدق ظنه، فليس من فارس شارك في معركةٍ واحدةٍ يظل يُحاول سحب سيفٍ علق بغمده تاركًا التركيز مع غريمه. لكن رفيقه انقض على سَودان، الذي بادله الهجوم. اصطك السيفان بشرر، قبل أن يجذب كل منهما لجام مطيته، فيما مر الآخر إلى جانبه وهو يلوح بسيفٍ أثقل يديه. كانت مبارزة سَودان مع كازميرو شرسة، والفتى ماهر، استطاع مجابهة سَودان، يراوغ ويتفادى طعنات العربي الهارب. كان على سَودان التخلص منه سريعًا قبل أن يعود الفارس الآخر، فدار بالهجان حول نفسها، في رشاقةٍ اكتسبتها من عشرات المعارك، فما هذه المبارزة سوى تدريبٍ صغيرٍ لا يُضاهي الملاحم الكبرى التي خاضتها مع صاحبها. أصاب كازميرو بجرح أسقط على أثرِه سيفه، في الوقت الذي حاول الفارس الآخر طعن سَودان مرةً أخرى، فكان كطفلٍ في السادسة يضرب سورًا حجريًّا بعصا. استدار له سَودان وقد حملت عيناه غضبًا ممن أرسل له صبيًّا كهذا، فجذب الفتى لجام جواده، الذي وقف على قائمتيه مطيحًا به أرضًا، وركض مبتعدًا، وارتطم جسد إليساندرو بالأرض بعنفٍ. كتم الفتى ألمه وأغمض عينيْه، في محاولةٍ لإيهام سَودان أنه قد أغشي عليه أو أنه مات. ابتعد صوت حصان كازميرو أكثر فأكثر حتى تلاشى، وسكن المكان إلا من وقع أقدام سَودان، الذي نزل عن صهوة فرسه شاهرًا سيفه. اقترب بخطواتٍ حذرةٍ من جسد إليساندو.. انتظار الموت أسوأ من حدوثه، هذا كان حال الفتى اليانع، وهو ينتظر ضربة قد تقطع أطرافه لينزف حتى الموت، تمنى طعنةً سريعةً تنفذ بجسده وتُنهي معاناته. كان يرتجف، فوكزه سَودان بطرف سيفه بلطفٍ، فصرخ الفتى في هلعٍ:

- أرجوك.. أرجوك لا تقتلني!

رمقه سَودان بنظرةٍ متفحصةٍ.. كان الفزع يبدو جليًّا على وجهه، والتصقت خصلاتٌ من شعره البني بجبينه المُتعرق.. مجرد شاب أرعن، وجنتاه وعيناه تشبهان كثيرًا شخصًا عرفه في الأيام الماضية، يرتدي قميصًا أبيض مشقوق الصدر، يكشف عن صدره الناعم كأجساد النساء، وتتدلى من رقبته قلادةٌ ذهبيةٌ، عُلق بها صليبٌ كبيرٌ رصع بفصوص حمراء وزرقاء. دار سَودان بعينيْه في المكان، قبل أن يعودَ ببصره إلى الفتى وهو يحك لحيته:

- أنت إليساندرو، أليس كذلك؟

أومأ الفتى برأسه في سرعةٍ:

- نعم.. نعم أنا إليساندرو بن النبيل لورينزو.. إنك لن تقتلني؛ أليس كذلك؟

أعاد سودان سيفه إلى غمده المتدلي عن خصره، وهو يقترب أكثر من الفتى:

- لن أقتلك.. ولكن لماذا تريد قتلي أنت؟

لوح الفتى بيديْه:

- أقسم لك أني لا أريد قتلك.

قاطعه سَودان بحزمٍ:

- أرى أن عينيك المرتاعتيْن تفيضان بالبغض لي، رغم أنه أول لقاء بيننا. لا تستطيع إخفاء ما يجيش به صدرك يا فتى. أعلم أنك تريد أن تحظى ببعض المجد، ولو أتيحت لك الفرصة لجززت رأسي لتقدمه لأبيك، حين يعود مع فرسانه الجدد؛ أليس كذلك؟

لم ينطق إليساندرو. كان يُقسم بداخله أنه لو نجا سيقتل الخائنة ماريا. هي من ساعدت العربي على الهرب ووشت إليه بسر أبيها. بينما تتقاذفه الأفكار، وكزه سَودان في كتفه برفقٍ، لينتشله من زوبعة البغض لأخته وعمه:

- أكاد أجزم أنك تريد قتل أختك وعمك الطبيب كاراس، اللذين هما سبب إبقائي على حياتك، فما قدماه لي من عونٍ ومساعدةٍ يكفي لكي أرد لهما الجميل، بعدم قتلك.

اقترب منه سَودان، وبصوتٍ أكثر صرامةً أكمل حديثه:

- إياك أن تمسهما بسوء.

جحظت عينا إليساندرو عندما قبض سَودان على تلابيبه. جذبه إليه، وقرَّبه إلى وجهه وهو يُعيد على مسامعه:

- إياك أن تمسهما بسوء.. أفهمت؟

أمسك الفتى بصليبه المتدلي على صدره، ورفعه أمام وجه سَودان:

- أقسم لك ألا أمسهما بسوء.. أقسم لك.

كاد أن يبكي، فخفض رأسه في أسى، فأفلته سَودان ليتوجه نحو فرسه، ورحل سريعًا تاركًا إليساندرو جالسًا وحيدًا وسط غابةٍ يجتاحها ضوء النهار الجديد، وسؤال واحد يدور بعقله:

كيف سيعود كل تلك المسافة إلى القرية دون حصانٍ؟

وماذا سيقول لهم؟

****

قبعت ماريا بحجرتها تنتظر العقاب، يمر الوقت عليها ثقيلًا، تنقل بصرها بين تمثال العذراء وحصانها الخشبي، لا تدري أيهما تخافُ أكثر: أن يمسك قومها بعبد الله العربي، أم من عقاب أبيها لها.

حين عاد والدها مع مغيب اليوم التالي لهرب سَودان، لم يكن إليساندو قد عاد، فاستقبلته ماريا بابتسامةٍ حاولت أن تُخفي بها قلقها. تفحصت بعينيها الفرسان المدججين بالسلاح، والخيول العفية المسوَّمة بالدروع الفضية، فانقبض قلبها. سألها أبوها عن الأسير الغائب عن الوعي، فأجابت باقتضابٍ أنه رحل. كلمة واحدة قالتها، هشمت حلم أبيها، ثم أسرعت تتحجج بمساعدة أمها في إعداد وليمةٍ تكفي الضيوف الكبار. أرسلتها أمها لإحضار دجاجاتٍ من الحظيرة لتطهوها للفرسان، فحاولت الانشغال بتقطيع الخضر، إلا أن أمها أصرت في صرامةٍ، معنفة إياها، متعجبة أن تتخيل الابنة أن على أمها الذهاب بدلًا منها وسط الضيوف. في طريقها للعودة بالدجاجات، رأت ألبرتو يقف مع أبيها، فخفق قلبها وتوترت أصابعها التي تقبض على عنق دجاجةٍ مسكينةٍ. تذكرت تلك اللحظة التي أمسكت فيها بيد عبد الله.. ما كان عليها فعل هذا، ربما لو لم تخطئ ما كان كل هذا ليحدث. تمنت أن يسامحها الرب، وأن ينقذ سَودان رغم كل شيء، وبكت.

مضى النهار، وآوت إلى غرفتها أخيرًا. حاولت مرارًا أن تلملم شتات أفكارها ولكنها فشلت. جلست تطل من نافذتها ترمق القرية وأكواخها المتناثرة، وتشرد بعيدًا تتساءل أين تراه قد وصل الآن. كل شيء هنا هادئ إلا قلبها.. حتى عمها كاراس ما زال يضحك ويتسامر مع المارة، أما أبوها، فيجلس في غرفة الطعام مع ضيفه النبيل ماركيزيو، وليست هناك أي مؤشرات للغضب الذي توقعته. نادتها أمها لتساعدها في إعداد العشاء لهم، ومع إصرار الأم خرجت تحمل الأطباق إلى حيث يجلسون. لم تكن ترى في الغرفة سوى وجه أبيها، الذي كان يبتسم وعيناه لا تفارقانها، فعرفت أن ألبرتو لم يُخبره بعد بأنها ساعدت الأسير على الهرب. أقلقها تساؤلٌ جديدٌ: لماذا ألبرتو وحده هنا، وقد كان ثالث المطاردين لعبد الله، مع أخيها وكازميرو؟!

كان عقلها في وادٍ سحيق، نبتت في طياته أشواك الخوف والترقب، وهي تصب النبيذ في كؤوس الضيوف بيدٍ مرتعشةٍ. رفَع ألبرتو كأسه، لتصب له ما تبقى في القنينة، وهو يوجه حديثه إلى أبيها، بينما عيناه لا تفارقانها:

- سيد لورينزو.. كيف تنجب العنقاء عصفورًا جميلًا كهذا؟

ارتفعت ضحكات أبيها، فانتبهت أنها تسكب النبيذ خارج كأس النبيل الغارق في الضحك. رمقتهم بنظرةٍ غاضبةٍ، وأسرعت تخرج من الغرفة، تتبعها قهقهات عالية. أوصدت بابها، واستندت بظهرها إليه.. انسابت دموعها بغزارةٍ لم تعهدها من قبل، لم تعد تحتمل كل هذا القدر من الخوف. البكاء راحة وهي تحتاج لاستراحة من عناء العقل ووجع القلب. جثت على ركبتيْها مقابل النافذة، حيث السماء المعتمة، شبكت أصابعها، أغمضت عينيْها على دمعٍ ينبض كنبع لا ينضب:

- قد أكون أثمت يوم لامست يد غريبٍ عني.. قد أكون أخطأت حين راقبته عيناي في كل وقت.. ولكن لم أخطئ حين جعلته يهرب.. يا قديرُ أتمنى أن تحافظ عليه وتهبه الحياة.. أن تمنحه فرصة للهرب بعيدًا، وألا يوقعه إليساندرو. يا رحيم تمجد اسمك في الملكوت.. بحق العذراء أتوسل إليك أن تشمله بعطفك.. فما داويته إلا كما أمرتنا.. وما ضايفته إلا كما أمرتنا.. لم أقع في خطيئة.. فقط أحسست أنه غير بقية الرجال.. لم تلتهمني عيناه ولم يمسني بسوء.. إنه غيرهم يا إلهي.. أنت تعلم أنه غيرهم.

لم تصل من أجل رجلٍ من قبل، فاستحال وجهها صورة مجسدة للحياء وهي تَنهي دعاءها، لكنها ارتاحت بعدما ألقت حِمل صدرها حيث تثق وتأمل. استلقت على الفراش ومسحت دموعها، وراحت تستعيد مشهد رحيله. لم يجب سؤالها وهو يبتعد.. هل سيعود مرة أخرى؟

وضع الدوق ماركيزيو ساقيْه على المنضدة قبالة وجه صاحب المنزل، الذي خبت ابتسامته وحاول التشاغل بصبِّ كأسٍ جديدةٍ، وقلبه يتمنى أن يعود ابنه إليساندرو سريعًا. لم يتخيل أن يرحل الجريح أثناء غيابه. أخبره أخوه أنه أصرَّ على الرحيل، رغم أن جرحه لم يندمل بعد. شيء ما في حديث كاراس أثار قلقه، ثم زاده حديث ألبرتو توجسًا. أخبره ألبرتو أن إليساندرو يتعقب الغريب جنوبًا. قد تتهدم الأحلام بفعل الأغبياء، ولكن ليس في وسعه سوى الانتظار، والصبر على تبادل الحديث مع الدوق المتغطرس.

- ألم تقل إنه جريحٌ فاقد الوعي؟

أومأ لورينزو بضيقٍ:

- نعم، ولكن يبدو أنه أفاق وهرب قبل عودتنا..

لم يكن جوابه مقنعًا بعد حديثه طوال طريق العودة عن كيفية أسْره لذلك الرجل. حاول أن يُغير مجرى الحديث مرارًا، ففهم ماركيزيو محاولة مستضيفه، فأخذ يُشاغبه بالحديث عن ماريا ولماذا لم تتزوج، حتى تبجح قائلًا:

- أهي ما زالت عذراء؟

رمقه لورينزو بنظرةٍ طويلةٍ، استشف منها الدوق الغضب، فاستطرد:

- لا أقصد إهانتك سيد لورينزو.. ولكن أن تبقى جميلة الجميلات كل هذا الوقت دون زواج.. إنه تقصير منك أنت.

تجرع لورينزو كأسه دفعةً واحدةً، قبل أن يتمتم:

- الأمر يتعلق بها.. رفضت الزواج من نبلاء كثر.. ولن أجبرها على شيء.

اعتدل الدوق ضاحكًا:

- ومنذ متى ونحن نأخذ رأي النساء في تلك الأمور؟ يبدو أنك رقيق القلب مع النساء سيد لوريينزو.

غطت القرية في نوم عميق، بينما تراكم السحاب فوقها ليمنحها عتمةً موحشةً، همسات الريح مع الأغصان فقط ما يُسمَع بينَ الحين والآخر، لكن لم يتوقف حديثهما عن النساء طوال الليل. خلد بعض الفرسان للنوم، بينما أحاط الآخرون بالمنزل، فقد كانت رحلتهم شاقة، قطعوا الطريق من بنفينتو إلى سان فيلي دون توقف. لم تغفل عين ماريا المترقبة لما سيحدث. كرر عليها عقلها مزيجًا من التخيلات عن المستقبل، وتمنت أن يمر الوقت بسرعة، ولكنه لم يفعل، كأنه يتلذذ بقلقها. لو كانت ساحرة، لربما علمت الغيب وما سيحدث في الغد. ظلت تطل من نافذتها بين الفينة والأخرى، لا ترى سوى الظلام وبضعة مشاعل بعيدة. فتحت باب غرفتها بحذر، ترمق النيام في غرفة الطعام، مبعثرين في كل

مكان. دلف أبوها منذ فترةٍ وجيزةٍ إلى غرفته، ثم سمعت آهات أمها المكتومة التي سرعان ما خمدت. وحدها تودع الليل مع أرق لا يُفارقها.

لم يكن كاراس أفضل حالًا من ابنة أخيه، فلم ينم هو الآخر، أخذ يتحركُ في غرف المنزل برتابةٍ، يفتقد رفيقه العربي، وينتظر اتهامه بالخيانة مع عودة إليساندرو حاملًا رأس الضيف. لربما مات ذلك الفتى ونجا الغريب. المنطق يقول إن فرصته أفضل من ذلك الصبي المدلل، لكن من يعلم كم من الرفاق صاحبهم إليساندرو. من يدري، تمنى ذلك، مؤازرًا أمنيته بعدم عودة ابن أخيه كل هذا الوقت، فلا بد أن العربي قد ابتعد كثيرًا.

****

تهادت شمسُ الصَّبيحَةُ في سماء باري الصافية. رائحة البحر يحملها الهواء بمسحةٍ من بَرد، والنوارس تُحلق بالأفق البعيد، والجدران الضخمة تظهر كشريطٍ يفصل الأرض عن سماء تُلامسها مئذنة شاهقة. كلما اقترب تتجلى التفاصيل أكثر.. الأطلال الرومانية القديمة تتخلل حقولًا خضراء، تمتد إلى أسفل الأسوار، تخترقها قنوات الري التي شارف بنفسه على شقها. النواعير تعزف خريرًا يمنح المكان حياة. تتهادى الفرس ببطءٍ بعدما وصلت لمبتغاها، كل شيء كما تركه منذ رحل، شعوره ببهجة العودة امتزج بحزنٍ نال من قلبه، وجدد فجيعته في صديقه شعيب واثنين من رجاله.

توقفت فُؤوس المزارعين عن حرث الأرض، وتعلقت العيون بـ الهجان التي تمر بينهم وعلى صهوتها أمير باري العائد وحده. التساؤلات والفضول غمرا الوجوه، لقد عاد بعد غيابٍ، بوجهٍ شاحبٍ وعينيْن واهيتيْن وابتسامة باهتة. ليس هذا أميرهم الذي عهدوه. رفعوا الأياديَ يحيونه، وانحنت الرؤوس قليلًا في تبجيلٍ، ومن فوق برج البوابة الضخمة نادى منادٍ:

- لقد عاد الأمير سَودان حفظه الله.

لوهلةٍ، أحس أنه حلم يقظة أو هاتف خفي يسري بأعماقه يتمنى قدوم سَودان. وضع الريشة بالمحبرة وعاد يرهف السمع.. مرة أخرى ردد حراسُ الأبراج نبأ عودة الأمير، فتهللت أسارير أبي المغوار ونهض مسرعًا إلى النافذة، فوجد العامة يتجهون ناحية البوابة الرئيسية للمدينة في عجلٍ، وبعض الفتيان يركضون ويصيحون بخبر عودة الأمير العادل سَودان الماوري. ارتدى عمامته على عجلٍ وهو يخرج من ديوان المظالم، يتبعه الحاجب مهرولًا.. شقت الهجان زحام العامة، وسط هتافات الترحيب ومحاولات بعضهم الإمساك بلجام الفرس المتعبة، لكن سرعان ما تدخل الجندُ لإفساح الطريق ولكن دون جدوى. كان يعلم أنهم يُحبونه ويُبجلونه، لذا لم يُبال بالزحام حوله، فكان يُومئ لهم مُحييًا، وعيناه تبحثان في الوجوه عن شخصٍ ما بين الصفوف. كان الحاجب يزيح الأجساد برفقٍ، ليفسح المجال للقاضي بالمرور، فتنحى الناس جانبًا مع رؤيتهم أبي المغوار، الذي ما إن وقعت عينه على سَودان قال بصوتٍ هادرٍ أسكت الجميع:

- هلا صمتُّم ومنحتُم الأمير المجال للمرور!

صوته القوي هزم ضوضاءهم، وتراجعت الجموع، لتتقدم الفرس وصاحبها يبتسم:

- رفقًا بهم أبا المغوار.

ابتسم أبو المغوار وهو يمر بعينه على الوجوه:

- حبهم لك ليس سوى تملق سيجعلك طاغية يومًا ما.

نزل سَودان عن الفرس متحاملًا على ألم جرحه، جز أسنانه حتى لا يظهر عليه أثر الوجع، وتقدم بخطواتٍ واسعةٍ نحو أبي المغوار الذي فتح ذراعيْه له. احتضنه سَودان:

- معاذ الله أن أكون من المتجبرين يا أبي..

ترفق أبو المغوار في حضنه وقد فطن إلى ألمه، فأمسك بكتفيه وهو ينظر بوجهه:

- ماذا حدث لكم؟

أشار سَودان لأحد الجند أن يأخذ الفرس إلى حظيرتها، ثم التفت إلى القاضي صامتًا، ودخلا معًا إلى الديوان.

"لقد عاد الأمير سَودان"

تردد صدى الكلمات بعقل رَملة، فهرعت إلى الشرفة دون حتى أن تضع حجابها. الزحام شديد أمام بوابة القصبة، وأحد الجند يسوق فرس سَودان البيضاء إلى الإسطبلات. تيقنت أنه عاد وليس مجرد حلم، ولكن قلبها انقبض وهي تتساءل: أين بقية الخيل، وأين جواد شعيب؟! تركت الشباك، ودخلت إلى غرفتها، فاختارت ثوبًا أسود، ساعدتها خادمتها في ارتدائه، وأسرعت للخارج ورماح القلق تُغرس بكل جزءٍ من جسدها. حين نزلت إلى الفناء، كان قد الزحام قد انفضَّ، ولم يتبق سوى بعض الجند. أحسَّت بثُقلٍ يُبطئ حركة قدميْها.. دارت بعينيْها في المكان، قبل أن تسأل أحدهم:

- إلى أين ذهب الأمير سَودان ورفاقه؟

أجاب الجندي وهو يقف في تبجيلٍ:

- لقد صعد إلى غرفته، وتبعه الطبيبُ سيدتي.

إجابته بعثت المزيد من التوتر في عروقها. هرولت إلى الحصن مرةً أخرى، ولكن من باب الرجال، كما يُسمى.. هناك خطبٌ ما.. ليس خيرًا!

****

استمع الطبيبُ مع أبي المغوار لقصة سَودان وما حدث لرجاله، وأشاد بقاطب الجرح وبرعايته، ثم جمع أدواته وقوارير الدواء داخل صندوقه الخشبي الصغير مستأذنًا في الذهاب، تاركًا خلفه الرجلين يُكملان حديثهما. كان سَودان يشعر بالذنب لما حدث لرجاله، لكن أبا المغوار حاول نفض ذلك الشعور عن عقل الأمير، فما حدث كان مُقدرًا، وما كان مُقدرًا قد حدث، فأمر الله نافذ، لا الندم سيعيد شيئًا مما سبق، ولا جَلد أنفسنا سيخفف وطأة الذكرى، ثم إنه قاسى مثلهم وكاد يموت معهم، لولا أن ساعته لم تحن بعد. لقد كانت للعجوز تجربةٌ مريرةٌ لم تزل سره الذي يؤرق مضجعه منذ زمن الأمير خلفون،

وما زال الذنب يُطارده حتى اليوم. داهمته الذكرى، وهَمَّ بقول شيء، حينما سمعا طرقاتٍ بباب الغرفة، فأذن أبو المغوار لصاحب الطرقات بالدخول وهو يدثر سَودان بفراشه. فُتح الباب ودخل الخادم مبتسمًا:

- سيدي، الأميرة رملة تُصر على الدخول، ولقد أخبرتها أن الطبيب قد غادر منذ قليلٍ وأنك تحتاج للراحة، ولكنها أقسمت أن تقتحم الغرفة عنوة.

أشار إليه سَودان وهو يعتدل في فراشه:

- دعها تدخل!

هنالك وقتٌ تكون فيه مواجهة أسوأ الكوابيس أمرًا حتميًّا. لطالما فكر بتلك اللحظة طوال فترة مكوثه بقرية سان فيلي، وها هي ذي قد جاءت. كانت تلك اللحظة أكبر همِّه.. أمرٌ صعبٌ أن تُخبر امرأةً برحيل رجلها. يعلم جيدًا كم هو شعورٌ سيئ أن تفقد رفيقك وأنت في أمسِّ الحاجة له.. أن يذهب، ويذرك تواجه الذكرى كمن يَلقَى الريح في يوم عاصفٍ. حاول النهوض، ولكن ألمًا شديدًا اجتاح جسده، فأشار إليه أبو المغوار أن يبقى مكانه ًوهو يرمقه بنظرةٍ مشفقةٍ. لم يكن جرحه السبب هذه المرة، وإنما لحظة الفراق، التي دومًا ما تخلد بثنايا العقل. لقد حال الموج بينه وبين زوجته يومًا، ثم مات شعيب أمامه ولم يستطع له نجاةً! دلفت رملة بخطواتٍ واسعةٍ، تجر أطراف ثوبها الأسود المطرز بخيوط فضية، لا يظهر منها سوى عينيها المتحفزتين، كما لو كانت مُقدمة على مبارزةٍ لا ينجو فيها المبارز إذا نجا مبارزه. بعد السلام، مرَّت لحظاتٌ على سَودان كدهرٍ، وهي تُبادلهما النظرات دون حديث، وكأنها تخاف أن تسمع جواب سؤالها. تحدث أبو المغوار أخيرًا:

- كيف حالك يا بُنيتي؟

لم تجبه، واختنق صوتها وهي تنظر لـسَودان تسأله:

- أين زوجي؟ لماذا لم يعد معك؟

شعر سَودان كأن سلاسل حديدية تُشد حول عنقه، واستجمع الكلمات ليلقيها عليها متحشرجةً:

- لا يَعز على مِن خلقه.. نسأل الله أن يلهمك الصبر والاحتساب.. لقد كان شجاعًا مقدامًا، استشهد رحمه الله مقبلًا غير مُدبر.

كانت كلماته الأولى فقط كافية لتستعر نيرانُ الآلام بداخلها، ويتصدع فؤادها وينهار أملها. أحست بأنها بيت خَرِب، فارقه أصحابه. غطت عينيها سحابة من الدمع، وصُمت أذناها عن بقية حديثه، وضاعت معاني الكلمات بين ثنايا الوجع. لوهلة، حاولت ألَّا تصدق ما سمعته توًّا.. كانت تستظل بحبه الذي لم ينضب يومًا. تفجر الدمع من عينيْها وهي تتخيل لحظاته الأخيرة، وهي يِِئِست إلى جواره تحتضنه وتمسح عن جبينه آلام الاحتضار. بين ذراعيْ مَن ستُلقي بجسدها باكيةً، وهو الذي كان يسقيها من سبيل حب فاض به قلبه، والآن صار مجرد ذكرى. تمنت أن يعود الزمن، وتمنعه من الذهاب، فلا تتسلل إليه يد المَنون.

الطعنة نافذةٌ إلى أغوار القلب، جعلتها لا تشعر بوجودهم حولها.. لم تسمع أبا المغوار يتحدث عنِ الصبر عند الابتلاء، وكيف فقد ابنته الصغرى– زوجة سَودان- وحفيده، وأن عليها أن تكون قويةً من

أجل أولادها. كانت تشعر بأن أحدهم يضرب صدرها بحديدةٍ. أفاقت على صوت سَودان وقد حملت نبرته الأسى:

- سيدتي أنتِ مؤمنة، وهذا قدرُ الله..

رمته بنظرةٍ غاضبةٍ، وبعينيْن اتقدتا بحمرة الدمع:

- أنت السبب في ذلك.. أنت مَن قتلته.

عقد أبو المغوار حاجبيْه غير راضٍ عن جملتها الأخيرة، فلم تعره التفاتًا، وأكملت حديثها لـسَودان الذي لم يستغرب ردة فعلها:

- أنت مَن أخذته معك لرحلة الصيد المزعومة.. أنت مَن حرمت الصغار من أبيهم.. لم تفكر سوى بطموحك في المجد والشهرة، ليُقال الأمير سَودان يقود بنفسه فرق الاستطلاع، انظروا لشجاعته.. أنت زائف يا سَودان.. أنت قاتل.

كانت كلماتها تفيضُ بالبغض له، ولكنه أخذ قرارًا بألَّا ينطق، فهي مكلومةٌ ويكفي ما أصابها من همٍّ وحُزنٍ، لكن أبا المغوار عند هذا الحد تدخَّل بصوتٍ قوي:

- كفى يا رملة.. يكفي هذا.. لله ما أعطى ولله ما أخذ.. كلنا متجرعٌ من كأسه المُر، إن لم يكن اليوم فغدًا. أعليَّ أن ألوم سَودان أيضًا لوفاة ابنتي؟ لا والله. كلنا سنموت، وزوجك رحمه الله نحسبه شهيدًا.. اصبري وصابري يا بنيتي.. لقد أصيب سَودان بجرحٍ قاتلٍ أيضًا، فكلهم معًا وقعوا في فخ نُصب لهم.. إن خسارتنا لشعيب كبيرةٌ، فلا تدعي الحزن ينالُ منكِ، فهو أحد أبواب الشيطان.

لم تُبال بما قال، وعيناها لا تزالان على سَودان، فما قيل وما سيُقال ليس سوى بضع كلمات عزاء ما أرخصها، فالمُبتلى ليس كالمُعزين، سرعان ما سينسون، وتبقى هي وحدها تتجرع مرارة الفراق.

- يا بنيتي، لقد فقدنا أحباء لنا على مرِّ الزمن.. وسيأتي يوم نلحق بهم.. أقدر حزنك على زوجك، الذي هو أخونا، والذي نحزن عليه أيضًا.. ولكن لكل أجل كتاب.. كلنا سنموت.

قاطعته بصوتٍ تخلله النحيب:

- ولكن الحياة من دونه لا شيء يا أبا المغوار..

ألقت جملتها وهرعت نحو الباب، صكته خلفها بقوةٍ كأنها تلطمهم بقرقعته جزاءً للطمها بالخبر الأسود. جرَّت قدميْها جرًّا عبر الرواق، الذي أخذت جدرانه تضيق عليها أكثر فأكثر، ثم لم تستطع السير أكثر من ذلك، فقعدت أرضًا وقد ضمَّت ركبتيْها إلى صدرها، وعلا نحيبُها وصوتها يتهدج:

- يا وحشة غربتي بعدك يا شعيب.. سلبني الموت روحي، وترك روحك هائمةً بقلبي.

****

طارد كلبُ الحطاب فراشة بألوان ربيع قريب، خرجت من شرنقتها لتجد نفسها طريدةً لذلك الأجرب. وثب لاهثًا يُحاول الإمساك بها، فارتفعت عاليًا، ليدرك أخيرًا أنها صعبة المنال، ويكتفي بمتابعتها

تطير مبتعدة ناحية منزل لورينزو. نبح مرارًا مودعًا إياها، وجر ذيله مبتعدًا بخطواتٍ بطيئةٍ، غير مبالٍ بأحجارٍ راح يلقيها الأطفال نحوه. زمجرة واحدة تكفي ليركضوا بأقدامهم الحافية التي لوثها الطين، وضحكات بريئة تحمل الخوف منه. اتجه نحو جدول المياه أسفل التل، فيما كانت الفراشة تدلف إلى حجرة ماريا، عبر نافذتها الصغيرة. بعينين أعياهما السهر لمحتها ترفرف في سماء الغرفة، تضرب بأجنحتها الملونة أشعة شمس الصباح الذهبية. نهضت من فراشها متثاقلة:

- صباح الجمال يا ذات الألوان الأنيقة..

دارت الفراشة حولها، قبل أن تستقر على تمثال العذراء بثوبها الأزرق وحجابها الأبيض. وقفت على رأسها، تنشر جناحيْها وتطويهما مرارًا. استبشرت أنها رسالة تحمل الخير. جثت على ركبتيها أمام العذراء، وغمغمت بصوتٍ هادئ يحمل توسلها:

- السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة نعمة، الرب معك، مباركة أنت في النساء، ومباركة ثمرة بطنك، فلتكن بشرى منك بالخير، فلتعم نعمك عليَّ وعلى أحبائي ومن أهتم لأمرهم..

طارت الفراشة مرةً أخرى، تتبعها نظرات ماريا، التي نهضت مبتسمةً مع خروج الفراشة من النافذة مرةً أخرى كروح هائمةٍ مرَّت هنا فقط لتطمئن قلبها، وتمنحها ثقةً بأن الفرج قد يأتي من أضيق الأماكن، عبر نافذة غرفتها البسيطة..

استيقظ كاراس على نباح كلب الحطاب. حك رأسه، قبل أن ينهض متعثرًا بقنينة نبيذ، كانت خليلته في ليلةٍ كانت الأصعب خلال مشوار حياته. آخر ما يذكره أنها كانت بين أحضانه، يحدثها عن ليلته التي قد تكون الأخيرة حتى فقد وعيه. أسكرته.. أنهكته.. حتى خارت قواه وهو ينتظر أن يقتلع لورينزو الباب بصحبة فرسانه المدججين بالسلاح، ليُسحب على وجهه إلى ساحة القرية حيث يتلو القس ليو طقوس الموت عليه. حتمًا سيقتل، لأنه ساعد الغريب على الهرب. جرَّ قدميْه إلى حيث دلو الماء، أقحم رأسه بداخله لعل الماء يحجب نباح ذلك اللعين، ويزيح عن رأسه أثر الليلة الماضية. أخرج رأسه وقد غطى شعره الأبيض المبلل نصف وجهه، فأزاحه وهو يستنشق هواءً حمل معه القلق إلى صدره. ليته بقى في غمرة السُّكر، لينسى أمر الفتى إليساندرو.. لماذا لم يعد؟.. هل قُتل أو قتله الضيف؟

توجه ناحية غرفته وهو يُصفف شعره بيديْه. شيء ما جعله يتوقف أمام النافذة قبل أن يدلف للغرفة. ضاقت حدقتاه وهو يُشاهد إجابة سؤاله تتجسد في الخارج، إذ كان إليساندرو يمتطي جوادًا، وخلفه كازميرو تقطر ذراعه دمًا. تجمد في مكانه، يبحث عن تفاصيل لقصةٍ قد تنتهي بنهايته.

عاد إليساندرو بغير الوجه الذي ذهب به. وجهٌ واجمٌ، عيناه زائغتان، يحمل خلفه كازميرو، الذي- رغم جرحه- عاد لإنقاذه؛ لكنه أبدًا لم يُخبره بما حدث مع العربي، واكتفى بكذبة أن الرجل لما أصيب هرب، ولم يستطع مطاردته لأن الحصان هرب أيضًا بعد إصابته هو الآخر. كلمات سَودان كان تتردد في رأسه، ومئات القرارات تتلاحق معها في فوضى جعلته يصمت طوال الطريق. كان يبحثُ عن سبيلٍ آمن يعود به إلى القرية، فأبوه ينتظر ابنه المنتصر العائد برأس العربي؛ ولكنه لم يعد إلا بالخذلان، ينتظره العقاب الذي قد يكون أمام الجميع.

أوقف حصانه أمام منزل عمه كاراس، وأشار لأحد المارة أن يُساعد كازميرو الجريح، فيما نزل متجهًا إلى باب المنزل، يطرقه طرقاتٍ قوية، جعلت العجوز ينتفض، قبل أن يهرع فاتحًا الباب. تبادل

النظرات مع الفتى صاحب الابتسامة الخبيثة:

- صباح الخير أيها الخائن.

غمغم كاراس متوترًا:

- أهكذا تُخاطب عمك؟

رفع إليساندرو سبابته أمام وجهه:

- اسمع يا هذا.. سيكون جزاؤك عسيرًا، ولكن ليس الآن. فقط عالج ذراع صديقي، وسأرى بعد ذلك ما نفعل.

أفسح المجال ليدخل كازميرو، متأبطًا الفلاح الذي ساعده على النزول من على ظهر الحصان. أخذ كاراس ذراعه الجريح على المنضدة، وأزاح عنها الأطباق والأدوات، وعيناه لا تزالان متعلقتين بـ إليساندرو، الذي قال محدثًا صديقه المصاب:

- سأعود بعد قليلٍ.. عليَّ أن أذهب لوالدي، لأخبره بما حدث.

لم يرتح كاراس لنظرات إليساندرو، وتنفس الصعداء مع رحيله، ثم بدأ يقص ثياب كازميرو ويريق بعض الماء على الجرح قائلًا:

- كيف أصبت؟

أجابه كازميرو وعيناه معلقتان بجرح ذراعه، وعقله يُعيد عليه مشهد مبارزته:

- لقد كان مبارزًا لا يُشق له غبار.. لم يكن أمامي سوى الهرب بعيدًا بعد إصابتي..

عضَّ على شفتيه ليكتم الألم، جراء ضغط كاراس على الجرح، ثم أكمل:

- أفلت من أيدينا، بعدما كاد أن يقتل إليساندرو..

انشرح فؤاد كاراس، وبدأ يعمل في ذراع الفتى بثقةٍ وحيويةٍ، مشجعًا إياه أن يتحمل الألم. وفي تلك الأثناء، كان إليساندرو يجرُّ قدميْه نحو باب المنزل المكتظ بالفرسان المدرعين، يرتب في عقله ما سيقوله أمام والده وفرسان بنفينتو. دفع الباب برفقٍ، ليجد بهو المنزل ممتلئًا بالأجساد المبعثرة لفرسان لم يخلعوا عنهم دروعهم، البعض نيامٌ وآخرون يرمقونه بنظراتٍ متفحصةٍ متوجسةٍ. وقف لحظاتٍ عاقدًا حاجبيْه، ثم أدار وجهه ليتسلل إلى غرفته، فاصطدم بوجه أبيه يكاد يلتصق به. تبادلا نظرةً طويلةً، استشعر لورينزو فيها خيبة أمله وصدق حدسه في ولده الذي لا يصلح لشيء. الفتى حاول جاهدًا أن يسيطر على ما بداخله من خوفٍ وتوترٍ، إلا أن وجهه كان يفيض بالخذلان، ولم يستطع التفوه بكلمةٍ واحدةٍ مما أعد طوال الطريق، حتى حطم حاجز الصمت صوت الدوق ماركيزيو:

- إذن أنت إليساندرو الشجاع؟!

ابتسامةٌ باهتةٌ كسرت جمود وجه إليساندرو، قبل أن يقول بثقةٍ مصطنعةٍ وهو يتأمل الدوق:

- نعم هو أنا..

ضحك ماركيزيو وهو يتقدم بضع خطواتٍ:

- أين الأسير إذن أيها الشجاع؟

باقتضابٍ أجاب إليساندرو:

- لقد قتلته.

استدار الدوق موجهًا حديثه إلى لورينزو:

- ألم أقل لك إنه سيفعلها..

لم يفرج لورينزو عن كلمةٍ مما يدور بخلده. اكتفى بإيماءةٍ، فيما استطرد الدوق:

- إذن أين جثته؟ لماذا لم تأت برأسه لنا على الأقل..

- أكلت جيفته الذئاب، كما هاجمت أحد خيولنا أثناء نومنا؛ لذا عُدت أنا ورفيقي على ظهر جوادٍ واحدٍ، مما جعلنا نتأخر كل هذا الوقت..

لطالما حَملت الذئاب كذب البشر، ولطالما لُوثت أنيابها بدماء وهمية لم تقترف خطيئتها. ساد الصمت بعد كلمات إليساندرو، والدوق يُحاول أن يستسيغ حديث الفتى، بينما لم يصدق لورينزو أي كلمة منه. حاول أن يُفسح مقدار حبة من خردل من عقله لتصديقه، ولكنه يعرف ابنه أكثر من أصابع يده، وعلى أية حال، فالأهم الآن أن يصدق الدوق ما قاله، فينجو من مهانةٍ لا قبل بها. كانت كلمات الكاردينال أدريان تدوي في أذنيه: "اذهب وائت بذلك الأسير إلى روما"، ولكن الأسير مات وانتهى أمره، عليه أن يستمر في الكذب الذي بدأه ابنه، وربما يحصل على قدرٍ من الأموال أو مزيدًا من النفوذ ليقترب حلمه في تكوين دوقية خاصة به..

تصدع فؤاد ماريا، وهي تتلصص على حديث الرجال من وراء الباب. زهقت روح الأمل بصدرها، وتبددت أحلام وصلوات توسلت بها نجاة عبد الله. تراجعت لفراشها دامعة، وأعاصير الحزن تعصف بأحلام ورديةٍ عن رؤيته مجددًا. لكنه لم يمت، هكذا حدثها قلبها، فاستندت إلى جدار الأمل تبني حلمًا جديداً أن يعود. إنه ليس كما يقول أولئك المعتوهون غريب رحل أو قتله أخوها ولن يعود. نبتت براعم الشوق بقلبها لتجعل من عودته أمنية تفرض نفسها على كل الحقائق، وتصدقها مكذبة إليساندرو الغراب.

****

أبحرت سُحب الشتاء في سماء باري، وتلاحمت لتحجب ضوء بدر حمل صورة شعيب، لعينيْ رملة، التي لم تكف عن البكاء طوال ذلك اليوم الطويل. تقبلت التعازي دون أن تنطق بكلمةٍ، وحاولت أن تبقى صامدةً أمام أطفالها ولكنها فشلت. أودعتهم غرفتهم، لتبقى معهم الخادمة، وخرجت إلى سطح القلعة، حيث حدثت القمر والنجوم، ما إن تنقضي شهور عِدتها ستعود إلى إقريطش. لقد كرهت هذه

المدينة التي تَجسد أحزان من اعتصر الحب قلوبهم، وسَلخ الفراق أرواحهم. راح الحبيب ولم يترك لها ولو مثوى معروفًا في قبور المدينة تزوره عنده. خطف البرق البعيد بصرها، ليضرب بعده الرعد عقلها، وبدأت السحب تقطر ماءها تغسل عنها أنين الروح. تسلل إلى مسامعها وسط المطر والرعد صوت ناي ماركو. عزفه حزين، لعله يفتقد شعيبًا أيضًا. أثارت نغماته الشجن في نفسها، فتمتمت بخفوتٍ وهي ترفع يدها إلى السماء:

- لإن نكفكف دمع العين، فالقلب بدمع الفراق نديٌّ لا يجف. حبنا موصولٌ، حتى انتزاع الروح ولقاء المنية.. والله لن يغيب طيفك عن بصائري، ولن يرتضي القلب سواك بديلًا. قوضني مقتلك يا شعيب، حتى صار الموت أكبر أمانينا، فسلام عليك يا قرين الروح.

أنينُ الناي لم يصل أذنيْها وحدها، بل سرى بأروقة القصبة، وتسلل إلى حيث يجلس سَودان على طرف فراشه الدافئ، بعد يوم شاق، استقبل فيه قادته ورجال الدواوين، وإن لم يكن هو ذاك الرجل الذي عهدوه، وخرجوا من عنده يتهامسون بينهم. بقي معه أبو المغوار، يُحاول سبر أغوار من شَب على ساعديْه، لكن لم يتحدث سَودان كثيرًا، وإن حرص أن يشير على العجوز ألا يخرجوا هذا الصيف إلى الحرب، فالحلفاء من إقريطش مشغولون بحربهم مع بيزنطة في جزر بحر إيجة، وما زال تحالفه مع نابولي قائمًا، والناس اشتد وجع الموت بينهم، فلا بد أن يشعروا أن الدين للحياة وليس طريقًا للموت، لذا فأموال تجهيز الجيش لهذا العام الإعمار أولى بها، خاصة في شمال باري، حيث عليهم أن يبنوا حصنًا جديدًا، يزيد خط الدفاع عن المدينة منعةً وقوةً.. لم يرق الأمر لأبي المغوار، إذ رأى أن الناس لو استكانوا للتنعُّم سيفقدون خشونة المجاهدين، واقترح عليه أن يعقد جلسة شورى ويأخذ رأي الجميع، ورحل أبو المغوار عن ربيبه، يطوف حول قلبه قلقٌ عظيمٌ.

لم ينم سَودان، فقد أرَّقه حال رملة واتهامها له. لقد ذاق ألم الفقد مثلها، ومهما بدا أنه لملم شتات أفكاره وتخطى تلك المرحلة، فالذكرى باقية، محفورة بعقله ما حيا، ودومًا ما يشعر ببغضٍ وكرهٍ لذاك البحر، الغادر كسفن بيزنطة ذات اللهب، وصار البحر رمزًا لسلب الحياة في مخيلته. ولكنّ كما قال العجوز لا تقف الدنيا برحيل أحد، وسيمضى الزمن وينضج عقلها أو لا ينضج، هكذا هم النساء قليلٌ منهن من يتمتعن بالبصيرة. ضرب الرعد أذنيْه، ليعيد إلى ذهنه وجهها. كان قد تناسى أمرها هي وقريتها، ولكن ها هي ذي تقف قرب نافذته كشمسٍ مشرقةٍ في ليلةٍ معتمةٍ، ضوء المشكاة يرقص مع طيفها. حرك رأسه عن اليمين وعن الشِمال لينفضَ عن رأسه تلك الخيالات، ولكنها لم ترحل، وشغل باله بالتساؤل عما يجري الآن..

- لماذا تقتحمين ليلتي عَنوة يا ماريا، وما هذا الذي أشعر به كلما مر طيفك بعقلي؟

تهادت في مشيتها أمامه، قبل أن تزيح خصلات شعرها الكستنائي عن وجهها. أغمض عينيْه لوهلةٍ.. أراد أن يفتحها ليجدها رحلت؛ ولكنها بقيت. ظن أن سحرًا ما قد أصابه، أهي قد ألقت عليه تعويذة أثناء غيابه عن الوعي في منزلهم؟ ولكنها ليست ساحرة بالتأكيد.. كيف لهذا الجمال وذلك الجسد المثالي أن يكون لساحرة؟

غمغم محدثًا نفسه وهو يلقي بجسده على الفراش:

- ويحك يا سَودان.. أصرت تشتهي وجودها بعد الرحيل؟ كيف لها أن تُثير الشجن بقلب كانت تجوبه رياح الخواء؟

تقلب بالفراش مغمضَا عينيْه، باحثا عن نوم تبدد مع صوت عقله، يتذكر وهج عينيْها في نظرته الأولى لها، حاول مرارًا ألا يتبعها بالثانية، ولكنه لم يفعل فقد كانت نظراته لها دومًا الأولى، والآن يتمنى النظرة الثانية، ألجمت لسانه يوم قبضت على يده، قاوم ذلك الدفء الذي تسلل إلى روحه، ولكن ها هو ذا قلبه الصلد يتحطم أمام ذكراها.. شعر أنه ليس ذلك الشخص الجامد المشاعر، في بداخلِه وُلد طفلٌ جامحٌ راح يبحث عن كل لحظاتهما معًا.. لمسته لأصابعها يوم أعطته الوشاح كانت كافيةً لتُشعل النيران بصدره، تمنى أن تحلق روحه فتزور منزلها.. ليرى إن كانت تذكره.. أم أنه أصبح فى طي النسيان كعابر سبيل مرَّ بقريةٍ ليُسقى شربة ماء ويمضي.

****

رُبَّ بذرةٍ من فضولٍ، تُخرج خفيةً جذورًا من شوقٍ، حتى تنشقُّ الأرض معلنةً عن عودٍ أخضر من حبٍّ غضٍّ يتنسم هواء الحياة. تحينت ماريا فرصةَ خروج والدها لتوديع الدوق الراحل برفقة فرسانه إلى نابولي، وتسللت خارجةً، متجهة إلى منزل عمها كاراس. في طريقها، أخذت تستعيدُ كل ما سمعت ورأت، وتحاول أن تفهم من كل هذه الفوضى حقيقة مصير عبد الله. إليساندرو اكتفى بإشارةٍ لها، إذ مرر يده على عنقه في إيحاء أنه سيقوم بذبحها، ولكنه لو أراد لقال لأبيها إنها من قامت بمساعدة عبد الله في الهرب، وما منعه عن ذلك إلا حاجة في نفسه لم تعرفها بعد. دخلت عليه، فوجدته ينظف المنضدة من أثر غياره الطبي على جرح كازميرو. تبادلا النظرات، قبل أن تُسيطر الدموع على عينيْها. تركت بركانها ينفجر أخيرًا، وهي تُلقي أحزانها بين ذراعيْه، لكنها فوجئت به لا يحرمها تربيتته الحانية ولكنه معها كان يضحك مقهقهًا. توقف نواحها واتسعت عيناها غير مالكةٍ لجرأة السؤال والأمل، فأمسك بكتفيها، وقال بابتسامةٍ واسعةٍ:

- لم يمت كما قال لكِ أخوك المتعجرف.

تبدلت ملامح وجهها المنهكة، وهدأ الدمع في عينيْها دافئًا، يسيل على خديها فيختلط بابتسامةٍ مترقبةٍ المزيد من النور بعد كل تلك الساعات السوداء. استطرد عمها:

- لقد قص عليَّ كازميرو كل شيء.. تعلمين، المرضى يبوحون لأطبائهم بأشياء لا يقولونها لو أنهم أصحاء.

بعينيْن فرحتيْن نضب دمعهما تساءلت:

- هل نجا؟.. أيمكن أن يعود؟

لم يكن سؤالها مباغتًا، فهو بعد كل هذه السنوات في معترك الحياة، ما كان ليخفى عليه أن ابنة أخيه صريعة الغرام، قد بدأت لتوها رحلةً بين الشوق والشوك، فالطريق الذي اختاره قلبها مليء بشوكٍ قد يُدمي حياتها. ابتسم لها، وفكر قليلًا في ردٍّ مناسبٍ للموقف. قد تكون كلمة منه كافية لتحطيم قلبها الرقيق، ولكنه لن يفعل، حاشاه أن يقتل أملًا بين المحبين، حتى وإن كان بعيد المنال..

- الرب وحده يعلم يا بُنيتي.

أشاح عنها، وشغل نفسه بإعداد كأسين من عصير البرتقال، بينما استرخت هي في كرسيها،

وأمسكت بإحدى رقع الجلد الجاهز للكتابة، تناولت الريشة غمستها بمداد حبر، وأخذت تخط رسم كلمتها الأولى بالعربية.. لم تستطع يومًا أن تكتب العربية أو تقرأها، فقط تعلمت التحدث بها في هذا المنزل الذي منحها حرية العلم والتعلم. حين انتهتٍ من النقش، رفعت رأسها، فوجدت عمها يحمل كأسي العصير ويُراقب ما تكتب، فقالت له مبتسمة:

- هذا اسمه.

عقد حاجبيْه في دهشةٍ:

- سَودان!

وجمت وسألته:

- أليست هذه الكلمة تُنطق عبد الله؟!

وضع ما في يده على المنضدة وهو ينظر إليها:

- لا، إنها سَودان!

تجلى على وجهها عدم الفهم، بينما أمسك كاراس الرقعة وأخذ يشير للأحرف:

- سَ-ودان.. من قال لكِ إن هذا اسمه؟

أجابت فى سرعةٍ:

- هو.. كان قد كتبها على شاطئ البحيرة، وحين سألته ما هذا؟ قال إنه اسمه.

غمغم وهو يحك رأسه:

- أنا لا أعرف سوى شخصٍ واحدٍ يُدعى بهذا الاسم.. وإن صدق ظني، فإن من آويناه لم يكن اسمه عبد الله.

اتسعت عيناها في ذهولٍ، فيما أكمل العجوز كاراس بصوتٍ هادئ ارتجف لكلماته جسدها:

- من حَل علينا ضيفًا كان سَودان الماوري.. أمير إمارة باري!

****

مضى الربيعُ سريعًا، وبقيت منه ذكرياتٌ أبت أن يطويها النسيان. كان محصولُ الكَرم وفيرًا، ربح لورينزو الكثير والكثير هذا الموسم، وعاد من روما محملًا بأصنافٍ شتى من البضائع والهبات التي مُنحت إليه عند حضوره مراسم تنصيب الكاردينال ليصبح بابا، ويصبح معه لورينزو نبيلًا حقيقيًّا يحظى برعاية الكنيسة. ها هي ذي سان فيلي قد تجملت.. تستبدل سورها الخشبي القديم بآخر حجري يرتفع عن الأرض أربعة أذرع على يد بنَّائين من بنفينتو ونحَّاتين من روما، أضافوا أيضًا الزخارف لمنزله، فجعلوا منه قصرًا أبيض صغيرًا، أضيف له دورٌ علوي متوَّج بالقرميد الأحمر، واستبدلت الحظيرة بجناح فخم الأثاث، كي يستضيف فيه النبلاء. لقد أخلص لحلمه، وها هو ذا يتحقق أخيرًا. كان يعتقد أن الخير أتى بتخطيطه وحبكته لحكاية الأسير العربي، وسار ابنه إليساندرو على نهجه، فكاد يُصدق نفسه أنه قد قتل الأسير العربي، بعد معركةٍ لم تقم سوى في خياله، تمامًا كمعركة أبيه حين أسر العربي. لا يهم أين الحقيقة من الكذب، فالآن قد رحل العربي وجاءت من بعده البشريات، وفاض كيل بركات البابا الجديد والدوق ماركيزيو.

الحياة رؤى، كلٌّ يُطلق عنان روحه، لتحلق في سماء الخيال بأجنحة الهوى، الذي يميل بزاوية الرؤية حيث يشاء القلب. الأمل وشهوة الحياة ينموان في ربوع الحلم كأيائل تحظى بالأمن في ظلال الغابة بين جذوع الأشجار، وتتجسد لصاحب الأمنيات كترنم الحساسين أنشودةً فريدةً تحت خيوط شمس صيفٍ جديدٍ. ربيع انقضى وصيف حل، وتلونت زهور الأمل في بستانها، الذي كان كافيًا لتنشغل به عن صخب الحياة الجديدة التي شغفت أسرتها وشغلتهم عنها، فحظيت بوقتها لمراعاة البستان الذي اتسع، خاصة بعدما نُقلت الحظيرة لطرف القرية عند السور الجديد، وصارت للحيوانات فيها خادمة تقوم عليها، كما لم تعد أمها صاحبة المطبخ ورائدة الطهو، بل صارت تستمتع بإعطاء الأوامر للطهاة ثم تخلد للراحة. كل شيء تبدل إلا هي، لم يعنِها الحصول على مزيدٍ من الأثواب، ولم ترتدِ يومًا القرط الذي أهداه لها الدوق ماركيزيو، متوددًا إليها. لم يرق لها هذا الإنسان يومًا، فنظرته لها أشبه بخنزيرٍ هائجٍ في موسم التزاوج. فقط تخففت من تكاليف كثيرة كانت تُرهقها.

لم يعد إليساندرو يُضايقها، فقد صار لديه ما يشغله، فهو المسؤول عن مخزن الأسلحة الجديد والإشراف على تدريب الرجال، ويختطف أوقاتًا قليلةً لمرافقة فيولا، ثم يقضي ليلته في حانةٍ كبيرةٍ بُنيت حيث كان منزل سباستيان، الذي لم يعد حطابًا. إنه الفراغ ما كان يجعله يتخذ أخته وسيلةً لممارسة تفاهاته، فحمدًا للرب أن أرسل إليه ما يشغله.

بقي منزل كاراس لم يطله التغيير، متواضعًا هادئًا يكتفي صاحبه بجنة العلم والعلوم والرائحة الطيبة. كان ملجأها الآمن من كل الزيف الذي يخنقها في حياتهم الجديدة، وقد جعلت عمها يعلمها شيئًا فشيئًا كتابة العربية، فبرغم تبدل كل ما في القرية، ما زال طيفه يسكن شاطئ البحيرة، وملامحه تراوغها بين الأشجار، وابتسامته وعيناه السوداوان، وفرسه البيضاء وصوته القوي.. كل شيء يخايل أحلامها ويقظتها، وهي تتمسك بملامحه تسترجعها دائمًا، لا تريد لطول الأيام أن يجعلها تبهت. أترى وشاحها الذي تركته له ما زال يذكره بها، كما تذكره؟

"سَودان" أو أيًّا كان اسم هذا الرجل، فهو من منح القرية بركة الترقية، ومنح قلبها شغفًا لم تذقه

من قبل. مجرد ذكره في كذبةٍ بلهاء تنزل بالنعم على رأس أبيها الذي أمضى عمره- قبل حضور سَودان- يسعى ولا يحصد. كان غيابه عنها كغياب الشمس في منتصف النهار، لا يمكن لروحها أن تقبله. لطالما صلّت ألا يطول الانتظار، وأن يدرك حضوره نبتة الصبر بقلبها.

جَرت قدميْها إلى شرفةٍ تطايرت ستائرها بفعل نسماتٍ ربيعيةٍ. يأتي الفجر من حيث أتت الفرس البيضاء يومًا.. حيث يرقد جدول المياه القادم عبر جبلٍ تخلى عن قمته الثلجية. كل شيء ساكنٌ إلا قلبها الذي لا يكف عن تذكره. حاولت أن تترك لعقلها زمام الأمور، ولكنها فشلت، إنه الوحيد الذي ملك كيانها. رغم مرور أشهر الربيع ثقيلة، إلا إنها تجاوزت تيه الوهن وفقدان الأمل، واستقر الوجد في جوانحها تنتظر ولا تيأس.. فكرت أن تذهب اليوم إلى بحيرة الوجدان علّها تروي شوقها الجامح، فليس تحت ظلال شجرة السنديان التي اتكأ عليها ذات يوم تظمأ الذكريات؛ لكنها أفاقت من سُبات روحها على صوت بوقٍ دوى في أرجاء القرية.

توجَّهت العيون إلى البوابة الشمالية الجديدة. لحنٌ غريبٌ جاء مباغتًا، بدأ بالبوق، ولكن "السراسنة" لا يستخدمون البوق لإعلان الهجوم. إيقاع الطبول هو ما دلهم على هوية القادمين، قبل أن يدخل أفراد الجوقة الموسيقية إلى سان فيلي، وموسيقاهم تزداد صخبًا. المزمار لامس قلوبهم، فمنحها رمق أمن وشجن، إنهم يقولون إن أنينه كان صلوات الشيطان حين كان مقربًا من الرب، ولذا فهو يستطيع أن يمتلك قلب ولد آدم. تقافز الأطفال فرحًا حول القزم المتشح بقطعٍ من قماشٍ ملونٍ، يقفز ويرقصُ متدحرجًا على الأرض، يمنح الوجوه ضحكاتٍ مبتهجةً وهم يتسابقُون لرؤيةً الفرقةً. عبرت الفرقة البوابة الحجرية الجديدة، وفي مقدمتها كان عازفُ المزمار تختلف قدماه في المسير، يتقدم خطوة ثم يتراجع خطوتين، يتقافز على أنغام لحنه، الذي أجبر الأطفال على الرقص حوله. إلى جانبه كان قارع الطبل يضرب بعصاه صدر طبلته، فتعطي إيقاعًا راقصًا يناسب لحن المزمار. كان جامد الملامح بالمقارنة بالسمين خلفه، الذي لم يمنعه فقدانه بعض أسنانه من الابتسام. كان أشعث، رقعت ملابسه الرثة بألوان مختلفة، يقود عربة يجرها حمارٌ تظهر عليه آثار الرحلة الطويلة. ضاع صريرُ العجلات بفعل ضجيج العزف، ومرت العربة المزينة براياتٍ مهترئةٍ، تعددت ألوانها وأحجامها، أكبرها كانت زرقاء تحوي ورودًا ثلاثية الأوراق، شعار الإمبراطور شارلمان، وأخرى صفراء فاقع لونها تحمل نسرًا أسود له رأسان، وفي المقدمة كانت أبرزها، بيضاء يتوسطها صليب أحمر كبير. توقفت العربة مع دوي البوق الذي أطلقه السمين. جمد كل شيء.. صاحب المزمار أصبح تمثالًا، فما زال العود في فمه وأصابعه في وضع العزف، كما أن قارع الطبل توقف على آخر حركة له. زاغت الأبصار، وتراجع الأطفال بين سيقان الأمهات والآباء، الكل ينظر في ترقب للعربة وأعضاء الفرقة.

قفز فجأة خارج العربة مخلوقٌ غريبٌ أسود. تعالت الشهقات مع رؤيته، وتشبثت أظافر الأطفال بأفخاذٍ ترتعد. كان أمامهم غولٌ قصيرٌ كثيف الشعر، أسود إلا من مخالب طويلة حمراء، وجهه ملطخ بطلاء أبيض وأسود، أخذ يقفز يمينًا ويسارًا، ينقلب رأسًا على عقب على صوت دقات الطبل الخافت. وبينما هم على هذا الحال، خرج من العربة شاب يُمسك بسيفٍ خشبي طويلٍ، راح يركض خلف القزم المكتسي بالسواد.

رددت جنبات القرية ضحكات أهلها والقزم يُصدر أصواتًا مُضحكة كلما لامس السيف الخشبي مؤخرته. وفي النهاية، استطاع الشاب أن يمسك بالقزم ويقذفه في الهواء إلى داخل العربة، وسط شهقات وقهقهات أهل القرية، ثم التف الأطفال حول أفراد الجوقة الملوحين بالرايات الملونة، لقد جاءت الفرقة الكارولنجية من روما خصيصًا لتمنحهم عرضًا لقصة معركة الانتصار على السراسنة.

ومن فوق الربوة، حيث منزل لورينزو، كانت ماريا تَشاهد ما حدث، وإلى جانبها كان أبوها يُراقب العرض سعيدًا:

- أتدرين يا ماريا.. سأجعلهم يُقدمون عرضًا خاصًّا الليلة، بحضور الدوق ماركيزيو.

رمقها بطرف عينيْه وهي تتركه وتُغادر إلى الداخل. مجرد ذكر هذا الاسم جعلها تبتعد. يقلقه هذا كثيرًا، فتدليله لها يؤتي ثمارًا غير جيدة تهدد خططه. إنها تفهم ما يرمي إليه والدها، تعي جيدًا أنه لن يكف عن السعي، إلا وهي زوجة ذلك الدوق المتغطرس. مرَّت بوالدتها، كانت تطلي وجهها بمساحيق التبرج التي أتى بها أبوها من روما. لم تجب على سؤالها عن الضجة في ساحة القريةِ، تركتها ودخلت إلى غرفتها الجديدة.. الأثاث الجديد لكل المنزل قد اختاره والدها بما يظنه لائقًا بوضعه الجديد كنبيلٍ حقيقي. أتى لها بفراشٍ وثير ومرآة من البندقية، وألقى بالأثاث القديم إلى بائعٍ فقيرٍ. ولكن الغرفة احتفظت برفيقين قديمين: تمثال العذراء، وحصان خشبي لا يعرف أحد هنا أنها تمتلكه. روح تعيش أسفل وسادتها، تؤنس أحلامها في النوم. ووحدتها في اليقظة. وتُخفيه بين وقتٍ وآخر في حوض الزهور على سور شرفتها، لعله يُنادي صاحبه فيأتي.

****

لم يعد هناك من يُشعل شموع المذبح سوى الأب ليو. بثوبٍ خشنٍ من الصوف وإزار من حبلٍ غليظٍ، وقف وسط القاعة الخاوية يقلب وجهه بجنباتها، ثم سار ببطء متجهًا لباب الكنيسة الصغيرة. انفرج الباب، ليكشف الطريق إلى القرية والذي صار خاويًا من الذاهبين من وإلى الكنيسة منذ أن بدأ تطوير القرية، عدا يوم الأحد. الكل منهمكٌ في البناء والأشغال صباحًا، وبعد المغيب تتعالى ضحكاتهم من حانة سباستيان، فقلَّت الهبات مع قلة الطالبين لصكوك الغفران، وحتى لورينزو لم يعد يحتاج إليه، فهو إلى جانب البابا ونبلاء بنفينتو. دار بعينيْه في الأشجار المحيطة بالكنيسة، قبل أن يلحظ إليساندرو يتهادى في مشيه تتأبط ذراعه فيولا. اقتربا منه ضاحكيْن: أصبحت وحيدًا الآن؟

قالها إليساندرو بصفاقةٍ، فيما رماه الأب ليو بنظرةٍ غاضبةٍ:

- مَن يخدم الرب ليس وحيدًا.

ضحكت فيولا، فيما قال إليساندرو:

- لماذا رفضت قرار تكوين جيشٍ صغيرٍ لمقاومة الغزاة؟

كان السؤال مباغتًا. بسبب معارضته ذلك القرار لم تُمنح الكنيسة حقها في التطوير كبقية أرجاء القرية. يذكر يوم جاءه لورينزو طالبًا منه أن تكون عظة الأحد لدفع شباب القرية للالتحاق بالفرقة الحربية تحت قيادة إليساندرو، فرفض. ما إن يمتلك ذلك المراهق المتعجرف القوة، سيطيح بالجميع ويعيث في الأرض فسادًا. بالطبع رفض، لأن الأمر سيجلب مهلكة على القرية والأنحاء، فالأغبياء يجب ألا يُصبحوا حكامًا، والآباء يجب أن يعوا قدرات أبنائهم الحقيقية. إن لم يكن الأب قادرًا أن ينصح لابنه، فعلى خادم الرب أن يبصِّره:

- دومًا ما يقود الكبش الحملان إلى المذبح..

عقد إليساندرو حاجبيْه متحديًا:

- هل يجب أن نبقى مستضعفين، نحتمي بالكنيسة وقت غزوهم لنا؟ لماذا ترفض أن تثور الحملان؟

أتى صوتُ الأب ليو عميقًا:

- الحملان لا تثور، إنما تتبع إرادة الرب. كيف ستحاربهم وهم يحكمون العالم يا صغيري؟

لوَّح إليساندرو بيده أمام وجه القس:

- إذن علينا أن نستمتع بحصولهم على أموالنا وديارنا! علينا أن نرضخ ونكون عبيدًا لهم! أيتدخلون في شئون بلادنا وننصهر فيهم وننسى هويتنا؟.. أعلينا أن ننسى دين الرب؟ ما هكذا تكون الأمور أبدًا يا أبتي.. إنهم مجرد برابرة وثنيين، ألم يأذن الرب لموسى بهجران مصر وأذن بعد ذلك له بحرب العماليق؟ اسمع يا أبتي، إن كنت خائفًا من العواقب.. فالتضحيات يحفظها الرب ويقدرها ولما كان صُلب من أجلنا.. ضحى من أجلنا ولقد جاء الوقت لنقف أمام المد البربري ونضحي من أجل..

قاطعه الأب بصرامةٍ:

- اصمت يا فتى، كفاك تبجحًا وتدينًا زائفًا. أنت لا تُريد سوى سفك الدماء بحثًا عن مجدٍ يرفع من شأنك، عسى أن يصيبك الثراء والبذخ. ماذا تعرف عن الرب لتتحدث باسمه؟

صرخ إليساندرو بوجه الأب ليو، الذي وسعت عيناه جراء الصوت المرتفع:

- كفى أيها الأب.. لقد تخطيت حدودك معي في الحديث.. إن كنتَ ترفضُ الحرب، فالزم كنيستك وأغلق بابك عليك وتضرع.. ولا تنس أن تقول للرب إن الحملان ستثور.

استدار الفتى راحلًا وهو يُداعب فتاته، وقبل أن يختفي بين الأشجار صاح دون أن يلتفت:

- نسيتُ ما جئتُ لقوله لك. عليك أن تحضر عرض المساء، فاليوم سيُعلن أبي على الجميع خبرًا سارًّا.

****

أضاءت المشاعلُ طرقات القرية الخاوية، فالجميع ذهب إلى الساحة ليُشاهدوا عرض الجوقة الموسيقية. أمر لورينزو بصنع مدرج خشبي، وما إن انتهى النجارون من تجهيزه، حتى اكتظ بأهل القرية. حفلٌ على شرف الدوق ماركيزّيو، العائد من نابولي بأخبارٍ سارةٍ، والذي جلس في مقدمة

الصفوف إلى جانب عائلة لورينزو، مرتديًا قميصًا رماديًّا، نقش على صدره صليب فضي زخرفت حوافه بلون بنفسجي، وتدلت حرملة بنفس الألوان عن كتفه اليسرى. كان في أبهى صورة له، كما هم جميعًا، يتحين الفرص للنظر إلى ماريا مبتسمًا، بينما تولي وجهها متظاهرةً بالحديث مع أمها، التي بدت في فستانها الأصفر أكثر سمنة. وإلى جانب الدوق، كان لورينزو يجلس متفاخرًا، ينوي أن يُعلن خطبة ابنته للدوق. زيجة ستمنحه مزيدًا من النبالة والشرف. في تلك الأثناء خرج راوي الفرقة السمين إلى الساحة، خفض رأسه قليلًا ليحيي الدوق والنبيل، ثم اتجهت أنظاره للجمهور مبتسمًا:

- سعداء بوجودنا هنا في سان فيلي، بلدة الشجعان.

عقدت ماريا حاجبيها، وحاولت إخفاء ما اعتراها من ضحك، فالرجل يكذب.. عن أي شجعان يتحدث؟!

- ما ستشاهدونه الآن هو رحلة بطولة وبسالة وتضحية منقطعة النظير..

خرج إلى الساحة بالتزامن مع حديثه أحدُ شباب الجوقة، يرتدي قميصًا أزرق خفيفًا مشقوقًا صدره، يحمل سيفًا يشع كلما اصطدمت به أضواء المشاعل، ويُمسك بيسراه درعًا زرقاء زُينت بورودٍ ثلاثيةٍ ذهبيةٍ.. دمدمة الطبل سرت بأرجاء المكان، مع حركة الفتى الخفيفة وصوت الراوي:

- رولان الشجاع.. خاض جبال البرينيه مع جيش عمه الإمبراطور شارلمان بن بيبن بن شارل مارتل.. عَبر إقليم الباسك حيث مدينة بنبلونة التابعة لنفوذ السراسنة، ومنها توجهوا إلى سرقسطة لتحريرها من الشيطان.. حتى جاء جيش الظلام بقيادة الداخل.

ظهر في تلك اللحظة، في الطرف الآخر من الساحة، شاب آخر يحمل درعًا مستديرةً صغيرةً، وحربة علقت عليها رايةَ بلون صبغة وجهه السوداء، من خلفه مجموعة من شباب القرية ارتدوا نفس الزي المزركش، ودهنوا وجوههم بطلاء أسود، تحركوا ناحية رولان. ومجموعة أخرى ظهرت بزيها الأبيض ذي الصلبان الحمراء خلف فتى أشقر، والراوي يستطرد:

- حين علم العظيم شارلمان أن جيوش السراسنة قد تتخطاهم عبر طريقٍ آخر إلى بلاده، أزال الحصار وترك خلفه رولان مع بضعة فرسان شجعان.

ارتفع صوتُ الناي مقترنًا بصوتٍ أنثوي عذبٍ يترنم:

- لم يبق سواك وحيدًا.. ولكن من كان الرب معه لا يعرف الوحدة..

صمتت الفتاة، وعاد الراوي يقول بصوتٍ رصينٍ:

- كان رولان مؤمنًا.. مستعدًا للتضحية بحياته من أجلنا. بقي ليؤمن ظهر جيش عمه شارلمان، ولما وصل الجيش إلى قمة الممرات الجبلية، رأى أوليفير جيشًا جرارًا من العرب والباسكيين..

ارتفعت دمدماتُ الطبول، وقد خلا المسرح من الجميع إلا ممن يلعب دور رولان وصاحبه أوليفير

الذي حدثه خائفا:

- يا صديقي رولان، صدِّقني.. من الأفضل أن تنفُخ في البوق، لتعلم عمك وجيشنا أن الخطر قادم.

أمسك رولان بكتفيه:

- وحق إلهي، لن يُلجئني أحدٌ أبدًا إلى طلب النجدة، ولن يستطيع أحدٌ أن يقول يومًا إن رولان كان خائفًا، وفي المعركة سوف أضرب ألفًا وسبعمائة ضربة، وسترى الدم يخضب سيفي.. كل الفرنسيين شجعان مثلي، وسيفعلون كما أفعل، وسيموت السراسنة أهل الأندلس.

أشهر سيفه متابعًا بصوتٍ جَهْوَريٍّ:

- فليتخضب سيفي بدماء الوثنيين.

تعلقت العيونُ بحركات الفتى وصوته المؤثر، فيما كان الراوي يقول بصوتٍ هادئ:

- ولكن جاءت الخيانة من الباسكيين.. هاجمت قواتٌ ممن أطاعوا الشيطان مؤخرة جيش الإمبراطور المقدس شارلمان.

خرجت للمشهد مجموعةٌ ترتدي زيًّا أصفر، إلى جانب من يمثلون العرب، والراوي يُكمل:
- حاصَروا رولان وأوليفير بين الجبال، في وادٍ سحيقٍ.. كان شارلمان حزينًا، وكذلك كان كل الفرنسيين يعرفون السبب. كلهم يخافون على رولان، بعدما عرفوا بما فعل جانلون الخائن. لقد وضع رولان في مؤخرة الجيش ليكون أضحية للسراسنة. الجبال عالية، والصخور تصعد نحو السماء، والأودية سوداء، والفرنسيون يحثون الخطى لحماية بلادهم، يصعدون الجبال بمشقةٍ بالغةٍ والأحجار تنزلق من تحت أقدامهم. صوت الجيش المتحرك يأتي من بعيدٍ. عبروا الوادي إلى بلاد الغال، تذكروا ديارهم وأولادهم وزوجاتهم، حين رأوا وجوهًا مألوفةً. ولكن شارل كان حزينًا.. فقد ترك في الأودية السوداء في الأندلس ابن أخيه رولان، الذي يُحبه كثيرًا..

أنهى كلماته، في حين التفت زمرة المحاربين حول الشابين، يتمايلون على قرع الطبل، يدورون حولهم قبل أن يقفزوا في الهواء.. استعراضٌ راقصٌ على جثث البطلين.. رولان وأوليفير. اصطكت السيوف وتعالت الصيحات، زاد إيقاعُ اللحن ليُعطي روحًا ملحميةً، اتسعت عيون الجمهور، قفز رولان ملوحًا بسيفه في الهواء صائحًا:

- فالمجد أنا صاحبه، والرب أنا خادمه.

ترانيم الفتاة كانت ملحمية، أضفت على المشهد قشعريرةً سرت بأوصال الجمهور، فالبطل رولان كان يُقاتل ببسالةٍ، ألقى بدرعه ورفع مكانه صليبًا كبيرًا وباليد الأخرى كان سيفه يُطيح بالسراسنة وحلفائهم من المسيحيين الباسكيين، سقط أوليفير أرضًا، فيما ظل رولان يُقاتل ليبر بقسمه.. خَفت

صوتَ ترانيم الفتاة وهو يتداخل مع صوت الراوي المقترن بأنين الناي:

- أصيب رولان، ولكنه لم يسقط.. أحاطته أجنحة ملائكة الرب..

ظهرت صاحبة الصوت العذب وعلى ظهرها جناحان ببياض الثلج صُنعا من ريش أوز تدفع المهاجمين بعيدًا. أحاطت رولان بين ذراعيْها، وحبات الدمع تنسابُ من عين رولان، وقد تلطخ قميصه ووجهه بلونٍ أحمر قانٍ... بكوا جميعًا، مع صوت القيثارة التي طغت على اللحن، والراوي يُكمل:

- عاش رولان بطلًا، وحظي بما تمنى.. فها هي ذي الملائكة تُحيطه بعنايتها.. ولكن ليس لأمدٍ بعيدٍ.. فالأبطال يموتون سريعًا دون خوفٍ.. ولتسرِ دماؤهم تروي أرض الرب المباركة. وقبل أن ترتقي روحه.. كان عليه أن يخلد ذكراه، ليسمع جيشُ عمه صوت النهاية..

أمسك رولان البوق بيدٍ مرتعشةٍ مخضبةٍ بالدماء، وراح ينفخ فيه.

- ارتعشت الأرضُ، وردت الجبال صداه إلى الجانب الآخر، ليسمعه شارلمان، قبل أن تُغمد فيه سيوفُ المهاجمين، وهو ما زال بأحضان ملاك الرب.

سقط الفتى أرضًا. جسده توسط الأجساد المبعثرة، وحدقت عيناه في السماء والراوي يُتابع بأسى:

- رحل إلى حيث القديسين وبقيت أنشودته شاهدةً على تصديه للبرابرة المتوحشين..

صمتٌ عمَّ أرجاء المكان. أجهشت العيون بالبكاء، فلم يعد إلا صوت نحيب هنا أو هناك. لحظاتٌ مرَّت، قبل أن ينهض الفتى ملوحًا بسيفه، فيما انضم له جميع أعضاء الفرقة ومن عاونهم، لتحية المشاهدين، الذين صفقوا بحرارةٍ وألقوا الورود عليهم. تأثر البسطاءُ بالعرض.. رولانٍ هو البطل الذي يجب أن يكون مثله جميع أهل القرية، لمواجهة العدو. أعجبت ماريا بالعرض أيضًا، وتساءلت إن كانت للسراسنة أناشيد تحكي قصص أبطالهم. لورينزو نهض مبتسمًا، وتوجه إلى حيث يقف أعضاء الجوقة قائلًا:

- أسعدتمونا يا سادة.

نقل بصره إلى حيث تجلس عائلته ومن خلفهم أهل القرية:

- والآن، بعد أن استمتعنا بأنشودة وبطولات القديس رولان.. أزف إليكم هذا الخبر السار..

****

حُشرت الكلماتُ بحلق لورينزو.. فَغر فاه محملقًا خلف الجموع، فعلى ضوء المشاعل البعيدة كانت تتقدم زمرةٌ من الفرسان، دروعهم تعكس ضوء لهب ارتعدت ألسنته. لقد برزوا من العدم بمدخل القرية الجنوبي، فتجمد كل شيء، واصطبغ وجه لورينزو بالهلع. أهم السراسنة بداخل قريته، أم أن هذا كابوسٌ أو خيالاتٌ من تأثير المسرحية؟!

شلَّ الفزعُ الناس، فلم تعد تسمع إلا همسًا، وتعلقت الأعين بفرسانٍ بدأوا يتبينهم مع اقترابهم، فإذا بصدورهم تكسوها دروعٌ من حراشف برونزية، يعتمرون خوذاتٍ نحاسية تُشبه القباب، وملابسهم

من قماشٍ أسود حيك بجلدٍ دُبغ بالزيت مئات المرات، تنسدل على أكتافهم برداتٌ خضراء قاتمة طويلةٌ، تُغطي النصف الخلفي لخيولٍ حربيةٍ وُلدت من رحم ليلةٍ ظلماء، زُينت بسروجٍ جلديةٍ ذات حلي فضيةٍ تُغطي النواصي والأعناق، وكعُصبةٍ من الضواري أحاطوا بالمكان. كان أوّل من استفاق هو الدوق ماركيزيو، الذي تحرك بعصبيةٍ نحو المهاجمين، لكنه لم يكد يتقدم خطوتين، حتى وجدهم يُحيطون بالمكان من كل جانبٍ. لا مفر الآن، وقد جاءهم الموتُ قُبلًا.

جوادٌ فتيٌّ واثقُ الخُطى تقدم متهاديًا، تَطرُق خطواته القلوب المرتاعة، اقترب حتى إن زفراته لفحت وجه الدوق الخائف، بينما رفع فارسه الخوذة بهدوءٍ، وأدار بصره في وجوه الجمع كما لو أنه قد أصابه مسٌّ من غرورٍ. يومان من الرباط على سفح الجبل القريب، يتحين لحظةً لدخول القرية، فحراسُ الدوق ورجالُ لورينزو أكثر عددًا من فرقته، وعليه أن يتقي الاشتباك وخسارة الرجال. لقد جاء من أجل شيءٍ واحدٍ كلف به، لذا فدخول القرية في الليل أفضل، وخيوله السوداء منحت فرقته سترًا في ليلةٍ غاب قمرها.

لقد فاجأ أهل القرية، فاعتقدوا أن وراءه جيشًا جرارًا وما هؤلاء إلا مجرد الطليعة. حك لحيته الكثة السوداء، ثم ابتسم قائلًا بالعربية:

- السلام على من اتبع الهُدى.

كانت ماريا أسعد أهل الأرض في تلك اللحظة. كادت أن تركض بينهم بحثًا عنه. في البداية، ظنته هذا الفارس، ولكن حين خلع خوذته خاب ظنها، كان شابًّا أبيض الوجه، ارتخى شَعره إلى ما تحت أذنه كثيفًا بلون جواده الفاحم، لحيته كثةٌ مهندمةٌ، وعيناه الواسعتان زادهما الكحل الأثمد بريقًا، وثغره باسمٌ. تمتمت بسلام العرب في خفوتٍ، فيما قال الدوق وقد ذهب عنه الروع:

- وعليك السلام.

لم يفهم جنوده ما قال، ولكنهم سحبوا سيوفهم فجأةً. شهقت النساء، وصرخ الدوق برجاله ليتوقفوا عن فعلتهم. رمقهم بنظرةٍ غاضبةٍ وهو يرفع يده في الهواء، في حين لم تتوتر الجياد وفرسانها الملثمون.. كانوا المهيمنين على الوضع بكل الأحوال. ابتسم قائدهم وهو يقول بهدوءٍ باللاتينية التي يفهمها الجميع:

- ما جئنا هنا للحرب.. فقط أخبرونا أين منزل الطبيب كاراس، وسنمضي في طريقنا..

انفجرت براكين الحنق في صدر لورينزو. صبَّ اللعنات سرًّا على رأس أخيه الذي لم يحضر العرض. كان قد نسي أمره، فمنذ شهور لم يزعجه بهرطقاته. لم يعد كاراس يُغادر منزله إلا للبحيرة، ويُداوي الجرحى صامتًا لا يتحدث مع أحدٍ. فاض كيلُ البغض بوجه لورينزو، وتوغلت أسئلة جمة بثنايا عقله، فيما كان إليساندرو يبحث عن سبيل للهرب من الساحة. تجاوز الصفوف منحني الظهر، بينما فيولا عيناها معلقتان بالبربري الوسيم فوق الجواد الأسود الذي لم يتوقف عن الحركة، وصاحبه يُكمل حديثه:

- ما بالكم لا تُجيبون؟

ابتسامة مقيتة بدت على وجه الدوق، ولكنه سرعان ما أخفاها وهو يشير إلى لورينزو:

- سيرشدكم إليه النبيل.

نال الدوق نصيبه من اللعنات التي أطلق لها لورينزو العنان لتركض صامتةً في ربوع عقله. أشار بيده وهو يقول:

- ستجده قرب السور الجنوبي في آخر القرية.. إنه أخي، ما خطبه معكم؟

لكز الفارس جواده، ليتقدم خطواتٍ ناحية لورينزو المتعرق:

- أنت السيد لورينزو؟

أومأ برأسه في سرعةٍ:

- نعم.. أنا لورينزو.

كان جليًّا أن الخوف تملك من روح الرجلِ وراح ينسابُ إلى الجميع. كانت حماستهم منذ قليلٍ قد حركتها تمثيلية الجوقة، وأحلامهم متعلقة بزجاجات النبيذ ورقصةٍ ماجنةٍ، بعد أن يلقي عليهم النبيل خبره السار. يُشاهدون الآن مسرحيةً واقعيةً، قد يكون المشهد الأخير فيها موتًا، ولكن ليس كموت رولان البطل. دار العربي بفرسه حول لورينزو..

- نعتذر عن دخولنا للقرية بهذا الشكل الفظ..

لم يتوقع أحدٌ ما قاله ذلك البربري. ليس سيئًا كما رأوا في أنشودة رولان وبطولات شارل مارتل. لم يكن همجيًّا، كان مهذبًا وهادئًا، هكذا هي الذئاب مبهرة المظهر، ناعمة الفراء، حتى تظهر أنيابها. لم يفهم لورينزو ما يحدث، كما عقد الدوق حاجبيْه هو الآخر والفارس يشير لأحد رجاله قائلًا بالعربية:

- اؤمر الرجال بالقدوم.

صاح الرجلُ مكبرًا ثلاثًا، فانزعجت الوجوه مرةً أخرى، إذ لم يفهموا ما قال، وإن بدت كصيحة تواصل بين السراسنة، أو لعلها إشارة ما، فتوتر جنودُ الدوق الذي شعر بالضعف والمهانة. سرعان ما انجلى صوتُ صرير عجلات، ودخل الفرسان يسيرون حول عربتين تجرهما بغالٌ شهباء قوية. في تلك اللحظة، أيقن الحضور أن هناك المئات من الفرسان خارج القرية، وتمتمت إحدى النسوة في خفوتٍ وهي تحتضن صغيرها: إنهم شياطين، يختفون نهارًا وينبثقون من رحم الظلام.

خلف أحد الجدران، كان إليساندرو مستترًا بالظلال، يُشاهد مرور العربتين، والمزيد من الفرسان يتدفقون خلفها، فتسلل عائدًا عبر الأكواخ والأغصان، حتى يتسنى له مشاهدة ما سيحدث في الساحة من بعيدٍ. لم يكن أحدهم يشبه الغريب الذي آووه منذ شهورٍ، ولكن شيئًا ما حدثه أن الأمر يتعلق بالضيف القديم. لم ينتظر الفارس المكتحل قدوم العربات ليفصح عما جاء به إلى القرية، قال محدثًا لورينزو:

- لقد جئنا لك بهدية..

غمغم لورينزو وقد اعتراه الخوف، من أن يُقال إنه تابعٌ للسراسنة:

- أنا! يبدو أنك أخطأت.. فأنا لا أتعامل معكم.

أشار إليه الفارس ضاحكًا:

- الهدية لا تخصك أنت بالأحرى، وإنما هي لابنتك ماريا وأخيك كاراس.

دهس أحدُ البغال تاجًا خشبيًّا، كان قد سقط من فوق رأس أحد أفراد الجوقة الموسيقية، التي اندسَّ أعضاؤها بين الحضور مذعورين. توسطت العربتانِ الساحة، بينما تحاشت ماريا النظر إلى أبيها، وقلبها ينبض بقوةٍ لم تعهدها. رمقها ماركيزيو بشكٍ وريبةٍ. كانت تفصله دقائق عن إعلان أبيها نبأ زواجها منه، فهل العروس على صلةٍ بالسراسنة؟ لم تمنع نفسها من إبداء الفرح رغم نظراته القاسية، وفي تحدٍّ تقدمت نحو الفارس قائلةً بالعربية:

- هل هو مَن أرسلك؟

جحظت عيون أهل القرية، فابنة النبيل تتحدث لغة الغزاة. تفحصها الفارس قبل أن يقول:

- نعم.. أنت ماريا؟

غمرت وجهها حمرة الخجل، وأنقذها عمها كاراس الذي تجاوز الجموع محملقًا في الفرسان وعرباتهم بفضولٍ:

- ماذا هناك؟

استدار له الجواد وراكبه المكتحل:

- أنت الطبيب كاراس، أليس كذلك؟

أومأ كاراس بارتيابٍ:

- نعم أنا هو. ماذا تريدون؟

- لقد جئناك برسالةٍ وبعض الهدايا.

مدَّ الفارس يده برسالةٍ أخرجها من جرابٍ جلدي عُلق بسرج جواده، التقطها كاراس وبهدوءٍ فتحها، وأخذ يقرأ ما فيها بعينيْه مبتسمًا، فيما كان الفارسُ يمنح ماريا الرسالة الأخرى، دون أن يُلاحظ أحدٌ، فالجميع يُتابعون الطبيب العجوز.. لم تفتحها.. نظرت حولها، وأخفتها بين طيات ملابسها. أنهى كاراس قراءة الرسالة، ثم رفع بصره للفارس مبتسمًا:

- ما فعلنا سوى ما يُمليه علينا ضميرنا كبشرٍ.

أومأ الفارسُ برأسه متفهمًا:

- هل آمرُ الرجال أن يسحبوا العربة لمنزلك؟

ضحك كاراس ملوحًا بيده الممسكة بالرسالة:

- لا داعي لهذا.. إلا إذا كنتم تودون المبيت الليلة عندي.

- لا، شكرًا لك، جئنا نؤدي أمانةً ونرحل.

جذب لجام جواده، ليواجه لورينزو الذي لم يفهم حرفًا من الحديث الذي دار..

- العربة الثانية ملكٌ لابنتك..

نطقها باللاتينية وهو يرتدي خوذته، مشيرًا لرجاله بالتحرك، فيما حثَّ جواده للتقدم ببطءٍ نحو الدوق قائلًا:

- استمتعوا بحفلكم..

ابتلعهم الظلامُ خارج القرية، وتركوا وراءهم فريستين للأعين المتحفزة التي تفيضُ بالتساؤلات.

****

كالبحرِ حين يكتم أسرارنا، يبعثرها بتقلبات موجه، يحولها إلى أنشودةٍ يهدر بها، ترتطم بالصخور وتنحسر ثانية، كذلك هي نفوسنا ينتابها المد والجزر، وكلما لممنا شتات أفكارنا تتبعثر مجددًا. شهورٌ مضت، تغير فيها سَودان. عقله حلق في فضاءٍ شاسعٍ، ولم تعد حياته تتوقف عند وفاة زوجته وطفله. استمر حاملًا لواء الإيمان باللقاء، عُرضت عليه الدنيا وحظي بالمجد والنفوذ، وخاض معارك يشيب لها الولدان، واجتهد لنشر العدل والسلام بين المدن والقرى التي قام بفتحها، واستكمل بناء مسجد المدينة، الذي يعج الآن بالمصلين وطلبة العلم. كل شيء أصبح كما يريد، إلا هو. كان يعلم أن كل شيء بمقدار، ولا أحد يأخذ كل ما في الدنيا من نِعم. طفلا شعيب يكبران أمام عينيه، يراهما كل صباح يلعبان في ساحة القلعة، فقدا أباهما بسببه، هكذا علمتهما أمهما التي بقيت لها أيام وتنقضي عِدتها. ستعود إلى إقريطش حاملةً معها ذكرى سيئة ولومًا سيبقى أمد الدهر. كل شيء بمقدار.. يتحاشى عينيها اللتين تفيضان بالمقت له، أنس صوت رملة ليالي الربيع الفائت تقص على البحر قصصهما نثرًا، باقية على عهدها لروح زوجها الراحل. يلج النهار وهي على حالها، حتى تخرج النوارس للبحر فيما تعود هي إلى غرفتها وأولادها. وردة ذبلت في ربيع عمرها. ما زالت ترتدي لون

الحِداد الأبيض، يلمحها من بعيدٍ فيتجسد فيها الوفاء والحب. حبها لزوجها نبش صدره بحثا عن إجابة سؤالٍ عجيبٍ: هل سيجد من ينوح عليه ويحزن إن مات؟ قد تروى القصص والأناشيد عن أمير باري، ولكن ماذا عن سَودان ذاته؟

اقترن بكلمات رملة ورثائها طيفٌ يتمثله فيها. وشاح ماريا ما زال يحمل عبق عطرها، يشتم فيه رائحة الاشتياق. صار يُدرك أنه بحاجةٍ إلى خليلةٍ تملأ حياته ويسكن إليها وتشاركه كل لحظاته. تمنى أن يكون له أطفال من صُلبه، يحملون اسمه وسمته، يشبون فرسانًا لا يُشق لهم غبار، مجاهدين بالفطرة مثله. أي خيال جامح الذي يُلقي بها في لياليه!.. قاوم كثيرًا وساوس الشياطين، واستعان بالصبر والصلاة، ولكن ماريا صارت حقيقة في قلبه، وصارت الذكرى قرين العين وأنيس القلب، تحوم حوله الرؤى فلا يدرى أحلم أم علم، والحقيقة الوحيدة التي أصبح يعيها تمامًا هي أنه ليس سَودان الذي عرفه طوال سنوات عمره حتى ما قبل الحادثة، إنه لم يخرج هذا الصيف لحملته الصيفية، واكتفى بإرسال سرايا صغيرة إلى الشمال لبث المهابة في نفوس العدو، وانشغل هو بمعركته مع النفس. فاعتزل الناس يبحث عن ذاته، ويريد أن يفهم نفسه ويفهم الحياة والإنسان. حتى شئون الإمارة ائتمن عليها أبا المغوار. المطالعة حلت مكان تدريبات الحرب، والتريض بالفرس حول المدينة أصبح خلوةً يومية. كان يجوب الغابة القريبة، يُطارد طيفها بين الأشجار، وكأنما مسته ماريا بالجنون. مرت شهور، وربما نسيت هي أمره، لكن لمسة يديها يوم رحيله كانت كافية لإشعال نار كانت قد خمدت..

لم يرض أبو المغوار عن حال سَودان، فجالسه كثيرًا وتحدث معه، ولكن الأخير لم يُصغِ، فقد أصابه داء الهوى. يقول القاضي إن الهوى بداية للانشغال بحب الدنيا وملذاتها. يقول إن الحب لا يأتي سوى مرة، فإذا رحل تبقى مآثر الحبيب بالوجدان تُعزيه وتُؤنسه، وأما الهوى فهو ميلٌ يُضل الرجل عن طريقه وجهاده. اقترح العجوز عليه الزواج من الأميرة رملة، فكل النساء سواء، وهو قد يطيّب خاطرها بهذا، والأهم يُسكت حديثها عن ضياع المحاربين وانهدام البيوت، الذي قد يُثير قلقلة عظيمة. كان لأبي المغوار وجهة نظر في تلك المسألة، فزواجهما سيمنح سَودان علاقة أقوى مع إقريطش.. زواج سياسي يحمي به ظهره وقت الحاجة. لكنِ سَودان رفض بشدة، لقد انشغل طوال سنوات بالحرب والمعارك، ومن حقه أن يأخذ لنفسه هدنةً يُفكر في نفسه وحياته. منذ عرفها، أخذت ذكرى البحر المشتعل تختفي من منامه، وأحس أن الحياة تتجدد ولا تتوقف عند رحيل الأحبة.
تناثرت القصص بالمدينة حول الأمير، تقول إن إصابته في رحلة الصيد التي قُتل فيها رفاقه بليغة، ولكن سرعان ما انتشر خبر إرساله الهدايا لامرأة رومية كانت تمرِّضه في غيبوبته. لم يكن في الناس استياء على أي حال، فالحياة في المدينة وتطويرها والتنعم بالأهل والهدوء كل ذلك له مذاقٌ ليس للحرب.

كان قسورة التميمي أشد المعارضين لإرسال هدايا للأعداء، ورغم ذلك هو من حمل الرسائل والهدايا إليها. نعم هؤلاء من أنقذوا الأمير، ولكن في النهاية هم أعداء، ولو كانوا يعلمون أنه سَودان أمير باري لكان رأسه معلقًا على بوابة القرية. لقد رأى في عين الفتاة وهج البهجة حين منحها الرسالة، وهذا أشعل الأفكار في رأسه أكثر. رحل عن القرية متجهًا غربًا، عبر الجبال المكسوة باللون الأخضر، لينضم إلى فيلق أبي المغوار الذي يُعسكر على تخوم مدينة ساليرنو، التي تخضع لحماية

إمارة باري. خيامٌ رمادية تكسو الوادي، رايات بيضاء وخضراء وسوداء تَخفق.. بينما تمر فرقة الجياد السوداء أفسح الجميع لها الطريق, تحظى بمهابةٍ كبيرةٍ بين الجند. اتجه قسورة إلى حيث خيمة القاضي الفقيه، فترجل عن جواده في خفةٍ مبتسمًا، ثم تقدم صوب فتى يحمل قِدر ماء، فمدَّ يديه وارتشف بضع رشفات، قبل أن يمسح عن وجهه عَرق الرحلة. دخل إلى خيمة أبي المغوار، الذي استقبله فاتحًا ذراعيْه:

- مرحبًا بأمير الجياد السوداء.

ضحك قسورة وهو يحتضن أبا المغوار:

- ليس هناك أمير أمام من شبَّ على يديه الفرسان يا سيدي القاضي.

ربت أبو المغوار على كتفه:

- لا تقلل من نفسك يا قسورة، فالجميع يتحدث عن فرقتك التي تلقي المهابة والفزع في قلوب من يُواجهها. قل لي، كيف كانت رحلتك؟

- كما أردت يا سيدي، وقد كانت لك حكمة وبصيرة.. كان دخولنا للقرية مهيبًا، استغللت وقت الغفلة حيث كان لديهم حفل سمر، فسَلمت الرسائل إلى أصحابها، وخرجنا وما زالت الدهشة تعم الوجوه.. أخذتهم المفاجأة فظلوا في أماكنهم جاثمين..

ألقى إليه أبو المغوار بتفاحةٍ:

- وكيف كانت صاحبة الرسالة؟

تلقفها قسورة، وقضمها، وأخذ يلوكها ببطء مغمض العينين:

- هذه المرة الأولى التي يتخلف فيها سَودان عن الحملة الصيفية. لم يعد ذلك رفيق الدرب القديم الذي أعرفه، نالت منه سهام الهوى..

بصرامةٍ قاطعه أبو المغوار:

- لا.. بل أصابه ما يُصيب أي رجل.

توقف قسورة عن المضغ وقد عقد حاجبيه، فيما أكمل أبوالمغوار:

- لقد فقد سَودان أسرته. خاض حروبًا كثيرة، لم يُهزم في معركةٍ واحدةٍ. تجنبهِ الموت مرارًا، لكنه اقترب منه كثيرًا هذه المرة. الخلوة التي حظي بها في تلك القرية منحته سكينة تحدت زوابع الوحدة

والحزن التي عاشها طويلًا. مهما شغلت أمور الإمارة والحرب عقله لفترة، كان يجب أن يأتي ذلك اليوم..

اعتدل قسورة في جلسته:

- هل تظن أنه جُن؟

لوَّح أبو المغوار نافيًا:

- بل وجد الصواب. حدثته في الأيام الماضية، ففهمت أن نفسه تهفو إلى زوجةٍ وولد. إنه حق النفس يا بني لا غضاضة فيه.

صمت الشيخ قليلًا، ثم قال بصوتٍ خفيضٍ:

- لا تظن كلامي هذا تبريرًا أو تهوينًا يا قسورة. إنه ليقتلني أن ينسى ذكرى ابنتي وحفيدي. ولكن هذا حال الدنيا. دعنا ننتظر، فقد عرضت عليه أمرًا ما، وأنتظر إجابته فور عودتنا، ولا زلت أثق في قيادته.

****

أكواخُ القرية وجدرانها حفظت مشهدًا أسطوريًّا لم يتوقف تناقله وتكراره وإضافة الخيال إليه. ماريا التي منعها أبوها من الخروج من باب الدار، ووضع حراسةً عليه صارت جزءًا ملهمًا من الأسطورة، والعربة التي سكنت أمام الدار دون بغلتها صارت السر الذي يُحرك الفضول لمعرفة ما كانت تحمله إلى الشابة الجميلة. حتى البغلة التي سيقت للحظيرة الجديدة حكوا عن كونها مسحورة، وربما انتظروا أن يروها تُحلق بماريا هاربة في سماء القرية.

نقلت الأقمشة الفاخرة إلى غرفة لورينزو، الذي لم يمنعه حنقه من تقدير الغنيمة وتأجيل حديثه مع الدوق للصباح. استلقى على الحرير، وأخذ يفكر في الثروة والقوة التي لا يشبع من يتذوقها. مضغ ثمار التين المجفف، والتمر عجيب الطعم طوال الليل وارتباكه لا يكف عن مضغ عقله. لم تنل إيلينا شيئًا سوى وعد بأن يُفصل لها ثوبًا من الحرير، بينما خزنت الأجولة والسلال بصومعة المنزل. قنينة عطر، وصندوق من العاج والفضة المطلية بماء الذهب، زينت حوافه بكتابةٍ عربيةٍ ونقش ورد، يحوي بضع حلي من ذهب وأحجار كريمة، ومشطٌ منحوتٌ من العاج بشكل غزالٍ كانت نصيب ماريا، لم يمكنه منعها من اقتنائه، مكتفيًا بكنز أرهق جره بغلة قوية.

تلمست أناملها محتويات صندوقها، ثم أغلقته وضمته إلى صدرها تودعه رسالة شكرٍ لمن لم ينسَ. وضعته برفقٍ جانبًا، وهي تُفكر في الرسالة التي خبأتها في صندوقها الخشبي القديم، بعيدًا عن مطامع عين أبيها المحتملة في الذهب. هناك في صندوقها القديم أمانٌ للرسالة الأغلى من الذهب، في حماية فرسٍ منحوتٍ من الخشب، لعله اشتاق لصاحب الرسالة مثلها. تذكرت عمها كاراس، الذي وزَّع على أهل القرية كل ما كان في العربة، واحتفظ بثلاثة صناديق، يحوي أحدها ملابس عربية

فخمة، والآخران يحويان كتب طب وقوارير دواء وأعشابًا. لقد برقت عيناه لرؤيته هذا الكنز.. «هدية تليق بطبيب» كما قالت رسالته. إن سَودان يفهم كيف يُفرح صاحب الهدية، ويختار له ما يُبهج روحه، وليس كأولئك الذين يستعرضون أموالهم في هديتهم.. إنه ذكي. كان كاراس لأول مرةٍ في حياته يشعر بأنه قد صار لديه صديق يقدِّره. لقد خرج في صباح اليوم التالي مُعتمرًا عمامةً زرقاء وعباءةً صفراء مطرزة الحواف، ترمقه العيون باستغراب وحسدٍ، رغم ما حصلوا عليه من خيرات العربة بالأمس. عضَّ سباستيان- الذي كان حطابًا- على شفتيْه، فما جوال الفاكهة المجففة الذي طمع فيه وناله بالأمس، والذي سيبيع منه لزبائن الحانة مقابل المزيد من النقود بشيء إلى جوار تلك العباءة الفخمة.

حتى فيولا زاحمت المتسولين على عربة كاراس، وحصلت على قطعةٍ من حرير كادت أن تمزقها الأيادي المتسخة. الكل تصارع للحصول على نصيبه من الغنيمة، بعدما اكتفى العجوزُ بصناديقه الثلاثة، وصك الباب خلفه، لينهش القرويُّون الوليمة. لم يكن إليساندرو بحاجةٍ إلى شيء من كل ذلك سوى أن يبحث عن حلٍ لأزمته، فكذبته على وشك الافتضاح. ابتعد عن المهرجان ولجأ إلى فيولا عسى جسدها يشغله ويُعيد إليه السيطرة على أفكاره وتوتره، فإذا بها تستعرضُ في فرح ثوب الحرير الذي فازت به، وتتغزل في صاحب العينيْن المكتحلتيْن، والشعر الغزير الأشبه بأسدٍ يعرفُ قدر نفسه. غبية، نالت صفعةً على وجهها، وتركها هائمًا على وجهه في ليل القرية، حتى لمح قرب الربوة الدوق ماركيزيو يقفُ متحدثًا مع بعض جنوده في سرعةٍ، يُرسلهم لتتبع أثر الخيالة. حاول إليساندرو الدوران من اتجاه آخر ولكن فات الأوان، إذ أشار إليه الدوق بعد أن رآه.. لن ينجو من هذا الدوق المتطفل الحانق. حيَّاه الدوق وهو يغوصُ بعينيْه فيه، حتى كاد يقسم أنه حصل على كل معلومةٍ يُريدها من عقله دون كلام. سأله مباشرةً عن مُرسل الهدايا، فالفرسان المدرعون والجياد الموحدة اللون ليسوا رُسل رجلٍ هيِّن. مَن أرسل تلك الهدايا إلى العجوز والفتاة؟ ادَّعى إليساندرو البراءة، وأن الأمر ربما يخص الطبيب وماريا التي تُساعده في تجهيز الأدوية، فكاراس لديه أصدقاء كثر في صقلية، حيث تعلم الطب. إجابة لم تُقنع الدوق، الذي قرَّر أن يعرف الحقيقة.

في الصباح، سار لورينزو مختالًا بعباءةٍ بيضاء فضفاضةٍ في طرقات قريته، بعد ليلةٍ طويلةٍ مكث فيها مع إليساندرو، يبحثان معًا عن سببٍ يُقنع الدوق القلق. كان عليهما أن ينفضا غبار الخيانة من رأسه. الكل يخمنون أن تلك الهبة هي عرفانٌ وتقديرٌ لكاراس وماريا، وأن الفتى لم يقتل ذلك العربي يوم هرب من القرية. لكن الأب وابنه سيدَّعيان أنها من صقلية. إنهما صندوقا الأدوية والأعشاب، بضاعة أوصى بها كاراس، فأرسلها له أصدقاؤه مصحوبةً بهديةٍ تليق بقدره عندهم كطبيبٍ صديقٍ.

قرب برج حجري قيد البناء، وقف الدوق ماركيزيو يُباشر عمل بنائين تعرَّقت وجوههم وتلطخت أيديهم بالطمي. حين رأى لورينزو يقترب باسمًا:

- كيف حالك اليوم سيدي؟

رمقه الدوق متفحصًا:

- بخير يا سيد لورينزو..

كان لورينزو يعلم أن الدوق ينتظر حديثه حول ما جرى ليلة أمس، ولكنه قرر أن يتغاضى عن ذكر ما

حدث:

- قريبًا سينتهي العمال من هذا البرج، ليكون أول أبراج الحراسة في مدينتي الصغيرة.

ردَّ الدوق على لورينزو بلحظةٍ من الصمت يتأمله فيها، ثم سأله مباشرةً:

- لماذا لم تقل لي إن بينكم وبين السراسنة علاقاتٍ قويةً، حتى إنهم يُرسلون لابنتك عربةً محملةً بالهدايا، وأخرى لأخيك المهرطق؟

كان لورينزو يتوقع السؤال وأعدَّ الإجابة، فسارع يرد:

- سيدي، لقد أرسل أخي في طلب تلك البضاعة من باليرمو..

قاطعه الدوق بصرامةٍ:

- وهل مَن يُرسل في طلب بضاعةٍ ما، يقوم بتوزيعها على العامة؟!

حاول لورينزو الابتسام:

- هذا شأنه، لا يهتم للهدايا.. لقد أخذ بضاعته التي تهمه وترك الهدايا لأهل القرية، وهذا طبعه معهم من زمانٍ طويلٍ.

أشاح الدوق بوجهه متابعًا عمل الرجال:

- أظن أن هناك الكثير من الأشياء التي يجب علينا أن نعيد تقييمها..

لم يفهم ما نطق به الدوق الذي استطرد وهو يوليه وجهه:

- سيد لورينزو، لماذا لم تُعلن خبر خطبتي ابنتك؟

تلعثم لورينزو:

- لقد كنت معنا يا سيدي الدوق، ورأيتَ ما حدث. وقع المفاجأة من دخول السراسنة كان ثقيلًا على الجميع، ولم تعد الأجواء لائقة بإعلانٍ كهذا وسط تكالب الغوغاء على الهدايا.. هذا لا يليق بمقامكم يا سيدي!

كان الرد منطقيًا، رغم تأكد الدوق أنه ليس الحقيقة، لكنه لم يملك أن يُعارض..

- حسنًا.. سيد لورينزو.. ولكن لا تجعل تلك العباءة العربية تُنسيك ما كلفت به.

نطقها ساخرًا، ومضى منصرفا ولورينزو يتابعه بنظره حتى اختفى بين الأكواخ. رغم أنه نجح في إسكات الدوق، إلا أن نبرة التهديد الأخيرة كانت كافية لإثارة مخاوفه. عليه أن يُعلن خبر الزواج في أسرع وقت. نعم رفضت ابنته الأمر مرارًا، ولكن لا مكان الآن للرفض، فهي سبب شكوك الدوق، وعليها تحمل ثمن تصحيح خطئها، وهو لن يسمح لرعونتها بهدم كل ما بناه طوال هذا العمر.

****

قلعةٌ من رمال شاطئ باري، صنعتها أيدي طفلين لم يتما عقدهما الأول، يرتديان ملابس جميلةً لطخت بالرمل، يحمل أحدهما قدرًا صغيرًا من الماء، ليريقه على الرمال الناعمة، فيأخذ الآخر من الطين ويبني أسوار القلعة. منذ أن جلس بعد العصر يُتابعهما، ينتظر أن يُنهيا عملهما، الذي لا ينتهي. كان سعيدًا برؤيتهما يلهوان، لم تكدِّرهما الحياة. تذكر طفولته على شاطئ مدينة باليرمو، يود أن يكون بحارًا يخوض عباب البحر. وحين كبر ومُنح ما أراد، سلبه البحر أثمن ما له في الحياة. لم يكره البحر، ولكنه يخافه. لا يأمن هدوءه الخادع، ويخشى موجه الهادر. ليته بقي طفلًا، ليبني مدنًا من رملٍ وحصى.

ولكن حتى مدن الرمل تنهار.. بكى أحد الطفلين إثر سقوط جزءٍ من قلعته. جاءته موجةٌ من حيث لا يحتسب، فأضاعت تعبه الطويل في لحظةٍ. ربت أخوه الأكبر على كتفه ليشد من أزره، فابتسم سَودان وقرر الحديث معهما.

ضغط الولد على يد أخيه برفقٍ هامسًا:

- الأمير سَودان قادمٌ... لا تبكِ أمام الأمير.. أنت رجل.

لم يسمع سَودان ما قاله عليٌّ لأخيه. اقترب منهما باسمًا:

- كيف حالكما يا فارسي باري الشجاعين؟

أجاب عليٌّ، فيما كان عمر يمسح دموعه:

- بخيرٍ سيدي..

انحنى سَودان مداعبًا أطلال القصر المدمر جراء الموج:

- علينا بناء جدارٍ رملي، ليصد الموج عن القلعة..

جلس أرضًا وهو يشير إلى عمر:

- تعال ساعدني يا فتى!

اقترب عمر بحذرٍ من سَودان:

- ولكن أمي قالت ألا نتحدث معك.

وكزه أخوه في ظهره، مما جعل سَودان يعقد حاجبيه ناهيًا:

- لا تفعل هذا بأخيك مرةً أخرى يا علي!

خفض علي وجهه، بينما كان سَودان يخلع عمامته ويضعها جانبًا محدثًا عمر:

- لا بأس يا عمر، لن نتحدث.. ولكن هل تسمح لي بأن أساعدكما؟

ابتسم الفتى وهو يومئ برأسه.
ساعة قضاها سَودان برفقتهما، تعاون فيها ثلاثتهم في بناء حصنٍ كبيرٍ ذى أبراج مربعة يتوسطه مسجدٌ ومئذنة. وبنوا حوله حاجزًا لصد الأمواج. غمرته سعادة لم يحظَ بها منذ أمدٍ بعيدٍ. عيونهما الزرقاء كأبيهما تحمل الأمل، ووجهاهما البريئان وضحكاتهما، كل هذا بث في نفسه السرور. البنون شِق زينة الحياة الدنيا، وهو قد حُرم من الولد كما حُرموا من أبيهم شعيب، فتشابه الحال. الشمس الغاربة ترحل في الأفق وحيدةً، ولكن ستعود في الصباح ثانية، تستأنس بأهل الأرض، فتمنحهم دفئها، كحاله الآن بعد أن انتهوا من بناء مدينتهم الرملية فسأله أكبرهم:

- سيدي، هل صحيح ما تقوله أمي؟

عقد سَودان حاجبيه قلقًا:

- وماذا تقول أمك؟

بعينيْن تفيضان بالبراءة نطق علي:

- أن أبي في السماء!

ابتسم سَودان وقد أزاح عن قلبه همَّ سؤالٍ لم يسأله الفتى:

- نعم يا علي، إن أباكما الآن في الجنة عند الله..

كان عمر قد انتابته سِنةٌ من نوم، وهو يستمع لحديث سَودان مع أخيه:

- والدكما كان شجاعًا.. فارسًا مغوارًا ليس له مثيل ببلاد العرب والعجم.. كان إلى جانبي يوم تنصيبي أميرًا على باري.. وكان حامي ظهري يوم الحرب مع دوقية بنفينتو.. أذكر يوم حصارنا لمدينة كابوا، كان هو قائد الميسرة وهو من استطاع الدخول للمدينة بعد حصارٍ دام لأسابيع... لم تكونا قد أتيتما

للدنيا بعد.. وكانت أمكما تسكن إقريطش.. كان أيضًا بحارًا تهابه الأمواج كما هو فارسٌ لا يستطيع أحدٌ هزيمته.

قال عليٌّ وقد عم وجهه الأسى:

- سنعود لإقريطش بعد أيامٍ، هكذا تقول أمي.. وأنا لا أريد الرحيل عن باري.

اعترى صوت سَودان الحزن:

- يجب أن تسمع وتنفذ ما تقوله أمك.. أعدك، حين تكبر وتصبر شابًّا قويًّا، سأطلب من خالك أن تنضم إلى جيشي هنا في باري.. أتحب باري؟

أومأ الفتى برأسه فرحًا، ولكن سرعان ما تحول فرحه لقلقٍ حين سمع صوت أمه من فوق سور القلعة. كانت رملة تصيح منادية ابنيها وقد تجلى الغضبُ في نبرة صوتها.. أمسك عليٌّ بيد أخيه الناعس وجذبه قائلًا:

- سنذهب الآن، عليَّ أن أسمع كلام أمي.. السلام عليكم سيدي.

ابتسم لهما سَودان، وعيناه ترمقان رملة التي ما زالت تقف موجهةً بصرها نحوه. كان عليه أن يواجهها قبل رحيلها.. ألقى نظرةً على القلعة الرملية التي تشبه مدينته، قبل أن يوليها ظهره ويمضي في طريقه..

****

قمرٌ وردي هيمن على سماء سان فيلي، رقيق يتنافر مع صوت العزف الصاخب والضحك الماجن في حانة سباستيان المشبعة بأدخنة الشموع والمشاعل وجنود الدوق السكارى يتناوبون على احتضان نسوةٍ كن بالأمس قرويات، ترمقهم عيون رجال القرية في مقتٍ أخرس، فمن ذا يجروْ على الاعتراض، حتى لو رأى ابنته عارية الصدر يُداعبها أحدهم في الزاوية المظلمة. جلس إليساندرو وحيدًا في ركنٍ من الحانة، قد أضناه البحث عن فيولا، ولم يترك مكانًا بالقرية أو حولها لم يبحث فيه عنها. تجرع كوب الجعة مرةً واحدةً.. كل شيء انقلب فوق رأسه.. اليوم اعترف لأبيه، الذي كان يعلم مسبقًا أنه كاذبٌ، لكنه طمأنه أنه سيتولى الأمر، ولكن عليه أن يُعد نفسه لما هو قادم. كان بالفعل قد أمر كازميرو بجمع عددٍ وفيرٍ من الرجال، فقد حان الوقت ليثبت لأبيه أنه فارس حرب. لكن كازميرو غير متحمسٍ، وأبوه لم يُخفِ عدم ثقته به.. لا أحد يعترف به إلا فيولا، وها هو ذا يفتقدها.

وفي غرفة الدوق، بمنزله الجديد الذي بناه له لورينزو، قرب جدول المياه شرق القرية، كان جسد فيولا يرتج أسفل جسد ماركيزيو. ارتفعت منهما الشهقات، ثم تحولت لأنينٍ خافتٍ، ثم سكن الدوق متعرقًا فوقها. لحظاتٌ مرَّت ولم ينفصل جسداهما، حتى جاءه صوتها ساخرًا:

- أستبقى هكذا طوال الليل؟

أزاحته عن صدرها بصعوبةٍ، بينما كان يضحك:

- لم أتوقع أن تكون فتاة قروية مثلك بهذه الحيوية.

نزلت فيولا عن الفراش الوثير، لتسير ببطءٍ أمامه، وجسدها المرمري المتناسق يعكس وهج الشموع الكبيرة. رفعت شعرها الأشقر، وأخذت تخلخله بغنجٍ وهي تقول:

- ألستُ أجمل من بنات البندقية وبنفينتو؟

رد متهكمًا:

- جميعكن على الفراش سواء..

عقدت حاجبيْها الجميليْن، وضمت شفتيها غاضبةً، فيما أكمل:

- أظن أن الفتى إليساندرو سيبيتُ باكيًا اليوم..

انفجر ضاحكًا، فيما استلقت هي إلى جواره:

- لا يربطني شيء به بعد ليلة أمس..

أزاح خصلاتٍ من شعرها كانت تحجب جانب وجهها عنه:

- لماذا؟

تحسست خدها الأيسر مع تذكرها صفعته:

- لم يرق له حديثي عن قائد السراسنة.

ارتفع صوتُ ضحكات ماركيزيو، وتناول عنقود عنب من طبقٍ قريبٍ من الفراش، ثم اعتدل على طرف الفراش جالسًا بجسده العاري يلتقط حبات العنب:

- ما قصة أولئك السراسنة وتلك الهدايا؟

تقلبت بالفراش الناعم:

- يبدو أن من أرسلها ذلك الضيف الذي حل بالقرية منذ زمنٍ.

بصوتٍ عميقٍ سألها:

- ألم يقتله إليساندرو حين طارده؟

تعالت ضحكاتها الرقيعةُ وهي تلوح بساقيْها العاريتْين في الهواء، فحثها ماركيزيو على الاسترسال..

- ها...؟

ردت ساخرةً:

- إليساندرو لا يستطيع قتل دجاجة.. أظن أن من أرسل تلك الهدايا هو ذلك الجريح الذي مكث بالقرية ما يقرب من شهر. لعله متيمٌ بماريا، أو أنه يرد المعروف إلى كاراس.

برقت عينا ماركيزيو وهو يلقي بجسده إلى الفراش باسمًا. أخذ يمضغ حبات العنب وهو يُحدق بفراغ السقف، فقد صدق حدسه بشأن الأسير العربي. كذب لورينزو كما كذب ابنه، صار متأكدًا أنه يتعامل مع ثلةٍ من الثعالب الريفية. استرخى، ترك عقله يُرتب الأحداث السابقة تباعًا، فيما كان جسده ينالُ نصيبه من الجامحة فيولا..

****

الكنز.. رسالة كُتبت بعبق عِطره، تخشى فحواها رغم الاشتياق لفتحها. لم تفض ختمًا من شمع أحمر، يحمل حروف اسمه كما كتبها عند البحيرة، كل هذا الوقت، مستمتعة بالأمل. الفضول- أو الشوق- غلبها أخيرًا.. أزالته برفقٍ، بيدٍ مرتعشةٍ، بعد أن تحسسته بأناملها الرقيقة لمرةٍ أخيرةٍ. غمر عينيها فيضٌ من كلماته، بحروفٍ لاتينيةٍ تُجيد قراءتها. حروف اسمها جعلتها ترتجف، حين شعرت بصوته يُناديها، ويتردد صداه بوادي شوق كادت أن تذبل فيه زهورها. جلست على طرف الفراش، لتمنح الرسالة قدرًا من ضوء الشموع الخافتة، وقرأت:

« من سَودان الماوري
إلى ماريا..
الغيم والبحر والذكريات وأنتِ. تسكنين الوجدان وحدك، وتستحوذين على العقل. الروح تهيم بنسيم وشاحك القرمِزي، ورذاذ الموج يطهر قلبي ممن سواك. لا أدري ما أصابني، لأصبح غريبًا أنا بدونك، محاطًا بوجوه مطموسةٍ، وفقط وجهك من يضيء الليالي المعتمة، لتغار منك نجوم باري.
حتى الموج أسمعه يهدر على البر باسمك. أي سحر سقيتني إياه، لتبقي بمخيلتي طوال الليل والنهار، فارتحلت بين الوديان والجبال، لعل جداول المياه الآتية من الشمال تحمل أثرًا منك.
كورقة شجر سقطت من غصنها جئتكم، مصابًا واهنًا تذروني رياح الموت، فآويتموني، وداويتموني. وخاطرتِ أنتِ بحياتك من أجل إنقاذي. الأرواح قرائن يا ماريا، ما تناكر منها اختلف، وما تعارف

منها ائتلف.. وإن في القرب لبهجة، وفي الغياب لوعة.. فإن كان لك من الأمر شيء، فقط أعلميني.. وإن كانت كل الطرق تؤدي إلى روما، فهي حتمًا تمر بسان فيلي»

انتهت الرسالة.. ما زال يذكرها، وها هو ذا يبوحُ بما تحمله في صدرها. لقد كتب اسمه الحقيقي واسمها.. ابتسمت.. أعادت القراءة بعينيها الممتلئتين بدمع الفرحِ. إنه الحب تسلل إلى قلبها متخفيًا في ثياب الشفقة والواجب، ثم ها هو ذا يكشف عن نفسه، لتمر شهب الشوق في سمائها الحالكة، تتبعها عيناها إلى حيث تمضي. ضمت الرسالة إلى صدرها، وقد ابتهجت روحها، فها هي ذي رسالته تمنحها أملًا في الصمود حتى اللقاء.
ولكن شيئًا من وسوسة شيطان جالت بخاطرها.. أصارت تعي أن ما تضمره له هو الحب؟ أم تراه مجرد أمل في الفرار من قبضة أبيها؟!

طرقات على باب غرفتها أفزعتها، فطوت الرسالة ووضعتها تحت وسادتها، ومسحت عينيها ووجهها وصوت الطرقات يتجدد.

- من؟

جاءها صوتُ أبيها، ففتحت المزلاج مبتسمةً في وجهه. تأملها بلطفٍ وهو يسألها:

- ما بك؟

ابتسمت ويداه تلامسان وجنتها:

- لا شيء يا أبي.. كنت فقط أحاول النوم.

أمسك بكتفيها محدقًا بعينيها:

- لن تطول وحدتك هذه كثيرًا.. فقريبًا سنقيم عرسك على الدوق ماركيزيو.

تبدلت ملامحها، وتيبست الكلمات على لسانها. نصلٌ باردٌ مرَّ على قلبها، بينما تركها أبوها متجهًا إلى الباب، مستطردًا:

- بحلول الخريف ستكونين الدوقة ماريا.

****

في هذه الليلة الصيفية الهادئة، وحده كان يسير دون حرس في طرقات باري الخاوية، وقد أوى الجميع لمنازلهم بعد صلاة العشاء. كان يلوم نفسه على تلكَ الرسالة التي أرسلها. ما كان عليه البوح إلى هذا الحد. ماذا دهاك يا سَودان؟ لم تخرج للغزو، ولم تعد ذلك الذي عهدته. ردد على نفسه تلك الكلمات كثيرًا، ود لو أخذ فرسه ولحق بجيشه غربًا. عدم خروجه مع الجيش هذه المرة خطأ عابرٌ، لن يكرره إذا أراد أن يبقى في القيادة. ولكن أطفال شعيب، بل وكل أيتام باري يُعيدونه مرة أخرى إلى التفكير في المدينة وإعمارها، وإلى النظر في الحروب بتريثٍ وحسابٍ. والعجيب، أن النظر في عيون

الأطفال يُعيده إلى الحنين لها.. ماريا. ليس الأمر مجرد حلم الأبوة، وإلا فملك يمينه من تأتينه بالبنين، وهناك رملة التي اقترح أمرها أبو المغوار.. ولكن حلمه يختصها هي أمًّا لأطفال خياله.. إنه الهوى.

قادته قدماه إلى الميناء، حيث انعكس ضوء القمر على سطح المياه، والكل نيامٌ إلا حارسين وقفا في انتباهٍ مع رؤيته. أشار إليهما أن يستريحا، وأكمل مسيره إلى حافة الرصيف، حيث السفن متراصة إلى جوار بعضها البعض في سكونٍ. وحدها سفينة كبيرة توهجت مشاعلها، عمالها ما زالوا يعملون رغم الوقت المتأخر، ستحمل في الصباح أبناء شعيب وزوجته إلى إقريطش. زفرة طويلة أطلقها وهو يُدير عينيه بالفضاء الواسع.. أيامٌ ويمضي شهر شعبان، ويأتي رمضان من دون شعيب وأولاده. في العام الماضي، كان هو الإمام في الصلاة، ووقت الإفطار كان لا يكف عن إطلاق المزاح مع الجميع. كان كاتم أسراره وصديق عمره. روح أندلسية رفضت إقريطش ورغد عيشها. كان لقاؤهما الأول في برنديزي، شباب صغار اشتد عوداهما مع الوقت. في خضم الشدائد كان جواره، وبين ثنايا الملاحم كان يحمي ظهره. لم يعِ سَودان مفهوم كلمة صداقة إلا برفقة شعيب.

وبينما يُحاول اصطياد ذكرياته من فوق صفحة الماء، جاء صوتٌ من خلفه:

- البحر دومًا يُعيد الذكريات للحياة.

لم يلتفت سَودان، ابتسم وهو يقول لمُحدثه:

- يستطيع أيضًا أن يتحمل ما نفيض به. ولكنه غادرٌ في كل الأحوال.. أليس كذلك يا طلحة؟

وقف طلحة السكندري إلى جواره:

- نعم، من يأمن البحر يُغرقه. سنوات عمري قضيتها بين موانئ بحر الروم.. الإسكندرية.. عكا.. إقريطش.. بلنسية.. وفي النهاية أيقنت أن البحر هو روح مثلنا، حين يثور يبلغك أنه المسيطر والأقوى، وحين يكون هادئًا لا تأمن السكون والصمت. البحر كما حياتنا الدنيا، تقلبنا يمينًا ويسارًا، يوم فرح ويوم تعاسة وخوف، هكذا هو الحال دومًا. في بعض الأحيان أرى حيتان البحر العملاقة تقفز إلى خارج الماء تنفث الرذاذ، وتحلق لبرهة في الهواء قبل أن تسقط.. أتدري لمَ تقفز خارج الماء؟

رمقه سَودان بطرفِ عينه، بينما أكمل طلحة:

- إنها مثلك يا سَودان، إن كنت تقف على حافة البحر لتلقي همك به، فهي أيضًا تقفز خارج المياه لعلها تلقي ما بجوفها إلى السماء.. الحقيقة الثابتة هي أننا نستطيع أن نأخذ خياراتٍ أفضل من الحيتان وباقي الدواب.. ألقِ همومك بالبحر، ولكن لا تغرق فيه يا صديقي، ولا تعبأ كثيرًا بما هو قادم.. فالقادم- وإن كان فيَ علم الله- إلا أن الاختيار لنا، واجتهاداتنا وحدها تمنحنا الطريق الذي نريد.

- متى ترحل إلى إقريطش؟

أشار طلحة لسفينته الرابضة على حافة الميناء:

- يبدو أننا سنبقى قليلًا، لن نستطيع الإبحار في الأيام المقبلة. بدن السفينة يحتاج لصيانةٍ وإصلاحٍ. خضنا معركةً شرسةً بالقرب من مالطة، لقد بدأت أساطيل بيزنطة في الظهورِ مجددًا، والصراع محتدمٌ في شمال بحر إيجة بين إقريطش والبيزنطيين. علينا المكوث هنا قليلًا حتى نتم إصلاح السفينة.. وهكذا سنتأخر قليلًا عن الذهاب إلى الإسكندرية.. السلطان ابن طولون يحتاج لمزيدٍ من الأخشاب لوضع أساس مدينته الجديدة، القطائع.

عقد سَودان حاجبيه متمتمًا:

- السلطان!

أومأ طلحة برأسه في أسى:

- نعم، لقد أعلن أنه انفصل عن الدولة العباسية، ولكنه ما زال تحت طاعتها رمزيًّا فقط. ما زالت مساجد الفسطاط تدعو للخليفة، ورايات بني العباس فوق الصواري، ولكنها مجرد صورة لإضفاء الشرعية على حكمه. يا صديقي، شهوة العرش قاتلة.

اختلطت الأفكار بعقل سَودان، ولكنه ابتسم مع تذكره خبر تأجيل الإبحار. سيمنحه هذا المزيد من الوقت مع أطفال شعيب. تبادل النظرات مع طلحة السكندري قبل أن يقول:

- طلحة، أي المدن التي زرتها أحب إلى قلبك؟

زمَّ طلحة شفتيه وضاقت عيناه:

- لكل منها روحٌ مختلفة.. ولكن أفضلها التي فيها البيت والولد..

ألقى جملته، وتحرَّك متجهًا إلى سفينته. كانت جملته الأخيرة كافية لتثير العواصف بداخل سَودان. تحرك هو الآخر منصرفًا عن الميناء متجهًا إلى القلعة، وطوال الطريق كانت كلمات طلحة يتردد صداها في جنبات عقله.

في أروقة القصر صادفها، ذاهبة لخلوتها الليلية. أربع خادمات يلحقن بها، وذلك الغلام الخصي ماركو. سارعت الخطوات حين رأته، وتجاوزته وخادماتها اللواتي وضعن وجوههن أرضًا، بينما ظل ماركو يحدق بوجهه بابتسامةٍ باهتةٍ.

- سمو الأميرة، هل تأذنين لي بالحديث؟

توقفت عن السير، تجمدت قدماها، وسرت قشعريرةٌ باردةٌ بجسدها. كانت تتمنى الرحيل دون تلك المواجهة، التي قد تنتهي ودماؤه على خنجرها:

- ليس بيننا أي حديث.

عقد حاجبيْه:

- فلماذا توقفت عن السير؟

التفتت له بعصبيةٍ تجلت في عينيْها، التي تظهر من خلف نقابها الأبيض..

- توقفت لأنك الأمير سَودان الماوري، صاحب باري.. وقاتل زوجي.

شهقت إحدى الخادمات، بينما هزَّ سَودان رأسه قائلًا:

- حسنًا.. أنا أبرئ نفسي مما تقولين، ولست بموقف دفاع عن نفسي، وما أوقفتك وطلبت حديثك إلا لأقيم عليك الحجة، فلا تحاجيني أمام الله بما لم أفعله. لا يقتل الخليل خليله، وما الحزن بقلبك إلا جزءٌ مما أحمل. شعيب كان رفيق دربي من قبل أن تعرفيه لسنواتٍ، أطول من سنواتك معه. أقدِّر ما أنت فيه، وما أجمل إخلاصك لزوجك، ولكنك تهلكين نفسك وطفليك بتجديد الحزن وبالبغض لي. يا أختاه، عودي إلى رشدك واعلمي أن أمر الله لا مردَّ له، وأن طفليك يحتاجان أن يتعلما الحياة لا الموت.

أشاحت بوجهها:

- أأنهيت ما جئت لتقوله؟

- ما جئت لقوله، إن السفينة التي ستحملكم إلى إقريطش ستبقى حتى ينقضي شهر الصيام، فهي تحتاجُ للإصلاح، كما أن معارك البحر لا تتوقف قرب جزيرتكم، فلا أمان في الإبحار حتى تهدأ الحرب. لله الأمر، لكم على أرض باري أيامٌ أخر، وسيكون عيدكم في باري.

أكمل:

- فقط اجعليهم رفاق مائدتي في رمضان، كعادة أبيهم.. ولننتظر عودة القاضي أبي المغوار، فهو سيذهب إلى إقريطش أيضًا.

حاولت أن تقول شيئًا، فأوقفها بإشارةٍ من يده وهو يقول بهدوءٍ:

- كان شعيب أخي الذي لم تلده أمي. لقد قضيت ثلثي عمري معه منذ أتيت لباري شابًّا يافعًا، وإن القلب ليحزن على فراقه، فتمهلي في الحكم ولا تظلمي أقرب رفقاء زوجك إلى نفسه، فما كان ليرضى أن تفعلي ذلك أبدًا، وامنحي عقلك بعض الإيمان.

تركها ومضى إلى الرواق المؤدي لغرفته، وعيناها المتقدتان تلاحقانه حتى اختفى. كان محقًّا، فالبُغض لن يُعيد من رحل. كانت تعجب له، فسَودان هذا مختلفٌ عن أي وقتٍ من قبل..

****

(4)

غربت الشمسُ، مخلفةً وراءها سماء بلونِ الشفق. اكتست جدران الخليج الصخرية بالظلال وصدحت بهدير الموج تكسر صمتِ شوارع باري الخاوية من البشر، عدا مجموعةٍ من الجند يتسامرون وهم يفطرون من خيرات ما أُرسل لهم من القلعة، إذ يُقيم الأمير سَودانِ مأدبةً كبيرةً دعا إليها كل قادته، ووزَّع اللحم على بيوت باري جميعها. وبينما كانت أيديهم ممتلئة بالثريد والضأن عند البوابة الرئيسية للمدينة، أتاهم صوتٌ يقترب. كان فارسًا واحدًا أخفت الظلال ملامحه، فتناول أحدهم المشعل من على الحائط، ووقفوا ينتظرونه، حتى اقترب. وما إن تبينوا القادم، تنحوا جانبًا ليمنحوه العبور، فأومأ برأسه مُحييًا طاقم الحرس، واتجه إلى حيث القصبة تقبع بجدرانها الضخمة وبرجيْها العظيميْن فوق تلٍّ صخري. كانت قد تدلت على واجهتها رايتانِ كبيرتان، واحدة سوداء والأخرى بيضاء وخضراء. كبيرة هي القصبة، بما يكفي لتكون مدينة صغرى داخل باري. ما إن رآه حرسُ المدخل، حتى أسرعوا يفتحون أبوابها الحديدية، فصم صوت صرير السلسلة الآذان. لم ينتظر الفارس المتعجل حتى تُرفع البوابة للنهاية، فخفض رأسه وعبر بحصانه إلى الحديقة الغناء وجاوز بركة المياه المُحاطة بأحواض الزهور، ثم شد لجام دابته وأوقفها، وترجَّل تاركًا الجواد اللاهث لأحد الجند، بينما رافقه آخران إلى ساحة قصر القلعة.

كان سَودان يجلس على رأس مائدةٍ عامرةٍ بمختلف صنوف الطعام، الذي أرسل مثله إلى كل بيتٍ في باري. وقد جمع كل قادة المدينة، ورجال الديوان والقضاة وكبار التجار. طفلا شعيب أيضًا كانا يُشاركانه طرف المائدة، الأكبر على يساره والأصغر عمر عن يمينه. قدَّمهما لصفوة رجال المدينة مُفاخرًا بأبيهما، فانتشى الولدان وأقبلا على إفطارِ عمَّته البهجة، وطلحة السكندري لا يكف عن قصِّ رحلاته في البحر الشاسع، والكل يتسامرون ويسألونه، وإجابته دومًا حاضرةٌ. أبهرهم بقصصه عن برِّ مصر ومدينتيْ الإسكندرية ودمياط، وعن رحلاته إلى برقة وسوسة.. سمعوا منه حكاياتٍ عن غزة ونوارس عسقلان وصور وصيدا، وأقسم أنه رأى القسطنطينية بعينيْه، بعد أن طارد سفينةً بيزنطية لأيام. حدثهم عن شواطئ الأندلس وميناء سبتة، كان يقول لهم إنه رأى مُلك المسلمين من المشرق إلى المغرب، وأنه حجَّ وزار بغداد ودمشق ونزل بالفسطاط. كان الحضور الذين اختلطت أنسابهم بين الفاتحين وأهل باري في شوقٍ لسماع قصص طلحة عن أناسٍ يُشاركونهم الدين والعقيدة، ولبعضهم فيهم جذورٌ بعيدةٌ. لكن سَودانَ كان يشغل باله من كل ذلك قصةَ ابن طولون وانسلاخه عن ثوب الخلافة، ليتركِ العباسيين قانعين بتبعيته الصورية دون اصطدام بما صار له من قوة. هكذا يكون ابن طولون مستقلًا، وله دولته وكيانه الخاص، وسيترك إرثًا لعائلةٍ تحكم ويُرفع اسمه. ماذا عن باري أيضًا؛ إنها بعيدةٌ وحيدةٌ على الثغور العليا لممالك الخلافة، ولا ضير من ذكر اسم الخليفة العباسي على المنابر يوم الجمعة!.. فاجأته نفسه بهذه الهواجس، فنفض تلك الأفكار الغريبة عن رأسه، ونظر

في وجوه مَن حوله راسمًا على وجهه ابتسامة باهتة.

أقبلَ في هذه اللحظة أحدُ حراس القاعة بخطواتٍ واسعةٍ، ثم مال على أذنه هامسًا، فنهض سَودان فجأةً، مما أثار انتباه الحضور، فأشار إليهم..

- لا تقلقوا، كل الأمور على ما يرام.. سأعود بعد قليل.

وعلى ضوء المشاعل في الرواق المؤدي للقاعة، كان محمد الأغلبي والي مدينة أفيليانو، قد أصرَّ على مقابلة الأمير وحده. كانت عيناه زائغتين ووجه شاحبًا، فاقترب منه سَودان وجذبه إلى إحدى الغرف، وهو يهمس يسأله:

- محمد.. ماذا حدث لك؟

بصوتٍ مرتجفٍ أجاب ابن الأغلبي:

- لقد هاجمونا وقت الإفطار.. أبادوا المدينة.. أحرقت الأسوار والبوابات حتى لا يستطيع أحد الخروج. اشتعلت النيران في كل شيء فجأةً. كانوا يمطرون شهبًا على القرية الآمنة، سهامٌ مشتعلةٌ أصابت الأجساد داخل البيوت.. الصرخات كانت تعم المكان، راياتهم حمراء بلون الدماء، لم أتبين ملامحها فالجحيم ليست فيه رياح لتخفق الرايات. بالكاد استطعت الهرب وحدي من المدينة..

نطق سَودان في ذهولٍ:
- وحدك!

تحشرجت كلماته:

- كان الجحيم يا سَودان.. أعتقد أن بعض رجال الديوان هربوا أيضًا، لكن لم يكن بأيدينا شيء للناس.

أمسك سَودان بكتفيه وهو يكظم غضبه:

- لماذا لم تبق لتجابههم؟

- لقد كانوا أكثر عددًا. مات كثيرون، فماذا ينفعنا إن مات أكثر؟ آثرت القدوم إلى هنا لتحذيركم.

كان وجه محمد يفيضُ بالهلع. نعم كان في هروبه خذلان، ولكن ألم يكن يجب أن يُحذر باري ويستنجد بها؟.. أمر سَودان رجاله باصطحاب الأغلبي إلى منزله، ولكنِ الأخير رفض أن يمكث في أهله يندب حظه بينما الفرسان يتجهون إلى أفيليانو. رمقه سَودان ولم يُعلِّق، وعاد إلى حيث مائدة الإفطار بغير الوجه الذي ذهب به، فقابلته العيون بتوجسٍ، فقال باختصارٍ:
- لقد هُوجمت أفيليانو وقراها.

أفاق الحضورُ من الصدمة على وقعِ أقدام الجند في الساحة، وصوتٌ يُنادي من أعلى أبراج القصبة في أهل المدينة مؤذنًا بالجهاد. ركض الصغير علي متتبعًا خطوات سَودان:

- سيدي الأمير..

توقف سَودان..

- ماذا هناك يا علي؟

اقترب الفتى بأنفاسٍ متقطعةٍ:

- هل تسمح لي أن أرافقك للحرب؟

دنا منه سَودان:

- يومًا ما ستكون قائدًا لجيوش المسلمين؛ أما اليوم فعليك أن تبقى في باري. أعيِّنك منذ اللحظة حارسًا على مدينة باري، فهيا أيها القائد اذهب وأخبر أمك!

ركض الصغيرُ مسرعًا، وقلبه يدق بالحماسة والزهو، متجهًا إلى الجناح الشرقي، بينما دلف سَودان إلى غرفته يتبعه خادمه، يُساعده في ارتداء زيٍّ أسود مذهب، شدَّ فوقه درعًا من البرونز صُنع خصيصًا له، كان قد أهداه له أبو المغوار. طرق الباب، فاتجه الخادم يرى من هناك، بينما سَودان يرتدي حزام سيفه. عاد الخادم:

- سيدي إنها الأميرة رملة برفقة الغلام ماركو، تستأذن في الحديث إليكم.

ليس هذا وقتًا لأحاديثِ النساء؛ ولكنَّ لرفيق عمره فضلًا ووفاءً فرضا عليه أن يخرج إليها يحمل خوذته، وهو يتمنى ألَّا تُعيد عليه رأيها في الحروب..

- هل ستذهب للحرب؟

نظر إلى ماركو الذي كان يقف بالباب، وقال بحذرٍ:

- لقد تعرضت قرى أفيليانو وأنحاءها لهجومٍ، وعليَّ الذهاب الآن. تعلمين أن أبا المغوار في ضيافة حلفائنا، والأمر قد بات مقلقًا للغاية.

تركها ودخل إلى الغرفة متعجلًا، فاقتربت من الباب غير عابئةٍ بالاعتبارات، وتابعته بعينيْها وفتاه يُساعده في لفِّ عمامته حول الخوذة:

- ألا يكفي أن تُرسل لهم رسالة ليذهبوا لهناك؟

ارتدى خاتمه وهو ينظر لها:

- أولستُ أمير باري؟

- بلى.

- إذن أمرُ الرعية وقضاء حوائجهم والموت في سبيل الدفاع عنهم واجبي.

صوتها كان يحمل رائحة الخوف وهي تقول بخفوتٍ:

- ولكن الأطفال يبكون.. برغم كونك عيَّنت عليًّا حارسًا وهميًّا على المدينة، إلا أنه يبكيك منذ الآن. يقول إنك ستذهب ولن تعود مثل أبيه.. لقد أصررت على بقائنا حتى ينقضي رمضان، ثم ها أنت تذهب!

تجاوزها إلى باب الغرفة:

- سأعود..

تجهز الجند كما أمر سَودان.. ألف فارس، على الخيول المتراصة بألوانها المختلفة، يقفون بساحة المدينة الهامسة، بخوذاتهم ودروع من سلاسل معدنيةٍ خفيفةٍ، وعيونٍ جامدةٍ تنتظر الأمر بالخروج لوجهتها. من شرفتها كانت تُتابع المشهد. هناك شيء جللٌ يحدث. لم يُخبرها سَودان بشيء، واكتفى بأن ودَّع طفليْها على عجلٍ من أمره وقد ارتدى زي الحرب. قال طلحة إن السفينة بحلول العيد ستكون جاهزة للرحيل، فأُجبرت على البقاء في باري، ثم ها هي ذي باري تخلو من كل مَن عرفتهم يومًا. رأت من مكانها فوق القلعة أربعة فرسان يتناول كل منهم شيئًا ما، قبل أن يفتح باب القصبة، ليظهر سَودان على عتبته ممتطيًا الهجان التي تتبختر في مشيتها بدرع الحرب الخاص بها. انفلق الجيش الصغير لنصفين، ليمر بينهم سيد الحرب، ورايات باري تخفق على أسنة الرماح. وقف أمامهم، وأخذ ينظر في عيونٍ تظهر من وراء الخوذات، تنتظر أوامره لتمضي للحرب. بينهم كان محمد الأغلبي، وقد استبدل جِواده. لم يتعجب سَودان من حضوره، أومأ له وهو يجذب لجام فرسه، لتدور حول نفسها قبل أن تتوقف عن الحركة وصوته القوى يدوي:

- فرسان باري الشجعان.. ما قولكم فيمن اعتدى على أراضينا وقتل موالينا؟

جاء صوتُ الجند كموجةٍ هادرةٍ:

- الموت.

ازداد صوته قوةً وهو يصيح:

- ما قولكم فيمن هتك أعراض النساء وأحرق منازلنا؟

ارتفع صياحهم مجددًا، فرد عليهم قائدهم:

- الموت لمن قتل الآمنين والمستضعفين.

أنهى كلماته، وانطلق نحو البوابة الشمالية للمدينة، ومن خلفه كان فرسانه ورسله الثلاث الذين أمرهم بطلب العون من الجنوب. دقَّت طبولُ الحرب في قلبها. رأت في عينيْه حربًا تسلبُ الأرواح دون هوادةٍ، وصرامة الموت تبرق في نظرته. ترقرقت عينا رملة بالدمع، تتذكر شعيبًا وترى طيفه بين الجموع يلوح لها قبل الرحيل..

****

ساليرنو..

مدينةَ الميناء يُسمونها. حسناء تُلقي بساقيْها في البحر، على سفح جبلٍ مكسو بخضرةٍ دائمةٍ. الخليج المُسمى باسمها مياهه بلون الفيروز، ومنازلها تغطت أسطحها بالقرميد الأحمر، ممتدة لمسافةٍ طويلةٍ على الساحل. وبعيدًا عن صخب المدينة، كانت قلعة دي أرشيس تعلو رأس الخليج، وتمتد أسوارها لتُحيط بالمدينة من كل جانبٍ، شاهقة ترمق السهل الممتد خلف الجبال بكِبر. كان الدوق ماركيزيو يُتابع باهتمامٍ تدريب من استطاع جمعهم من شباب المدينة. لم يكن يتوقع يومًا أن يكون هنا، بعيدًا عن دياره فيّ لومبارديا، ولكن الواجب المقدس حتَّم وجوده في ساليرنو، ذات الحدائق الخلابة والخليج الصافي، جاء قادمًا من نابولي، في رحلةٍ بحريةٍ ذكَّرته بمعركتة الأخيرة في بحر البَنَادِقَة منذ سنواتٍ. كان قد استطاع مهاجمة سفنٍ تجاريةٍ تابعة لإمارة باري قبالة سواحلها، ولكن السراسنة كانوا أكثر تمرسًا من رجاله. إنهم يملكون البحر منذ عقودٍ، وصارت سفنهم أكثر قوةً من سفن البيزنطيين والبنادقة، وها قد حانت اللحظة التي يسترد فيها شرف النصر. كان قد قضى في نابولي معظم الربيع، حتى نجح في إقناع الدوق سيرجيوس أن يفك ارتباطه بالمسلمين. منحه البابا أدريان الكثير من الوعود، أهمها أن تبقى نابولي في حلفٍ مقدسٍ مع روما، بعد سنواتٍ من الخلافات والحروب. لقد كانت نابولي من أقوى دوقيات إيطاليا، لا تخضع سوى لأهلها، فلم يستطع اللومبارديون ودوقية بنفينتو غزوها، خاصة مع علاقاتها القوية مع الأغالبة المسلمين حكام صقلية، وتحالفها التجاري والحربي مع إمارة باري، التي لطالما ساعدت نابولي وقدَّمت لها العون. الآن، على قواعد اللعبة أن تتغير، وعلى نابولي التخلي عن حلفائها. لقد رضخ سيرجيوس أخيرًا لضغوط البابا والملك لويس الكارولنجي، بفعل دهاء الدوق الشريد.

"ماركيزيو دي لابورتا.. ملك إيطاليا الموحدة"
تمتم بها وهو يُتابع تدريبات رجاله. لن يثنيه شيءٌ عن الحرب والانتصار على السراسنة. لقد أتى إلى سالرينو ببضعة آلاف من جند نابولي، دخلوا المدينة ليلًا من البحر، وما زال ينتظر جيشه الخاص الذي أعده واختار رايته لتكون بداية لحلمه الكبير. وجوه الجند متعرقة مع الجهد الكبير في تدريباتهم. معظمهم فلاحون، جمعهم قسرًا من قراهم، مع وعدٍ بالثروة والمجد، وجعل القساوسة يحثونهم بوعود الغفران. إنهم رعاعٌ، لا يأملون في شيء، لا يعرفون لم جاؤوا للدنيا، الجندية تمنحهم النظام وبعض الامتيازات وتترك لأهلهم فخرًا إذا ما قتلتهم الحرب، أو عادوا إلى ديارهم مكللين بالنصر. لا هوادة في الحرب، فعدوهم فيها أكثر عتادًا وقوةً، وعلى أولئك أن يقوموا بدورهم

في الجهاد المقدس بدلًا من عيشهم كالبهائم.

ترك ساحة التدريب، متجهًا إلى أسوار المدينة.. عليه أن يُتابع كل شيء بنفسه، ففي المعركة القادمة يجب ألّا تكون فيها أخطاء. مداخن المدينة تنفث الدخان الأسود، الحدادون قد كثَّفوا إنتاجهم، والبنَّاؤون يسدون الشقوق في السور الرمادي الكبير. لم يتبق سوى أيام قبل الهجوم على عدو يفترش أرض بلاده وينعم بخيراتها، الرب وحده يعلم كم يبغضهم. قفزت إلى ذهنه جملة صاحب نابولي، حين قال له: "إنها حرب نفوذ وسيطرة.. وليست حربًا من أجل الرب". أحمق سيرجيوس، لقد رأى السراسنة في الحرب، وهم ليسوا ما يظنه سيرجيوس. إنهم يموتون من أجل ما يعتقدون، ولذا فالفرصة الوحيدة هي أن الإيمان يهزم الإيمان، فمن هو على استعدادٍ للموت من أجل ما يؤمن به لا يُهزم.

كان ماركيزيو أبعد الناس عن الرب والكنيسة. في يومه الأخير في روما، جثا على ركبتيْه أمام مذبح كنيسة "سانتا ماريا روتاندا" العتيقة، مرتديًا ثيابًا جديدة ودرعًا ذهبيَّة نقش على صدره صليب كبير يتوسطه شعار الأملاك البابوية. اهتز كيانه حين لامست يد البابا رأسه يمنحه البركات بصلواتٍ خافتةٍ: نسألك يا رب أن تنير طريقه بإلهامك، وأن تصحب أعماله بمعونتك، لكي تبتدئ منك وتنتهي بك جميع صلواتنا وأفعالنا دائمًا.. بالمسيح ربنا. آمين. أمره بعدها أن يرفع رأسه، فنهض يحملق في وجوه الكرادلة والرهبان من حوله، وصوت البابا يستقر في عقله:

- خذ هذه الراية وهذا السيف، بركات الديانة الحقيقية. ستنتصر على عدونا الكافر ببركات الرب والقديسين، وستذيقه مرارة الهزيمة وتحط من كبريائه.

واتسعت عينا الدوق مع رؤيته للشمامسة وخدام الكنيسة يحملون لفافةً كبيرةً من الحرير، توسطوا القاعة وبسطوها أمامه.. حمراء مذهبة الأطراف، يتوسطها حَمل مجنح ذهبي.

****

ليلة ونهار من المسير، خاضوا فيهما النهر الذي شقته صدور الخيل المغطاة بدروع جلديةٍ، ثم عبروا منحدرًا اكتسى بالعشب الجاف، قبل أن تضرب قوائم الخيل الحصى الصلب صعودًا. كان عليه أن يصل إلى هناك، لعله يكون نجدةً لمن لم يزل حيًّا بعد الحريق، لكن وجبت الراحة كي يمكن لجيشه الاستمرار. أضاءت المشاعل جذوع الأشجار المتراصة بانتظام، وساد السكون لساعات الليل، وحتى ميلاد فجر اليوم الجديد. كان خط من الدخان الأسود يتصاعد في الأفق، فخلف الأشجار البعيدة كانت تقبع المدينة. خمدت نيران الجحيم، ولكن ما زال الرماد يدخن ذرات الأجساد والبيوت. ورائحة اللحم المحترق تصله مع الريح القادمة من هناك.

ترجَّل عن فرسه وعيناه تدوران في المكان. أرسل فرقة استطلاع، ثم تبعها بجنوده، إلى أن دخل المدينة الخاوية. سار فوق الرماد نحو مسجدٍ لم يبق منه سوى مئذنةٍ حجريةٍ اتشحت بالسواد وجزء من سور محترق. تَعلم أن الحرب ليست غدرًا، وأن الإغارة على الآمنين ليست بنبلٍ، ولكنه يقف الآن

وسط مدِينةٍ تمت إبادتها، بل إن الكنيسة الصغيرة نفسها لم تسلم.. محرقة أقيمت دون شفقةٍ. جاء صوتُ شَرحبيل الكلبي ينتشله من التفكير:

- سيدي.. لقد وجدنا جثة أحد المهاجمين بالقرب من الجدار الغربي.

سأله سَودان دون أن يلتفت:

- يحمل شعار أي دوقية؟

- لا يحمل أي شارة.. ولا يوجد سوى جزءٍ من راية حمراء تحمل رسمًا لحَمل كما قال ابن الأغلبي.

خطا سَودان بين الأشلاء المحترقة، ذاهبًا مع شرحبيل ليرى الشعار. استوقف نظره شيء يلمعُ، فانحنى يأخذه من الأرض.. كانت سلسلة ذهبية علق بها صليب مزين بأحجار زرقاء وحمراء. ليست أول مرة يرى هذا الصليب!.. انتشله صوتُ مساعده مرة ثانية:

- سيدي هل سنتوجه شمالًا؟

اعتدل سَودان بعد أن دس الصليب في جرابه:

- كم عددُ القرى التي طالها الدمار؟

- أربع قرى باتجاه سالرينو..

- أي القرى بدأ عليها الهجوم أولًا.

- هذه يا سيدي.

أشار سَودان للجندي الممسك بلجام الفرس ليأتيه، وامتطى صهوتها وهو يقول:

- سنتجه غربًا.

صاح قائد الجند بفرسان الاستطلاع أن يتجهوا غربًا، بينما حث سَودان مطيته للركض، متقدمًا جيشه الصغير. عليه الاتجاه غربًا، فمن أحرق تلك المدينة خطوته القادمة إلى الغرب، حيث يُعسكر جيشه بقيادة أبي المغوار.

****

قمرُ ليلةٍ وتريةٍ من رمضان زين السماء، ومئات المشاعل أضاءت المعسكر القريب من سفح الجبل. تراص الجند بين الخيام للصلاة، وآخرون يصبُّون المياه من الأباريق للوضوء. الوجوه باسمةٌ رغم الضيق، والنفوس تستعين بذكر الله لتطمئن، وصوت تلاوتهم يصلُ إلى مسامع من يقبعون فوق الجبل مستترين بالظلام. جنود سالرينو تراصوا ممسكين بأقواسهم، يرمقون الجيش الرابض في السهل المنبسط. لطالما رأى قادتهم أن تحالفهم مع سراسنة باري هو عارٌ يجعل رؤوسهم تنحني في مهانةٍ، فلا شيء يذل أكثر منٍ أن تسمح لعدوك بأن يُقيم بجيوشه على أرضك، ويتلو آياته الوثنيةٍ في أرضٍ مسيحيةٍ، ثم تدفع جزيةً سنويةً من خراج الأرض للمغتصبين. وقف الدوق ماركيزيو متحدثًا إلى حاكم ساليرنو:

- ستكون آخر صلاة لهم..

ضحك كارلو ملوحًا بيده:

- فلنعجل بإتمام صلاتهم في الجحيم .

مع إشارة يده، انطلقت السهام المشتعلة وقذائف المنجنيق تعلن الحرب على حلفائهم السابقين. رجموا المعسكر القريب بكراتٍ من لهبٍ تساقطت من فوق الجبل، وكرات من أغصان مشتعلة تركض عبر السفح، متدحرجة تُطيح بالصفوف مهدمةً للخيام. خرج أبو المغوار من صلاته صائحًا:

- خيانة!

عمَّت المعسكر حالة أولية من الهلع، ولى البعض أدبارهم، ثم عادت بعض القوات تلملم شتاتها. توقفت شهب المنجنيق فجأة، كما بدأت فجأة، وارتفعت صيحاتُ هجوم تدوي من بعيدٍ. رتب الفرسان العرب صفوفهم بسرعةٍ، وحمل البعض الجرحى إلى الصفوف الخلفية. كان وقع الخيانة صادمًا، ولكن قسورة تخطى المفاجأة بتمرس محارب، وامتطى جواده آمرًا رجاله بالانتظام وتمالك زمام الجند. كان أبو المغوار يمتطي جواده، حين أتاه صوتُ قسورة:

- قلت لك إن الخيانة تسري بدمائهم، فلم تُصدقني.

صاح به أبو المغوار:

- لا وقت لدينا لنرى من كان محقًّا، أعط أوامرك للجند بالتراجع.

مال قسورة برأسه جانبًا متعجبًا:

- تراجع!

- هو التراجع ولا شيء آخر، قبل أن تُفتح تلك البوابات ويخرج منها من يحصد رؤوسنا.

صرخ قسورة بعصبيةٍ:

- والله لن أتراجع خطوةً للخلف..

صاح به أبو المغوار في حزمٍ:

- أنت جندي، وعليك إطاعة الأمر.

- الجندي لا يفر من الميدان.. انسحبوا أنتم وسآخذ رجالي للقتال لأحمي ظهوركم.

نطقها قسورة بالتزامن مع وكزه للجواد، وشق الطريق بين الجند إلى الميسرة حيث كتيبته السوداء صائحًا:

- إلى القتال... الخونة جزاؤهم الموت.. والله لا أبرح حتى أدخل ساليرنو منتصرًا.

انطلق فرسانُ قسورة بدروعهم البراقة، بينما أعطى أبو المغوار أوامره للباقين بالانسحاب خارج مرمى المنجنيقات، التي كانت في تلك اللحظة تضربُ من جديدٍ. في الطرف الغربي، ظهر فرسان ساليرنو يتقدمون، بينما تمر الشهب فوق الجميع لتساقطت خلف كتيبة قسورة، التي اندفعت صوبهم رغم القصف المستمر والسهام المشتعلة. ارتطمت نواصي الخيل، واصطكت السيوف بشررٍ..
صرخاتٌ حماسيةٌ ألهبت الجانبيْن، استبسل رجالُ قسورة، الذي لم يصمد أحدٌ أمام ضرباته ومبارزته السريعة بسيفيْه، يسقط الفرسان عن جيادهم تباعًا. وفي ساحة الوغى، تبللت الأرض بالدماء، بينما السهام النارية تُلاحق رجال أبي المغوار، الذي استطاع تنظيم صفوف الجند، ورسم خريطة للحركة أمام المهاجمين. لم يتوقع الدوق ورفاقه أن يصمد السراسنة هكذا، وأن يتحولوا من الخوف إلى الهجوم بهذه السرعة، وفوجئ بهم وقد بدأوا يرشقون الجبل بالسهام. كان ماركيزيو يأمل أن تاخذ جيش باري المفاجأة، ويهرع إلى التلال فيكمل قنصه هناك. هكذا كان يجب أن تسير الأمور، ولكن خللًا ما أصاب الخطة. وقبل أن يحار فيما يفعل، كانت تظهر في الأفق راياتٌ حمراء بلون المغيب يعرفها جيدًا، جاءت بالوقت المناسب لتقضي على جيش السراسنة وقائدهم العنيد أبي المغوار.

ازداد عددُ الجرحى في صفوف جيش باري، وبدا الروع على الوجوه الملطخة بالدماء. مشهدٌ مريعٌ ملأ العيون من سهام غُرست بالصدور والسيقان، وأشلاء ممزقة جراء الشهب المتساقطة، ورايات محترقة دهستها الأقدام. كان من بقوا يُحاولون استبقاء شجاعتهم، إذ لم يكن أمامهم أي حل سوى المواجهة ولا مجال للتراجع، فانسحابهم يعني الموت المحتم. ظل أبو المغوار يُحاول إثارة الحمية بقلوبِ الجند للصمود حتى الموت. سقط فرسان الفرقة السوداء واحدًا وراء آخر، لكن لم يتوقف صليلُ السيوف، صهيل الخيل وصيحات الرجال في قتالٍ لا هوادة فيه، حيث أبرز الموت مهاراته في حصد الأرواح. اكتمل اليأس بأعلام حمراء برزت فوق ربوةٍ بعيدةٍ.. لقد صاروا محاصرين تمامًا.
صاح مناديًا في رجاله بالتمترس, فَتلاصقت الدروع في تشكيلٍ دفاعي لن يكون منيعًا لزمنٍ طويلٍ أمام ذلك العدد الكبير من فرسان الروم. قبض العجوز على سيفه، وأرجح درعه وهو ينقلُ عينه بين قسورة الذي كان يُقاتل في بسالةٍ بسيفيه، وبين أصحاب الرايات الحمراء القادمين بسيوف المنية، وأيقن أنها النهاية، فابتسم.. وارتطم الجمعان.

****

ليس هناك أسوأ من حانةٍ خاويةٍ. مرَّ سباستيان متذمرًا بين طاولات ومقاعد كانت عامرةً منذ أيام، وأخذ يُطفئ الشموع، فلا جدوى من إهدارها الليلة أيضًا. تخطى كلبه النائم، مطلقًا السباب للحرب ومن تسبب فيها. شباب سان فيلي ذهبوا لمحاربة السراسنة. مرَّ زمنٌ طويلٌ منذ آخر حرب شاركت فيها القرية، أو في الحقيقة هو لا يتذكر أن أحدًا منها شارك في أي حربٍ مسبقًا، سوى ذلك المهرطق العجوز. طوال سنين والقرية هادئة بعيدة عن طرق الجيوش ومعاناة الحرب، تنتقل ملكيتها إلى المنتصر في سلام. نقل بصره في أرجاء المكان. لم يتوقع يوم بنائه أن يُصبح خاويًا يومًا. تذكر كيف حصل على المال من الدوق ليقوم بتأسيس عمله الجديد، ولم يعد بعدها ذلك الحطاب الذي لا يملك سوى فأسٍ وحمارٍ وكلبٍ أجرب لا فائدة منه. كانت القرية في طريقها لكي تصبح مدينةً كبيرةً بفضل الأموال التي مُنحت للنبيل، لكنه أقحم الجميع في حربٍ لا طائل منها. لم يهتم سباستيان يومًا بأمور الممالك والصراع الدائم، يرى أن الأمراء وحتى السراسنة يتصارعون من أجل الأموال وبسط السيطرة وسلب الناس أموالهم وأقواتهم. ضحك، بعد أن تجرع كأس الجعة:

- كم أنا غبي..

بتر كلماته حين رآه أمامه. تفاجأ به، فهذه أول مرة يدخل إلى الحانة منذ بنائها. ابتسم كاراس:

- ما بك سباستيان، أتعترف بغبائك هكذا في العلن؟

غمغم سباستيان:

- لم أتوقع أن أراك هنا؟

جلس كاراس وهو يُخرج عملاتٍ فضيةً ليضعها على المنضدة:

- أوليست هذه حانة؟ نفد النبيذ عندي.

ابتسم سباستيان وهو يأتي بقنينةٍ من خلفه:

- هذه المرة الأولى التي تأتي إلى هنا فيها.. عذرًا سيدي الطبيب.

بعد عدة كؤوس ودهرٍ من الصمت، استدار كاراس إلى حيث يقف سباستيان:

- أي حانة هذه، التي لا أرى فيها سوى جدران صامتة! أين النساء والقيثارات؟ يبدو أني أخطأتُ حين تخيلت كيف تكون أجواء الحانات.

رمقه بامتعاضٍ:

- وهل دخلت حانة يومًا؟

رفع كاراس قدميْه إلى الطاولة:

- أظن قبل أن تُولد أنت. لم أدخل حانة منذ كنتُ بجيش الإمبراطورية البيزنطية. الليلة التي سبقت أسري قضيتها بحانةٍ في كالابيرا..

ضحكاتُ سباستيان جعلته يتوقف عن الحديث. رمقه بصرامةٍ مستطردًا:

- ما الذي يُضحكك يا هذا؟

لوَّح سباستيان بيده:

- تخيلت كيف يكون الطبيب المهرطق بين الأثداء والسيقان..

ارتشف كاراس ما بكأسه:

- لقد ضاجعتُ نصف نسوة القرية قبل أن تأتي أنت للدنيا، واكتفيت من النساء قبل أن تعرف سر تلك الثمرة الضئيلة بين فخذيْك.

ضرب سباستيان الطاولة بيده غاضبًا:

- أقسم أن أقتلك إن تفوهت بكلمةٍ أخرى.

لم يتحرك كاراس من مكانه وقد زين وجهه بابتسامةٍ صفراء:

- لم أتوقع أن يشعر القوَّاد بالغضب.

تحرَّك سباستيان من خلف طاولته، متجهًا إلى حيث يجلس كاراس. قبل أن يصل إليه، صاح أحدهم من خلفه:

- توقف!

استدار، ليجد لورينزو يقف بباب الحانة. لم ينتشله من جموده إلا صوتُ كاراس:

- لماذا توقفت؟ أأمرك سيدك أيها الجرو؟

صاح لورينزو:

- كاراس، توقف عما تفعله.

- لا أفعل شيئًا في الحقيقة.. تعال شاركني كأس نبيذ.. أيها الساقي الحطاب، هلا جئت لنا بقنينةٍ من النبيذ الكارولينجي الفاخر.

جلس لورينزو أمام أخيه، الذي رفع كأسه:

- لنشرب نخب أول جلوس لنا معًا منذ ستة أشهر أو ربما أكثر..

تأمله في صمتٍ قبل أن يقول بصوتٍ حازمٍ:

- لماذا أتيت إلى الحانة؟

- أويجب أن يسألني كل شخصٍ عن هذا؟! لقد نفد النبيذ عندي، فجئت لأحصل على قدرٍ منه.. ولربما صادفت عاهرةً تقضي معي ليلةً صيفيةً قرب البحيرة..

رفع لورينزو كأسه:

- السباحة ليلًا في البحيرة قد تكون خطرًا على حياتك أيها العجوز..

ضحك كاراس:

- تعلم جيدًا أني لا أخشى شيئًا. منذ صغرنا وأنا الذي أخاطر بكل شيء، وأنت تحصلُ على كل شيء. حتى اليوم الذي كان من المفترض أن تذهب فيه أنت إلى الحرب، أرسلوني بدلًا عنك. لم أتذمر ولم أختبئ بين أكوام القش في الحظيرة.. أما زلت تخشى الموت يا أخي؟

امتقع وجهُ لورينزو:

- احذر أن تسخر مني، ولا تنس أن لولا وجودي لكنت بين الأموات، ورغم مصائبك الأخيرة إلا أنك ما زلت تحظى بحمايتي..

عقد كاراس حاجبيْه مغمغمًا: مصائب!!

اقترب لورينزو منه وصوته يتخذ حِده:

- أنسيت قدوم السراسنة لك بالهدايا والعطايا؟ كذبت على الدوق من أجلك أنت وابنتي، التي تسير خلفك مغمضة العين، وأجزم أنك من تبث في رأسها سمومك لكي ترفض الزواج من الدوق ماركيزيو. ما إن تنتهي الحربُ ستتزوج الدوق، وسأحصل على ما أبتغي، ولن يردعني أحدٌ عن تكوين دوقية

سان فيلي..

قاطعه ساخرًا:

- دوقية سان فيلي!! هل بضعة قرويين ومجموعة من اللصوص سينتصرون على جيشٍ مدرع لا يقف أمامه شيء؟ أنت واهمٌ. لا أحد يستطيع هزيمتهم الآن. لقد رحل شارلمان ولن يعودَ يا لورينزو، وبطولات رولان مجرد أناشيد كنسية ومسرحيات هزلية تُقدم للعامة. الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم يعد لها وجودٌ سوى في أحلام السذج. انظر حولك.. العرب يُحيطون بنا من كل جانب، إنهم يحكمون الأرض ولم يتبق لهم سوى بضعة بلدان. أما نحن فنتمسك بتاريخ زائفٍ وأمجادٍ ولى عهدها يا أخي. أتعرف لمَ يُقبل الناس على دينهم وحضارتهم في البلاد التي دخلوها؟ لأنهم حرروا رقاب الناس من التسلط والجهل وتعسف الكنيسة. إنهم يجمعون علوم اليونان وروما القديمة، وترث عقولهم نور بلاد فارس. إنهم يعمِّرون، أما نحن فدوقيات وممالك مقسمة بين بيزنطة وأحفاد آخر أبطالنا شارلمان الكارولنجي. أكاد أرى رأسك معلقًا على بوابة القرية، بسبب حربٍ أقحمت نفسك بها.. حرب خاسرة أمام أقوى جيوش الأرض.

تجرَّع لورينزو ما بكأسه دفعةً واحدةً:

- أتفق معك في بعض ما قلته ولكنهم لا يزالون كفارًا.

ملأ له كاراس الكأس وهو يُحدثه بهدوءٍ:

- لا يهمني كل ذلك الهراء، سواء كان أبناء إسماعيل محقين، أو كان أبناء إسحق على صواب.. ولا آبه في الحقيقة لتلك الأساطير عن أحفاد قابيل الملعونين أو أننا نحن أبناء المسيح المخلصون.. انظر حولك يا أخي، سترى أننا كلنا من لحم ودم.. جميعنا من ظهر آدم وكلنا سواء أمام الرب. تختلف طرق عباداتنا ولكن لكل منا مفهومه.. وكما ترى لكل زمانه. وهذا زمان الشرق ليسود.

لوَّح لوينزو بيده في وجه أخيه:

- أهذه الهرطقات ما تملأ بها عقل ابنتي؟

تراجع كاراس في كرسيه:

- ابنتك ماريا! وهل يبيع نبيلٌ ابنته مقابل المال والجاه؟! ماريا لها عقلٌ راجحٌ، فلا تعاملها على أنها بهيمةٌ للبيع. اسمع لها يا لورينزو، ولا تفرض عليها الزواج من ذلك الدوق المتعجرف، حتى لا يأتي اليوم الذي تندم فيه.

رفع كأسه في وجه لورينزو، الذي نهض مغاضبًا وقد احتد صوته:

- سننتصر في الحرب، وستتزوج ماريا من الدوق. بينما نتحدث الآن، يُباد جيشُ أصدقائك قرب

ساليرنو. نحن نَحارب من أجل حريتنا وديننا.. نَقاتل من أجل المسيح وروما. سنَقاوم كل من يُحاول اغتصاب أراضينا وإهانة معتقداتنا.

قبل أن يصل إلى الباب، جاءه صوتُ كاراس ساخرًا:

- لماذا لم تذهب للحرب يا أخي؟

مضى لورينزو إلى طرقات القرية دون أن يُجيب أخاه, كظم غيظه، وراح يتجول وحده ويؤنب نفسه أن ذهب إلى الحانة في هذه الساعة. الدرب المؤدي إلى منزله اكتسى بضوء القمر. لم ينظر للسماء منذ زمنٍ، ولكن كلام أخيه المخرف أقلقه بما يكفي ليرفع عينيه يطلب أن يعود ابنه إلى أحضانه مكللًا بالنصر.. أن يراه يتزوج وينجب ورثةً له ولاسم عائلته. سنواتُ عمره قضاها في حصد المال وتوسيع حقوله، وكان على ابنه أن يذهب بين جندٍ يرتدون قلنسوات حمراء كأعلامهم التي رسم عليها حَمل ذهبي له أجنحة عظيمة، ليخوض غمار الحرب من أجل إتمام رفعة العائلة. على ماريا أن تضحي كما ضحى إليساندرو. قبل مولدها، رأى العذراء في منامه، ولهذا سماها باسمها لتكون بركة عليه، وكم ضحت السيدة العذراء من أجل خير الآخرين.

****

حمحماتُ الخيل.. وبِركةٌ من وحل دماء القتلى من الجانبيْن.. وقوات ساليرنو قد خرجت من البوابة الشرقية. فرقُ المشاة صارت في قلب المعركة، ترجَّل قسورة بعد أن قُتل جواده متفاديًا الرماح، يطعن هذا ويطعنه ذاك، ولا يزال يقف في بسالةٍ. الخيول تصطدم ببعضها، والدماء تتناثرُ في الهواء. كانت خطةً مُحكمةً وضعها الدوق ماركيزيو مع نبلاء وقادة الحرب في نابولي وساليرنو، طعنت جيش باري بروح الهزيمة، وزاغت الأبصار، وتساقط الجند وقد غُرست بأجسادهم سيوف "حملان الرب". غمد أبو المغوار سيفه بصدر أحد مهاجميه، رافعًا درعه ليتلقى ضربةً قويةً، أتبعها باستدارةٍ سريعةٍ، جعلت رأس مبارزه يطير في الهواء. وبوجهٍ مُلطخٍ بالدماء راح يشق الصفوف. كان يعلم أن للحرب وجهين.. إما الموت أو الحياة. تذكر يوم اشتد حصار سرقوسة. في ذلك اليوم كان يُقاتل ببسالةٍ، وقد هجم عليهم الروم من كل جانبٍ، بعد أن تملك منهم المرضُ والتعب. يتذكر كيف كان أسد بن الفرات يُقاتل بسيفٍ ويحمل اللواء بيده الأخرى، وقد سال الدم على قناة اللواء وتخضبت ذراعه، ضاربًا المثال لهم في الثبات..

النهاية دانت.. سقطت راياتُ باري ودهستها حوافرُ الخيل. اشتعلت الخيام أمام عيني قسورة، الذي اكتسى وجهه بالدماء. رغم إصاباته، فإنه لم يتوقف عن القتال. أخذ يشق الصفوف مكملًا مبارزته، وأسقط أحد فرسان ساليرنو من على جواده، وانهال عليه طعنًا.. صوتٌ بداخله أخبره أن كل شيء سينتهي بعد قليلٍ في هذه المذبحة التي تقوم بها قوات سالرينو. اصطك سيفاه بفأس أحد مهاجميه.. ركله بصدره، وصوت أحد رجاله يأتي من خلفه صائحًا: سيدي لقد جاء المدد!

من مدخل الوادي البعيد، انسابت راياتُ باري السوداء والخضراء، يتقدمهم فرسٌ أبيض. يقود موجًا

كاسحًا راح يهدر بالتهليل والتكبير، حتى ارتجفت الجدران ومن عليها من جندٍ. اتسعت العيون وهي ترى المدد الذي لا يتوقف. انقلب الحصار الآن، وصارت قواتُ سالرينو بين شقيْ الرحى. صاح أبو المغوار بجنوده فرحًا:

- امنحوا الخونة موتًا سريعًا يا رجال!

من أعلى الجبل، كان ماركيزيو يقفُ مذهولًا. كيف أتى هذا المدد، ومتى وصلهم الخبر كي يصلوا الآن؟! قائد القوات أشار لأحد رجاله قائلًا:

- أعطِ الأمر بالانسحاب والعودة إلى ساليرنو!

استدار له الدوق غاضبًا:

- ماذا تقول يا هذا؟

رماه القائد بنظرةٍ خاويةٍ:

- أفعل الصواب.. هذا المدد لا يتوقف، ومع الصباح ستكون المدينة بين يدي السراسنة. لا أستطيع التضحية بالمدينة، إنها خط الدفاع الأول لنابولي، وعلينا التحصن حتى يأتي العون.

صمت الدوق كاظمًا غيظه، وارتفعت راياتُ الانسحاب، ودوى صوت البوق في الفضاء الشاسع. تراجع المشاة إلى البوابة الشرقية، ثم ركضوا فارين، تحصدهم سيوفُ فرسان سَودان، ومن أعلى الجبل انهمر وابلٌ من السهام المشتعلة يُحاول أن يوقف جند باري عن التقدم خلف القوات المنسحبة. لم تفرق السهام بين هذا أو ذاك، ولكنها كانت كافية ليتراجع قسورة ورجاله، وانتهت المعركة وبقيت آهاتُ الجرحى تعم المكان، وعسكر جند باري عند الأشجار الكثيفة. شق سَودان غمام الدخان المتصاعد، تتبعه فرقة من فرسان حملة الرايات، حتى توقف أمام أبي المغوار قائلًا:

- يبدو أن العجوز استطاع الصمود رغم الخيانة.

ابتسم أبو المغوار في تهالكٍ:

- الحمد لله أن بقي لي من العمر ما يكفي لرؤية الخونة يحترقون. كيف علمت بالأمر؟

خلع سَودان خوذته عن رأسه:

- لقد هُوجمت قرى إيفيلنو منذ يومين.. تتبعنا أثر المهاجمين، فوضح لنا أنهم يحثون الخطى ناحية الغرب..

أومأ أبو المغوار برأسه، بينما جذب سَودان لجام فرسه متابعًا حديثه:

- اجمع قواتك قرب النهر.. في الصباح سيأتي بقية المدد من كالابيرا وكمبانيا.

أكمل وقد تعمد أن يعلو صوته واثقا، ليسمعه الجند حوله:
- وأرسل رسالةً إلى ساليرنو.. إما الاستسلام وتسليم السلاح، أو نفتح تلك البوابات عنوةً.

****

انتشرت الأخبارُ عن هزيمةِ قوات ساليرنو، وعن غضب السراسنة من نقض مملكة نابولي العهد. تردد اسمُ أمير باري، سَودانِ الماوري في قرية سان فيلي، البعضُ يقول إن البابا أدريان سيُرسل جيشًا جرارًا ليهلكه، والبعضُ يتصوره جبارًا كعفريتٍ لا يرتوي إلا بالدماء ويستطيع فعل أي شيء. بعثر القلقُ روحَ لورينزو، ولم تفلح الخمر في التخفيف عنه. ما زال ابنه هناك، لا يعلم ميتًا أم نجا. حملان الربِ.. اسمٌ اختاره إليساندرو بنفسه ليكون شعار فرقة الدوق ماركيزيو. ارتجفت يدُ العجوز وهو يرتشفُ من كأس النبيذ وقد تساقط على لحيته البيضاء. تمتم وهو يرمقُ سيفه المُعلق على الحائط:

- اللعنة على الحرب إن سلبت وريث البيت.

جاءه صوتُ زوجته إيلينا مختلطًا بالنحيب:

- أنت من اخترت الحرب يا لورينزو.. أنت من ألقيت إليساندرو في أتون الوثنيين..

رمقها بنظرةٍ غاضبةٍ، لكنها لم تتوقف... أخذت تنوحُ:

- لن أسامحك إن أصابه مكروهٌ.. لماذا يدفع ابني ثمن جشعك؟.. إنهم يمنحونك تلك القطع الذهبية الملعونة لتكون بيدقًا في أيديهم. أنت فلاح يا لورينزو، ليس لك من أمور الحرب شيء.

كانت مُحقةً فيما تقول. نابولي قد غدرت بحلفائها، وسيدفع الجميع الثمن. حتى في قريته الهادئة، لم يعد يستطيع الخروج من منزله، فمنازل القرية تنعى أولادها، والأنباء قد أتت أن مزيدًا من جيوش السراسنة ستُهاجم من الجنوب.

ماريا المارة بين الأكواخ، لم يشفع لها حزنها وبراءتها من كل ما يحدث، فترمقها العيون كخائنةٍ أهداها السراسنة ثمن خيانتها. طرقت باب عمها كاراس، فاستقبلها بابتسامةٍ شاحبةٍ لم تعهدها، ثم جلس على مقعدٍ بقرب النافذة. اقتربت منه ووضعت يدها على كتفه:

- هل أستطيع فعل شيء لك؟

ربت على يديْها مبتسمًا:

- لقد زال المرض بلمسة يدك..

ابتسمت، بينما استطرد:

- ما من أخبار عن الحرب والمعارك قرب نابولي؟

جلست على المقعد المقابل له، وقالت في حيرةٍ:

- سَودان هزم قوات دوقية نابولي في سالرينو، ويُحاصر المدينة الآن.

نظر في عينيها الخضراويْن الحائرتين. أشفق على روحها من كل هذا الصراع. كان أولى بها في هذه السن أن تُحب وتسعد وتُنجب الأطفال. حدثها بصوتٍ واهنٍ:

- الأحمق يُسمي جنوده حملان الرب، ولا يفهم أن نقض العهود إثمٌ عظيمٌ لا يقبله الرب. إن سقطت سالرينو، ستسقط بعدها نابولي، ولا يتبقى أمام المسلمين سوى بنفينتو، ومن بعدها روما.

حدقت بوجهه وارتعش صوتها يسأله:

- هل سنتركهم هكذا؟ أوليسوا غزاةً لأراضينا؟

نهض متكئًا على المنضدة:

- أراكِ تتحدثين بلسان أبيك، لا بما تريدين قوله يا ماريا.. دعيني أريح ضميرك وأعود بالحقيقة قليلًا إلى الوراء فأسمع صراخ الأمهات ونحيب الأطفال في روما وأنحاء إيطاليا.. أشاهد القصور المحترقة والجثث التي تكتظ بها الشوارع، بينما عربات محملة بالذهب والغنائم حملها الجيرمانيون معهم بعد دمار روما. منذ ذلك الحين لم نعد نحكم البلاد، بل تناول حكمها القوط واللمبارديون والبيزنطيون وآخرهم الكارولنجيون، وصرنا عبيدًا كما كانت تفعل روما قديمًا بالشعوب. لقد حكمت الإمبراطورية الرومانية العالم بالحديد والنار، واستعبدت بلدانًا كثيرةً وجعلتهم أقل شأنًا من مواطني روما. حضارة بُنيت على الحربِ ثم تبخرت.. ودار الزمان دورته، وجاء الدور على من يتحكمون في بلادنا، فإن كان المسلمون غزاةً، فهم على الأقل يحملون بذور حضارةٍ جديدةٍ، ولا يدخلون أرضًا يحكمها أهلها، ولا يفرضون معتقداتهم على الناس بالقوة، بل يضعون أمامهم خيار الجزية لتشارك ما يسمونه الزكاة في إعمار الأرض وإعداد الجيوش الحامية. يا ماريا، الحرب لن تتوقف أبدًا، ما دام على هذه الأرض بشرٌ، والسلام مجرد أسطورة كتبها فلاسفة قضوا نحبهم بأبشع الطرق.

تنهدت ماريا، وقالت بصوتٍ مختنقٍ وهي تعبثُ في منديلها، وتُرخي جفنيْها، تتقي أن ينظر عمها في عينيْها:

- أريد أن أعترف لك بشيء.

ضحك وهو يشير لها قائلًا:

- هاتي ما عندك، وإن كنت أظن ألا جديد لديك.

توردت وجنتاها وهي تستجمع الكلمات:

- أظن أنني.. إنه.. أنا أحبه يا عمي!

ضجَّ مُقهقهًا، بينما عقدت حاجبيْها وضُمت شفتيْها، وهمَّت بالقيام من مقعدها..

- لن أقول لك شيئًا بعد الآن.

أمسك برسغها قائلًا بتلطفٍ:

- لا تغضبي يا ماريا.. لا جديد فيما تقولين يا ابنتي.. يوم جاءت رسائله وهداياه، تأكدت أنه أيضًا لم ينس فتاة سان فيلي. ولكن الأمر أقرب للمستحيل يا ابنتي.. أنتِ تدركين هذا.

خرجت من منزل عمها متجهةً إلى جدول الماء. داعبت بأناملها صفحة الماء الجارية، وسلمت أذنيها لخرير الماء، يبعث في نفسها صفاءً تحتاجه. هل أخطأت حين عشقت شخصًا ليس على دينها، بعيدًا عنها بمئات الأميال؟ ماذا لو كان هو من يقتل أخاها؟ ليته ما كان أميرًا. قال كاراس إن الحب الأول قد لا يكون الأخير، فلعلها تنساه وتُحب من يناسبها؛ لكن الحب، ذلك الشيء يجعل النفس صعبة التوجيه.

****

أسبوعان من الحصار كانا كافييْن لجعل شوارع المدينة كئيبةً والوجوه تفيضُ بالخوف. رحل النبلاء والأغنياء على متن السفن إلى نابولي، ولم يبق سوى المقهورين على البقاء. حتى حاكم المدينة، النبيل كارلو رحل بعد أن كال اللوم على ماركيزيو. الحصار اشتد حول المدينة بعد قدوم قواتٍ دعم من الجنوب، منجنيقات السراسنة لا تتوقف عن دك الأبراج والبوابات، التي لن تصمد طويلًا، ورايات حملان الرب لا تزال تخفق فوق الأسوار رغم هرب أصحابها. حسب الأوامر، كان عليهم المقاومة والصمود، وقد استبسلوا بالفعل، ولكن النهاية المحتومة كانت تلوحُ في الأفق. عيون اللوم كانت تُحاصر الدوق، والفتى إليساندرو كان خائفًا يرتعد ويبحثُ عن سبيلٍ للهرب، ولكن سفن نابولي رحلت ولم يبق سوى بضعة قوارب صيد صغيرة.

داخل خيمة القيادة، كان سَودان يتناقش مع قادته حول الحصار، جميعهم أجمعوا أن الحصار لم يكتمل بعد، فما زال البحرُ مصدر قلق لهم، نعم رحلت سفن نابولي ولكنها قد تعود ومعها آلاف الجند للدفاع عن المدينة، لم يُعلق سَودان على آرائهم التي كان من بينها أن يأتي الأسطول من باري، ولكن هذه الفكرة مستبعدة فعلى السفن القادمة من باري قطع مسافةٍ كبيرةٍ وقد تقضي أسابيع في الإبحار، هذا إن لم تعترضها سفن حربية أخرى أو عاصفة خريفية تعصف بالصواري، كان اقتراح أبي المغوار أن

يبقى الحصار إلى أن تستسلم المدينة، بينما كان قسورة يرى في الهجوم الكاسح أمرًا مثاليًّا لإنهاء المعركة، نهض سَودان عن كرسيه متأملًا الوجوه قبل أن يوجه حديثه إلى أبي المغوار:

- أرفض استسلامهم إلا إذا سلمونا من ينعتون أنفسهم حملان الرب. كما أن المعركة لن تنتهي هنا، بل هناك في نابولي حيث الخائن سيرجيوس.

حرَّك القاضي العجوز رأسه معترضًا:

- هذا الحصار يجعل ظهورنا مكشوفة لهم.. لقد تركنا جميعنا باري دون حراسةٍ كافيةٍ. أخاف أن يُباغتنا البنادقة والدوق إديلكي صاحب بنفينتو.. أو يأتيهم مددٌ من نابولي.

تدخل قسورة:

- إن عُدنا إلى باري، فهي هزيمة لنا.. وإن لم نقتحم الأسوار ونعلق عليها رؤوس الخونة سنكون أضحوكةً ومطيةً للجميع. يجب أن يدفعوا ثمن قتلهم الأبرياء في إيفيلنو..

كان سَودان يعلم أن عليه إنهاء الحرب قبل منتصف الخريف. انتهى الاجتماعُ، فخرج يتبعه أبو المغوار ومحمد الأغلبي، بينما ذهب قسورة إلى خيمته متذمرًا. تجولوا بين الخيام، وتابعوا عمل المنجنيقات. وراقبوا أسوار المدينة التي يحتضنها جبلٌ اتشح بشحوب الخريف. حين مرَّ على خيام المصابين، بعثت الجراح في نفسه ذكرى رعايتها له، وحدَّث نفسه أنه سيذهب إليها بعد أن تنتهي الحرب، وسيطلبها للزواج. وكأن أبا المغوار يقرأ ما جاش بصدره، فقد انتحى به جانبًا، وعاد يُحدثه عن الزواج من الأميرة رَملة، فإمارة إقريطش ستكون خير عون له في السنوات المقبلة، وخيانة نابولي خير دليلٍ على أن عدوهم لا ميثاق له ولا شرف.

****

أيامٌ مضت، وقلوب أهل المدينة تهوي كلما سقط جزءٌ من السور. السراسنة سيدخلون للمدينة يسلبون ويقتلون. أعمدة الدخان ترتفعُ داخل المدينة، والضعفاء يدفعون ثمن الحرب. نفدت صهاريج المياه، وخوت البيوتُ من صنوف الطعام. ازداد الوضع سوءًا، فخرج الناس يبحثون ليلًا عن طعام أو سبيلٍ للخروج من المدينة. شاعت السرقة، وطبخت النساء الأوراق الجافة، وما عاد الأطفال يتوقفون عن البكاء. في حصن دي أرشيس العتيق، كانت عاصفة من الآراء تجتاحُ اجتماع من تبقى من قادة المدينة، الكل يلوم على ماركيزيو الذي وضعهم في هذا المأزق. رأى البغض في أعينهم، وسمعهم ينعتونه بالخاسر. لقب طارده منذ سنواتٍ بعد هزيمته المدوية في البحر أمام سواحل باري، حين احترقت سفن أسطوله. كان في مأزقٍ بسبب آرائهم، ولكنه لم يتوقع رأي الفتى إليساندرو، الذي يُصر على التحصن بالمدينة. جاوبه بصرامةٍ لم تخل من الحكمة:

- كم سيفًا سينكسر في مواجهة السراسنة؟.. كم عدد من سيهلك داخل المدينة التي قد تُصبح أطلالًا في غضون ساعاتٍ؟ ما هكذا تكون الحرب يا فتى.. الحرب تمرس وسياسة قبل كل شيء.. لقد كانت حساباتنا خاطئةً، ولولا هجومك على قرى إيفيلنو لما كان أمير باري هنا.

صاح إليساندرو غاضبًا:

- لن أصبح كبش الفداء لهزيمتك أيها الدوق.. أنت من تتحمل المسؤولية كاملة.. ليتنا ما استمعنا لحديثك وترهاتك عن معركة احتفلنا بانتصارها قبل وقوعها..

غمغم الدوق وهو يترك الاجتماع:

- نعم، أنا من أتحمل أخطاء الأغبياء من أمثالك.. لن يُشاركني أحدٌ في قراري بعد الآن..

خرج من القاعة دون أن يُبالي بهمهمات الرجال. كان يعلم أن من تبقى من أهل المدينة سيُقضى عليهم إن اقتحم السراسنة الأسوار. الاستسلام مهينٌ، وسيصمه بخزي أبدي، لكن هذه الوجوه الشاحبة، والصغار الذين أعياهم الجوع والهلع، ونحيب الأمهات، يمنحون نفسه المبرر. ضاقت عليه أسوارُ سالرينو وشوارعها، يبحث عن مفرٍّ له وللآخرين لكن دون جدوى. قالت له عرافةٌ من بروفانس إن الملوك يتساقطون في الخريف، وإن الجذر إذا تحمل برودة الشتاء يحيا من جديدٍ. عليه الخروج بنفسه وطلب الاستسلام، لعل القادم يحملُ في طياته نصرًا. هذا أفضل من الهروب إلى نابولي، التي حتمًا ستذهب إليها قواتُ العرب بعد الانتهاء من ساليرنو.

ارتدى كامل درعه، التي منحه إياها البابا، وساعده خادمه في ربط حرملة حمراء مذهبة تدلت عن كتفه. نزل الدرج وقلبه يُخفق بقوةٍ. كان يعلم أن للهزيمة وجهًا واحدًا، ولكن قُضي الأمر. خرج على قومه، فتعلقت العيون به وهو يسيرُ ببطء إلى حصانه الحربي. التفت إلى الجموع قبل أن يرتقي صهوتهِ. رغم أن الوجوه بائسة، إلا أن العيون كانت تحمل رجاءً. أشار لحراس البوابة، ففتحوها له، صارخةً بصريرٍ مزَّق القلوب، فخرج يُجاوره حامل الراية البيضاء.

بين الصفوف، كان إليساندرو يعض شفتيه في غيظٍ. لم يتوقع أن يحدث هذا يوم جهزه أبوه للحرب. بعد كل ما فعله في إيفيلنو، عليهم الاستسلام! اللعنة على السراسنة، من أين لهم بكل هذا العدد، ولماذا لا تثور المدن الواقعة تحت سيطرتهم؟ هل كُتِب عليه الخزي؟ كيف يواجه نظراتِ أبيه، وأخته، والعاهرة فيولا؟!.. هيهات، لن يعود قبل أن ينهزم السراسنة، فقط عليه الانتظار ليسمع شروط الاستسلام تُملى عليه، ووقتها سيُمارس حقه في الرفض.

****

ابتسم سَودان وهو يرى الفارسيْن القادميْن تُصاحبهما الراية البيضاء. انتشرت الهمهماتُ بين جنود باري، وانشقت الصفوف لتسمح للفارسيْن بالمرور باتجاه خيمة القيادة. وقبل أن يصلا إليها، اعترضت طريقهما فرقة خيالة، يذكرها ماركيزيو جيدًا؛ الخيول السوداء وأميرهم المكتحل. لم يتعرفه قسورة، فما زال الدوق يضع خوذته التى تُشبه رأس الأسد. أشار إليه قسورة قائلًا:

- ترجَّلوا وسلمونا أسلحتكم!

نزل الفارسان عن جواديْهما، بعدما أمسك الجند بلجاميْهما. كان قسورة يتفحصهما جيدًا وهما

يمنحان أسلحتهما للجندي الواقف بجوارهما. بخطواتٍ ثقيلةٍ راح الدوق يسيرُ نحو الخيمة تتبعه الأعين بتربص. كانت أكبر مما يراها من أعلى الأسوار، حمراء زينت جدرانها بكلماتٍ عربيةٍ متشابكةٍ، يقف على بابها جنديان اكتسى جسداهما بالصُّلب المذهب، عيونهما المتحفزة فقط ما تظهر من خوذتيهما الفضيتين. دلف ومعه صاحبه إلى الخيمة، التي فُرشت بسجادٍ منقوشٍ بسباعٍ وغزلان، وعلى جوانبها عُلقت ستائر كبيرة بيضاء وذهبية، وتتوسط أحد جدرانها رايةً سوداءَ كبيرةً طرزت فيها مئات الكلمات العربية بالخط الكوفي المتداخل. كان الأميرُ يجلسُ على كرسيه، مرتديًا كامل زيه وعتاده الحربي، عيناه تحملان دهاء، ورأسه رفع قليلًا لأعلى، في حركةٍ توضح لمن النصر. تقدم ماركيزيو لخطوتين وهو يخلع خوذته. انحنى، وكذلك فعل صاحبه الذي ما زال يُمسك بالراية البيضاء. كان يحترقُ من داخله، لم يتوقع يومًا أن يكون في هذا الموضع، ذليلًا منكسرًا مستسلمًا. حاول ألا يظهر ضعيفًا، ولكن بدا ذلك في صوته رغمًا عنه:

- أنا الدوق ماركيزيو دي لابورتا، قائد حامية ساليرنو, ولقد جئتك لنبحث شروط الاستسلام وتسليم المدينة.

حاول جاهدًا ألَّا يرفع عينيْه في وجه سودَان، الذي ما زال يرمقه وهو يُكمل حديثه:

- إن ما حدث خطأ، ويجب ألَّا يدفع البسطاءُ ثمن الحرب.. سنوافق على شروطكم مقابل الأمان لأهل المدينة.

برهة مرَّت، ثم جاء الرد على لسان أبي المغوار، الذي تقدم خطوةً للأمام:

- نحن لا نسفك دماء الأبرياء.. وإن كنت جئت للاستسلام، فحتمًا تعلم أن الأمان من نصيب أهل المدينة فقط، ولن يسري الأمر على المحاربين الذين تلوثت أيديهم بدماء الآمنين في إيفيلنو. هذا غير أن عقاب الخيانة سنتركه لك، فما جزاء الخيانة في رأيك؟

رفع ماركيزيو رأسه قليلًا وهو ينظر لسَودان الذي ما زال جالسًا:

- إننا نادمون على هذا الفعل الذي تسببت به سياسات القادة و..

قاطعه صوتُ أبي المغوار:

- نادمون؟ أزهقت الأرواح وحرقت القرى وتقول نادمون؟ لقد كان بيننا وبينكم تحالفٌ، ولطالما دافعنا عن نابولي وساليرنو، وما الجزية التي تدفعونها سوى مقابلٍ رمزي لما تنعمون به من أمنٍ وخيرٍ.. لقد قطعتم كل سبل الثقة، ثم تطلبون العفو بعد التمثيلِ بجثث البسطاء وتعليق رؤوسهم على الرماح وجذوع الأشجار!.. إن كنتم تريدون الاستسلام حقًا، فسلموا لنا من يدعون أنفسهم حملان الرب، ولتضرب أعناقهم في ساحة المدينة أمام أهلِها، الذين سيحظون بالأمان في المقابل ولن يمسهم أحدٌ بسوء، وتكون مدينة ساليرنو بعدها خاضعة لإمارة باري.

رمقه ماركيزيو بنظرةٍ خاويةٍ، ثم وجَّه كلامه إلى سَودان:

- سيدي، إن من بقي في المدينة هم أهلها.. لقد رحل جنودُ نابولي ومعهم جيش حملان الرب. لقد جئتُ للتحدث عن سالرينو وأهلها، وإن كنتم تُريدون القصاص فعليكم الذهاب لنابولي.

كان عليه أن ينقذ ما يمكن إنقاذه. الكذب حيلةٌ حربيةٌ مشروعةٌ إن تطلب الأمر. أكمل حديثه وقد تعلق بصرُه بالأمير الصارم، الذي لم يرفع عينيْه عنه:

- إن المدينة جائعة. نفدت المؤن وصار النساء والأطفال دون طعامٍ.. كل ما أطلبه هو الرحمة بالضعفاء والمساكين.

نهض سَودان عن كرسيه، وتقدم نحوه قائلًا:

- وما الذي يدفعنا إلى ذلك ونحن على وشك الدخول للمدينة والحصول عليها؟

خفض ماركيزيو رأسه قليلًا:

- سندفع لكم الجزية ضعفين.. وأن تكون كنوز النبلاء وممتلكاتهم غنيمةً لكم..

قاطعه سَودان بصرامةٍ:

- لا نتحدث هنا عن الغنائم، فهذا أمرٌ قد حُسم. إن كان الجند قد هربوا بحرًا كما تقول ... فاعلم أنك ورجالك ضيوفٌ لدينا حتى تنتهي الحرب... هذا بعد أن يُسلم كل سيف ورمح ودرع في المدينة.

ضربت كلماتُ سَودان عقل الدوق. ظهر الوجومُ على وجهه وهو ينظر إلى سَودان الذي تابع حديثه:

- لقد قلتُ ضيفًا ولم أقل أسيرًا..

انتهى الاجتماعُ سريعًا، وخرج ماركيزيو يحملُ الهزيمة والانكسار، وفي طريق خروجه قابله قسورة، الذي تعرَّف عليه باسمًا:

- لم أتوقع أن تكون أنت الرسول أيها الدوق.

حرَّك ماركيزيو رأسه دون أن ينطق. امتطى جواده، وانطلق هو وصاحبه تحت نظرات قسورة، الذي دلف إلى الخيمة ليعرف ما وصل إليه القرار.

****

النصرُ لمن أعد العدة وتجهز بإيمانه لما يُحارب من أجله. والخاسر قد يُصبح فائزًا إن بقي ليومٍ آخر على هذه الأرض. لا أحد ينتصر دومًا.

وافق ماركيزيو على الاستسلام بشروط أمير باري، وفتحت المدينة أبوابها في الصباح، بعد أن هرب حملان الرب مستترين بالليل والبحر، وفي مقدمتهم إليساندرو إلى نابولي، فيما خلع جند ساليرنو دروعهم واندسوا بين العامة. الدوق من أعطى الأوامر بالرحيل وبأن يختفي كل أثر لحملان الرب، فالحربُ لم تنتهِ بعد. ارتضى الأسْر وفق شروط الاستسلام، حتى يضمن لأهل المدينة الأمن، كقائدٍ يعرف مسئولياته. الآن، سكنت ساليرنو، وخلت الشوارع من الناس، واجتمع البعضُ في الكنيسة الكبيرة يتلون الصلوات، بينما قبع الكثيرون في منازلهم ينتحبون. ستتغير حياتهم للأبد تحت حكم الغزاة. أصواتُ الجيش تدوي في آذانهم، والجند الذين يحملون الرايات والبيارق الخفاقة يدخلون البوابة بدروعهم البراقة، يتقدمهم أمراء باري، ومن خلفهم فرسانٌ مُدرعون على خيولٍ سوداء. المشهد مهيب.. لقد سقطت مدينتهم بقبضة السراسنة، وأحرقت رايات حملان الرب في الساحة، وحمل الدخان آخر ما تبقى من حلم ماركيزيو.

اكفهرتِ السماءُ في عينيه بلونِ المغيب حزنًا على ساليرنو. ألقى بكأس الشراب بعيدًا وهو يكتم صرخةً أراد إطلاقها. كيف وهو الدوق النبيل يصير تحت رحمة سيوف الغزاة، قيد الإقامة الجبرية. صوت الأذان غريبٌ يصدح في ديارهم ويُثير القلق في قلوبهم. دقائق، ثم أقام السراسنة صلاتهم في الساحة، تحت مرأى ومسمع أهل المدينة. رغم أنهم لم يدخلوا إلى الكنيسة ولم يقتحموا دارًا، إلا أن مشهد جمع الغنائم من بيوت النبلاء على العربات وخروجها إلى حيث ما زال معسكر المسلمين قائمًا جعل النساء تنوحُ والرجال يبكون الكرامة الجريحة.

ثلاثة أيام قضاها سَودان في ساليرنو يُدبر أمور الجيش ويُعين من رِفاقه مَن يُدير شئون المدينة، وفي اليوم الرابع أمر رجاله بالتوجه إلى نابولي، فكما قال لهم سابقًا إن النصر ينتظرهم على أسوارها. كان عليه إنهاء الحرب قبل قدوم الشتاء، وإلا فسيصعب الأمر على الجميع. توسل في صلاته أن يمنحه الله نصرًا مبينًا.. نصرًا سيكون مهر الفتاة التي داوته وما زالت تسكن وجدانه.

****

بعد أيامٍ من الإبحار، تجلى في الأفق البعيد جبل فيزوف، بلونه الرمادي يمكث في انتظارهم. لم يحملواً دروعهم معهم، تركوا كل شيء خلفهم، وأخذوا فقط راية تحمل شعار حملان الرب. التجديف المستمر أرهقهم، وقد ربطوا قوارب الصيد الأحد عشر الصغيرة ببعض. لفحت الشمس وجوههم وأحرقتها المياه المالحة، كان البحرُ رحيمًا بهم بلا عواصف. بعيونٍ واهنةٍ نظر إليساندرو إلى نابولي الممتدة على الخليج الفسيح، وها هم أولاء يقتربون من الجزر الصخرية الصغيرة في مياهها. لا يعلم ما ينتظرهم هناك، ولكن أي شيء سيكون أفضل من بقائهم في سالرينو.

استقبلهم العامة والجند بوجوهٍ حزينةٍ- فقد سرت بحديث ساليرنو الركبان- وقدَّموا لهم الأطعمة والمياه، فأكلوا بنهم وعيونهم تدورُ فيمن حولهم، ثم مُنحوا مكانًا للمبيت، بجوار كاتدرائية المدينة. لم يكن إليساندرو يُصدِّق أن النجاة قد كُتبت لهم. حين لامست قدماه أرض المرفأ تيقن حينها أنها حقيقة. قبل أشهر، لم يكن سوى فتى يفعلُ ما يريد ويلهو حيث يشاء، أما الآن فقد أصبح جنديًّا تحت إمرة جيشٍ مشتبكٍ في حربٍ لن تنتهي بسهولة. قضى ليلته يُفكر فيما حدث منذ البداية، وحتى اللحظة التي

يتأمل فيها السقف المُعتم. إنه شخصٌ آخر الآن، لقد نضج مع التجربة. ابتسم حين تذكر الدوق ماركيزيو.. كم كان مُنبهرًا به. ولكن الرفقة تطلعك على الخبايا. مَن كان يُصدق أن الرجل القاسي يستسلم للغزاة ويُسلمهم مدينة حصينة كسالرينو؟ لم يخلق الرب رجلين يُفكران بنفس الطريقة، تلك كلمات الأب ليو، الذي قال عنه يومًا إنه فاشلٌ وغير قادرٍ على تحمل المسؤولية. ليته يرى وجهه الآن، ليُخبره أنه قاد أحد عشر قاربًا، عبر بحرٍ لجيٍّ إلى نابولي. تذكر بيته في سان فيلي، ولياليه مع فيولا.. يفتقد أباه وماريا. يفتقد لحم الخنزير المشوي على طريقة أمه إيلينا. أغمض عينيْه وهو يتذكر النيران تلتهم قرى إيفلينو، التي أقسم أنها ستشتعل يومًا في باري.

مدينةٌ على شفا الحرب هي مدينةٌ خائفةٌ. نابولي العريقة صارت مزدحمةً بالنازحين القادمين من الشرق والجنوب، وأنباء تقدم جيش السراسنة تُثير الفزع، الذي وجد مستقرًّا له في وجوه أهل المدينة. القرى هجرها أهلها قبل أن تُهاجمها الجيوش، والحكايات تنتشرُ عن رؤوس القتلى المعلقة على أبواب ساليرنو رغم استسلامها. فُتح بيت السلاح للعامة، فصار الأطفال لم يبلغوا الحلم ويحملون الفؤوس والسيوف. جدب الخريف بسط رداءه على الحقول الممتدة حتى جبل فيزوف، والريح تُحرك راية نابولي السماوية اللون في الأفق البعيد، مع راكبيْن يُسرعان نحو المدينة. عبرا البوابات الرمادية العتيقة دون أن يتوقفا، تتبعهما الأعين، وقد أفسح لهما المارة الطريق. استقبل سيرجيوس الكشافيْن بوجهٍ قلق. خلعا عنهما خوذتيهما وهما يتقدمان نحو مجلسه. انحنيا له قبل أن يشرع أحدهما في الحديث بوجهٍ مقتضبٍ:

- سيدي، إن جيش العرب على بعد سبعة فراسخ باتجاه الشرق.

تبادل سيرجيوس النظرات مع رجاله بعيونٍ قلقةٍ، قبل أن يسأل الرجل:

- كم عددهم؟

بتوجسٍ خرجت كلماتُ الرجل:

- ما يقرب من خمسة عشر ألفًا، ثلثهم على الأقل فرسان، ومعهم الكثير من العربات تجرها الثيران... يبدو أن معهم منجنيقات أيضًا.

أشار إليهما بالخروج من القاعة، بينما كان يُحدِّث كارلو قائلًا:

- أعط أوامرك للرجال بالانتشار فوق الأسوار، ولتغلق البوابات، وتدعم البوابة الداخلية بالمتاريس..

- ولكن سيدي ألا ننتظر حتى يتم إخلاء كل القرى الجنوبية؟

نهض سيرجيوس وقد تجهَّم وجهه:

- لا أُبالي إن أُحرقت جميعها، فهي في رقبة البابا الذي أقحمنا في هذه الحرب. ما كان عليَّ أن أنصت

إلى حماقته المباركة. سأدافع عن نابولي، كما فعل أسلافي منذ زمنٍ بعيدٍ. لقد نجت المدينة عبر عصور الاضطراب، لأنها بقيت وحدها. خذلنا الجميع مرارًا، وتحملنا ما هو أكثر من ذلك. على الجميع أن يُضحوا من أجل نابولي..

- سيدي ما زال لدينا طريقٌ للخلاص.. لدينا البحر.

التفت إليه بعينيْن تتقدان غضبًا:

- أتريد أن نهرب كما فعلت أنت في ساليرنو؟ اسمع يا هذا، لن أترك هذه المدينة تسقط في يد سَودان مهما تكلف الأمر..

****

عانقت سحبُ السماء قمة بركان فيزوف، فزادته هيبةً. ومن بين أشجار الغابة الشرقية خرج خيالة باري آلافًا، متجهين نحو السهول المنبسطة قرب نابولي. حمحماتُ الخيل واصطكاك الدروع ووقع الأقدام كاد يُسمع في المدينة القريبة. أسبوعٌ من المسير مروا فيه بقرى خاويةٍ على عروشها، وأخرى اشتعلت مقاومتها، فكان مآلها الدمار. باشر محمد الأغلبي نصب الخيام وتجهيز الحصار. عرباتُ المؤن توارت بين الأشجار الكثيفة، يحرسها بعضُ رجال قسورة، الذي انتهى هو الآخر من إعطاء الأوامر، وذهب لسَوادن الذي كان قد عزم على التوجه لبوابة المدينة المغلقة. الفرسُ الأبيض توسطت ثلاثة صفوف سوداء مهيبة، حتى توقف الركب عند البوابة الكبيرة ذات الأعمدة الرومانية القديمة. لحظاتٌ من السكون عمَّت المكان، عيون جنود نابولي تتربص بهم، وصوت الهواء يدور بالوادي. لكز سَودان فرسه، وتقدم بها قليلًا، وصاح بصوتٍ هادرٍ يدوي:

- أبلِغ سادتك أننا قومٌ إذا ما غُدر بنا لا ننسى، وأننا ما أتينا لهنا لنقتل ونسبي، بل جئنا للقصاص. أخرجوا لنا سيرجيوس وقادته، واتَّقوا الحرب. فإن لم تفعلوا، فالعين بالعين، وكما فعلتم بقرى ومدن إيفيلنو سيكون جزاؤكم.. والسلام على من اتبع الهدى.

في الليلة الثانية من الحصار، وصلت قواتٌ إضافيةٌ من كالابيرا. العيون المتقدة بلهب المشاعل تُحاصر نابولي، وقد نُصبت المنجنيقات. تجول فرق الحراسة الليلية هنا وهناك، وعقدت جلسات السمر المتفرقة، يلقي البعض شعرًا، ويقص آخر حكاية. ليلة ما قبل المعركة صاحبها الأرق، فربما لن تكون هناك ليالٍ أخرى قادمة. قرب خيمة القيادة، كان قسورة يُرابط مع زمرةٍ من رجاله، يتحاكون عما حدث في ساليرنو، وكيف أن الأمير سَودان قلب موازين المعركة هناك، ويتمنون فتحًا سهلًا لنابولي، لا تُراق فيه الدماء، وأن يعودوا إلى باري قبل مجيء الشتاء. أخذهم الوقت والتمني، حتى نهض قسورة قائلًا:

- سأذهب للنوم، فغدًا يومٌ حافلٌ.

- هل سنهجم غدًا؟

التقط قسورة حزام سيفه..

- نعم. انقضت المهلة، وعلينا تسلق هذه الجدران غدًا.

تركهم في حيرةٍ مع طرفٍ لحديثٍ جديدٍ، وسار بين الخيام يُفكر.. طريقٌ شاقٌّ قطعوه إلى نابولي قادمين من ساليرنو، التي تركوها تحت إمرة أبي المغوار. دلف إلى خيمته المتواضعة، ليتفاجأ بوجود محمد الأغلبي جالسًا قرب الفراش. ابتسم قسورة وهو يخلع درعه:

- أي رياح ألقتك عليَّ يا أغلبي؟!

ضحك محمد وهو يُداعب لحيته التي يشوب أجزاء منها بياض:

- رياح سان فيلي..

عقد قسورة حاجبيْه، وجلس على طرف الفراش يخلع حذاءه الجلدي الطويل قائلًا:

- لم أعهدك كذلك يا أغلبي. أصرت تحب النميمة والثرثرة كالنسوة بأفنية البيوت؟

كانت نبرةُ قسورة تحمل تهكمًا واضحًا لمحمد، الذي اعتدل في جلسته:

- لقد قُتل كل من أعرفهم في إيفيلنو، فأين كان سَودان؟! يقيمُ مأدبةً ضخمةً، ويجلس بين حاشيةٍ متملقةٍ. لماذا لم يخرج مع الجيش إلى تخوم بنفينتو، ليقتص لمقتل شعيب ومن كان معه في رحلة صيده؟ إن الجند يتحدثون بأن الوهن أصاب قلب الأمير.

رفع قسورة رأسه وقد تجلى الغضبُ على وجهه:

- اسمع يا أغلبي.. لولا فضلُ الله وقدوم الأمير سَودان، لكانت رؤوسنا جميعًا تزين أسوار ساليرنو. كلنا نعلم أن الأمير سَودان ما زال يُعاني من إصابته الأخيرة، ورغم ذلك ها أنت تراه يقود الحرب. لا أظن أن قصة سان فيلي ستنفعك بشيء، فمن الأفضل أن تشغل عقلك بمعركة الغد وحصار لا نعلم إلى متى سيدوم.

نهض محمد وقد نال منه الغضبُ، فقد كانت جُملة قسورة الأخيرة تعني أن المقابلة قد انتهت. توجه لباب الخيمة قائلًا:

- سأشغل بالي بالمعركة.. ولكن لا يليق بالأمير الأسود أن يكون مرسالًا بين عاشقيْن.

خرج من الخيمة وقد ترك وراءه بركانًا ثائرًا. سحب قسورة سيفه من غمده، أثارت كلماتُ محمد الأغلبي غضبه، ولكنه تعلم أن من يحمل سيفًا عليه التريث قبل استعماله. سيكون حسابه مع محمد الأغلبي عسيرًا، ولكن ليس الآن. ألقى بجسده إلى الفراش، وأخذ يتأمل نصل سيفه البرَّاق. ماذا لو

مات غدًا؟ بماذا سينفعه ما اكتنزه من ثروةٍ؟ خاض الكثير من المعارك وحصد الغنائم.. من كان يظن أن شابًّا صغيرًا قدم إلى باري يُصبح أمير حربها؟ ولد في برقة، لأبٍ يُؤذن بجامع المدينة ويلتقي بفقهاء المشرق والمغرب العابرين على المدينة الصغيرة. لقد سمع حكاياتٍ عن خراسان والأندلس، وكان دومًا يفخر بكونه جزءًا من هذه الأمة التي تملك مشارق الأرض ومغاربها. انتقل إلى طرابلس، وأبحر منها إلى باري. عمل نجارًا في دار صناعة السفن، إلا أن حبه للخيل نقله من الميناء إلى القصبة، وضمَّه أبو المغوار إلى الشباب الذين تولى رعايتهم وتدريبهم، شعيب، سَودان وآخرين رحلوا وغمر ضباب النسيان ذكراهم. لم يكن أقل شأنًا من ابن الحارس الشخصي للأمير خلفون، ولم يُفرق أحدٌ في معاملته كما يُعامل أمير إقريطش الصغير. رحل الأخير، وبقى سَودان، الذي يحصل دومًا على كل شيء: سليمة بنت أبي المغوار، وكرسي الحكم في باري، والتغاضي عن أي خطأ له مهما بلغت جسامته. لم يحسده يومًا، فهو صديقه الذي لم يبق غيره، وبينما كان سَودان يرتقي الحكم في إمارة باري، كان هو يقودُ الجيوش نحو بينفينتو. لم يفكر بتلك الطريقة من قبل، ولكن شيئًا ما قذفها في رأسه، دومًا يأخذ سَودان ما كان يجب أن يكون له.

أطفأ القنديل الوحيد بالخيمة، لعل الشيطان يرحل حاملًا معه العجب والغرور. تمسك بيقينه أن الله كتب كل شيء، لقد انتصر في معارك كثيرة، وحظي بمجدٍ يُرافق فرقته السوداء. أحبه الجند وانبهر به العامة، حتى الأعداء يعرفون قدر الفارس الأسود. تذكر أطفاله السبع وزوجاته الثلاث. جال بخاطره أن يأتي بهم إلى نابولي بعد الفتح، ليستقروا بها معه، ويؤسس عائلةً قويةً تحمل الراية من بعده. سكنت نفسه للفكرة.. يعشق الظلام والسكون، رغم أن حياته لا تعرف سوى صخب المعارك وصليل السيوف.

****

استيقظ أهلُ نابولي على دويٍّ زلزل أسرتهم وجدران منازلهم. قبل أن يستوعبوا ما يحدث، جاءتهم الرجفة الثانية. قذائف منجنيقات السراسنة تتلاحقُ وتدك الأسوار. الهلع عمَّ المدينة، وركض النساء والأطفال إلى الكاتدرائية والمرفأ. اصطفت الفرق العسكرية قرب البوابات، وفوق الجدار الذي يتلقى القذائف مرتعدًا، وتحرك إليساندرو مع الرجال نحو السور الشرقي. صعد الدرج محاذرًا الاهتزاز العنيف الذي يتوالى على بدن الجدار، ونظم الرماة الذين توترت قبضاتهم على الأقواس، فما زالت قوات العرب بعيدةً عن مرمى سهامهم. رأى رايات باري تخفق، والمنجنيقات تتابعُ رجم الجدار، ثم انبطح مسرعًا- كما فعل الجميع- حين رأى القذائف تطيرُ في الهواء قادمةً ناحيتهم. لن تصمد المدينة كثيرًا، فقد نقل ماركيزيو أغلب الأسلحة والعتاد منذ أشهر لساليرنو واثقًا في النصر. يتوالى الارتطامُ بالسور الذي لطالما كان درع المدينة، وجميع القذائف تضربُ منتصف السور من الخارج، لا تعبر قذيفةٌ واحدةٌ منها إلى داخل المدينة.

في الجانب الآخر، كان سَودان يُتابع المهندسين القائمين على عمل المنجنيقات, أمرهم بتركيز الضربات على الأبراض الضخمة. عندما سأله الأغلبي وهو يُتابع عمل الآلات الحربية:

- أرى الأسوار أقوى من أن تدكها قذائفنا... من الضروري أن نهجم بكل قوتنا.

ردّ سَودان بصرامةٍ وهو يتجه إلى حيث يقف قادته:

- دخولُ المدينة لا يعني أن نقتل كل مَن فيها يا أغلبي..

تبعه محمد الأغلبي وقد تجلى في وجهه استنكارُ كلمات سَودان، الذي تابع سيره حتى وصل إلى حيث يقف قسورة وبقية القادة. دار بعينيْه في وجوههم التي تفيضُ بالفضول لمعرفة القادم، فخطة الأمس قد مُحيت واستأثر هو بإدارة المعركة وفق خطةٍ جديدةٍ: اتبعوني إلى الخيمة!

نطق بها وأكمل سيره إلى خيمة القيادة، تُلاحقه أمواجٌ من الأسئلة في عقول رجاله. وعلى رأس منضدةٍ التف حولها الرجال، وقف سَودان يُحرك قطعًا خشبيةً تُمثل قواته، ويشرح خطته الجديدة تمامًا: الهجوم الكاسح قد يجعل خسائر الروم كبيرة.. ولكن ليس المهزوم وحده من يخسر، وإني لحريصٌ على حياة رجالي وآمل في عودتهم لزوجاتهم وأطفالهم بعد تلك الحرب. الأسوار المرتفعة ستكون عائقًا أمام السلالم، وسيسقط عددٌ كبيرٌ قبل أن يصلوا إلى الجدار. علينا دفع العدو للهزيمة النفسية، قبل أن يتحرك جنوده. ستتوالى قذائفُ المنجنيق على السور يوميًّا، بينما يقومُ محمد الأغلبي بالدوران بفيلقٍ من الرجال كل صباح، ليظهروا من خلف جبل فيزوف كأنهم مددٌ لا يتوقف. على الرماة تجهيز أقواسهم وضبط مواقعهم، لتصل سهامهم إلى الأسوار. أما قسورة، فسيقود رجاله وبضعة منجنيقات ناحية الجنوب، لتشتيت قوات نابولي، ولمراقبة البحر... علينا إرهاقهم حتى يتفشى فقدانُ الأمل في نفوسهم... سيطول الحصارُ ولكن سنحفظ الكثير من الأرواح.

كانت فكرته لا بأس بها، فلم يعترض القادة. سبعة أيام من التخويف والترقب مرَّت، وما زالت الضربات تتوالى على السور المتصدع، وفي الليل تضيء كراتٌ من لهب سماءً رحل قمرها. الصلوات لم تتوقف في الكاتدرائية المكتظة، وساحتها المضاءة بالشموع والمشاعل. دوي المنجنيق ليس مما يعتاد الناس ويقل جزعهم مع تكراره، خاصة وقد ارتفع مقدارُ التصويب إلى حافة السور، وصارت جثامين الجنود دائمة التواجد على مذبح الكاتدرائية. صوتُ الضربات عذابٌ تسلط على العقول، حتى إن أحد جنود إليساندرو فقد عقله وألقى بنفسه من البرج الشمالي. الشائعاتُ تسري أن البابا أدريان سيأتي على رأس جيشٍ كبيرٍ يفك الحصار ويبيد السراسنة ومعسكرهم الممتد بطول جدار المدينة، لكن المراقبين يُخبرونَ عن مددٍ يتواصل كل يوم للسراسنة، حتى لم يعد أحدٌ يتخيل أن أي جيشٍ أو صلاةٍ يُمكن أن يُجابههم. خيام إضافية تُنصب فيَّ معسكرهم، ومجموعات منهم تُهاجم القرى المُحيطة للحصول على المؤن للحصار. رأى إليساندرو أعمدة الدخان ترتفعُ في الأفق البعيد، فخانته عيناه، وانساب دمعه على خده، فمسحه بسرعةٍ قبل أن يلحظه أحدق.. لعل سان فيلِي محترقة الآن، وأباه غارقٌ في دمائه. ماريا أيضًا كان وجهها في مخيلته مخضبًا بالدماء، وأمه قطع رأسها وعُلق على سن رمح كبقية أهل القرية. حاول أن يُسيطر على عقله بالهروب بعيدًا عن السور، فالسماء تطبق عليه فيَّ أعلى قمةٍ بالمدينة. رمق برج الكاتدرائية المُحاط بالسقالات الخشبية، لم يكتمل بناؤه بَعد. الحربُ أوقفت كل شيء في المدينة.

على حافة المرفأ، وقف ينظرُ إلى المياه المترقرقة. كان يتوقع الحرب سهلةً، ولكن الرب كان له رأي آخر. تذكر كلمات الأب ليو، المقترنة باتهام الدوق له أنه هو السبب في كل ما يحدث الآن. لو لم يحرق قرى إيفلينو، لما جاء أميرُ باري على رأس جيشٍ لا نهاية له. كان عليه الالتزام بالخطة التي

وضعها الدوق مع البابا ونبلاء نابولي.

ابتلع البحرُ شمسَ المغيب، وعادت نوارسُ البحر تسكن الصواري المتأرجحة، وصوت المنجنيقات لا يتوقف، وكذلك صوت همهمات العامة قرب الكاتدرائية. مضى في دربه يتفقد الوجوه البائسة. زيه الحربي المختلف عن جند المدينة منحه أهميةً في عيون العوام التي تلمحه، فتنفرج شفاههم عن ابتساماتٍ شاحبةٍ تأمل في حملان الرب نجدة لهم. سمع همسات البعض عن بطولاتٍ زائفةٍ في سالرينو. حيكت عنهم أساطير تمنح الأمل في ظل حصارٍ خانقٍ.. وفي أحد الأزقة، اجتمع الأطفال، تتوسطهم فتاةٌ. قادته قدماه إلى حيث يجلسون، فدار حولهم، فتبين ملامح وجهها.. كانت عيناها الزرقاوان تتوهجان مع انعكاس ضوء المشاعل، صوتها عذبٌ رغم اللثغة الواضحة في بعض كلماتها، وكانوا يُتابعونها في اهتمامٍ وهي تقص عليهم:

- المؤمنون الأوائل جلهم من الفقراء والعبيد. دفعوا ثمن الإيمان بموتهم، ليرثه الأحياء. لم يهب دانيال الأسود والسباع التي أحاطت به في جُبِّ الموت، وحين رأى الملك أن الأسود لم تأكل دانيال سأله: يا دانيال، خادم الله الحي! هل الإله الذي تخدمه استطاع أن يُنجيك من الأسود؟.. فأجابه دانيال: أرسل الرب ملاكه، وسدَّ أفواه الأسود، فلم تضرَّني.

قاطعها أحدُ الصغار:

- هل ذلك الصوتُ هو صوت أسود تُحاصرنا؟

ربتت على رأس الفتى:

- لا يا ألبرتو.. إنهم مجرد أناسٍ مثلنا.

سأل آخر:

- ولماذا يريد هؤلاء الناس قتلنا؟ كما قُتل والد ألبرتو..

كانت تعلم أن سيل الأسئلة لن يتوقف، فأسرعت تُعيد الحديث إلى مجراه:

- إنهم أناسٌ مثلنا، لا تهابوهم، فالقديسون لم يهابوا الأسود المفترسة لأنهم يُحبون الرب؛ من منكم يُحب الرب؟

ارتفعت صيحاتُهم من حولها، بينما اقترب إليساندرو، الذي كان يقفُ قرب مدخل الحارة. نهضت، فراح يزيح الأطفال برفقٍ متجهًا نحوها:

- هل محبة الرب كافيةٌ لننتصر في معركتنا؟

أفلتت يد ألبرتو الصغير وهي تعقد حاجبيْها المقوسين:

- هذه المرة الأولى التي أرى فيها فارسًا لا يُؤمن بالرب.

كانت كلماتها قاسيةً، جعلته يتوجس منها ويقول بخفوتٍ:

- كانت قصتك عن القديسين ومعجزاتهم جميلةً بالنسبة لأطفالٍ لا يعرفون معنى الحرب.

اقتربت منه أكثر وهي تتفحصه:

- أنت من حملان الرب، أليس كذلك؟

أومأ برأسه مبتسمًا:

- في الحقيقة أنا القائد، بعد أسْر الدوق ماركيزيو في سالرينو.

حدقت بوجهه الذي ما زال يُحافظ على ابتسامته العريضة قبل أن تسأله:

- ماذا تريد؟

- لا شيء.. فقط كنتُ مارًّا حين رأيتك تقصين على مسامع الأطفال بعض القصص. حديثك عن الإيمان، والاستشهاد، وكل تلك الأمور.. كما ترين، الحصار يشتد أكثر فأكثر..

قاطعه صوتُ قذيفة منجنيق جعلته ينتفض، بينما تشبث الأطفال بتلابيب ثوبها. راحت تربت على رؤوسهم بحنانٍ، بينما أكمل هو:

- هل الإيمان يمنح الشجاعة؟

- نعم، الإيمان يمنحنا الشجاعة، والعذر إن فشلنا.. إننا نُختَبر.. كما يتم اختبار المعادن بالنار، كذلك تختبر الفضائل بالآلام والضيقات. ليس علينا سوى أن نثق بما نؤمن لننتصر.

ألقت كلماتها، ومضت عنه إلى الحارة الضيقة، ومن خلفها الأطفال يُرددون ترنيمةً كانت قد حفَّظتهم إياها. قبل أن تنعطف صاح بها:

- ما اسمك؟

- كاترينا.

ألقتها دون أن تلتفت. لحظاتٌ مرَّت، قبل أن يقطع الصمت صوتُ قذيفةٍ أخرى، ولكنها هذه المرة تزامنت مع صيحاتٍ وصراخٍ. خرج من الحارة يتلفت مع رؤيته للعامة يركضون، وسأل أحدهم: ماذا

يحدث؟
- لقد انهد السور جهة الشمال .

****

على وسائدٍ كبيرةٍ ناعمةٍ، في ركنٍ من الخيمة، جلس سَودان يُطالع خريطته المبسوطة أمامه وعليها قطعٌ خشبيةٌ تُمثل قواته وحصاره. تذكر حصانه الخشبي وصاحبته، فابتسم. متى تنتهي الحرب؟ مضى على حصاره لنابولي أسبوعان، وقد تهاوى البرجان الشمالي والجنوبي، وسقطت أجزاءٌ كبيرةٌ من السور، وتوقفت القذائف منذ ثلاثة أيام. يكاد يرى اليأس والترقب على وجوه جنودِ نابولي على الأسوار، فقد قطع رجاله قنوات المياه الموصلة لداخل المدينة، ولو سارت الأمور كما ينبغي، ستفتح المدينة قبل نهاية الخريف بأسابيع، تكفيه للعودة لباري قبل نفاد المؤن. اختلطت الأمور في رأسه فأغمض عينيْه لبرهةٍ، قبل أن يأتيه صوتُ أحد حراسه كان قد دخل إلى الخيمة دون أن يشعر به:

- سيدي، الأمير قسورة يريد مقابلتك.

أشار إليه سَودان بالدخول، واعتدل في جلسته قبل أن يدخل قسورة مبتسمًا:

- توقعت أنك لن تنام مبكرًا.

أجابه وهو يشير إليه بالجلوس:

- هل عهدتني كذلك؟.. أونسيت ليالي معركتنا الأولى؟

شرد قسورة قبل أن يتحدث:

- كنا ضمن قوات الهجوم الرئيسية مع الأمير مفرق. لم ننم في تلك الليلة، وكلنا نتحدث عن معركة الغد، التي أحفظ كل تفاصيلها كأنها منذ لحظاتٍ.. كم عامًا مرَّ عليها؟

- تسع سنوات.

أومأ قسورة:

- مضت الأيام سريعًا. تمر بعقلي الكثير من الوجوه في الآونة الأخيرة. لقد عشنا ضعف أعمارنا بفعل الحرب والتنقل. أذكر ذلك اليوم الذي أصاب فيه شعيب الدوق السمين بسهمٍ في رقبته، قبل أن يمس سيفه رأسك.

اسم شعيب بعث في وجدانه حنينًا لأيامٍ مضت مع رفيقه..

- أذكر وجهه حين طعنوه.. سقط ولم يسقط سيفه من يده. لقد غدروا بنا؛ هذا دأبهم دومًا.. وما نحن فيه خيرُ دليلٍ على ذلك..

- يا صديقي، لا عليك. سننتهي قريبًا، وسنفتح تلك المدينة العصية، ونعود إلى أهلينا في باري مُكللين بالنصر.

أخذ قسورة يقصُّ على مسامعه طرائف أطفاله السبع، وقصصًا عن زوجاته الثلاث والغيرة التي تدب بينهن حين يعود. حديثه جعل سَودان يُبحر في أفقٍ من الكآبة. ماتت زوجته منذ زمنٍ هي وطفله، لم تدم عائلته الصغيرة سوى عام وبضعة أشهر، ليعود وحيدًا مرةً أخرى. قصص قسورة، وأطفال شعيب، وهي.. كانوا يتصارعوَن في عقله.. تذكر حين رأى فيما يرى النائم ماريا في ثوبٍ أبيض تحمل رضيعة، وحين استفسر عن ذلك قيل له إن المولودة الأنثى في الرؤيا خير.

في جوفِ الغابة المظلمة، تسلل قطيعٌ من الأشباح بين جذوع الأشجار يزحفون على العُشب الجاف باتجاه نقطةٍ خلت من الحراس. سكنوا في أماكنهم حين سمع أحدهم صوتَ أحد الجنود يصيح في صاحبه الذي توغل في الغابة لقضاء حاجته، فأشار لفرقته. تسلل أحدهم خلف الجندي، الذي كان يقفُ قرب جذع شجرةٍ يتبول، وقبل أن ينتهي مما يفعله كان السيف قد اخترق صدره، بينما يد قاتله تُكمم فاه، أفلته ليخر صريعًا وأطلق صفيرًا يُشبه صوت أحد الطيور، فخرج الرجالُ من بين الحشائش لينقضوا على معسكر المؤن.

باغت إليساندرو ورجاله حراس المعسكر، وفي وقتٍ قصير انتهى كل شيء، قبل أن يشعر الجيشُ الرابض أمام أسوار المدينة. لقد خطط لهذه الهجمة منذ أيامٍ، واختار رجاله بعنايةٍ من أهل نابولي وجنودها. معسكر المؤن يقع بالقرب من سفح البركان، وقد راقب نظام حراسته طويلًا، واختار توقيت هجومه جيدًا، قرب نهاية دورية الليل، حيث برد الخريف يُتعب الجنود، ويُلجئهم كثيرًا لترك أماكنهم ليتبولوا في الغابة. في دقائق، ارتفعت ألسنة اللهب في معسكر المؤن، وفرَّ برجاله إلى داخل الغابة، بينما ارتفعت الصيحات في معسكر السراسنة، وهاجت الخيول المربوطة.

خرج سَودان من خيمته وخلفه قسورة، واتسعت عيونهما مع رؤية النيران، ركضا مع الراكضين، وقفزا إلى أقرب جوادين صادفاهما، وانطلقا إلى حيث الحريق يتضخم، فالنيران قد حملتها الرياح سريعًا إلى أشجار الغابة. أطلقت نابولي أجراسها.. إنها تعلن فرحها بما حدث لأعدائها. جزَّ سَودان على أسنانه، ولكز الحصان بقوةٍ ليُسرع.

ظل إليساندرو يركضُ مع رجاله بين الصخور تجاه البحر، يتعثرون بالظلام بين ركام معبدٍ قديم لم يتبق منه سوى بضعة أعمدةٍ مهدمةٍ، حتى سقط أحد رجاله بين الأطلال، وصرخ متألمًا. رمقَ إليساندرو الرجل اللاهث:

- هل تستطيع إكمال المسير؟

تعرَّق وجه الرجل وقال بصوتٍ يشوبه الألم:

- نعم نعم..

وقع حوافر حصانٍ يُسرع عبر الصخور الصلبة وصل إلى آذانهم في هذه اللحظة. يبدو أن صرخة المُصاب قد فضحتْ مكانهم. تبادل إليساندرو النظرات مع رجاله، قبل أن يقول لهم هامسًا:

- اذهبوا..

- ولكن..

- قلتُ اذهبوا، سآتي في إثركم.

أسرع الرجال للفرار، تاركين قائدهم خلفهم ورفيقهم المصاب معه. كانِ الفارسُ العربي قد لاح بين الأشجار ومن خلفه وهجُ النيران، نظر إليساندرو إلى رفيقه. كان يعرفُ أن الرجل لن ينجو. لذا عليه أن يتخذ قرارًا صعبًا.. تحسس خنجره، وعيناه تُراقبان الفارس الذي اقترب، وما عاد يفصله عنهما سوى تلك الصخرة. أشار لصاحبه المتألم بالصمت.. وقع أقدام الفرس على الحصى كان يرجف أوصاله، وزادته ارتجافة الرجل الذي تحشرج صوته قشعريرة، سيقتله إن تطلب الأمر. ارتفعت في هذه اللحظة صيحاتُ السراسنة عند الحريق رغم بُعد المسافة، حتى ضاع معها صوتُ أقدام الفرس الذي أطل خياله من وراء الصخرة، حين استدار الجواد، رأى وجه راكبه، فعرفه جيدًا رغم الضوء الشحيح.

****

**مضى نصفُ النهار، وما زال الدخان يرتفعُ فوق أشجار الغابات. قبع سَودان في خِيمته وحيدًا، يُفكر في الهجوم الذي كان يُعد له، ففشل قبل أن يبدأ. لقد خسر مخزن المؤن ومجموعةً كبيرةً من الأطباء، وحصاره لن يصمد إن لم يحصل على مؤنٍ خلال أيام، وأقرب خط إمداد له ساليرنو، التي تُعاني من مجاعةٍ وفوضى ما بعد الحرب. الآن صار عليه أن يُدبر المؤن أو أن يُهاجم دون انتظارٍ.
دخل عليه محمد الأغلبي في هذه اللحظة، والغضب يتجلى في وجهه وصوته..**

- لقد خسرنا المؤن وكل الأطباء.. لا أدوية لعلاج الجند، ولا طعام يسد حاجة الجيش. أنت من وضعتنا في هذا المأزق، وتحمل على عاتقك وزر خطتك.

قاطعه سَودان بصوتٍ قوي:

- ويحك يا أغلبي! أترفع صوتك على قائدك؟ قسمًا، لو كان غيرك من فعلها، لضربتُ رأسه وجعلته زينةً لخيمتي.

دخل قسورة وبعض من الرجال في تلك اللحظة، فوجدوا الأغلبي يقف مذهولًا مما سمعه. لكن- كفارسٍ مُحاربٍ مُحنك- فقد تمالك غضبه وأنصت إلى ما يقول سَودان وهو ينقل بصره بين الرجال:

- الحرب خدعةٌ، ولقد بُوغتنا في ليلة الاستعداد لهجومنا، وكأنهم عرفوا بموعدنا. سنرد الصاع صاعين، فمعنا ما يكفي للحصار أسبوعًا آخر. على القادة يا أغلبي أن يحفظوا ثباتهم، ولا يُفرقوا الصف.. وأعدكم أن تُرفع راياتُ باري فوق نابولي قبل أن تنضب أواني الطهو في معسكرنا.

احمرَّ وجهُ الأغلبي، ودسَّ بصره في الخارطة الكبيرة. وأحد الرجال يقول:

- ولكن..

فقاطعه سَودان بصوتٍ هادرٍ:

- إن انهزمنا لن يقولوا هزمنا سَودان.. بل سيقولون هزمنا جيش باري. اسمعوا جيدًا.. أنتم خيرةُ رجال باري، ولولا ثقتي بكم لقلتُ إن هناك خائنًا بيننا نقل لهم موعد الهجوم، فكانت تلك ضربتهم الاستباقية. أثق أنكم لن يُرضيكم سوى النصر، لذا اخرجوا إلى رجالكم، وذكِّروهم أن من مات فاز بالشهادة، وأن من سيرفع الراية فوق أسوار نابولي لهو من المقربين.

ذهب الرجالُ إلى جنودهم، وبقي قسورة. تقدم ليقف بجوار صاحبه متأملًا القطع الحربية، قبل أن يُحدثه سَودان:

- اللوم يُلقى عليَّ دومًا.. هل كنتُ أعلم الغيب لأمنع ما حدث؟ متى يعلمون أننا في قاربٍ واحدٍ، وسبيلنا واحدٌ؟.. لقد أحرق الروم مخزن المؤن الإضافي لإجبارنا على فك الحصار والانسحاب؛ ولكني لن أفعل..

رفع قسورة عن الخريطة قطعةً تُشبه الخيمة:

- هذا لأنك القائد، والقيادة تحتاج الكثير من الصبر والحكمة. الرجال يثقون بك، والوضع سيزدادُ سوءًا إن بقينا هنا حتى حلول الشتاء.. الأسوار ستصمد كثيرًا، فكما تعلم أنهما جداران وليس واحدًا فقط..

حرَّك سَودان إحدى القطع الخشبية على الخريطة:

- نصف النصر يكمن في تثبيط عزيمة العدو وبث الرعب في صفوفه، والنصف الآخر في إيمان الرجال بما يفعلونه . كل ما علينا هو السيطرة على السور. أضعف نقطة فيه هي ذلك البرج؛ إن استطعنا الدخول إليه وتأمينه سيكون بوابتنا إلى نابولي.

- إن فشل هجومنا هذه المرة سنخسر الكثير. الروم يمكنهم الاحتماء خلف الأسوار لشهورٍ، والمؤن يُمكن أن تتسلل إليهم من البحر، وهم أعلم منا بمسالك الغابات أيضًا.

استدار له سَودان وقد برقت عيناه:

- لا تتعجل الأمور.. دعنا نجعلهم يدفعون ثمن ما حرقوا أولًا.

****

لأول مرةٍ يخرج إليساندرو من الكاتدرائية مبتسمًا، بعد تكريمه من قِبل الدوق سيرجيوس ونبلاء المدينة بكلماتٍ عظيمةٍ، وصلاةٍ بُورك فيها على يد قسٍّ عجوزٍ أحاط بمجلسه عددٌ من الشمامسة. مرَّ بين الجموع التي أتت لترى من أحرقوا مخازن العدو ولقنوه درسًا. الأطفال يدفعون السيقان للمرور باتجاهه هو وزمرته، ويمدون أيادي صغيرةً تُلامس دروعهم في انبهار. ليت أباه هنا ليرى كيف أصبح. لمح ابتسامتها المشرقة، فلوَّح بيديْه لها، فخفضت وجهها في خَجلٍ، أسرع نحوها، فأسرعت تبتعد. كانت تدلفُ إلى زقاقٍ ضيقٍ، فناداها: كاترينا!

توقفت عن السير وقد اعتراها التوترُ مع اقترابه منها:

- سعيدٌ برؤيتك اليوم.

استدارت له وقالت بلطفٍ:

- أنا ممتنة لك، إنه أبي هذا الرجل الذي حملته إلى المدينة رغم إصابته البليغة، ولم تتركه للموت.

فاجأته الصدفة. حاول الابتسام، ولكنه فشل. لقد كاد أن يغمد خنجره في صدر أبيها، وفضَّل قتله على أن يكشف أمره، ولم ينقذه إلا أن ركض الفارس- ضيف أبيه الجريح- مبتعدًا. شرد، فلوحت بيديها أمام وجهه:

- أين ذهبتَ بعقلك أيها البطل؟

انتبه، واتسعت ابتسامته..

- فقدت عقلي يوم رأيتُ عينيك..

حاول أن يلمسَ وجهها بأنامله، ولكنها ابتعدت وقد ظهر عليها الضيقُ:

- عليَّ الرحيل.

حاول أن يعتذر ويستبقيها، ولكنها رحلت بسرعةٍ. ما كان عليه فعل هذا.. عاد أدراجه وهو يلوم نفسه، فما أبعد الفرق بين كاترينا وفيولا. أخذته قدماه إلى حانةٍ أضاء المشعل على بابها كدليل أن لم

يزل فيها جرارُ نبيذ. بضع خطوات كانت تفصله عن الباب، حين هوت قذيفة منجنيق على الحانة فنسفتها نسفًا، وطار هو ليرتطم بجدار المنزل المجاور بقوةٍ، وقد اختلط ألمه بصراخ وصيحاتٍ حوله، ثم سقط على الأرض، فتح عينيه متألمًا يستنجد بالسماء فوقه، فرأى الشهب تشقها في جنون، ثم أظلم كل شيء.

****

أطل الفجرُ متلكئًا، بعد ليلةٍ كانت الأسوأ على نابولي منذ عقودٍ. منذ بداية الحصار، لم يضرب السراسنة عمق المدينة، ولكن الليل شهد على قدرتهم أن يحرقوا ويهدموا أبعد مبنى عن الأسوار ويدك المدينة دكًا. صار الجند يترقبون بدء الهجوم، وما عاد يُمكنهم تبادل الورديات للراحة. مع ساعات النهار الأولى، وبعد أن سكنت القذائف، نزلت النساء لتقديم العون والمساعدة للمصابين، وجرَّ رجال الكنيسة العربات الخشبية ينقلون جثث القتلى إلى الساحة الكبيرة، فيما جمع القادة كل الرجال القادرين على القتال، يُوزعونهم على القادة للإسراع بتدريبهم للدفاع عن المدينة. لم تذق أعينُ الناس النوم، ولم يرحل ضجيجُ القذائف عن عقولهم. الإرهاق والأسى ملأ القلوب قبل الوجوه، ولولا بقيةٌ من إيمانٍ بنابولي العريقة لأصابهم اليأسُ من النجاة. كل بضع دقائق، يُعلن المطببون أن جريحًا قد مات. وبين الجرحى، كان إليساندرو يرقدُ مصابًا في رأسه فاقدًا وعيه. كاترينا، وكما يجب عليها كمسيحيةٍ مؤمنةٍ، وابنةٍ مخلصةٍ لنابولي، كانت هناك، تسعى بين الجرحى لا تكل. لمحت إليساندرو، فخفق قلبها جزعًا، وركضت نحوه. كان جرحه قد خِيط وضُمِّد، وهو غائبٌ عن الدنيا تمامًا، يبدو كطفلٍ بريء بعيدٍ عن ذنوب الحياة. ركعت على ركبتيْها، وضمَّت يديْها تُصلي لأجله وقد أفلتت منها الدموعُ بعد طول تماسكٍ. أسرعت فمسحت وجهها، وأمسكت على قلبها في قوةٍ وعادت لتأدية واجبها بين الجرحى، تُساعد هذا وتمسك بيد هذا ريثما تخرج روحه، وتُتابع إليساندرو من بعيدٍ بعينيْها.

امتلأت حديقةُ الكاتدرائية بالجرحى، وتلطخت ثيابُ الرهبان والراهبات بالدماء، وراح القساوسة يُلقون الصلوات على العيون الجاحظة، وكاترينا مستمرةٌ في عملها، وبينما واتتها الفرصة لتقترب من إليساندرو، فتح عينيْه ليجدها أمامه، ولكن قبل أن تكتمل ابتسامتها، هدر صياح الجند يزلزل المدينة.

تقدمت الكتائبُ متتابعةً، تحمي حملة السلالم الخشبية الطويلة، بينما المنجنيقات مستمرةٌ في ضرب حافة السور. تطاير جندُ نابولي في الهواء، ورد رماتُهم بإطلاق السهام على المهاجمين، فرفع السراسنة دروعهم في تشكيلاتٍ تحمي حاملي السلالم الذين راحوا يتقدمون بثباتٍ إلى السور، تحت كتلةٍ من الدروع تكوَّمت تحت الجدار. رفعت السلالم في سرعةٍ، رغم الحجارة المتساقطة على الرجال، ثم وصلت كسارةُ الأبواب، وتزاحم تحتها الجندُ وهم يُكبِّرون، وراحت تطرقُ الباب الضخم بوتدٍ عملاقٍ ثبت أسفلها بالجنازير. صوت السهام المرتطمة بسقيفة الكسارة الخشبية حمَّس الرجال ليدفعوها أكثر فأكثر، فالنجاة من السهام يأتي بها فتح البوابة ولا شيء آخر.

على رأس جيشه، كان سَودان يتابعُ الهجوم، ورجاله يُحاولون تسلق الأسوار. حتى اللحظة لم يستطع أحدهم أن يصل إلى أعلى الجدار. كان هجومه غير متوقع، ولكن جنود نابولي صامدون، يُدافعون ببسالةٍ، رغم أعداد الجند الصاعدين إليهم على السلالم الخشبية. دفع جند نابولي بعض السلالم، لتسقطَ بمن عليها، بدأ الجزع يتسلل إلى جنوده وتعلقت الأعين بالأجساد المتهاوية، بينما عيناه هو بعيدتان عن ذلك المشهد، وقد أرسلهما إلى حيث يتسلق محمد الأغلبي ورجاله البرج الشمالي المهدم. استطاع الأغلبي وفرقته ارتقاء السور في تلك المنطقة التي تعرضت لقصفٍ شديدٍ بالمنجنيق، تسبب في فصل البرج عن الجزء الشرقي من السور. على الجانب الآخر، تحصَّن المدافعون بالمتاريس، لكنها لم تصد عنهم الهجوم المباغت، وتفاجأ جند نابولي بعصبة الرجال تقتحم الجدار. راح رجالُ الأغلبي يتدفقون إلى البرج، يصولونٍ ويجولونٍ، وهو يطعن هذا ويتفادى ضربةً من هذا. كان طويل القامة قوي البنيان، لا يرتدي خوذةً ولا عمامةً، فقط درعًا خفيفةً تتلقى ضرباتٍ الرماح والسيوف. لم يمض كثيرٌ من الوقت، حتى استطاع رفع راية خضراء تحمل كتاباتٍ عربيةً بيضاء على البرج المُهدم، جعلتٍ عيونٍ أهل نابولي تجحظ وقلوبهم تخفقُ مع خفقانها على أطلال برجهم الشمالي. كانت تلك لحظةً فارقةً، فقد جذبت الراية العربية انتباه حماة السور، واستغل جنود باري ذلك فارتقوا السلالم في سرعةٍ أكبر.

في خضم الحرب، السبيل الوحيد للنجاة هو القتل. لون الدماء ورائحتها يُثيران غرائز المقاتلين، فتجعلهم يستمرون في الفتك ببعضهم البعض. وجوهٌ تتلاقى لأول مرةٍ، لكنها تكره بعضها بعضًا. تصطك السيوف، وتختلط صرخاتُ الألم بصرخات النصر. تتخضب الوجوه، وتتهاوى الأجساد.

حمِيَ وطيسُ المعركة فوق الأسوار، وقواتُ نابولي مستمرةٌ في الصعود. وعند البوابة الكبيرة الصامدة، كانت السهام تحصد أرواح بعضًا من عمال الكسارة المستمرة في ضرب قلوب المدافعين بلا هوادة. طال الوقت، واستبسل جنودُ نابولي في إسقاط جميع السلالم، فلم يعد لجنود باري الذين صعدوا سبيلٌ للعودة، وفي نفس الوقت ألقوا القطران السائل فوق كسارة الأبواب، ثم لم يحتج الأمر أكثر من سهم مُشتعلٍ ليرتفع صراخُ جنود باري. لهيبُ الحرب كان أقسى مما تصوره سَودان وقادته. لم يدر جيشٌ باري وقائده أن جنود نابولي على مدار أيام سقوا الأرض بالزيت كل ليلةٍ أمام الأسوار. لم يُدركوا الأمر إلا وقد وقف الدوق سيرجيوس يقهقه، وقد انعكست النيران في مقلتيْه. مات من مات من جنود نابولي، وجرَّ جنود باري أذيال خيبتهم، مخلفين وراءهم جثث قتلاهم. عزلت فرقة محمد الأغلبي بالبرج الشمالي المُهدم، وأجبروا على البقاء في أماكنهم، سجناء ينتظرون الموت.

****

يومان منذ الهجوم الفاشلِ. رفضٍ سيرجيوس ونبلاء نابولي التهدئة كي يدفن كل فريقٍ موتاه، فكل ما يقلقه هو رايةَ السراسنة التي تُرفرف فوق قمة البرج الشمالي. كان يعلم مدى عزيمةَ السراسنة، وكان يلومُ نفسه كثيرًا على خيبة إغواء وعود البابا له. عليه الآن أن يبقى بعيدًا عن الحرب، كما فعل طيلة سنوات حكمه. استرجع البدايات، حين ظن أن كل شيء مُخطط له بعنايةٍ جيدةٍ، ونظر إلى ما وصل إليه الحالُ. لعل الرب يُعاقبه على الغدر بمن تعاهد معهم. الآن ما عاد له مفرٌّ من أن يستمر في الدفاع عن مدينته، فهو من أقنع رجاله بخوض تلك الحرب.

قبع محمد بن الأغلبي بركنٍ مُظلم داخل البرج، يُعاني هو ورجاله الجوع والعطش، لا يملكون من العالم خارج الجدران الأربع سوىً سماء تظلهم. مات ثلاثة منهم متأثرين بالجراح، وبقي تسعة عشر رجلًا، لا يعرفون أيفرحون بالنجاة من الموت أم يحسدون من هلكوا. لقد حبسوا أنفسهم بأنفسهم، وأوصدوا الباب الضخم بمتاريس وحجارة، رافضين وعود الدوق سيرجيوس. ما عادوا يعلمون ماذا أصاب الجيش في الخارج، لكنهم يفهمون أنهم ما كانوا ليبقوا في محبسهم لو أن الغلبة صارت للمسلمين. اليأسُ أعلن عن نفسه ببدء أحدهم في قصِ فصلٍ من حياته، وكيف أنه لم يتخيل أن نهايته ستكون في أحد أبراج نابولي، حليفتهم السابقة. صوتُ الأذان البعيد يمحوه صفيرُ الريح قبل أن يصل إلى قلوبهم، وصاروا يُصلون فُرادى، دعاؤهم همساتٌ يُخفونها عن بعضهم بعضًا. ليلُ الأغلبي كنهاره، كلها ساعاتٌ ثقيلةٌ، وسط وجوهٍ يائسةٍ تُذكره بأنه قائدهم وعليه أن يتحمل مسئوليتهم. أي قرار يُمكن لك يا أغلبي أن تتخذ؟ الاستسلام يعني الموت، والبقاء أيضًا يحملُ نفس النهاية.

خلال اليوميْن الماضييْن في معسكر المسلمين، حاولت فرقُ المشاة التقدم لحمل قتلى المعركة، لكن أمطارًا من السهام رجمتهم، رغم الراية البيضاء للهدنة. لم يعرفوا شيئًا عن فرقة الأغلبي، وكانت الهزيمة موجعةً، وما زال الحصارُ قائمًا والمؤن تتناقصُ. الشيء الوحيد الذي يُؤجل يأسهم، هو تلك الراية التي ما زالت تخفق أعلى البرج.

- لقد هلك الأغلبي ورجاله، وما تلك الراية سوى فخ.

نطق بها شرحبيل الكلبي، قائد فرسان مدينة طارنت. كلماته بدت كتثبيط لهمة الرجال.. زاد بأن ذكَّرهم أن المؤن تكاد تنفد، في ظل وجود عددٍ كبيرٍ من الجرحى. لم ترق كلماته لقسورة، الذي أرادٍ أن يُعيد الهجوم على المدينة؛ ولكن من ناحية البرجِ الشمالي، وبذلك يُصبح الأغلبي ورجاله شوكةً في حلق جند نابولي. أخذ الكل يُدلون بدلائهم، وسَودان يرقب قادةً يتصرفون كالصبية، ويتشاحنون فيما بينهم. تمنى لو أن أبا المغوار كان هنا، ليُخرجهم من تلك الأزمة، فحين يعتقد كل امرئ أنه على الصواب، يحتاجُ الأمر إلى كبيرٍ يُوقره الجميع. دار في وجوه رجاله، قبل أن تستقر عيناه على الفقيه سعد بن هشام. رجل قد بلغ الستين من عمره، قليل الكلام فيما يخص التشاور والشورى، يؤصِّل كل شيء، ويُقارن بين المواقف، ويُعطي حلًّا مقبولًا للسامعين، كما أنه إمام مسجد باري الجامع والكل يأتمون به. لم تكن لحيته البيضاء أو جسده الهزيل ينسجمان مع درع الحرب، التي أصر على الانضمام لها.

- لم نسمع حتى اللحظة رأي إمامنا الفقيه سعد بن هشام..

رفع الشيخ عينيْه إلى سودان، وتريث لبرهةٍ قبل أن يقول:

- كنتُ أنتظر أن يُنهي الأميران جدالهما، والحقيقة أن كليهما أصاب لبَّ الحقيقة. الأمير شرحبيل لا يُريد التضحية بمزيدٍ من الرجال، بينما لم نتأكد من أن رجالنا على قيد الحياة. والأمير قسورة تأخذه الحمية الواجبة تجاه رفاقه، ويريد إنقاذهم مهما كلف الأمر. والفصل في الأمر لأمهر المتسلقين، يصل إلى حيث نجهل، ثم يُخبرنا الحقيقة.

****

في منزل الدوق كارلو بمدينة سالرينو، الذي هو في الحقيقة قصرٌ منيفٌ، يُطل على خليج سالرينو الصافي، كان أبو المغوار يستمع لرجالٍ من أهل المدينة، جاؤوا في طلب الأمير لإخباره ببعض الأمور. استمر الاجتماع لوقتٍ طويلٍ، قبل أن يخرجوا يتلفتون حولهم في ريبةٍ. وداخل الغرفة المزينة بالستائر المخملية، جلس أبو المغوار على كرسي يُقابل الفراش الوثير يُفكر فيما قصَّه عليه الرجال. نهض إلى الشرفة، وأخذ يُحملق في الأفق، والريح البارد القادم من البحر يحمل إليه القلق. وعند بزوغ الشمس، كان الشيخ قد أجمع أمره، فتجاوز الستائر المتطايرة عائدًا للغرفة، واستل غمد سيفه وثبته بخصره، قبل أن يفتح الباب ويخرج محدثًا أحد حراسه:

- أرسل في طلب الدوق ماركيزيو، وأبلغ قائد الحرس أن يُضاعف عدد الجند قرب المرفأ وعلى البوابات.. أبلغه أمري أن يمشط الشوارع جيدًا.

وفي قاعة طعام مكدسة بتماثيل تغطت بأقمشةٍ باهتةٍ، كان الرجال يتهامسون، حين دخل الدوق إلى القاعة يتبعه جنديان. ما إن وقع بصر أبي المغوار عليه، حتى أشار لصاحبه بالذهابٍ هو والجند، وبقي ماركيزيو واقفًا في منتصف القاعة، في حين تحرك القاضي نحو المنضدة محدثًا إياه:

- سعيدٌ أنك تكرمت بالمجيء.

ترحيبه أثار قلق الدوق، الذي ابتسم في توجس:

- إنه لشرفٌ عظيمٌ أن أحضر لمجلس أمير ساليرنو الجديد.

جلس أبو المغوار ضاحكًا:

- لا أحب الإمارة، فلا تُحدثني بذلك اللقب.. اجلس!

جلس بالقرب من العجوز ذي العين الواحدة. همَّ أن يقول شيئًا، ولكن أبا المغوار كان أسبق:

- تعلم أن أشجع الرجال من يُعملون عقلهم، ليخرجوا من كل مأزق بأقل الخسائر. قد نختار طريقًا صعبًا رغم رفض الجميع، متمسكين بيقيننا أن طريق الصواب وعرٌ ممتلئٌ بالمهالك. أتدري أيها الدوق.. هذا العالم أصغر مما نتخيل. حين كنتُ صبيًّا صغيرًا ألهو على شاطئ مدينة سوسة، ظننت أن ذلك البحر الأزرق هو نهاية الأرض، وأفكر أن لا شيء يُضاهي الوقوف على حافة العالم.

كان ماركيزيو يُتابعه باهتمام، محاولًا سبر أغوار حديثه، الذي يبدو كتمهيدٍ لشيء قادمٍ. حاول أن يُزيح القلق عن قلبه وهو يستريح في جلسته، بينما أكمل أبو المغوار:

- سرعان ما نكبر، لنضحك على رؤيتنا المحدودة البسيطة. ما إن وطأت قدماي أرض صقلية، تلاشت أحلامٌ ونبتت أخرى، وأصبح الولد الصغير جنديًّا لا يُشق له غبار.. روما.. كالابيرا.. كمبانيا، كلها

أقاليم غبَّر ثراها حذائي. خَضت ما يقرب من أربعين معركة، وبقيت حيًّا بإرادة الله، الذي كنتَ أظن دومًا أنه لطالما أبقاني لسبب ما.. كان عليَّ إكمال المسير، حتى استقر بي المقام في باري، في رفقة الأمير خلفون الفاتح؛ أظنك تعلم اسمه، وكيف فتح المدينة ليلًا عبر ثغرةٍ قديمةٍ بالجدار. لقد كان الأمير خلفون ورعًا صادقًا.. مؤمنًا حقيقيا يبحث عن حرية الناس، أراد إخراجهم من ذل اللومبارديين إلى رحابة الإسلام. الإيمان كان ما يُحركه دومًا، ولذا كُتب له أن يفتح بينفينتو، التي خسرناها بعد تولية الأمير مفرق بن سلام..

نهض أبو المغوار وهو يُشير لضيفه بالبقاء حيث هو، بينما يُتابع:

- للأمراء والملوك خريفٌ يسقطون فيه. ورياحُ الخلاف كافيةٌ لتذروهم عن عروشهم, ولقد عاصرتُ ثلاثة أمراء لباري، لكل منهم سمتٌ مختلف. فإذا رأى الفرسان أن الأمير يسيرُ في اتجاهٍ خاطئٍ، وبدأوا الصراع على الإمارة، كنتُ أحمي ظهورهم جميعًا، كي أحافظ على النظام، وعلى أن يتولى القيادة أميرٌ يستطيع إدارة كافة الأمور. حين حاول البعضُ الإطاحة بخلفون، كنتُ حاضرًا بقوةٍ. رغم خسارتي، استطعت تثبيت الأمير خلفون لعامٍ آخر. ظننتُ أن التصدي لمن خرجوا عليه أمرٌ صائبٌ حينها، ولم أعلم الغيب إذ بعد عام واحدٍ قُتلَ الأمير خلفون. فكرت لوهلةٍ: ماذا لو مات خلفون حين حاصره الانقلابيون– الخوارج- أوّل مرة، ولم أحصل على إجابةٍ سوى أنني خسرتُ صديقًا أنقذني من الموت تحت أسوار روما.

عاد حاملًا كأسًا، مدَّ يده به لماركيزيو، الذي تردد في مدِّ يده لتناوله منه، فابتسم قائلًا:

- حليبٌ مُحلى بالعسل.. عسل إقريطش هو الأفضل على الإطلاق.

التقط ماركيزيو الكأس وعيناه لا تفارقان وجه أبي المغوار، الذي أومأ برأسه ضاحكًا:

- لو أردتُ قتلك، فما الداعي أن أقص عليك مسيرة حياتي.

رشف ماركيزيو من الكأس ولم تُفارقه الريبة.. بينما العجوز يُتابع:

- أنت ضيفنا، كما قال الأمير سَودان. إنه ثالثُ أمراء باري بعد مفرق بن سلام، الذي خضعت له مدنُ الجنوب كلها. أظنك وعيت ليومٍ دخل مفرق لبنفينتو وأبرم معهم معاهدة سلام..

أطلق زفرةً طويلةً قبل أن يُكمل:

- السلام.. لقد حثنا نبينا عليه.

قاطعه ماركيزيو:

- ولكنكم جئتم لبلادنا بالحرب وليس السلام.

صمت أبوالمغوار يُفكر قليلًا، ثم هزَّ رأسه وقال دون أن ينظر إلى الدوق:

- إن تواجدنا هنا فى جنوب إيطاليا هو أمرٌ حتمي. كيف لنا أن ندفع خطركم عن قواعدنا في إفريقية ومصر والشام؟! قل لي أيها الدوق.. ما شأن أولئك الفلاحين والفقراء في أنحاء بلادكم، التي يحكمها نبلاء متصارعون، ومملكتان تبغضان بعضهما البعض؟.. البيزنطيون والإفرنج يتحكمون في مقادير بلادكم، التي تدَّعي أنك منها.. أولستَ من لومبارديا قرب بلاد الغال؟.. ما الذي جاء بك إلى هنا أيها الدوق؟

احمرَّ وجهُ ماركيزيو، وقال في اعتدادٍ:

- الرب هو من منحني حق المجيء إلى هنا.
هزَّ أبو المغوار رأسه نافيًا..

- دومًا نُقحم اسم الرب لتبرير شهواتنا. كذلك كان الرفاق الذين أرادوا التخلص من خلفون..

وضع ماركيزيو الكأس بهدوءٍ:

- ألم تأت أنت ورجالك إلى هنا بأمرٍ من الرب أيضًا، كما تقولون؟

ابتسم أبو المغوار، فقد كان يتوقع كلام ماركيزيو..

- إنما جئنا لتحرير العباد من سطوة النبلاء وجهل الكنيسة.. فاتحين، لم نجبر أحدًا على الدخول لديننا، بل هو التخيير بين أمور ثلاثة، أنت تعرفها جيدًا. سأمنحك مقدار جوادك ذهبًا، إن جبت الجنوب بحثًا عمن اعتنق ديننا بالقوة رغمًا عنه. أنتم تستعبدون الناس، تضيقون عليهم الخناق، تسلبون أموالهم بفرض الضرائب، تحرِّمون عليهم القراءة والكتابة.. قضيتم على كل ما يحتاجونه لعيش حياةٍ كريمةٍ. ألستم تسلبون شرفهم بحق الليلة الأولى في العروس؟.. قل لي أيها الدوق كم من عذراء وطأت، فقط لأنك الدوق الحاكم لقريةٍ تعيسةٍ. أين نبلاء ساليرنو؟ لماذا هربوا وتركوا الناس جوعى؟ لقد جئنا إلى كل هؤلاء بالغراس والخير... ووالله لو فتحنا كل تلك البلاد لما وجدت بين ظهورنا من هو على دينكم.

لم يرق حديث أبو المغوار للدوق. نهض قائلًا في سخريةٍ:

- أي غراس وأي خير الذي تتحدث عنه؟.. أتُسمي سلب الممتلكات وسبي النساء خيرًا؟!

رد أبو المغوار بحزمٍ:

- ألم يكن السلام خيرًا؟ ألم تكن نابولي وساليرنو وأمالفي يزرعون ويحصدون في أمانٍ ورخاء؟ ألم تكن بيننا معاهدةٌ وحلفٌ؟.. كم مرة أنقذت سفن الأغالبة مدينتكم هذه من اللومبارديين؟.. أنت بعيدٌ عن ديارك أيها الدوق، ولا تعلم أي شيء عن السلام، ومن تخدمهم الآن هم ألد أعداء مملكتك. دام السلام بيننا لعشرة أعوام، حتى جئتَ أنت وذلك البابا الجديد. عمَّ الخير أرجاء الجنوب، وإن كان لك من العمر بقية، سأجعلك تجوب المدن الجنوبية، لترى كم هي عظيمة حضارتنا، ولترى التعايش بين أصحاب الشرائع جميعًا في مكانٍ واحدٍ، دون بغضٍ.

رسم ماركيزيو الاستهانة على وجهه وهو يقول:

- هل جئتَ بي إلى هنا لتقولَ لي هذا؟

جلس أبو المغوار مبتسمًا:

- لا؛ بل لأخبركَ أنك بدءًا من هذه اللحظة سجينٌ، وسترحل إلى باري..

كان وقعُ الكلمات على الدوق كلفحِ الصقيع. جحظت عيناه وتيبست أطرافه وهو يتمتم: ماذا؟!

- في الحقيقةِ، أعجبت بشجاعتك وتضحيتك، وأقدر ما فعلته لإنقاذِ جنودك، الذين رحلوا في الليلة التي سبقت خروجك لطلب الاستسلام. كذبت، لتُنقذ رجالك.. ولكنك لم تُنقذ نفسك أيها الدوق.

وفي نفسِ لحظة انتهاءِ كلمات أبي المغوار، كان الجنودُ يُحيطون بماركيزيو، الذي تحطمت أحلامه على صخرةٍ صلدةٍ، تُكنَّى أبا المغوار.

****

وبين الأشلاء، التي صارت أعشاشًا لغربانٍ امتلأت حواصلها، فغطت في نوم عميق، تحرَّك شبحان بين الجثث التي بدأت في التحلل. لم تبالِ الغربان بمن اتشحا بالسواد في ليلةٍ معتمةٍ، يتجنبان المشاعل على جدران البرج الضخم. كان عليهما التسلقِ والدخول للبرج من ناحية المدينة، مستتريْن بظلال الحجارة. يتوقفان كلما اقترب حارسٌ يحمل مشعلاً، ثم يُسرعان قدر الإمكان، فكل منهما يحمل قِربة ماء صغيرة وصرة تمتلئ بالتمر. ما زاد التسلق صعوبةً هو انهيارُ جزءٍ كبيرٍ من البرج، مما يجعلهما مكشوفيْن عند نقطة دخولهما. أطلق أحدهما صفيرًا يُشبه أحد طيور الليل، وانتظر قليلًا.. أعاده مرةً أخرى، ولم يأت ذلك بنتيجةٍ. وقبل أن يُطلق الصفير الثالث، جاءته الإجابة. ابتسم وهو يدلف عبر الشق إلى الداخل. تدلى، وتبعه صاحبه، وما إن استقرا على سفح البرج، حتى تلقفتهم الأيادي.
على الضوء الشحيح، احتضنا الأجساد المتيبسة، ثم بدأت الهمسات في الارتفاع، قبل أن يقول الأغلبي:

- صه يا رجال..

شرح الرجلان خطة سَودان، بينما انهمك الرجالُ في شرب المياه وأكل التمر، وقد عاودهم الأمل. أنهى الرجالُ حديثهم القصير وعادوا أدراجهم، يحملون رسالة أن الأغلبي ورجاله لن يستسلموا وينتظرون الإشارة، والتي يجب أن تكون في موعدها قبل أن يموتوا جراء رائحة الموتى.

وحول البرج، كان يقفُ إليساندرو برأسٍ مضمدٍّ، بجانب الدوق كارلو، الذي يُريد إحراق البرج بمن فيه، وإسقاط تلك الراية بأي طريقةٍ. كان يقترحُ على سيرجيوس إشعال النيران حول البرج، ولكن الأخير رفض، رضوخًا لأمر سادة المدينة؛ فمن بالداخل قد يكونون صفقةً لإنهاء الحصار والحرب.

لن يأتي عونٌ من روما ولا لومبارديا، فعليهم الخروج من مأزقهم بسبلٍ أكثر دهاء ومرونة، فالوقتُ كما هو ليس في صالح المهاجمين، فهو ليس في صالح المحبوسين داخل أسوار المدينة أيضًا.

ترك إليساندرو حديث القادة معتذرًا بجرحه، واتجه إلى الكاتدرائية. شوارع المدينة وطرقاتها خاويةٌ، تسري في جنباتها رائحة الموت. الرياح الشرقية تحمل عفونة الموتى إلى داخل المدينة، تُزكم الأنوف وتُثير الغثيان. شد على أنفه لثامًا، وراح يحث الخُطى نحو منزل كاترينا القريب. طرق البابِ وانتظر قليلًا، حتى فتحت بوجهٍ ناعس. تفاجأت برؤيته، ولكنها أذنت له بالدخول. كان المنزل بسيطًا، من غرفتين يرقد أبوها في المظلمة منهما، والأخرى تحوي مدفأة تبعثُ دخانًا ذا رائحةٍ زكيةٍ تُحارب روائح المدينة المقززة. جلس قرب المدفأة يستنشق قائلًا: ما تلك الرائحة؟

أجابته وهي تحضر له كوب ماء:

- إنها أعشابٌ، أمر القس بحرقها في المنازل لطرد الشياطين وحفظ المنازل من رائحة الموت.

تذكَّر عمه كاراس، وارتسمت على وجهه ابتسامةٌ. ظلت واقفةً أمامه بكوب الماء، ولكن عقله لم يكن معه. أفاق على ندائها يتكرر..

- عذرًا كاترينا.

تناول الكوب وارتشف منه قليلًا..

- أعتذر عما بدر مني في ذلك اليوم.

أشاحت بوجهها عنه:

- لا عليك؛ كثيرًا ما أصادف مثل حماقاتك.. كما أني السببُ فيما حدث لك من إصابةٍ في ذلك اليوم.

- بل الفضل لك كاترينا.. يوم قابلتك أول مرةٍ، كنتِ السبب في تأخري عن الذهابِ إلى مكان خدمتي في البرج الشمالي، الذي انهارت عدة طوابق منه بعد رحيلك مع الأطفال. والثانية حين تبعتك إلى الزقاق، أخَّرتِني عن ذهابي للحانة، التي هُدمت قبل أن أدخلها.. في المرتين كنتِ ملاكي الحارس بطريقةٍ أو أخرى.

رمقته بعينيْها الزرقاويْن:

- ألم تكن تؤمن من قبل بوجود الملائكة؟

- فقط حتى رأيتك.

أمسكت بطرف ثوبها وقد اعتراها الخجلُ، وسألته تُغيِّر مجرى الحديث:

- لستَ من نابولي، أليس كذلك؟

- نعم. أنا من سان فيلي.. قرية تابعة لدوقية بنفينتو.

كانت المرة الأولى التي يتخلى فيها عن وصف نفسه بالنبيل ابن النبيل.. صمت لبرهةٍ، قبل أن تجذب هي طرف الحديث مرة أخرى:

- لمَ أقحمت نفسك في الحرب.. هل أنت من عائلةٍ محاربةٍ؟

- في الحقيقة، لم يخطر ببالي أن أُشارك في حربٍ يومًا. لم تكن حياتي منذ أشهر تمت لما أنا عليه الآن بصلةٍ، كنتُ أقضي وقتي في التسكع بين أكواخ القرية، والبحث عن المتعة، وكما يقول أبي إني صانعُ فوضى، لا أكثر.

ضحكت وهي تُلقي بقطع حطب في المدفأة:

- ولكن ما أراه أمامي ليس سوى فارسٍ شجاعٍ لا يهاب الموت.

في قرارة نفسه، كان يعلم أن الموت هو عدوه الأول. لطالما أراد الاستمتاع بكل لحظةٍ في حياته. ولكن حين أتى إلى نابولي، تغير كل شيء، ورأى الموت يطوف بأرجاء المدينة. صار بطلًا في عيون أهل المدينة، وهذا سببٌ كافٍ لمنحه الثقة في نفسه، كي يُصبح البطل الذي يرنو إليه الناسُ. لئن حُكم عليه بالموت في الحصار، فعليه أن يموت كما يموت الأبطال كرولان وصاحبه أوليفير.

نهض إليساندرو في صمتٍ، متجهًا إلى الباب، فأسرعت كاترينا:

- إلى أين ستذهب؟

- إلى الكاتدرائية، حيث نبيت أنا ورجالي.

- باحة الكاتدرائية- كما تعلم- مكتظةٌ بالمرضى.. ابق هنا حتى الصباح. سأدخل إلى أبي، وتنام أنت هنا.

حاول أن يرفض عرضها، ولكن عينيْها الزرقاويْن أجبرتاه أن يومئ برأسه موافقًا. لن يجد أفضل دفئًا من المنزل، بعيدًا عن الرائحة الكريهة في الخارج. دخلت كاثرينا إلى غرفة أبيها، فاستلقى هو على الفراش قُرب المدفأة. لم ينعم بليلةٍ مثل هذه منذ خروجه من سان فيلي. أخذ يُفكر في كل ما مرَّ به، حتى توقف عند كاترينا. همساتها لوالدها المتألم لامست قلبه. كانت مختلفةً عن فيولا.. أهلُ المدن لهم من العادات ما ليس للفلاحين. كانت المرة الأولى التي ينامُ فيها على فراشٍ جيدٍ منذ رحيله عن قريته. تقلب مرارًا، قبل أن يغط في نومٍ عميقٍ.

****

ما أقسى الانتظار في جُبٍّ عميقٍ، يُحاصرك الموت من كل جانبٍ. مضت ليلةٌ، ويأبى النهارُ بعدها أن

يمضي. ما زالت الشمسُ تَلملم خيوط الرحيل، وأشعتها الخافتة تنسحبُ ببطءٍ من على الجدارِ المرتفع. كان الرجالُ في حالٍ سيئةٍ. رغم دفنهم لرفاقهم الموتى، إلا أن الرائحة النفاذة كانت تُزكم الأنوف. بكى أحدُهم في يأسٍ، وحاول آخر أن يُزيح الأحجار عن الباب ليُسلم نفسه لجنود نابولي؛ ولكن قواه لم تُعنه على ذلك. أما الأغلبي، فكان ينتظرُ الفرج، الذي قد يأتي في ضربة منجنيق تهدم ما تبقى من حصنهم، أو فوجٍ من الرجال يدخلون لينقذوهم. كان يذكّر الرجال بالله، يُحاول أن يمنحهم الأمل في التمسك بما تبقىَ لهم من قوةٍ. نفد الماء والتمر، وبقي الموتُ يحومُ فوق حافة البرج.

سحبت المنجنيقات لتواجه البرج الشمالي. الكل يستعد لمعركةٍ قد تكون الأخيرة هذه الليلة. دقت الأجراس، لتنذر الناس بأن العرب يستعدون للهجوم. وتراصت صفوفُ الجند، وقد تلثموا جميعًا بأوشحةٍ نُقعت بماء غُلي فيه لحاء أشجار الصنوبر، ليمنع عنهم الرائحة. وقف سعد بن هشام على رأس جيش المسلمين خارج المدينة، وراح يُلقي خطبةً طويلةً، استغرقت حتى المغيب التام للشمس، والمراقبون أعلى الأسوار يعجبون من جيشٍ يُثرثر كل هذا الوقت. المشاعل راحت تنبت بين الخيام كزهورٍ حمراء تُنير ما حولها، وسَودان تجهّز مع فرقةٍ من حُراسه في مقدمة الجيش، مترجلًا. لن يقول الناسُ من بعده: ترك أميرُ باري رفاقه للموت، وعليه إخراجهم من ذلك البرج مهما تكلف الأمر. انتهى الفقيه من كلمته عن الصبر والجهاد أخيرًا، وتبادل النظرات مع سَودان، الذي رفع يده ليُعطي الإشارة لعمال المنجنيق بإطلاق القذائف. ولكن يده تيبست في الهواء، وقد لمح الفرسان القادمين في الأفق، يتحركون بالقرب من سفح بركان فيزوف. وعلى بقايا ضوء المغرب، كانت البيارق تُخفق بقوةٍ من فرط سرعة الخيول..

راياتُ باري، حملها ما يقرب من مائة فارس كانوا يتقدمون عبر السفح تجاه الجيش المُستعد للهجوم. تحرك سَودان بسرعةٍ يستقبل الفرسان، وقد حمل قلبه ريبة مما يحدث. على الأسوار، كان الصمتُ القريبُ من اليأس يُراقب المدد الجديد الذي جاء إلى قوات السراسنة، جُلهم من الفرسان، ينزلون عبر المنحدر إلى داخل معسكر الحصار. ضاقت حدقتا إليساندرو وهو يتابعُ الموقف، بينما صاح أحدُ الرجال: إننا هالكون لا محالة.

رمقه إليساندرو ببغضٍ، وهو يتجه نحو البرج الشمالي. كان الرجالُ يتساءلون عن جدوى الحرب، يرى في أعينهم الاضطراب. الحرب بغيضةٌ، حتى وإن كانت مقدسة، كما يردد الكثير منهم. أمر رجاله بزيادة عدد المشاعل فوق الأسوار من الناحية الشمالية، وسرعان ما كانت حافة الجدار متوجة بالنيرانِ. المشهد يُخبره أن العرب لن يهجموا الليلة. اقترب من موضع الباب الموصد من الداخل، طرق ثلاثًا وتحدث باللاتينية:

- نعلم أنكم بحاجة للطعام والشراب.. كما تحتاجون الحرية. اخرجوا قبيل الفجر، ولن يمسسكم سوءٌ. لقد تخلى عنكم رجلكم.. لقد خذلكم، ولا سبيل للفرار.. إن أردتم الموت، لن نلطخ سيوفنا بدمائكم.. بل سنترككم تتعفنون بالداخل، وستبقى أطلالُ البرج شاهدةً أبد الدهر على رفاتكم وخيانة أصحابكم.

ترك الباب دون انتظار للرد، وتوجه إلى كارلو، الذي لم يفهم ما قام به الشاب الذي وقف أمامه محدثًا إياه:

- سيدي الدوق، علينا التفاوض سريعًا بشأن هؤلاء.. أتوقع أن الهجوم سيتم تأجيله لقدوم ذلك المدد..

بقلقٍ، نقل الدوق عينيْه بين قوات باري، التي ما زالت تقف مستعدة للهجوم، وبين إليساندرو الذي قال بصوتٍ هادئ:

- ثق بي. لن يهجموا الليلة، وعلينا أن نستغل تلك الفرصة في فرض هدنةٍ دائمةٍ، والتفاوض من أجل فك الحصار.. بدلًا من أن نموت جميعًا.

- لن يطالنا الموت، فالأسوار ما زالت قائمةً، ورجالنا مستعدون للتضحية من أجل المدينة.

اقترب منه إليساندرو أكثر:

- سيدي، الموتُ أصبح الآن بين ظهورنا جميعًا. لقدٍ تفشى الوباء منذ أيام في الحارات المُحيطة بالكاتدرائية.. انظر لوجوه جنودك، ستراها مسمومةً برائحة الموت الكريهة.. سينتظرون أن نموت ببطءٍ، بينما يُقيمون هم حصارهم، حتى نكون جميعًا إما أمواتًا أو منهكين لا نقوى على رفع نشاب بوجوههم.

.....

ترجل قائدُ الفرسان مبتسمًا وهو يُحدث سَودان:

- أرى أنكم تستعدون لهجومٍ ليلي..

بادله سَودان التحية وما زالت الدهشة تعم عقله:

- ما الذي أتى بكم من ساليرنو؟

ألقى الرجل نظرةً سريعةً على الاستعدادات، قبل أن يُسلم سَودان رسالة تحمل ختم أبي المغوار. فتحها على مرأى من الجميع، قرأ ما فيها صامتًا، ثم طواها وطلب من الفارس مرافقته. حكى الرجل ما حدث بين القاضي أبي المغوار والدوق ماركيزيو، الذي أصبح تحت الحراسة، وقد تم إرساله إلى باري. لقد وشى به أحدُ رجاله، وأخبر أبا المغوار أنه أرسل حملان الرب إلى نابولي، ولقد اعترف بحيلته حين قام بتسليم المدينة، بينما أبحرت القواربُ ليلًا تحمل جنوده. خرج سَودان إلى جنده، فأمر بوقف الهجوم لحين إشعارٍ آخر، فكانت المفاجأة صادمةً للجميع، وأكلهم الفضول لمعرفة فحوى الرسالة التي غيرت قرار الحرب.

****

على ضوء المشاعل والشموع، كانت جثثُ الموتى تُلقى في مياه البحر. أفتى من أفتى، أن ملح البحر سيُطهر الجثث، ويُقلل من الأوبئة. النحيب والصراخ يقطع الترانيم المنبعثة من الكاتدرائية، التي تجثم بوسط المدينة بزجاجٍ مُلون يعكسُ صور القديسين وهالاتهم الذهبية، وعيونهم التي تحملُ الأسى على ما أصاب المدينة. الشوارع صارت مرتعًا للجرذان، تقتات بأشلاء الموتى وتحمل الوباء،

والرهبان وحدهم تكفلوا بإزالة القتلى عن الطريق. لا دواء قد يُعالج غضب الرب، فالكل هالك لا محالة إذا لم يفك ذلك الحصار.

وعلى الأسوار، أحاط بالجند بَرد يرجف قلوبهم بالخوف. لقد كان من الخطأ ترك جثث القتلى خارج الأسوار، فالرياحُ حملت الوباء فوق الجدران، فصار المرضُ يُهاجمهم من الداخل والخارج. وأما داخل البرج الشمالي، كان محمد الأغلبي مقتولا بالخذلان والحزن، فقد مات ثلاثة من رجاله في الليلة الماضية، وسَودان لم يقم بهجومه. الاستسلام خزيٌ، ولكن على الأقل سيمنح رجاله يومًا آخر في الحياة، وإن ماتوا سيكون موتهم على يد الروم، ولن تتحقق نبوءة ذلك القائد الذي لم ير وجهه، ويصير مدفنهم، يشهدُ عبر الأجيال على تخلي قائدٍ مسلمٍ عن رجاله. ما زال بعضُ رجال الأغلبي يُصرون على الصبر، وأحدهم يريد أن ينقض على العدوً وليمت طعنًا، ولكن على الأقل سيقتل ويُصيب منهم.. نظر إليه الأغلبي مبتسمًا في حسرةٍ، فما فيه من وهنٍ يجعل انقضاضه الذي يتحدث عنه محض حلم قديم.

طوال ساعات الليل كانوا يتجادلون. لقد جاؤوا للحرب، وهم يعلمون أنها قد تكون نهايتهم في أي لحظة، فلمَ يتراجع البعض عن إيمانهم أمام وعدٍ بالحياة. لم يبق على خيط النهار الأول سوى ساعاتٍ قليلةٍ، وستنقضي المهلة التي منحها إياهم ذلك القائد. إنهم ضعفاء، سينتهي أمرهم سريعًا، ومقاومتهم ستكون مجرد محاولةٍ بائسةٍ للموت بشرفٍ. وفي عتمة البرج، تحامل الأغلبي على نفسه ونهض يُمسك بمقبض سيفه ويُخبرهم قراره في حسمٍ:

- لقد صدق ذلك الرومي.. تخلى أصحابنا عنا، ولا مفر من الاستسلام، ثم لنرَ ماذا نفعل بعد ذلك.

- تقصد نرى ماذا سَيُفعل بنا.. اسمع يا أغلبي، لئن يتخضب الثرى بدمائي أفضل من أن ألقي بسيفي تحت أقدام الروم. لقد بايعنا على الموت، وينبغي علينا..

قاطعه محمد يهمسُ إليه بنبرةٍ حاسمةٍ:

- ينبغي علينا أن نبقى ليوم آخر.. لقد مُنحنا الاختيار. وبما أنني قائدكم، فقد اخترتُ الاستسلام مع فجر اليوم.. التحصن في ذلك البرج نهايته الموت.. والتعلق بأملٍ زائفٍ نهايته الموت..

سأله آخر:

- هل تُصدق أنهم سيوفون بالعهد الذي قطعوه؟ نقض العهد ليس غريبًا عنهم يا أغلبي.

- لم أنس.. كما أنني لا أستطيع التضحية بكم من أجل سَودان الذي أرسلنا إلى هنا ليتم سلخنا أحياء.

- أفقدتَ عقلك يا أغلبي؟

- إن كان سَودان أراد التخلص مني.. فلا يجب أن يدفع أحدٌ الثمن بدلًا عني. ثم إنني رغم غضبي منه، لن أبقي للتاريخ قولًا مشينًا عن قائدٍ مسلمٍ، تعفن رجاله في برج نابولي. لقد حسمت الأمر.. تجهزوا للخروج مع أذان الفجر، إن سمعه أحدكم.

آخر ساعات الليل أكثرها ظلمة. النجوم رحلت عن سماء البرج، واختلى الرجالُ كل بنفسه، يُحاول تفسير ما قاله الأغلبي. حملقت عيونهم في ظلام تعودت عليه، يرون دون إبصار جثث رفقائهم الذين ماتوا في الأسر جوعًا ومرضًا. إن بقوا ليومٍ آخرَ، سيموتون تباعًا من الجوع أو المرض، ولربما هدم عليهم البرج. تمتم أحدهم بخفوتٍ:

- لن يخذلنا الله..

صوتُ الأذان البعيد بدا كحلم نهايته السكون. تيمم الرجال، وتراصوا لصلاةٍ أخيرةٍ. لم يتقدمهم الأغلبي كالعادة.. فضَّل أن يقف بالصف الثاني. صلاتهم كانت همسًا سرى بين الجدران إلى حيث يقف إليساندرو ورجاله. لقد قضى نهارهٍ في بيتِ كاترينا، وأخبرها عن حكاية الجريح، الذي تفاجأ بكونه هو نفسه أمير باري. كاترينا قديسةٌ حقيقيةٌ، تجسدت أمامه لترشده إلى الصواب. تفاحة محرمة، لا يستطيع قطفها، ولا يريد. أبوها كذلك شخصٌ لطيفٌ، أو هكذا بدا. حديثهما عن نابولي، وكيف كانت قبل الحرب أثار في نفسه الشجن. مع بداية الليل، تركها تتلو الصلوات لأبيها الذي داهمته الحمى. إنه المصير المحتوم، والموت الذي ينتظره الجميع. كان يشعر أنه سببٌ من أسباب كل ذلك. مرارة العجز داهمته، فتركها ذاهبًا إلى حيث البرج الشمالي، واتخذ مكانه صامتًا يفكر في نهايةٍ قد تأتي قريبًا، حتى مضى ثلثا الليل، وحل طقسٌ باردٌ وضبابٌ أحاط بمدينةٍ مظلمةٍ تحولت مبانيها الضخمة إلى أطلالٍ من ظلالٍ. كبح خياله، ولحق برجاله عند البرج، يرمق الراية الخضراء التي تخفق فوق البرج ببغضٍ. سيحظى بشرف إزالتها، وكل شيء سيكون على ما يرام. سمع صوت تحركاتٍ خلف جدار البرجِ، فابتسم. يبدو أنهم يستعدون للخروج. أشار للرماة بالتصويب على الباب الخشبي الكبير.. ومن بعيدٍ، كان الصبح يُشرق من خلف جبل فيزوف، وينسابُ متجهًا إلى الأسوار الرمادية، ليمحو ظلال الليل. تجلى التحفز على ملامح إليساندرو ورجاله. صرير الباب كان مبهجًا له كأجراس الأعياد. ظهر من ورائه محمد الأغلبي، مغبرًا ينظر في وجوه الجند بوجوم، ومن خلفه بضعة رجال بوجوهٍ اختلط فيها البأسُ باليأس. أشار إليهم إليساندرو بالتقدم، فأشار الأغلبي لرجاله فألقوا سيوفهم، ثم رفع يديه لأعلى، وتقدم رجاله خارجًا، بين عيونٍ تُعلن لهم البغض والقسوة. أحاط الجند بالأسرى، وقال إليساندرو وهو يكاد ينفجرُ مزهوًّا:

- لقد منحناكم الأمان.

في هذه اللحظة، قرعت أجراس الميناء، وتوقف كل شيء عن الحركة. الأجراس تضربُ في رتابةٍ دون توقف، الكل يتبادل النظرات، وقلوب رجال الأغلبي تخفق، وجنود نابولي متوترون.. سحب إليساندروا سيفه، ووراءه فعل جنوده مثله. حالة من عدم الفهم عمت السور، مع تتابع صوت الأجراس، والطيور المحلقة فوقهم في فزع. كان الأغلبي يتلفت، محاولًا رؤية أي بادرةٍ للهجوم من أي الطرفين، فلا يجد. ضوء النهار مرَّ فوقَ المنازل والحارات متجهًا نحو شاطئ البحر، وأخيرًا تحرك إليساندرو وتوجه لحافة السور، ليرى بنفسه ماذا يحدث. فوجئ أن المعسكر مستكينٌ كما شاهده آخر مرة، منذ انتهوا من صلاتهم. نظر بعيدًا في الغابة والجبل، ثم دار ببصره نحو البحر، يدقق النظر، فإذا بالضباب المتقهقر أمام أشعة شمس الصباح الذهبية يكشف عن أشرعةٍ كبيرةٍ تُبحر في خليج نابولي ... أشرعة سوداء!

****

قُرب مدخل الميناء، كانت عشرات من سفن الأغالبة ترسو، ثم تُسارع بلملمة أشرعتها ورفع مجاديفها عن المياه. رغم الموج، بقيت ثابتة تطفو قبالة ساحل المدينة، والرايات السوداء تخفق فوقها في تحدٍّ للمدينة المرتعدة. صارت نابولي بين فكيْ العرب الآن.. الأغالبة وأسطولهم الذي لا يُقهر، وجند باري الفرحون بالمدد البحري. كانت تلك بشرى أبي المغوار إلى سَودان يُخبره أن طلحة السكندري أبحر إلى صقلية، وأنه آتٍ بمددٍ لا قبل للروم به. لم يعد سقوط المدينة سوى مسألة وقتٍ فقط، وها هي ذي راية الأغلبي تخفق فوق البرج الشمالي.

مشهد السفن الضخمة أغرق ما تبقى من أملٍ في قلوب أهل نابولي. لم يتوقع أحدٌ قدوم المدد عبر البحر. انفضّ اجتماع قادة المدينة، والذي شهد الكثير من الصخب، وضرب اليأس جذوره في عقولهم، يعززه الوباء الذي يحصد كل يوم المزيد من الضحايا. إن بقي هذا الوضع، لن يكون بالمدينة أحياء مع حلول الشتاء. بقي سيرجيوس في برج قلعته البحرية، بعد أن خرج الرجال حاملين الأسى. لقد خسر الحرب، كما خسر حلفاء الأمس. لم يكن بمقدوره رفض طلب البابا، الذي جلب على مدينته الخراب، وسوف يُقطع رأسه نظير خيانته للعهد. تزاحمت الغيوم فوق صواري سفنٍ أتت للفتك بموطنه. الإحساس بالعجز يكاد يُعجل له بالموت. كان عقله يُعيد ما قاله ذلك الفتى إليساندرو:
التفاوض هو الحل الوحيد للخروج من المأزق، ووجود أسرى سيمنح الجميع حلًا مناسبًا للأزمة.
خرج من غرفته متجهًا إلى ساحة القلعة، تُتابعه الأعين، بينما عيناه لا تتزحزحان عن راية باري الخضراء التي تخفق على أطلال البرج الشمالي..

في غرفةٍ رطبةٍ مظلمةٍ، تجرَّع محمد الأغلبي كلمات رجاله القاسية، بعد أن جاءت البشارة وقد سلموا أنفسهم للروم. اللوم عليه وحده، لأنه من أصر على الاستسلام، وأمرهم بإلقاء أسلحتهم وفي نفس اللحظة أتتهم الأجراس بإشارةٍ استعجلوها واستوحشوا انتظارها، فأصابهم عار الاستسلام لقيد السلاسل حول أقدامهم ومعاصمهم. لقد رأوا سفن الأغالبة بينما يُقادون إلى محبسهم، يقذفهم العامة بالحجارة والثمار المتعفنة، بينما تدفعهم أيدي الجند، وقد أمعن القائد الشاب في إذلالهم رغم وعده بالأمان.

مع قرب مغيب الشمس، كانت قوارب صغيرة تتجه إلى الشاطئ، تحمل على متنها طلحة السكندري وقائد أسطول الأغالبة زياد بن الأغلب. وعلى الشاطئ الرملي، كان سَودان وبعض رجاله يقفون في انتظارهم بالبهجة والترحاب. لقد كان مجيئهم روحًا نفثت من جديدٍ في جسد جيش باري. سارع الرجال في حمل المؤن إلى معسكر الجيش، فيما امتطى سَودان ومرافقوه الجياد إلى ربوةٍ عاليةٍ تطل على المدينة، يشرح للقائدين كيف سارت الأمور خلال أسابيع الحصار والحرب، وحين بدأ حديثه عن الأغلبي وفرقته المحاصرة، كانت الراية على البرج الشمالي تنزع. عقد سَودان حاجبيه وضاقت حدقتاه حين رأى ما يحدث:

- أظن علينا العودة إلى المعسكر الآن.

****

العجزَ والقهرُ أعدى عدويْن، إذا غرسا رماحهما في جسدٍ أنهكته الحرب، فالنهاية تقتربُ. قرب حديقة جدباء، جلس إليساندرو يعبث بطرف سيفه بمجموعةٍ من أوراق الأشجار الجافة، ويرمي بصره إلى سفن الأغالبة التي تُهيمن على الأفق. في هذا البحر ألقى جسد والد كاترينا. جزعها وعيناها اللتان تفيضان بالدمع منحاه شعورًا لم يمر به من قبل. أدرك في تلك اللحظة أن الحياة قصيرةٌ جدًّا، ولعله كان مخطئًا حين أحرق قرى أفيليانو. تذكر الدوق، كيف اختار تسليم ساليرنو. لقد حافظ عليهم بفعلته هذه، كما أنقذ حياة الكثيرين من الموت المحتم. بداخله نداء يحثه على العودة إلى سان فيلي. يشتاقُ لحضن أبيه وما تطهوه أمه. ماريا كانت على حق دومًا.. هناك شيء ما في روح كاترينا يُشبه ماريا. إن كُتبت له النجاة، سيعتذر لها عما بدر منه، كما اعتذر لكاترينا. صار موقنًا أن كل شيء سينتهي خلال أيام. على الحرب أن تتوقف، حتى وإن كانت الهزيمة حاضرةً اليوم.

اتخذ طريقه إلى منزل كاترينا، عبر حاراتٍ تملكها الكآبة، يجر قدميْه وقد تملكت منه أيضًا. أفاق من شروده على هاجسٍ أن هناك من يُراقبه. أهي الظلال، أم أرواح من قضوا نحبهم خلال فترة الحصار، أم هو خواء البيوت والأنين المتناثر في كل مكانٍ لا يتوقف؟ رحل الكثيرون، لم يتركوا أي بصمةٍ في تلك الديار التي نهبها الموت. سينسى الناس كل شيء، حتى الأموات، حين ينزاح الحصار. لمح عجوزًا التحفت بحرملة زرقاء بلون السماء، كانت لجندي سابق، فالنسر الذهبي يزين جزءًا منها. كانت تجلسُ في ركنٍ جافٍ، وعيناها الزرقاوان تشعان بالحياة رغم الموت حولها، وثغرها مبتسمٌ رغم تجاعيد بعدد سنوات عمرها. لم يرها في هذه الحارة من قبل؛ أم أنه تاه ووصل لبقعةٍ من المدينة لم يسبق لقدمه أن وطأتها؟! توقف بالقرب منها..

- سيدتي هل تحتاجين لمساعدة؟

اتسعت ابتسامتها، لتُظهر أسنانًا كاملة، لم يمسها طول الأمد بعطبٍ:

- شكرًا لك أيها الفارس..

لوح بيده وقد أشاح بوجهه:

- لستُ فارسًا.. أنا مجرد فتى قروي، كُتب عليه أن يكون هنا.

أومأت برأسها:

- من يعرفْ حقيقته يستحق لقب فارس أو نبيل.. قليلون هم من يعترفون بالحقيقة، وواهمٌ من يظن أن السيوف المصقولة والدروع المذهبة وتلك الجياد المُسومة هي ما تصنع النبيل.

- ماذا؟!

- النُبل هو أن تكون صادقًا وقت الأزمات. أن تُدرك ماهية الأمور، وتمنح روحك الخلاص، بأن كل شيء مكتوبٌ ومقدرٌ، وحين يتعلق الأمر بالحياة فامنحها السبيل..

- من أنت؟

نهضت متثاقلةً تستند على عصا غليظةٍ:

- لقد قلتها أنت منذ قليل.. لقد كُتب عليك أن تكون هنا. وأنا أيضًا منحني الرب الأسباب لأكون هنا.. لأقول لك أن "أَعْطُوا تُعْطَوْا، كَيْلًا جَيِّدًا مُلَبَّدًا مَهْزُوزًا فَائِضًا يُعْطُونَ فِي أَحْضَانِكُمْ. لأَنَّهُ بِنَفْسِ الْكَيْلِ

الذِي بِهِ تَكِيلونَ يُكَال لكَمْ".

أنهت كلماتها، ومرَّت إلى جواره، وبقي هو جامدًا يُحملق في العدم. كيف للعجوز الشريدة أن تحفظ كلماتٍ من الإنجيل؟ لطالما ردد الأب ليو على مسامعه هذه الآيات حين كان صغيرًا، ودومًا ما كان يهزأ بتلك الكلمات، فهو ابن النبيل يكيل ولا يُكال له. أحسَّ ببرودةٍ تسري بجسده، وتهاوى قلبه، حين التفت ولم يجدها في الحارة. زاغت عيناه، أطلق ساقيْه للريح.

ركض كما لم يركض من قبل. بأنفاسٍ متلاحقةٍ راح يطرق باب كاترينا، وما إن انفرج ليظهر وجهها، دفعه بقوةٍ، ودلف إلى الداخل. رأت في وجهه الهلع، فأغلقت الباب ودخلت خلفه مرتاعةً، وعيناها لم ينضب دمعهما بعد:

- ماذا بك إليساندرو؟!

كان يرتجفُ.. دمعت عيناه، فمنحها سببًا للبكاء. تقدمت نحوه، واحتضنت رأسه. أتراه يوم عذابها الأبدي؟ يوم رحل أبوها، ومن ظنته قويًا ها هو ذا يبكي بين يديْها لسببٍ تجهله!.. انتبه لنحيبها، فتوقف عن بكائه، وفطن لما هو فيه، وسحب يدها برفقٍ فباتت أمامه:

- عذرًا كاترينا، ما كان ينبغي أن أفعل هذا.

تطلعت في وجهه بعينيْن ممطرتيْن:

- لم أكن أعرف أنك تستطيع البكاء.

ابتسم وهو يمسح وجنتيه ولحيته التي تبللت بالدمع، بينما لم تتوقف هي:

- أنا عندي سببٌ للبكاء، ولكن ما يُبكيك أنت؟

- لقد رأيتُ شبحًا.

توقفت عن البكاء وحملقت في وجهه، ثم انفجرت ضاحكةً. أخذ يرمقها مستنكرًا، بينما أخذت تقهقه، ثم نهضت بغتةً فأمسك بها:

- مجنونة أنتِ؟!

أوجعها بقبضه على رسغها، فتوقفت عن الضحك وقد انتابها الذهول وهي تنظر في عينيه:

- ما كان يجب أن أضحك.. هل سمعنا أحدٌ؟.. سيقولون إن ابنة أنطونيو تضحك عشية موته.

تبدلت ملامحها، وأجهشت مرةً أخرى بالبكاء، فظل يُحملق في تعابير وجهها التي تبدلت في لحظاتٍ عدة مرات. يفهم ما تمر به.. لم يفهم أبدًا كيف تفكر النساء، ولكنه يفهم الموت الذي أحاط بقلب كاترينا.. خطوة واحدة، وصارت بين ذراعيْه، فاحتوى جسدها، وأراح رأسها على صدره. لامس شعرها بحنو، وراحت دموعها تنساب في دفء صدره.

****

قال طلحة السكندري:

- سندخل المدينة بحرًا بينما تمطر المدينة بقذائف المنجنيق.

قال قسورة دون انفعالٍ:

- وما الفائدة من دخول مدينةٍ محترقةٍ تعج بالموتى؟ إن المرض يتفشى بأركانها وستنتقل العدوى وتفتك بالجنود. لا أقول هذا من باب التثبيط، ولكن علينا ألَّا ندخل إلى مكانٍ تفشى فيه الطاعون..

أومأ قائدُ أسطول الأغالبة موافقًا، بينما اعترض سَودان:

- سيقول القاصي والداني إن جند المسلمين هزمتهم أسوارُ نابولي.

حرَّك قسورة رأسه نافيًا:

- بل سيقولون إننا انتصرنا عليهم، وسلَّط الله عليهم المرض.

تدخَّل الفقيه سعد بن هشام:

- لقد أصاب الأميرُ قسورة عين الصواب. لقد نهى الرسول عن دخول مدينةٍ بها طاعون أو الخروج منها، حتى وإن فتحت أبوابها لنا.

قال زياد بن الأغلب مؤيدًا:

- لقد رأينا جثث الموتى تطفو بالبحر.. مئات منها.

نهض سَودان وراح يذهب ويغدو مفكرًا..

- ولكن من سيقتص لمحمد الأغلبي ورجالنا إن لم نفعل؟

لحظاتٌ من صمتٍ مرَّت، قبل أن يقول الفقيه العجوزُ:

- إنها سننُ الحرب.. وعلينا إنهاء الحصار في أقرب وقتٍ، قبل أن ينتشر المرضُ بين رجالنا، وحينها سنخسر المزيد. امنحهم العفو والرحمة، كما فعلت مع أهل ساليرنو. لقد صار بمقدورك دخول المدينة متى شئت، ولكن هل من عفوٍ يتماشى مع مقدرتك؟

قبل أن يرد أحدٌ، دخل شرحبيل إلى الخيمة وقد ظهر على وجهه القلق:

- سيدي الأمير..

أشار إليه سَودان، فتحدث الرجل:

- هناك جمعٌ من الرجال قادمون من المدينة المحاصرة..

اتسعت عيون الجميع، والجندي يُتابع حديثه:

- إنهم يحملون راية محمد الأغلبي معهم.

حدث كل شيء سريعًا. فوجئ سَودان ومن معه بوفد المدينة حاملًا راية الاستسلام البيضاء، ومن خلفهم يسيرُ الأغلبي وبعض الرجال. عم الترقب أرجاء المعسكر، الكل ينتظر ما سيعلن عنه اجتماع الوفد مع سَودان. كان أميرهم في هذه اللحظة يجلسُ راضيًا بأن تنتهي الحرب دون أن ينسحب خائبًا. استمع لحديث الأسقف مانويل راعي كاتدرائية نابولي، يحمل طلب وقف الحرب والموت، فالطاعون الأسود يتفشى، والرب يأمرُ الكل في كل الشرائع بحفظ الحياة ورحمة المرضى. كان ما يحدث أفضل كثيرًا من أي اختيار غيره، وهو بداخله يعلم أن رجاله أرادوا هذا الصلح من قبل أن يأتيهم وفد نابولي. انحنت جباه قادة نابولي وكبيرهم يقدم له راية الأغلبي، التي كانت حتى المغيب تُرفرف فوق أحد أبراج المدينة، فأعلن قراره أخيرًا بابتسامةٍ كبَّر لها أصحابه، فسرى ضجيجُ الفرحة يعم أرجاء المعسكر، وحمل الجنود الأغلبي ورفاقه على الأعناق. لقد استسلمت نابولي كأختها ساليرنو، وانتصرت باري.

رحل وفد نابولي حاملًا الشروط إلى المدينة. الجند فوق الأسوار أجهشوا بالبكاء لا يعرفون أحسرةً أن استسلموا أم أملًا بانتهاء الطاعون. رأوا من الأعلى فرحة السراسنة وعودة الوفد المُكون من اثني عشر رجلًا، يشقون طريقهم إلى الكاتدرائية. الأسقف مانويل نزل عن حصانه، وصعد درجات الكاتدرائية، ومن خلفه قادة المدينة. ألقى نظرةً طويلةً على الجموع أمامه، والذين سكنوا في انتظار كلامه. لم يكن مانويل يعرف ماذا سيقول.. لم يكن أحدُ سواه يصلح لمهمة إبلاغ القوم باستسلام مدينتهم. المسيح نفسه لم يجد غضاضة في مجالسة ومحبة العشارين، الذين يقبضون الجزية ويسلمونها للرومان، كما جاء في إنجيل متى، كما أنه اصطفى متى العشار ليكونٍ أحد رسله الاثني عشر. كان مقتنعًا أن المسيح من اختاره لهذه المهمة، وكان الوفد اثني عشر رجلًا كما رسل المسيح. رغم ذلك، فالأمرُ صعبٌ، إذ كيف يُعلن للناس أنهم سيدفعون الجزية مقابل السلام.

لحظاتٌ مرَّت، قبل أن يُجبر فاه على النطق:

- يا أبنائي، إن الاستسلام لا يعني الهزيمة. لقد تفاوضنا على أن تنتهي الحربُ دون أن يدخلوا مدينتنا؛ وهذا انتصارٌ لنا. لم نمكنهم من رقابنا، فقد دفع رجالٌ شرفاء الثمن بدلًا عنا. لئن دخل الشتاء على نابولي، سيقتل الطاعون المزيد من الأبرياء.. ولذا، اشكروا الرب أن انتهت الحرب وزال الحصار.

ارتفع صوتُ الهمهمات بين الجموع، فاستجمع قوته، وأكمل إعلانه:

- لكنٍ علينا دفع جزية مقدارها عشرون ألف مكيال فضة، مقابل ألا يدخلوها.. فقط ستكون نابولي قاعدةً لأساطيل الأغالبة.. كما كانت من قبل. وسيدفع النبلاءُ وقادة المدينة ببعض أولادهم ليكونوا في ضيافة أمير صقلية، ستُباع محاصيل سالرينو وإيفيلنو إلى إمارة باري وقواعدها في إقليم كمبانيا

والجنوب بأكمله.. وسنرسل إلى باري اثني عشر مهرًا في نهاية كل موسم حصاد.

****

حساءٌ دافئ، وفراشٌ وثيرٌ، والنجاة من الأسْر، وانتهت الحرب. لكن الأغلبي لم يخرج من خيمته منذ عاد، ولم يحضر مفاوضات نبلاء نابولي مع سَودان. كان وحيدًا، رغم وجود المخلصين حوله، الفارس المغوار طريح الفراش، وقد مات صباح اليوم أحدُ من كانوا معه. الوباء يُطاردهم بعد النجاة من غدر العدو. في اليوم التالي، أصبح وقد انتشرت البثور والدمامل بجسده المحموم، وصار يهذي متمتمًا بأسماء أولاده. كان حين يفيق من الحُمى، يسمع مَن حوله يقولون إن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه؛ ولكن نفسه تُوسوس له أن ذلك جزاء فعلٍ كان يجب ألَّا يُقدم عليه.

أمر سَودان بالرحيل عن هذه الأنحاء قبل تفشي المرض في الجند، ولكن لملمة المعسكر وتقييم وضع الجرحى والمرضى، وكذلك استقبال الجزية من المدينة المستسلمة، كل ذلك كان يستلزم بعض الوقت. كان الأطباء وأغلب مساعديهم قد هلكوا يوم حريق مخزن المؤن، وصارت أباريق وقوارير الدواء رمادًا. حار في أمر الأغلبي ورجاله، أيرحل بهم إلى الأطباء، أم يُبقيهم كيلا يحملوا الوباء عبر طريق العودة. مع ضوء النهار التالي، فُتحت بوابات نابولي، وخرجت منها إحدى عشرة عربة، يجرها رجالٌ ضعفاء، تحمل الجزية. وما إن استلم شرحبيل العربات، حتى كان الرجالُ قد أنهوا استعدادات الرحيل. فأطلقهم سَودان إلى طريق الرجوع، تحت قيادة قسورة، أما هو فقد عزم الذهاب إلى حيث الطبيب الماهر كاراس في سان فيلي.

بوابة نابولي الشمالية أيضًا كانت مكتظةً بالراحلين عن المدينة. من داهمتهم الحرب وهم بداخلها، ولم يستطيعوا الخروج، آن لهم أن يهربوا من المرض. بينهم كان إليساندرو، الذي منحه الدوق سيرجيوس لقب فارس. سيعود إلى قريته، بعدما رأى الكثير، ووجد السبيل إلى ذاته. جيش باري يتحرك أمامه على الجبل كثعبانٍ يلتوي على الطريق. حجبت السحب شمس الظهيرة، وهو يمر بين حشودٍ من أهل نابولي يتوجهون شمالًا. سيقص على أبيه الكثير، وسيُخبره بأمر ذلك الأمير الذي كان في منزلهم يومًا. خرجت معه كاترينا، وبضع رجال لم يعد لهم مكانٌ يذهبون إليه، بعد انقطاع الأخبار عن الدوق ماركيزيو. لكز جواده يُسرع به بين الصفوف، ومن خلفه كاترينا التي حملت معها آخر ما تبقى لها في نابولي: قلادة أمها، سيف أبيها، وجعبة من الملابس، تاركة منزلًا أغلقت بابه بإحكام، لعل هناك عودة. ودَّعت أطفال الكنيسة، وتألمت لرحيلها عن المدينة، لكنها قبلت الزواج من فارسَها الوسيم، وعليها أن تمضي قدمًا، فالحياة لا تنتظر من يقبع داخل صومعة ذكرياته، وستذهب معه إلى مكانٍ بعيدٍ عن الحرب والموت.

****

رغم شحوب الخريفِ، عجَّت ثنايا الغابة بالحياة. السناجبُ تتقافزُ بين الأغصان الجدباء، وفي السماء الزرقاء تتحَيَّنُ الجوارحُ لحظة الانقضاض. عصفورٌ صغيرٌ استفتح بأغنيةٍ، راح يشدو بها مرفرفًا. الأيائل الذهبية، ذكَّرته بآخر رحلة صيد له. كان البردُ قارصًا حينها، أو لعله الموت الذي طاف برفاقه. طيفُ شعيب كان حاضرًا خلال رحلته الطويلة من نابولي إلى سان فيلي. هناك مهمةٌ لن يرتاح إلا إذا أتمها. أمر الجيش بالعودة إلى باري، بينما اتخذ دربه إلى القرية التي آوته يومًا. لم يُبال برفض قسورة. كان عليه إحضار الدواء لنجدة الأغلبي ورجاله، ثم يلحق بهم بعد أن يأتي بالطبيب وصناديقه. أراد أيضًا أن يرى الأوضاع عن قربٍ في قرى كمبانيا قبل حلول الشتاء، رحلة لم يُرافقه فيها سوى رجلين، أنهكهما السفر المتواصل. أمَّا هو، فلم يشعر بتعبٍ ولا نصبٍ، فقد عقد العزم على التوجه إليها منذ وطئت قدماه مُحيط نابولي، وها هي ذي الرياح تحملُ عطرها عبر الغابة.

حلَّ المساءُ ومعه الإنهاك، فرحم رفيقيْه وارتضى الهدنة. جلس رفيقاه يتسامران ويشويان الأرانب التي اصطاداها، وحلَّ هو اللجام عن فرسه فصارت تركضُ حرةً حوله، وترتوي من نبعٍ قريبٍ وتعود إليه لتصهل، ثم تُكمل جولتها. كانت كنصلٍ من نورٍ يشق الغابة الحمراء.. كانت تُذكره بماريا، كأن فيهما روحًا واحدةً. قضى ليلته في متابعةِ الشهب تسبقه إليها، ولم يغمض له جفن، حتى امتطى ورفيقاه الجياد منطلقين إلى مبتغاهم. حمحماتُ الخيل ووقع حوافرها زادت من ضربات قلبه، رافقت الذكرى ريحٌ باردٌ عصف بقلبه حاملًا روحه إلى حيث تجلس هي أمام بركةٍ تطفو على سطح مياهها الراكدة الأوراق الجافة. ذات البقعة التي جمعتهما وحدهما أول مرة. لم تشعر به يُراقبها بين الآجام الجافة. كانت زهرةً نضرةً في غياهب غابةٍ كُسيت أرضها بحمرة الخريف. عزف خرير الجدول على أوتار قلبه، وهو يلمح أناملها تعبثُ بشيءٍ ما. أزاحت خصلات شعرها الكستنائي جانبًا، وقد بدا على وجهها الانهماك فيما تفعله. اقترب متسللًا كوشقٍ صيادٍ، فرأى حروف اسمه رُصت بالحصى المُلون في تناسقٍ، كما كتبها في نفس البقعة من قبل:

- كنتُ أعلم أنك ستقرئينها يومًا.

انتفضت مكانها وقد اتسعت عيناها. أبى عقلُها أن ينفض فكرة الحلم، ولكن قلبها ارتجف مع حروفِ اسمها السهل الذي نطق به.. "ماريا". كان يقفُ أمامها مباشرةً. ابتسامة رطيبة زينت وجهها الخَجِل، وتسارعت نبضاتُها وقد فاضت السعادةُ من عينيها، حين جثا على ركبتيْه ليكون في مستوى جلوسها، وأتاها صوته ناعمًا كما لم تسمعه من قبل:

- لقد عُدت يا ماريا.

خيَّم الصمتُ وتحدثت عيناهما. لم تتوقع أن يحدث هذا اللقاء. حتى في أحلامها كان مختلفًا. هالةٌ من دفءٍ أحاطت بهما، وهو يُطيل النظر في وجهها وعينيْها الواسعتيْن اللتين سلبتا روحه. كانت تظن أنه من المستحيل أن يعود، ولكنه حقق أملها، وعاد. في ترددٍ، رفعت يدها ولامست وجهه بأناملها.. كان حقيقةً وليس حلمًا. اغرورقت عيناها بدمع فرحة لم تتوقعها، ولم تشعر بنفسها إلا وقد اندفعت إلى صدره، وأحاطته بذراعيْها وأغمضت عينيْها، وانهارت باكيةً. لم يُفاجئه فعلها، بل تلقاها بين ذراعيْه، وتنفس عطرها الدافئ، أحسَّ أنه قد ملك الدنيا ولا يريد شيئًا آخر. جميلٌ هو ذلك الشعور الذي يطرق كيانه لأول مرةٍ. لوهلةٍ بقيا على هذا الوضع، قبل أن يزيحها برفقٍ عن صدره. رفعت رأسها لتطالع قسمات وجهه.. عيناها الحالمتان جعلتاه يبتسم ويشيح بوجهه. اعتدلت في جلستها خجلة، وعيناها تراقبان صفحة البحيرة. أغمضت عينيها فرحة، وصوته يُطرب أذنيها:

- لم أكن أعلم أن للحياة هذا المذاق.. لم أكن أعلم أن الأرواح تلتحم حين تتعانق القلوب.

عادت ببصرها إليه.. كان قلبها جذوةً موقدةً وسط أمواجٍ متلاطمةٍ. راودها الدمع، ولكن الخوف من الانكسار هيمن عليها، خرج صوتها خافتًا:

- حدثتني نفسي أنك ربما لن تعود، فالحربُ مشتعلةٌ في نابولي، ويقولون إنك انتصرت في ساليرنو. فقدت الأمل بعودتك حين علمت بحصارك لنابولي.. وحين رأيت..

قاطعها:

- الحربُ الوحيدةُ المشتعلةُ هي تلك بقلبي.. ماذا فعلتِ بي يا ماريا لأشتاق لك هكذا؟ كيف استطاع وجهك أن يزيح الكواكب عن السماء، ويبقى وحده من يُنير دربي.

اكتست وجنتاها بحمرة الخجل، فابتسم وأكمل:

- ماريا، أنت الفجر الذي قطعت الطريق إليه ليغمرني ضوؤك. لم يُفارقني طيفك حتى في خضم الحرب.

- ظننتك نسيتني، حتى جاء رسولك بالهدايا..

ابتعد عنها قليلًا، وأزاح بُردته البنية عن كتفيه، ليسحب من حول رقبته وشاحها القرمزي. وضعت يدها على فمها تكتم صرخة فرح لم تتجاوز حلقها، وهو يُحدثها:

- ما زال عطرك يفوح من ثناياه..

- سَودان.

نطقت بها، فاتسعت عيناه دهشةً. ضحكت من هيئته، فانتبه باسمًا:

- عذرًا، فلم أسمع هذا الاسم بهذه العذوبة من قبل.

كان يتلذذ برؤيتها تستحي من إطرائه وغزله، الذي هربت منه ثانية بسؤاله عن الهجان، أين هي..

- إنها هناك خلف التل، تنتظرني مع رفاق رحلتي. لقد انتهت الحرب أخيرًا يا ماريا، و...

اتسعت عيناها وهي تتذكر أخاها إليساندرو. انتهت الحرب ولم يعد أخوها. صُمت أذناها وعقلها يستعرضُ أسوأ الاحتمالات، فالحربُ لا ترحم. كان سَودان يُحدثها عن سبب كذبه عليهم في البداية، وكيف كانت رحلته إلى باري ومطاردة أخيها له، وهي بين هائمةٍ في وجهه وشاردةٍ في خوفها على مصير إليساندرو. توقف عن حديثه وهو يُحدق في وجهها الوجل:

- ما بك ماريا؟

اغرورقت عيناها بالدمع:

- لم يعد أخي من الحرب بَعد.

صمت لبرهةٍ وقد عقد حاجبيه. حاول أن يتذكر رؤيته في المعارك، ولكن صورته كانت قد تلاشت من ذهنه منذ زمنٍ:

- لا أعتقد أني رأيته خلال المعارك. حين أعود، سأندب بعض رجالي للسؤال عنه في نابولي وسالرينو. لا تقلقي ماريا، سيكون على ما يرام.

ارتسم على وجهها الأسى وهي تسأله بعفويةٍ:

- هل ستذهب مرة أخرى؟

خيَّم السكونُ على الغابة من حولهما. سؤالها حمل مرارةٍ ملأت قلبه، فجاهد ليرسم ابتسامةً تُطمئنها، ولكنه لم يستطع. فشل في إجابة سؤالها، الذي كان بذرةً لمزيدٍ من الأسئلة ارتوت بوجع الفراق مجددًا، ونفسه تحدثه: ماذا بعد مجيئك إلى هنا يا سَودان؟

صمته كان نصلًا غُرس ببطء بقلبها. سيرحل مجددًا دون أن يأخذها معه. تذكرت كلمات عمها كاراس: "الحب زهرة نبتت في حديقة من الأشواك"، لطالما نصحها أن تعيش الواقع، إذ لا جدوى من ملاحقة السراب. مدت يدها وقبضت على يده الغليظة. لم يكن سرابًا، بل هو دفء يتسلل إلى روحها. ضم أصابعه على يدها، وهو ينظر في عينيْها:

- سأتحدث إلى والدك، وأتمنى أن يقبلني زوجًا لابنته.

صارا يتسامران تحت شجرة الصفصاف ذات الأفرع الخاوية، وخلف جذع شجرةٍ سميكٍ، وقفت فيولا تتلصص عليهما وقد امتلأت نفسها غيرةً وسخطًا. كيف لماريا التي يدعوها أهل القرية بالقديسة أن تجلس بين يدي ذلك العربي، بينما أخوها لم يعد من الحرب؟

- كنتُ أريد عمك كاراس، أتراه استيقظ الآن؟

رمقته بنظرةٍ صارمةٍ وقد تبدلت ملامحها وهي تُتمتم:

- كنتُ أحسب أنك عُدت من أجلي فقط.

ابتسامته لم تُوقف سيل الغضب الأنثوي اللذيذ وهي تسأله:

- فيمَ تُريده؟

- لقد قُتل الأطباء يا ماريا. حرق جيش نابولي مخزن المؤن، ومن فيه من الأطباء ومساعديهم، وتلفت قوارير الدواء. أحتاج عمك لنجدة صاحبي محمد الأغلبي، أحد أخلص قادتي، لا أدري إن كان خبر الطاعون قد وصلكم في سان فيلي.. الحربُ لا تنتهي بسكون السيوف في أكِنَّتها يا ماريا، بل تترك بعدها جروحًا أطول كثيرًا من زمن القتال.

انتظرتْ حتى أنهى حديثه، قبل أن تنطق في ترددٍ:

- لقد مرَّ بنا منذ يومين جيشُ دوقية بنفينتو باتجاه نابولي.

انتفض وقد عقد حاجبيْه:

- ماذا؟!

- جيشٌ جرارٌ، يعج بالفرسان والمشاة. كما أن النساك والرهبان انضموا له لحث الجند على القتال. لقد ذهبوا لفك حصار نابولي، أرسله البابا أدريان.

تقاذفته رياحُ القلق. كان يعلم أن قسورة فارسٌ ماهرٌ، وسينجح في العودة بالجيش لباري، ولكن ماذا إن تقابل الجيشان؛ ولمن سيكون القرار؟ ظل ينظرُ في عينيها حائرًا في أمره، فتنهدت وقالت:

- هل أذهب لإخبار عمي أنك هنا، أم تريد الذهاب إليه؟

****

تابعها وهي تمضي.. ظبية تخطو بدلالٍ يُثير في قلبه فرحًا. غابت عن نظره، فراح يتجول حول البركة. ألقى بحصاةٍ بوسطها تمامًا وهو يبتسم. لقد نال الحب من قلبه. حين رآها، تمنى ضمها لصدره، ففوجئ بأمنيته تتحقق في الحال. صهيل خيلٍ أخرجه من حالته الحالمة، وفوجئ بأحد رفيقيه يلوِّح له من بعيدٍ، فأسرع ناحيته.

- ماذا هناك؟

- هناك درزنة من الفرسان على الأقل قادمون عبر الغابة.

عقد سَودان حاجبيْه:

- حسنًا، ما إن يأتي الطبيبُ، سنذهب في الحال.. يجب أن نتم ما جئنا لأجله.

في بيتٍ كاراس، سقطت قارورةٌ لتنكسر مُحدثة دويًّا، لم يبال به العجوز وهو يصفق الباب بقوةٍ. حمل صندوقًا ممتلئًا عن آخره بقوارير الدواء، بينما حَملت ماريا جعبةً تحوي أكياسًا صغيرةً من الأعشاب. كان يحث الخطى مبتهجًا رغم حمله الثقيل. عرف من النظرة الأولى أنه عاد، إذ رأى في وجهها ضوءًا عجيبًا أغناه عن سماع الخبر منها. كانت تحاول أن تُجاريه في سرعته، أنفاسها مُتلاحقةٌ وقلبها ينبضُ بعنفٍ، فالتفت إليها كاراس ضاحكًا:

- كنتُ أظن أن الحب يصنع المعجزات.

ضحكت:

- بل يقطع الأنفاس.

وصلا إلى حيث كان، فلم يجدا أحدًا. أكانت ماريا تتوهم، وقد أضاع العشق عقلها؟.. هكذا حدثته نفسه وهو يستدير إليها، ولكن سَودان كان أمامه. لقد تغيرت هيئته عما عرفه. كان مبتسمًا وإلى جواره تقف الهجان البيضاء، ومن خلفه رفيقاه. أنزل حمله أرضًا وأسرع نحوه فاتحًا ذراعيه:

- كنتُ أعلم أننا سنلتقي مرةً أخرى يا صديقي.. كنت أعلم.

تعانقا بحرارةٍ، بينما أسرعت ماريا متهللةً إلى الفرس، التي رفعت حافريها مبتهجةً، ثم أقبلت عليها، فعانقت ماريا رأسها، وتخللت أصابعها سعفها الناعم الأبيض وهي تهمس في أذنها:

- لم يجدل لك أحد الجدائل من بعدي يا جميلتي.

كان رفيقا سَودان ينظران إلى حديث ماريا مع الفرس ويُتابعان حرارة كاراس في اللقاء، فيعجبان، ويبتسمان، وتتضارب الأفكار في رأسيهما:

- علمتُ بأمر نابولي، وما صار فيها. أخبرتني ماريا أن الوباء ظهر في رجالك أيضًا..

أومأ سَودان برأسه في أسى:

- نعم، كانوا أسرى داخل المدينة، فانتقلت إليهم العدوى.. قيء.. إسهال.. بثور.. ولكن أظن الأمر في بدايته.

ربت كاراس على كتفه:

- لا تقلق يا صديقي، سأفعل ما بوسعي، ولتكن مشيئة الرب.. هل علينا الذهاب الآن؟

تلاقت عينا ماريا وسَودان. سؤال كاراس كان كافيًا ليروي الخوف في روحيهما. حمل أحد الحراس الصندوق عن كاراس، بينما أشار إليه الآخر قائلًا:

- ستركب معي.

التفت سودان، وأسرَّ إلى ماريا بسرعةٍ:

- سأعود من أجلك وحدك قريبًا.

اغرورقت عيناها بالدمع، وهي تهمس:

- أخاف فقدانك للأبد.

تمنى لو يُحكم يديه حول رأسها، ويقطف قُبلةً من جبينها الوضَّاء، ويشعر برجفتها بين يديْه.. هرب من أماني العشق إلى لجام فرسه، يَهم بامتطائها، حين سمع صخبًا راح يُحيط بالمكان. استدار نحو الصوت وهو يسحب سيفه، وجذب ماريا بسرعةٍ خلف ظهره. صهلت الفرس، وتحفز رفيقاه، وفي ثوانٍ أحاط بهم أهلُ القرية يحملون المعاول وأشواك الحرث والهروات، ووحده سباستيان الحطاب يُمسك سيفًا قديمًا. لمحت ماريا فيولا تقف وراء جمع عيونهم متقدة بالكراهية، وابتسامة صفراء

على وجهها، ثم ظهر لورينزو. أفسح القرويون له الطريق، ليقف أمامهم جميعًا، يحمل سيفا قصيرًا، وبخطواتٍ ثابتةٍ أخذ يقترب من سَودان:

- كان يتوجب عليَّ قتلك يوم رأيتك أول مرة. أهكذا ترد الجميل، لقد آويناك وداويناك في منزلنا؟

توقف لورينزو على مسافةٍ قريبةٍ منه وهو يُكمل حديثه بصوتٍ هادئٍ:

- أنتم بعيدون عن دياركم أيها العربي.. ما الذي يمنعني من قتلكم الآن؟

- لقد جئنا في طلب الطبيب كاراس، وسنرحل سريعًا أيها النبيل لورينزو..

رمى لورينزو أخاه بنظرةٍ مقيتةٍ، حوَّل بعدها بصره إلى ماريا الخائفة:

- خذوه وارحلوا، وأعطني ابنتي يا هذا.. تعالي هنا يا ماريا!

احتمت ماريا بجسد سَودان، وهي ترتجفُ من نظرات أبيها جامد الملامح وهو يشير لها: تعالي يا بُنيتي!

قال كاراس باسمًا:

- يا أخي، لمَ كل تلك الأسلحة والرجال؟

نزل من فوق الجواد، وخطى ناحية لورينزو، الذي صرخ به:

- اذهب عني أيها المهرطق..

جحظت عينا كاراس وهو ينظر في وجه أخيه:

- لمَ تفعل هذا؟

- لا شأن لي بك؛ إنما أريد ابنتي.

تقدم كاراس نحوه مرةً أخرى وهو يهم بالكلام، فما كان من لورينزو إلا أن رفع سيفه ليهوي به على رأس أخيه!

****

في سهلٍ خاوٍ من الأشجار، قرب مدينة بوتينزا، كانت أعمدةٌ من الدخان تُعانق سماء مزدحمة بالغربانِ والنسور، ورايات حمراء وبيضاء مخضبة بالدماء دهستها قوائم الخيولِ، ومئات القتلى مبعثرين وسط الدروع المهشمة والسيوف المطموسة في الطمي. الخيامُ المحترقةُ صارت رمادًا أسود

يلوث حواف برك من الدماء. منذ ساعاتٍ، كان هنا جيش دوقية بنفينتو، الذاهب لنجدة نابولي. مددٌ تأخر كثيرًا، ولم يكن قادته على علم بأن الحرب قد انتهت. قضوا ليلتهم في ذلك السهل المنبسط، وحين أتى الصبح كانوا مُحاصرين مِن جيش باري العائد من نابولي. في البداية، أرسل قسورة إلى قائد جيش بنفينتو يُخبره بالتصالح الذي تم، ويدعوه إلى التراجع، ولكن الأخير أبى ونحر الرسول. لم يكن يعلم أن جيش المسلمين أكثر عددًا وعُدةً، وظن أنهم مفرزة صغيرة تجوبُ الأنحاء. من يقتل رسول الجيش يدفع الثمن غاليًا، وقد دفعه. مات أغلب رجاله، ومن بقي حيًّا هرب إلى الغابة القريبة. بعد معركةٍ شرسةٍ قادها قسورة ببسالةٍ، ثم راح يبحثُ بين الأسرى والجرحى عن وجه القائد الرومي، ولكن أحد الأسرى أخبره أن القائد هرب مع ثلة من الفرسان نحو الشمال..

- هل سنطاردهم؟

جاءه صوتُ شرحبيل الكلبي يسأله.

- لا، سنكمل مسيرنا إلى باري، على أملٍ أن نلقى الأمير سَودان قرب النهر.

- ما كان عليه الذهاب في تلك الرحلة.

لكز قسورة جواده ليتحرك بخفةٍ بين الجند، وردَّ سؤاله بسؤالٍ:

- كيف حال الأغلبي وبقية الرجال؟

لم يرق لشرحبيل تجاهل قسورة لحديثه. أشار باتجاه الجنوب إلى عرباتٍ خشبيةٍ تجرها البغال وسط الجند:

- المرضُ يسلب قواه، ورغم ذلك كان يريد أن يُشارك في المعركة.

قال قسورة:

- كما عهدناه دومًا.. أتمنى أن يعود سَودان سريعًا ومعه ذلك الطبيب.

حثَّ شرحبيل جواده على التقدم:

- أنت من وافقته على هذا يا قسورة.. وحدك من تقف في جانب سَودانٍ دومًا.. ولكن هل فكرت في صعوبات طريق العودة؟ إن فلول الروم يتجهون شمالًا، وقد يقع ما لا تُحمد عقباه هنالك.

- وماذا ترى يا شرحبيل؟ إن كانت حياة أميرك في خطرٍ، فلمَ لا تذهب وتُنجده؟

زوبعةٌ من الحنق جابت صدره جراء كلمات قسورة اللاذعة. صاح قسورة:

- مَن يُريد منكم التطوع للذهاب شمالًا لتأمين طريق الأمير سَودان، فليتقدم تحت راية شرحبيل الكلبي..

اكفهر وجهه وهو يُتابع حديث قسورة الذي أصبح أقل حدة:

- قُدهم إلى الشمال أيها الأمير، ولا تعد إلا ومعك سَودان.

اقترب منه هامسًا:

- وتذكر يا شرحبيل أني أيضًا من أتيت بالأغلبي معنا، رغم رأي سَودان وابن هشام ألّا يخرج الطاعون من الأرضِ التي ظهر فيها.

مضى قسورة بين الرجال، تاركًا رفيقه في بحرٍ لُجي من الأفكار. سيد الحرب.. نعم هو سيدها، فلطالما اختار أن يخوض غمار المعارك بينما يبحث الآخرون عن الأمن. كان يجد ضالته في قلب المعارك، لا في أحضان النساء. مرَّت بذهنه مشاهد متتالية لحياته الزاخرة، وها هو ذا النصر الأخير يمنحه المجد. أصاب قلبه سهمٌ من عُجب، فاستعاذ بالله من الغرور، ونفض كل ذلك عن رأسه. لولا موتُ الطبيب أبي موسى لما ذهب سَودان، ولولا حرق مخزن المؤن في حصارهم لنابولي، لما ذهب سَودان. أشفق على سَودان من أن يقول الناس إنه ترك الأغلبي للموت، ثم يُصدقون أنه من أرسله إلى البرج يوم المعركة. يعرف صديقه جيدًا، سَودان المهيبُ الذي قادهم لانتصاراتٍ عديدةٍ، ولم يترك يومًا جريحًا خلفه، لم يتخل عن الأغلبي، رغم خروجه عن طاعة أميره، واتخاذه قرار الهجوم دون مشورةٍ من أحدٍ. حثَّ فرسه للانطلاق لمقدمة المسيرة، غير ملتفتٍ للصيحات التي تثني عليه بالنجابة والفطنة وحُسن القيادة. هؤلاء الرجال قضوا شهورًا بعيدًا عن زوجاتهم وأطفالهم ودفء بيوتهم، وأخيرًا ها هم أولاء يعودون حاملين لواء الكرامة، وستظل تلك البقعة شاهدةً على مرور جيش باري فوقها.

****

في اللحظة التي هوى فيها لورينزو بسيفه على رأس أخيه، كان سيفُ سَودان يتقيه بسيفه الدمشقي. دوى الصليل، وجحظت عيون الحاضرين. كاراس لم يتخيل يومًا أن أخاه قد يهم بقتله. لورينزو أخذه الجنون، فرفع سيفه مهاجمًا سَودان، في مبارزةٍ انتهت في ثوانٍ، إذ مال سَودان جانبًا، وأمسك برسغ لورينزو وضربه بمقبض السيف في وجهه.

سقط لورينزو وصرخت ماريا:

- أبي.

ركضت نحو أبيها المُتأوه، فاحتضنته، وتطلعت إليه بهلعٍ. قطعت من ذيل ثوبها خرقةً ضغطت بها أنفه النازف..

- أبي؛ هل أنت بخير؟..

رمقها بغضبٍ دون أن ينطق. لقد أُهدرت كرامته مرتين أمام الأقنان. تأمل سَودان مشهدهما في حزنٍ، ثم أشار لرجاله بأن الأمر انتهى، وعليهم الرحيل. استقبل الغابة، وولاها ظهره، وفي نفس اللحظة أتته صرختها وشهقات الحضور. استدار بسرعةٍ، ليجد ماريا بقبضة أبيها، وقد التفت يده حول جسدها، بينما نصلُ سيفه على عنقها. كان لورينزو ينظر إليه بمقتٍ، وقد لوثت الدماءُ شاربه ولحيته البيضاء، فبدا كوحشٍ مفترسٍ قام للتوِّ عن صيده. تجمَّد كلٌّ بمكانه، وتردد تساؤلٌ واحدٌ: هل سيقتل الأب ابنته، لينتقم ممن هزمه؟!

كادت ماريا تفقد وعيها، مصدومة مما يفعل أبوها، وسَودان متجمدٌ في مكانه، غير مُصدقٍ لما يحدث، وكذلك حال أهل القرية. نزل عن فرسه، وخطا في حذرٍ نحو لورينزو، الذي صرخ:

- توقف عندك أيها الوثني الدنيء.. إن اقتربتَ خطوةً أخرى سأذبحها أمام عينيْك.

عقد سَودان حاجبيْه..

- هل أقول لك اتركها أو ستدفع الثمن غاليًا؟ إنها هي الثمن الغالي أيها الدوق. إنها ابنتك!

بصوتٍ يفيضُ بالحنق ردَّ لورينزو:

- بل فقدتُ وريثي في الحرب، وكل شقاء العمر قد انهار.. لتكن تلك الخاطئة قربانًا للرب في سبيل هزيمتكم. سلبتم أرضنا وفلذات أكبادنا، وتُريد أن تسلب ابنتي مني.. لن أتركها لك.

ضغط بسيفه أكثر على رقبة ابنته، التي ارتجفت منتحبةً غير مصدقةٍ حديث أبيها. أحرق فزعُها فؤاد سَودان، الذي كان عاجزًا عن فعل شيء، حتى انسابت قطراتٌ من دمائها على عنقها، وقد غرس سن السيف في جلدها. بدا واضحًا أن لورينزو جادٌّ فيما يقول..

- لن أرحل دونها.

- إذن ستموت معها.

قالت ماريا وقد تملك منها النحيب:

- أرجوك، ارحل يا سَودان!
صرخ بها:

- لن أرحل من دونك يا ماريا.

أجهشت بالبكاء وقد ازداد عنقها احمرارًا، وصوتُ لورينزو يخترق أذنها:

- أنت من أردت هذا أيها الكافر.

رفع يده بالسيف، ولكن سَودان صرخ فيه:

- توقف.. سنرحل، فلا تؤذ ابنتك..

تحرَّك للخلف بضع خطوات، ثم امتطى الفرس وعيناه لا تفارقان ماريا الشاحبة. لكز فرسه وانطلق ورجاله، وعينا كاراس لا تُفارقان ماريا التي ما زالت بين براثن أبيها. كان سَودان يلكز الفرس مسرعًا أكثر وأكثر، حاملًا في جوفه بركانًا يفورُ ولا يجد سبيلًا للانفجار. أحسَّ بالهزيمة لأول مرةٍ في حياته، وتجدد في حلقه مذاقُ الانكسار، الذي لم يعرفه إلا يوم أكلت النارُ زوجته وابنه. لم يكونوا قد ابتعدوا عن سان فيلي كثيرًا، حين دوَّت صرخةٌ مروِّعة ترددت في أرجاء الغابة!

****

كان يركضَ ويركضَ، ويلكز الفرس للإسراع مبتعدًا عن جرح غائر تركه خلفه. فوضى عارمة اجتاحت جوارحه، وآلمه أن يراه رجاله على هذا الحال. انتبهَ إلى أحدهما ينبهه أن هناك أثرًا لخيولٍ مرَّت من مكانهم هذا.. عشرون حصانًا على الأقل. قال سَودان:

- لقد مرَّ جيشُ بنفينتو بالقرية منذ يومين.

- لا يا سيدي، هذه آثارٌ جديدةٌ، لم تمض عليها ساعات.

ملامحه الخاوية لم تتبدل، وهو يقول:

- علينا توخي الحذر.

حلَّ الظلام سريعًا بفعلِ الغيم الكثيف، فمنحهم سترًا خلف جذوع الأشجار، حيث وقف سَودان يُراقب القرية القريبة، التي أحيطت بمشاعل كثيرة، بينما انتشر الجندُ بداخلها وحولها، وبعضهم يُقيم المتاريس الخشبية بمساعدةِ القرويين. تناهى إلى مسامعهم صوتُ خيولٍ تقترب، ومن مكانهم حيث تربض الظلال، رأوا مجموعةً من الفرسان يحملون رايات دوقية بنفينتو يمرون إلى القرية. تساءل سَودان عما صار لجيشه، وإذا ما كان قسورة قد عاد بالجيش إلى باري سالمًا. ظل في مكانه حتى جاءه صوتُ كاراس:

- إنهم يتحصنون بالقرية.. أستطيع أن أذهب إلى هناك وأسألهم عما يحدث، فلن تكون أخبار لورينزو قد وصلتهم.

- بل سنمضي في طريقنا إلى باري.

- ولكن هذه القرية بها المعبر الوحيد للنهر..

- سنمضي في طريقنا إلى الجنوب، إن عددهم يتجاوز المائتين، غير الفلاحين.

عبر دربٍ طويلٍ بدا كأن لا نهاية له، كانت القرى بطول ضفة النهر قد تحولت إلى قلاعٍ صغيرةٍ تحوي قوات دوقية بنفينتو. التحصينات تشي بالاستعداد لشيء قادم، والأمور تزدادُ تعقيدًا كلمَا اقترب من الجنوب. ومع إلحاح كاراس على الذهاب واستطلاع الأمر، رَضخ سَودان.
حين وصل الطبيبُ إلى مدخل القرية، كشيخٍ كبيرٍ من بني جلدتهم، أخذ الجندُ يتفحصونه بريبةٍ. سأله أحدُ رفيقَيْه:

- أتثق يا سيدي أن هذا الطبيب لن يغدر بنا؟

لم يرد سَودان. كان يُراقب كاراس الذي تركه الجند يدخل إلى القرية، ثم اختفى بين الأكواخ. مرَّ الوقتُ ببطءٍ، قبل أن يظهر مجددًا، يُحادث أحد الرجال، حاملًا جوالًا قديمًا، خرج به من القرية تودعه تحيات الجند.
خلف الربوة، كان سَودان ينتظره.

- لقد عُدت.

- ما الذي يحدث هناك؟

وضع كاراس الجوال عن ظهره، وأجاب:

- إنهم جند بنفينتو.. يقولون إن مقتلةً عظيمةً حدثت بالجنوب. معركة شرسة انتصر فيها السراسنة.. من رأيناهم على طول الطريق ليسوا سوى فارين من المعركة، يتحصنون بالقرى، خوفًا من قدوم جيش باري.

تردد كاراس قليلًا، ثم أجمع أمره وقال:

- كما أني سمعتهم يقولون إنهم سيرتبون صفوفهم، ويُعيدون الهجوم على أنحاء متفرقة من كالابيرا وكمبانيا.

لقد صدق حدس سَودان. لكز الفرس وهو يقول:

- هيا، فلنسرع!

سبقهم عبر الغابة، بينما يسأل رفيقاه كاراس:

- ما الذي تحمله في هذا الجوال؟

مد الطبيب يده إلى الجوال وأخرج منه جزرةً:

- لقد حصلتُ على زادٍ للطريق.

****

الشوقُ يسبقنا إلى حيث وُلدنا، وحيث من رافقونا بدرب الحياة. لطالما حلم بالخروج من القرية والمضي بعيدًا، لعل زحام روما وشواطئ نابولي يُنسيانه رائحة الطين والروث، وأكواخ الطين والأغصان. لكم تبدلت القرية.. البرجُ الجديدُ يُطل من فوق هامات الأشجار، والمداخن تنفث بخارها رغم المطر الخفيف. حصانه يسبقُ رفقاء المسير، ومشاعره مضطربةٌ، وها هو ذا يعود ولكنه ليس ذاك الذي رحل. إليساندرو المدلل صار شخصًا جديدًا، حصد قدرًا من المجد، ولربما الكثير من الحكمة، والأهم من ذلك زوجة. حدَّثها طوال الطريق عن القرية، وعن تسكعه مع كازميرو وألبرتو، وكيف كانت حياته قبل أن يخوض الحرب. كاترينا الجميلة منحها الرب ما تمنت يومًا، فارسًا شجاعًا لا يهابُ الموت، نبيلًا وإن كان قرويًّا. يوم احتضنها شعرت أن روح أبيها بداخله. كان خيار الرحيل معه إلى حيث يعيش صعبًا، ولكن لعل إليساندرو هو ملاك الرب ليُجبر خاطرها، والحياة معه تستحق المخاطرة بكل شيء. وضبت أغراضها، وقبلت طلبه بالزواج منها. إليساندرو الجديد، الذي كانت المرأة له تتجسدُ في أنثى لعوبٍ مثل فيولا. صار يكفيه أن ينظر في عينيْ كاترينا لتزول عنه كل هموم العالم، وتذوب في بحورٍ من زُرقةٍ لامتناهية، وروح دافئة، أزالت عنه برودة الشهوة وقسوة الحرب.

تعلقت نظراتُ كاترينا به وقد أشرفا على مدخل القرية، ومن خلفهما درزنة من الرجال يحملون رايته الخاصة: الحَمل الذهبي المجنح يتوسط اللون الأحمر. إنه الآن عائدٌ كقائدٍ منحه أسقفُ نابولي التبريكات، كما أنعم عليه سرجيوس بلقب فارس. الوجوه اعترتها الدهشةُ مع دخول الركب إلى

القرية. أهذا على الحصان الأحمر القوي، في درع جلديةٍ أنيقةٍ، ولحيةٍ وقورةٍ هو نفسه إليساندروا الذي غادرهم؟! مَن تلك الجميلة التي تصحبه؟ لم تكن عقول أهل القرية تستوعب كل هذا الزخم، ففي يومين فقط تتابعت الأحداث.. بالأمس كانوا يُحاصرون ذلك العربي، الذي أخذ الطبيب كاراس معه، واليوم يعود إليساندرو برفقة جمع من الفرسان وامرأة! ابتسامة إليساندرو تلاشت شيئًا فشيئًا وحلَّ محلها التوجس، وهو ينظر في الوجوه البائسة المذهولة. دار بعينيْه في المكان، بينما يمر في طريقه إلى الربوة حيث قصر أبيه، وبدت كاترينا متوترةً، تُلاحقها نظراتُ القرويين غير الودودة، ثم اصطدم بصرها برجلٍ له ابتسامةٌ مقيتةٌ ونظرةٌ أخافتها، أخذ يحك ذقنه بينما يقفُ بين قدميْه كلبٌ عجوزٌ ينبحُ على الجياد.

طفلٌ متسخ الملابس راح يركض، حتى سبق كل الأطفال المتجمعين حول الخيول. ارتقى الربوة لاهثًا إلى منزل النبيل لورينزو، حتى أوقفه أحد الخدم بإشارةٍ من يده:

- ما الأمرُ أيها الفتى؟

بصوتٍ طفولي لاهثٍ أجابه:

- إنه إليساندرو.. لقد عاد.

تقدم الخادم بضع خطوات محدقًا في الزحام بالقرية، وصوت الطفل يُلاحقه:

- أريد أن أحصل على مكافأتي..

داعب الخادمُ رأس الصبي، واكتفى بمنحه ابتسامةً، قبل أن يدفع الباب مناديًا:

- سيدي.. سيدي الدوق.. لقد عاد سيدي إليساندرو.

كررها مرتين، قبل يأتيه صوتُ إيلينا، تصيح في فرحةٍ، ثم تُنادي على زوجها، الذي خرج مسرعًا، بنظراتٍ تحمل الشك أمسكه من ذراعه وقال:

- أعد على مسامعي ما قلت!

لم ينتظر حتى يكمل الرجل جملته مرةً أخرى. هرع نحو الباب، وما إن فتحه، حتى وجد فتاه ينزل عن صهوة جواده القوي. تلاقت عيونهما، فتسمَّر لورينزو في مكانه، وركض إليساندرو فارتمى بين ذراعيْ والده. أجهش لورينزو وهو يتحسس جسد ابنه وشعره ويصيح:

- الشكر للرب.. لقد عُدت سالمًا يا ولدي.. الشكر للرب، أن أعادك إلى أبيك يا إليساندرو.

- لقد اشتقت إليك يا أبي.

نطق بها وفيضٌ من المشاعر يموجُ في قلبه، ثم رأى أمه تدفع الباب صارخةً باسمه، فانسلَّ من ذراعيْ أبيه، وأقبل عليها يحتضنها، ويدور بها، وهي تبكي وتضحك وتمسك بوجهه بكلتيْ يديْها غير مصدقةٍ. قبَّلت وجهه ثم دفعته للخلف برفقٍ تتأمل تقاسيم وجهه:

- اللحية تجعل منك وسيمًا.. إليساندرو لقد صرت رجلًا حقيقيًّا.

لمحت الفتاة التي نزلت عن الحصان، فبادرها إليساندرو قبل سؤالها:

- إنها كاترينا، زوجتي يا أمي..

اتسعت عيناها وهي تفتح ذراعيْها، فأشار لكاترينا بالتقدم، فاحتضنتها أمه سعيدةً ضاحكةً:

- باركك الرب، كم أنتِ جميلة؛ تُذكرينني بنفسي حين كنتُ صبية..

جاء صوتُ لورينزو الضاحك وهو يربت على كتف ابنه:

- أرجو ألا تصبح مثلك في يومٍ من الأيام.

ارتفعت ضحكاتُ الجميع، قبل أن يقطعها إليساندرو سائلًا أباه:

- أين ماريا؟

تبدلت ملامح والده، وبدا الحزنُ والأسى على وجه إيلينا. تبادلوا النظرات جميعًا، ثم صاح لورينزو في خادمه:

- ماركوس، رافق الفرسان إلى منزل كاراس للمبيت، وتأكد من تلبية احتياجاتهم. (التفت إلى ابنه) تعال ندخل إلى المنزل يا بني، فهناك قصصٌ كثيرةٌ أنتظر سماعها منك.

داهمت الدهشة عقل إليساندرو وهو يُرافق أباه للداخل. ماذا أصاب أخته في غيابه، ولماذا يبيت الرجال في منزل كاراس؟ كانت أمه تتشاغل بالحديث مع كاترينا التي كانت تتأمل تفاصيل المنزل حيث تربى زوجها.

****

ليتَ السكين قطعت حلقها ولم يُنقذها سودان. منذ تركها وهي تعيشُ كدميةٍ باردةٍ خاويةٍ من الروح والحياة، مصدومة بخطفها من الحبيب في نفس لحظة الأمل بعد الفراق، ومصدومة في الأب الذي كاد يذبحها دون ذرة شفقةٍ، حتى شكَّت أنها ابنته، ثم اكتفى بأن رماها في حفرة الجحيم هذه التي يدَّعون أنها بيت. صرخاتها المكتومة تأبى التوقف بداخل عقلها، تجرها لهاوية الجنون. من يدري، قد يكون الجنون أهون من انتظارٍ لا نهاية له!

لم يبق في جعبتها الكثير من الصلوات. تمثال العذراء وحصانه الخشبي هما ملجأها في وحدتها القاتلة. خرس لسانها لا يجد كلماتٍ تُعبر عما بها، وبقيت نظراتها راجيةً لا تتزحزح عن أم المسيح، التي سُميت على اسمها، ولطالما قصَّ أبوها عليها رؤيته مريم البتول تطوف بمنزله يوم ولادتها. ولكنه ذبحها. في بعض الأوقات، يمر بقلبها يقينٌ أن لا مجال للمصادفة في هذه الحياة، وأن الحب لا يخضع للمصادفات، وإنما هو قدرٌ من السماء، أكبر من قدرتنا على الفهم. الأقدارُ وحدها رتبت لقاءهما، وهي لم تملك اختيار القبول والرفض، وإنما غالبها العشقُ وغلبها، ثم أزهق أبوها آمالها وكاد يُزهق روحها أيضًا.

طرق الباب، فانكمشت، في ركن فراشها وارتعد جسدها. رمقت الباب بتوجسٍ، لكنه انفرج كاشفا عن وجه إليساندرو. كادت أن تنكره، فقد بدلته تلك الشهور القليلة كثيرًا. اقترب منها فانطوت على نفسها أكثر في خوفٍ، فوجم. إنها أول مرة في حياته يرى ماريا بهذا الانكسار المُفزع!

حاول أن يُحادثها في مرحٍ، فقال:

- أهكذا تستقبلُ الأخت أخاها العائد من الحرب؟.. أين الأشواقُ والأحضانُ وثرثرة الفتيات؟

أجهشت بالبكاء، فارتاع لحالها، واقترب يجلس إلى جوارها..

- ماريا، لم أعهدك هكذا أبدًا. هل يستحق أميرُ باري كل هذا النحيب؟

توقفت عن البكاء فجأةً، واتسعت عيناها.. كيف عرف أنه أميرُ باري؟ أبوها لم يعرف من هو، ليقص عليه الأمر، فكيف عرف إليساندرو؟ قال وهو يتأمل ملامحها في أسى:

- لا تندهشي يا ماريا، لقد رأيته في ساحة المعركة. إنه فارسٌ لا يُشق له غبار، ورجل حرب من الطراز الأول. بل إن ما أعلمه جيدًا، أن من يخوض الحرب بطريقته، لا يتوقف لمجرد هزيمةٍ عابرةٍ.

فتح ذراعيْه على اتساعهما، وأضاف ممازحًا:

- مثلي تمامًا.

تنهد، وربت على كفها، وعيناه مثبتتان عند أثر الجرح في رقبتها..

- أعرف أنك غير مصدقةٍ لما أقوله، ولكنها الحقيقة. لقد رأيتُ ما يكفي من الأهوال ليتبدل كل شيء بداخلي. حين أخبرني أبي عن أمركما، لا أعلم لمَ تيبس لساني ولم أخبره أن من كان عندك هو الأمير سَودان الماوري، أمير باري المنتصر.

حرقةٌ تجلت في وجهه بينما يُتابع حديثه:

- لقد هُزمنا في الحرب، ومنَّ علينا أميرُك بالعفو.. ما كان لأمورٍ عديدةٍ أن تحدث، إلا شيئًا واحدًا.. كاترينا.

كانت تتأمل هذه الابتسامة الجديدة على وجهه.. إنه ليس إليساندرو الذي تعرفه. تابعته بنظرها حين نهض متجهًا إلى الباب مناديًا:

- كاترينا.. هلا انضممتِ إلينا؟!

أطلت من الباب فتاةٌ طيبة الملامح، ابتسامتها الخافتة منحتها سلامًا سرى بين عينيْهما. اقتربت من فراش ماريا وحيَّتها بصوتٍ رقيقٍ هادئٍ:

- كيف حالك ماريا؟.. لطالما كان ذكرك حاضرًا بمجلسنا أنا وإليساندرو.

قاطعهم صوتُ جلبة أتت من خارج الغرفة، فتبادلوا جميعًا النظرات، قبل أن يتحرك إليساندرو ناحية الباب:

- سأعود إليكم بالخبر.

خرج ساحبًا الباب خلفه، ليطبق الصمت على المكان، والفتاتان تتطلعان إلى بعضهما البعض، قبل أن تجلس كاترينا على طرف الفراش..

- لقد قصتِ أمك عليَّ ما حدث.. ولكن عليك أن تكوني قويةً، كما كنتِ من قبل؛ هكذا تخيلتك. أن تبقى فتاةٌ قرويةٌ لهذا العمر دون زواج، فهو نجاحٌ عصيبٌ، تعجز عنه فتياتُ المدن مثلي. أنا أيضًا قابلت حزنًا كثيرًا يا ماريا، ولكن هذه هي الحياة. من كان يظن أن أقابل أخاك، وأقبل أن أهجر نابولي إلى سان فيلي، بعيدًا عن البحر!.. سيهديك الرب فرحًا بعد حزنٍ.. هكذا فعل معي، فقد منحني المسيح زوجًا يوم اشتدت الأحزان وطئًا بموت أبي.. تأكدي يا أختيَ الجميلة أن العتمة كلما اشتدت فقد اقترب بزوغ ضوءٍ ساطعٍ يغشى كل شيء من حولنا.. إنه نورُ المحبة الذي يبقى حتى وإن طال الفراق.

داعبتها بغمزةٍ من عينها وهي تقول:

- يقولون إن أمير باري وسيمٌ.

باغتتها جملتها الأخيرة، فابتسمت ماريا وهي تمد يدها إلى كاترينا، التي أمسكت راحتها برفقٍ:

- أعلم أنك موجوعةٌ وأن كل جرح يندمل يترك أثرًا.

ضاق صدرُ ماريا فأجهشت بالبكاء:

- إلا جرحي.. لا يندمل.

احتضنتها كاترينا وقد انفجرت باكيةً هي الأخرى، فالفقدان هولٌ عظيمٌ، وإن كانت كاترينا قد فقدت أباها بالموت، فمصاب ماريا أكبر، فقد فقدت أباها وهو حي لم يزل يدَّعي أنه أبوها. يومان مضيا، لم تجد ماريا فيهما من تلقي بهمها في أحضانه، تشكو وتبكي. حتى صلواتها الخافتة لم تمنحها دفئًا ترجته. الجدران الباردة كانت تسلبها قوتها؛ أما الآن فأصبح لها من ستقص على مسامعها كل شيء، رحل كاراس وجاءت كاترينا، عيناها كانتا تنظران بامتنانٍ لتمثال العذراء الصغير، لا تدري ما كل هذا الدفء بداخلها رغم برودة الأجواء، لعلها ملاك الرب جاء ليواسيها.. لحظاتٌ مرَّت قبل أن يتناهى إلى مسامعهم صوتُ إليساندرو مع بعض الأصوات المتداخلة، خرجت كاترينا من الغرفة متجهةً إلى حيث يقف زوجها، ربتت على كتفه بخفة:

- هل هناك شيء عزيزي؟

انتظرت أن تأتي الإجابة منه حين استدار، وقد ظهرت خلفه فيولا التي أخذت تتفحصها بعينين متقدتين، اقتربت منها دون أن تُبالي بوجود لورينزو وزوجته، أمسكت بأطراف أصابعها خصلات شَعر كاترينا التي تراجعت خائفةً، وفيولا تُطلق لضحكاتها العنان:

- أهذه التي فضَّلتها عني؟ لا تخافي يا صغيرتي فأنا لا أعضُّ بقدر ما أنا سيئة.

أمسك إليساندرو بكتف فيولا ليبعدها عن زوجته:

- اذهبي الآن فيولا.. فلا مكان لك هنا.

رمقته بنظرةٍ غاضبةٍ، أدارت بعدها وجهها بالجميع، خرجت كلماتها بصعوبةٍ من بين أسنانها المصطكة:

- حسنًا سأرحل يا إليساندرو.. ولكن حين تأتي لأحضاني مرةً أخرى لا تتوقع أن أستقبلك أيها الفارس.

لوَّحت بيدها لكاترينا لتخرج بعدها من المنزل، تركتهم في حيرةٍ من أمرهم حتى وسط تساؤلات كاترينا، التي تبادلت النظرات مع إليساندرو الذي ابتسم محدثًا إياها:

- ما زال هناك الكثير لأقصه عليك.

****

يندفعُ النهرُ جنوبًا عبر مجرى صخري متسع، تطال أمواجه تلك القنطرة الرومانية الرمادية القديمة. العبور عليها يثير التساؤل عن العبور على الصراط؛ فمن يعبر سيكون مكشوفًا لتلك القرية هناك على مرمى البصر، والمقامة على أنقاض مدينةٍ قديمةٍ، وقد أسدلت على أعمدتها الضخمة بيارق تجمع بين اللونين الأحمر والأبيض، وخنزير بينفينتو البري يتوسطها في تحدٍّ. كان على سَودان ورفاقه عبور النهر، وأي اشتباك دموي سيخسره حتمًا. قبع مع ركبه الصغير مختفين عن الأنظار، يُحاولون التفكير في سبيلٍ، حتى اتسعت عينا كاراس فجأةً وهو يُحدق باتجاه القرية. التفتوا في اتجاه نظره، فلم يروا شيئًا، فسأله سَودان:

- ماذا هناك؟

- أُقسم أني رأيتُ رايتكم السوداء بين جذوع الأشجار.

أطال سَودان النظر إلى حيث أشار كاراس, يبدو أن الرجل قد شاخ وضعف بصره، لكنه أرهف السمع لدمدمةٍ راحت تعلو أكثر، ثم ظهر الخيالة يُكبِّرون منقضين على القرية، وثلاثة من جنود بنفينتو، يُهرولون هربًا عابرين القنطرة باتجاه سَودان ورفاقه، الذين خرجوا من مكمنهم شاهرين سيوفهم، بينما وقف كاراس بعيدًا ممسكًا بعنان الأحصنة. تعثر أحد الثلاثة، بينما وقف رفيقاه رافعيْن أيديهما لأعلى:

- لقد استسلمنا، لا تقتلونا!

ألقوا سيوفهم وركعوا، ومن خلفهم تقدمت مجموعةٌ من الفرسان، وقائدهم يصيح فرحًا:

- لقد وجدنا الأمير سَودان.

سمعه من بعيدٍ شرحبيل الكلبي، فركض فوق الجسر شاهرًا سيفه مخضبًا بالدماء. أقبل عليهم مبتسمًا، فابتسم سَودان، ولكنه بسرعةٍ عاد يسأله:

- ما الذي جاء بك إلى تلك الأنحاء يا شرحبيل؟

- كما ترى سيدي، جئنا في الوقت المناسب.

رفع سيفه ليضرب الجندي المتعثر، ولكن سَودان صاح به:
- توقف!

توقف السيفُ على بُعد شعرةٍ من صدر الجندي، الذي ضاقت عيناه في فزع وتوقف لسانه عن ترديد الصلوات المتلعثمة. نظرة استغراب على وجه شرحبيل، رد عليها سَودان بسؤاله:
- منذ متى نقتل الأسرى والجرحى يا كَلبي؟

أزاح سيف شرحبيل بعيدًا عن صدر الرجل، وتابع:

- هل من أسرى أو جرحى بالقرية؟

بقي شرحبيل لبرهةٍ صامتًا، يقبض على سيفه بأصابع متشنجةٍ، ثم أطلق زفرةً وأجاب:
- لم ينج أحد.

وجوه الأسرى الثلاثة كانت بائسةً، أطال سَودان النظر بها، قبل أن يُوجه سؤاله باللاتينية لذلك المتعثر:
- ما اسمك؟

- دانيال.. سيدي.

- حسنًا دانيال.. من قائد جيشكم؟

- دوق ماركوس، الشقيق غير الشرعي للدوق إديلكي دوق بنفينتو.

- يُعجبني وضوحك.. المقبلون على الموت قليلًا ما يكذبون.
قالها سَودان بصوتٍ هادئ، قبل أن يلتفت إلى شرحبيل:
- أطلق سراحهم..

لم يبال بنظرات شرحبيل المنزعج مما يحدث، بينما تهللت أسارير الرجال. جاء كاراس من بين الأشجار ساحبًا الخيول الثلاثة:

- سيدي الأمير سَودان.. هذا الذي تعثر ساقه تنزفُ، وسيفقدها إن ذهب الآن.

استدار له سَودان عاقدًا حاجبيْه، فتابع الطبي حديثه:

- جرحه ليس خطيرًا، ولكن إن لم تُعالج سريعًا، ستُبتر الساق كلها. دعني أعالجه، وليذهب بعدها.

- انته سريعًا إذن، فالطريق لم يزل طويلًا!
التفت لشرحبيل متحدثًا بالعربية:
- كم عددُ الرجال معك.

- سبعون فارسًا.

قرب اسوار القرية توقف سَودان. فاجأه الخرابُ والدماء في كل مكان. أخذ يُحصي القتلى من الجند، لم يكن عددهم يتجاوز العشرين، بين كثيرٍ من القتلى القرويين. ما كان على شرحبيل أن يقتل الأبرياء، الذين لم يحملوا السلاح. أمر الجُند بدفن الموتى، ثم اختلى بشرحبيل، فأمسك بتلابيبه قائلًا:

- أتقتل القرويين يا شرحبيل؟! لماذا فعلت؟

تمتم شرحبيل بخفوتٍ:

- والله لن أقول لك إلا ما قاله هارون لموسى.. "إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ".. لقد قاموا علينا بعد معركتنا مع جند بنفينتو.

أفلته سَودان:

- ادخر أعذارك ليوم القيامة.. لم تكن سيوفنا لتتلطخ بدماء الأبرياء..

كان شرحبيل يستشيط غضبًا، لكنه، عدل من هندامه وسار خلف سَودان متحسسًا مقبض سيفه، وسأله:

- هل سنلحق بالجيش العائد إلى باري؟

- لا، بل سنذهب شمالًا. هناك عدة قرى يتحصن بها جنودُ الدوق ماركوس، وسنذهب في أثره، فبقاؤه في تلك الأنحاء سيجعله يُعيد الكرَّة.

- ولكن جيش بنفينتو مهزومٌ، وقد أُبيد أكثره وما تبقى ليس سوى شرذمة قليلة..

- أنتَ من تقول ذلك أيها القائد؟! إن بقي للعدو جيوب مثل هذه، ستصير فيما بعد حصونًا وقلاعًا منيعةً، وإنهم لعقبانٌ على خيولهم، سباعٌ في حصونهم، إن رأوا فرصةً سانحةً انتهزوها، وإن كانت لهم الغلبة فهم ضباعٌ شرسةٌ. فلنكن المبادرين، قبل أن تنمو شوكةٌ في ظهورنا.

توقف، والتفت إليه:

- أتعلم لمَ أطلقت سراح الأسرى الثلاثة؟

- لماذا؟

- ليُخبروا ماركوس بما أصاب أهل القرية. ستكون حملةً سريعةً، مع مزيدٍ من الغنائم لك ولرجالك..

فكَّر شرحبيل للحظةٍ، ثم قال:

- الشتاء سيُداهمنا إن أطلنا البقاء في الشمال.. والجنود يطمحون للعودة إلى باري.

- لا تقلق، ستدفئهم الغنائم.

فاجأه الرد. لم يفهم شرحبيل ما بداخل سَودان، فلم يعهد فيه هذا الفكر من قبل. تابعه وهو يمضي بين الرجال يربت على أكتافهم، وبداخله قد نبتت براعم بغضٍ لأميره لم تكن من قبل. كان سَودان قد عزم على إرسال كاراس جنوبًا مع رفيقيْ سفره، على أن يبقَى هو على رأسِ فرقة شرحبيل لتطهير القرى الشمالية من الجنود الفارين، إلى أن تطأ قدماه أرض سان فيلي مرة أخرى.

****

خلال أيام، راحت الشائعاتُ المرعبة تنتشر بين القرى. السراسنة يفتكون بمن يقف في طريقهم، وقصص المخالب النحاسية والأنياب الحديدية تؤرق مضاجع الصغار والكبار، والخوف يُحيط بالأكواخ والأبدان، إذ على مسيرة نهار منهم هناك أميرٌ دموي لا يعرف الرحمة، حمحمات فرسه لهب، وضربات قوائمها زلزال، وأنفاسها كبخار تنين يزأر، قد اكتسب جلدها الأبيض حمرةً من دماء ضحاياه. سبعون فارسًا خاضوا معركتين، وقضُّوا مضجع الدوق ماركوس حيث يُعسكر بما تبقى من قواته.

سَودان المنتصر يخوضُ حربه الخاصة.. حرب من أجل الحب. الطريق إلى سان فيلي خلا من العوائق، إذ يهجر الناس قراهم ويتجهون شمالا قبل أن يصل إليهم. يحملون متاعهم، وقصصًا لم تحدث، قرية تلو الأخرى، بعد معركتين لم يستسلم فيهما جند بنفينتو وقاتلوا ببسالةٍ، فقتلوا.

"من أجلك ماريا"، تمتم بها سَودان وهو يخوضُ بفرسه في النهر. المياه الباردة حثت الخيل على الإسراع للخروج للضفة المقابلة من الرافد. سيحل الليل قريبًا، وعليهم أن يُخيِّموا للراحة والتحرك مع ضوء الفجر الأول. نصبوا المعسكر، وأشعلوا النيران، ووزعت فرق من الكشافة والحراس الليليين، بينما تحلَّق من آن لهم النوم حول النيران.

كانت ليلةً صافيةً، والقمر يُنير رؤوس الأشجار، أثارت الذكرى في نفسه، حتى كاد سَودان يرى شعيب يسلخ الظبية، وبيريسباي يجهز النيران ولا يكف عن الحديث. دار ببصره في جنده الذين تطوعوا مع شرحبيل للبحث عنه. سوف يتبدل حالهم مع كثرة المغانم التي يحملونها من القرى الخاوية من أهلها. صوتُ أبي المغوار يلح بتأنيبه ويقض مضجعه. أو لعله صوت ضميره النافر مما يفعل. مرَّ طيفها أمام القمر، فتجاهل كل ذلك الضجيج في رأسه. عليه نجدتها.. يُكرر لنفسه أن كل شيء سيكون على ما يرام، ولكن روحه قلقة تأبى التصديق.

مع خيط النهار الأول، أيقظه شرحبيل. صلُّوا ثم ركبوا الجياد متجهين إلى حيث البلدة التي يتحصن بها الدوق ماركوس. معركة أخيرة، يعودون بعدها إلى دفء منازلهم في باري. الفرسان يُحبون القتال تحت إمرة سَودان. له حكمة ولطف، ويملك من الدهاء والمكر ما يمكنه من الفوز بكل معاركه. يأمل الكثير منهم أن من يكون بقرب الأمير يحظى بالكثير، لذا فهم يمضون معه إلى حيث يريد، حتى إن قادهم إلى رومية.

ومع انتصاف النهار، كانوا على مشارف بلدة فوجيبا، التي تُعد الحصن الأول لدوقية بنفينتو، وعندها تنتهي مقاطعة كمبانيا. كانت تقبعُ فوق تلةٍ صخريةٍ ولها أسوارٌ حجريةٌ ضخمةٌ. الأرضُ جرداء حول البلدة، يشقها طريقٌ مرصوفٌ. سبعون فارسًا هم كل ما يملك من المحاربين، وعليه الدخول إلى الحصن الصغير قبل الليل. دار بعينيْه في المكان يتفحصه، حتى أتاه صوتُ شرحبيل:

- ما جديد الأوامر سيدي القائد.

- مُر الرجال أن يجمعوا كل الأغصان والحشائش الجافة!

ومع غروب الشمس، خرجوا من بين الأشجار، في صفوفٍ متتاليةٍ، يضربون الأرض بأقدامهم، ويُمسكون مشاعل بيدٍ وبالأخرى دروعًا مستديرة، مشاة لا يعتمرون خوذات، ثم الفرسان حاملو

الرايات، ودروعهم البراقة تعكس ضوء المشاعل. والصفوف تتوالى على الظهور من بين الأشجار. منحهم مغيبُ الشمس ظلالًا مُخيفة، ومن فتحةٍ ببرج البوابة الوحيدة كان الجنود يُراقبون الأعداد الغفيرة، ويُدركون أنه حصارٌ نهايته الموت والوباء مثلما أصاب نابولي على يد عدوهم هذا نفسه، والذي لا يعرف الرحمة. زاغت الأبصار، وأمسى ماركوس وقادته متهمين بالتسبب في كل هذه الكوارث.

وبينما جند بنفينتو يتهامسون بضرورة الاستسلام، كان شرحبيل يشهد بعبقرية سَودان الحربية. بعض الدمى من الأغصان والقش تمتطي الجياد، فيما يسحبها الخيالة المترجلون، ثم التحرك بعد الشفق، فيتضاعف عدد قواته في أعين العدو. سبعة صفوف، في كل صف عشرون محاربًا، هي فرقة عظيمة راحت تتقدم ببطء نحو الأسوار، وسَودان يحسب خطوات الرجال، الذين وثقوا به وبخطته وتقدموا نحو الحصن، حتى صاروا في مرمى سهام جند بنفينتو، الذي لم يرموا إلى الآن، ثم رُفعت فوق البوابة راية بيضاء.

كان عليه المخاطرة، وقد نجحت خطته تمامًا كما أراد. لحظاتٌ عصيبةٌ كانت تفصله عن الفشل. رأى شرحبيل في وجهه عُجب وفخر المنتصر. كان يضحك وهو يشير إلى راية بيضاء تدلت من فوق البوابة التي راحت تنفرج مصدرةً صريرًا قويًّا. داخل الحصن، كانت الجثث متناثرة، تشي بتقاتل الجند مع النبلاء. لقد كادوا أن يفتكوا بالدوق، الذي توسط بضعة رجال بقوا معه للنهاية.

دخل سَودان الحصن دون خوفٍ، وخلفه كان شرحبيل ومجموعات من المشاة خفيفي الدروع. انحنت ظهور القرويين واضعين وجوههم البائسة للأرض، بينما المتمردون يقفون دون أسلحتهم، وبعضهم شرع في خلع الدرع عن صدره لينحني كما يفعل أهلهٍ. لكن ماركوس كان يقف بين رجاله، يُشهرون سيوفهم في وجه الجميع. تقدم شرحبيل نحوهم، محدثًا باللاتينية:

- لقد انتهى الأمر أيها الدوق ماركوس..

كاد صدرُ جواده يلامس سيوف الرجال القصيرة، وراكبه يُتابع الحديث:

- ألقوا أسلحتكم، ولا داعي للمزيد من الدماء في سبيل لا شيء.

تردد الرجالُ وتبادلوا النظرات. ثم ألقوا أسلحتهم تباعًا. ماركوس كان خائفًا غاضبًا، أراد أن يصرخ ويسبهم. الكل تخلى عنه، الجند أولًا ثم حرسه الخاص. ساد الصمتُ لبرهةٍ، ثم وكز سَودان مطيته لتتقدم حتى توسطت الساحة..

- انهضوا.. والله ما جئنا لقتلكم، ولكن جئنا من أجل هذا.

كان يُشير ناحية ماركوس، الذي حملق فيهم في هلعٍ:

- أيها الأمير. أنا دوق أستطيع فداء نفسي بما تريد من ذهب وفضة و..

صاح سَودان: اصمت.. هل قتل الرسل يجعلك تفوز بالحرب؟ هل انتصرت حين غدرت؟

- كان عدوًّا محاربًا.

- انتهت الحرب وجاءك بالسلام.. سألك أن تعودَ أدراجك، فالحربُ انتهت، ولا مزيد من الدماء ستُراق.. أنت أبيت ذلك.

- لكل قائدٍ معطيات أيها الأمير.. ولا يُحاكَم قائدٌ من قِبل آخر، فميزان العدل لا يملكه الأمراء.

ساد الصمتُ مرةً أخرى إلا من بكاء رضيعٍ، حتى قطعه سَودان:

- أتعرف، لا جدوى من الحديث معك. أنت اخترت الحرب ونحن سنمنحك النهاية.. امنحوه سيفًا ليقاتل كالرجال، واختر من شئت لمبارزته، إن فزت ترحل.. وتذكر نصيحة أمير باري لك أيها الدوق: لا تخض معركةً خاسرةً!

التقط ماركوس السيف وهو يرتعش من الغل:

- أختارك أنت يا أمير باري.

لم يتردد سَودان. ترجَّل عن فرسه، وتقدم بخطواتٍ واثقةٍ نحو ماركوس. ما إن أصبح على مسافةٍ منه، ألقاه بخنجرٍ استله من حزامه، وفاجأ الجميع بتوقف يده بجوار رأس ماركوس، الذي شهق غير مصدقٍ. لم يُصبه الخنجر، بل قتله صوتُ سَودان الساخر:

- أما نصحك الأميرُ ألا تخوض حربًا خاسرةً؟!.. ولأن ميزان العدل لا يملكه الأمراء، فسأترك أهل البلدة ورجالك يُقررون مصيرك.

****

أحسن رجلُ سَودان استقبال كاراس. إنه نفسه الذي جاءه بالهدية مسبقًا. كان لطيفًا معه، وأمر الرجال بمساعدته. كان كاراس يتحدثُ كثيرًا، واكتفى قسورة بالاستماع، دون أن يظهر عليه أثرٌ لما يُثيره حديث كاراس في نفسه من قلقٍ.

- أتعلم سيدي أن ذلك الجندي من بنفينتو، ذاك الذي أطلق سراحه الأمير سَودان، لو عاد إلى قريته جريحًا لبُترت ساقه، بدلًا من أن تُعالج؟

أخذ يثرثر عن حكاية رجلٍ ظل يُعاني ألمًا برأسه لأيام، وحين زاره القس قال إن بداخله شيطانًا يجب إخراجه، وجيء بالرجل فربط إلى منضدةٍ أحيطت بالشُموع، وتلا القس صلوات غفران وتبريكات قبل أن يرسم بسكينه صليبًا في رأس الرجل، فانفجرت الدماء وارتاع أهلُ المريض، ولكن لا بأس إن كان ذلك سيشفيه ويمنحه بركات الرب. وبيدٍ مخضبةٍ بالدماء، راح القس يحشو الجرح بالملح، فامتزج لون الدماء ببياض الملح، والرجل يصرخ ويصرخ من الألم، والقس يصيح: اخرج أيها الملعون من رأسه..

- وهل خرج الشيطان من رأسه؟

ضحك كاراس قائلًا:

- بل روح المسكين هي التي خرجت. مات المسكين، فصاح الأب أن الشيطان قد خرج، وأن الميت حصل على الخلاص.

ضحك قسورة، وحزن في نفس الوقت، ولم يُعلق. أخذ يُراقب عمل كاراس، الذي أفرغ الدَمَامِل

والقروح التي انتشرت بجسد الأغلبي ورجاله، واستخدم دهانًا من المُر والزيت وبعض الأعشاب على الجروح، ولكنه لم ير أن رفيقه يتحسن، وشك في جدوى ما يفعله هذا الطبيبُ العجوزُ.

لاحت باري بالأفق. جيشها المنتصر يعودُ إلى قاعدته، والجنود يتدفقون من بوابة المدينة، وبينهم تسيرُ عربات الغنائم والجرحى، وعلى متن إحداها كان كاراس يسترجعُ ذكرى أيامه في صقلية. باري ذات الحسن والنور، والأبراج الضخمة والسور الكبير المزدان بالنقوش، والمئذنة الشاهقة لا مثيل لجمالها في بلاد الروم. الأعمدة الرومانية القديمة زُينت براياتٍ خضراء، نُقشت عليها كلماتٌ عربيةٌ. تزاحم الناسُ يُهللون ويُكبرون، والجيشُ يتقدم إلى ساحة القصبة، وبعض الجند يخرجون عن الركب فيختلسون الأحضان مع ذويهم، والأطفال فوق الرؤوس يلوحون للفرسان. حاملو البيارق يتقدمون المسير, وسط أمطارٍ من الزهور تلقيها فتياتٌ يحتجبن بنوافذ خشبية، ويلوحن بسعف النخل. موكب نصر، تتبعه عيونٌ وقلوبٌ فرحةٌ. وعند بوابة الحصن، وقف أبو المغوار مع بعض كبراء المدينة، وقد اختفت ابتسامته حين لم ير الهجان تتقدم المسير، بل قسورة من يتقدم الجيش ممتطيًا حصانًا أصهب لا يليق بأمير، ومن خلفه مجموعاتُ القادة.

رفع قسورة يده مشيرًا لرجاله، فصاح أحد الرجال بصوتٍ جَهْوَرِيٍّ: "توقفوا"، فثبت الجميع. ترجَّل عن حصانه في زهوٍ وقال:

- ها قد عُدنا بالنصر.

هلل الرجالُ يُرحبون بقسورة وجنده، ثم سحبه أبو المغوار من يده جانبًا هامسًا:

- أين الأميرُ سَودان؟

جاءت ابتسامة قسورة غريبةً وهو يقول:

- لقد أرسلت لك برسالةٍ مع الخصي كارلو. يبدو أن شيئًا ما أصابه في الطريق.. سأقص عليك كل شيء..

لم يكد قسورة يُتم كلماته، حتى احتضنته مجموعة الأيدي الصغيرة، وراح ثلاثة من أطفاله يُمسكون بساقه ويُنادونه. احتضنهم ضاحكًا:

- عذرًا سيدي.. العائلة.

أخذ يُداعب الأطفال ويحملهم، بعدما أعطى الإشارة للجند بالعودة لمنازلهم. راقبه أبو المغوار وهو يتجه نحو ثلاث نسوة يقفن قرب دار قسورة بالحصن، وكل واحدةٍ منهن تحمل رضيعًا. ابتسم أبو المغوار وعقله يُحدثه: "قسورة رجلٌ أوتي ما في الدنيا، وأسأل الله أن يؤتيه الجنة في الآخرة".

من مهجعها، كانت رَملة تُراقب ما يحدث في الساحة. أطفالها يقفون قرب مدخل القصبة ينتظرون سَودان، الذي غاب عن المشهد، فثار قلقها. رغم أنها قضت الليل تتخذ قرارها بعدم الذهاب لاستقباله، فإنها مضت تتلصص من نافذة حجرتها، تبحث عنه بين القادة والجند، ولكن لا أثر له، وحتى الفرس البيضاء لم تعد.. رأت أبا المغوار يتحدثُ مع طفليْها، ثم أمسك بأيديهما متوجهًا إلى القصر.

"لقد بقي ليُؤمن مؤخرة الجيش.. سيعود خلال أيام؛ لا تقلقوا"، جملة رسخت بذهن طفلي شعيب. عادا مع أبي المغوار إلى القصر حاملين الأسى. في نهاية الرواق، كانت رملة تقف، وخلفها جاريتان توقفتا عن الهمسِ مع رؤيتهما للقاضي. كان أبو المغوار ذا هيبةٍ ووقارٍ، يُبجله الناسُ قبل أن يخافوه، ويسمعونَ عنه قصصًا كثيرةً، فهو الوزير الأكبر والقاضي الفقّيه. كانت عيناها تفيضان بالقلق، يستطيع أن يرى هذا جيدًا، رغم حجابها الأبيض. أفلت الطفلين على مقربةٍ منها: اذهبا إلى أمكما. سار الطفلان منكسين رأسيهما. منذ أن رحل سَودان لا يكفان عن ذكر سيرته. رأتهما ذات يوم يلعبان في الباحة، وعلي يُمسك سيفًا من خشبٍ، ويقص على مسامع أخيه الصغير قصة خيالية عن بطولة الأمير سَودان. أمرت الجاريتين بأخذ الطفلين إلى غرفتهما، وما إن رحلوا سألت أبا المغوار:

- لماذا لم يعد الأميرُ مع الجيش؟

- سيعود.. لقد عَمد إلى مطاردة فلول جيش بنفينت.

- متى سيكون لي الإبحار لإقريطش؟

حدقها بلطفٍ وهو يُخرج لفافةً صغيرةً من حزامه:

- أظن أن أخاك قادمٌ إلى باري في القريب. سيقضي الشتاء هنا، ويحضر احتفالات النصر..

عقدت حاجبيْها وهي تلتقط الرسالة. طالعتها بصمتٍ وأبو المغوار يستكملُ حديثه:

- يا بنيتي، عليك بالتفكير فيما اقترحته عليك من قبل..

أومأت برأسها قبل أن تستأذنه في الانصراف. حثت الخطى نحو غرفتها، وقد تملك الغضب منها... هكذا الأمر إذن يا أبا المغوار. سيأتي أخي ليتم كلٍ شيء بموافقته. لن أتزوج من قتل زوجي، ولا أحد يُمكنه إجباري على هذه الزيجة. اتقد وجهها خجلًا وهي تتذكر قلقها من عدم عودته منذ دقائق مضت. أخذت تُحاول بعث طيف شعيب في عقلها، ولكنّ الذكرى أبت أن تأتيها بملامحه. زحامٌ من الكلمات والأحاديث عن فوائد زيجتها من سَودان، خليطٌ من السياسة والصفقات التي ستكون هي جزءًا من ثمنها. كل من اقترب من سَودان مات. القاضي العجوز رد عليها تلك الكلمة قائلًا: "ما زلتُ حيًّا برغم أني الأقرب إليه". أنهكها التفكيرُ وشردت عند النافذة، تُطالع السحب البعيدة وشمس باري الغاربة.

****

قُرب جدول المياه القادم من الجبل، كانت ماريا تجلسُ بجوار كاترينا، التي أصرَّت على أن تخرج معها إلى الشمس الدافئة التي تفترشُ السهل المنخفض. أخذت كاترينا تحكي عن نابولي وأبيها، عن الحب والحرب، كل ما مرَّت به خلال سنوات عمرها. كانت ماريا تُحاول أن تُنصت إليها، لكن عقلها في وادٍ بعيدٍ. ما زال أبوها لا يتحدث معها، ولم يُخبره إليساندرو بأن محبوبها هو أمير باري. رفعت عينيْها إلى كاترينا.. لقد استطاعت أن تُبدل أخاها؛ إنها قوية. انتبهت على ذكر السراسنة، فاسترسلت كاترينا:

- منذ وعيت على هذه الدنيا وأنا أراهم في جنبات نابولي. أغلبهم يقطنون خانات قرب الميناء، يأتون

لنابولي في الصيف، تجارًا وبحارة. حين تطأ قدمُ قائدٍ منهم أرض المدينة، يهرع النبلاء كالقطط نحو وليمةٍ من السمك، ليروا ما يُمكنهم كسبه من ورائهم. سمعتُ يومًا إحدى النسوة ممن يعملن في خانٍ يستأجره السراسنة في إقامتهم، تقول إن ملابس العربي تبقى عطرةً حتى بعد غسيلها مراتٍ، فهم يعشقون العطر القوي. لقد عشنا أمدًا من الدهر في سلام معهم، وتعودت على مظهرهم يجوبون طرقات نابولي. كثيرٌ من فتياتنا رحلن مع الجند إلى صقلّية والأندلس.

بعث حديثُ كاترينا في نفسها ذكرى عمها كاراس، وقصصه التي لا تنتهي أبدًا عن السراسنة.

- كلنا بشرٌ على كل حال. ذات مرة، حدثتني الأم تيريزا عن راهبةٍ هربت مع بحارٍ عربي، وبعض صديقاتي قالوا إنها اعتنقت دينه الوثني، وبهذا ستُحرم من الملكوت. حينها سألتُ الأب مانويل عن السراسنة ودينهم، فقال لي إنهم أبناء هاجر، وأنهم يحكمون العالم الآن. لقد رأيتُ أسطول الأغالبة الحربي بعينيَّ يُبحر قبالة نابولي.. سفنًا كالجبال، لا مثيل لها.. أخشابٌ قويةٌ ومجاديف عملاقة؛ عند الغروب تظنينهم طيورًا عملاقة تطفو في الأفق. الدوق سيرجيوس ومن قبله أبوه تصالحوا معهم على الجزية، التي تُحصلُ أغلبها من التجار وأصحاب الخانات. ولكن كل شيء تبدل مع الحرب.. حصاد الحرب خرابٌ وقتلٌ وتشريد البشر. إنهم يتحاربون وفق أهوائهم، لا من أجل إيمانهم، أعني هؤلاء النبلاء والأمراء والبابا الجديد في روما.. ولا يدفع ثمن حماقاتهم سوى العامة.

- عرفتُ الآن كيف تغيَّر إليساندرو.

ضحكت كاترينا قائلةً:

- إن استطعتِ أنتِ أيضًا ترويض ذلك العربي، سيعود حتمًا.

تبدلت ملامح ماريا، تحسست عنقها قائلةً بأسى:

- هل تعتقدين أنه سيعود؟

- إن أحبك سيعود.. مهما كلفه الأمر.. إن الرجل لا يكف عن المحاولة؛ إن أراد شيئًا سعى له.

حديث كاترينا كان شمعة أمل في غابةٍ مظلمةٍ تُصارع الرياحٍ لتبقى. لكن أتت الريح سريعًا في صورة ضحكات فيولا، تقف على مقربةٍ منهما وعلى شفتيها ابتسامةٌ ساخرةٌ. اقتربت منهما:

- سمعتُ حديثكما عن الرجال والسراسنة، ولكن يبدو أنكما لا أنكما لا تعلمان شيئًا عن الرجال.

رمقتها كاترينا ممتعضةً بينما أغمضت ماريا عينيْها، لا تُريد أن تراها:

- كُفي عن صفاقتك يا فيولا!

- صفاقة! لقد أردتُ أن أدلو بدلوي فيما تتحدثان، فصديقتك من نابولي لا تعرف أن السراسنة يختتنون. الأم تيريزا أيضًا تقول إن عضو أحدهم كحبة الفاصولياء..

كانت فيولا وقحةً لأبعد مدى، فصدم الفتاتين فجورُ حديثها. أمسكت ماريا بيد رفيقتها، وسحبتها نحو التلة دون أن تنطقا بكلمةٍ، فتبعتهما ضحكاتُ فيولا التي اعتراها غضبٌ ومقتٌ لهما:

- لا تتظاهرا بالحياء، الرجال يتزوجون القديسات، ولكنهم يُفضلون العاهرات.

كل يوم تبغضهم فيولا أكثر. تركها الدوق، وفقدت فرصة الزواج من إليساندرو، وصارت مجرد عاهرةً القرية.

****

ازدحمت الكنيسةُ الصغيرةُ بأهل سان فيلي، على غير العادة. لم يأتوا لسماع عظة الأب ليو الرتيبة، بل كان الفضول لرؤية إليساندرو عن قرب هو ما يُحركهم. أقنعت كاترينا صاحبتها بالخروج إلى الكنيسة معها، لعل نفسها تصفو بنفحات الرب. بدأت العظة، واندمجت ماريا في صلواتها، لكن كاترينا قاطعتها لتسألها عن سباستيان الذي يُتابعها بوقاحةٍ منذ أن وطئت قدماها القرية، حتى صارت تخافه. أخبرتها ماريا أن سباستيان كان حطابًا ثم أصبح صاحب حانةٍ ولديه الكثير من العاهرات أتى بهن من روما، ثم أغمضت عينيْها وعادت لصلاتها. بعد الصلاة، انفضَّ الجمع، ولم يسمعوا حكاياتٍ منّوا أنفسهم بسماعها من إليساندرو، لكن بدا جليًّا أنه تغيَّر كثيرًا. اختلى إليساندرو بالقس، فاعتذر له عما بدر منه سابقًا. حديث لم يتوقع الأب ليو أن يسمعه يومًا من ذلك الفتى. وبينما يتحادثان دخل فتى يصيحُ:

- هناك جنودٌ يقتربون من بوابة القرية..

منذ أسابيع مرَّ الجيشُ من هنا، والآن لم يعد منه سوى أربعة رجال. قرب المذبح المُضاء بالشموع، وقف الأب ليو صامتًا إلى جوار لورينزو وولده، وقبل أن يتخذوا أي قرار، فُتح باب الكنيسة، ليدخل أربعة رجال لم يستطيعوا رؤية وجوههم، حيث ضوء النهار قادمٌ من خلفهم. كان أحدهم هَرمًا، ويبدو ذلك من مشيته وشعره الفضي، يتوكأ على ذراع شاب ممشوق القوام يمشي بخطى ثابتةٍ، ويرتدون جميعًا الدروع التي تحمل نقش الخنزير البري. قطع الأب ليو الصمت بصوته الرخيم:

- هل نستطيع مساعدتكم أيها الفرسان؟

ابتسامةٌ شاحبةٌ رُسمت على وجه كبيرهم، الذي قال بصوتٍ يحمل الأسى:

- نحن كل من تبقى من نبلاء جيش بنفينتو.. إن السراسنة قريبون جدًّا من هنا.. والدوق ماركوس أسيرٌ لديهم.

اتسعت عينا لورينزو وهو يتقدم مادًّا يده للرجل:

- لا يجهل الدوق سوى قروي جلف.. ولكن هلَّا قصصت علينا ما حدث.

زاغت عينا الفارس، وراح ينقل بصره بين إليساندرو ووالده. أحاط الصمت بالقاعة، سكن كل شيء إلا نثرات من غبار تحرك عبر خيوط الضوء، التي نفذت من النوافذ ذات الزجاج الملون. تقدم الرجل بضع خطوات ليقف أمام الصليب الكبير ويوليهم ظهره:

- لقد كنا في طريقنا إلى نابولي، حين أتانا رسولٌ من جيش السراسنة، برسالةٍ تأمرنا بالعودة إلى

بنفينتو، فالحربُ انتهت.. ولكن الرسول تطاول على الدوق ماركوس. لقد تحملنا من الإهانة ما يكفي قبل أن يقتله الدوق.

استدار ليواجه المذبح. أطال النظر بوجه الأب ليو، قبل أن يُكمل:

- لقد كان من الخطأ قتله.. أعترف بذلك؛ فحين أتى الصبح كان ثلثا الجيش قد تمت إبادته.

كان يعتصرُ قبضته، في فعلٍ ينم عن غضبه الشديد. ربت الأب ليو على كتفه:

- لا عليك.

تقدم إليساندرو ليقف قبالة الدوق الأقصر منه طولًا:

- وما الذي يجعلنا نصدق ما تقول أيها النبيل؟

تجهَّم وجهُ الفارس، وتوتر رجاله الواقفون قرب الباب. أمسك لورينزو بذراع ولده:

- عذرًا سيدي، إنه غرٌّ لا يعي ما يقول..

قاطعه إليساندرو بصرامةٍ:

- أبي، لقد وثقنا من قبل في دوقٍ آخر، لا نعلم مصيره الآن، فما الذي يجعلنا نثق في بضعة رجالٍ يقولون إن أخًا غير شرعي لصاحب بنفينتو أسيرٌ لدى السراسنة.

صاح العجوزُ:

- احفظ لسانك يا فتى.. وإلا قدمته لكلابي على العشاء.

ابتسم إليساندرو وهو يلتفتُ في المكان:

- لا أرى هنا سوى بضعة رجالٍ مذعورين. هل تُخبرني بما حدث. لنصدقك أكثر!

تفحصه الرجل، وكأنه يُعيد تقييم أهمية هذا الشاب بين الرجال الكبار الذين جاء يُحادثهم..

- لقد اجتاحوا كل قرى الجنوب، حتى وصلوا إلى حصن فوجيبيا. تمرد الجند وسلموا الحصن، بعدما أوقعوا الكثير من رجالي. الخونة.. لقد أمعنوا في إذلالنا، وحين منح أميرهم الأمان لهم ولأهل القرية، ناشدوه أن يقتلنا.

ابتسم إليساندرو. كان يُفكر في الأمر من ناحيةٍ بعيدةٍ عما يحكي الرجل.. إنه حاكمٌ باعه شعبه وطالبوا بقتله، فلماذا؟.. سأله:

- وكيف هربت من الموت؟

التفت إليه:

- لقدأطلق أميرُ السراسنة سراحنا. لا تعجبوا، لقد عارضه رجاله، لكنه قال لهم إنه لم يعد بحاجةٍ لقتلنا، بعد هلاك جيشنا بأكمله. من قاوموا في فوجيبيا قُطعت رؤوسهم جميعًا. لقد أسر الدوق

ماركوس وأرسله إلى باري، في انتظار الفدية التي طلبوها.. نحن ذاهبون لننقل الرسالة إلى الدوق إديلكي في بنفينتو، ولهذا أبقوا على حياتنا.

سأله إليساندرو:

- هل يعلم ذاك الأمير أنه لم تعد هناك قواتٌ أخرى من بنفينتو في هذه الأنحاء؟

- نعم، لقد سمعته يتحدث مع أحد رجاله بأن حصن فوجيبا هو الأخير. أعتقد أن عليكم الرحيل لبعض الوقت.. ومن ثم العودة.

نظر لورينزو لابنه، لا يدري كيف صار يتحدث هكذا كقائدٍ خبير، أكثر حكمة ومعرفة بأمور الحرب من أبيه ومن الأب ليو. إليساندرو لم يرد إلا بعد أن أخذ بعض الوقت ليتفكر فيما سمع، ثم قال:

- حسنًا أيها النبيل، شكرًا لرسالتك.. أتمنى أن تبقى لتحصل على كرم ضيافتك ومؤن رحلتك نحو الشمال.. الأب ليو سيقوم بتلبية متطلباتكم..

وجَّه لورينزو حديثه لابنه، وهو يشعر بداخله أن الأمر يختلط عليه، أهذا ابنه المدلل أم قائده:

- يا ولدي، أوليس علينا الاحتراز؟

التفت إليساندرو للفارس مرةً أخرى:

- معذرة سيدي.. هل أحصيت أعدادهم..

- ليسوا بالكثير. لقد استخدموا حيلةً لإيهامنا بكثرتهم، بينما عددهم بين السبعين والمائة فارس.

ابتسم إليساندرو وهو ينظر للأب ليو:

- إنها مفرزة على الأرجح. ستعود جنوبًا، ولربما لن يتركوا حاميةً في حصن فوجيبا. العرب لا يخوضون الحرب في الثلوج والبرد. الحرب انتهت يا أبي.

****

مكتبةٌ ضخمةٌ، تحوي لفائف وكتبًا استجلبها من وراقي قرطبة وبغداد، ومنضدة تزاحمت عليها الأغراضُ، وعمامة زرقاء.. حامل شموع من الفضة، محبرة، ورسائل حُملت عبر بحر الروم إليه. كان يجلس قبالة النافذة. ضوءُ الشمس غمر وجهه ذا التجاعيد، وشعره المنسدل إلى كتفيه يقطر زيتًا. أزال عصابة عينه الأخرى، وأمسك إحدى الرسائل يُطالعها.. ابنته الكبرى انتقلت إلى دمشق، وصار لديها صبية ثلاثة. رحلوا عن مصر حين أعلن ابن طولون نفسه سلطانًا، يدين للعباسيين بدعاء من فوق المنابر فقط. انشغل خلفاء بني العباس بالترف واللهو. يقلب الرقعة تلو الأخرى، وعقله يبحث إمكانية حدوث وحدةٍ بين إقريطش وباري. زواج رَملة من سَودان سيمنح الإمارتين رباطًا قويًّا، وقد يأتي يومٌ يرث فيه ابن سَودان ملكهما، أو يرث شعيب بن عمر مُلك زوج أخته. عليهما أن يتوحدا قبل فوات الأوان، فإن أرض الإسلام تتفتت، ولا بد أن يبزغ من يواصل الطريق

ويحفظ الثغور البعيدة. جال بخاطره في ماضٍ بعيدٍ.. مدينة سوسة على الجانب الآخر من البحر، حيث نشأ. رحلة طويلة قضاها في تلك الدنيا، أمست لحظاتٌ عابرةٌ تمر بعقله بين الحين والآخر. أنهكته الحروب وإدارة شؤون الإمارة. حتى حربه الأخيرة في ساليرنو، لم يحظ فيها بما تمنى. تحسس ظهره الذي عاد يؤلمه مرةً أخرى مغمغمًا: لقد هَرمت يا سليمان. التقط رقعة، وأزاح عنها ختمها الأحمر، وانهمك في القراءة حتى قطعها صوتُ خادمه:

- سيدي، الأمير قسورة يُريد مقابلتك.

دخل قسورة باسم الوجه، يرفل في ثيابٍ أنيقةٍ:

- كيف حالك اليوم سيدي القاضي؟

- بخير.. اجلس يا قسورة!

لملم قسورة طرف ردائه وهو يجلس قبالة أبي المغوار:

- هل من أخبارٍ جديدةٍ عن الأمير سَودان؟

- لا جديد.. ولكن أظنه سيكون هنا خلال أيامٍ. في الحقيقة، أنا لا أقلق على سَودان سوى من نفسه، أما الأعداء فهو كفيلٌ بجيشٍ منهم.

سكت قليلًا، وفكَّر أن من الأفضل أن يُغلق الحديث عن سَودان..

- حدثني الرجال عن المعركة الشرسة التي قدتها أنت، وكيف أظهرت شجاعةً وبراعةً منقطعة النظير..

- لم أفعل سوى ما يجب عليَّ فعله.. لم أحارب وحدي، لقد كان معي جيشٌ كبيرٌ، ولا يجب أن يُنسب ذلك المجد لي وحدي..

- التاريخُ لا يذكر سوى القادة النجباء يا قسورة.. كيف حال الأغلبي اليوم؟

- ذلك الطبيب الرومي أصر أن يبقى هو ورجاله عنده، ليتولى رعايتهم، وليكونوا بعيدين عن أهليهم حتى لا يتفشى المرض.

نهض أبو المغوار حاملًا بعض الرقع، راح يرصها في المكتبة الكبيرة:

- ما رأيك فيما يفعل سَودان، وتلك القرارات التي لا يُنصت فيها لأحد؟

لم يستطع الثبات على قراره بإغلاق الحديث عن سَودان. يمكنه الوثوق بقسورة وسماع رأيه. عَدل قسورة من وضع خنجر أبي المغوار على الطاولة:

- إنه يقومُ بما يجب على القائد فعله سيدي.. قد لا يُنصت إلينا، ولكنه يحمل على عاتقه أمورنا جميعًا..

التفت إليه أبو المغوار:

- لقد تحدثت مع ذلك الطبيب الرومي الليلة الماضية. أظن أن هناك أشياء عديدة لم تذكرها لي.

عقد قسورة حاجبيْه، بينما أخذ أبو المغوار يُكمل:

- أعلم أن سَودان يخوضُ معركته الخاصة الآن.. إنه يأبى الهزيمة والتراجع كما عهدته دومًا. أذكر يوم كان شابًّا يافعًا، لم يستطع الأغلبي أن يهزمه، رغم الفارق الجسدي بينهما. حفنةٌ من ترابٍ جعلت الأخير يتراجع، قبل أن يركله سَودان بصدره ليسقط أرضًا. وحين فتح الأغلبي عينيه، كان سنُ رمح سَودان يُلامس رقبته. إن سَودان يملك إرادةً وعزيمةً لا يملكها أحدٌ منكم، ولهذا اخترته للقيادة بعد الأمير مفرق. إنه يُجيد تدبر أموره، ولكنه كذلك يكتسب كل يومٍ المزيد من الأعداء والمتاعب. ماذا لو لم يعد سَودان من معركته الخاصة؟

أطال قسورة النظر إلى وجه أبي المغوار، لا يفهم ما يقصد العجوز. باغته أبو المغوار:

- قد يعود سَودان آخر من تلك الرحلة. وكما قلتُ لك، لا أخشى شيئًا عليه سوى نفسه. ما يجعلني مطمئنًّا يا قسورة أنك إلى جواره. وإن لم يعد، فعليك أن تتجهز لزواجك الرابع.

اتسعت عينا قسورة.. فاجأه ما يقوله العجوز، الذي تابع في هدوءٍ حاسمٍ:

- يومان ويصل الأمير شعيب الأول، أمير إقريطش. إنه شقيق الأميرة رَملة، سيأتي ليحضر احتفالات النصر، وسيبقى معنا طوال الشتاء. لقد أرسلت الهدايا لحلفائنا ولولاة الجنوب في برنديزي وتارنت وجميع حصون كالابير، ليعلم الروم أن إمارة باري قوة لا يُستهان بها، وأننا أسياد الحرب.

غمغم قسورة:

- احتفالات النصر!

- إن للعدو عيونًا بين ظهورنا، يجب أن يروا ما نريدهم أن يروه..

****

ليلةٌ طويلةٌ وريحٌ شديدٌ، وبرودةٌ جعلت أهل سان فيلي يأوون إلى أكواخهم مبكرين. حانة سباستيان خاوية منذ أمس، فالجميع مشغولون بإتمام بناء الأسوار، ينامون مبكرًا ويستيقظون مع الشروق للعمل. تجرَّع ما بكأسه دفعةً واحدةً.. تجشَّأ، ثم انفجر في الضحك. رمقه كلبه وقد انتصبت أذناه دون أن يرفع رأسه. أصاب صاحبه الجنون. كان سباستيان يشتهي النظر لتلك الفاتنة من نابولي. رغم تخطيه الخمسين، إلا أنه يُفضل اليافعات. زوجته هجرته منذ زمنٍ بعيدٍ، ورحلت مع طفليه إلى روما، وعاش كحطاب لا يُعيره أهلُ القرية أي اهتمام. يُبغضهم جميعًا. الليالي الباردة تقسو فيها الوحدة، وكل فلاح وضيع هنا ينعم بدفء زوجته، إلا هو. صبَّ كأسًا أخرى. نخبًا للدوق ماركيزيو، الذي منحه من الأموال ما جعله يفتتح ذلك الماخور. كان سعيدًا بباب رزقه الجديد، إذ يحصل على أموال القرويين، وعلى صُحبة في الليل. لكن الحانة خاويةٌ مرة أخرى، وفيولا لم تعد تأتي لتزوره. يعلم أنها تشمئز منه، ولكنها تحتاجُ للمال.. لم تعد هي الأخرى كما كانت، صارت أكثر عدائيةً منذ حلَّ ملاك نابولي بالقرية، وتبدل حال إليساندرو. محق هو إليساندرو، فزوجته قديسة دائمة الذهاب إلى الكنيسة، جميلة نضرة، يُحبها العامة ويُبجلها الأطفال.

- اللعنة على فيولا.. وإليساندرو.. وأبيه.. اللعنة على كل أهل سان فيلي

تمتم بلعناته وهو يجرُّ قدميْه إلى خارج الحانة. الهواء البارد لفح وجهه وهو يسيرُ نحو الأشجار، ويتخطى بوابةً لم يكتمل بناؤها. توقف قرب شجرةٍ كبيرةٍ، ففك إزاره وأنزل سرواله ليتبول على جذع الشجرة، وأغمض عينيه يتذكر كاترينا، و.... كتمت أنفاسه يدٌ غليظةٌ، تبعتها عصابة عين التفت سريعًا حول رأسه. حاول التملص، ولكن أيادي عديدة أمسكت به وحملته..

حظ عاثرٌ وليلة لا قمر فيها. ألقي سباستيان أرضًا، فحاول النهوض، فدفعه أحدُ الرجال ليسقط مرةً أخرى. أصابه الهلع، وراح يُطلق همهماتٍ مكتومةً بفعل الرباط. صوتٌ مهيبٌ حدَّثه باللاتينية:

- لن تُصاب بمكروهٍ إن أنصتَّ لي جيدًا.

أشار سَودان لأحد الرجال، فأزال الغمامة عن عينيْ سباستيان. على ضوء المشاعل متراقصة اللهب، رأى فرسان السراسنة في دروعهم الخفيفة، على جيادٍ قويةٍ. جحظت عيناه وهو يُدير عينيه بهم. انتحب في أسى، قبل أن يأتيه صوتُ أحدهم:

- لا تولول كما النساء يا هذا.. لن يصيبك مكروه، إذا تعاونت معنا.

رفع وجهه متأملًا شرحبيل الكلبي. كان يُمسك بمشعلٍ ويقف بالقرب منه.. أشقر اللحية، عيناه الزرقاوان مكتحلتان، تقدم من جانبه الآخر سَودان، فالتفت العجوز بتوجس، تحول لهلعٍ حين رأى وجهه. يعرفه جيدًا.. يذكر يوم كان يسير فى القرية مع الطبيب كاراس.. ويوم حاصره مع النبيل لورينزو عند البحيرة.. دنا منه سَودان:

- أعتقد أنك اكتفيت من التأمل في وجوهنا. الآن أخبرنا كم عدد الجنود في القرية؟

تعرَّق سباستيان وانتفض حين رأى شرحبيل يُمسك بخنجرٍ، ويقترب منه حتى لامس خده بالنصل، قبل أن يقطع كمامة الفم. تنفس الصعداء، وسَودان يقول بصرامةٍ:

- لا يُعيقك شيء عن الحديث الآن.

منذ لحظاتٍ كان يظن أنه أسير الخمر؛ ولكنه أيقن حين نزع اللجام عن فمه أن ما يحدث حقيقة. بصوتٍ مرتعدٍ تحدَّث:

- أرجوكم لا تقتلوني.. أنا سأنفذ كل شيء تأمرون به.. ليس هناك حرس للقرية، وجنود بنفينتو رحلوا أمس. لا أدري ما حدث بينهم وبين النبيل لورينزو، أقسم لكم.. منذ عاد إليساندرو من الحرب أصبح الكل يعمل من أجل القرية لإتمام بنائها وكفى.. سمعت أنه يريد الانتهاء من كل شيء، ومن ثم يُعين الجند والحراس.

رُبط سباستيان إلى شجرةٍ، وتابعهم وهم يمتطون خيولهم باتجاه القرية، فابتسم وعيناه تُحملقان في المشاعل التي راحت تبتعد.. اختفوا عن الأنظار، وتركوه وحيدًا في غياهب الغابة المظلمة، وما هو إلا أقل القليل من الوقت، وتناهت إلى مسامعه صيحاتٌ وصراخٌ.

وقع حوافر الخيل وصيحات الجند أصابت القرية بالذعر. أحكم الجند السيطرة على القرية في لحظاتٍ. سحب إليساندرو سيفه، وركض عبر الرواق، وسط هلع زوجته وتوسلات أمه. فتح الباب، فوجد الجياد تنفث أنفاسها وقوائمها تضرب الأرض دون توقف، وأباه يقف فزعًا. أمسك بكتف ابنه الذي

يقبض على سيفه شاهرًا إياه في وجوه الفرسان، وقال له:

- ألقِ سيفك يا بُني!

عضَّ إليساندرو على شفتيه وهو يرمق الخيالة في تحدٍّ. كانت كاترينا تشهقُ باكيةً، والأم الواهنة تقفُ ضامة كفيها فوق قلبها لا تنبس بكلمة، وحتى ماريا خرجت من عزلتها، لتقف خلف أبيها الذي تحدث باللاتينية:

- لسنا قوم حرب. خذوا ما تُريدون، وارحلوا دون أن يتأذى أحد.. أرجوكم!

دفع إليساندرو أباه بقوةٍ رافضًا ما يقول. كان يشعر بأن الإهانة تُغرقه، فالموقفُ ليس هزيمة حرب، بل هو أشبه بهجمة لصوص على داره ونسائه. بدا كمن فقد عقله وهو يركض صارخًا نحو الفرسان، خطوات فقط كانت تفصلُ بينه وبين أقرب جواد، حين اقشعر الناظرون لصوت سوط طويل التف حول عنق إليساندرو، فخرَّ على ركبتيه متألمًا، مكفهرًّا وجهه وقد انتفخت العروق برقبته. حاول النهوض، فجذب شرحبيل السوط ليُسقطه أرضًا مرةً أخرى:

- ليس هناك مجالٌ للبطولة يا رجل.. الأبطال لا يموتون بالحماقة.

هرع لورينزو نحو ابنه المُلقى أرضًا:

- أتوسل إليكم.. لا تقتلوه، إنه ابني..

أرخى شرحبيل السوط، ليحرر الأب ابنه، ويحتضنه باكيًا، والفرسان يترجلون، ويُحيطون المنزل. أمر أحدهم النساء بالخروج، فركضن نحو رجليهما، وقد انفجرت دموع كاترينا وهي ترتمي في صدر زوجها، وأمه تفحصه في هيستيريا وتكرر: أأنت بخير يا ولدي.. أومأ برأسه، وعيناه ترمقان فرسان السراسنة يخرجون من منزله حاملين صندوقين كبيرين يحويان الفضة والذهب. صاح قائدهم في لورينزو، الذي جحظت عيناه:

- والآن لنتحرك إلى ساحة القرية.

كان لورينزو جامدًا. ثروته تضيع أمام عينيه، وابنه مصاب، وهو لا حول له ولا قوة. جرُّوا أقدامهم مُحاطين بالخيل، وماريا تكذِّب نفسها، ليسوا هؤلاء قوم سَودان. كانت تتلفت كثيرًا.. الفرسان ينتشرون في جنبات القرية، حاملين مشاعل بددت عتمة الليل، وأهل القرية يقفون في صفين محاطين بالجند. في ساحة القرية، كان العدد الأكبر من الخيول الحربية، يقف في صفين متقابلين. دفع أحدهم لورينزو ليسقط أرضًا على وجهه، فهمَّت إيلينا تساعده على النهوض، ولكن نظرةً من شرحبيل جعلتها تعدل عن الأمر. غضبت ماريا.. صاحت في وجه شرحبيل بالعربية:

- لقد أخذتم ما تُريدون.. اذهبوا واتركونا.. وإلا سأشكوكم لأميركم سَودان.

وعلى ضوء المشاعل، كان الفرسُ الأبيض يتقدم بخطواتٍ من كبرياء. إنها الهجان ودرعها الحربية، تتهادى في خطواتها، وعلى صهوتها سَودان رافع الرأس، ثقته تمنح الفرس كمالها. توسط دربًا يُحيط جانبيه فرسانه بمشاعلهم، ولون الفرس الأبيض يتوهج بحمرة اللهب. عرفته منذ الطلة الأولى، فاتسعت عيناها واختلطت مشاعرها، وقد تعلق بصرها به. قبض على عنان الفرس، لتتوقف أمام لورينزو المُسجى تحت حوافرها. كانت ماريا تُحدق في وجهه، وتنهارُ بداخلها أحلامٌ يستحيل أن تعود كما كانت. رقَّ قلبه لروعها، ولكنه حافظ على رباطة جأشه.

- ها قد عُدت سيد لورينزو.. ما الذي يمنعني عن قتلك الآن؟

تعلقت العيون بلورينزو، الذي نكس رأسه دون أن ينطق بكلمةٍ. فرس سودان التفتت نحو ماريا التي رمقتها بنظرةٍ خاويةٍ، وحاولت أن تستجمع قوتها وترد عن والدها، ولكن الكلمات تبخرت حين فتحت فمها. التقت عيناهما.. كانت أول مرةٍ يرى عينيها ممتلئتيْن في لقائه بالحزن والأسى. التفت إلى إليساندرو، الذي تخطى أباه بخطواتٍ واهنةٍ. تذكر سَودان أين رأى الصليب الذي وجده في القرية المحترقة. وقف إليساندرو أمامه: ألم تنتهِ الحرب يا أمير باري؟

نطقها باللاتينية. فهمها الجميع، ورفع أبوه رأسه لينظر في وجه سَودان، وإليساندرو يُكمل:

- ليس لك هنا أي شيء..

صاح به سَودان:

- لي كل شيء.. ولن أرحل دونها.

تبادل إليساندرو النظرات مع أخته، التي خفضت رأسها وهي تقول بخفوتٍ:

- لن أرحل معك يا سَودان.. ليس مَن أمامي الآن هو من ظننت أني أعرفه.

فُوجئ سَودان، بينما ابتسم إليساندرو في عزةٍ:

- لقد فعلتُ كل هذا من أجلك.. ذلك الرجل من سلبك مني ووضع سيفه على رقبتك..

- إنه أبي..

لم ترفع نظرها نحوه..

- لن أتركهم يا سَودان.. ليس بعد ما فعلته بعائلتي.

- ماريا!

فرَّت من ندائه، فتلقفتها كاترينا بين ذراعيْها. أجهشت بالبكاء.. لم تستطع أن تتماسك أكثر من ذلك. انتبهت لصوت إليساندرو:

- لقد سمعتَ ما يكفي.. فلترحل في سلام، كما جئتنا أول مرة. حربك هذه المرة خاسرةٌ يا صاحب باري.

كان شرحبيل يفهم ما يدور. انتظر أن يضرب سَودان ذلك الشاب بسيفه، ولكنه لم يفعل. كان سَودان شاردًا مع ماريا وكلماتها. لقد غرست بقلبه رماح الغدر؛ هكذا ظن حين اعتراه الانكسار. لكز فرسه لتتقدم بضع خطوات وهو يُعيد رجاءه عليها:

- تعالي معي إلى باري، ماريا..

لم تُجبه. ظل مكانه، عيناه ترجوانها، فتدخل شَرحبيل محدثًا إياه بالعربية:

- أعطنا الأوامر لنضرب رقابهم ونأتي بها سبية تخدمك..

نظرت إليهما في كَرهٍ، ورمقه سَودان بغضبٍ:
- مُر الرجال بالانسحاب وترك كل الغنائم.

- ماذا؟!

أعاد على مسامعه:

- خذ الرجال وارحلوا، واترك الغنائم كما هي.

تردد الرجال قبل أن يخضعوا لأوامره. رأى في أعينهم الحنق لما أكرههم عليه، نقل بصره إلى إليساندرو:

- لو لم تكن تلك المعاهدة قائمةً، لقطعت رأسك يا فتى.. لحرقِك أفيليانو.

- إنها الحربُ أيها الأمير.. ولكل حرب ضحايا.. ولا ضير من هزيمةٍ بين مجمل انتصاراتك.

كان الجنودُ يرحلون تباعًا عن الساحة، وفرس سَودان تدور في مكانها، مما جعل إليساندرو يتوتر، وسَودان يصيح باللاتينية محدثًا أهل القرية:

- تلك الغنائم والأسلاب ملكٌ لكم.. ولن تعود إلى منزل لورينزو مرةً أخرى..

سمعته ماريا التي لم تكف عن البكاء، ويد كاترينا تربت على ظهرها. أما هو، فقد كان بداخله بركان أوشك على الانفجار. لم يُظهر الضعف ولن يُظهره.. كان يشعر بأنه يترنح على جسر اليأس، لا يعرف أيبغضها وقد خذلته، ام يستبقي أملًا ممزوجًا بألمٍ في صدره:

- تعرفين الطريق يا ماريا.. تعرفين أين تجدينني.

نطقها وهو يلكز الفرس لتنطلق وسط جنده الخارجين من القرية. حين سمعت وقع حوافر الفرس يبتعد، رفعت رأسها تبحث عنه. لم تُغادر الصرخة حلقها، ترددت في جنبات جسدها، وزلزلت روحها زلزالها، ثم سقطت أرضًا.

****

خذلانُ المحبوبِ للعاشقِ يكاد يُودي به للجنون. لم يفلح المطرُ الخفيفُ في إخماد نيرانه، رافقه جرحٌ يأبى الاندمال. هو من قَاد الرجال عبر الدروب الوعرةِ، والعواصف، وخيلٍ تسابق الريح خذلته امرأةٌ. في عودته إلى باري، لم يهتم كثيرًا بالرجال الذين تهامسوا عما فيه من ضَعفٍ. مرُّوا بقرى خاويةٍ على عروشها، تلك التي أبادها رجاله، فحَزِن ولام نفسه على ما فعله شرحبيل. أقبل الليلُ فأصرَّ على عدم التوقف، الأمر الذي لم يستسغه الرجالُ، وهم يختلسون الحديث فيما بينهم أن الأمير لم يفِ بما وعدهم من غنائم وأسلابٍ. توقف المطر، وهيمنت غيومٌ حمراء على الأفقِ، وتهادت الخيول المُنهكة على درب العودة إلى باري. تناهى إلى مسامعه حديثهم، فأوقف الفرس بغتةً، بينما مرَّ شرحبيل نائمًا فوق جواده. أشار للجند بالاستمرار في التقدم، وهو يُحدق فيهم بصرامةٍ، فمرَّ الرجالُ تباعًا حاملين على عواتقهم تلالًا من فضولٍ عما أصاب أميرَهم..

- توقفوا!

كلمته جعلتهم يجذبون عنان الخيل، ورفع شرحبيل جفنيْه بصعوبةٍ، لينظر عن يمينه وشماله قبل أن يلتفت للجند المستمعين لحديث سَودان:

- اعلموا أن نصيبكم من الغنائم ستحظون بها كما وعدتُ. ولكن عليكم أن تُبادروا بالتوبة عما اقترفته أيديكم. لقد نُزعت الرحمة من قلوبكم، كما يُنزع الصوفُ عن البعير. إنكم أفضل الفرسان وأشجع الرجال، ولكن ليس مكانكم الحرب بعد الآن.. حالما نعود إلى باري، ستُسلمون دروعكم وحرابكم إلى القصبة.

لم يُعر همهماتهم أي اهتمام، بينما حثَّ فرسه للمضي. أفاق شرحبيل من شروده حين مرَّ به سَودان، فلكز فرسه وهو يصيح بالجُند لاستئناف المسير. اقترب من صاحبه يهمس:

- كل هؤلاء تطوعوا من أجل اللحاق بك.. تبعوك أنت، وذهبوا معي للبحث عنك، فلا يجب أن يكون هذا جزاءهم.

- إن الأمر يشملك أنت أيضًا يا شرحبيل..

للوهلة الأولى لم يُصدق ما سمعه. لطمة أخرى من سَودان، الذي صار يتمعن في إخضاعه. لم يكن ذلك عهده به طوال سنواتٍ رافقه فيها. كانت للأمر مرارةٌ تسري بصدره، حاول أن يُؤجل الحديث حتى العودة إلا باري، إلا أنه لكز مطيته لتُسرع قليلًا، فلحق بسَودان:

- ما تراه صوابًا هو الصواب.. وأحفظ لك عدم البوح بعزلي أمام الرجال. ولكن أخشى أن الأمر لم يرق لهم..

- لقد رأيتُ في عيونهم الشبق للقتل في سان فيلي.. همساتهم الخافتة تُعلن عن تذمرهم لتركنا الغنائم خلفنا.. يقولون إن أميرهم حرمهم من الأسلاب من أجل امرأة.

- لقد جاءوا معك لأجلك فقط..

- بل تبعوني من أجل الغنائم، وقد أوجعهم تركها.

- ولكن..

قاطعه سَودان:

- فلتكن الاستراحة هنا حتى الصباح.

****

ليلةٌ هادئةٌ بقلب الغابة، خلد الجميعُ إلى النوم، بينما أسند سَودانٍ ظهره إلى شجرةٍ، وأغمض عينيْه يجتر لحظات النهاية. لقد رأى في عيون الجند حينها نظرةً عجيبةً تُنذره. همساتهم طوال الطريق، أخبرته أن فئةً من رجاله قد تمردوا. حاول أن يُزيح الارتياب جانبًا، ولكن حدسه يلح عليه أن هناك

من يترصد به. قرَّر استفزازهم.. في البداية عزلهم، قبل أن يهمس في أذن تابعه أن هناك عقابًا آخر ينتظرهم في باري. نهض ممسكًا بجذوةٍ، أشعلها من نيران المخيم وابتعد بين الأشجار الكثيفة، ثم توقف محدثًا نفسه:

- هل تكفي هذه المسافة للغدر بي؟! أم نتوغل أكثر، حتى يتسنى لكم قتلي بهدوءٍ؟

ابتلعت الغابةُ كلماته، ليعم السكونُ مرةً أخرى. استدار مُحدثًا العدم:

- لا داعي للاختباء، أروني وجوهكم؟

مع آخر حروفه، برزوا من خلف الأشجار. سبعة رجال يُشهرون سيوفهم التي تضوي مع ضوء مشعله. ابتسم سَودان ساخرًا:

- كنتُ أظنكم أكثر من ذلك.. حسنًا، فلننهِ الأمر الآن!

لم يتحركوا. كانت الدهشة تعتريهم، كيف علم بأمرهم! تبادلوا النظرات فيما بينهم، يتساءلون إن كان قد أعدَّ لهم كمينًا.

- هل سننتظر كثيرًا.. أم تراجعتم عما عزمتم؟

أحسَّ الرجال أنهم مقتولون لا محالة، إن لم يقتلوا سَودان. انقضَّ عليه رجلان، بينما وقف البقية متحفزين. كان هجومهما سريعًا، ولكن ليس أسرع منه، فسحب سيفه وصد ضربة أحدهما بمهارةٍ جعلت الآخر يهجم، ولكن سَودان ضربه بالجذوة المشتعلة، فتهشمت على جسده واشتعلت النيرانُ في ملابسه، فراح الرجلُ يصرخُ ويجري، وينثر النار في الأشجار حوله، بينما كان سَودان يُبارز الآخر، ثم انقضَّ الآخرون، ستة مقابل واحد. كان يصد ضرباتهم، وقد ازدادت شراستُهم وعلت صيحاتُهم، وهو يثب بينهم وينحني متفاديًا هذا ليركل ذلك، قبل أن يصد سيفه ضربةً من آخر. جذوع الأشجار اشتعلت مع صليل السيوف، وسَودان يُحاول إصابتهم، وليس قتلهم، وهم يُقاتلونه في شراسةٍ، فقد غوى أميرهم واستخدم جيشه لا للجهاد بل من أجل امرأةٍ سلبته عقله، حتى إنه يُقرر أن يُسرِّح ثلة من أفضل فرسان جيوشه.

صاروا ثلاثةً لواحد، بينما راح الجرحى يزحفون بعيدًا عن النيران التي تمتد بسرعةٍ. ضربةٌ من سَودان تفاداها أحدهم، ليركل زميله ساق الأمير الأخرى، وحاول الثالث أن يشج رأس سَودان بسيفه، إلا أن الأخير تدحرج أرضًا ليطعن فخذ الأول، ولم ينتظر حتى يسقط الرجل، بل قفز راكلًا صدره في قوةٍ، وما إن اعتدل حتى صدَّ ضربةً من الثاني، ليمنحه هو ضربة على وجهه جدعت أنفه، فسقط الرجل صارخًا. اعتدل سَودان وهو يمسح الدماء عن نصل سيفه:

- الآن لم يبق سوى أنا وأنت..

بتر كلمته الأخيرة، حينما رأى شَرحبيل يقفُ ممسكًا برمحه. كان يُواجهه تمامًا، والنيران تُحيط بهم من كل مكانٍ. ظهوره جعل سَودان يغفل عن ذلك الشخص المُتبقي، واتسعت عيناه حين رأى شرحبيل يُوجه الرمحَ ناحيته.. ثم رمى.

استقر الرمح في صدر الخائن الأخير، الذي كان يقفُ خلف سَودان. لوهلةٍ أحسَّ سَودان أن الرمح

كان يستهدف قلبه هو. استدار، ليرى الصريع:

- ظننتُ بك ظن سوءًا يا شرحبيل. لكن ما كان عليك قتله.

انحنى شرحبيل متفحصًا أحدهم:

- الخونة يُقتلون.

سحب خنجره، وكاد أن يجز عنق الجريح، فأمسك سودان يده، ثم طلب منه بكلماتٍ يُقاطعها اللهاث أن يُبعدِ الجرحِى عن النيران، وتطبيبهم ثم تكبيلهم بالحبال على ظهور الخيل. سيُحاكمون في باري محاكمةً عادلةً.

وعلى الطريق إلى باري، تبادل سَودان وشرحبيل حديثًا طويلًا.

****

دخل سَودان باري في العشر الأوائل من ذي الحجة، في استقبالٍ يليقُ بالغازي المنتصر. تجملت الطرقات بالرايات والبيارق، وطليت الجدران ببياضٍ تداخلت معه خضرة الأغصان المهذبة، واحتشد الناس يرفعون أصواتهم بالثناء والدعاء. سار الموكبُ في خيلاء، يتقدمه سَودان باهت الوجه، يُلوح لفتى صغيرٍ فوق كتف أبيه. مضى العمر، وحَصلت على ما لا تريد، ومُنِع عنك ما أردت.. قسمة عادلة ربما إذا ما نظرنا لحال الآخرين. لقد سلم نفسه لفكرة أن ليس له إلا ما كُتب، فهدأ رغم الحزن. دخل القصر تاركًا شَرحبيل يقص على مسامعِ أبي المغوار أمر الخيانة. ناداه أبو المغوار، ولكن سَودان مضى دون أن يلتفت قائلًا: سنتحدث لاحقًا. ترك العجوز ذاهلًا، ودخل إلى غرفته وأغلق الباب، فإذا بمواجهته فتاة في غاية الحُسن من جواريه، وكأن وجهها لم يُخلق إلا للإغواء. فاجأه جمالها للحظةٍ، ثم ابتسم لها، وأشار إليها أن تنصرف، ثم ألقى بجسده إلى الفراش.

ثلاثة أيام مرَّت لم يره فيها أحدٌ، إلا حارساه المتناوبان على بابه. حتى وجباته كانت تُحمل عائدةً ولم يُؤكل منها إلا القليل. في فجر اليوم الرابع، خرج في أبهى إطلالةٍ، لاستقبال شعيب الأول أمير إقريطش، إذ كانت هذه هي المرة الأولى التي يزور باري. تجوَّل الزائر وصحبته بالقصبة والقصر، ودارت أحاديث لم تخلُ من الضحكات والترحيب، ثم توجه الضيوفُ إلى غرفهم ليستريحوا من مشقة السفر، فاختلى أبو المغوار أخيرًا بسَودان.

- وماذا بعد يا أمير باري؟

نظر إليه سَودان بعينيْن تخلوان من التعبير..

- لقد بسطت باري نفوذها حتى تخوم روما، وربيع الإمارة يُزهر كما ترى. أثق في اختيارك للأميرة رملة، ومقتنعٌ أن الوقت قد آنٍ ليكون لباري حلفاء من إقريطش. لقد دانت لنا كمبانيا وكالابيرا، ودفعت بنفينتو ونابولي جزية سيتذكرها أبناؤهم أبد الدهر، فقط لأنهم خانوا الميثاق. إن باري تستحق أن يُصبح لها سلطان كبقية الأمصار..

أومأ أبو المغوار موافقا؛ لكنه تأمله لبرهةٍ ثم قال برصانته المعهودة:

- هذا كله يخص باري.. ماذا عن سَودان؟

- ماذا عني؟! هل تريد مني أن أندم على ما فعلت؟ أعلم أن عصافيرك أخبروك بكل شيء حدث. والله لو أعيد الزمن مرارًا لاتخذت نفس القرار. الحب في قولك ضعفٌ؛ ولكني أقول لك هذه المرة إن الحب أقوى من نفوسنا الضعيفة. زواجي من رملة سيتم لصالح الدولة، لكنه لن يكون سوى زواج سياسي، وسأخبر أخاها أني أوافقُ على كل شروط الأميرة، حتى لو رغبت في الرحيل معهم إلى إقريطِش. يوم النحر سيكون يوم نصر باري، فدعنا نُرسل لولاة الأمصار بخبر النصر والاحتفالات.

كان سَودان جديدًا تمامًا على أبي المغوار، الذي بُهت وابتهج واضطرب فهو يعرف سَودان جيدًا، يُخفي أكثر مما يُفصح. تمنى القاضي أن الصفحة قد طُويت، أو على الأقل لا تُفتح قريبًا، وباري في ريعان ربيعها، الذي يعرف أن دوامه ليس يسيرًا.

****

(6)

أحاط دفءُ الشمس بمنازل باري، وتفتحت ورود الربيع بأحواضٍ عُلقت بالشرفات والنوافذ. الصيادون يحملون الشباك على أكتافهم عبر الطرقات، والصغارُ يلهون بسيوفٍ خشبيةٍ فوق الأرصفة، وعربات خشبية يدفعها الغلمان نحو الأسواق. جاء الربيعُ بعد شتاءٍ قاسٍ وحربٍ أقسى كُللت بالنصر.

بساحة القصبة، جلس ماركو مستندًا إلى الجدار. شاب وسيم أشقر، كان يُتابع المارة كزهرة دوَّار الشمس. راح يتنقل تحت السور العظيم، يُلاحق الدفء أينما حلَّ. دومًا يقضي وقت راحته في الجلوس وحيدًا، لا يتحدث كثيرًا، ولا يُخالط الخدم والموالي. أعتقه الأمير سَودان يوم زفافه على

الأميرة رملة، وكفل له معيشة كريمة وحجرة صغيرة بالقرب من مهجعه. ما زال يخدم في القصر، ووحده من الخدم مسموحٌ له بالولوج إلى الجزء الخاص بالنساء في القصر.. فلا خوف من خصيٍّ يخدم الأميرات.

يعشقُ الشمس، وتُلهب بحرارتها صدره بالذكرى الوحيدة العالقة به. كان في التاسعة من عمره حين خطفه النخاسون، وارتحلوا به مكبلًا عبر الوديان المغطاة بالثلوج، حتى أتت اللحظة الذي ذُبح فيها ذكره بنصلٍ ملتهب، وظل يُعاني لأيام بعدها من الرعب والحُمى. باعوه لبحارٍ من البندقية، ثم غرقت السفينة، ليُصبح أسيرًا لدى العرب في إقريطش. عامله البعضُ بسخريةٍ، ولكنه في النهاية حظي بحماية ورعاية شعيب، وأصبح خادمه الأمين، وجاء معه إلى باري. ومرة أخرى، وجد نفسه وحيدًا بعدما مات شعيب، وتزوجت رَملة من سلطان باري، الذي أعتقه. ما زال يحظى بمكانةٍ قويةٍ لدى الأميرة والطفلين.، لكنه لم يُحب ذلك الرجل، وكره أن يتزوج بزوجة صاحبه المُتوفى، ولكن للمسلمين أمورًا عجبًا. أيقظه أذان الظهرِ من غفوته، فرمق المئذنة الشاهقة وذلك الرجل أعلاها يُردد الكلمات داعيًا الناس للصلاة. نهض متثاقلًا يجرُّ قدميْه نحو القصر، عكس اتجاه سير الجموعِ. عند الباب الضخم، فوجئ بصاحب الشرطة شرحبيل الكلبي يرمقه وقد عقد حاجبيْه الذهبييْن قائلًا بصوته الأجش:

- ماركو! إلى أين ذاهب؟

اضطر الفتى للابتسام قبل أن يقول بخفوتٍ:

- ذاهبٌ لأساعد مولاي سَودان للوضوء، قبل أن يذهب للصلاة.

- لقد سبقنا السلطان إلى المسجد منذ حين. عليك أيضًا الذهاب إلى المسجد.. سترافقني.

انصاع ماركو لأمر شرحبيل، الذي يمتطي جواده، وراح يركضُ إلى جانبه. كان مقهورًا منكسرًا، يشعر بحرقةٍ تغزو عينيه، ولكنه تماسك. عند باب المسجد الجامع، ترجل شرحبيل ودلف عبر البوابة الضخمة المزينة بالنقوش، وسط ترحيبٍ وابتساماتٍ متملقةٍ، فتبعه إلى حيث يكتظ المصلون. أقيمت الصلاة، فوقف في آخر الصفوف بين الجموع باحثًا عن الله.. لم يكن يريد القدوم إلى هنا.. لم يؤمن يومًا، ولن يؤمن؛ فمن أخصاه كان مسيحيًّا ومن استعبده كان مسلمًا.

انتهت الصلاةُ، واجتمع الناسُ حول سَودان والقاضي أبي المغوار، في جلسةٍ قد تطول. تسلل خارجًا في عجلةٍ، وقد حثه عقله على لقاء الأميرة رَملة. لقد قرر الرحيل، وسيطلب منها الإذن في ذلك.

- ماركو.. تعال يا فتى!

التفت، فوجد الطبيب كاراس يبتاع بعض الأعشاب من عطارٍ جاءته بضاعةٌ حديثةٌ. كان يُحب ذلك الرجل، ولكن ذلك ليس وقته. توجه ناحيته:

- كيف حالك سيدي الطبيب؟

- كما ترى.. بصحةٍ جيدةٍ، وقدرةٍ عظيمةٍ على الفصال في البضاعة..

تابع مساعده بينما يضع الأجولة على ظهر الحمار، ثم التفت مرة أخرى إلى ماركو:

- إلى أين تذهب؟

الجميع يسأله إلى أين يذهب. الجميع يقفون في طريقه اليوم. زفر في قنوطٍ، وأجابه وهو يشير للدرب المؤدي للقصبة:

- عائدٌ إلى القلعة.. سأطلب من الأميرة رملة أن تأذن لي بالرحيل.

- الرحيل! إلى أين؟

- روما ربما.. أو البندقية.

- وما سبب ذلك القرار المفاجئ؟

سارا معًا خارجيْن من السوق..

- لقد سئمت ما أنا فيه، لقد سئمت كوني غلامًا مخصيًّا، لا يُخشى على النساء منه.

- هل سيُعيدون لك ذَكَرَكَ في روما أو البندقية؟.. اسمع يا فتى، انظر إليَّ جيدًا. ليس لي ولدٌ ولا زوجة، وحتى أخي يُبغضني. هل نفعني ذلك الشيء في حياتي؟ ما حدث لك قد حدث.. وله سببٌ يعلمه الرب. ولسببٍ ما يعلمه الرب أيضا، أنت هنا..

- ولكن....

- لا تُقاطع حديثي يا بُني.. أعلم ما تشعر به.

- في الحقيقة، أنا لا أشعر بأي شيء.

ضحك كاراس في هدوءٍ..

- أنت ثرثارٌ يا ماركو. قلتُ لك لا تُقاطعني.. انظر حولك! كل شخص من هؤلاء ينقصه شيء ما؛ لا أحد كامل يا بُني. في روما التي تريد الذهاب إليها سيتخذونك عبدًا، أو يُفعل بك ما هو أسوأ، ويطؤك الرجال في دبرك.. هل تفهم ذلك يا بني؟

رمقه ماركو بنظرةٍ خاويةٍ:

- أريد أن أذهب إلى مكانٍ لا يعرف فيه أحدٌ عني شيئًا. أن أُعامل كشخصٍ عادي.. أريد الحرية والبُعد عن هذه المدينة.. سأطلبُ منحة صغيرةً من الأميرة، وينتهي كل شيء.

سأله كاراس، وهو يتفحص انفعاله:

- لماذا لا تطلب من السلطان سَودان؟ إنه مالك كل شيء هنا، وهو من بيده الأمر.

صاح ماركو غاضبًا:

- لن تفهمني.. لن يفهمني أحدكم أبدًا.. فقط كل ما أريده الرحيل.

ركض نحو القصر تاركًا الطبيب وقد تفاجأ من رد فعل الفتى وغضبه حين أتى ذكر سَودان. كان يُشفق عليه، وجلّ ما أراده أن يُساعده على طرد الوساوس من رأسه. مرَّ ماركو في الزحام دون أن يُبالي بما يفعلون، كما لا يُبالي أحدٌ به. يُبغض تلك الحياة، ويُبغضهم جميعًا أيًّا كانت ماهيتهم. قادته قدماه إلى حافة الخليج.. الهواءُ العليلُ والنوارسُ وبحرٌ عظيمٌ، أصدقاؤه الذين يعرفون ما يجيش به. يمسح الريح وجهه، فتحلق روحه مع الأجنحة السوداء والبطون البيضاء. تمنى كثيرًا أن يسبح في السماء الزرقاء، لا يحط بقدميه على الأرض أبدًا، ولا يُخالط أبناء آدم، فلا عدل بينهم. أغمض عينيْه وتطاير شعره الأشقر، وهمَّ بأن يُلقي بجسده في الهواء ضاربًا الحافة بقدمه، ليُحلق للحظاتٍ قبل أن يهوي. ليته يثق فيما بعد الموت، إذن ما كان ليتردد. رفع عينيه إلى شباكها.. هي فقط من تمنحه الصبر للحياة. عيناها هما الحب والحنو في هذا الكون. وهي الآن قد صارت زوجة شخصٍ يُبغضه.. شخصٍ يهابه الجميع، ويخشاه العرب والعجم..

****

ما عاش حرًّا من اتخذت الذكرياتُ روحه مأوًى لها. يظن الجرحى أنهم لن ينسوا أبدًا، وسيمضون العمر يتلون آيات الرثاء في محراب حب غاب، ثم يصدمهم الواقعُ بأمورٍ تُفرض عليهم، فيستنكرون ويرفضون ولكنهم يسيرون مع السائرين. ظلت رملة لا تُفارق غرفتها وطفليها، بعد أن زُوجت من أمير باري، وأُقيم حفلٌ تحاكى به الناسُ لأسابيع، ومن ناحيته، لم يتعرض لها سَودان حتى مضت شهورٌ على الزواج ولم يمسسها. الطفلان هما من صارا لا يُفارقان مجلسه، يقربهما منه ويمنحهما رعايته، ويحبهما. لكنه لم يحبها ولم تحبه.

أفاقت من شرودها على ثرثرة الوصيفات عن بلادهن وحياتهن قبل وقوعهن في أيدي النخاسين اليهود، ورواياتهن عن الحبِ في بلادهن البعيدة. كثيراتٌ منهن لا يشتقن إلى الأوطان القديمة، بل إن بعضهن خضن رحلاتٍ قاسيةً وسلمن أنفسهن إلى النخاسين بملء إرادتهن، بشرط بيعهن في قرطبة أو نابولي أو باري، حيث الرغد.. الغناء.. وشراب اللبن المُحلى بالعسل، أفضل ما في الحياة. حكايات عشقهن لجند القصبة تُصيبها بالخوف. قصص قتل الأمير خلفون ومن بعده مفرق تبعث فيها رجفة. وحده ماركو مَن تأمنه وتأمن على طفليْها معه، فقد كان شعيب يأتمنه ويُعامله كابنٍ. لقد أعفاه سَودان من خدمتها دون أن يرجع إليها يستأذنها. لم تفهم لمَ فعل هذا.. غضبتْ؛ ولكن بقاءه بالقصر جعلها تسكت.

دخلت إليها جاريةٌ تُخبرها:

- ماركو الصقلبي يطلب من الأميرة الحديث. يقول إن لديه شيئًا مهمًّا.

نالت منها الدهشة، فقد كان منذ لحظاتٍ يجول بخيالها. انفضَّ مجلسُ الجواري بإشارةٍ منها، واعتدلت في جلستها وسحبت لثامًا رقيقًا من خلف ظهرها، وانتظرت حتى وضعت إحدى الفتيات عباءتها الزرقاء المخملية على كتفيها، ثم أذنت له بالدخول. دخل ماركو يضع عينيْه بالأرض وقد مال بجزعه قليلًا، وفوجئت بالحارسِ غليظ الملامح يدخلُ وراءه. لقد كان أسمر الوجه كثَّ اللحية، ضخم الجثة، كلفه سَودان بحراسة جَناح النساء، أشارت رملة للفتيات فخرجن مسرعاتٍ، فتحدث

ماركو:

- مولاتي.. أريد الإذن بالرحيل من هنا.

صُعقت من جملته. عيناها تفحصتا وجه الحارس في توترٍ، قبل أن تنقل بصرها إلى ماركو، الذي تابع:

- لم يعد لي مكانٌ في باري أو إقريطش..

لماذا يريد الشاب أن يرحل؟! تذكر يوم أتى به شعيب في إقريطش.. كان في الثانية عشرة من عمره، لا يُفارق عينيه الدمعُ. سبع سنوات مرَّت، شاهدته يكبر فيها أمام ناظريْها، وعاملته كأنه ابنها البكر، والأخ الناضج الذي يرعى طفليْها. صوت الصغير عمر انتشلها من جمودها، كان يركض إلى الغرفة فاتحًا ذراعيه:

- أمي.

استقبلته بين ذراعيْها وهي تقول للحارس بنبرةٍ حازمةٍ:

- اذهب أنت الآن!

رمق الغليظ ماركو بنظرةٍ طويلةٍ قبل أن يُنفذ أمرها. خرج، ولم يُغلق الباب، ووقف يُولِيها ظهره عاقدًا ذراعيْه أمام صدره. أجلست الصغير بجانبها، فلوَّح لماركو، الذي منحه ابتسامةً هادئةً، ثم عاد ببصره إلى عينيْها السوداويْن تأمرانه بالحديث. أشاح بوجهه، فسألته هي بصوتٍ خافتٍ:

- لماذا تُريد الرحيل يا ماركو؟

حاول أن يُخرج كلماته بثقةٍ، لكنه تلعثم:

- أريد الرحيل إلى حيث لا يعلم أحدٌ هويتي. أريد أن أكون حرًّا.

- وهل كنت عندنا عبدًا؟!

- لا أستطيع البقاء هنا أكثر من هذا.. ولا أستطيع أن....

"السلطان العادل سَودان"

جاء صوتُ الحارس الأجش، ليُعلن عن قدوم زوجها. ابتلع الشاب كلماته، واتخذ جانبًا، ودخل سَودان إلى الغرفة يرفلُ في ثوبٍ يتدرج فيه اللونُ البني. كان الفضولُ يتقافز على وجهه حين لاحظ ماركو، فنقل بصره إلى رملة، وتوقف بوسط الغرفة وقد هرول عُمر نحوه. داعب رأس الفتى بفتورٍ قائلًا:

- هل قطعتُ حديثكما؟

هَمَّ ماركو بالحديث، ولكن رَملة كانت الأسبق:

- لقد كان ماركو يطلب الأذن في الرحيل عن باري!

- ولماذا لم يطلب مني الإذن بذلك؟

- الصفحَ سيدي..

نطق بها ماركو في وهنٍ، لكن صوت رملة أتى قويًّا:

- إن ماركو ربيب بيتنا- أقصدُ بيتي القديم- وله مكانةٌ خاصةٌ في حياتنا، كما تعلم يا أمير باري.

أمير باري.. لقبٌ لا تقوله زوجةٌ لزوجها، لكن أشهرًا مرَّت منذ الزواج الصوري ولم يتخط حديثهما حدَّ التحية والاطمئنان على الأحوال. كان يزهدها، وكانت لا تُريد التواجد في مكانٍ هو فيه. استدار له سَودان متفحصًا إياه:

- لقد منحتك الحرية في فعل أي شيء، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

- حسنًا، إن أردتَ الرحيل، فسأمنحك حصانًا قويًّا، وزادًا يكفي لرحلتك. لكن لتعلم أن الحياة خارج هذه الأسوار ليست بالسهولة التي تتوقعها. سأمنحك كذلك مقدارًا من المال لتبدأ به تجارةً ما، أو حرفةً تتولى أمرها، فكما قالت زوجتنا الأميرة رملة.. أنت جزءٌ من حياة عمر وعلي.. ولأجل ابنَي شعيب، سأفعل ما يُسعدهما دومًا.

حديثه كان مفاجئًا لها ولماركو على حدٍّ سواء. لحظاتٌ من الصمت مرَّت، قبل أن يرحل الفتى عن الغرفة، وهو يُومئ برأسه شاكرًا الأمير على ما يُقدمه له من نِعم. لم يمكث سَودان كثيرًا بعده، فكالعادة سألها عن الأحوال، ثم اصطحب الصغير في يده، وانصرف، وبقيت هي مذهولةً يتصارع فيها حزنُها على ماركو، وتعجبها من تصرف سَودان، وغضبها من سلبه سيادتها على خادمها.

لم يكن سَودان أفضل حالًا من رملة. هو أيضًا لم يستطع يومًا تخيل أنها زوجته. كان كل منهما على شاطئ، يجري بينهما نهرُ الفقد. زواجهما ظاهره جبلٌ أشم متماسك الأركان، وباطنه ركامٌ من الوجع. صار يقضي وقته بين رجاله في أحاديث الحرب وحكايات البحار، ويوكل لرفاقه مهامَّ تشغلهم وتُبقيهم يقظين دومًا، ويتناسى أنه إنسان. يُكرر القاضي العجوز عليه: «الحب داء ولكل داء دواء.. ودواء الحب النسيان.. ولكي يُنسى عليك أن تحب من جديد» . يقول العجوز، ويُفكر هو في كلامه.. إن رملة جميلة، وهو لا يُعاب، ولكن روحيْهما لا تتلاقيان. أبو المغوار لا يُقنعه هذا الكلام، ويحثه دومًا على الحديث مع رملة والتقرب منها، حتى سئم حديثه، خاصة عندما يلح عليه أن ينسى الفترة منذ تلك الليلة التي فتح فيها عينيه ليجدها أمامه، إلى يوم خذلته أمام رجاله. لقد بدأ يرى الأمر بشكلٍ مختلفٍ بعد مرور العاصفة. هو من أهان والدها وأخاها، ورجاله أفزعوا قريتها بكاملها. لن يشفع له أنه أراد أن يُنقذها من جحيم أبيها حين فعل ذلك.

****

غمرت الشمسُ الأعمدة الرخامية التي تحمل قبة قاعة الحكم المزينة بالفسيفساء والجص، وتداخل اللون الأزرق مع درجات مختلفة من كافة الألوان. وفي القاعة، كان سَودان يُطالع بعض الأوراق في اهتمام بالغ. نادى الحارسُ، فانتبه إليه سَودان، ثم دخل أبو المغوار ومن خلفه الدوق الأسير، ماركيزيو دي لابورتا. اكتفى سَودان برفع عينيْه لينظر إليه لحظةً، قبل أن يعودَ لمطالعة الرقعة بيده وهو يقول:

- أرى أنك لم تأت وحدك يا أبا المغوار.

- الدوق ماركيزيو هو من طلب الحضور..

- إن كانت له مظلمة، فلماذا لم يعرضها عليك أيها القاضي الفقيه؟

لم ترق الكلماتُ لأبي المغوار، الذي أشار للدوق بالتقدم. كان ماركيزيو يشعر بالمهانة المتعمدة في أسلوب سودان، الذي باغته قائلًا:

- بل توقف حيث أنت!

وشت نبرةُ سَودان بأن شيئًا ما يُغضبه. قبل أن يسأله أبوالمغوار عما هناك، كان قد ألقى ما في يده ونهض متجهًا إلى ماركيزيو:

- حسنًا، ما الأمر؟

بنبرةٍ هادئةٍ تحدَّث ماركيزيو:

- لقد انتهت الحربُ، ووقَّعتم معاهدةً مع نابولي مرةً أخرى. انتصرت باري، وعاد الأسرى إلى بنفينتو، بعد أن دفع الدوق إديلكي الجزية. أيحق لي أن أسأل عن سبب وجودي هنا؟

ضاقت عينا سَودان وهو يُجيبه:

- أنت ضيفنا، كما قلتُ لك سابقًا.

- عذرًا أيها الأمير؛ ولكن الضيف لا يمكث في مكانٍ رغمًا عنه.

دار سَودان حوله وهو يقول:

- سيد ماركيزيو.. لقد رحل الآخرون لأن هناك من اهتم لأمرهم. حين تحدثنا عنك، كانت إجابة بني جلدتك مقتضبة للغاية.. "تبادل الأسرى لا يشمل الجبناء".

احمرَّ وجهُ ماركيزيو..

- لستُ جبانًا.

أومأ سَودان برأسه مبتسمًا:

- نعلم ذلك.. فمن يُجنب الناس القَتل والسبي ليس بجبان.. ومن يُضحي بكل شيء من أجل إنقاذ رجاله وتهريبهم ليس بجبانٍ؛ أليس كذلك؟! اسمع أيها الدوق.. لم يهتم أحدٌ لأمرك، وأظن أن عودتك لبنفينتو أو لومبارديا لن ترضيكَ وعشيرتك ينظرون إليك هذه النظرة.

غمغم ماركيزيو:

- لقد حاربتُ بشرفٍ، واستسلمت من أجل الحفاظ على العامة.

- نعلم ذلك، ولكن قومك لا يعلمون. عجيب أنهم يرون الاستسلام خزيًا، بينما الهزيمة والتنكيل أمرًا مقبولًا. اسمع أيها الدوق، لقد انتصرنا في معارك عدة، وثبَّتنا أركان الحكم في كمبانيا وكالابيرا.. وقريبًا، ستكون بيارقنا فوق أسوار روما. القائد الحكيم هو من يختار الانحياز الرابح..

بدأ يفهمُ مغزى سودان، الذي جلس على كرسيه المنحوت بعنايةٍ قائلًا:

- سيد ماركيزيو.. أبوابُ باري مفتوحةٌ على مصراعيْها.. لن يسألك أحدٌ إلى أين أنت ذاهب.. رتب الأمر مع أبي المغوار!

كانت جملته الأخيرة هي نهاية الحديث، ولم يكن الدوق يريد في هذه اللحظة إلا أن ينتهي الكلام ويبدأ التفكير الدقيق. دار على عقبيْه، وتبادل النظرات مع أبي المغوار، ثم اتجه إلى باب القاعة منصرفًا. تابعه أبو المغوار حتى خروجه من القاعة، ثم تقدم نحو سَودان:

- هناك شيء يُزعجك لا أعلمه.

لوَّح سَودان بيده:

- طلحة السكندري لن يأتي هذا الربيع إلى باري. كنتُ أنوي تنصيبه أميرًا للبحر على الأسطول الجديد.

- طلحة لا يُحب أن يكون مقيدًا بميناء وأرض. لكن ليس هذا ما يُزعجك.

أشاح سَودان ببصره بعيدًا، فيما جلس العجوز بالقرب منه:

- عليك أن تُريح عقلك قليلًا يا ولدي. أن تعتاد على واقعك وتمضي في دربك المكتوب عليك كقائدٍ مجاهدٍ. إن الفرصة مواتيةً لك الآن، ويمكنك أن تفرض شروطك على البابا. لقد قمت بتوزيع المهام والمناصب على رجالك، ولا يروقني هذا. فقد جعلتهم بين الجند، بينما ابتعدت أنت وتفرغت لأمور الرعية، بالإضافة إلى المطالعة والسهر على الشاطئ حتى الفجر. إن الحب يقتل الواجب بداخلك يا سَودان، وعليك أن تنهى النفس عن الهوى.

زفر سَودان ضجرًا..

- الهوى أصابني في مقتل يا أبي، داء لا يفلح فيه دواء.

أشفق عليه أبو المغوار وهو يرى انكسار نظرته..

- بل عليك مراجعة نفسك يا بُني، فذلك الكرسي شهوة، ولئن شعر أحدٌ بضعفك، ستكون العاقبةُ وخيمةً.

لم يشأ أبو المغوار أن يُطيل في هذا الحديث ذي الشجن، فاستطرد يقول:

- أعجبتني تلك الحصون الجديدة التي أحاطت باري. أقترح أن نمهد الطرق عبر كمبانيا كلها، حتى نيسر على الجند والقوافل المسير..

نهض سَودان متثاقلًا:

- ما تراه صوابًا افعله يا أبا المغوار.. سأذهب لأرتاح قليلًا.

- كيف حال رملة والأطفال؟

باغت السؤالُ سَودان، فتوقف عن المسير، والتفت عاقدًا حاجبيْه:

- ذلك الفتى ماركو.. أهو أهلٌ للثقة؟

- لا أثق في الخصيان.. وعليك ألّا تفعل!

أومأ سَودان برأسه:

- حسنًا.. امنحه عملًا في المرفأ، أو مكانًا بالسوق يبيع فيه أي شيء. لا أريد رؤيته في الدار بعد اليوم. وذلك الدوق؛ لا تجعله يذهب الآن!

****

- باري اليوم غير باري الأمس.

كان قسورة يقفُ أعلى الحصن الغربي الجديد، مراقبًا الحقول والغابات الممتدة حتى الأفق. التلال الصغيرة لا تحجب باري الممتدة على الساحل تحت أشعة الشمس، تبعد عنها عدة فراسخ قلعة جديدة أمر سَودان ببنائها، ضمن سلسلةٍ من القلاع تحمي ربوع كمبانيا وكالابيرا. إلى جانبه كان يقفُ ابنه الصغير محمد فرحًا برحلته مع أبيه، وقسورة يُراقبه مبتسمًا، ويتذكر نفسه حين كان صغيرًا.. ابن المؤذن، الذي أتى وحيدًا ليعمل نجارًا في دار صناعة السفن. وقتها كانت باري مختلفة عما هي عليه الآن. كان أبو المغوار إذا أخطأ أحدُهم يُعاقبه بأن يرتدي أسمالًا باليةً ويخرج إلى ساحة القلعة، ولسعة الصقيع تُعلمه ألّا يُكرر الخطأ. وها هم أولاء الآن قد صاروا أمراء باري وخاصتها، فتولى الأغلبي مكانه الجديد في ساحة التدريب، وشرحبيل صار صاحب الشرطة، أما هو فنال إمارة الحرب، وجوادًا بربريًّا أدهم، وعليه أن يُشرف على تلك الحصون الجديدة. الصغير، الذي يُشبهه في ملامحه، ولكن لا يُشبهه في طفولته، التي قضى معظمها ببرقة ثم طرابلس ثم رحل إلى باري، كان يرتدي زيًّا مماثلًا لما يرتديه أبوه: قميص رمادي، تحت صديري أسود زُينت حوافه بفراء ذئب رمادي، وعمامة صغيرة منحته مظهرًا جميلًا، ويُلقي عليه الجند التحية بين الحين والآخر، بينما يتتبع هو خطوات أبيه.

لم يمر الكثيرُ من الوقت، حتى كان الرجالُ يحملون لفافةً كبيرةً من الحرير، صعدوا بها الدرج إلى قمة برج غير مكتمل البناء. كان معهم، يُساعدهم في رفع الصاري وتثبيته. وحين حان الوقت لرفع الراية، أشار لمحمد بأن يأتي، وجعله يُمسك طرف الحبل، بينما يسحب هو الراية لأعلى. رُفعت راية الإمارة الجديدة، خضراء عظيمة، يستطيع المرء رؤيتها من باري، تُخفق في قوةٍ وقد زُينت حوافها بأسماء الله الحُسنى، بخط كوفي متشابك الأحرف، يتوسطها شعارُ التوحيد. علت صيحاتُ التهليل والتكبير، ولم تبتعد عيناه عن وجه ابنه الفَرِح.

انتظر حتى انتهوا من تهليلهم، ليقف أمامهم مخاطبًا:

- الحمد لله، وبأمر عبد الله سَودان الماوري سلطان باري العادل، الناصر لدين الله، أطال الله بقاءه.. بُني هذا الحصن، وإنني أقدر ما قدمته أيديكم، ولعل تلك الأسوار شاهدة على جودة صُنعكم وإحكام

إتقانه، فما بُني هذا المكان إلا تعظيمًا لشعائر الله، ومحافظة على سننه في إعمار الأرض، التي أذن الله أن تُرفع فيها البيوت ويُذكر فيها اسمه. ولقد أمر الأمير سَودان بجزالة العطاء لما صنعتموه في وقتٍ قصيرٍ، فكان البناء حسن المظهر يبعث على الفخر والعزة، وله في النفس ذخرٌ، وحُسن الذكر، فما أتممتموه إلا بعون الله، وقد عجبت لأن يبتدي البناء في شهر ذي الحجة ويُشارف على الانتهاء مع تمام ربيع الأول.. لقد أحسنتم، أحسن الله إليكم وجعله في ميزانكم.

أنهى كلماته القليلة الرتيبة، وتوجه مع ابنه إلى حيث ستكون داره الجديدة. دار في المكان بعينيه قبل أن يُحدث الصغير:

- ما رأيك في هذه الدار؟

تصنَّع الصغيرُ النضج وهزَّ رأسه:

- لا بأس بها، ولكني أُفضل باري..

- لماذا؟!!

- لأن بها بحرًا شاسعًا، وبها صديقاي عمر وعلي.. أتدري يا أبي، أريد أن أكون بحارًا ذات يومٍ، لأذهب إلى بحر الظلمات.. يقولون إنه بعيدٌ جدًّا.. وإنه نهاية كل شيء.

- ربما كان نهاية كل شيء.. ولكن مع كل نهاية بداية جديدة.. ثم إننا سنضع هنا حوضًا للمياه، وستكون هنالك أشجار برتقال وليمون..

- أريد شجرة توت مثل التي في باري!

ربت قَسورة على رأس ابنه مبتسمًا:

- سيكون لك ذلك، أعدك.. والآن علينا أن نُتابع ما يفعله النجارون في مسجد الحصن..

العملُ لا يتوقف أبدًا داخل الحصن. الكل يعمل دون توقف.. حتى جاء أذان العصر، فألقى الجميع معاولهم وعِدتهم، وذهبوا للصلاة. بعد الغداء، تجوَّل في الحظائر المُعدة للخيل.. كان سَودان قد أمر بجلب مائتيْ حصان من صقلية، سيمنحها لمن يسكن الحصن. أنهى تفحص كل شيء قبل المغيب، ثم رحل بعدما ألقى بعض الأوامر على الرجال. امتطوا الخيل عائدين إلى باري، ولكن عقله بقي هناك في الحصن. قريبًا سيتم البناء، عليه ترتيب كافة الأمور فيه، قبل أن يأتي بزوجاته وذريته. كان سعيدًا أن سيكون بمعزلٍ عن صخب المدينة، ومع مرور الأيام ستصير القلعة مركزًا لجمع الجند. وحتى ذلك الوقت، عليه أن يُنهي كافة الأمور المتعلقة بتشييد الحصون، وتجهيزها لاستقبال الحاميات التي ستنطلق في الصوائف والشواتي إلى الثغور الشمالية..

****

ليلةٌ هادئةٌ ونجومٌ مبعثرةٌ، ونسيمُ الربيع تلاعب بستائرٍ حريرية غطت نافذة غرفة زوجين جمعهما فراشٌ دافئ. غفت على صدره العاري الخشن، محتضنةً جسده مفتول العضلات، لتستمد الدفء منه.

أصابعه الغليظة انسابت برقةٍ على شعرها، والغطاء الخفيف كشف عن تعانق ساقيْهما. كان يافعًا حين عَقد عليها، وكانت هي آيةً من الحسن. تعلمت منه وتعلم منها أكثر. يأوي إليها، كلما عاد من حربٍ تستقبله بالورود. هي فيضٌ من نهر حب ينبع من قلبها. لم يرها يومًا حزينةً أو شاردةً، ولا قصَّرتْ يومًا في تربية بناته وولده الوحيد. تجاوزا عشرين عامًا، لم يفتر شوقه أو يشتهي غيرها. كانت قويةً صابرةً تنضج كل يوم.

قبَّل رأسها، قبل أن تعود به الذكرى إلى ذلك اليوم في برج نابولي الشمالي، يوم حُوصر مع عددٍ من رجاله. لقد فعل الصواب حينها. لو كان الأمرُ يتعلق به وحده، لقاتل حتى تمزَّق لأشلاء. كانوا يرتعدون، وحتى هو كان خائفًا، ولكن أشجع لحظاتنا هي وقت الخوف. لقد اختار التسليم بعد خذلان سَودان لهم، كما ظنَّ حينها. والعجيب، أنه لولا ذلك الأخير لما كان حيًّا الآن. لقد خاطر بحياته من أجل إحضار الطبيب له. عَلاقتهما غريبةٌ منذ الصغر. سَودان يصغره بعدة أعوام، لكنه كان أمهر منه.. خفيف الحركة في المبارزة بالسيف والرمح، ومروِّض للجياد، كأنها تُحبه وتختَّار طاعته. أبو المغوار كان يُفضله دومًا عنهم. لا يُبغضه ولا يُحبه، فدومًا ما يُلقيه سَودان في المصاعب، في البداية واليًا على إيفيلينو، وبعدها معلمًا لجنوده الجدد. يود يومًا أن يرفض ما يُمليه عليه، ولكنه يظل "سلطان باري العادل سَودان". دون أن يدري علا صوته وهو يقولها، فأقلق زوجته التي غمغمت: أما زلت مُستيقظًا؟!.. ربت على كتفها قائلًا:

- ثكلته أمه من رأى قمر الدجى ونام.

...

في الصباح كان يقفُ وسط ساحة التدريب، يُتابع شابين يتبارزان بمهارةٍ فائقةٍ، وسيوفُ التدريب تفرضُ صوتها على المكان. حركاتٌ متناسقةٌ وخطواتٌ محسوبةٌ، لا يظهر من وجهيهما شيء بفعل خوذاتٍ يتدلى منها الزرد. المتدربون التفوا في دائرةٍ حولهما، والمبارزة تشتعل، والدروع النحاسية تتبادل صدَّ الضربات، والشابان يواصلان رغم أنفاسهما المتلاحقة. ضجيج المبارزة تناهى إلى مسامع سَودان، فخرج إلى شرفةٍ مطلةٍ على ساحة التدريب. كان يعرف أحدهما عبد الله بن محمد الأغلبي، يستطيعُ أن يُميزه من هيئته وإن أخفت الخوذة وجهه. كان أنحف من مبارزه، وأكثر ذكاء. انحنى ليمر السيف فوق صدره، واعتدل بسرعةٍ ليركل الآخر في ساقه. حاول الفتى ألَّا يسقط، ولكن عبد الله عاجله بضربةٍ قويةٍ أسقطته. رفع الفائز رأسه، فلمح بطرف عينه أمير باري يُشاهده. صدح الجندُ يُهنئون الفتى، والأغلبي مبتسمٌ فخورٌ بولده، ينقل بصره بينه وبين سَودان، الذي حيَّاه برأسه مبتسمًا، قبل أن يختفي من الشرفة.

كان الأغلبي على موعدٍ مع أبي المغوار، فبدَّل ملابسه بسرعةٍ، وتوجَّه إلى حيث منزل القاضي. بالطريق رأى الدوق ماركيزيو مكفهر الوجه، وخلفه أحدُ الجند لحراسته. مضى ولم يبد له أي مبالاة، لكنه كان يتساءل داخله عن حكمة الأمير في استبقائه.

استقبله أبو المغوار بفناء منزله، أمام حوض المياه، عليه نافورةٌ يبعث خريرها الصفاء، ثم جلسا تحت شجرة ليمون احتلت زاوية الفناء.

- سمعت أن ولدك عبد الله يتفوق عن أقرانه بالتدريب يا أغلبي.

اتخذ صوتُ الأغلبي جديةً، فقد فهم ما يرمي إليه أبو المغوار:

- نعم، يكفيه التدريب فهو ما زال صغيرًا على المشاركة في المعارك.

ابتسم القاضي..

- ألم تكن بعمره، حين شاركت الأمير خلفون في فتوحاته بدوقية بنفينتو؟

- إن الفتى استغل قربه من سَودان وطلب منه الانضمام لفرقة الفرسان. لن أدعه يلجأ إليه ثانيةً ليخوض أي معركةٍ قادمةٍ. إنه الولدُ الوحيدُ مع أربع فتيات، وعليه أن يعرف أن جهاده الأهم أن يرعى شقيقاته. دعك من هذا سيدي القاضي، ما جئتُ لهنا لمناقشة أمور عبد الله.

نظر إليه أبو المغوار يُفكر في كلامه، ثم قام وأشار إليه أن يتبعه. دخلا إلى غرفةٍ شاسعةٍ، جدرانها مكسوةٌ بأرففٍ خشبيةٍ عتيقةٍ، رُصت عليها لفائف من الجلد ومجموعاتٍ من الكتب، ولها نوافذ صغيرة يدخل منها ضوء النهار على استحياء. أشعل أبو المغوار قنديلًا صدئًا توسط الغرفة، محدثًا رفيقه:

- في هذه الغرفة أحتفظ بكل المخطوطات القديمة. ما وجدناها في باري بعد الفتح، مرورًا بالمراسلات، ونسخ من كتابات الفقهاء والقساوسة. بعضها يحتاجُ للفحص والتعريب.. وقد أوكلت للطبيب الرومي كاراس هذه المهمة.

عقد الأغلبي حاجبيْه:

- سيدي.. عذرًا. ولكن ما شأني أنا بهذه الأمور؟

ابتسم الشيخُ، وبدا أنه شرد إلى زمنٍ بعيدٍ..

- عجولٌ كما عهدتك منذ أتيتني يا محمد. لا أحد يعلم متى ينقضي الأجلِ يا ولدي، وأرى أنه من الأفضل أن أختار بنفسي من يُكمل الطريق. لقد اخترتك أنت يا أغلبي لتُشرف على عمل الطبيب كاراس. سأوفر له كل ما يحتاجه، وعليك أن تبقى لجواره. هنا نُسجل مستقبل باري وماضيها، وعلينا الحفاظ على كل ما تحويه تلك الرقع.

غصَّة في حلقه أخرجت صوته مختنقًا وهو يسأل:

- ولكن ساحة التدريب..

قاطعه أبو المغوار:

- سأوكل مهمتها لفارسٍ آخر.. من الغد سيكون دوامك هنا.. ستكون تحت يدك مجموعةٌ من الكتبة والخطاطين.. هل تُفاضلُ بين أن تكون حارسًا للمعرفة وأن تكون حاملًا للسيف؟

- المعرفة تحتاجُ السيف ليحميها سيدي القاضي.

- لهذا اخترتك يا أغلبي.

كان أبو المغوار يرى بجلاء اعتراض الأغلبي. تنهد وقال له في ترفقٍ:

- أعلم أن الأمر فاجأك. استخرتُ الله واخترتك يا أغلبي، فأنت الأحق بهذه المهمة. قد تظن أني أبخسُ

قدرك، ولكن الله وحده يعلم كم أحبك وكم أقدرك. فكر أيضًا أنها فرصة لإن يأتي معك عبد الله إلى هنا للتعلم والتفقه أكثر، ما دمت تكره أن يكون فارسًا. ربما تكون تلك فرصة عظيمة ليُصبح فقيهًا عالمًا.

نظر محمد في عين أبي المغوار، واستجمع شجاعته للمصارحة بما في نفسه:

- هل سَودان هو من أمر بإبعادي عن الجند؟

رفع أبو المغوار يده معترضًا ونافيًا بقوةٍ.

- بل لا يعلم السلطان بهذا الأمر. لم أعهدكم كذلك يا أغلبي. لقد تربيتم معًا، وكنتَ بمثابة الأخ الكبير له، فكن إلى جانبه دومًا. سَودان يحتاجكم جميعًا إلى جواره، وليس من أجل الأخوة فقط، الأمر أكبر من الأفراد، فهو لأجل مستقبل أمتنا. يا بني إن لكل رجلٍ عقلًا يختلفُ عن قرينه، فأحسنوا الظن ببعضكم البعض، وإن اختلفتم.

زفر أبو المغوار، وأخذ برهةً يُفكر، ثم عاد يقول:

- إن كان يُزعجك ترك ساحة التدريب، فأوكل لولدك عبد الله هذا الأمر، واجعله مرافقًا للطبيب الرومي. لكنني أحسبه لن يترك السيف، فالفتى متيمٌ بالحرب وأمورها، ويعرف جيدًا أنه مميزٌ عن بقية الفتية. فكر، واستخر، ثم امنحه ما يُريد أو اجعله حيث تُريد.. ولكنك لن تمنع أمر الله.

خرج محمد من منزل القاضي هائمًا. الدروب متشابهةٌ، والنهاية واحدةٌ. لطالما أحب ساحات الوغى، ولكن حب الأولاد يطغى. لم يدر كم مشى في المدينة، حتى فوجئ بنفسه أمام باب داره. الفتيات يلعبن ويغنين، والحمام يرفرف حول مجلسهن، وأمهن تُضاحكهن.. زينة الحياة الدنيا يكبرن سريعًا، وقريبًا سترحل كل واحدةٍ منهن إلى بيت زوج لا يعلم أرضه إلا الله. لمحته زوجته، فنهضت مسرعةً، فانتبهت البنات له وهممن بالقيامِ إليه، فأشار إليهن أن يبقين كما هن، وتركهن إلى غرفته. تبادلن النظرات، ولحقت به زوجته قلقةً، تسأله عما يُلم به، فتعلل بالتعب وطلب منها أن تدعه وحده ليرتاح قليلًا. بدَّل ملابسه وأوى للفراش، مستقبل ابنه على المحك، فإما أن يُصبح فارسًا كما يُحب الفتى، أو يُصبح عالمًا كما يُحب هو.

فوجئ بالعتمة تُحيطه، ثم عادت الطرقات التي أيقظته مرةً أخرى، مع صوت ابنه عبد الله يدعوه لصلاة الفجر. الفجر! لم يشعر بنفسه كل هذا الوقت!. بعد الصلاة، جلس بالفناء يفطر مع أهل بيته، الخبز والزيتون والجُبن والعسل. فتح الحديث مع ابنه ملاطفًا:

- كنتَ مميزًا بالأمس يا عبد الله. لكِ أن تفخري بابنك يا أم عبد الله !

ابتسم الولد، وربتت أمه على كتفه فرحةً. تلاقت عيناها وعيني زوجها، فانسحبت ابتسامتها، وقامت تحمل الأطباق، منادية البنات لمساعدتها. يعشق هذه المرأة، التي تفهمه بنظرةٍ. التفت إلى ولده، الذي سأله:

- اليوم سنتدرب على المبارزة بالرمح، أليس كذلك؟

تأنى حتى اختفت البناتُ عن ناظريْه، ثم ردَّ في هدوءٍ:

- لا.. ستذهب إلى منزل القاضي أبي المغوار، يريد أن يعهد إليك بأمانةٍ كبيرةٍ، سيُدربك لها على يده ويد الطبيب الرومي كاراس. أعتقد أن ساحة التدريب لم تعد لك.

امتعض الابن، وتلجلج وهو يقول لأبيه:

- أنا أدرس الفقه والحديث بالمسجد الجامع يا أبي. أما رأيت الأمير سَودان وهو يُتابع مبارزتي؟

كان هذا آخر ما يُريد الأغلبي سماعه. سَودان ليس أبا محمد، والرأي ليس له. ردَّ على ابنه في صرامةٍ:

- اسمع يا ولدي.. لقد اخترتُ لك الأنسب، وقُضي الأمر..

- ولكن يا أبي..

كظم الفتى غيظه، وحُشرت بقية كلماته بحلقه. شعر الأب بأنه قسا عليه أكثر مما يجب، فعاد يترفق به ويربت على كتفه..

- يا عبد الله.. يومًا ما ستُصبح ذا مكانةٍ بين الناس، سيُبجلك الجميع ويمنحونك ثقتهم.

- لكنني أريد أن أكون على الثغور مع الفرسان..

- لقد وضعتك على ثغرٍ يا فتى فاثبت.. أن تُداوي الجرحى وتشفي المرضى بإذن الله لهو شيءٌ جللٌ..

- يا أبت.. لا تفهمني..

نهض الفتى مغاضبًا. عذره أبوه، تابعه صامتًا ولم يُلح عليه لحظة ضجره، فما فعل الابن إلا أنه شابه أباه.

****

نامت باري ولم تنم دارُ أبي المغوار. في القبو الكبير، مجلس علم وعمل، اكتمل مع قدوم الفقيه سعد بن هشام. القاضي يُطالع الأوراق ومعه كاراس، والشاب الصغير عبد الله الأغلبي يزيح الغبار عن الأرفف الخشبية، بعد أن يحمل سَودان اللفائف بعيدًا. كاد الليل أن ينقضي، وهم منهمكون في ترتيب المكتبة الضخمة، وفق توجيهات كاراس، الذي منحه القاضي غرفةً بالمنزل الكبير طوال فترة العمل. عبد الله لم يعد غاضبًا، بل كان مُتفاجئًا مبهورًا بعمله مع أمير باري، الذي طالما أراد أن يُصبح مثله. لن تُصدقه أخواته حين يقص عليهن ما يحدث، ولكنه لن يقول شيئًا، خاصة أن السلطان وعده بدروس مبارزةٍ على أن يظل الأمرُ سرًّا كبيرًا بينهما. كان ينظرُ إليه مسحورًا، ويتذكر كلام أمه أن خلفون كان أمهر وأذكى أمير تولى باري، ويقول في نفسه إنها لم تعرف الأمير العادل مثله.

قرب الفجر، كان فريقُ العمل يُودع أبا المغوار لدى الباب، وإذا بمحمد الأغلبي قد قلق على ولده، فجاء لينظر لمَ كل هذا التأخير. فاجأه وجود سَودان، والفرح الظاهر جليًّا على وجه الفتى، الذي يقف إلى جوار السلطان. رأى في عين ولده بريقًا عجيبًا، وعندما اختلى به في طريقهما إلى دارهما، ظل الفتى يُثرثر مبتهجًا، عن المكتبة العامرة بصنوف العلم، وذلك الطبيب الرومي الفصيح، وكلما انتهى من حكايةٍ، تذكر أخرى، حتى بلغا باب الدار. أزاحت فرحة عبد الله القلق عن عقله، وحلَّ محله الفخرُ به، فالولد يشهد له جميع الأمراء بالنجابة، ويتوقعون له شأنًا عظيمًا. من يدري، لربما أرسله يومًا

إلى بغداد لتلقي العلم أكثر، ولعل القدر يحمل له كرسيًّا على إمارةٍ ما يومًا.

..

صعد سَودان الدرج الحجري إلى سطح القصبة. ضياء القمر الفضي أزاح الظلام، واكتمل صفاؤه بنسيم معطرٍ بروائح زهر الربيع، وبحر رائق تترقرق أمواجُه الهادئة. رفع وجهه إلى النجوم الصغَيرة التي تكثفت في سماء باري، وأخذ يُتابع سطوع بعضها وأفول بعض، وهو يُفكر في باري النائمة من خلفه. استنشق أنفاسَ البحر، وتذكر باليرمو وميناء البحر، وطفولته في حي الخالصة قرب المرسى، ومجلس شيخه وبحارة الحمازة. استعاد في وجدانه كلمات أبيه قبل وبعد عودته من غزو روما، وتذكر أمه حين اشتد عليها المرضُ، ويوم وفاتها وشعوره بالوحدة ما إن انفضَّ الناس بعد جنازتها. تذكر حين أرسل أبوه في طلبه إلى باري، فوصلها ليجده مدفونًا بأرضها. لم يمر بعقله يومًا أن يُصبح أمير باري، حتى بعد أن قرَّبه خلفون ومنحه مفرق اللواء في عمرٍ مبكر. وحده من استطاع البقاء بعد أن قضى على الفتن، بمساعدة أبي المغوار ورفاقه. مواقف وابتلاءاتٌ عديدة أصاب في بعضها وأخطأ في أخرى. مشكلات الرعية تزيح أموره الشخصية جانبًا، ويُحاسب نفسه كل ليلة على ما فعل خلال اليوم. وفي كل هذا الزحام ماريا لا تُنسى.

غُمست الصوارم بصدره، يوم أفصح عن حبه لها أمام الجميع. خذلته، فحاول أن يكرهها ولكنه فشل. ماريا هي أول اختيارٍ لنفسه في حياته عن يقينٍ، سَودان القوي هُزت أركانه، ولا يدري أيُخفي ذلك عن الناس، أم أن الهوى غالبٌ يفضح صاحبه. مرَّ طيف رملة بعقله كأنه يُذكره بأن له زوجةً غير ماريا. ابتسم، لما تذكر تلصصها عليه من خلف ستائر نافذة حجرتها. صورةُ شعيب تتجلى إلى جوارها كلما نظر ناحيتها. الفقيه سعد نصحه بوجوبِ الاقتراب منها، ولكنه لا يستطيع، ويشعر أنها أيضًا نافرةٌ منه.

..

خواءُ الأروقةِ من الجند والحرس يمنحها شعورًا بالحرية. تهادت على الرواق تُلامس الجدران بأناملها، ويدها الأخرى تُمسك بحجابٍ خلعته عن رأسها.. مائلة الرأس، ووجهها البهي نافس مشاعل الرواق توهجًا، وشَعرها الأسود الفاحمُ انسدل على ثوبٍ بلون حقول باري الخضراء الداكنة، وينسحب خلفها فوق الأرضية الرخامية الباردة. قادتها قدماها إلى سطح القصبة.. درجة وأخرى وأخرى.. وهو!

عرفته على ضوء القمر من الوهلة الأولى. كان، يقفُ قُرب السور، يوليها ظهره، جامدًا كأحد تماثيل إقريطش الرومية تحت راية باري الخفاقة. قررت أن تعود أدراجها قبل أن يشعر بها. رفعت قدمها اليسرى، تبحث عن الدرج فتعثرت، انتبه للصوت، والتفت، فوجدها تستند إلى الجدار وتقوم من عثرتها، هرع نحوها.

- أأنتِ بخير؟

حدقت في وجهه جامدةً. لم يكونا بهذا القرب من قبل. تاهت الكلماتُ على شفتيْها الورديتيْن، فسكتت، وانعكس ضوءُ القمر في سواد عينيْها. أعاد سؤاله بنبرةٍ أرق، وقد أُخذ بجمالها على حين غِرة. أشاحت بعينيْها عن وجهه، وهي تسحب حجابها على شَعرها..

- مجرد عثرةٍ على الدرج، لا بأس.

مدّ يده ليُساعدها على التحرك، فحاولت الاعتدال في وقفتها دون مساعدةٍ، فتأوهت، فأمسك رسغها بقوةٍ:

- توكئي على ذراعي يا رملة!

- ساقي تؤلمني فقط.. أنا بخير.

لم يكن أمامها إلا أن تتوكأ عليه وهي تنزل الدرج. كانت خجلةً، وكان صامتًا، حتى أوصلها لباب غرفتها، فهمَّت إليها جواريها يُساعدنها، فانسحب قائلًا:

- سأُرسل في طلب الطبيب كاراس.

- لا داعي لهذا، سأصبح بخير، التوى كاحلي فقط.

نظر في وجهها، فرآها تُحاول إخفاء الوجع، فنادى جاريةً تقفُ لا تفعل شيئًا:

- يا فتاة، اذهبي إلى أبي الحارث وأخبريه أن يستدعي الطبيب كاراس في الحال!

هرعت الفتاة، بينما بكت رملة وهي مغتاظةٌ من نفسها أن تبدو ضعيفةً أمامه. كانت الجواري قد أجلسنها على الفراش، فجلس على حافته متمتمًا:

- كل شيء سيكون بخير.. لا تقلقي..

فوجئت به يُلامس قدمها، ويفحص تورمها، قبل أن يرفع رأسه إليها. لم يرها كذلك من قبل.. كانت كاملة الحُسن! مضت لحظاتٌ كان السكونُ ثالثهما، حتى انتفضا مع صوت الجارية تُخبرهما أن الطبيب بالخارج. نهض ملتفتًا لها: أعدِّي الأميرة لكشف الطبيب، وما إن تنتهي أخبرينا.

خرج من الغرفة، وهرعت الفتاة إلى السرير. كانت ابتسامتها عريضةً، وعيناها تتفحصان وجه رَملة، التي عقدت حاجبيْها:

- ماذا بك أيتها البلهاء؟

صكَّت الصبية وجهها، وشرعت في وضع الحجاب على أميرتها، ثم فتحت الباب ليدخل سَودان ومن خلفه الطبيبُ الرومي. سبق سَودان بالكلام:

- تعثرت على الدرج والورم عند كاحلها.

رماه كاراس بنظرةٍ مستغربةٍ، ثم ابتسامة..

- حسنًا، لا أستطيعُ المعالجة دون معاينة العلة..

رماه سَودان بنظرةٍ طويلةٍ. هو الطبيب، وهو أيضًا عم ماريا. يفهم غيرة السراسنة، ولكنه يعرفهم يحترمون الطب والطبيب. طرد وساوسه، ولم يترك في نفسه إلا أنه طبيبٌ يعود امرأةً مصابةً، ووجَّه حديثه إلى الجارية:

- هل تُساعدينني فيما سأقوله لك؟

أومأت الفتاة برأسها، فقال:

- حسنًا، اضغطي برفقٍ على موضع الورم..

فعلت كما أمرها فتأوهت رملة، فحدثها:

- هل تستطيعين تحريك أصابع قدمك؟

بصوتٍ خافتٍ قالت "نعم"، فاقترب الطبيبُ ووجهه الهادئ يُخفي براكين الاعتراض، وانحنى عليها، وقد قرَّر أن غضب سَودان لن يمنعه من أن يظل طبيبًا كفئًا:

أمسك بقدم رملة بيدٍ، وثبَّت ساقها بالأخرى وحركها عدة حركاتٍ، وهو يقول لها:

- أخبريني عندما تؤلمك الحركة!

أكمل فحصه، وهو يُراقب وجه سَودان بطرف عينه، ثم قال للأميرة:

- لا يُوجد كسر، ولكنه التواءٌ شديدٌ، سيحتاج بعض العلاج ليسكن الألم.

التفت إلى الجارية وطلب منها بعض الأشياء، ثم انهمك في خلط زيت الزيتون بزيت النعناع، ومسحوق من ورقات من عشب الطير.

سأله سَودان: هل ستتعافى سريعًا؟

ردَّ دون أن ينظر إليه:

- نعم.

أمر الجارية بوضع الدهان على موضع الألم، ورحل يُفكر في ماريا المسكينة، ويتمنى أن يعرف ماذا يحدث في سان فيلي، ويُهاجمه سؤالٌ موجعٌ: أيستحق هذا الأمير كل ما يفعله لأجله ولأجل باري؟!

****

اجتمع نبلاءُ وقادةُ باري بالقاعة الكبرى لقصر سَودان، حيث الأعمدة المرمرية الملفوفة بالرايات الحريرية، وضوء النهار المتسلل من النوافذ الكثيرة، ورائحة الياسمين رويت بها أرضية القاعة الرخامية، والمخادع الممتلئة بالريش، وامتدت مأدبة احتفال ببشرى فتح مالطا على يد الأغالبة؛ خبرٌ جاء به طلحة السكندري وبحارته، الذين شاركوا في المعركة. سفنٌ عدةٌ رافقتهم إلى الميناء، أتت من مصر والقيروان بصنوفٍ شتى من البضائع، ورسائل ممن كان له أهلٌ هناك. ازدحمت القاعةُ بأحاديث التجار، وتحلق الرجال حول الأطباق العامرة وعمت الغبطة الجميع، ويتشدقون بكرم سلطان باري. بعد الطعام، طاف الخدم بالمجلس بأباريق نحاسية، وأكواب تفيضُ بعصائر من فاكهة الربيع، وانطلقت ألسنة الشعراء تمتدح وتتبارى.

وفي مجلس سَودان، اجتمع أبو المغوار وطلحة وقسورة، بينما تركهم الأغلبي حين دُعي الدوق ماركيزيو. كان حضورُ الأخير أمْرَ سَودان، وكان الدوق متوجسًا، منصتًا لحديثهم بالعربية التي يفهمها جيدًا، لكنه لم يجد ما يُريب. تحدثوا عن الطعام، وأشاد قسورة بالجُبن المالح المخلوط بالرمان والبهارات، بينما راح طلحة يُحدثهم عن سمك مصر المُجفف بالزيت. لم يفهم ما جدوى حضوره، لعل

سَودان أراد أن يريه كل تلك الجلبة والرفاهية. تذكر آخر حفل حضره بحضور الكاردينال.. البابا الذي لم يقبل أن يدفع الجزية. كان ناقمًا عليه، كما ينقم على أبي المغوار الذي رفض أن يدعه يُغادر المدينة. كان شارد الذهن حين وكزه العجوزُ هامسًا:

- السلطان يُحدثك.

- عذرًا، فقد غرقت في أحاديثكم عن إفريقية والشام.

- لا يغرق أحدٌ بوجود طلحة.

ألقى سَودان جملته التي لم يفهمها الدوق، بينما ضحك رفقاؤه، إلا الدوق الذي دار بعينيْه فيهم، ورأى قسورة يربت على كتف الجالس بجانبه، فأحسَّ بالضيقٍ لكونه الوحيد من لم يفهم ما قيل. فطن سَودان لما يشعر به الدوق، فرفع صوته فوق ضحكاتهم، محدثًا إياه:

- هذا طلحة أمير البحر. لم يُكسر له صارٍ، ولم يغرق له بَحارٌ قط.. أساطيل بيزنطة والبندقية تقبع في قعر البحر بسببه، وإنما احتفالنا هذا كله هو لأن إخواننا من صقلية استطاعوا فتح مالطا منذ أيامٍ، مُستعينين بأسطول طلحة.

ظهر على وجه ماركيزيو الضيق، بينما حيَّاه طلحة بإشارةٍ من يده. أكمل سَودان:

- لقد بلغتني رغبتك الدائمة للرحيل، فكيف الحال الآن وأنت بمجلسي وبين قادتي؟

استدعى الدوق كل قدرته على اللباقة، ليقول:

- إنه شرفٌ كبيرٌ أن أحظى بتواجدي بمجلس السلطان، وهو ما لم يحظ به شخصٌ من قومي.

نظر إليه سَودان بتركيزٍ، وهو يقول:

- هناك المزيدُ سيد ماركيزيو.. إن قَبلت حمل رسالتي إلى روما.

- روما!

- لا تقلق أيها الدوق. فقط ستُعلم البابا أنه لا قِبل له بحربٍ سيكون هو فيها الخاسر. عليه أن يكف عن إرسال السرايا إلى التخوم الشمالية لكمبانيا. امكث كما تُحب وارحل وقتما تُريد.. فقط أعلمني حين تُقرر.

أنهى سَودان كلماته مشيرًا لأحد الخدم، فهرول حاملًا لفافةً بين يديْه، بسطها أمام الجميع قبل أن يضع بردةً خضراء مذهبة برسم لأسدٍ يعرفها الحضورُ جيدًا، فقد كانت من قبلُ لسَودان. اجتاحت الوجوهَ عاصفةٌ من الدهشة، بمَن فيهم الدوق الذي وجم. فقط أبو المغوار من كان يعلم بالأمرٍ مسبقًا. لقد أراد سَودان أن يُري الدوق ما لم يره طوال حياته، وحين يُقرر الرحيل تكون ذاكرته ممتلئةً بعبق باري، ويحمل قصص الرغد والعدل إلى قلب روما. يُريده أن يقص على مسامع البابا تعايشٍ المسلمين إلى جانب المسيحيين واليهود، وعن عدالة الحكم الإسلامي. قطع الصمت الذي حلَّ على المجلس صوتُ قسورة مخاطبًا الدوق:

- دوق ماركيزيو، ألا تقص علينا كيف كانت حروبك معنا؟

نظر إليه ماركيزيو وهو يكبت ضيقه..

- ليست قصصًا سعيدةً تليقُ بمجلس الأمراء.

- إنها الحياة تتأرجح بين النصر والهزيمة. فاقصص علينا أيام نصرك إذن، لعلها تكون ذكرى سعيدةً في قلبك.. أقصد عزيزنا الدوق أن تعرِّف لنا نفسك، فقد خُلقنا شعوبًا وقبائل لنتعارف..

كانت محاولةً من قسورة لجعل الدوق يتجاوب مع القوم أكثر. وجد ماركيزيو كل العيون توجَّهت إليه، فحاول رسم ابتسامة على وجهه، واستجمع في عقله ما يُمكنه أن يحكيه لهؤلاء المتطفلين:

- لقد وُلدت لأسرةٍ عريقةٍ محاربةٍ. والدي كان مساعد الدوقِ باندينولف في كابوا، وقُتل يوم دخلت قوات الأغالبة لمدينة جيتا.. ولما اختلف المتحالفون، وانفضَّ الناسُ من حول الدوق، كما هي نهاية الحكام عادةً، رحلتُ كما رحل الجميعُ لاستعادة بنفينتو، وتركنا خلفنا الدوق المغرور.

لمح بطرف عينه أثر كلامه على سَودان وأبي المغوار، بينما يُكمل:

- كنتُ بين مَن حُملوا على الأعناق بعد ثورة بنفينتو على حكم الأمير مفرق. استرددنا المدينة العظيمة بعد عشر سنواتٍ كاملةٍ، ومُنحت لقب دوق يوم تنصيب إديلكي أميرًا عليها.

لم يُعلق أحدٌ على جملته الاعتراضية، وإن كانت قد أثارت في نفس سَودان ريبةً. استمر الحديثُ والأخذ والرد حول الحروب والأمراء، يُجيب عن أسئلتهم، ويستمع لقصصهم، إلى أن سأله طلحة السكندري عن حرب البحر:

- ماذا عن حربٍ بالبحر أيها الدوق؟

- واحدة..

- أين؟

- منذ سنواتٍ، أمام ساحل هذه المدينة.

انتبه سَودان لحديث الدوق، كما فعل الجميعُ وهو يستطرد:

- لقد كانت أول هزيمةٍ أُمنى بها. كنتُ على ظهر سفينة طرادٍ ضمن أسطول البندقية، الذي كان يخوضُ حربًا شرسةً مع أسطول طارنت. سفينتنا كانت محملةً بقوارير نفط جئنا به من بيزنطة، وفي ليلةٍ عاصفةٍ جنحت إلى ساحل باري. أنهك الجند في محاربة الموج، وتكسرت بعضُ المجاديف، ومع انقشاع ضباب الفجر، وجدنا أنفسنا نُبحر قرب مجموعةٍ من سفنكم المسطحة. رياحٌ قويةٌ دفعت السفن نحونا، والمدينةُ تُهيمن على المشهد خلفهم. مع صارٍ مكسورٍ، كان من الصعب أن نفرغ أشرعتنا، واستطعنا أن نُغير دفة السفينة بمجهود الرجال، حتى أنَّت أذرعهم من التجديف. لم نكن مُستعدين لحربٍ، فحاولنا الهرب ولكننا لم نفلح، واضطررنا للدفاع عن أنفسنا. السهام غطت الأسطح الخشبية، ولكنَّ الرجال استطاعوا إلقاء قوارير النفط على إحدى سفنكم.. سفينة مسطحة كبيرة، لا زلت أذكر مشهدها وبحارتها يقفزون إلى الماء، ولكنَّ سفينتيْ الحراسة انقضَّتا علينا، وقفز محاربون أشداء يُقاتلوننا برماحٍ طويلةٍ، حتى سقط العديد من الرجال، وسرعان ما تحولت صفحة الماء إلى دماء ونار تطفو، وغرِقت سفينتي ومعها أغلبُ طاقمي.

انتهت حكايته، وبقي واجمًا مع الذكرى المؤلمة. وكان مَن حوله جامدو الملامح، عيونهم تتنقل بين سَودان وماركيزيو. رفع ماركيزيو عينيه إليهم، وزفر قائلًا للسكندري:

- لا أظن أنها كانت فكرةً صائبةً أن نحكي عن تلك الحوادث بيننا أيها القائد، فما يفخر به أحدُنا يُؤلم الآخر.

كان وجه سَودان محتقنًا، وعيناه زائغتين.. خطوتان ما أسرعهما، وكان يجثم على صدر الدوق. وجحظت عينا ماركيزيو وقد آلمته براثنُ سَودان المنغرسة في عنقه.

- لطالما حلمتُ بالنظر في وجه الرجل الذي قتل أسرتي.. الآن فقط تحققت أمنيتي.

كان الدوقُ يرتجفُ، وقد استوعب الأمر. أمسك قسورة بكتف سَودان يُحاول منعه:

- ما ينبغي لك يا أمير أن تفعل ذلك بمن أمَّنته في مجلسك!

بدا وكأن سَودان لم يسمع كلمات وزيره. كان ينظر في وجهِ الدوق يرى قصته رأي العين، ويُريد أن يقتلع رأسه بيديْه. تضاربت الاختيارات في رأسه، وصوت قَسورة يسري مرة أخرى إلى عقله:

- أترضى أن يُقال إن أمير المسلمين يقتل مستأمنًا ببيته؟

رفع سَودان رأسه، ودار بعينيْه في وجوه من حوله وقد خفَّت يده عن عنق الدوق. أفلته أخيرًا، وأشار للجند وهو يستطرد محدثًا أبا المغوار:

- غدًا تبت في أمره، فإن لك أيضًا قصاصًا.

رحل بخطواتٍ واسعةٍ عبر القاعة، بينما يقفُ الجميع إجلالًا لحزنه. ترك ماركيزيو ينظر إلى أبي المغوار الهادئ، الذي رماه بنظرةٍ طويلةٍ قبل أن يرحل هو الآخر، وقسورة يتمتم:

- ما كان عليك أن تقص أمر تلك المعركة. لولا أنك ترتدي بُردة الأمير، لقُطع عنقك الآن.

- سيد قسورة، إنني....

- هل تدري ما فعلتَ، أم لم تفهم الأمر؟ لقد كنت تجلس الآن مع من قتلتَ عائلتهما.

احمرَّ وجه ماركيزيو، وكاد يسأل قسورة كيف لا يلحظ الكل أنهم يتحدثون عن الحروب، أي عن القتل، أي عن عوائل ما أكثرها قتلها الجانبان!

****

مرَّ النهار ولم يخرج السلطان من غرفته. ما حدث سار في حواري المدينة وفي أروقة القصر همسًا لا ينتهي، ووصل إلى مخدع رملة تتحاكى به الجواري. كان يومها شاقًا، فقد كان عليها استقبال نسوة الأمراء والوزراء والتجار، وكاحلها لم يشفَ بعد. لمَّا علمت أنه لم ينزل لصلاة المغرب، توكأت على عصا مذهبةٍ منحها إياها أبو المغوار، تطوي الرواق خلفها ببطءٍ وترددٍ. لكنه زارها حين إصابتها، وعليها أن تزوره في أزمته.

ما إن رآها حارسُ الرواق انحنى:

- مولاتي الأميرة..

- أخبر السلطان أنني بالباب!

- عذرًا سيدتي، ولكن الأمير أمرني ألا يُزعجه أحدٌ.

أمام نظرتها القوية، تردد قليلًا، ثم طرق الباب، وغاب وراءه لوهلةٍ، قبل أن يعودَ خافض الوجه:

- سيدي السلطان ينتظرك.

دلفت رملة تتوكأ على عصاها، فوجدته يجلسُ على مخدع وثير، يُمسك بين يديْه كتابًا أغلقه وقد أبقى أصابعه بين دفتيْه. زاد من ضوء قنديلٍ نحاسي مُعلقٍ بجانب الغُرفة حيث يجلس، وراقب خطوتها العرجاء، وسألها:

- كيف حال ساقك اليوم؟

- تتماثل للشفاء بفضل الله ورعايتك مولاي.. وددت أن أشكرك.

أومأ برأسه وحاول رسم بسمةٍ. عيناه كانتا تحملان الكثير مما يُحاول مواربته، أشار إليها:

- اجلسي!

لامت نفسها على المجيء حين شعرت بفتوره:

- لا داعي.. فقط أردتُ الاطمئنان عليك، فقد سمعت أن مولاي قد غضب وفسدت حفلته.

وضع الكتاب بجواره، ونهض متوجهًا إليها:

- اليوم، كنتُ على وشك قتل رجلٍ منحته الأمان. كسوتُه ببردتي، قبل أن أعرف أنه قاتل سليمة والصغير محمد. لطالما كنتُ أمنِّي النفس بمعرفته والثأر لهما.

أخذ يدها وسار بها على مهلٍ إلى شرفةٍ تطل على ساحة القصبة التي تغط في السكون، ومن ورائها المدينة منبسطة بين يديه:

- لقد عفوتُ عنه، ولم أبر بقسمي. لا أستطيع تَقبل أن يأكل قاتلُ عائلتي بطبق بيتي. أن يتسامر معي بما صنعه. لم أدر بنفسي إلا وأنا فوقه، أكاد أنهش صدره، لولا قسورة.

تمتمت بخفوتٍ:

- إن العفو عند المقدرة من شيم الأعزَّة.

استدار ليُواجهها. كانت لا تزال ترتدي لثامها الحريري. أطال النظر بعينيْها..

- لقد فعلتُ ما بدا لي صوابًا، وأوكلت إلى أبي المغوار البتَّ في أمره.

أرسلت عينيْها ناحية المدينة..

- حين نتخذ القرار بالصفح، نحمل على عاتقنا عبء إقناع عقولنا أنه الصواب ما قد فعلناه.

شرد مع كلمتها، حتى مضى الوقت وهما صامتان. كان صوتُها الرقيق أول ما قطع الصمت، لتستأذنه في الرحيل. أومأ لها برأسه مبتسمًا، ورافقها حتى باب جناحه. قبل أن يفتح الباب سألها:

- هل عفوتِ عني يومًا؟!

كان سؤاله مُباغتًا. اجتاحتها عواصفُ الفكر، وخفضت عينيْها هاربةً من مواجهته..

- ليست كل خسائرنا نستطيع تعويضها.. أنت سلطانُ باري، وإن كان هناك من يجب عليه طلب الصفح، فهو أنا.

تركته في حيرةٍ من أمره. وكأن ما ينقصه هو غموضها. لم يفهمها يومًا، أو أنه لم يُحاول قط.. لعلها تُحاول التقرب منه؛ ولكن شعيب وماريا يقفان بينه وبينها دومًا. عاد إلى شرفته يتطلع إلى باري الساكنة. أحس أنه يفتقد ذاته، يفتقد سَودان القديم. تبدل حاله كثيرًا، ولا يروقه ذلك. ربما يذهب إلى طارنت بينما يُسيِّرُ السرايا للتخوم الشمالية، عساه يطوي الذكريات بعيدًا، ليمضي في تحقيق حلمه: «رومية».

..

ليلةٌ طويلةٌ قضتها رملة، في كابوسٍ لا تعرفُ نهايته. حين تحدث عن زوجته وطفله، وخز قلبَها ألمٌ وندمٌ؛ فقد كان مُصابه أكبر من خسارتها، ولكنها لم تُقدِّر ذلك، واتهمته بقتل زوجها. تذكرت اليوم الأول لها في باري. غفت وصوتُ شعيب يتسلل إلى رأسها، يُعيد عليها كلماته يوم وطئت قدمها الميناء، وقد حجب الغيمُ شمس الضحى:

- غابت الشمس حين أشرق نورك على باري. في هذه المدينة سنهَرم معًا، ونرى أولادنا يكبرون أمام أعيننا. أتدرين يا رملة، من بين كل المدن أحب أن أموت في باري وأدفن بها..

لامست شفاهه بأناملها الرقيقة:

- لا تذكر الموت وأنت معي..

انساب الدمعُ من طرف عينيْها المغلقتيْن. لن تنسى ذلك اليوم أبدًا. كان الجميعُ في استقبال أمير إقريطش وزوجته، بحفاوةٍ بالغةٍ. سَودان.. أبو المغوار.. قسورة وزوجاته، رغم ابتساماتهم إلا أن القلق كان ينبش قِلبها، ولو علمت حينها أن المستقبل له رأيٌ آخر لما جاءت إلى هنا. رحل شعيب، وبقيت هي وحيدةً بينهم، لا يُؤنسها سوى وجود طفليْها إلى جوارها. أما سَودان؛ فعليه أن يبقى بعيدًا.

****

شعورٌ ثقيل قبض على قلب العجوز، منذ عرف أنه ظل لأشهر يتسامر مع قاتل ابنته. أن يُؤتى بغريمك مكبلاً إلى ساحتك، ولكن قد عفا عنه السلطان، فهل يملك هو بعده أن ينتقم؟!

لقد كانت سليمة زهرته التي بقيت قريبةً منه، بعد أن رحلت أخواتها مع أزواجهن، وصارت أميرة باري. كانت تُشبه أمها، صهباء رقيقة، وكان ينتظرُ عودتها من برنديزي ليرى حفيده. سنوات عمره كانت تمر عبر باب الغرفة، وتقفز أطيافُ خيل ورجال من النافذة، كلهم مروا أمامه ومضوا في طريقهم، إلا واحدًا وقف بركن الغرفة عاقدًا يده أمام صدره. كان يشبه سَودان، ولكنه أطول قليلًا، أسفل حلقه يقطر دمًا. وحين تحركت شفتاه ظهر الجُرح بوضوحٍ:

- كل شيء كُتب.. وكل ما كُتب سيكون.

أغمض أبو المغوار عينيْه مُستغفرًا، وتفل عن يساره ثلاثًا، لعل شيطانه يَفل. حاول النوم، لكنه ظل يتقلب بالفراش، فأنزل قدميه عن الفراش باحثًا عن مداسه، وأغلق نافذة الغرفة. قبل أن يخرج، مشط شعره الفضي بأصابعه، ونزل إلى الفناء. خرير الماء جذبه إلى الحوض، فأسبغ الوضوء، وصلى في كنف شجرة لوز عتيقةٍ، استظل بناته بها يوم كانت الدارُ عامرةً بالحياة. انتهى من صلاته، ليجد كاراس يجلس بالقرب منه باسم الثغر كعادته:

- يبدو أن هناك ما يُثقل كاهلك يا أخي.

- الدهر قادرٌ على فعل ذلك.. ولعلنا شاهدان على ذلك.

أومأ كاراس برأسه:

- نعم.. لقد رأينا في حياةٍ واحدةٍ ما يكفي.. ويبقى فقدنا لعزيزٍ أسوأ شعورٍ قد يُراودنا..

ردد أبو المغوار بخفوتٍ:

- كل شيء كُتب.. وكل ما كُتب سيكون.

- لقد كنت أرتب بعض الأغراض بالمكتبة، حين سمعتُ صلاتك.

نهض أبو المغوار قاطعًا حديثه:

- لا عليك؛ سأذهبُ للنوم..

- اصفح عن الدوق!

كان يرتقي الدرج، حين جاءته كلماتُ كاراس، الذي تابع:

- ماركيزيو رجلٌ صالحٌ.

رجل صالح!.. رجل صالح قتل ابنته!.. لم يرد، وأكمل طريقه إلى حيث يبحث عن غفوةٍ.

في الصباح، كان أبو المغوار لدى باب المنزل الذي يُقيم فيه ماركيزيو، يُمسك أحد الحرس بلجام بغلته الشهباء، بينما يفتح الآخر الباب. ترجل، وقد لملم عباءته السوداء، ودلف والشمس تتبع ظله الممتد أمامه. وقف قليلًا بالفناء، قبل أن يظهر الدوق من طرف الرواق، وخلفه حارساه. أشار لهما

أبو المغوار بالذهاب، فتقدم ماركيزيو وحده إليه..

- كيف كانت ليلتك أيها الدوق؟

- أنتظرُ حكمًا يقضي بقتلي.

- لا أظن أنك ستدفن في باري يومًا سيد ماركيزيو.. احزم متاعك، سيرافقك محمد الأغلبي حتى ثغور أفيليانو.. امض إلى طريقك دون أن تلتفت إلى مدينتنا.. فإن عُدت مت.

لم يستسغ ماركيزيو كلمات أبي المغوار. كان يُحدق بوجه العجوز ذي العين الواحدة، الذي يُداعب لحيته الشيباء الملطخة بحمرة الحناء قائلًا:

- حين يأتي المغيبُ، لا أريد رؤيتك في باري.

****

مع بدايةِ الصيف، انتقل الناسُ للسكن في القلعة الغربية، أو كما يُسمونها حصن قسورة التميمي، وعُمِّرت بأسر المُرابطين وبعض أصحاب الحرف. صار الدرب بين باري والحصن زاهرًا، لا تتوقف على طوله العرباتُ والخيل. كانت تُشبه في تفاصيلها قصبة باري، تعتلي ربوةً مرتفعةً، يراها السائرُ كجزيرةٍ تطفو فوق أشجار الغابة، ببرجيْن عظيميْن، ومشاعل تُرى ليلًا من باري، كنجوم صغيرةٍ بعيدةٍ تتوهج. كان يومًا لا مثيل له، حين تمت تجربة نيران التحذير بالبرج الكبير. نارٌ عظيمةٌ رآها أهلُ باري كشمسِ الضحى، خُصصت للإعلان عن الخطر إن وُجد، لتحذير باري.

ماركو كان من بين الذين قرروا الانتقال إلى حصن قسورة. كان أبو المغوار قد أوكل أمره إلى أحدِ الصُّناع، ليتعلم حياكة الملابس وتفصيل الأقمشة. فطنتُه وذكاؤه جعلاه يتعلمِ الحرفة في غضون شهريْن، وحين سمع بأمر الحصن الجديد، قرَّر أن يُصبح له مكانٌ خاص. طلب من القاضي أن يمنحه الإذن، فمنحه منزلًا من فناءٍ صغير وغرفتين، إحداهما فتحت على الشارع، رصَّ فيها الأقمشة بعنايةٍ. كان سعيدًا، يتناسى أوجاعه المزمنة. مضت الأيامُ به، وعرفه كثيرون كخياطٍ ماهر، يحترمون مهارته، حتى لم يعد يهتم إن كانوا يعلمون بأمره أم لا. لكنه لم ينس عينيْها.. كان إذا ما انفضَّ الناسُ، وأغلق داره عليه، ألقى بناظريْه تجاه باري، فيرى وجهها يُزين لياليه. كانت سره الدفين، وحلمه غير القابل للتحقق.

يوم أتى سَودان إلى الحصن، كان يُرافقه أبو المغوار وشرحبيل ومجموعةٌ من الجند، واستقبله العامةُ والخاصة، أما ماركو فتوارى وراء بابه المُغلق، يتلصص بين الحين والآخر على الساحة من نافذةٍ ضيقةٍ بحجرته. رأى عليًّا، ابن شعيب يسير إلى جانب سَودان، ثم تركه ليلعب مع أبناء قسورة. كان يُريد الخروج إليه، ولكنه قرَّر البقاء داخل المنزل، كي لا يُقابل أمير باري المتباهي. لقد نبتت أشجارُ الكُره له منذ أعلن على الملأ زواجه من أميرة إقريطش.. أميرة قلبه العاجز.

طرقاتٌ ببابه انتشلته من جُبِّ القهر، فتردد في القيام لفتح الباب، لكن عاد الطارقُ يدقُّ الباب ثانيةً، فنهض متلكئًا، لعل من يطرق بابه يرحل قبل أن يفتح له. أزاح المزلاج، وسحب الباب، ليغشى عينيه ضوءُ النهار، وأبو المغوار يقف بالباب، يرتدي درعًا من زرد، وعمامته الزرقاء قد احتضنت خوذةً لامعةً. انحنى له بسرعةٍ، ولكن العجوز أمسك برأسه ليرفعه برفقٍ:

- قلتَ لك مرارًا لا تنحنِ لبشرٍ مثلك!

أحسَّ ماركو بالحسرة، فأي بشر هؤلاء الذين مثله. تراجع مبتسمًا وهو يُفسح المجال لضيفه:

- تفضل بالدخول سيدي القاضي؛ وإن كان المكان لا يليقُ بمقامك!

- شكرًا لك يا ماركو لكننا على عجلٍ من أمرنا. لم أرك بين أهل القصبة، فتساءلت إن كان هناك ما يسوء. أيضايقك أحدٌ؟

- لا سيدي.. فقط أشعرُ بتوعكٍ شديدٍ منذ أيامٍ، ولم أكن أعلم بقدومكم..

- حسنًا عليك زيارة الطبيب كاراس في باري، لعل لديه دواء لما أنت فيه. كان يجدرُ بك البقاء معنا، فلطالما كنت منا يا ماركو. على أي حال، هذا قرارُك وحريتك. عُد إلى فراشك يا بني، وإن احتجتَ شيئًا، فقط اذهب للفقيه سعد بن هشام، سيقضي لك كل حوائجك بإذن الله.

انتظر ماركو حتى اختفى العجوزُ بين الجند في الساحة الكبيرة، وأغلق الباب، متمنيًا لو استطاع صفقه بقوةٍ. كلماتُ القاضي لم تكن بردًا ولا سلامًا، لم يرق له أن يسأل أحدٌ عليه أو يهتم لأمره. اعتصر قبضته يضربُ الحائط بقوةٍ عدة مراتٍ، لم يشعر بالألم إلا حين جلس على طرف الفراش، ينظرُ لما قدَّمت يداه، وعقله يُعيد عليه حواره مع أبي المغوار، وهو يتأمل يده المتورمة ويتمتم: "الآن عليَّ الذهاب لباري.. حيث الدواء". انتظر حتى رحلت القوات شمالًا، ثم تجول بأرجاء الحصن قبل أن يخرج من بابه، لعل أحدهم يسأل عن سبب غيابه اليوم. لم يشغل عقله كثيرًا، عبر البوابة متجهًا إلى المدينة، حين أتى المغيبُ وأمسى له رفيقٌ من ظلٍ يتحرك معه عبر الدرب الطويل. شدو الحساسين العائدة إلى أشجارها، كان يُؤنسه، فيرد عليها بصفيره. لطالما قالت له إن الله منحه من حُسن الصوت ما ليس لسائر البشر. كانت دومًا تستمعُ لغنائه لأطفالها بلغةٍ لم يطمسها الزمن، ولم يمحها البعد عن موطنه. كانت كل حروفه لها، ولكنها كانت دومًا تجهل ذلك.

****

دربٌ رملي تُحيط به الأشجارُ من كل جانب، كان الطريق الذي اختاره قسورة ليمضي نحو الشمال. جواده الفاحم يمشي بخيلاء، سُوِّمَ بسرجٍ نَمر أرقط، يقودُ جيش باري العظيم في أيام حارة، بقيت منها ليلتان من المسير، ليصلوا إلى تخوم بنفينتو، دون أن يتوقفوا بأي قريةٍ منذ أنْ خرجوا من باري. رافقهم سَودان في اليوم الأول، قبل أن ينفصلَ بمائتي رجلٍ عن الجيش، متوجهًا إلى طارنت في الجنوب، حيث تنتظرهم السفن الذاهبة لحصار راجوزة.

- لم أرَ جيش باري بهذه الحالة من قبل.. أخاف أن يكون قد تسلل العُجب لقلوبهم.

جذب قسورة عنان جواده، فأبطأت خطواته:

- بل هو قيظ الصيف يُرهقهم. الحرارة شديدة هذا العام.

- نعم، لم أشهد مثلها في هذه الأنحاء من قبل.. الغريب في الأمر أن الروم يغزون صيفًا هذه المرة.

ابتسم قسورة قائلا:

- يقولون إن ملك الإفرنج هو من يقودُ الجيش هذه المرة.. أتمنى ألا ينحاز إلى حصنٍ أو مدينةٍ، فقد سئمت حروب الجدران.. الحربُ مواجهةٌ ومبارزةٌ وجهًا لوجهٍ وليس أن نختبئ خلفَ المتاريس.

- ستظل كما أنت يا قسورة.. الحربُ حكمةٌ ودهاءٌ. ولكن أعدك أن تنال هذه المرة ما تتمنى، فملوكُ الإفرنج ليسوا رجال حرب. بعدما مات إمبراطورهم شارلمان، ومن بعده ابنه لويس، تنازع المُلك ثلاثة ملوك ضعفاء، أحدهم قادمٌ لينال شرف محاربتنا.. وكما عهدت الملوك الباحثين عن المجد، يُسيطر الغباء على عقولهم.

- قُل لي يا أبا المغوار، هل واجهت جيشًا يقوده ملكٌ من قبل؟

- لا.. ولكن حصلت على زخائر ملكيةٍ من رومية..

عدل قسورة من وضع جسده على الجواد ليواجه أبا المغوار:

- حسنًا، لقد نلتَ من المجد ما لم أحظ به بعدُ.. سيدي، كم لبثنا من سنين مع بعضنا البعض، وإنه لمن الشرف لي أن أكون ربيبك. ولكن هناك سؤالًا جديدًا يُلح عليَّ لأول مرة..

- هاتِ ما عندك يا قسورة!

- كيف قضيتَ حياتك لأكثر من نصف قرن دون زوجةٍ؟

- تزوجت أربعًا.

عقد قسورة حاجبيْه:

- كفاك ألغازًا..

ضحك أبو المغوار:

- حسنًا حسنًا.. لا يحتاجُ المرء منا سوى واحدةٍ، تَكفيه وتُغنيه، فقط عليه أن يَقنع. وقد منحني الله أربعًا بعد زوجتي.. عملت على تربيتهن وحدي، حتى رحلت كل واحدةٍ منهن إلى حيث هي الآن..

- مهلًا لقد قلت أربعًا، ونحن نعرف أن لك ثلاثًا فقط.

- باري كانت الرابعة.. جئتها وكانت مدينة صيد تعج ثناياها برائحة الأسماك وأكوام الشِّباك، حصنًا أكله الموجُ على مرِّ الأزمنة.. وها هي ذي الآن فتيةً قوية.. وقريبًا ستُقارع قرطبة والقيروان والفسطاط..

- نحن نختلفُ عنهم تمامًا يا أبا المغوار.. هم بين ظهور الأمة، ونحن على ثغورها.. وها هو ذا ملكُ الروم ينزلُ عن عرشه ليُهاجمنا..

- ما نزل ساحة الوغى إلا من أجله. عاجلًا أو آجلًا ستخضع لنا رومية.. فقط علينا الصبر والرباط.. ما إن تفتح راجوزة بالجانب الآخر من البحر، ستكونُ لنا قاعدةً تمنعُ جيوش بيزنطة من العبور إلينا..

وعندها تحين ساعة الفتح..

كان أبو المغوار يتحدث وعقله مع سَودان الذاهب لغمار حربٍ أخرى، أخذ معه مائة رجل فقط إلى "برنديزي"، حيث سيُبحر من هناك إلى حصار راجوزة. وجوده ضروري في حملة الجنوب، لدعم قواعد ملكه. لقد بلغ سَودان ذروة سنام القيادة، يُحبه العامة، ويسيرُ بخطواتٍ ثابتةٍ نحو مجدٍ يُخلد. كان العجوز سعيدًا بما تؤول إليه الأمور، طالما كان يحمل على عاتقه هموم السلطان، ربيبه الذي شبَّ في كنفه، يرى فيه ابنًا ليس من نسله.. وديْنًا عليه سداده.

****

سان فيلي..

"الأيامُ تهزمنا.. كل يوم يمر يأخذ معه جزءًا من روحنا.. الفصول المُتشابهة تمضي دون توقف.. أجسادُنا تُصبح خاوية، وحياتنا تمسي ليلة شتاء طويلة لا نهايةٍ لها. يذبل زهرُ ربيع صدورنا.. ولنكمل رحلتنا في الحياة علينا تحمل عناء ومشقة السفر صيفًا.. إلى حيث نُعمد من جديد"..

كلماتُ الأب ليو ما زالت محفورةً بعقل لورينزو. تسعة أشهر مضتْ، لم يستطع أن يفعل شيئًا لابنته الهائمة. تضرَّع كثيرًا للرب أن يمنحها عقلها مرةً أخرى. أوجعه قلبُه لحالها.. افتدته من الموت مرتين، وعليه أن يسد ديْنه. نصحه الأب ليو بالذهاب إلى روما، ويحملها معه للبابا، فقد مسَّ الفتاة شيطانٌ؛ لكنه خشي عليها من تلك الرحلة. ذبلت ووهنت، ولم تعد تُحدث أحدًا، وأصبحت باردة الملامح. أطال النظر إلى ركنٍ خاوٍ، حيث كان يجلسُ كاراس يومًا، ليته كان موجودًا ليُداويها، يحتاجه أكثر من أي وقتٍ مضى، لطالما كان راجح الرأي. ولكنه أهانه كثيرًا بدفاعه وانحيازه لذلك الأمير العربي. يتذكر ذلك اليوم الذي قال له إن عليه أن يُحسن التصرف قبل فوات الأوان. لكن كان من الصعب أن يتقبل ما يَمر به، أحلامه تقبع تحت أنقاض الواقع، كل شيء تبدل عكس ما تمنى، تضاربت مشاعرُه تجاه الجميع، ولجأ لركنٍ مظلم بحانة سباستيان، بعدما خسر محصول الكرم هذا الربيع إثر سَيلٍ جارفٍ دمَّر الحقول. كان يعتقد أنَّ لماريا شأنًا في هذا.. فالفتاة كانت دومًا تحملُ البركات له، هكذا كانت البُشرى حين رأى العذراء مريم تُبشره بمولدها. لا يعلم أية تعويذة ألقاها ذلك العربي عليها..

شَرب كثيرًا هذه الليلة، كلما فرغ القدح صبَّ له سباستيان غيره. لم يعد يُبالي به أحدٌ من رواد الحانة، انشغلوا بالصدور العارية والرقص، يتقافزون وتتعالى ضحكاتهم أكثر فأكثر.. لم يعد يحتمل كل هذا الضجيج، فنهض ضاربًا المنضدة بقدح الشراب، فتناثرت الجعة والزجاج. توقف العزفُ، وحملقت العيون به وقد تجلى الغضبُ بوجهه ونظراته. بخطواتٍ غير متزنةٍ مرَّ بينهم صائحًا:

- لماذا توقفتم عن الغناء والرقص؟ تتمايلون وتُطلقون العنان لضحكاتكم، دون أن يُبالي أحدُكم بأمري أنا.. سيدكم النبيل لورينزو.. هل انتهت كل همومكم، وتبددت كل مخاوفكم؟

قال أحدُهم متهكمًا:

- لا تَعكر صفو الأجواء أيها العجوز.. اذهب وافرض قيودك على ابنتك المجنونة!

دار بوجهه في المكان بحثًا عن قائل الجملة. اغرورقت عيناه بالدمع، وراح يُزيحهم عن طريقه وهو يترنح:

- هل وصل بكم الأمر أن تذكروا ابنتي، أيها الرعاع؟ أي أجواء تلك التي أعكرها يا ذوي الرائحة النتنة.. إن كان لديك الجرأة لقول هذا، فلمَ لا تقوله في وجهي دون أن تتوارى بين نهود العاهرات..

أمسك بتلابيبِ أحدهم، وأخذ يُحدق في وجهه قبل أن يُفلته ويُمسك بآخر:

- كلكم جبناء.. دجاجات سمنت في حظيرتي.. لستم رجالًا. فالرجلُ يُواجه ولا يتخفى.. سأعاقبكم جميعًا.

- لقد ولَّى زمنُك يا سيد لورينزو..

أفلت مَن بيده، واستدار ليبحثَ عن قائل الجملة. اختلَّ توازنه، فسقط أرضًا، وانفجرت الحناجرُ بضحكاتٍ مرتفعةٍ. لم يُساعده أحدٌ على النهوض. صمتوا فجأةً، حين وقعت أبصارهم على مَن يقف بباب الحانة. كان إليساندرو برفقته الحرس. انفلق الجمعُ إلى نصفين، ليمر بينهما متحدثًا بغلظةٍ:

- يبدو أن لدينا بعض الرقاب التي ستُقطع الليلة.. فمن يجرؤ على إهانة سيده قد أهان الرب.

نهضَ لورينزو بمساعدة الجند، وإليساندرو يُكمل:

- حسنًا.. من ذا الذي يسخر؟ علمًا بأن العقاب قد يشملكم جميعًا إن لم تُخبروني الآن من الفاعل.

تيبست الألسنةُ وجحظت العيون، ولم يلبث أن قال سباستيان مشيرًا إلى الشخص:

- إنه ألبرتو.

لم يتوقع الرجل أن يشي به صاحبه، ولكنه فعل. ابتعد الناسُ عنه، وبقي وحيدًا وقد اتسعت عيناه، لا يفهم معنى الابتسامة التي ارتسمت على شفتيْ إليساندرو، قبل أن يُعطي الأمر لرجاله بالإمساك به. تراجع الرجلُ خطوتين للخلف وهو يرمق سباستيان بمقتٍ:

- لم أفعل شيئًا.. أنت كاذبٌ يا سباستيان.

ضاعت صيحته وسط لكمات الجند له. حملوه إلى خارج الحانة تتبعهم الأعينُ، بينما وقف إليساندرو بمنتصف المكان:

- إن مَن يُهين النبلاء عقابه الموت.. وإن سمعتُ يومًا أي همسٍ يصدر من هذا المكان القذر، سأحرقه وأنتم بداخله.

أمسك برسغ أبيه، وغادرا المكان، بينما يجرُّ الرجال ألبرتو إلى الساحة. كان يصرخُ ويتوسلُ، وعلى ضوء المشاعل ثبَّت الجنودُ صاريًا خشبيًا بوسط الساحة، وأمر إليساندرو أحد رجاله بمرافقة أبيه إلى المنزل. رُبط الرجلُ إلى الصاري، صرخاته جعلت أهل القرية يتلصصون من خلف النوافذ والأبواب، وإليساندرو يصيحُ بصوتٍ هادرٍ:

- هذا عقابُ كل جبان آثر الوقاحة عن تبجيل السادة.. سأضرب بيدٍ من حديدٍ كل مَن تَسول له نفسه الاعتداء على النبلاء، وسيبقى هذا الحقيرُ هنا حتى يموت جوعًا وعطشًا، أو يعفي عنه النبيلُ لورينزو.

مضى إلى المنزل، وقد أولى الحرس بمراقبة المُعاقب. ارتقى التل يحث الخطى، غاضبًا من أبيه الذي جعل من نفسه أضحوكةً للعامة. مقررًا لومه على ذهابه للحانة وسط الأقنان، ولكنه وجده نائمًا. استقبلته كاترينا وقد اعتراها القلقُ:

- ما الذي حدث؟

جلس على طرف الفراش، يخلع حذاءه الجلدي الطويل:

- لا شيء، فقط كنتُ أؤدب أحدهم.

- هل تُخفي عني شيئًا؟

أمسك بيدها برفقٍ وهو ينظر في عينيْها:

- لا شيء حبيبتي، لا تقلقي. بعضُ الأمور تحتاج للقسوة أحيانًا. أخبريني كيف حالك؟

تحسست بطنها المنتفخ:

- يبدو أن صبيك سيصير مثلك، منذ الصباح يركلُ بطني، ولم يتوقف إلا حين عُدت أنت.

- أتشوق لليوم الذي أراه فيه..

- وهو أيضًا يشتاقُ لأن تضمه إلى صدرك.

- وماذا عن أمه، ألا تشتاق لذلك أيضًا؟

ضحكت وهي تضع حذاءه جانبًا، وعادت إلى الفراش بجواره. احتضنها بلينٍ، وعقله يبحث عن سبيلٍ لما هو قادمٌ. هاجسٌ يهمس بأذنه أن الغد سيكون يومًا عصيبًا.

****

اشتدَّ القيظُ وقتَ الظهيرة، والسماءُ صافيةٌ لا يشوب زرقتها بياض، والشمسُ تُهيمن على الجبال والغِياض، وبدت سان فيلي شاحبةً مهجورةً. ليستْ كما يعتادها أهلها، الذين صاروا يقولون إن السراسنة جاءوا بطقسهم الحار معهم. ترك الرجالُ معاولهم، واستظلوا بجدران المنازل الحجرية، لعلها تُبرد ظهورهم، يُشاركهم مجلسهم جيشٌ من ذبابٍ يبحث عن الظلال. تناسوا أمر ألبرتو المصلوب بالساحة، وكأنه لم يكن. إحدى النسوة خرجتْ تسكب دلوها جوار منزلها، فركضت إليها الخنازير الصغيرة لاهثةً. الدجاجاتُ ترقد تحت الشجيرات غير مباليةٍ بجلبة الأطفال وهم يركضون إلى خارج القرية. اقترح أحدهم أن يذهبوا للسباحة في البحيرة بدلًا من مطاردة كلبٍ سباستيان. مروا إلى جوار المصلوب، دون أن يتحرك أو يأبه أحدٌ منهم به، فقد اكتفوا من جعله هدفًا للحجارة والثمار

التالفة، حتى ملوا.

داخل الكنيسة، انهمك شابٌّ نحيفٌ في ترتيب الشموع. ملابسه البيضاء الفضفاضة، والوشاح الأحمر وشت بأنه شمَّاس مُتدرب، تطوَّع لخدمة الرب منذ أيام فقط. وجد الأب ليو فيه مساعدًا له، قبل أيام من عيد انتقال مريم العذراء، فقد هرم ولم يعد يستطيعُ تحمل تنظيف المكان وحده. كان يُلقي النظرَ على الفتى من وقتٍ لآخر، بينما يجول هو حاملًا مبخرة ذهبية، راح يُوزع دخانها العَطِر في أرجاء المذبح متمتمًا: مريم، يا ممتلئة نعمة ومباركة بين النساء.. لم يقطع صلاته حين رآه يقفُ على باب الكنيسة، بينما تقدم صاحبُ الحانة مُنكس الرأس. توقف سباستيان أمام الأب ليو، الذي أومأ للشماس، فجاء مهرولًا ليأخذ منه المبخرة. انتظر حتى ابتعد الشاب وقال لسباستيان:

- هاتِ ما عندك!

- لقد جئتُ للاعتراف يا أبت..

اتسعت عينا ليو، وانتفض قلبه فرحًا. حرَّك يده راسمًا الصليب في الهواء:

- لقد أسعدتني حقًّا يا سباستيان.. هل ستُغلق الحانة أخيرًا؟

ردَّ سباستيان بخفوتٍ:

- لم آت لغلق الحانة.. بل لأنني وشيتُ بألبرتو المسكين إلى إليساندرو.. ألم يُخبرك أحدٌ أنه مصلوبٌ في الساحة؟!

- متى حدث هذا؟

- في وقتٍ متأخرٍ من الليلة الماضية.

لم ينتظر الأب ليو حتى يُكمل سباستيان جملته. تحرَّك غاضبًا بخطواتٍ واسعةٍ نحو الباب، يتبعه صاحبُ الحانة مُستغربًا كيف أعاد الغضب إلى هذا العجوز قوته. ما إن خرج الأب من الباب، حتى تيبست قدماه، ووقف يُحدق في الصاري المنصوب في نهاية الدرب. اتجه نحو الساحة، يجرُّ طرف ثوبه على التراب، وسباستيان يتبعه. كان الأب ليو ينوي أن يفك وثاق ألبرتو المسكين، وبعدها سيرى ذلك الأرعن إليساندرو. يبدو أن الجنون أصاب كل عائلة لورينزو. رفع عينيْه للسماء طالبًا العون والمقدرة، ولكنه فوجئ بزرقتها داكنة، وقرص الشمس فيها كطبق ذهبي يشع بخفوتٍ. جعل سباستيان يرفع رأسه هو الآخر نحو السماء، فهاله ما رأى.. الشمس تتآكل ببطء، والعتمة تنسابُ إلى قرصها رويدًا، والسكون فرض نفسه على الأرض. عندما تآكل نصف الشمس، وصارت هلالًا يتناقصُ، ارتفعت صرخاتُ النساء، والرجال جذبوا نساءهم وأطفالهم وركضوا بهم إلى منازلهم. صرخت امرأةٌ: "الأطفال عند البحيرة.. لا تتركوهم".. ولكن الكل أخذ يصفق بابه ونوافذ منزله، حتى سباستيان ركض عائدًا للكنيسة، وانكبَّ على وجهه يبكي ويتلو صلواتٍ متلعثمة. أما الأب ليو، فتراجع خطوتين للخلف غير مصدقٍ لما يحدث.. وأخذ يتمتم بصلواتٍ سريعةٍ وعيناه تدوران في ظلمة السماء، لعل الشمس تفلت من براثن الشر. صرخاتٌ أتت من أعلى الربوة حيث منزل لورينزو، فالتفت إليها.. كانت ماريا قد تجاوزت البوابة الخشبية، تجري قابضة يدها على شيء ما، غير مباليةٍ بالصيحات خلفها، شعثاء حافية القدمين، غير آبهةٍ للغبار والطين الذي يتناثر على ثوبها الأبيض

الذي يزيدها شحوبًا.

وصلت إلى الساحة، فأبطأت خطواتها. ازداد الظلام، وصارت الشمس كأنها ذكرى من ماضٍ بعيدٍ، وإيلينا لا تكف عن الصراخ في نافذتها منادية ابنتها الهائمة. كاترينا كانت تُمسك بطنها باكيةً، لا تقوى على ندائها، ولكنها كانت تشعر بأن لا شيء سيُؤذيها. رغم ذلك كان قلبها ينقبض بعنفٍ، وأحسَّت بوجعٍ أسفل بطنها، فجلست بالقرب من الباب وقد اتسعت عيناها من فرط الألم. كان إليساندرو ينزِل الدرج مغاضبًا من فعل أخته، أقسم أن يكيل لها الضربات، أو لعله يقتلها ويُريحها من عذابها الأبدي. توقف حائرًا للحظةٍ أمام زوجته المتألمة، لم ينطق، وتوجَّه إلى باب المنزل حيث أمه تنتحب، تردد في الخروج لبرهةٍ، وحين اتخذ قراره، أتاه صوتُ أبيه من خلفه:

- اتركها وشأنها يا إليساندرو..

تجمَّد مكانه حائرًا، بينما تقدَّم منه لورينزو وقد اغرورقت عيناه:

- إنها بمعية الرب.. لا تخرج يا ولدي.. أخاف أن أفقدكما.

في الظلمات، وحده القلبُ النقي يكون نبراسًا لصاحبه يُرشده إلى حيث الضياء والصفاء، ويمنحه قوةً حين يخاف الجميع، بيقين أن ليس بعد الظلام سوى النور.

توقفت ماريا عند طرف الساحة، تحمل في يدها قِربة ماء صغيرة، بينما وقف الأب ليو في الجانب الآخر، يتوسطهما ألبرتو المُنتحب فزعًا. صارت الشمسُ حلقةً من شعرةٍ ذهبيةٍ نبتت بظهر حصانٍ أدهم. الأب ليو يرفع صوته بالتلاوة أكثر، يتصدى للروح الشيطانية التي تحوم في الأرجاء، وعليهِ الثبات والتصدي للشرور. رنينُ أجراس الكنيسة أفزع الأب ليو، فانتفض وكاد يلعن الشماس الغبي.. رددت الجبال البعيدة رنين الأجراس، ومن رحم الظلام وُلد هلال شمسٍ جديدةٍ.. خيط رفيع بدأ يسطع رويدًا على وجه ماريا وهي تقترب من ألبرتو، ترفع قِربة الماء لتسقيَ شفتيْه الجافتيْن اللتين تلقفان قطرات المياه في حذرٍ، وعيناه تفيضان بالدمع وبالشكر للقديسة التي أتت لتمنحه الحياة. ومن بين شقوق الأبواب والنوافذ، كانت العيون ترصد كل ما يحدث، تتلمس الرؤية في الضوء الشحيح.

حدث كل شيء سريعًا خاطفًا، ولكنه سيخلد في رؤوس الصبية، وستبقى حكاياتُ أمهاتهن عن الغول الذي يلتهم الشمس باقيةً في نفوسهم للكبر. كان إليساندرو يحمل أخته "جالبة الضياء" كما نعتها الأطفال، والأب ليو يُتابعهما يصعدان التل نحو المنزل، وخرج الناسُ من البيوت يُعيدون حكي ما حدث. القليلُ مَن حيوا الأب ليو، الذي كان يرى في نفسه مؤمنًا حقيقيًّا، ولكن ماريا كانت انبهارهم الأكبر. كانت المرة الأولى التي يرونها فيها منذ اختفت داخل منزلها، لا تخرج إلا مع كاترينا إلى الجدول والبحيرة بين الفينة والأخرى.. قال البعضُ إنها قديسة، وقالت نسوة إنها ساحرةٌ ويسكن جسدها شيطانٌ ما.. لكن كيف لشيطانٍ أن يفعل الخير ويفك وثاق ألبرتو الذي شارف على الموت؟!

****

(7)

تجلت العظمةُ في أفقٍ بعيدٍ، خلف حقولٍ شاسعةٍ.. روما، مدينة التلال السبع. شمس الصباح تستبيحُ الظلال، تزيح العتمةَ عن مبانٍ عتيقةٍ شامخةٍ تبرز وسط المنازل، يحتضنها الجدار الأورلياني الضخم، ويجري نهرُ التيبر بمياهه العكِرة بين ضفتيها، شاهدًا على تأسيسها وسطوع نجمها، شَرب من مياهه ابنا إله الحرب، رمولوس ورموس ربيبا الذئبة، قبل أن يقّتل أحدهما أخاه ليحظى بالمدينة الصغيرة وحده. نسرٌ ذهبي بسط جناحيْه فوق ربوع العالمِ القديم، واتخذ من قمم معابدها وقصورها عشًا له. روما عظيمة عبر التاريخ، حكمت أراضي شاسعةً بالحديد والنار، مستعمراتها لبثِّ طلبات إله الحرب وعدة آلهةٍ أخرى، مدينة مقدسة حظيت برعاية جوبيتور وزمرته. ورغم أن البقايا المهملة لأعمدة وتماثيل محطمة تهمس للرائي أن لا شيء أعتى من الزمان، إلا أنها ظلت رمز المسيحية وقِبلة الحجاج الوافدين من أصقاع أوربا لنيل البركات والغفران، تأتيها الركبان القادمة عبر طرق تُؤدي جميعها إلى بواباتها العملاقة، وبكل طريق جسرٌ عملاقٌ من القناطر المعلقة، إحدى عشر قنطرة أو ما تبقى منها، ترشدك إلى المدينة المتراميةَ. سار الجمعُ الغفيرُ بجوار– اكوا كلاوديا– أو كما يُسميها البعضُ قنطرةِ الجنوب، نبت في مفاصل حجارتها العتيقة العُشب، الذي صار مأوى للطيور. كانت قديمةً شاهقةً، لا مثيلَ لها، فاضت على المدينة ذات يوم بالمياه، والآن أصبحت مَعلمًا مهجورًا، يُوازيها ويُؤنس وحدتها طريقٌ ممهدٌ بالحجر، قديم كقدمها. وبينما تنتهي كل الطرق إليها، وحدها قناطر المياه تمر فوق السور الأورلياني وأبراجه العظيمة..

تباطأت البغالُ والخيولُ وهي تمر بضاحيةٍ فقيرةٍ، نشأت في كنف السور القديم. حيٌّ يسكنه الفلاحون، بملابسهم الرثة، ووجوهٍ أرهقها الصيف. الفتياتُ يحملن سلال الخضراوات يتجهن إلى المدينة. بدت القافلةُ ضئيلةً إلى جوار البوابة الضخمة ذات البرجيْن العظيميْن. رايات وبيارق البابوية زينت أرجاء المدخل، وتحتها وقف جندٌ يكسوهم الفولاذ من أخمص القدم حتى قمة الرأس، وعليهم عباءاتٌ حمراء تتدلى عن أكتافهم، يتوسطها مفتاحان يتقاطعان. كان لورينزو يقودُ الركب إلى داخل المدينة، حاملًا جبالًا من الرجاء. رحلة حج نذرها للرب، لعل البابا يُداوي ابنته ببركاته ونعمه. حَمل معه العديد من أهل قريته، ممن أرادوا الذهاب للحج. إلى جواره كان إليساندرو، يمتطي حصانًا أحمر جامحًا. إنها المرة الثانية التي يزور روما، بهاؤها يبعث الفخر في نفسه، ولعل ابنه يُولد فيها، فينال من حظها ما ينال. لم يغب إليساندرو عن نظرات كاترينا، التي تجلس على ظهر عربةٍ يجرها جوادان، تحتضن ماريا الناعسة. ابتسامة ماريا الخافتة منحتها تفاؤلًا بأن كل شيء سيتبدل بعد هذه الرحلة. كانت تُهدهد ماريا وتقص على مسامعها حكاياتٍ عن القديسين وبركات روما الدائمة، ومن ورائهما كانت فيولا منبهرةً بما تراه حولها. لحقت بالركب في آخر لحظاته، فبكت بين يديْ لورينزو، تستأذنه أن تركب معه إلى روما، فإما أن تهتدي ببركات البابا، أو تضيع في روما وتتخلص منها قريته الهادئة. التفتت إلى ماريا، القديسة ماريا كما يُسمونها.. كل الناس يرونها طاهرةً، رغم أنهم رأوها بأعينهم عند البحيرة مع ذلك العربي. ستطلب الغفران وخدمة الرب، وتُصبح راهبةً في روما. لقد اكتفت من الملذات، وجاء الوقت للتوبة. إيلينا النائمة استيقظت حين ارتجت العربة. فتحت عينيها على عالم فسيح تزاحمت فيه المنازل والأشجار، وقد استقبلهم بناء بيضاوي ضخم، تهدمت بعض أجزائه العلويةَ، ورغم ذلك يقف شامخًا، يتضاءل إلى جواره العابرون. شهد الكولسيوم نزال آلاف المُجالدين عبر قرونٍ، ثم صار مهجورًا، خلا من تردد صدى السيوف وزئير الأسود الأطلسية، والزحام في مدرجاته، وسكن المشردون أدواره السفلية، فصارت ضخامة بنيانه الخاوي تبعث في

النفس رهبة وتساؤلًا هل هو من صنع البشر؟

كان لورينزو يحكي لإليساندرو عن تاريخ كل ما مروا به.. قوس تيتوس الذي يُخلد ذكرى انتصار الإمبراطور في القدس، سيرك ماكسميوس الذي صار أطلالًا، ولم يعد الإنسان يُصارع فيه الحيوانات. ويشير إلى أعمدةٍ رخاميةٍ تنتشرُ في الأرجاء، والقرميد الأحمر والطرقات المزدحمة بالأزياء والملامح، في مزيجٍ فريدٍ بين أقصى دركات الفقر وذروة الترف، والساحات ونوافير المياه، والقساوسة والرهبان يسيرون بين العامة، ويُضاحكه حين تمر مواكب النبلاء تجمعُ بين الرهافة والبربرة، ويسأله عن جند البابا الذين يطوفون الأزقة، ضخامُ البنيان يرتدون دروعًا ذات نقوشٍ كثيرةٍ متداخلةٍ زينت الفولاذ اللامع، ودرع الكتف تُوازي ارتفاع خوذاتهم ذات الريش الأحمر، وخطواتهم تُصدر صوتًا معدنيًّا فيُفسح لهم العامة الطريق، يُبجلونهم بقدر مخافتهم. وحين أحس ملل ابنه، أبطأ بجواده حتى حاذى عربة النساء، وأخذ يُحدث ماريا عن قصة عامود ترجان، فهو يُخلد ذكرى انتصاره على داقية، وينظر في عينيها يتمنى أن يرى فيهما أنها تسمعه وتفهم ما يقول.

وأخيرًا، أودعت الخيل والبغال الحظيرة المرفقة بالفندق. لم يَبخل لورينزو في اختيار المكان وأجزل العطاء للخدم. كان المكانُ نظيفًا، في حي هادئ، تطل شرفاته على البانثيون بقبته الكبيرة. القرويون أخذهم الانبهار، فراح كل منهم يبحث عن اهتماماته في المدينة، بينما أطلت ماريا من نافذة غرفتها بالنُزل، مستكينة للهدوء. رأت ظلال قلعة سانت أنجلو، ونيران مشاعلها تنعكسُ على مياه التيبر الجارية، حيث يتسامر الأخلاء والعشاق. أشاحت بوجهها عنهم، شطر كنيسة القسطنطينية، حيث قبر القديس بطرس. ستتوجه إليها غدًا، سمعت أباها يتحدث عن زيارته للبابا وعرض حالتها عليه. كانت تتوق لهذا اللقاء حتى تُنهي صومها عن الكلام. زهدت الحديث مع من لا يفهمها، رغم ما ترى من حزنٍ في عين أبيها، وصلوات أمها التي لم تتوقف، ووجه كاترينا المكتسي بالشجن.. كانت ماريا تجسيدًا للانكسار. تتذكر نهار الكسوف، حين فكت وثاق ألبرتو، أحست أن الظلام إشارةٌ من الرب أن ما يفعله أخوها شرٌّ كبيرٌ. الصواب هو الرحمة.. المسكين كان يرتجف، العطش والخوف من الكسوفٍ كادا يصيبانه بالجنون، ورأت في عينيْه رعبًا جربته يوم نال الفراق منها. أغمضت عينيْها مسترجعةً مشهده.. سَودان.. كم كان قويًّا في إعلان حبه لها أمام الملأ من قومها وقومه.. ودت أن تصرخ "وأنا أحبك". هل يُدرك أن الأمر لم يكن بيدها؟ واجبها نحو أسرتها جعلها معصوبة البصر، وقد نالت الحيرة من البصيرة، فأحكمت الرباط على شوقها ونحرت أمنياتها، ثم تقوقعت في سراديب الأحزان. لربما يكون قد كرهها. فتحت عينيها، فلمحت كاترينا وإليساندرو عند حافة النهر. ابتسمت وحدَّثت نفسها:

"ليس بي أي شيء؟! أنا لا أزال متماسكةً".

صمت لبرهةٍ قبل أن تُتمتم:

"كل ما في الأمر أننا لن نلتقي مرة أخرى".

أطالت النظر بسماء روما ونجومها، وذرفت عيناها دموع الألم. عادت إلى فراشها مثقلةً بالحزن. مدَّت يدها تحت الوسادة، وأمسكت بحصانه الخشبي..

"هل صاحبك يذكرني؟"

قلبت الدمية تتأمل اسم روما باللاتينية. رفعته أمام عينيها هامسةً:

"ها أنت تأتي روما دون صاحبك.. ووحده الرب يعلم ما سيحدث غدًا".

****

مع ضوء الفجر البعيد تهادت الطرادات فوق سطح البحر ٍ ثلاثون سفينة خفيفة الوزن رشيقة القوام تُبحر ببطء في خليجٍ ضيقٍ مُحاطٍ بأراضٍ منبسطةٍ، متجهةً إلى مدخل الميناء المنيع، الذي يحرسه برجان عظيمان لم تُطفأ نيران قناديلهما بعد، وبينهما قنطرة من حبالٍ وخشبٍ. ما إن وقعت أعينُ الحرس على السفن المقبلة، حتى رفعوا الرايات، وصاح أحدهم مكبرًا. كرر نداءه، مما جعل أهل المدينة الذاهبين لأعمالهم ينجذبون ناحية المرفأ، مهرولين. وترك التجار محالهم، التي فتحوها للتو، وصعدت النسوة إلى أسطح المنازل القريبةِ من البحر. لقد عاد أسطول باري إلى برنديزي، وكانوا قد أبحروا منذ شهرٍ إلى راجوزة. كانت عودةً سريعةً، أثارت فيضًا من التساؤلات، هل انتصروا أم انحازوا عائدين لسببٍ ما؟!

عبرت الطرادات بين البرجين تباعًا، تعلوها رايات خضراء خفاقة، وعلى سطحها تجمع الجند ملوحين بالرايات، مهللين بصوتٍ هادرٍ، فضج الميناء بصيحات الفرح، وتقافز الرجال وحملت الأطفال على الأعناق، وسرعان ما كانت حاراتُ برنديزي تُردد أغاريد النصرِ. رفعت المجاديف، واستعد الجندُ للرسو، وعلى مقدمة السفينة الأولى، كان واقفًا يرتدي صديريةً ودرعيْ معصم من جلدٍ خيط بالزرد، زي حرب خفيف لم يروا أميرهم يرتديه من قبل. كان باسم الثغر، وقد منحته غزوته نصرًا مبينًا على أسطول البندقية، واكتسب وجهُه سُمرةً بفعل شمس الصيف الحارة. المدينة كما هي منذ أن رحل عنها مع زوجته وطفله، تذكره جنباتها بكل من رحلوا، سليمة ومحمد وشعيب. عقد وأكثر مرَّ، وتبدلت الأحوال، وهذه برنديزي دون سليمة، ولم يبق أثرٌ فيها لشعيب. وفي باري زوجة لا يطأها، وانتصار بحري على سفن البنادقة والبيزنطيين قرب راجوزة، ومجد وثناء ووحدة.

ـ لمَ لا تؤجل العُرس حتى أعيد أسرتي إلى باري، ثم أرافقك إلى إقريطش؟

ـ وددت ذلك أيضًا.. ولكن كما تعلم لقد تأجل موعد الزفاف أكثر من مرة، وأخاف أن يغضبَ الأميرُ لأخته. لقد طال بنا المقام هنا في برنديزي.

ـ قل إنك تشتاق لخليلة القلب!

ضحك شعيب حتى ظهرت نواجذه، وسَودان يستطرد:

ـ أثق في حُسن اختيارك يا فتى.

ـ سأصدقك القول يا صاحبي.. إن الله منحني أفضل رفيقين في هذه الدنيا.. أنت وهي.. سأمكث في إقريطش لبعض الوقت، أبلغ سلامي لأبي المغوار وقسورة..

ـ سأفعل.. ولكن لا تنس دربنا الطويل حتى رومية، فلا تنشغل بالحب وتنسى الحرب..

ـ لن أفعل بالتأكيد.. لماذا لا تعود إلى باري برًّا؟

ـ لقد أُعدت السفن للرحيل.. كما أنها ستختصر الوقت كثيرًا.. وأنا أحب رؤية باري من البحر.

"لا تنس دربنا الطويل حتى رومية، فلا تنشغل بالحب وتنسى الحرب".. رددها سَودان لنفسه وابتسم

ابتسامة تحمل حزن قلبٍ موجوع. تذكر سليمة التي وقفت في إحدى الزوايا المطلة على الفناء، تحمل الرضيع بين ذراعيْها، وعيناها معلقتان بزوجها. تجاوز شعيب واتجه إليها، فحمل عنها الصغير وسار أمامها، فتبعته وقد أحكمت وضع نقابها. لقد أحبته ولكنه لم يفعل.. كانت تُدرك أن سَودان لم يُحب سوى حمحمات الخيل وصليل السيوف وهدير المعارك. لم تشتكِ. اكتفت بأنه يتلطف بها ويبجلها ويمنحها الأمان، وما تمنت من الدنيا سوى أن تكون قُربه.

انفرج البابُ العتيقُ عن وجه خادمه يسأله الإذن أن يأتيه بالطعام..

- ليس الآن يا عبد الله.. أريد أن أحظى ببعض الراحة بعد الرحلة الشاقة في البحر، وآمل ألا يزعجني أحدٌ طوال اليوم.

أومأ الرجل برأسه وأغلق الباب خلفه، وشرد سَودان مع نهر ذكرياته المتدفق.. ولكن هذه المرة كانت ماريا.

****

((يا سمعان بن يونا، أتحبني أكثر من هؤلاء؟

سأله يسوع، فأجاب بطرس: أنت تعلم أني أحبك.

فقال يسوع: ارع غنمي..

كرر السؤال ثلاثًا، وكانت الإجابة واحدةً.. لقد صدق بطرس في حبه، وسار على درب الإيمان خلف يسوع، وكان أبرز تلاميذه وراعي خرافه. لقد جاء إلى روما ليؤسس كنيستها، وعانى كثيرًا من أجل الرب، حتى استشهد على يد الإمبراطور الوثني نيرون، فكان كما سماه يسوع "الصخرة"، لم يضعف حتى في لحظة صلبه. إن إيماننا يُختبر، ومن تحمل الآلام وصبر عليها حظى بملكوت الرب. ولقد وضع الرب مقاييس رفيعة لرعاياه وعلمهم كيف يبلغونها)).

مئاتٌ من المصلين كانوا يستمعون إلى عظة البابا أدريان الثاني. وبين الصفوف كان لورينزو وعائلته، مبهورين بكونهم يجلسون بالكنيسة القسطنطينية، حيث قبر بطرس الرسول. استبشرت ماريا بقرب الفرج، منتظرةً أن تتحدث مع البابا وتعترف له بكل شيء، كما هو حال الجميع. وقفوا في تبجيلٍ حينما مرَّ بهم، وخلفه الكرادلة والحرس ذوو الدروع الفضية، وهو يُومئ برأسه مبتسمًا. توقفَ أمام لورينزو مشيرًا إليه بالتقدم، فاجتاز لورينزو صفين من الناس ثم جثا أمام البابا مقبلًا يده، فربت الأخير على رأسه:

- ها قد حملتك رياحُ الرب إلى روما سيد لورينزو.. أخبروني أن معك عائلتك أيضًا والكثير من أهل قريتك..

رفع لورينزو رأسه وعيناه قد اغرورقتا بالدمع:

- لقد أتينا لنيل البركات والغفران يا أبت.. جئت ممتلئًا بالرجاء أن تعود ابنتي كما كانت..

ألقى البابا نظرة سريعة على آل لورينزو، قبل أن يتمتم:

- لك ما تشاء يا بُني.. أنتظرك أنت وأسرتك في المساء، فلا تتأخر. لدينا حساء جيد.

ربت على كتف لورينزو ومضى في طريقه، فعاد لورينزو إلى حيث تقف أسرته، يُخبرهم بأمر اللقاء، وعيناه لا تفارقان وجه ابنته، التي ارتسم على شفتيْها شبح ابتسامة، فهدأ قلبه. كل ما يفعله هو من أجلها، وسيفعل أكثر من هذا إن تطلب الأمر. خرج الناسُ من الكنيسة، وهم يرمقون عائلة لورينزو بفضولٍ. انتشروا بالحديقة الشاسعة التي تطل على المدينة، وراح كل منهم يُجهز ما سيقوله للبابا في المساء، لكن وحدها فيولا لم تكن تعرف ما تريد. الغيرة من آل لورينزو كادت تفتضح في عينيْها، فجلست وحيدةً على درج الكنيسة، تتأمل قومها، وتُحاول أن تقرر ما تريده حقًا من روما.
ظل العجوزُ يثرثر مع أحد الشمامسة، وزوجته السمينة تقف جواره وقد أصابها الملُل والتعب، بينما جلس القرويون على حافة بركة مياهٍ ازدحم فيها الأطفال، يلهون وينثرون الرذاذ. وعند شجرةٍ نمت وحدها فوق ربوةٍ صغيرةٍ، كانت ماريا تجلس وتعتصر الحصان الصغير بيديْها في جيب تنورتها، كي لا يُلاحظها أحدٌ. غرقت روما في عينيْها الدامعة، تكاد تجردها من ثوب الأمل. يرتعد جسدها وصوتٌ يُداهم عقلها، يحدثها أن لا عودة إلى حيث كانت. فركت عينيْها، ووضعت حصانه على العشب الجاف بجوارها وهي تُحدثه:

- أنت في حديقة القديس بطرس يا صغيري.. أعدك أنك ستبقى معي دومًا. ما رأيك أن نعيش معًا في روما، ولسوف أسدل عليك الجفون، وتكون سري ورفيقي حتى الممات؟.. أو لعل صاحبك يأتي إلى روما فاتحًا.. أعدك، لن أبكي ولن أنوح.. ولن يمسسني بشرٌ سواه.. سأخبرك سرًّا يا صغيري.. سأطلب من البابا أن أكرس حياتي للرب وخدمته في الكنيسة؛ هنا في روما.

..

استظل إليساندرو وزوجته بشجرةٍ كبيرةٍ في بساتين تلِ الفاتيكان، يطلان على ساحة القديس بطرس وقلعة سانت أنجلو. روما في الجهة المقابلة تبدو بهية تحت أشعة الشمس.كانا يتسامران، وهي تتأبط ذراعه في دلال، حين لمح موكبًا من ثمانية فرسان من حملة الرايات، يتوسطهم شخصٌ ما على فحلٍ حربي ضخمٍ، يعبرون القنطرة. أسند ظهر زوجته إلى الشجرة بلطفٍ، ونهض قائلًا:
- سأعود على الفور.

تعجبت كاترينا، وتابعته يقطع الحديقة بخطواتٍ واسعةٍ، وعيناه لا تبتعدان عن موكب الفرسان. كان يعرف صاحب الدرع الذهبية جيدًا، ساعده يومًا في ارتدائه في ساليرنو. حثَّ خطاه أكثر، ليتأكد مما يتفشى في رأسه، والخيل تضربُ الأرض بحوافرها في خفةٍ نحو بوابة سانت أنجلو. رُفعت البوابة الحديدية، وصريرها أعلن لإليساندرو نهاية المطاف. كان يتمنى اللحاق به قبل أن يدلف إلى القلعة، ولكنه كان قد اقترب لمسافة كفته لكي يتأكد.. إنه الدوق اللومباردي ماركيزيو دي لابورتا!

****

القصرُ اللاتراني واحةٌ من السكون في مدينةٍ صاخبةٍ. غمر ضياءُ النهار غرفة البابا أدريان الثاني، وخلف منضدةٍ كبيرةٍ جلس البابا يُطالع أحد كتبته، الذي انهمك في نسخ عدة رسائل. يمضي وقته في

المطالعة، والبحث عن سبيل لرأب الصدع بين البيزنطيين والكارولنجيين.

- سيدي. قد وصل الدوق ماركيزيو.

أشار البابا إلى كاتبه، فترك ريشته بالمحبرة، ونهض منصرفًا، بينما الدوق يدلف إلى الغرفة. لم يستطع ماركيزيو الابتسام. حاول جاهدًا أن يبتسم مجاملةً لمقام البابا، ولكنه فشل. عيناه كانتا تحملان الكثير والبابا ينهض مستندًا إلى المنضدة:

- أرى أن الرب يُحبك يا ماركيزيو..

ألقى جملته وهو يمد يده نحو الدوق، الذي أرغم ظهره على الانحناء لتقبيل يد العجوز هامسًا بخفوتٍ:

- هل الرب من منعك من دفع فديتي؟

لم يسمع البابا كلماته. ربت على رأسه:

- بوركت.. ماركيزيو بن باولو دي لابورتا.

اعتدل الدوق واقفًا، وأطال كل منهما النظر في وجه الآخر، قبل أن يقول أدريان:

- حَزنت لخبر أسْرك.. ولم تنقطع صلواتي من أجلك.

- اعذرني يا أبت إن كنتُ قد ظننتُ بك سوءًا، فقد كنت على قناعةٍ أن لا أحد يذكرني، فلا أحد دفع فدية فك أسْري، كما فعلتم مع نبلاء بنفينتو ونابولي.

كانت كلماته تقطر بالتهكم، وقد وعى البابا ذلك. ابتسم وهو يجلسُ على المقعد القريب منه:

- ذلك أن ما قيل لنا أن السراسنة قطعوا رأسك وعلقوه على بوابة باري.

- وها أنا أقف أمامك الآن كاملًا مُعافى..

- لا أحد كامل أيها الدوق. ولا تنس أنك أقسمت أن تُحارب الوثنيين من أجل الرب.

- في الحقيقة لم أنس، ولكنكم من نسيتم أمري وتركتموني بين ظهور الأعداء.. ثم قداستك الآن تذكرني بقسمي.. (تنهد) يا أبت ما حدث قد حدث ومضى، وما جئتُ لهنا للعتاب وإلقاء اللوم عليك. إنما أتيتُ لأخبرك أني مررتُ بالطريق بمن تبقى من جيش الملك لويس المنسحب.

اتسعت عينا البابا، وازداد حاجباه بياضًا حين عقدهما، وماركيزيو يستطرد:

- نعم، إن حملة الملك الكارولنجي باءت بالفشل على ما يبدو، وباغتته قواتُ باري بالقرب من بنفينتو. ما هكذا تُدار الحروب!

مط البابا شفتيه وقد اكتسى وجهه بالحزن:

- لقد نصحته بعدم الذهاب.. من العبث أن يكون الجيش مؤلفًا من العبيد والمزارعين وأصحاب

الحرف..

- النصيحة وحدها لا تكفي. لقد رأيتُ القوم وكيف يُحاربون. يعتمدون المباغتة دومًا. إنهم أكثر حرصًا على النصر، أما نحن فتحركنا الأهواء، وكل ملكٍ يريد أن يُصبح هو البطل الأوحد. الجيوش ليست للاستعراض ونهب القرى الصغيرة، وأخشى أن يكون ذلك الجيش قد استنفد كل المؤن على الطريق، فلم يعد للقرويين شيء ليأكلوه أو يبيعوه..

كانت كلماتُ ماركيزيو لاذعةً كسوطٍ راح يجلد صدر البابا. صوته كان خافتًا حين قطع حديث الدوق:

- لقد بذلت الكثير من الجهد حتى أتممت الصلح بين كنيستيْ روما والقسطنطينية منذ أشهر، ولكن الرجلين أصابهما جنونُ العظمة. لويس الذي يملك فتات الإمبراطورية الكارولنجية يحاول بقدر ما أوتي من قوةٍ أن يُثبت أنه الأجدر، وعلى الجانب الآخر ذلك الإمبراطور المُتعجرف باسيل المقدوني يضمر لإيطاليا وأوربا العداء.

غمغم ماركيزيو:

- لا عجب في ذلك، فالأول حارب إخوته ودمر مملكة جده شارلمان، والآخر صار إمبراطورًا بعد أن كان فلاحًا في مزارع مقدونيا. يعلمون أن السيوف والرماح تحقق الأحلام، وما يطمحون إليه قد يكون بعيد المنال في هذه الأيام، فباري قويةٌ وأميرها يزدادُ قوةً، وقوادُه يُبجلونه، وأهل الجنوب جميعهم يرون فيه الحاكم العادل.

ضاقت عينا البابا..

- أرى أنك صرتَ تتحدث بلسانهم يا ماركيزيو.

- لقد كنتُ أسيرًا لديهم. لزمنٍ ليس بالقصير، أنسيت هذا سريعًا؟!

ضحك البابا وهو ينهضُ من كرسيه:

- بل ما زلتَ كما أنت يا ماركيزيو. بالمناسبة، تُعجبني هذه العباءة الخضراء، تبدو باهظة الثمن.. ما رأيك أن تتناول العشاء معي، وتقصَّ على مسامعي كيف كانت إقامتك في باري؟

- إنه لمن دواعي شرفي أن أكون على مائدةٍ واحدةٍ مع قداستك.

توجها معًا إلى قاعة الطعام، وبداخل كل منهما الكثير. كان عقل ماركيزيو يكاد يلومه أن أتى إلى روما ولم يُكمل إلى فلورنسا، أهي الشماتة من هزيمة الملك ما أتت به، أم الاشتياق للمدينة الكبيرة التي تتم معاملته فيها كدوق وليس أسير حرب؟

****

قاد عبد الله بن الأغلبي حماره عبر طرقات باري، وهو يُحاول أن يصم أذنه عن أحاديث العامة عن الحرب. أخبار انتصار الأمير قسورة حملها المسافرون إلى المدينة، وكل منهم لديه قصة مختلفة، فهذا يقول إن أبا المغوار قاد الهجوم على جيش ملك الإفرنج واستطاع أن يغنم تاجه ورايته، وآخر يُقسم أنه رأى آلافًا من الأسرى والسبايا يسيرون مكبلين على طريق أفيليانو، والكل يتحدث عن

الحرب بينما هو يَسحب حمارًا عنيدًا.

لقد أحب عمله في البداية، ولكن سرعان ما انفضَّ الجمعُ، وبقي وحده مع الطبيب العجوز في منزل القاضي، يزورهما بين الفينة والأخرى الفقيه ابن هشام. حتى أبوه، ما عاد يتحدث معه كثيرًا، منذ أن كُلف بإدارة شئون المدينة. نوافذ القصبة وأبراجها ترمقه وحماره بسخريةٍ، في طريقه إلى بيت أبي المغوار. جذب الحمار ليحث خطاه ولكنه تبلد، ولم يرض أن يُحرك حوافره بخطوةٍ أخرى. سمع كاراس الجلبة، فترك اللفافة التي كان يُطالعها، وخرج إلى عبد الله، الذي كان يضع الجوال على الأرض بينما يُحاول ربط الحمار العصي. ضحك كاراس من فِعل البهيمة ومحاولة عبد الله الإمساك بها:

- اتركه يرعى.. ودعنا نحمل الجوال للداخل!

ظهر الغضبُ على وجه عبد الله، وأفلت منه الحمارُ يركض. صاح:

- سيعيث في الحديقة فسادًا.

- دعه يا فتى.. إنه يبحث عن بعض الحرية!

توقف عبد الله عن الركض خلف الحمار، فتوقف هو الآخر، واستدار ليرمق الفتى اللاهث، قبل أن يخطو إلى بعض العشبِ الجاف عند بئر الماء، يقضم منه، ويحك جلده به. حملا الجوال معًا إلى داخل المنزل، ولاحظ كاراس التململ في عين مساعده، فسأله وهما يضعان ما في أيديهما على أرض القبو:

- ما زلت تفكر في أمور الحرب، أليس كذلك؟

بنبرةٍ حزينةٍ أجاب:

- لا يكف الناس عن الحديث عن المعارك التي تدور في الشمال.. وددت أن أذهب معهم كبقية الرجال.

- ولكن أباك ما زال هنا لم يذهب.. وقائد الشرطة أيضًا لم يذهب، وهناك الكثير من الجند لم يذهبوا. الحرب مريعةٌ يا فتى. مع أول شخصٍ تقتله، تفقد شيئًا ما بداخلك، وتصبح رؤية الدماء مجرد أمرٍ عادي، وسرعان ما تنسى كم قتلت. كل قتيل في الحرب، وراءه أناسٌ آخرون يفقدون أحلامهم وعائلاتهم، كي يبقى المجد للملوك؛ فقط هم من يذكرهم التاريخ.. إنها أرواحٌ تُزهق وحقولٌ تُدمر.. الحربُ سيئةٌ يا فتى.

هَمَّ عبد الله أن يُجادل، حين داهمتهما طَرقاتٌ بباب المنزل، فتوجه مع كاراس ليريا من القادم. انفرج البابُ، وكان ماركو الأشقر يحمل بين يديه لفافتين من قماشٍ أزرق وأبيض، وعلى وجهه ابتسامةٌ عريضةٌ أظهرت أسنانه البيضاء المتناسقة.

- كيف حالكما؟..

غمغم كاراس:

- ماركو.. مرحبا يا فتى، أي رياح عادت بك إلى باري؟!

ابتسم الفتى..

- كنتُ عائدًا من القصر، وتبقى معي ثوبان، قررتُ أن أهديهما لك أيها الطبيب.

تبادل الفتى النظرات مع العجوز الذي ابتسم:

- حسنًا.. ادخل!

تبعهما إلى الداخل وعيناه تتفحصان كل ركنٍ بالمنزل. الأعمدة الرومانية حملت سقفًا مزينًا بالنقوش والفسيفساء البديعة، والتي منحها ضوء النّهار بريقًا، امتزجت فيه درجاتُ اللون الأزرق. ذهب عبد الله إلى غرفته، بينما تبع ماركو العجوز إلى حيث المكتبة الكبيرة، ووقف لبرهةٍ يدور بعينيه في المكان المكتظ بالكتب واللفائف. أفاق على صوت العجوز:

- كم ثمن الثوبين؟

وضع ما في يده على المنضدة:

- لا شيء.. إنها هدية.

ابتسم كاراس..

- لم يهدني أحدٌ شيئًا منذ فترةٍ.

- أنت طيب القلب سيد كاراس.. ولعلك الشخص الوحيد الذي حاول إقناعي بالبقاء هنا.

جلس كاراس يُقلب في الأثواب الحريرية:

- ولكنك لم تبق هنا يا ماركو.

- الحصنُ الغربي ليس ببعيدٍ.. ولكنها مسافةٌ كافيةٌ للبُعد عن صخب باري..

قاطعه العجوز:

- ولكن قدميك قادتاك كثيرًا إليها في الأيام الماضية.. أليس كذلك؟

أطال ماركو النظر بوجه العجوز. بدا الحنقُ في حروفه حين نطق:

- يبدو أنك تعلم الكثير من الأمور..

- أخشى عليك يا ماركو، أن تكون نهايتك مجرد رأسٍ معلقٍ على باب القصبة.

لوَّح الفتى بيديْه في استهزاء:

- لا شيء يستدعي الخوف.. شكرًا لك أيها الطبيب، وأرجو أن تكون هديتي نالت رضاك.

ألقى جملته وهو يتجه نحو الباب، حين صادفه عبد الله محدثًا إياه:

- إلى أين ستذهب يا ماركو؟.. ابق، فلدينا اليوم لحمُ غزالٍ وشعير!

رماه ماركو بنظرةٍ جامدةٍ دون أن ينطق. مضى في طريقه إلى باب المنزل، وترك خلفه الفتى في حيرةٍ من أمره. ذهب إلى حيث يجلس كاراس، وسأله:

- ماذا حل به؟.. لقد غادر بغير الوجه الذي جاء به.

- لا تشغلْ عقلك بأمره.. هل أعددت الغداء؟

لم يستمع كاراس لإجابة الفتى. كان يُحاول أن ينقذ عقله من بئر الخيالات. أمورٌ عدةٌ جالت برأسه، وهو يجلسُ على رأس المائدة يُقلب قطعة اللحم في الطبق، وصوت ماريا يُداهم عقله: "لقد طهوتُ لك اليوم لحم غزال اصطاده أبي وإليساندرو".. ضحكاتها تكررت على مسامعه حين سخر من أخيها.. دار ببصره في المكان، ولكنها لم تكن حاضرة؛ فقط ابن الأغلبي يأكل طعامه، وقد شرد هو الآخر في حكايات الحرب التي صارت لا تُفارقه.

****

عبر لورينزو وزمرته بوابات القصر اللاتراني الضخم. كانت المرة الأولى التي تطأ أقدامهم جميعًا تلك البقعة من الأرض. حديقة شاسعة من أشجارٍ مهذبة الأطراف، انتشر في جنباتها الجندُ بدروعهم الفضية وعباءاتهم الحمراء، وعلى أضواء المشاعل المعلقة على جانبي الطريق، تقدمهم قائدُ الحرس، الذي أثار توترهم كلما اصطك درعه بفعل خطواته المنتظمة. عند الباب الكبير، استقبلهم أحدُ الشمامسة بترحابٍ، لم تفلح أفخم ثياب لديهم في إخفاء شقائهم، واندهشت عيونهم من بريق الذهب، التماثيل، والروائح العطرة، والجدران الرخامية. همسوا بصلواتٍ خافتةٍ حين مروا بصور القديسين والشهداء، ثم وصلوا إلى غرفة الطعام الكبيرة، حيث كانت المائدة الخشبية ممتدةً بطول القاعة، تُحيطها الشموع، وعلى الجدار صورة التلاميذ الاثنى عشر، يتوسطهم يسوع مباركًا، عيناه تتوهجان بضوء الشموع المنعكسة في مقلتيْه، فأحنوا رؤوسهم لبرهةٍ، بينما انتشر الخدمُ يُساعدونهم في الجلوس، كل على مقعده، لا يكادون يصدقون جلوسهم على مائدة البابا.
فُتح بابٌ جانبي، مصدرًا صريرًا خافتًا، وبرز البابا بردائه الأبيض المطرز بالذهب، وقد منحه طول قامته هيبةً مضاعفةً. نهضوا جميعًا وخفضوا رؤوسهم، فتوقف عند كرسيه على رأس المائدة وصوته العذب يسري بآذانهم:

- أشعر ببالغ السعادة بوجودكم الليلة. كم يُشرفني وجود السيد لورينزو وعائلته، وأهل سان فيلي اللطفاء.. ودعوني أخبركم أن رجلًا تعرفونه جيدًا سيُشاركنا العشاء.

كان الدوق ماركيزيو في أبهى صورةٍ، يرتدي حلة سَوداء مذهبة وحذاء جلديًّا طويلًا، وعباءة خضراء داكنة تدلت عن كتفيه. كانت مفاجأةً للجميع عدا إليساندرو، الذي تبادل النظرات مع أبيه، وماركيزيو يتحدث:

- اشتقت لكم جميعًا..

عينا فيولا كانتا تحملان بريقًا، لاحظته كاترينا التي لكزت ماريا. قال البابا:

- علم الدوق بوجودكم، فقرر الانضمام إلى المأدبة..

أشار إليهم بالجلوس، بعد أن أخذ ماركيزيو مكانه قبالة لورينزو، ودخل الخدم تباعًا، يحملون قدورًا تفوح منها روائح الطعامِ الزكية.. حساء البصل واللحم وخبز طازج شهي. همَّ بعضُ القرويين بالأكل، فأوقفهم لورينزو بنحنحةٍ ونظرةٍ غاضبةٍ. انتظر البابا حتى خرج الخدم من القاعة، ليبدأ في تلاوة الصلاة:

- ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.. بل بكل كلمة تخرج من فم الرب. يا ربنا أنت المنبع الدائم لكل الخيرات.. إليك نتوسل ونصلي أن تبارك لنا هذا الطعام وهذه الرفقة.. آمين.

أمَّنوا خلفه، وانقضُّوا بعدها علىِ الطعام، فلم يعد أي مجالٍ للحديث، أما البابا فاكتفى بقطعة خبز غمسها في الزيت، قبل أن ينهض ليفاجئ الجميع:

- أتمنى أن ينال الطعامُ إعجابكم.

وضع لورينزو ما في يده من خبزٍ:

- ولكنك لم تأكل سيدي!

- قليل من الزاد يكفي لمواصلة الحياة يا لورينزو.. أتموا عشاءكم وأنتظركم تباعًا في غرفتي.. ليتسنى للجميع البوح والاعتراف.

نهض البابا متوجهًا لغرفةٍ جانبيةٍ، ليعلو صوتُ اصكاك الملاعق بالأطباق، وإليساندرو ينظر إلى الدوق بين الحين والآخر، حتى ضحك وقال له:

- ما بك يا إليساندرو؟ أظن أنك تتساءل عن كيفية وصولي إلى هنا.

قضم إليساندرو قطعة اللحم، وأخذ يلوكها في فمه ببرود، بينما أسرع لورينزو لإجابة الدوق:

- سيدي، إنه لشرفٌ لنا أن تجمعنا مائدةٌ مرةً أخرى.

تجاهله ماركيزيو وهو يوجه حديثه إلى إليساندرو:

- يبدو أن الأمر لا يُناسبك يا فتى.

ابتسم إليساندو ساخرًا رغم الضجر:

- يُناسبني بالطبع.. فكلانا انهزم، ولكني لم أقع في الأَسْر.

حاول ماركيزيو أن يُحافظ على هدوئه، ابتلع الأهانة مع لقمته:

- قد أكونُ وقعتُ في الأَسْر؛ ولكن هزيمة المعركة بكاملها تقع على عاتقك. أرجو ألا تكون قد نسيت من الذي أحرق قرى أفيليانو قبل القدوم إلى سالرينو، مما أتى بأمير باري إلى المعركة، في وقتٍ كدنا أن ننتصر فيه.

انتبهت ماريا حين جاء ذِكر أمير باري. تركت الخبز الذي كانت تتظاهر بأكله، وتابعت احتدام النقاش ومحاولات أبيها للتهدئة، وحديث الدوق المهذب، الذي أفحم الشاب المتغطرس. فيولا لم يكن يعنيها حديث الحرب. كانت تُراقب الدوق، ولاحظت تبدل قسمات وجه ماريا، وربما لولا استطراد ماركيزيو لأفلت لسانها بتعليقٍ يوردها التهلكة.

- حاربنا وخسرنا.. وما زال أمامنا الكثير من المعارك.. ولا أظن أن هناك مكانًا للخائفين.

ضرب إليساندرو المنضدة بقبضته، فارتجت الأطباق وساد الصمت وهو يُقرب رأسه من الدوق:

- لا تعلم ما فعلت في نابولي.. ويبدو أنك لا تعي أيها الدوق أنك تتحدث إلى فارس سان فيلي، بنص المرسوم الذي أصدره الدوق سيرجيوس صاحب نابولي. فاتك الكثير بينما كنت تقبع في غياهب سجن باري.

ضحك الدوق وهو ينهض عن المائدة:

- هل أبدو لك كمن كان يُعذب وتقطع أطرافه؟ نصيحتي لك يا فتى، توقف عن غرورك. أتمنى حين تدلف إلى تلك الغرفة لتعترف للبابا بما اقترفت يداك، لا تنس رماد الذين أحرقتهم أحياء رغم كونهم مسيحيين مثلنا.

أطبق الصمتُ على الغرفة، وتوقف الكل عن تناول عشائهم، وعيون يسوع جامدة تُحدق فيهم. كان ما قاله الدوق خنجرًا غُمد بقلوبهم. دارت عينا إليساندرو بوجوههم، وتوقف عند وجه كاترينا، فأحس ببرودةٍ تغزو أطرافه، كاد أن يقول شيئًا، حين دخل أحدُ الخدم:

- قداسة البابا ينتظرك سيد لورينزو.. - وأرجو منك قبل أن تدخل إليه- أن ترتب الأدوار للدخول.

****

مضى الوقتُ ببطءٍ، كان ماركيزيو يجلسُ في زاويةِ الغرفة، يسترجع كل ما حدث خلال الأشهر الماضية. لم يكن يتوقع أن يرى عائلة لورينزو مرةً أخرى. تجنب المرور بسان فيلي في طريقه، ولكنه فوجئ بالبابا يُخبره بأمرهم هذا الصباح. أرهقه التفكيرُ كثيرًا. رمق ماريا التي تجلسُ بجوار زوجة الفتى المُتغطرس. كانت واهنةً نحيفةً زائغة النظرة. لطالما قص عليه كاراس قصتها مع الأمير سَودان. انتشله من أفكاره صوتُ فيولا الخافت:

- كيف حالك سيدي؟!

التفت لها مبتسمًا: - كما ترين، في أفضل حالٍ.

جلست أرضًا بجوار مقعده: - قالوا إنك قضيت نحبك في باري.

كانت عيناه لا تزالان تُراقبان ماريا:

- قد أكون منحت الحياة في باري، عكس ما توقعتم.. أخبريني ما الذي أتى بك معهم إلى روما؟

- لقد جئتُ لطلب البركات والغفران على ما اقترفته..

صوتَها كان يحمل الشجن والضعف وهي تستطرد:

- سوف أطلب من البابا خدمة الرب.. أريد أن أصبح راهبةً.

التفت إليها متجهمًا:

- لم أتوقع هذا.. أتعرفين ما يتطلبه الأمرُ لذلك؟! أنتِ آخر شخص أتوقع أن يختار ذلك الدرب.

لم تجبه. اكتفت فقط بالنظر تجاه ماريا. فطن ماركيزيو لنظراتها، فسألها:

- هل لها علاقة بالأمر؟

أومأت فيولا برأسها في أسى. أفلتت دمعة من عينيها:

- لقد سئمت نظراتهم ونعتهم لي بالعاهرة. صرتُ لا أطيق سان فيلي وأهلها، وأريد أن أحظى بقليلٍ من الاحترام الذي تحظى به ماريا. لا أريد العودة لتلك القذارة مرة أخرى، لقد رأيتها هناك قرب البحيرة بين ذراعيْ الأمير العربي.. إنها مثلي، وهم يعلمون.

شرد ماركيزيو في وجه إليساندرو العابس. الكثير فاته، وها هو ذا يستمع لحديث فيولا عن قدوم الأمير العربي إلى القرية مع فرسانه، وعما حدث حين كُسفت الشمس، وعن المسكين لورينزو الذي جاء إلى روما من أجل ابنته، ونذر النذور حتى تتحسن حالتها. كانت الفتاة تتمنى أن تكون نسخة من ماريا، وإن لم تُفصح عن ذلك. توقفت عن الحديث حين فُتح باب الغرفة، وخرج لورينزو وعلى وجهه ابتسامةٌ خافتةٌ، وخلفه كانت زوجته مبتهجة. دخل بعده إليساندرو مع كاترينا ذات البطن المنتفخ، ولم يستغرقا الكثير من الوقت، وظل الوضع كذلك، يخرج أحدُهم ويدخل آخر، حتى جاء الدور على ماريا.

دخلت إليه وحدها. الشموع الكبيرة أضاءت الغرفة ذات الأثاث الأنيق، فلمعت مسبحةٌ ذهبيةٌ تحوي صليبًا صغيرًا في يد البابا. ابتسامته التي تفيضُ بالحنان انتصرت على تجاعيد وجهه، فاقتربت على استحياء.. أشار إليها قائلًا:

- اجلسي يا ماريا!

جلست على المقعد المقابل له، ولم ترفع عينيها عن الأرض. كان يعلم أنه أمام بقايا إنسانٍ، فحدَّثها بصوتٍ هادئٍ تغلغل في ثنايا وجدانها:

- الجميع يُحبك ماريا.. أحاديثهم جميعًا لم تخل من ذكرك وطلب الصلاة لك. لقد قص عليَّ والدك كل شيء.. منذ الرؤيا التي سبقت مولدك، وحتى اللحظة التي افتديته بها، قبل أن يفتك به الوثنيون.. أخوك كذلك طلب أن أصلي من أجلك، وكذلك فعلت زوجته.. وأظن أنك على درايةٍ بأن أمك مرتاعةٌ لما يحدث لك. سأنحي كل ما قالوه جانبًا.. الرب يريد سماعك ماريا، فأفصحي وتحدثي عما يجيش به صدرك!

أجهشت، ثم تفجرت ينابيعُ الدمع من مقلتيها، وضاعت الحروف في ضياء عينيه. اختلج قلبها وتسارعت أنفاسها، لا تدري من أين تبدأ!.. منذ جاء جريحًا إلى قريتها.. أم حين عاد مع رياح الخريف الباردة.. رؤى عديدة جالت بخاطرها، ويد البابا تربت على يدها وصوته الدافئ: لا تبكِ يا بُنيتي.. لا تبكِ يا ماريا!

قبضت على يديْه وازدادت في البكاء:

- أرجوك يا أبت لا تُعدني إلى سان فيلي.. أتوسل إليك، لا أريد العودة لذلك المكان.. كل شيء هناك يُذكرني بما حدث، فقط امنحني الحق في خدمة الرب..

سحب يده بلطفٍ، ومال رأسه للأمام ليكون أكثر قربًا منها:

- حسنًا.. ولكن عليك أن تهدئي الآن. القرارات التي تؤخذ في لحظات ضعفنا، يترتب عليها الكثير بعد ذلك، وغالبًا ما نكون مُخطئين.. عليكِ أن تُعيدي التفكير في هذا الأمر..

- أنت لا تعلم ماذا فعلوا بي.

- قلتُ لك إن والدك قص عليَّ كل شيء.. منذ البداية، وحتى اللحظة التي خرج فيها من تلك الغرفة. لقد جاء لهنا من أجلك ماريا.. حُب ذلك الشخص من السراسنة قد يكون غير مقبولٍ وإثمًا عظيمًا.. ولكني أعلم أن المشاعر ليست بأيدينا، وإلا كنا ألقينا بها فى النهر، وتخلصنا من الذكريات المؤلمة. لوالديك حق عليك، فأنتِ ابنة نبيلٍ، وعليكِ أن تُقدِّري ما فعله أبوك من أجلك.. هؤلاء القوم– السراسنة– ما هم إلا برابرة، يُقدسون القتل وسفك الدماء كما أوصاهم نبيهم المُزيف.. هم أبناء قابيل الذين يحملون كراهية للرب وابنه وتلامذته. هل جال بعقلك يومًا أنهم قد يُقدمونك قربانًا للشيطان الذي يعبدونه؟!

ظلت تستمع لكلماته التي تحفظها منذ نعومة أظفارها. حديثه يُشبه كثيرًا عظات الأب ليو، ولكنه رقيق القلب. حاول أن يُهدئ من روعها بإقناعها أن ما فعلته كان خطأها من البداية، وظل يُحدثها عن قصصٍ حدثت له في شبابه ويُمازحها. ذكَّرها بعمها كاراس في تلك اللحظة، تفتقده كما تفتقد نفسها. ضاقٍ صدرها. بكت مرةً أخرى، والبابا مستمرٌّ في حديثه الذي لا يتوقف. هو أيضًا لا يفهمها.. قصصه الساذجة لن تُغير شيئًا قد اختارته بمحض إرادتها.

خارج الغرفة، كان ماركيزيو يتبادل الحديث مع أبيها. بُهت لورينزو حين ألقى الدوق على مسامعه بتلك القصص عن القرية وما حدث فيها. لم يستوعب كيف يُخبره ماركيزيو بتلك الأمور التي عاش تفاصيلها. كان الدوق سيد الكلام، انخفضت نبرة صوته وهو يُحدثه:

- سيد لورينزو، عليك أن تمنح ابنتك الحرية لتختار حياتها.. أعلم أنك جئت بها لهنا لتشفى؛ ولكن علتها لا دواء لها سوى القُرب. لن يفلح البابا أو الرب في جعلها تتخلى عمن بقلبها. لقد تحدثت مع فيولا، وعرفت أن الفتاة تُريد أن تصبح راهبة أسوة بابنتك..

- لا، لن تفعل ابنتي هذا..

- حسنًا، حالما تخرج من هذه الغرفة اسألها.. وإن كنت على خطأ، فالأمر يرجعُ بالنهاية لك.. آه، قبل أن أنسى، أخوك كاراس يُرسل لك تحياته

ألقى ماركيزيو جملته، واستدار ليجد إليساندرو ما زال يمنحه تلك النظرات المقيتة. ابتسم في وجه الشاب، الذي نهض متوجهًا إلى حيث يقف أبوه كتمثالٍ يُجسد الحيرة..

- ماذا هناك يا أبي؟

- لا شيء .

تمتم لورينزو وهو يدفع ابنه برفقٍ عن طريقه، ويتتبع خطى الدوق الذي كان يتوجه إلى باب القاعة:

- سيدي.. دوق ماركيزيو!

توقف الدوق قبل أن تُلامس يده مقبض الباب، ولورينزو يستطرد:

- إلى أين ستذهب؟

استدار الدوق مبتسمًا:

- أعرف مكانًا يُقدم نبيذًا جيدًا.

- لقد أحكمتَ وثاقي بحجرٍ ثقيلٍ وألقيتَ بي لبحيرة عجزي. ألا تبقى حتى نعلم صِدق حدسك؟!

مع آخر حروفه، فُتح باب غرفة البابا، على عتبته كانت ماريا مبتهجة رغم الدمع في عينيها. ركضت نحوها أمها وكاترينا، بينما مرَّت فيولا إلى جوارهما لتدلف إلى الغرفة. أغلق الباب، بينما ذهبت ماريا معهن إلى المقاعد الوثيرة في الجهة المقابلة. لكز ماركيزيو صاحبه:

- اذهب لها وسلها عن الأمر!

شعر لورينزو برجفةٍ تغزو جسده، والدوق ينظر في عينيه مستطردًا:

- ستُجيبك هذه المرة.

****

ليلةٌ احتل فيها بدرُ التمام كبد السماء، وتسلل ضوؤه إلى شرفتها بذلك الخان القديم. لم تنم ماريا، ظلت تُصارع شمعةً في رمقها الأخير، وحديث أبيها لا يُفارق عقلها. خرجت من غرفة البابا لتجده واقفًا بجوار الدوق، فلم تُبال بهما كما لم تبال بحديث البابا. أعطاها ذلك الأخير حرية القرار خلال ثلاثة أيام، فإما أن تبقى في روما، أو تعود إلى سان فيلي حيث الآلام. أبوها أخبرها بعدم رضاه عن خيار الرهبنة، فلم تُجبه، واكتفت أن تدفن رأسها في صدر أمها. تلاقت عيناها مع عينيْ الدوق ماركيزيو، فأحست أن للدوق يدًا في رفض أبيها. منذ أن عادوا من قصر البابا، وهي تجلس وحيدةً كعادتها. مرَّ الوقتُ ببطء، ونقيق الضفادع يغزو سكون الليل، وهي تُمسك بدميتها بين كفيها، تُحاول أن تتجاهل الجلبة الآتية من الغرفة المجاورة وإليساندرو يتحدث بصوتٍ مرتفعٍ مع أبيها. أوت إلى الفراش وضمَّت ركبتيْها إلى صدرها، وظلت تهمسُ بصلواتها حتى غفت.

في الصباح، خرجت إلى شاطئ التيبر. اختارت بقعةً خاويةً من الناس، وراحت تتأمل القوارب الصغيرة تخوضُ بالمياه العكرة، تمر تحت القنطرة البعيدة المؤدية إلى تلة الفاتيكان، أطالت النظر بالضفة المقابلة، حيث ستسكن بعد أيام. حسمت قرارها بعد أن مزقتها الحيرة، وفضلت ألا يمسها بشرٌ على أن تتزوج من الدوق ماركيزيو! هكذا فسرت وقوفه مع أبيها في قصر البابا. هو من وشى له بأمر طلبها، لا تعرف كيف عرف الأمر، ولم تُرهق عقلها في البحث، وستُفصح عن قرارها الأخير

لأهلها هذه الليلة. رنين الأجراس البعيدة أنقذها من صخب الأفكار. حصانه الخشبي بيمناها، تعتصره وشلالٌ من الدمع يتدفق، ليختلط بمياه التيبر الداكنة الحزينة، تريد أن تُلقيه كدمعها ليحمله النهر بعيدًا، فخيط السراب يلتف حول الأعناق كلما طال الأمل. بسطت كفها لتُلقي نظرةً أخيرةً على رفيقٍ ستتخلى عنه...

- قرارٌ خاطئٌ يا ماريا.

أفزعها ماركيزيو. التفتت لتجده يقفُ بالقرب منها. عادت ببصرها إلى مجرى النهر دون أن تنطق، تُحاول أن تُفسر كلماته السابقة. استطرد:

- إن فتيات روما لا يُقدمن على مثل هذه الخطوة.. في الأغلب، لا يرغبن في قضاء عمرهن داخل قبوٍ مظلم، تنحني ظهورهن وتتجعد جلودهن، وتموت كل واحدةٍ منهن وحيدةً بعيدةً عن عائلتها وأناسٍ يُحبونها. الأمر ليس كما تعتقدين. نعم خدمة الرب شيء عظيم، ولكنك ستجدين نفسك تحرثين أرض دير ما، أو تقضين حياتك مربوطةً بعجلة المغزل، وقد تكون النهاية أسوأ من عنكبوتٍ ماتت ببيتها.. لم أعهدك يائسةً، لطالما كنتِ ممتلئةً بالنشاط والحياة.

صمتتْ ولم ترد، حتى لم يسمع إلا خرير النهر الجاري، وزقزقة أسراب العصافير المُحلقة فوقه. ماريا قررت أنها سترفض طلبه حين يُفصح به، وستقول له إن الحياة داخل الكنيسة ستكون أفضل من مشاركته الفراش. تقدم بضع خطوات ليصير بجوارها قائلًا:

- لا مناص من الاعتراف بأني أعجبت بك منذ أول مرة تقع فيها عيناي عليكِ. لكن مع الوقت علمتُ أن قلبك مِلكٌ لآخر.. وسَودان يستحق ذلك القلب.

قلبُها انتفض وتسارعت نبضاته حين سمعت اسمه. اعتصرت حصانه الخشبي، واغمضت عينيْها، وقد عاد الألم مرةً أخرى يجتاح جسدها، وماركيزيو يُكمل بهدوءٍ:

- ما زال يُحبك.

توهجت عيناها الدامعتان. هذا الرجلُ يريد أن يزيد جرحها سوءًا، أو لعله يتشفى بها لأنها رفضت الزواج منه. تطلعت بوجهه قبل أن تَهم بالرحيل، ففوجئت به يُمسك يدها قائلًا بِرويةٍ:

- سأرحل للجنوب عند الفجر. فإن كان لك في مرافقتي رغبة، فقط أعلميني. أعرف الطريق جيدًا إلى باري..

تجمدت في مكانها، واضطربت مشاعرها. فاجأها ما يقوله الدوق. أهي خدعةٌ نظمها مع أبيها وإليساندرو؟ قلبها اخترقه رمحٌ من خوفٍ بعث فيها الحياة. أفلت يدها، فتمتمت باكيةً:

- لماذ تفعل هذا بي؟!

- إنه جزءٌ من شيء أدين به لهؤلاء القوم. لا يجب عليك أن تقتلي نفسك ببطءٍ، بينما الحياة بأكملها تنتظرك في باري. ستروق لك تلك المدينة الجميلة بالتأكيد.

- ولكن البابا قال..

- البابا لن يفعل شيئًا.. الحب هو الإيمان عينه، والرب هو المحبة ذاتها.

تركها وسط طوفانٍ من الحيرة وعدمِ التصديق لما حدث. اجتاحتها أحاديث سَودان وكاراس، وإحساسٌ قوي أنَّ الدوق كان صادقًا.

قضت النهار بغرفتها بذلك الخان، صخبُ المدينة يتسلل عبر نافذتها، ولكنه ليس أقوى من الفوضى العارمة برأسها. قالت لنفسها إن ما حدث كان مجرد حلم.. أوهام كالتي كانت تُداهمها في سان فيلي. ابتسمت حين زارها طيفه كما رأته أول مرة. كان الزمان يركضُ بها مسرعًا نحو النهاية، ثم فجأة كل شيء يتجدد!

مع مغيب الشمس، طرق أبوها باب غرفتها، فلم تُجبه ولكنها نهضت لتزيح مزلاج الباب. دلف إلى الغرفة، وقد أولته ظهرها، ووقفت قرب النافذة صامتةً، كما عهدها منذ ذلك اليوم المشئوم. جلس على طرف الفراش ودارت عيناه في الغرفة:

- غرفتك تتمتع بمشهد التلال البعيدة ونهر التيبر..

لم تُجبه. كان يشعر بالأسى، رغم أن الدوق اخبره بما حدث في الصباح. يعلم أن ابنته عنيدةٌ، ولعلها ظنت أن ماركيزيو يخدعها. منذ فترةٍ وهو يشعر أن نهايته تقترب، وها هو ذا إليساندرو تزوج وصار نبيلًا له حياة ناجحة، وكل ما يُريده أن يراها هي الأخرى سعيدةً مُشرقةً. بصوتٍ مرتعشٍ استهل حديثه الهادئ:

- إن المحبين يؤمنون بأن الحب أقوى من كل العقبات؛ أليس كذلك؟.. لقد فعلت ما فعلت لأني خشيت عليك.. لأني أحبك يا بُنيتي، لا أطيق أن يخطفك من بيننا عدو لنا. لقد جاءك على مرِّ الوقت العديد من الخُطاب نبلاء وأبناء نبلاء، ورفضت أنت جميعهم، فلم أفرض عليك منهم أحدًا.. أحببتُ وجودك إلى جواري يا ماريا.. أنت ابنتي، وإنني لأموت في اليوم مئات المرات لما سببته لك من ألمٍ..

مسح دمعةً انفرطت على خده الأيمن، وخفت صوته وهو يستطرد:

- لقد منحتني الحياة في ذلك اليوم.. ولكنها حياةٌ مليئةٌ بنظرات العتاب والبُغض.. أعلم أنك تكرهين النظر في وجهي. في تلك اللحظة الكئيبة، لم أجد سبيلًا سوى ما فعلت لإنقاذك، فالسباع تأكل أولادها حين تخاف عليهم. خشيت عليك السبي الذي تعيشُ فيه نساؤهم. إنه من عالمٍ مختلفٍ عن عالمنا، ولهم دينٌ غير ديننا، ولم أكن لأضحي بك بنيتي.

نشج لورينزو وانفجر في البكاء. التفتت إليه مذهولةً، يكاد انكسارُه أن يُمزقها، خطت نحوه خطوتين، وبصوتٍ واهنٍ رجته:

- أرجوك توقف.. أصدقك يا أبي، فتوقف عن البكاء، أرجوك!

قام متجهًا إليها. فتح ذراعيْه، فتقدمت إليه بخطواتٍ مترددةٍ، ثم دفنت رأسها بصدره وراحت تبكي. بللت قطراتٌ من دموعه شعرها الكستنائي. أبعدها قليلًا ونظر في عينيْها، ثم مسح دمعه، وقال لها بجديةٍ:

- طلبتُ من الدوق ماركيزيو أن يُحدثك. إنه رجلٌ طيبٌ، ويريد المساعدة.. لك حق الاختيار يا ماريا..

وليكن اختيارك ما تريدين المخاطرة بحياتك في سبيله.

****

في قيظٍ خانقٍ كعادة أيام الصيف الأخيرة، ضجت ساحات روما بتزاحم الناس لرؤية جيش ملكهم المنسحب. مرَّ موكبه سريعًا، تتبعه خيولٌ مدرعةٌ، يسير خلفها حملة الرايات في صمتٍ لا توقره حوافر الخيل واصطكاك الدروع. كيف هُزم جيشٌ كهذا؟!

كان إليساندرو يشق الجموع ليصلَ إلى نقطةٍ تمنحه رؤيةً جيدةً، يريد رؤية وجه الملك المُنسحب. اختار تلك البقعة بالقرب من عامود تارجان، ووقف ينتظر مرور الموكب. رأى الفحل الرمادي كثيف الشعر، وقد غطت نصفه الخلفي عباءة زرقاء طويلة مزينة بورود ثلاثية ذات لونٍ ذهبي، ثم انعكس ضوء الشمس على التاج الكبير المرصع بالجواهر. مع خطوات الجواد السريعة، كانت الرؤوس تُحنى، وكذلك فعل إليساندرو، ولكن نصف انحناءةٍ كانت كافية ليرى وجه الملك. يقال إنه يُشبه جده شارلمان. تذكر غناء الجوقة في قريته، وكان البطلُ حينها رولان وليس الإمبراطور المُقدس شارلمان. كان البطل هو ذلك الجندي أوليفير أيضًا، الذي بقي في الساحة ليُدافع عن الجيش المنسحب إلى بلاد الغال.

عاد إليساندرو إلى الخان بعد انتهاء الموكب. دلو من ماءٍ باردٍ كان كافيًا ليُعيد إليه بعض الحيويةِ. لم يجد كاترينا بغرفتهما، بحث أيضًا عن أبيه، قبل أن يدلف لغرفة ماريا. نزل الدرج إلى الفناء باحثًا عن أحدٍ يسأله، فلم يجد سوى أحد مرافقيهم يجلس قرب حوض ماء قديم. دار بعينيْه في المكان قبل أن يتوجه له:

- أرأيت أبي؟!

- يبدو أنهم ذهبوا للكنيسة.. فقد رأيت والدتك تبكي، وزوجتك أيضًا.

بحث عن سببٍ لبكاء أمه، فبدا له أن ماريا نفذت قرارها بالرهبنة. خرج من الخان شارد الذهن، فارتطم به أحدُ الخدم يحمل سلال العنب، وأخذ يعتذر له ويلتقط العناقيد من الأرض، وإليساندرو يرمقه بنظرةٍ خاويةٍ. لم يبال بما أحدثه ذلك المتعثر، والتفت ليمضي في طريقه، ولكنه لمح أباه يقفُ على باب الخان. اتجه نحوه، فهاله ما رأى.. أحسَّ أن أباه هرم في ليلةٍ وضحاها. كان الحزنُ يفيض من عينيه الرماديتين الزائغتين. حاول لورينزو التملص من نظرات ابنه، وتجاوزه إلى داخل الخان كأنه لم يره، فتبعه إليساندرو حائرًا من فعله:

- أبي.. ما حل بك؟ أين الجميع؟

- لقد رحلت ماريا.

بصوتٍ مرتجفٍ أجاب لورينزو حين صار بوسط الفناء. أدركه إليساندرو، ووقف أمامه يتأمله وهو يغمغم بخفوتٍ:

- ما الذي تُخفيه أيها العجوز؟ أذهبت للدير كما كانت ترغب؟!

حاول لورينزو أن يتجاوزه ويمر إلى الدرج، لكن خطوة واحدة من الفتى كانت كافية لاعتراض طريقه. تلاقت عيناهما، فلم يجد لورينزو إليساندرو الأمس.. ذلك الفتى الأرعن المتخاذل رحل إلى الحرب دون عودةٍ، ومن يقف الآن شخصٌ آخر يمتلك من الشجاعة ما يؤهله ليقف أمام أبيه في تحدٍّ. كان على لورينزو أن يُنحي أي أسى جانبًا، فأمسك برسغ إليساندرو بقوةٍ، واقترب بوجهه منه قائلًا بصوتٍ أشبه بالفحيح:

- إياك أن تعترض طريقي مرةً أخرى.. إن كنت تريد الحديث، اتبعني، لن نناقش أمور عائلتنا أمام الأقنان.

أزاحه جانبًا ليمر. أخذت الفجأةُ إليساندرو، وأفاق على صوت أبيه الخشن:

- أستظل واقفًا هكذا؟

دار إليساندرو بعينيه في المكان. لقد أهانه أمام الجميع. استأسد عليه العجوزُ كسابق عهده. كانت كاترينا تسند أمه، وتدلف بها إلى الفناء في تلك اللحظة، عيونهما قد انتفخت من كثرة البكاء، ونظراتهن إليه تُوحي بأن الأمر جللٌ. صعد الدرج في سرعةٍ إلى حيث غرفة أبيه، الذي كان يجلسُ على كرسي قبالة باب الغرفة. لم يدم صمته كثيرًا، بل قال بهدوءٍ:

- لقد رحلت ماريا وفيولا مع الدوق ماركيزيو.. إلى باري.

هديرٌ أرعد الفرائص.. صيحاتُ ألم رشق السهام.. فوضى عارمة على أسوار سالرينو، الدماء تُلطخ الأجساد والوجوه. كان يُحاول دفع أحد السلالم بعيدًا عن الجدار الذي يئن تحت ضربات المنجنيق وتدافع أمواج من الجند، ولكن السلم كان أثقل والسراسنة يصعدون درجاته في مهارةٍ وسرعةٍ. سقط إليساندرو أرضًا وألقى سيفه، وقد أصابه هلعٌ ونال منه اليأسُ. راحوا يعتلون الأسوار، والرجال يتساقطون. شقت البطون وتناثرت الدماء، دخان أسود، وراية سالرينو تدهسها الأقدام. لقد فعلها السراسنة. كاد أن يبكى حين هاجمه أحدُهم، فأغمض عينيْه واستسلم للعربي يقتله. ولكنه لم يفعل، إذ طُعن الرجل من الخلف، وسقط ليظهر ماركيزيو، ودرعه الذهبية اصطبغت باللون الأحمر. ركل سيفًا ناحية إليساندرو وهو يصيح في وجهه:

- قُم وقاتل يا فتى..!

"لقد ذهبت إلى باري.."

تمتم بها إليساندرو، وراح يدورُ ببصره في الغرفة. صارت حركته أكثر توترًا وهو يقترب من أبيه الذي قال:

- تحتم عليَّ أن..

صرخ إليساندرو وقد اكفهر وجهه:

- تحتم عليك الصمت.. تحتم عليك الصمت للأبد.

جحظت عينا لورينزو. لقد خرج ابنه عن طوقه. كان يعي ذلك حين رآه يسحبُ سيفه من غمده:

- لا تخف أيها العجوز، لن أقتلك. فقط سأجعلك تَشاهد رأس الدوق الخائن بين يديْك.. سأستعيد أختي وفيولا مهما كلفني ذلك من ثمنٍ.. حتى لو اضطررتُ لقتل أمير باري.

****

مع خيوط الشمس التي أشرقت لتمنح السُّحب لونًا ورديًّا، وتمايل الأغصان مع النسائم، انعكست الحقولُ الشاسعةُ في بريق عينيْها، وتطايرت خصلاتُ شعرها المتموج، وزينت بسمة رضا ثغرها. رغم قلقها فإنها كانت راضيةً بروح الأمل التي حلت بها. يومان منذ غادرت روما، برفقة فيولا والدوق ماركيزيو. كانت تتعجب من فيولا ولا تثق بها، ولكن الدوق كان يكترث لأمرهما معًا. أقنعها أن تمنح فيولا فرصةً، فستحتاجها في مجتمع باري، وستكون رفيقةً جيدةً. الفتاة فقط بحاجةٍ لبعض الثقة. تذكرت وداع أبيها عند بوابة روما الجنوبية، بعينيْن تفيضان بالدمع. ما زالت لا تعي كيف أقنعه الدوق بكل هذا.. ورغم كل ما اعتراها من أملٍ، فإن الخوف وجد طريقه إلى قلبها.

في الظهيرة، توقف الركبُ قرب نبعٍ، وانشغل رجالُ ماركيزيو الأربعة بملء القِرب وتفحص قوائم الخيل. أخذت فيولا في ترطيب وجهها وصدرها بالماء البارد، كانت ماريا تتأكد من جعبتها الصغيرة، حين خُيل إليها بحركةٍ بين الحشائش. شجارٌ بين عصفوريْن راح كل منهما يزقزق ويلطم الآخر بجناحيْه، ويُطاردان بعضهما البعض من غصنٍ إلى غصنٍ..

- إنهما يتصارعان من أجل الفوز بها.

قال ماركيزيو وهو يشير إلى عصفورٍ ثالث يقفُ ساكنًا. التفتت له ماريا:

- هل تعلم كل شيء أيها الدوق؟

ضحك ماركيزيو وهو يُمسك بلجام جواده:

- لا، ولكن الأمر واضحٌ.. دومًا يتعلق الأمرُ بأنثى.. وحدها قادرةٌ على إشعال الحروب وإيقافها..

صمت لبرهةٍ قبل أن يستطرد:

- بقي لنا يومان من المسير، ونصل بعدها إلى باري.. وما زلتُ لا أصدق ما يحدث.

- أنا ايضًا لا أصدق أن كل هذا حقيقي. أستمر في الرحلة ولا أريد أن أستيقظ حتى أرى كيف ستكون النهاية.

أشار الدوق إلى فيولا، التي خاضت في مياه النهر وقد رفعت ثوبها عن ساقيْها:

- لم أتخيلها راهبةً يومًا.. ولكنها أيضًا بحاجةٍ إلى حياةٍ جديدةٍ.. مثلنا جميعًا. من كان يظن أن دوقًا من لومبارديا يقود ركب فتاةٍ قرويةٍ إلى أرض العدو؟! أحيانًا أرى أن من العبث أن نُوقف عجلة القدر. رغم أن الاختيارات تكون دومًا متاحةً، فإننا نختار أصعبها.

- معذرة سيد ماركيزيو.. ولكن هناك سؤالًا مُلحًّا سألته مرارًا.

قاطعها وهو يُحاول أن يُقلد صوتها:

- ما الذي يُجبرك على فعل هذا؟! وهل سيتقبلني بعد ما رفضتُ الذهاب معه؟

ضحكاتُها المباغتة جعلته يشعرُ بالحماقة. ولكنها المرة الأولى التي يراها تضحك هكذا. كانت مفعمةً بالحياة رغم ضعف جسدها. كانت ماريا جديدة، ليست تلك الفتاة ذات الجدائل بالقرية، ولا شبه الإنسان التي كانت بروما. صارت تتشبث بالأمل، وإن كانت لا تُصدقه. شاركتهما فيولا الحديث والضحكات، حتى انتهى الرجالُ من استراحتهم القصيرة. وقبل أن يمتطوا الخيل، وجدوا أنفسهم مُحاطين بفرقةٍ من الفرسان، ظهرت بين الحشائش فجأةً، وكأنما بُعثت من الريح. لم يجرؤ رجالُ ماركيزيو على سحب سيوفهم، فقد كان عددُ الفرسان في تزايدٍ مستمرٍّ. ملثمون تكسوهم دروع من حراشف نحاسيةٍ فوق ثيابٍ سوداء. امتقع وجهُ ماركيزيو وهو يدور ببصره في وجوه مُحاصريه، وهو يتحدث بهدوءٍ بلغةٍ عربيةٍ:

- إننا مُسافرون إلى باري.. ولا نُضمر الشر لكم.

"يبدو أن أجواء باري قد نالت إعجابك دوق ماركيزيو"

جاءت الكلماتُ باللاتينية. توتر الدوق وعيناه تبحثان عن القائل. انشق الصف الأول من الفرسان، ليتقدم فارسٌ وسيمُ المحيا، شَعره الأسود المُبعثر غطى جزءًا من وجهه، عرفوه منذ الوهلة الأولى، لم ينسوا أبدًا المرة الأولى التي رأوه فيها..

ترجَّل قسورة عن جواده برشاقةٍ مُخاطبًا الدوق:

- كيف تود العودة إلى باري، وقد أقسم أبو المغوار على قتلك!!

ألقى جملته وهو يتفحص فيولا وماريا. لم يعرفهما. استدار ليواجه ماركيزيو الذي تحدَّث بهدوءٍ كعادته:

- أحمل على عاتقي أمانةً يجب أن تصل إلى باري.

- هل صرت تاجر رقيق، أم أنهما ملك لك؟

أشار قسورة إلى الفتاتين، منتظرًا الجواب من الدوق، ولكنه أتى من بين شفتيْ ماريا، التي نطقت بالعربية:

- ألا تتذكرني؟

عقد قسورة حاجبيْه، أخذ يتأملها لبضع لحظاتٍ:

- تتحدثين العربية إذن. وجهك مألوفٌ لي، ولكني لا أتذكرك حقًّا.

- أنا ماريا ابنة النبيل لورينزو من سان فيلي.. لقد جئتَ لقريتنا يوم الجوقة..

- آآآه تذكرتُ الآن.. ولكنك بعيدةٌ عن ديارك..

التفت ليُواجه الدوق قائلا: هل تسمح بكلمةٍ وحدنا؟

تبادل رجالُ ماركيزيو النظرات معه قبل أن يُومئ لقسورة برأسه. غاب الرجلان بين الأشجار لبرهةٍ، قبل أن يعودا. لم يعلم أحدٌ فحوى حديثهما الخافت. شعرت فيولا بالتوتر، وراحت ماريا تنقل بصرها بينهما. لحظاتٌ من الصمت مرَّت، قبل أن ينطق الدوق بكلماتٍ متهدجةٍ:

- سيرافقكما الأميرُ قسورة إلى باري..

- كيف هذا؟

قالت فيولا، بينما تقدمت منه ماريا وأخذت تنظر في وجهه. كان يبدو عليه عدم الرضا عما قاله. ابتسامته كانت باهتةً حزينةً، أظهرت أنه لا يملك من الأمر شيئًا. طال الصمتُ حتى قطعه قسورة:

- علينا أن نُكمل المسير قبل حلول الليل، فما زالت فلولُ جيش ملككم في الأنحاء.

ودَّع ماركيزيو الفتاتين بكلماتٍ قليلةٍ جافةٍ. طمأنهما، وتمنى لهما حياةً جديدةً سعيدةً.

- ستروق لكما باري ومُناخها.. وإن كانت لي في العمر بقيةٌ، سأزوركما بالتأكيد.

أوصى فيولا بأن تبقى إلى جوار ماريا، وأن تدفع عنها الشرور، وتبقيها في مأمنٍ مهما كلفها الأمر. كان الأسى يتجلى على وجهه وهو يُتابع صفوف الخيل تختفي بين الأشجار الكثيفة. لوهلةٍ أحسَّ أنه ما كان عليه تركهما، حتى تستقر أقدامهما داخل المدينة.. ولكن قسورة قد يكون أفضل منه في تأمين طريقهما إلى باري.

****

(8)

صبغت شمسُ ما قبل المغيب السماءَ بلونٍ برتقالي، فوق خليج باري الفيروزي، ولامس نسيمُ الربيع وجهَ الماء الناعم، وحلق زوجٌ من النوارس في تجانسٍ حول قاربٍ صغيرٍ يتهادى ببطءٍ، وصاحبه يُجدف بهدوءٍ حتى لا يُخيفها تأرجح القارب. عيناه لا تُفارقان عينيْها، يتطَّلع إلى وجهها النضر الذي يمده بالحياة، وهي سعيدةٌ بتحقيق إحدى أمنياتها، أن تكون معه في عرض البحر، لا حرس ولا ناس. إن للغياب لوعةً، وعلى القرب أن يمحو كل ما علق بالقلب من وجع. مضى الخريفُ، ومن بعده شتاء لم تشعر ببرودته، حيث الدفء بين ذراعيْه وفي كنفه. مَن يُصدق أَن فتاةً قرويةً تُصبح أميرة باري!.. لقد وجدت نفسها أخيرًا.

توقف عن التجديف: إلى أين ذهب عقلك أميرتي؟

ابتسمت في خجلٍ وهي تشيح بوجهها ناحية الشاطئ. كانت باري جميلةً من البحر، يرتقي الحصنُ هضبةً صخريةً، فيُهيمن على الخلجان الثلاثة، والمنازل الضئيلة على حواف المنحدر، ورؤوس

النخيل تَحيط المئذنة الشامخة، التي تذكرها بروما، ولكن باري تملك البحر، كما تملك هي الدنيا الآن.
- الربيعُ جميلٌ في باري..

- كل شي صار جميلًا لوجودك هنا.

تفتحت زهورُ الخجل في وجنتيْها، وعيناها سلبتا من البحر ألوانه. تبسمت له هامسةً:
- تُخجلني!

"انحازت لك الدنيا يا سَودان، كل ما تمنيته يتحقق". حدثته نفسه وهو يقتربُ منها. تأرجح القاربُ، فتوترت وهي تُمسك بيديْها حافته، بينما ضحك هو قائلًا: ألم تكن تلك أمنيتك أن تري باري من البحر؟!

مدَّت يدها له وهي تُفسح له مكانًا بجوارها. سبعة أشهر الآن منذ زواجه منها، حلمٌ لا يُريد أن يستيقظ منه. تحدثا كثيرًا، وضحكا حتى دمعت أعينهما. احتضنها حين هبَّ ريحٌ باردٌ، فلامست لحيته بأناملها الرقيقة، وغمر دفء أنفاسها صدره، ومرَّ الوقتُ سريعًا، حتى داهمتهما ظلالُ باري تُنذرهما برحيل الشمس..

ومن شرفتها، كانت رملة ترى القارب يتهادى في الأفق، وتُذرف الدمع لنفسها. العيش على الذكريات يجعل الحياة جحيمًا. كلماتٌ لأبي المغوار تسري بوجدانها. علينا المضي قدمًا ما دام القلبُ ينبضُ، وعلى الذكرى أن تبقى ذكرى، تنتمي دومًا للماضي.
يوم جاءت ماريا إلى المدينة برفقة قسورة، كانت تلتحفُ ببردة سَودان الخضراء، التي أهداها للدوق اللومباردي. ركض الطبيبُ كاراس ناحيتها، وأصابهم الجمود حين علموا هويتها. ابتسم شَرحبيل وقال متهكمًا: "تلك الفتاة الرومية الهزيلة ستحصل على كل شيء". أزعجت جملته الجميع، وبدا الغضبُ على وجه أبي المغوار، الذي رحل عن الساحة ونظراته اللائمة تُلاحق قسورة، بينما التزم الأغلبي الصمت. أما هي، فقد غُرس بصدرها نصلٌ باردٌ، وشعَرت بالفوضى تجتاحها. لم تُحاول التقرب من ماريا، ولم تمنحها أي اهتمام. كانت تُراقبها من بعيدٍ، ولم يُعجبها أمرُ تلك الفتاة الأخرى المدعوة فيولا، ولكن لا شيء كان بيدها، إلا أن تنتظر حتى يعود أمير باري من تارنت.

يوم عاد سَودان في نهاية الخريف، كان يومًا غائمًا يحمل ريح الشتاء، وكانت تجلسُ بحديقة القصر. دلف ممتطيًا فرسته البيضاء، فاستقبله القادة وحاشية القصر بالترحاب، وكان مبتسمًا يرد تحية رجاله، حتى رآها تقفُ على باب القصر بصحبة فيولا. اتسعت عيناه ونال منه الجمودُ للحظةٍ، ثم بعثت الحياة في قلبه. نسي الجمع من حوله، وترجَّل عن فرسه وعيناه لا تريان سواها، ومرَّ بين مستقبليه بخطواتٍ بطيئةٍ يشوبها وجلٌ من سراب تجسد في هيئتها. كانت تبتسم له، بينما أنفاسه تتسارع، ونبضات قلبه تضربُ ضلوعه. تابعته العيون وهو يرتقي الدرج إلى حيث تقف، يقترب منها وما زالٍ عقله غير مُصدق للواقع، حتى انسلت دمعةً من عينيْها، وتبعها فيضانٌ من دموع الشجن ممزوجةً بفرح لم يقاومه، فاندفع نحوها كموجةٍ تبحثُ عن شاطئ، وضمها إلى صدره وأيقن أن كل هذا حقيقي. لهَيبُ عناقهما لفح قلوب الحاضرين.. اعتصر جسدها، ودموع الفرح تروي ظمأهما، مذاقها الرحيق وعبقها عطرٌ.. كان المشهدُ كافيًا لتنبت غيرة رملة، فقد أهانها زوجُها أمام الجميع، وسلبته الفتاة الرومية عقله، بينما لم يلحظ وجودها على الإطلاق.

****

ازدحم الطريقُ الواصلُ بين الحصن الغربي وباري، ببغالٍ وحميرٍ تجر العرباتِ الممتلئةَ بصنوفٍ شتى من الثمار والأخشاب، إذ انتهى الفلاحون من حصادِ المحاصيل، وقد شهد الموسم وفرةً في شتى الصنوف. السلال عامرةٌ، والبهجةُ تعمُّ الوجوه، والكل يتحدث عن بركة الربيع التي حلت على الحقول. خارج أسوار الحصن، كان السوقُ الجديدُ- كما يُسميه العامة- يتوافد إليه سكانُ الجنوب والشمال. اختلطت اللهجاتُ، بين صياح الباعة وحوارات المارين، وفي جانب السوق اختار ماركو سقيفةً صغيرةً عرض فيها بعض الأقمشة وقوارير العطور. كان منهمكًا في البيع، حين رأى حملة الرايات يخرجون من القصبة، يتقدمهم الفحلُ الأسود الضخم. أفسح الناسُ لهم الطريق وهم يُلوحون لقائد الفرسان، الذي أشار إليهم بيده مبتسمًا، قبل أن يلكز جواده ليمر سريعًا ومن خلفه فرسانه الأربعة. تبعهم ماركو بعينيْه الزرقاويْن كما فعل الجميع، حتى اختفى الركبُ عن الأنظار، وانفض الجمع كل إلى مبتغاه. كان شاردًا حين حدثه أحدهم باللاتينية:

- هل أجد عندك حريرًا أندلسيًّا؟

التفت إلى محدثه، ولم يُجبه للحظةٍ. أخذ يتأمله ثم قال محاولًا صرفه:

- آسفٌ لك، فآخر قطعتين أحتفظ بهما لأميرات باري.

- سأدفع فيهما ما تريد.. انظر، لديَّ قطعٌ ذهبيةٌ من روما.

عقد ماركو حاجبيْه، وأخذ يتفحص الدراهم الذهبية. كاد أن يوافق، ولكنه تذكرها، فابتسم في وجه الشاب الذي تبدو على وجهه مسحة النُّبل:

- قلتُ لك ليس عندي حريرٌ للبيع يا هذا.

وعندما حلَّ المساء وانفضَّ السوقُ، جلس ماركو يتسامر مع أحد الجند المكلفين بالحراسة أعلى برج القصبة، وقد اعتادوا على وجوده بين ظهورهم، يتبادلون الحديث حتى خيوط الصباح الأولى، قبل أن يعود إلى منزله الصغير. كان يُحاول الهروب من الوحدة فهي روح الظلام، تتسرب إلى داخل نفوسه حينما يحل الليل، فيتمنى أن ياتي النهار سريعًا حتى يذوبَ في صخب الحياة. حين يأوي إلى الفراش يتقلب ذات اليمين وذات الشمال لعل النوم يُباغته، ويُحاول إقناع نفسه أن لا جدوى من مطاردة السراب، حتى يهزمه التعب ويغلب النوم جفونه.

استيقظ على جلبةٍ خارج المنزل، فنهض متثاقلًا إلى النافذة الصغيرة، وأزاح الستائر البنية الخشنة، فأغشى عينيه ضوءُ النهار. رأى الفرح يقفزُ من وجوه الناس، فأخرج رأسه من النافذة مستغربًا، فانتظر حتى مرَّ أحدُ الصغار يركضُ ليصيح به:

- يا فتى، ما الذي يحدث؟

- لقد جاءت البشرى من باري أن الأمير سَودان سيُرزق بمولودٍ جديدٍ، والأمير قسورة أمر أن تُوزع العطايا وتُنحر الذبائح بساحة الحصن.

ألقى الغلامُ كلماته بسرعةٍ، قبل أن يركضَ مبتعدًا. احتمالات عدة دارت برأس ماركو قبل أن يختار الأسوأ. عاد إلى الغرفة وأخذ يقطعها جيئة وذهابًا، أراد أن يضرب رأسه في الحائط، ولكن صيحات الفرح التي يُطلقها أهل الحصن جعلته يتوقف عن فعلته. وضع رأسه في دلو الماء لبرهةٍ، ثم أخرجه وقد التصق شَعره الذهبي بوجهه. كان عليه أن يتبين الأمر.. ارتدى قميصه على عجالةٍ، وخرج إلى الساحة، المزدحمة بأهل الحصن وزواره، والجند يفصلون بين جموع النسوة والرجال، ووسط الساحة يقفُ الأميرُ قسورة ودماء الذبائح تجري أنهارًا. أزعجته رؤية الدم ورؤوس الخراف. تمنى أن تكون الزوجة الجديدة هي الحُبلى. عاد إلى منزله واختار عدة قطع من القماش، جمعها في سُرةٍ واحدةٍ، قبل أن يحملها ويمضي إلى باب الحصن ليطلب من أحد الجند استعارة حصانه. لم يرفض الجندي، عله يُصيب شيئًا من خيرات ماركو..

دخل باري مع أذان الظهر، والناس متجهون إلى المسجد، فأودع الحصان حظيرة الجند، واتخذ طريقًا غير مختصرٍ إلى القصر، عبر الأزقة الضيقة والسوق الخاوي من الحياة. التقط حبة خوخ واشتمها قبل أن يقضمها، وهو يتنصت إلى ثرثرات النسوة، حتى اقترب من أسوار القصبة، فلمح طيفها، ترتدي عباءةً زرقاء داكنة أهداها إياها في الخريف. ألقى ما تبقى من الخوخة أرضًا، وتبع هواجسه، ولكنها كانت حقيقية.. ما الذي أتى بها إلى هنا؟! تبعها مستترًا بالجدران. كانت تأخذ طريقها إلى منزل أبي المغوار. توقفت عند حوض ماء بقارعة الطريق، فكاد أن يذهب إليها، ولكن شخصًا آخر برز من الزاوية. هديرُ أمواج الخليج القريب ضرب عقله، كان ذلك الرجل الذي جاء لشراء الحرير الأندلسي! لم يستطع ماركو سماعهما، فاقترب أكثر، فتعثرت قدمه بجرة زهورٍ ذابلةٍ، وأحدث جلبةً، مما جعلهما يلتفتان إليه. نهض، وراح ينفض ثيابه وقد تحاشى النظر في وجهيهما، ثم تجرأ ورفع رأسه، رآها.. ليجدها كاشفة الوجه، فيولا خادمة الأميرة الرومية.

بدت كأميرةٍ، لا تنتمي إلى الكوخ النتن الصغير في سان فيلي. أي جنةٍ هذه التي أنعم عليها الرب بها، كانت تضحك كلما تذكرت طلبها للالتحاق بالدير. صارت الآن وصيفةً، ثيابها أرقى من نبيلات روما وبنفينتو، وتتنعم في الحرير والعطر وليالي السمر. ترى في نظرات الجند لها التمني والاستحسان، فتزيد خطواتُها دلالًا، وجدائلها الحمراء تُثير جنون صاحب الشرطة، تعرف أنه يختلسُ النظرات. كان مهيبًا ذا قامةٍ وجسدٍ ضخمٍ، تُثيرها لحيته الذهبية الكثة، كلما رأته لعنت أيامها في حانة سباستيان. ولكن كل هناء يطوف به قَلَقٌ. تبدلت أحوالها منذ أن رأته مرتين يحوم قرب أسوار القصبة. في المرة الثانية تأكدت أنه هو إليساندرو، ووجد سبيله ليتحدث معها، وفي الثالثة رآهما ماركو تاجر الأقمشة، الذي يأتي من وقتٍ لآخر إلى القصر. أي قدرٍ ألقى بذلك الشخص إلى تلك الأزقة، ابتسامته بدت بلهاء، عرفت فحواها، فرفعت لثامها ورحلت مسرعةً عن المكان.

مرَّت إلى جوار ماركو بخطواتٍ واسعةٍ، فتبعها ببصره، وحين التفت ليرى ذلك الشخص وجده يقف أمامه. باغته بدفعةٍ إلى الحائط، ووضع نصلًا على رقبته. أظهر الخوف وارتعدت الكلمات على شفاهه:

- ماذا فعلت.. أرجوك لا تقتلني!

- لماذا تتبعني؟

- أقسم لك أني لا أتبعك. إنني في طريقي إلى القصر، أحمل الأثواب.. ولماذا أتبعك؟

- أتعرفها؟

- لا.. لا أعرفها ولا أعرفك.. فلماذا تقتلني؟

مع آخر كلمات ماركو، ظهر في آخر الحارة شابٌّ صغيرٌ، جاء بخطواتٍ حذرةٍ مُحدثًا إليساندرو:

- ماذا تفعل يا هذا؟ دعه وإلا صرعتك!

شهر سيفه، فصرخ ماركو:

- عبد الله توقف.. هذا أنا ماركو، وهو يتشاجرُ معي الرجل على سعر الأقمشة.

تعجب إليساندرو من فعل ماركو، ورفع النصل عن رقبته وهو يقول بعربيةٍ ركيكةٍ:

- أعتذر عن فعلي، ولكنك لص.. لقد باع لي حريرًا غير جيدٍ.

رمقهما عبد الله بن الأغلبي طويلًا، قبل أن يُعيد سيفه إلى غمده قائلًا:

- عليَّ أن أصحبكما إلى القاضي، لينظر في أمركما.

قاطعه ماركو بحدةٍ:

- لا، أنا المخطئ.. سنتدبر أمورنا لا عليك!

- حسنًا أنهياه الآن.. أمامي!

التقط ماركو جعبة الأقمشة من الأرض، وناولها إلى إليساندرو:

- هاك تفضل، إنه تعويضٌ عن الأقمشة القديمة.

كان على إليساندرو مجاراة الرجل، فأمسك بها وتبادل النظرات مع الفتى، الذي يبدو أنه يحظى بمكانةٍ في هذه المدينة. كان عليه أن يرحل، قبل أن يحدث شيء آخر يكشف أمره، فألقى التحية عليهما ورحل عن المكان، وفي أثره ابن الأغلبي الصغير، وبقى ماركو وحيدًا. حاول ترتيب الفوضى برأسه، ولكنه فشل. عليه أن يبدأ من حيث توقف، عليه البحث عن ذلك الشخص الغريب.

****

توسدت ماريا ذراع سَودان، واحتضن هو كفها برفق، حين أقسمت بأن أنشودةً ما ستنشدها الألسنة عنه يومًا ما. غفت هي، بعد حديثٍ طويلٍ، عن المرأة الوحيدة التي ذُكر اسمها بالقرآن، عن مريم وابنها عليه السلام، حديثٌ تشعب، حتى وصل إلى اختيار اسم ابنهما أو ابنتهما. لثم شفتها الوردية الناعمة برفقٍ، قبل أن يسحب ذراعه ويعدل وضع رأسها على الوسادة، ثم قام إلى نافذة الغرفة ينظر نحو مدينته. لقد رزقه الله بماريا التي لا يحمل قلبُها سوى صفاء يفيضُ بالحب، فجاءت معها البركة له ولمدينته، وزاد الخير وأثمرت الحقول. جال بخاطره أن يوقف الحرب هذا العام. السلام سيجعل قواعد البناء ترتفع، ورجاله يقوم كل منهم بواجبه حيث وضعهم.. وسيُرزق قريبًا بمولود سيورثه كل

شيء. سيتريض معه، ويركبان الخيل معًا، سيُعلمه المبارزة والصيد، ويمنحه ما لم يستطع هو الحصول عليه يومًا، أن يبقى إلى جواره حتى يشب ويصير رجلًا. وسيكون إلى جواره يوم عرسه، وسيدخل معه إلى روما مكللين بالنصر. ضحك وهو يتخيل ذلك اليوم..

ارتدى عباءته وخرج إلى البهو، فتطايرت العصافير عن حافة الشرفة، وسكت غناء الفتيات على حافة البركة، وانصرفن في استحياء، بينما لوَّح الصغيران ابنا شعيب له، فحياهما برأسه وانصرف إلى الرواق. مرَّ بباب أمهما المُغلق، لم يزرها منذ فترةٍ. تردد، ثم طرق الباب. كاد أن يمضي في طريقه، حين أتاه صوتُها تسأل عن الطارق، فأجابها وقد انتابه القلق: أنا سَودان.

فتحت الباب خافضة الرأس، فسألها عن حالها وهو يدلف إلى الغرفة. أجابته بكلماتٍ مرتجفةٍ، فتطلع إلى وجهها الذي رسمت فيه خيوط الدمع طريقها بسواد كُحل فشلت في إزالته.

- ما بك؟ أين الجواري؟ لماذا أنتِ وحدك؟

- أردتُ الاختلاء بنفسي. ليس هناك ما يُقلق أميرنا.

- هل أُرسل في طلب الطبيب كاراس؟

لم تجبه. ماذا عليها أن تقول، وقد آذت من كانت تعتبره ابنًا بِكرًا لها. جاءها ماركو بعد أن رحل أبو المغوار عن غرفتها، وكان قد أتى يُطالبها بأن تُنجب لسَودان طفلًا. ما لِهؤلاء الرجال يظنونها موظفةً تهب حياتها لمصالح الدولة؟! أما يكفيها أن ترى السعادة تحف مجلس سَودان مع زوجه الرومية، بينما تقضي هي الليالي بين النحيب والذكريات؟ لطمت وجه ماركو، حين طلب منها الهرب معه. من أين أتى بهذه الجرأة فجأة؟ كانت تُلاحظ تودده المُختلف لها وكثرة الأقمشة التي يتحجج بإحضارها ليراها، فتشمئز منها وتمنحها للخادمات بعد أن ينصرف. سَودان هو من جعلها مطمعًا للضباع.

- أمتأكدةٌ أنك بخير؟

نظرت في وجهه.. كان صادقًا في قلقه عليها. حاولت الابتسام ولكنها فشلت. كانت قويةً رغم ذلك:

- سأكون بخير، لا تقلق..

- بل إن الأمر جللٌ.. أفصحي عما بداخلك، سأستمع لك.. أقسم أن يندم من جعل هاتين العينيْن حزينتيْن.

مسحت عينيْها، وارتسمت على شفتها ابتسامةٌ، جعلته يستطرد:

- الحُزن قد يصير داء إن لم نُدرك الأمر.. أحمد الله أن جعلني سببًا ليبتسم ثغرك.

- سيدي السلطان، كيف لا يبتسم من يراك؟!

رغم حزنها كانت نضرةً، تُحاول إخفاء ضعفها بقوةٍ مستعارةٍ. تأملها.. لقد ازدادت جمالًا عن ذي قبل، بياض وجهها ككسفٍ من ياقوت، وحمرة خجلها مرجان ينبض بالحياة، وعيناها السوداوان والكحل المُنساب منحاها حُسنًا قتّالًا. طال صمته، فرفعت رأسها فأخجلتها نظرته. كان قريبًا منها كاليوم الذي سقطت فيه عن الدرج. وجد نفسه يقترب منها أكثر. كيف يملك هذه الدرة ويُهملها؟.. لفحت أنفاسُه

الحارة وجهها، فهَمت بالتراجع، ولكن شفتيْه كانتا أسرع. قبلته سَلبت روحها، فلم تستطع دفعه، ولم تمنعه من احتضان وجهها بين كفيه، واستسلمت لاجتياح يديْه لجسدها، لا تدري كيف رفعها عن الأرض لتُحلق في سماءٍ تزاحمت فيها ألوانُ الدنيا. كجمرةٍ من لهبٍ كان لقاءُ جسديْهما، وتفجرت براكينٌ من شبقٍ في جسدٍ ظنَّت يومًا أنه مات. ولما ارتوت الأرضُ بعد العطش، ارتاحت الروح في قُبلةٍ طويلةٍ تلاقَت فيها عيناهما، وامتزجت أنفاسهما، قبل أن يضع رأسه إلى جوارها، ويغفوان في فراشٍ أنهكه اللقاء فاشتكى إلى شمس المغيب ما فعله به العاشقان.

****

مجردُ عبدٍ خَصي.. لطمته رملة، لتُحيي بداخله الحقيقة التي كاد أن ينساها. هي أميرةٌ مسلمةٌ وزوجةٌ لسلطان باري، فأين كان عقله حين قرر البوح، فصفعته بكل ما أوتيت من قوةٍ، وطردته. عاد إلى داره بالحصن يجرُّ خيبة الأمل، وأغلق بابه عليه وقبع يُحدق في الظلام. لم يبك، ولم يبحث عن سبيلٍ ليعذرها. كان يجوبُ غابات النقمة حين فاجأته طرقاتٌ ببابه، وصوتٌ يقولُ باللاتينية: أعلم أنك بالداخل.. رأيتك تدخل المنزل ولم تُغادره.. فقط أردتُ أن أعيد لك جعبة الأقمشة الخاصة بك.

فتح ماركو الباب، ليجد الرجل مبتسمًا، يمد يده بالجعبة. أخذها منه دون أن ينطق، وهَمَّ بإغلاق بابه، ولكن إليساندرو منعه. رماه بنظرةٍ صارمةٍ قائلًا:

- ماذا تريد يا هذا؟ أعدتَ لي ما يخصني، وأنقذتك من السجن أو ما هو أكثر.. اغرب عن وجهي، وإلا ناديتُ حرس القصبة.

- هل هكذا تعودتم مقابلة الضيوف؟.. فقط أردت شكرك على ما فعلت اليوم.

مرةً أخرى حاول ماركو أن يُغلق الباب، ولكن إليساندرو أوقفه مستطردًا:

- لماذا كذبت عليَّ، وقلت إنك لا تعرف تلك الوصيفة، رغم اعتيادك دخول القصر. لقد تبعتك إلى هناك، ورأيتك تدخل مُرحبًا بك، فهم إذن معتادون لزيارتك.

تأمله لحظةً قبل أن يستطرد:

- لكنك خرجت بغير الوجه الذي دخلت به.. آه يا صديقي، لعل سبب الأسى الظاهر على وجهك أنثى؛ نعم هن سبب كل تعاسةٍ في هذه الدنيا..

دفعه إليساندرو برفقٍ، ليدخل الدار المعتمة دون إذنه. لم يُعجب الأمر ماركو. امتدت يده إلى خنجرٍ صغيرٍ قرب الباب، ولكن صوت إليساندرو جعله يتوقف عن فعله:

- لو كنتُ مكانك ما فعلتها، فمن العار أن تقتل ضيفًا بدارك. ماذا ستقول للحرس الذين رأوني ودلوني على منزلك؟

- ماذا تريد؟

- فقط أشعل أي ضوء، لأن الحديث قد يطول..

أن يأتيك الانتقام في هيئةٍ بشريةٍ، ذاك ما لم يخطر ببال ماركو. قضيا الليلة يحتسيان الخمر ويثرثران. كلاهما له شيء في قصر أمير باري. أو بالأحرى، يُريدان هدم القصر على من فيه. صاغ إليساندرو حكايةً من وحي شيطانه، الحقيقة فيها لا تتعدى أسماء من ذكرهن. كان يُزين الكلمات قبل أن يُلقيها على مسامع ماركو، الذي انتحب، فضحك ضيفه قائلًا:

- لا يبكي الحب سوى النساء.. أما نحن، فنستطيع الحصول على ما نريد وقتما نريد. عدونا واحدٌ يا صاحبي.. من سَلبك من تُحب، ومَن سلبني فتاتي.

كان حديث إليساندرو حول فيولا، لم يذكر ماريا سوى مرةٍ واحدةٍ، مدعيًا أنها من أقنعت حبيبته للهروب معها إلى باري..

ولكن الحقيقة الكاملة كانت هناك في عقل فيولا، التي كانت تتطلع إلى البدر الذي نثر ضوءه الفضي على الفناء. إليساندرو جاء إلى المدينة مثقلًا بالشر. أخبرته أنهما سعيدتان، وأن ماريا حملت من الأمير، مما أثار غضبه. إنه غبي، فأخته ستلدُ وريثًا لعرش باري، وهو لا يرى أي شيء سوى حماقة أخ تزوجت أخته بمن لا يرتضي.

ابتسامة ماركو تُخيفها. لقد تَعرف عليها، وربما سيشي بها إلى الأمير. رآته اليومِ في القصر، فتوارت عن نظره، وقضت يومها مع ماريا والفتيات. مضى إليساندرو، وتركها محاصرةً بين براثن المأزق الذي وضعها فيه. وبينما هي قابعةٌ في ظلام هذا الوقت المتأخر من الليل، رأت سَودان يخرج من غرفة رملة، لكنه لم يلحظ وجودها. ماريا ورملة محظوظتان به. تساءلت في نفسها متى يأتي اليوم الذي تجد فيه رجلًا يهتم لأمرها وليس لجسدها، ويغمرها بفيضٍ من حبٍّ.

****

في القاعةِ الجديدةِ، اجتمع سَودان مع محمد الأغلبي وشرحبيل، في جلسة سمرٍ، وقادهم الحديثُ إلى النساء وغيرتهن، فأخذ شرحبيل يقرضُ أبياتًا من شعرٍ عنهن. أثارت كلماتُه فؤاد سَودان، فتبسم. كانت ماريا غاضبةً منه حين بلغها أمرُه مع رملة. لم يكُن بحاجةٍ لتُذكره أنها تركت كل شيء وراءها من أجله، فهو يُحبها. ولكن عليه ألا يقتل رملة هجرًا. رملة دافئة راقيةٌ، كنزٌ من الكمال لم يُفكر في لمسه من قبل.

ردَّ على شرحبيل:

- إنهن يجذبننا كما النحل للرحيق، فينعمن علينا بالمودة والحب، ويعلمن مكامن ضعفنا. لا عجب أن خُلقت حواء من ضلع آدم.

قاطعه الأغلبي قائلًا:

- أغواها الشيطانُ، فخرجا من الجنة.

اعترض سَودان:

- أغواهما الشيطان.. كلاهما عصى.

قال الأغلبي في تحدٍّ:

- أكل من أجلها.. كي يخلد معها.

تدخل أبو المغوار مُضاحكًا:

- إن كنا في باب الحديث عن النسوة، فلا تنسوا أن كيد صواحب يوسف عظيمٌ. يكفيهن قليلٌ من الغيرة ليؤرق الغَم مضجعك، ويا للنعيم الذي سيُغرقك إن منحتها الاهتمام. نركن إلى جانبهن، وندور كبغال الطاحون دون توقف. أن يكون هناك شخصٌ بحياتك يهتم لأمرك لهو شيء جيد، ولكن علينا أن نمنح أيضًا كما نأخذ، فكل شيء في هذه الحياة هو مقايضةٌ عادلةٌ.

سكت لحظةً، ثم قال:

- حديثُ النساء كاد يُنسي أبا المغوار أن يُخبركما بأن أبراج الحراسة البحرية أخبروا عن سفينتين ترفعان راية بيزنطة تتجهان شمالًا، ألا بعدًا للنساء..

ضحك ملطفًا الخبر، ثم أكمل:

- لقد كان من الخطأ إرسال كل سفننا إلى أوترانت.. ولم يأخذ أحدٌ الرأي أو الشورى حول إلغاء حملة الصيف..

كان وقعُ الجملة الأخيرة ثقيلًا، وتعلقت عيون الرجال بسَودان. كان سيُخبرهم بالأمر، ولكن أبا المغوار كان أسبق. المرة الأولى التي يفعل معه العجوزُ هذا، أحرجه مع الأغلبي وشرحبيل. نهض عن كرسيه قائلًا بنبرةٍ يشوبُها الغضب:

- من سنُحارب وقد خضعت كل الأنحاء لنا؟ نابولي.. بنفينتو.. ساليرنو يدفعون الجزية، وقد أوقفنا الحرب.. لقن قسورة جيش الملك الكارولنجي درسًا لن ينساه.. أخبروني من سنُحارب؟! لقد أنهكت قواتنا في حروبٍ متواصلةٍ.. أما للرجال أن يرتاحوا، ويعيشوا بين أهلهم يا أبا المغوار؟ أما كان ابن الخطاب يُعيد المحاربين إلى زوجاتهم كل بضعة أشهر؟..

قاطعه أبو المغوار لينًا:

- إنما أخافُ أن يركنوا إلى الترف يا سَودان..

أصرَّ سَودان:

- إننا بحاجةٍ إلى الراحة وحصد ثمار ما نبنيه هنا. انظروا كيف صارت باري، وكيف نرفع بنيان الحصون والمدن.. لقد كتبت لقسورة ببث السرايا والكشافين برًّا.. وأسطولنا يتجه إلى أوترانت، وسيُغلق مدخل البحر. لندع الناسَ تحصد مما تُحارب لأجله، فلا يملُّون الحرب، ولا يُدمنون الدماء.

أومأ شرحبيل برأسه موافقًا لما قال سَودان، ووافق الكلام هوى الأغلبي، إذ يُبعد قرار سَودان شبح الحرب عن أحلام ولده. أبو المغوار رحل من المكان غاضبًا، فهو لم يتوقع يومًا أن يتحدث سَودان معه هكذا. هل أخطأ حينما حدَّثه أمام الرجلَيْن عن الأمر، أم أن رأي سَودان هو الصواب؟ ارتكن إلى مقعدٍ في طريقه إلى البوابة، وأغمض عينيْه مصارحًا نفسه أنه يتحاملُ على السلطان منذ جاءت الفتاةُ الروميةُ، وازداد الأمرُ حين علم بأمر حملها. عبر بوابة القصر إلى ساحة القصبة، حين أتاه

صوتٌ من خلفه يستوقفه، فاستدار ليجدَ أحد الغلمان يُخبره أن الأميرة رملة تود الحديث معه. في طريقه إليها، قابل كاراس يقتطفُ بعض الأعشاب، يتفحصها ويشتمها قبل أن يضعها في جعبةٍ معلقةٍ بكتفه، فألقى عليه التحية سائلًا عما يفعل، فأجابه الطبيبُ الرومي ضاحكًا:

- لقد وجدتُ أن أفضل مكانٍ لزرع بعض أعشابي التي لا أجدها لدى العطارين هو حديقة القصر. استأذنتُ من السلطان في فعل ذلك. اعتدل واقفًا وهو يستطرد: سأعودُ إلى المنزل.. هل أنتظرك ريثما تنتهي ونعود إلى المنزل معًا؟ لقد ذبح عبد الله شاةً في الصباح، تركته منشغلًا بإعدادها وجئتُ لهنا..

- بل عُد أنت.. لا أدري متى أنتهي مما لديَّ!

ألقى جُملته ومضى إلى القصر، فلم يكن ليحتمل المزيد من كلمات كاراس السريعة. ذلك الرجل كثيرُ الكلام لا يكف عن الابتسام، بذل جهدًا ليتأقلم على وجوده هو والشاب ابن الاغلبي، واقتنع أنهما يؤنسان وحدته. ربما يضيقُ به الآن لكونه عمَّ مَن صارت أميرةً لباري.

لقاؤه برملة لم يدم طويلًا. كانت تنوي أن تطلب منه نفي ماركو، ولكنها تراجعت. حدَّثته عن سَودان، فسعد القاضي بما آلت إليه الأمورُ، فهو يرى في رملة صورة ابنته سليمة، ويرجو أن يكون خليفة سَودان ابن بطنها هي، لا الرومية. نصحها أن تُثبت له حكمتها وجدارتها بمجاورته على العرش بألَّا تنجرَّ خلف الصراعات النسوية في أروقة القصر، فضرتها صغيرةٌ غير ناضجةٍ، ولن تثبت جدارةً في هذا الصدد. شيء من السعادة تغلغل في نفسها حين عادت للغرفة، فقد فتح لها أبو المغوار بابًا للتفوق على ماريا في قلب سَودان، وليكن لكل منهما مكانها الذي لا يُقارن بالأخرى. التقطت مشطًا عاجيًّا، وراحت تُمشط شَعرها، وعقلها يُعيد عليها نصيحة القاضي.

****

في الخلوةِ، تتفتح الأفكارُ كأقحوانٍ نبت في أرضٍ قاحلةٍ، تستقي الصفاء من قطرات الذاكرة، ونبصر الأمور كما يجب أن تُرى، منذ أن عاد قسورة من حربه الأخيرة، أحسَّ أن السكينة أحب إليه من الصخب، حتى إنه قرَّر بناء سوق الحصن خارج الأسوار، مقتنعًا أن الهدوء سيوقر المكان في عيون الناس. فرضُ القوانين يحفظ للحصن الهيبة والغموض، كيلا يعتاد الغرباءُ الولوج والخروج من الحصن في حُرِّية. حظي هو بخلوةٍ يوميةٍ، للتدبر ودرس الأمور بروِيَّة. اختار لنفسه البرج الأكبر في القصبة، وجعل من طابقه الأخير صومعةً له، وجهزها بأثاثٍ خشبي قليلٍ، وزيَّن الجدران بغنائم غزواته من أسلحةٍ وعتادٍ وراياتٍ لدوقيات وممالك هزمها. نوافذ القاعة الكبرى تُطل على الحقول الخضراء الممتدة حتى باري، المدينة التي جعلت منه هذا الرجل. كان يطمح أن يصير أميرًا، فصار أمير حرب في إمارةٍ يهابُ منها الروم والإفرنج. في حربه الأخيرة، نُصر بالرعب على ملك الإفرنج، الذي كان قد توغلٍ بجيشه في الثغور الشمالية، ورغم قلة المعارك، إلا أنه حصد غنائم كافيةً لتمويل الحملة، وعاد مكللًا بالنصر، مصطحبًا أميرة باري الجديدة. لم يكن ليترك الفتاتين مع ماركيزيو في تلك الأنحاء، لقد عرفها منذ الوهلة الأولى، ولكنه أظهر النسيان كي تتم حيلته. كان يعلم أن صديقه يعشقها، وأن الأمر سيُسعده حتمًا، فاتخذ قراره دون تأجيلٍ أو شورى. عنَّفه أبو المغوار، وشرحبيل سخر منه، رغم أن عينيه تعلقتا بالفتاة الأخرى، وحتى الآن. أما الأغلبي، فصمت كعادته، حين يكره أمرًا ويكون يعرف أنه الصواب.

ضَربت خيامُ الجند حول الحصن، تستقبل الوافدين الجدد من المتطوعة للخروج إلى الثغور الشمالية، معسكرٌ صغيرٌ أمر قسورة بإقامته حتى يكتمل النصاب. عليه أن يُسيِّر السرايا إلى أمالفي وسالرينو وتخوم فوجيا، فالهدنةُ ستمنحهم وقتًا لبناء القلاع والحصون. لم يطلب منه سَودان الخروج مع السرايا، فقط أمره ببثها. لكنه لا يستطيع المكوث كثيرًا داخل الحصن، يخشى أن تهوى نفسه القعود وإدارة الأمور فقط.. أخبر رجاله أن في الصباح سيعلم كل واحد منه وجهته. كان يثقُ بهم، ولكن هناك بعض المتطوعين أثاروا حفيظته. أنهى جولته عائدًا إلى الحصن. المشاعل تُضيء الدرب، والفحل الأسود يسير بمهلٍ على الطريق الخاوي إلا من شخصٍ توارى بالظلال، حين رآه بقارعة الطريق.

- ماذا تفعل هنا في هذا الوقت المتأخر؟

خرج ماركو مبتسمًا يُمسك بدجاجةٍ من جناحيْها:

- سيدي الأمير.. كنتُ أطارد دجاجةً هربت من النافذة بعدما أغلقت باب المنزل.. الأمرُ مُتعب حقًّا أن تُربي طيرًا..

تفحصه قسورة بنظرةٍ ثاقبةٍ:

- قالوا لي إنك كنت تأوي ضيفًا.. لم أعرف أن لك أقرباء من قبل.

- إنه ليس بقريبٍ يا سيدي.. أحد الباعة من روما جاءني بطلبٍ من بعض الأقمشة، فضايفته وأكرمته ومضى في سبيله.

ابتسم قسورة غير مقتنعٍ..

- بائعٌ غريبٌ؟!.. هذا سببٌ ليمكث يومين ببيت ماركو؟!

ابتسم ماركو بدوره..

- لقد رُبيت ببيت كرمٍ بإقريطش.. وتعلمت من مولاي شعيب أن ابن السبيل له حق علينا..

كان قسورة يَعرف شعيبًا أكثر من ماركو. لربما شبَّ الفتى بين يديْه، ولكنه لن يعرف صاحبه أكثر منه. لكز الجواد وهو يقول محدثًا ماركو، الذي ما زال يحتضن دجاجته:

- حسنًا يا ماركو.. أحكم غلق أبوابك، حتى لا تهرب الدجاجات!

- سيدي، هل سترحل غدًا إلى الحرب؟

- نعم..

- هل سيذهب الأمير سَودان أيضًا؟!

كان قسورة قد تجاوزه حين نطق سؤاله، فلم يُجبه، ومضى بجواده مبتعدًا، والشاب يستطرد صائحًا:

- حفظك الله يا أمير باري وجالب عزتها.

لم تفلح الوسادة الناعمة في صدِّ ركام من الأسئلة تساقط على رأسه. حديثه مع ذلك الخصي أرَّق مضجعه، حتى سمع أذان الفجر. نهضَ طاردًا وسواس ماركو، وراح يرتدي درعه على ضوء قنديلٍ خافتٍ. فتحت زوجته عينيْها، وسألته بصوتٍ ناعسٍ:

- أحان الوقت يا أبا محمد؟

- استوصي بإخوتك والأطفال خيرًا.. أيقظيهم للصلاة بعد أن أخرج من المنزل!

- سترحل كعادتك دون أن تودعهم.

قالت وهي تُناوله حزام غمديْ سيفيْه، فتناوله منها مبتسمًا:

- استودعتكم الله يا أم محمد..

خرج من المنزل على عجلٍ، فوضع سرجه المرقط على ظهر الجواد المتكاسل مُحدثًا إياه:

- أعلم أنك لم تأخذ كفايتك من الراحة.. ولكن علينا الذهاب الآن.

شاهده ماركو من نافذة غرفته الضيقة. لم تذق عيناه النومٍ هو الآخر، ولكن ليس قسورة السبب. لقد كان إليساندرو الذي اندسَّ بين المتطوعين. حمايةٌ مجانيةٌ كما يدَّعي، حتى ينفصلَ عنهم ويُكمل الطريق إلى روما..

****

كان الوقتُ باكرًا حين فتحت عينيْها، فلم تجده بالفراش البارد. نهضت باحثةً عنه، حتى وجدت رملة تقف بالشرفة المطلة على الساحة، وسمعت جلبةً تُردد صداها الجدران البعيدة. كانت رايات باري تُخفق مع نسمات الصحو الخافت. توجهت إلى حيث تقف الأميرة تراقبُ الساحة، حيث كان سَودان يتبارز مع عبد الله بن الأغلبي، وصغيرا شعيب يُهللان بالقرب. الرمحان يفتكان ببعضهما، بين الضربات والتصدي، في قتالٍ جادٍّ بين أمير باري وفتى خفيف الحركة. كانت المرة الأولى التي تُشاهد فيها ماريا القتال بالرمح. عبد الله كان ماهرًا، يقفزُ ويتفادى ضربات سَودان قبل أن يبدأ نوبة هجومه. صدَّ سَودان ضرباته السريعة بسرعةٍ مماثلةٍ وحُسن توقع صقلته سنون من الحرب. بعد عدة مراوغاتٍ بينهما، ضربه سَودان بقسوةٍ، فأوجعت الضربة صدر عبد الله، فزادته شراسةً، وسَودان يتمتم مُحدثًا إياه:

- الألم يمنحنا القوة لمواصلة النزال، ولكن قوةً دونما عقلٍ هي انتحارٌ.

اختتم جملته بضربةٍ أخرى بكتف عبد الله، ولكنه صُلب لم يتزحزح. حاول عرقلة سَودان بغرض إسقاطه، فشهقت ماريا حين كاد يهوي أرضًا، ولكنه لم يفعل، بل تدحرج جانبًا قبل أن يقفز قائمًا مرةً أخرى يُلوح برمحه مرارًا، وهو يقول:

- أحسنت يا فتى..

لم تُحدثها رملة. فقط اكتفت بابتسامةٍ، وتركتها تُتابع نهاية القتال. داهم ماريا ما رآته في منامها، طرقعات سلاحيْهما وترتها، فشعرت بأنها تحتاج إلى الصلاة وسؤال الأسقف. انتظرت حتى انتهى

سَودان من تدريبه مع الصغار، واستأذنته، فأذن لها، واستقبلتها أجراسُ الكنيسة فاتحة الأبواب، في ترحابٍ بأميرة باري.

احتشد العامة لرؤية موكب الأميرة الرومية عائدةً من الكنيسة، في زيارةٍ كانت الأولى لها منذ أن وطئت باري. حمل أربعة رجال أشداء هودجها، وتتبع الناسُ الموكب حتى أسوار القصبة، ثم أنزلت البوابات الحديدية بعدما عبر الركب إلى الساحة، تاركين وراءها الناس يتساءلون عن سبب زيارتها للكنيسة. توقف الرجال ووضعوا الهودج أرضًا ورحلوا جميعًا، فخرجت فيولا من بين الستائر الخضراء أولًا، ثم تبعتها ماريا، ترفل في ثوبٍ أزرق مطرزٍ بزخرفةٍ صفراء، برزت تحته بطنها. كان الإرهاقُ يحتل وجهها، في ذلك اليوم من أيام الصيف الأولى شديدة الحرارة. تذكرت روما التي زارتها الصيف الماضي. لقد مرَّ ما يُقارب العام على وجودها في باري، وقد تبدل كل شيء.

لم تُشف إجاباتُ أسقف باري ظمأ أسئلتها. وما بين الحيرة والغيرة، لم يُرحها كلام البابا. إنه حريصٌ، لا يتكلم من منطلق الدين وحده. سَودان لم يطلب أن تعتنق دينه قط. ويُجيبها عن ما تسأل، لكن مصير الطفل القادم يُحتم عليها أن تفهم أكثر، خاصة بعدما صارت ضرتها حُبلى هي الأخرى. ليالي الوحدة تُثير حنقها على رملة، وحين اشتكت لعمها كاراس قال لها إن على سَودان أن يعدل بين زوجتيْه، وعليها التأقلم مع ذلك. الأمرُ يفوقُ طاقتها، رغم أن معاملته لم تتبدل، بل إن حبه لها يزدادُ يومًا بعد يوم. كان يُحاول أن يكسر غيرتها، ويُقربها من رملة، فكان يجمعهما معًا في مجلسه يتبادل الحديث معهما. رملة سيدة عربية رزينة، ذات جمالٍ ونسبٍ، لذا كان ابنها هو الأقرب ليرث عرش باري يومًا. "ابن الرومية لن يحكم العرب يا ماريا" هكذا تُخبرها فيولا دومًا، بعدما سمعت قصص الفتيات عن أمراء الأغالبة، وصراع الأخوة على الحكم في إفريقية وصقلية.. وفوق ذلك، كانت نظراتُ العجوز ذي العين الواحدة تُخيفها، وكان يكتفي بالإيماء برأسه لتحيتها، عكس تبجيله ووده لرملة.

كان القاضي أبو المغوار خارجًا من القصر حينما تقابلا، متجهم الوجه يتبعه شرحبيل، الذي ابتسم لرؤية فيولا. كانت ماريا تعلم بأمرهما، ولكنها لم تتحدث مع وصيفتها، وانتظرت أن تُخبرها، ولكن فيولا لم تفعل. شعرت أن القصر يشوبه الاضطراب، فأرادت اللجوء لسيد القصر، وأسرعت تجاه مجلس سَودان، ولكن الحرسَ أخبروها أنه يجتمع مع قادة المدينة، فعادت إلى غرفتها تجرُّ قدميْها.

إنه يومٌ غريبٌ من بدايته، استيقظت من نومها منزعجةً من حلم غريب، رأت فيه غاباتٍ تحترقُ وأطيافًا تصرخُ، لم تتبين ملامحها، ولكن من بينها سمعت صوتًا أبيهاً واضحًا. شُقت النيران، لتظهر الهجان، لونها الأبيض ضياء اجتاح اللهب، ولكنها كانت دون صاحبها، وأخذت تصهلُ وتركضُ في مروجٍ خضراء شاسعةٍ لا نهاية لها..

أحداثُ عام إلا بضعة أشهر مرَّت بخاطرها في ساعات وحدتها، حتى حل الليلُ سريعًا. تصنعت النوم حين عاد سَودان، الذي بدَّل ملابسه وأوى إلى جوارها بالفراش، مستلقيًا على ظهره مغمضًا عينيْه. على غير عادته، لم يُحدثها أو يهتم لأمرها. أوجعها هجرانُه، حتى وإن كان إلى جوارها. ليست عادته؛ هناك ما يُؤرق خاطره بالتأكيد. كان هو الآخر يتظاهر بالنوم، بعد يوم ممتلئ بالأخبار السيئة، فعهدُ السلام والراحة انتهى قبل البدء. غدرت فيالقُ رومية بسرايا الشمال، وَسُمم طعام آخرين، ولا أخبار عن قسورة وفرقته. أبو المغوار يحثه على الخروج إلى الحرب، والفقيه سعد بن هشام يُوجعه بكلماته، وبين ليلةٍ وضحاها صار جميعُهم يُريدون الحرب؛ وحده الأغلبي قال ننتظر قسورة ونرى الأمور من خلاله.

وما هي إلا أيامٌ، وعاد قسورة وبضعة رجال ممن كانوا معه. لم يمنح رجاله إذن العودة إلى منازلهم، ولا مرَّ بالحصن. توجَّه مباشرةً إلى باري وقصبتها، وعُقد اجتماعٌ طويلٌ مع سَودان، خرج بعده قسورة مغاضبًا كما فعل أبو المغوار قبل أيام. عاد أميرُ الحرب إلى الحصن، فلم يُحدث أحدًا، حتى زوجاته وأطفاله، بل قبع في برجه يُحاصره الخذلان والحيرة. لقد خسر أكثر من أربعمائة من رجاله. سرايا كاملة أُبيدت، وسُممت مياه الشرب لآخرين. وقعوا في كمينٍ مُحكم، بينما يعبرون مخاضة النهر. لقد تعافى الروم من هزيمة ملكهم بسرعةٍ، بينما يتخاذل سَودان عن جمع الناس للحرب، بدعوى أن الجند أنهكتهم كثرة الحروب المتواصلة، لن يُلقي بمزيدٍ من الرجال في طريقٍ مهلكةٍ، وخسارة بعض الثغور لا تعني خسارة الحرب؛ هكذا قال أميرُ باري المتعنت. للمرة الأولى يُصر على رأيه، ويضرب بكل أعراف الشورى عُرض الحائط. ولا يَسمع سوى صوت نفسه، بينما ملك إيطاليا الإفرنجي يجمع جنده بالقرب من سالرينو..

- هناك فرسان يقتربون من البوابة.

نطق بها حراسُ البرج الأمامي، بينما كان قسورة يُتابع ببصره ولوج ثلاثة فرسان إلى الحصن. عرفهم قبل أن يترجلوا عن جيادهم، فأشار من نافذة برجه، حين رفع الأغلبي رأسه لأعلى. توجهوا إلى المدخل، بينما توجه هو إلى قِدر الماء، فغسل وجهه وخلخل شعره بالمياه الباردة. بابتسامةٍ باهتةٍ، استقبل الأغلبي، يُرافقه الفقيه سعد، وسليمان الصقلي قيم السلاح والخيل. كانوا يرون غرفته لأول مرةٍ. الرايات والفؤوس وبعض السيوف ذكرتهم بمعارك خاضوا معظمها معه. لم يدم الصمت طويلًا، قطعه الأغلبي:

- هل ستبقى منعزلًا في برجك هذا إلى أبد الدهر؟!

رمقه قسورة بنظرةٍ فارغةٍ والفقيه ابن هشام يقول محدثًا إياه:

- إن الانكسار طريقٌ لا يكف عن الانحدار بصاحبه، فلا تدع هزيمة كهذه تفت عضدك!

قاطعه قسورة بغلظةٍ:

- لم أُهزم.. كان هناك خائنٌ وربما أكثر.. سمموا الجياد، وأحكموا خطتهم لنُساق إلى الموت.

لفظة "الخيانة" قاسيةٌ، فرضت عليهم الصمت لبعض الوقت، حتى قال سليمان الصقلي:

- لن يمر الأمر.. أتوقع أن السلطان سَودان سيقوم بوضع خطةٍ ما لردع الروم عن الثغور الشمالية.

توقف عن الحديث، حين حاصرته نظراتُ ثلاثتهم. مرةً أخرى فرض الصمت نفسه، قبل أن ينهض الأغلبي متوجهًا إلى طاولةٍ خشبيةٍ وُضعت عليها بيادق خشبية. التقط أحدها، وأخذ يُحدق بها وهو يتمتم:

- لسنا سوى قطعٍ مثل هذه، يُحركها كيفما يشاء.

- ماذا تقصد؟

قال سليمان وهو ينقل بصره بينهم. كان قسورة مسترخيًا في جلسته، وقد ضاقت عيناه اللتان لم تُفارقا الأغلبي، وابن هشام يقول محدثًا الأخير:

- أتعي ما تقول يا أغلبي؟!

- نعم، أعي كل حرفٍ نطقتُ به. مَن يستأثر بالسلطان دون شورى ويتخاذل، ليس له أن يكون قائدًا. لقد نال منه الوهنُ، وسَلبت لبَّه أمورُ زوجتيْه ورفاهية القصر، آن لسَودان أن يُعزل.

قام قسورة بغتةً:

- أظن أن هجير شمس الصيف قد آذى رأسك يا محمد! أتريد أن نخون بيعتنا لسَودان؟ والله لا خير فيك..

تمتم الأغلبي وهو ينظر إليه بتحدٍّ:

- ومَن قال إننا سنخونه؟ نحن مِن أهل الحل والعقد، والأمر شورى بيننا، فكما منحناه الإمارة نستطيع أن..

- لا.. ليس هناك داعٍ لتُكمل حديثك. عليكم العودة إلى باري، وسأنسى كل ما قيل هنا، فور خروجكم من ذلك الباب.

- أتطردنا من بيتك يا قسورة؟!

قالها الفقيه ابن هشام وهو يتطلع بوجه قسورة المُتجهم. كان قاسي الملامح عن ذي قبل. أولاهم ظهره، وتوجه إلى شرفته في إجابةٍ واضحةٍ، أن زيارتكم قد انتهت. غادروا في صمتٍ، وتابعهم على الطريق الطويل إلى باري وقد عصفت به كلماتُ الأغلبي وراحت تقلب فؤاده.

بطول الطريق إلى المدينة، دار الحديثُ بين الأغلبي ورفيقيْه. ألقى ابن هشام اللوم عليه، ولكن سليمان الصقلي أيد رأي الأغلبي، بل وأكد أن قسورة قد ينضم إليهم إن عزموا الأمر. عند باب المدينة، افترق ثلاثتهم كل إلى مبتغاه، فعرَّج محمد على منزل أبي المغوار، يأمل في لقائه، ولكن الأخير لم يكن بالمنزل. شيء من راحةٍ نال من صدره حين لم يجده، فلم يكن يعلم كيف يُفاتحه في الأمر، ويتوقع رفضَ القاضي، ولربما ضرب عنقه في وقتها. جلس إلى ولده عبد الله والطبيب الرومي لقليلٍ من الوقت، قبل أن يرحل عائدًا إلى منزله.

في جوفِ الليل، نهض فزعًا، والتقط قنديلًا صغيرًا، ونزل الدرج بقلبٍ وجلٍ. مَن الذي أتاه في هذه الساعة؟! لربما وشى به أحدُ رفاقه، وجاء سَودان وجنده ليقبضوا عليه. سأل عن الطارق، فجاءه صوتُ الفقيه ابن هشام. فهدأت نفسه. أزاح المزلاج، ليجد العجوز يلتحف ببردةٍ بيضاء. أشار إليه بالدخول، فدخل الرجل، متجهًا إلى أقرب ركنٍ، وجلس.

- لقد أصبتِ فيما قلتَ يا أغلبي. لقد تشاورت أنا وسليمان، ونحن معك، على أن يقتنعَ البقية، فلا يتفرق شملُ الجيش في وقتٍ حرجٍ.

ظهر الارتياحُ على وجه الأغلبي، وابن هشام يستطرد:

- شرحبيل وقسورة وأبو المغوار.. وأن يكون لنا تأييدٌ من العامة. دون ذلك، سيكون كل شيء ملغيا وكأن لم يكن.. وأكثر ما أخشاه أن نتنازع الأمر بعد عزل سَودان.

ربت الأغلبي على كتفه:

- إن كان أمرُنا شورى، فلن نتنازع الأمر.

- حسنًا.. ولكن كما قلت، عليك أنت إقناع الرجال.. أنت قريبٌ من سَودان، ولذلك سيفهم الكل أنك تُفضل صالح الأمة على صداقتك له، وأن ليس في الأمر خيانة.

اتفقا على اللقاء بعد يومين، بمنزل سليمان الصقلي قرب السفح، وعاد الأغلبي لفراشه، حاملًا على عاتقه إقناع الرجال. راود نفسه هاتفٌ يُحدثه أن ما يفعله خطأ، ونهض مرةً أخرى من الفراش متوجهًا إلى الشرفة المطلة على الفناء، يُحاور نجوم الليل محاولًا إقناعها أن ما سيفعله هو الصواب.

في الصباح، توجَّه إلى ساحة التدريب، مستقبلًا المزيد من المتطوعة. تطلع إلى وجوههم طويلًا، قبل أن يُوكل إلى مساعده أمرهم، وجرِّ قدميْه إلى القصبة باحثًا عن شرحبيل، ولكن لا أثر لصاحب الشرطة. أسرَّ إليه أحدُ الحرس أنه رآه بأروقة القصر قرب مخدع السلطان. كان الذهابُ لقصر سَودان ثقيلًا على قلب الأغلبي، لكن لا بأس من التواجد حتى لا يشعر الأخير بأي تبدل. كان يمر بأحدِ الأروقة، حين رأى الفتاة الرومية وصيفةِ الأميرة تخرج من غرفةٍ جانبيةٍ، تتلفتُ يمينًا ويسارًا، قبل أن ترحل على عجلٍ. كانت حركتُها مريبةً، ولم يدر ماذا يفعل، أيتبعها أم يرى ما فعلته بالغرفة. استقر سريعًا أن يرى الغرفة، فتوجه بخطواتٍ واسعةٍ نحوها، وأمسك كفه الغليظ المقبض النحاسي للحظةٍ، قبل أن يستجمع شجاعته ويفتح الباب.

كان شرحبيل يوليه ظهره المكسو بالشعر الذهبي. قال دون أن يلتفت بصوتٍ مرحٍ:

- هل عدتِ؟ ألم تكتفي بعدُ يا صغيرتي الصهباء؟

التفتَ، ليرتطم بصره بالأغلبي، الذي كان يقفُ على عتبة الغرفة قائلًا:

- يبدو أنك وجدتَ ضالتك أخيرًا يا شرحبيل!

****

الآمالُ تتحققُ فقط حينما نمنح أنفسنا فرصةً لتحقيقها. كانت فيولا سعيدةً بما آل إليه أمرُها مع شرحبيل، أحد أقوى أمراء باري. عضَّت شفتها السفلى وهي تتذكر ما حدث منذ قليلٍ في الجناح الشرقي من القصر. لقد منحها وعدًا ألا يُصيبها مكروهٌ ما دام حيًّا. لن يُعكر إليساندرو أو أي كان صفاء حياتها بعد الآن. منحها لقاؤهما المزيد من الأحلام أن تصير أميرةً كما ماريا، التي تجلسُ قرب حافة البركة هائمة، تفكر فيما يؤرقُ عقل زوجها المُنشغل عنها بأمور الإمارة والبناء، يخرجُ لصلاة الفجر، فلا يعود إلا مع المغيب، واجتماعات الديوان تأخذ الكثير من وقته. تحسست بطنها، حين شَعرت بحركة الصغير بداخلها. لعله جنينها يشعر بما يمر به أبوه، أو ربما يشتاقُ إلى لمسته.

ظهرت رملة على عتبة الفناء، محاطةً بمجموعةٍ من خادماتها، وبطنها أيضًا بدأ في البروز. زينت وجهها بابتسامةٍ ودودٍ، وهي تتجه نحو ماريا، التي بادلتها الابتسام. ثرثرة الفتيات وضحكاتهن هيمنت على الفناء الممتلئ بالورود، وعلى حافة البركة جلست الأميرتان تتابعان لهو وصيفاتهن.

- ما لك ماريا، أهناك ما يُزعجك؟

تعجبت ماريا من لطف رملة وسؤالها. أجابتها دون أن تنظر إليها:

- لا شيء.. فقط أشعرُ بالإعياء.

لاحظت رملة الأسى في نبرتها. سألتها:

- هل أُرسل للقابلة لتفحصك؟

- لا ، أنا بخير، لقد زارني عمي الطبيب كاراس أمس..
تريثت رملة لبرهةٍ، ثم قالت لها:

- أظن أمر سَودان يُقلقك. ولكن هكذا هم الرجال، لا يثبتون على حالٍ. أحيانًا نجدهم كأطفالٍ صغارٍ بحاجةٍ للاحتواء، وأحيانًا يُشعروننا أننا لا نعرفهم بالقدر الكافي، وأحيانا يقتربون، وأخرى نفتقدهم. دومًا هناك ما يُخفون عنا، ويحتفظون بما يشغل عقولهم لأنفسهم. هم بئرٌ عميقةٌ لا يصل إليها دلونا إلا حينما يُقررون. لم يتغير عليك يا ماريا، فهو يحبك، فقط امنحيه الوقت، فأمورُ الإمارة والرعية تُذهب العقل في بعض الأحيان.. ولكنهم يعودون..

ابتسمت ماريا، حين أمسكت رملة بيديها وهي تستطرد:

- أعلم أنك تستغربين كلامي، ولكنني لا أحملُ لك سوى المودة. إننا نقتسم حياةً واحدةً، فإن لم نهتم لأمر بعضنا البعض، لن يكون هناك خيرٌ بين أبنائنا من بعدنا، والأكثر من هذا، أن سَودان قد يزهد وجودنا.

قالت جملتها الأخيرة بخفوتٍ، جعل ماريا تبتسم أكثر. ومن بعيدٍ، كانت فيولا تُتابع ضحكاتهما وحديثهما الخافت، وعقلها يرسم قصورًا ذات أبراج من ورودٍ وريحانٍ، فقريبًا ستصير أميرةً مثلهما، وستحظى بالعديد من الخادمات يسهرن على خدمتها ورعايتها. لكنها استيقظت من أحلام يقظتها، حينما رأته يعبر ساحة القصبة، واضطربت حين رفع رأسه نحوها وابتسم، كيوم رآها مع إليساندرو في حارة الصقالبة.

****

نضطرُ في بعض الأحيان أن نذهب إلى حيث نتألم. ذكرى الجُرح تظل عالقةً رغم كل شيء. البوابات الحديدية والأبراج الشامخة تذكرنا بضآلتنا أمام من يسكنون ذلك المكانِ، ويُغلق الجرح بخيوطٍ من بُغضٍ ينمو كشجرٍ متسلقٍ يُغطي قلوبنا ويُغلف صدورنا، لتصبح صلدةً، وتمنع ذرات الأمل والعطف من الولوج إلى القلب. إنه يعود إلى ذلك المكان حاملًا رسالةً من الشخص الذي جعله يرى الحقائق مرةً أخرى. شهورٌ مضت منذ لقائه الأخير برملة، عَلم بعدها بحملها وسعادتها، فألسنة من يُصادفهم من القصر لا تكف عن الحديث ونقل الأخبار. تجارته تنامت، وزيارات إليساندرو له تعددت، وصار يبثُ لها بعد أن منحه ذلك الأخير سعادةً بالغةً حين أخبره أن سرايا قسورة لن تعودَ مرةً أخرى. تمنى حينها أن ينالَ أهلُ باري ما أصاب الآخرين، وها هو ذا يعود إلى المدينة حاملًا في صدره رسالةً إلى

وصيفة الأميرة، كما كلفه النبيل الرومي.

كان الجميعُ يُعاملونه بلطفٍ وترحابٍ، فالأميرة أسرَّت ما بدر منه، وهو فسر ذلك بما يُريحه، لتنبت بذور شوق سبق أن وأدها قبل أن تبرز براعمها. حين اقترب من أسوار القصر، رأى فيولا تقفُ بالقرب من السورِ، فابتسم لها، وبإشارةٍ خفيةٍ من يده فهمت أن عليها أن تتبعه إلى الأروقة الغربية من القصر. كانت تُمسك بتلابيب ثوبها ترفعه عن الأرض لتتحرك أسرع. توقفت وأنفاسها تتلاحق خوفًا، حين وجدته ينتظرها، ووهج النهار ينبعثُ من نافذةٍ خلفه ليغمر ظهره، مما منحه غموضًا أثار ريبتها. لم تلحظ ابتسامته، ولكن نبرة صوته جعلته أشبه بشيطان.

- فتاة مطيعة أنتِ يا فيولا..

- ماذا تريد يا ماركو؟

- أنا! لا أريد منك شيئًا، فقط أحمل لك رسالةً من السيد إليساندرو.

أصابت جسدها رجفةٌ، وحدقت في وجهه دون أن تنطقَ، وهو يُكمل حديثه ساخرًا:

- يبدو أنه يشتاقُ للأيام الخوالي معك. في الحقيقة، لا ألومك على هجران ذلك الجُحر الذي كنتِ تعيشين به، إلى رحابِ قصور العرب هنا في باري. ولكن ما لا تعرفينه، أن الخادم هنا سيظل خادمًا أبد الدهر، فأنت بالنسبة لهم جسدُ جاريةٍ، يتمتع به أحدُهم في الليالي الباردة أو الحارة، ويملكون بيعه أو التنازل عنه لآخرين.

- لا أعرف عن ماذا تتحدث.

ألقت كلماتها، وهَمَّت بالرحيل، ولكن ضحكاته أوقفتها، التفتت إليه.. كان تجسدًا للشر وهو يقتربُ منها وصوته الذي يُشبه الفحيح يخترق سمعها:

- الصهباوات دومًا كاذبات.. بل كل بنات حواء كذلك..

مرَّر أصابعه على يدها، وأخذ يُحركها على ثوبها الحريري، حتى صارت يداه على كتفيها، ورأسه يقترب من رأسها. أخذ يتشمم عطرها، قبل أن يعض حلمة أذنها اليمنى ويهمسُ:

- لكل شيء ثمنٌ. إن كنت تريدين أن أتركك وأنسى حديث إليساندرو.. فقط أطيعي قولي ولن تندمي..

انتابها الهلعُ، بينما كان يتلذذ برؤية عينيْها تفيضان بالخوف منه، وشفتاها ترتعدان وهي تسأله في خفوتٍ:

- إن منحتك ما تُريد.. لن أرى وجهك مرةً أخرى.

لفحت أنفاسُه عنقها وهو يقول:

- ألم أقل لك إنك فتاةٌ مطيعةٌ.

لم يكن أمامها بدٌّ من مجاراته. أقسمت في قرارة نفسها أن تقتله، أو ستجعل شرحبيل يقوم بهذا عنها، ولكن عليها أن تهرب من هذا المأزق مهما كان الثمن. امتدت يدها إلى ردائه، ومن ثم إلى ما

بين ساقيْه؛ ولكن سرعان ما انتشلت يدها في سرعةٍ وجحظت عيناها. دفعته وضحكاته تترددُ في الرواق، غير مبالٍ إن سمعه أحدٌ. تراجعت بضع خطواتٍ وهو يقول لها:

- لم أظن أنك بهذا الغباء.. لا أريد ما جال ببالك أبدًا. أنت فتاةٌ وضيعةٌ يا فيولا.. ما أريده ليس تلك الشهوات الدنيئة، رغم أني لا أتردد في مضاجعتك بيدي، أو بمقبض خنجري إن أردت.. ولكني لا أشتهي النساء.. ولا الرجال في الحقيقة.

- فماذا تُريد مني؟!

- هوِّني على نفسك يا جميلتي .. ما أريده هو أن تقتلي رملة.. وربما سَودان.. وبعدها الأمرُ لك أن تعودي إلى أخيك إليساندرو، أو تبقي في القصر. الأمر يعودُ لك، لا أستطيع إجبارك على شيء كهذا.

****

اجتمعَ الرجالُ في منزل سُليمان الصقلي. جاءوا فُرادى بعد صلاة العشاءِ، وكان أولُ الحاضرين الفقيه ابن هشام، تبعه الأغلبي، وأميرا برنديزي وأوترانت. تبادلوا كلماتٍ جافةً، في مجلسٍ طال صمتُه في انتظار شرحبيل، الذي أوجعته كلماتُ الأغلبي يوم علم بمعاشرته للوصيفة الرومية..

إنه قادمٌ ..

قالها ابنُ زيان أمير أوترانتو، وهو ينظرُ من النافذة. وعلى ضوء المشعل، رأوه يترجل عن جوادٍ أحمر. قال الأغلبي:

- كنتُ أعلم أن شرحبيل سيأتي.

دخل دون أن يُلقي كلمةً واحدةً، متجهم الوجه، يجولُ بنظراته في وجوههم جميعًا. لحظاتٌ مرَّت، قبل أن يسألَ عن قسورة، فأجابه الأغلبي أنه فشل في إقناعه واستمالته لصفهم، ولكن ما زال هناك وقتٌ كافٍ لإقناعه. تبادلوا نظراتٍ صامتةً دامت لوقتٍ طويلٍ، قبل أن يُقرر العجوزُ ابن هشام البدء:

- ما اجتمعنا هنا إلا من أجل الله وأمتنا.. ويعلم الله أننا لا نُضمر للأمير سَودان شرًّا.. بل خيرًا لنا وله، إذ لم يعد بوسعه مواصلة المسير فيما سيُحاسبه الله عليه. لم يتحرك حين خسرنا بضعًا من المدن والقرى، ولا يأبه سوى بملذاته التي انغمس فيها، وأخذ يتعللُ برفع قواعد البناء في المدن. ولكننا إمارةُ حربٍ، هكذا يُوصف حالُ أهل الثغور ممن هم على شاكلتنا. إن اجتماعنا هذا ينقصه العديدُ من القادة، وربما اختار أحدهم المكوث إلى جوار سَودان.. أعني بكلامي قسورة التميمي وقيس القيرواني، لم يُلبيا طلب الأغلبي في الحضور..

قال شرحبيل بغلظةٍ وهو يتطلع بوجه الفقيه ابن هشام:

- ماذا عن أبي المغوار؟

أجاب الأغلبي بصوتهِ الأجشِّ:

- لن نُشركه في الأمر.. فكما تعلمون أن القاضي يتخذ من سَودان ولدًا، وسيعدنا بمثابة خوارج. لم

ننس ماضي الرجل في التصدي لمن حاولوا الإطاحة بالأمير خلفون يومًا.

بهدوءٍ غير معتادٍ في نبرات شرحبيل، حدَّث الأغلبي:

- وما مصير السلطان سَودان وعائلته وكل من يقف إلى جواره؟ أستقتلونهم وتعلقون رؤوسهم على أسوار القصبة؟!!

رد سليمان الصقلي في الحال:

- تتحدث وكأنك لن تكون معنا يا شرحبيل.

- لقد جئتُ لأستمع فقط. ولن أتخذ أي قرار، حتى أعرف كامل خطتكم.

قال ابن هشام وقد تجلت في صوته سخريةٌ واضحةٌ:

- لمَ جئت إذن بجوادٍ غير حصانك؟ نحن مُشاركون في الأمر جميعًا يا صاحبَ الشرطة، ولن نتراجع عن قرارنا إلا إن حال بيننا وبينه الموت.

اعتدل شرحبيل في مقعده قائلًا بلهجةٍ قويةٍ:

- لن يمس الموتُ سَودان والذين معه.. وقبل أي حديثٍ عن قراراتكم وخططكم، أريد معرفة لمن سيؤول الأمر من بعده.. هل اخترتم أحدكم للإمارة، وجدتموه أصلح منه؟

تبادلوا جميعًا النظراتِ، قبل أن ينهض ابنُ زيان أمير أوترانتو ليقول:

- إن كنا قبلنا الأمر، فلأن سَودان استأثر بالملك ولم يعد للشورى وجودٌ. فلن يكون الأمر بعده إلا شورى بيننا..

أشار شرحبيل للأغلبي:

- ماذا عنك يا أبا عبد الله؟.. لم أسمع لك رأيًا، وأنت مَن قلَّبت القلوب ووضعت الأمر بين أيدينا؟

توجهت الأبصار إلى محمد بن الأغلبي، الذي عبث بلحيته قائلًا:

- والله ما أريد ملكًا ولا جاهًا.. ولا أفرضُ عليكم أمرًا تكرهونه. إنما الأمرُ شورى، وإن اخترتموني سأقول لا أريدها.. فلتجمع الآراء الآن، وتختاروا أحدَكم ليخلف سَودان.. وإن اختياري وبيعتي لقسورة.

بُهتوا جميعًا من اختياره، وقال سليمان الصقلي:

- إنه ليس معنا.. كيف هذا؟

قال الأغلبي:

- لا أحد جديرٌ بالقيادة سوى أمير الحرب.. وأعرف أن شرحبيل قادرٌ على إقناعه.

رمقه شرحبيل وقد عقد حاجبيْه:

- امنحوني ثلاثة أيام، حتى أنظر في الأمر، قبل أن أخبركم بما أصل إليه.

ألقى كلماته، ونهض منصرفًا، حين جاءه صوتُ سليمان الصقلي:

- سنكونُ بحاجة لقسورة التميمي، كما نحن بحاجةٍ إليك يا شرحبيل، فتحت إمرة كليكما أكثر عددٍ من جند المدينة.. حتى لا تُراق الكثير من الدماء.

التفت شرحبيل مبتسمًا :

- لكم ما تريدون.. ولكن إن كان الأمر كما تنوون، فالدماء لا بد أن تُسال.

تطلع إليه الأغلبي بحزمٍ:

- لا دماء ستُسفك.. لا دماء.

ظل شرحبيل ينظرُ إليه لبرهةٍ، ثم ابتسم، وتركهم.

****

خرجت فيولا من غرفة ماريا، بعد أن ساعدتها في ارتداءِ ملابسها، فقد صارت الأميرةُ مضطربةً بشهورِ الحمل الأخيرة الصعبة، مع الحزن الذي أصابها جراء انشغال سَودان ببناء المرفأ الجديد. اتجهتَ إلى المطبخ الكبير، حيث يُعد الطهاة طعام الأمراء، فاطمأنت على إعدادِ الطعام، ثم خرجت تتمشى وحدها وعلى وجهها بدا القلقُ فشرحبيل غائبٌ منذ الأمس، وهي تحتاجُ لأن تُخبره عن ذلك الخصيِّ اللعين، ليُخلِصها منه. إنها ليستٍ بقاتلةٍ؛ المسيحُ يُبغض القتلة ويحرمهم من الملكوت، قد تكون خاطئةً ومذنبةً، ولكنها ليست قاتلةً بالتأكيد.

ارتدت نقابها وحملت سلة تفاح، وتسللت إلى خارج القصبة. عبرت الطريقَ إلى حارات باري، باتجاه منزل صاحب الشرطة، يقودها الشوقُ أو الخوفُ لا تدري، ولكن عليها الحديثُ إليه مهما كلف الأمر. اطمأنت ألا أحد يتبعها، بعد أن اندسَّت وسط زحام السوق. شعرت كمن تعرفُ نفسها لأول مرة. إن كان هناك من يجب أن يموت، فهو ذلك الذي يقف أمام أحلامنا.. ماركو الخصي. فتحت الباب بمفتاحٍ كان قد أعطاها إياه شرحبيل، وبحثت عنه بكل الغرف، فألقت بجسدها على فراشه وراحت تتحسسُ الوسادة لعلها تعوضُ غيابه المفاجئ، ودوامة الحيرة تتسع حتى تكاد تبتلع روحها.

الصداقةُ.. الأخوة.. الحب، كلها شيءٌ تجرفها الخيانة. لم يحضر قسورة اجتماع الأغلبي، ولا يعرف ما دار به. استلقى بفراشه مغمضَ العينيْن، يتصببُ عرقًا، لا يعلم أهو بسبب الحر، أم ذلك المأزق الذي وضعه فيه الأغلبي. لن يشترك فيما يُخططون له، لن يخونَ سَودان حتى لو وقف أمامهم جميعًا. اعتدل جالسًا، وأخذ سيفه ذا المقبض المرصع بالزجاج الملون، والتقط حجر الصقل من أسفل سريره، وأخذ يصقل السيف البرَّاق، يمحو انعكاس صورته ولحيته الكثة عن النصل. توترت أصابعه على المقبض، حين سمع صهيلًا يأتي من أسفل البرج. بخفةٍ، كان يقف خلف ستائر النافذة، فرأى

شرحبيل يترجَّل عن فرسه. ما الذي جاء به إلى هنا؟ تمتم بها وهو يضع سيفه بالغمد ويرتدي قميصًا من كتانٍ مصبوغ بالأسود كلون شعره. لم تمض دقائق، حتى صار شرحبيل ببابه، فخرج لاستقبال ضيفه بترحابٍ حارٍّ. وقف شرحبيل بالشرفةِ الكبيرةِ:

- أحسدك على هذا المشهدِ الخلاب.

ابتسم قسورة:

- الرؤيةُ من علٍ تمنحك إلمامًا ليس لمن بالأسفل.

كان يتذكر حديث الأغلبي، وقد عادت عواصفُ الحيرة تضربُ رأسه مرةً أخرى. هل يُفصح لصاحبه عما تم أم يصمت؟ انتشله صوتُ شرحبيل من جموده:

- ما بك يا قسورة؟

- لا شيء، أنا فقط مُتعب..

- جميعنا نشعرُ بالتعب، وصار الأرق مَلك ليالي باري.

مدَّ قسورة يده بكأسٍ تحوي شراب فاكهة. أخذه شرحبيل مستطردًا:

- ما جئتُ إليك إلا لأستشيرك فيما عرضه عليك الأغلبي.. إن الناس قد جمعوا أمرهم، ولن يردعهم أحدٌ عما يُخططون له. أخاف أن نفترق ويذهب ريحُنا، وحدك أنت يا قسورة مَن تملك أمن سَودان هو وأسرته..

- أنت معهم إذن يا شرحبيل؟

- لا تحكم عليَّ يا صاحبي .استمع لقولي، وبعدها لك الخيار.. أخاف أن يغدر أحدُهم بسَودان..

- وما جئتَ أنت إلا لطلب الغدر.

- لا تُقاطعني، فالأمرُ لا يحتمل الجدل. إن لم ننضم لهم، لا ندري ما قد يحدث لنا ولا لسَودان أو لباري كلها.. انضمامنا لهم سيجعلنا نؤمِّن خروج سَودان وعائلته بسلامٍ من المدينة..

- أنت أعلم الناس بسَودان يا شرحبيل. أتعجَّب مما ترونه صوابًا وهو في قراره خاطئٌ..

- إنه يُهدد بقاءنا على هذه الأرض. انظر حولك يا قسورة، ما خُلقنا لنجلس في قصورٍ نُداعب أثداء النساء. ليس هذا ما جئنا هنا لأجله.

- وهل الخيانة هي ما جئنا لأجله؟ لا يا شرحبيل. لا يستحق سَودان الخيانة، ولا يستحق أحدُهم أن يكون محله.

- إنهم سيفعلونها دوننا لو تحتم.. واجبُنا أن نُخرجه سالمًا، وبعدها نرى ما سيحدث. إن كنتَ تُحب سَودان عليك أن تنضم معي إليهم.

- لا أحب ابن هشام وذاك الصقلي سليمان..

- إن ما يقوله الأغلبي صوابٌ، وإن كان السبيلُ خاطئًا، ولكن علينا المضي قدمًا. أريدك في ظهري، وحدك من تستطيع عزل القصبة عن المدينة، فيتم الأمرُ كما نُريد نحن وليس هم..

- أنت صاحبُ الشرطة يا شرحبيل، وأنا قائدُ الجيش.. باستطاعتنا إيقاف الأمر.

- نعم نستطيع ذلك، ولكن لا أعلم كم عددُ الموالين لهم. لا أعلم إن كان هناك أشخاصٌ قادرون على النفاذ إلى القصر وقتل سَودان ومن معه.

رحل شرحبيل تاركًا قسورة يُصارع عقله، بينما تأرجح قلبه بين حديث الأغلبي والحوار الأخير مع صاحب الشرطة، الذي اتخذ طريقه إلى باري، واثقًا أن أمير الحرب سينضم إليهم. عاد شرحبيل إلى منزله بباري، ليجدها تُلقى بجسدها بين ذراعيْه. تفاجأ من وجودها في هذه الساعة من النهار. احتضنته بقوةٍ وهي تسأله:

- توحشتك..

صفقت البابَ بقدمها، وتركت شفتيْها تقتلعان القلق والروع عن نفسه.

****

مع رياح الخريفِ الباردةِ، تواترتِ الأخبارُ من الجنوب. أسطول باري يَهزم البنادقة من جديدٍ بالقرب من طارنت، ويأسر سفينةً بيزنطيةً عظيمةً. توالت الرسائلُ المباركة على الديوان، قرأها أبو المغوار على مسامع سَودان، الذي أمر بإرسال المزيد من الجند إلى الجنوب لدعم طارنت. رسالةٌ واحدةٌ وضعها القاضي جانبًا، انتظر حتى خلت القاعةُ من الجميع، وأعطاها لسَودان، ختمها الأحمر يحمل كلمة "غلب"، شعار الأغالبة. فتح سَودان الرسالة وقرأها في صمتٍ. اتسعت ابتسامته وهو يمد يده لأبي المغوار بها بعد أن أنهاها قائلًا:

- الأغالبة يسعون لدخول روما هذه المرة.

ابتهج الشيخُ وهو يُطالع الرسالة:

- إنها المحاولة الثالثة لهم وقد تكون هي الفاتحة.

- يجب أن نتواجد هناك، ونحظى بذلك الشرف معهم.

أومأ أبو المغوار برأسه موافقًا، وسَودان يستطرد:

- علينا أن نكون مستعدين لمثل هذه الغزوة. الآن فقط أستطيع أن أقول لك لما أرحتُ الجند في الفترة الماضية، رغم نقض بنفينتو للهدنة. كان علينا أن نلتمس بعض الراحة لما هو أكبر..

- لقد حققنا نصرًا مبينًا في الجنوب على سفن البندقية، ولكن سفننا ستظل في طارنت لفترةٍ، حتى يتم إصلاح ما أصابها جراء المعارك هناك. أتوقع أن يهجم البيزنطيون على طارنت مرةً أخرى، من أجل

سفنهم التي وقعت في الأسْر.

- ليسوا بهذا الغباء يا أبا المغوار.. فقط اجعل أميري برنديزي وأوترانتو يعودان إلى الجنوب للاستعداد لهجوم البيزنطيين، فسيضربون أضعف النقاط، والمدينتان بهما الكثير من الإنشاءات والثغرات.

غادر أبو المغوار القصر حاملًا الأمر للرجلين، المتآمريْن ضد سلطانهما، كان يعلمُ بكل ما يدور في منزل سليمان الصقلبي. كل القرارات وكل الأخبار كانت تصله. قاده حصانه بين غاباتِ الفكر، وقد قرَّر إفشال ما يمكرون، وأن يُواجههم. رحى تدورُ وتعودُ لنفس النقطة، ففي خلفون، ومن بعده مفرق، والآن سَودان، وكأن الخيانة علقت بطين آدم فأورثها ذريته. عرج إلى منزله، حيث كان كاراس يُعد الغداء هو والفتى ابن الأغلبي. رأى فيه صورة سَودان الصغير، وتحسَّر أن أباه كان أعز صديق. اغتسل العجوز، وبدَّل ثيابه، وخرج من المنزل دون أن يُشاركهما الطعام.

في فناء منزل سليمان الصقلي، وقف أبو المغوار وحده، دون حرسٍ أو سيفٍ، يلتحف بردةً بنيةً فوق جلبابٍ أبيض، مبتسمًا . نزل قسورة الدرج، وعلى وجهه ابتسامةٌ باهتةٌ، حاول أن يُخفي بها توتره. لم تنزِل عين أبي المغوار عنه، وهو يقطع الفناء قادمًا إليه.

- كنتُ أعلم أن عينك الواحدة ترى كل شبرٍ في المدينة يا أبا المغوار، وأن البصاصين في أيامنا هذه أكثر مما كنتُ أتوقع في الحقيقة.

فتح أبو المغوار ذراعيْه على اتساعهما في زهوٍ:

- هذه مدينتي..

توقف قسورة أمامه وقد خفت صوته قليلًا:

- هل نذهبُ من هنا، ونتجه لأي مكانٍ تُحبه في مدينتك؟

وضع يده على كتف قسورة:

- ألا تُريد أن يسمع من بالداخل حديثنا؟

أومأ قسورة قائلًا:

- من الأفضل أن نكون وحدنا لنتفاوض.

مضى الرجلان ناحية السفح المطل على خليج الصيد، وتوقفا قرب الحافة وهما يُتابعان حركة الناس وانهماك الصيادين بشباكهم، والمزيد من القوارب تعود أدراجها قبل المغيب. راحوا يُفرغون السمك في سلالٍ كبيرةٍ يحملها الباعةُ إلى السوق، وأبو المغوار يهز رأسه ويبتسم..

- أتعرفُ يا قسورة أن قرارًا خاطئًا تتخذه، قد يُودي بحياة المئات، وستُصبح وقتها مسؤولًا أمام نفسك وأمام الله. ما تفعلونه قد يُطيح برقابكم جميعًا، بينما جيوشُ المسلمين تحتاجكم. أنت واثقٌ أن الصواب لجانبكم، فهل فكرتَ لحظةً ماذا إذا كنتَ أنت ورفاقك المخطئين؟

تابع قسورة أسرابًا من طيرٍ مهاجرٍ يُبحر في السماء الزرقاء، وهو يُفكر في المواجهة التي لم يختر موعدها. حان الوقت لتخييرٍ أبي المغوار بين الفريقين، إما قادة باري أو سَودان. نطق بلهجةٍ رسميةٍ، دون أن ينظر إليه:

- سيدي القاضي، أرى ألا مفر مما هو محتومٌ.. وعليك أن تُقرر إلى أي جانبٍ أنت..

تقدم أبو المغوار بضع خطواتٍ، حتى صار يسند كلتيْ يديْه على سور الحافة:

- هكذا باتت الأمورُ إذن! اسمع يا فتى.. إن الحق طريقه واحدٌ، لا لوع فيه، ومَن عليه أن يختار الجانب أنت، لا أنا..

كانت كلماتُه صارمةً مقتضبةً، أثارت التوتر في قلب قسورة. أكمل القاضي:

- أعلم أنك رفضت في اجتماعك الأخير مقترحًا من سليمان الصقلي بقتل الأمير سَودان.

اتسعت عينا قسورة.. أهناك خائنٌ بينهم ينقل الأخبار للعجوز؟!

- عليك أن تختار بين ما يجب عليك فعله، وما عليك دفنه يا قسورة. الواجبُ يحتم علينا دومًا إزاحة العواطف من أجل مصلحةٍ عامةٍ، وكما قلت لك، الحق طريقه واحدٌ.. استفتِ قلبك. ولكن أي فعل سنتخذه الآن، سيترتب عليه إما إكمال المسير، أو التوقف للأبد..

عقد قسورة حاجبيْه:

- ماذا تقصد بالتوقف للأبد؟

- أقدر موقفك الرافض لخيانة وقتل سَودان، وأدري أن أغلبكم مصلحون. ولكن قد يشغل ذهن المُصلح إزالة الشر؛ فيغفل عن تقدير الذي يَحلُّ بعد زواله، فإن كان أكثر شرًّا منه، فذلك العمل فسادٌ في صورة إصلاح. وأعلمِ جيدًا أن أفعال سَودان قد باتت في دربٍ غير درب الآباء والأجداد، ولكن لا تخن بيعته يا قسورة. لا تُلقِ بالإمارة إلى الهلاك، فصاحبك نبيلٌ وصادقٌ، وقريبًا ستحشد الجيش للتوجه إلى روما معه. وأما ما ستفعلونه أنت ومن معك، فسيجعل كليكما لا تصلانها يومًا.
ربت على كتفه، وتنهد..
- هو صاحبك يا قسورة، فقوِّمه وانصحه قبل فوات الأوان. أعلم أن الرجال عازمون ولن يثنيهم سوى أن يعترفَ سَودان بخطئه. فإن لم يَعدل عما في رأسه، فلا تكن أنت فاعلها.. كنْ إلى جانبه!

كان حديث أبي المغوار غامضًا بعض الشيء، مما جعل قسورة يسأله مجددًا:

- أيُهزم الحق يا أبا المغوار؟

ابتسم أبو المغوار بثقةٍ وارتياحٍ:

- أبدًا.

- ألم يمت أصحابُ الأخدود ولم ينج منهم أحدٌ؟

- لقد انتصر الحق بموت صاحبه.. لم يُبدلوا وثبتوا، فروي أنهم انتصروا، وبقيت قصتهم.. وصار الناسُ يقولون لقد مات في هذا الأمر قومٌ لم يُبدلوا.

- وما الحق اليوم يا أبا المغوار؟

أشار العجوز للراية الخفاقة فوق البرج البحري للقصبة:

- ما كان عليه نبينا وصحبه.

- ألم يقتتل صحبه فيما بينهم؟

- كانوا بشرًا. لم يختلفوا في دينه، وإنما فتنتهم الدنيا.. ثم تابوا وأصلحوا فيما بينهم. انحازت لهم الدنيا، ولم يمض على هجرة النبي مائة عام، حتى بلغ ملك أمته المشرق والمغرب. علينا أن نُحافظ على الثغور الذي اخترنا أن نكون عليها.. علينا أن نوسِّع نفوذنا بحيث لا نهلك.. فإن انكسرت شوكتُنا، سنقبع في عصورٍ مظلمةٍ لعقودٍ لا يعلمها إلا الله. إن كنا سنعود حتمًا، هذا وعدٌ.. وفي الموقف الأخير، سنكون جميعًا بين مقربٍ وبعيدٍ، كل يبوءُ بإثمه.

همَّ بالرحيل، حين جاءه سؤالُ قسورة كخنجرٍ في ظهره:

- أيقتل الرجل صاحبه في سبيل الحق؟

توقفت قدماه عند حافة الدرج. ومضاتٌ سريعةٌ لماضٍ بعيدٍ، وذكرياتٌ لطالما أراد حذفها من عقله، ولكنها عَلقت به طوال سنين. كان عليه أن يُجيب، إجابةٌ صعبةٌ لم يجد لها مكانًا في أغوار صدره:

- الرجلُ لا يغدر بصاحبه.. حتى وإن كان الصاحب على خطأ.

****

(9)

أي بني.. إن الإنسان لم يُخلق للهوى، وإنما هُيئ لإدراك العواقب والنظر فيها. وإن كان رغد الحياة وهناؤها هما ما يملكان العقل، فلا فرق حينها بيننا وبين البهائم؛ فالبهيمة تُصيب من لذة النكاح والطعامِ والشراب، وما لا يناله ابن آدم من عيشٍ هني وفكرٍ خالٍ. وحين تُساق إلى النحرِ، تكون منهمكةً على شهواتها، لفقدانها العلم بالعواقب والنظر في الاختيارات. لقد كان هنا ملوكٌ كثيرون قبلك، أسماء عدة وألقابٌ كثيرةٌ.. رجالٌ حكموا، وأُحيطت مجالسهم بجوارٍ حسانٍ زيَّنهن الذهب

والفضة، وكانت مضاجعهن من حرير. ولكنهم تركوا كل الحب وراءهم ليقودوا أممهم إلى الشرف والواجب. هل تظن أنك مختلفٌ؟ لا أظن ذلك؛ فكل ما حُزت لم يكن بفعل السيف أو الرمح او العدل أو حتى حب الناس، لقد نلتَ ما نلتَ لأن الله أراد لك ذلك. تذكَّر دومًا يا سَودان أن من أعطاك السلطة هو الله، وله ما أعطى وله ما سيأخذ.

كلماتٌ تردد صداها بعقله، بينما عيناه تتابعان إبحار سفينةٍ كبيرةٍ أسدلت أشرعتها حالما خرجت من خليج باري، تبتعدُ رويدًا وعلى متنها أبو المغوار، الذي قرَّر الرحيل فجأةً. جاءه العجوزُ صباح اليوم، ليُخبره أن الوقتَ قد حان للمضي إلى مكة. إحساسٌ بالعجز أصاب سَودان، حين أدرك أن مَن تربى في كنفه يرحل. لم يستطع إثناءه عن المُضي، ولكن وجع الفُرقة دبَّ في قلبه. طمأنه أنه سيكونُ بخير، وأن سلامه مُبلغٌ في مدينة النبي. قال إنه سينزل إلى مصر، ومنها إلى المدينة، ومن ثم مكة، وإن كانت في العمر بقية سيزور بغداد ويقص على الخليفة العباسي عن ثغر باري وسلطانها. سيعود إليها إن بقيتْ له في الحياة حياةٌ. كان الوداعُ قاسيًا، ولكنها الحياة. رحل القاضي، وتركه وحيدًا يُبارز وساوس شيطان يُخبره أن العجوز تخلى عنه. ولكن الأمرَ ليس كذلك.. بالتأكيد ليس كذلك.

- سنفتقده جميعًا .

قالتها رملة الواقفة خلفه. صوتُها تخلل رياح الخريف بقلبه. حدثها دون أن يلتفت:

- لم أتوقع رؤيته يرحل هكذا.. لا أستيطع لومه؛ لقد فعل الكثير من أجل الجميع.. كل جدارٍ في باري يدين له.

- علينا أن نعذره. فالرجل- كما قلتَ- حمل الكثير من الأعباء، وعليه أن يستريح.

- أخشى ألا يتحمل مشقة الطريق إلى مكة.

- لقد تحمَّل الكثير لعقودٍ قضاها بين أسنة الرماح وصليل السيوف.. إنه أقوى منا جميعًا.

أشار ناحية البحر قائلًا:

- أنا أعرفه أكثر من أي شخصٍ آخر على هذه الأرض.. لطالما حلم بالشهادة والموت في سبيل الله. ما الذي أجبره على الرحيل؟

- الشوقُ لخلوةٍ ربما..

صمتت لبرهةٍ، لتقترب وتقف إلى جواره مستطردةً:

- أنت تستوحشُ غيابه.. أليس كذلك؟

- لقد كان أبًا لي، رُبيت في كنفه، ومنحني الكثير من العلم والعطف، وحظيت بغرفةٍ في منزله، وطبقٍ على مائدته بين بناته.. من الصعب أن أراه يرحل عني هكذا.

- إن الرحيل لا فرار منه.. مكتوبٌ قبل أن يَجف القلم وتُرفع الصحف. ما بالُ الأمهات يتركن الأبناء يرحلون يا سودان، ويربطن على قلوبهن. هوِّن على نفسك يا زوجي!

التفت إليها مبتسمًا:

- الحمل ثقيل يا رملة.

قالت بنبرةٍ قلقةٍ:

- أعلم أن هناك ما يُؤرق ليلك ويعصف بذهنك. حدثتني ماريا بأمر سهرك وخلوتك الدائمة.. كما أن لي عينيْن أرى بهما حالك الذي تبدل. لا تستهن بي يا سَودان، إن أردت أن تُفصح عن شيء، أو أن تسمع مشورة أمينة.

نظر في عينيْها السوداويْن طويلًا، وابتسم قائلًا:

- لا تقلقي يا رملة، سأتدبر الأمور، قبل أن أذهب إلى روما غازيًا.

- وأنا دومًا إلى جوارك.

وضع يده برفقٍ على بطنها المنتفخ:

- اسمع يا فتى ما تقوله أمك، واشهد على كلماتها..

- مَن قال لك إنه ذكرٌ؟

- لقد رأيتهما.

- رأيتهما!

- نعم رأيتُ فيما يرى النائم ولديَّ.. أحدهما ذو شعرٍ أسود كثيفٍ وعينيْن سوداويْن رائعتيْ الجمال كعينيْك.. والآخر أشقر له أنف وعينا ماريا.

صمت وتبدلت ملامحُه وهو يُرسل بصرَه إلى الأفق، حيث صارت السفينة نقطةً سوداء تكاد تختفي. ربتت على كتفه بحنانٍ:

- ماذا بك؟

- كان ثلاثتكم في جزيرةٍ محاطةٍ بالبحر من كل جانبٍ، وكنتُ بعيدًا عنكم بُعد السماء عن الأرض.

****

كان لرحيل أبي المغوار أثرٌ بالغٌ في نفوس الجميع، العامة والخاصة. قال إنه لربما يعودُ، ولكن أغلبهم شعروا أنهم لن يروه مرةً أخرى، فاجأ الخبرُ رجال الحصن الغربي، وعلى رأسهم قسورة، وجعله ذلك في حيرةٍ، فحواره الأخير مع الرجل ما زال يُؤرقه. لقد منحه حق الاختيار، ومن الواضح أنه لم يُخبر سَودان شيئًا، وإلا لكانوا جميعًا مُقيدين بالأصفاد في ركنٍ مظلم رطبٍ بالقصبة. صوابٌ أم خطأ؟.. ما بين الخير والشر مساحاتُ شكٍ، وإنما تُستفتى القلوبُ السليمة، ويتعين على العقول أن تجد الحقيقة. لم يكن حالُ محمد الأغلبي أفضل من قسورة. لقد وجد ابنه عبد الله يبكي غياب العجوز

في جوفِ الليل. سمع دعاءه الخافت بأن يحفظ الله القاضي الفقيه. كان لنحيبِ الفتى وابتهالهِ الصادقِ أثرٌ بالغٌ في نفسه، حتى إنه حاول اللحاق به عند مرسى السفن، ولكن الفُلك قد أبحرت. لوَّح له صائحًا:

أترحل دون أن تُخبرنا يا أبا المغوار؟!..

اكتفى العجوزُ بالصمت، وعلى وجهه كان الحزنُ واضحًا، وكان السكونُ قاتلًا الأغلبي.

نهض شرحبيل عن جسدِ فيولا، التي كانت في أوج حاجتها له. جذبت ذراعه ليعودَ إليها، لكنه جلس على طرف الفراش مُحدقًا في العدم، بينما احتضنت جسده وراحت تتحسس صدره هامسةً بأذنه:

- هل مللت مني، أم أن هناك ما يشغل بالك؟

أجابها بصوته الخَشن مبدلًا مجرى الحديث:

- كيف حالُ أروقة القصر ونسائه.. هل ما زال ذلك الخصي يتردد على جناح الأميرة رملة؟

توترت وتبدَّل لونُ وجهها مع ذِكره لماركو. حاولت أن تُفصح له عما طلبه منها، ولكن خرج صوتها خافتًا:

- إنه لا يقتربُ من مخادع الأميرات.. يخشى ذلك الحارس الضخم. منذ أيام جاء ومعه بعض الأقمشة لماريا، ولكنها كانت متوعكةً لم تقابله. إن وهن الحمل يكاد يسلب روحها، وصارت لا تُفارق الفراش إلا قليلًا، ويزورها السلطانُ بين الحين والآخر، فهو يقضي معظم وقته يتحدث مع الأميرة رملة، منذ أن رحل القاضي الكبير.

- ما زلتُ أتعجب من رحيله المفاجئ.

تمتم وهو يُحرك عنقه، الذي أصدر طرقعةً، جعلتها تدلك أكتافه ورقبته بلطفٍ قائلةً:

- لقد زار السلطان صباح اليوم الذي غادر فيه. مكث معه وقتًا، قبل أن يذهب للمرفأ.

- هل سمعتِ ما قالاه؟

- لا.. فقط رأيتُ الحزن على وجه سَودان وهو يُودعه، كما هو حال الأميرات وكاراس، وذلك الفتى الصغير ابن الأغلبي.

استدار ليُواجهها. تطلع إليها طويلًا، قبل أن يقول بصوتٍ أرعب نفسها:

- منذ اللحظة، عليك أن تعرفي ما يدورُ في أروقةِ القصر.. أريد منك أن تسمعي كل همساتهم، وتُراقبي كل تحركاتهم.. سَودان.. رملة.. ماريا، والقادة الزائرين..

قطَّبت حاجبيْها، وانقبض قلبُها، وسألته:

- هل هناك ما يُقلقك؟

- لا دخل لك.. فقط أطيعي أوامري، وستحصلين على النعيم.

نهض مغادرًا الغرفة، وهي تَتابع جسده العاري كتماثيل القدماء المكدسة شمال قريتها وبساحات روما. عشيقها القوي يُدبر أمرًا ما، أو يخشى شيئًا ما له عَلاقة بأبي المغوار وسَودان.

****

ليلٌ دامسٌ وأجواءٌ غائمةٌ تفرضُ السكون على المدينة التي تغط في نوم عميق، ودبيبُ حوافر حصانٍ يقتربُ من الأسوار جعل جند الحراسة يفيقون من غفوتهم. مشاعل إضافية أضاءت أبراج البوابة، وعلى ضوئها تفحَّص الحرسُ الفارس وأحدهم يُحدثه:

- من أين جئت؟

قال بصوتٍ متهدجٍ:

- من برنديزي.. معي رسالةٌ إلى السلطان لا تحتمل التأجيل.

- مَن أمير برنديزي؟

- مسلمة بن محمد القيسي..

أشار قائدُ الحرس لرجاله، فرُفعت البوابة الحديدية ليدلف. تفحصه الجند على ضوء المشاعل، وأحدهم يُناوله قِربة ماء:

- لقد كان طريقك طويلًا، ويبدو أن الأمر لا يحتمل التأجيل كما ذكرت.

- لا أريد ماء، فقط فليُرافقني أحدُكم إلى القصبة.

- على الأقل تناول بعض الماء!..

قاطعه الفارسُ:

- لقد سقطت أوترانتو بيد البيزنطيين يا رجل.

كلماتٌ مقتضبةٌ جعلت الجندي يُفلت القربة، فسقطت وتناثرت المياه تحت حوافر الجواد، الذي أحنى رأسه محاولًا لعقها، ولكن الفارس لكزه، فرفع رأسه مُطلقًا صهيلًا خافتًا، لم يكن كافيًا ليفيق الرجال من صدمتهم. لم يمض الكثير من الوقت، حتى كان الحصانُ يقف بساحة القصبة، بينما كان صاحبُه ينتظر بقاعة القصر الكبرى. انتظارٌ قصيرٌ، برز بعده سَودان بمدخل القاعة، بوجهٍ فرَّ منه النومُ. اقترب من الرجل، الذي خلع خوذته وخفض وجهه مُحييًا سَودان، الذي تجاهل تحيته وسأله مباشرة:

- هاتِ ما عندك!

تلعثم الرجل، وتوترت أصابعُه على خوذته:

- لقد سقطت أوترانتو منذ ثمانيةِ أيام. أسطولٌ بيزنطي من مائة سفينةٍ كان كافيًا ليهرب أميرُ المدينة ابن زيان ومعه مجموعةٌ كبيرةٌ من الجند.. أحرق المسجد الكبير، وقُتل جمعٌ غفيرٌ من المسلمين.

قطعَ أذانُ الفجر حديث الرجل ذي الوجه الشاحب، وقد بدا له السلطان كليثٍ حبيسٍ، راح يقطع القاعة جيئةً وذهابًا، حتى انتهى الأذان، فأشار للرجل ليُكمل حديثه:

- هذا كل ما أعرفه، وما قيل لي كي أخبرك مولاي.

- اتبعني!

باقتضابٍ قالها سَودان، وهو يمضي في طريقه لخارج القصر. تبعه الرجلِ إلى المسجد، وجلس إلى جواره بالصف الأول. تعجب الناس من تجهُّم سلطانهم، ولكن سرعان ما أُقيمت الصلاة. بعدما انتهوا، همَّ الكثيرُ منهم بالخروج من الجامع الكبير، ولكنهم توقفوا حين رأوا سَودان يرتقي درجات المنبر، فجلسوا مرةً أخرى وأعينهم معلقةٌ بسلطانهم، الذي جال بنظراته في وجوههم، حتى خفتت الهمهماتُ فلم تعد تسمع إلا همسًا. تحدَّث بصوتٍ قوي:

- كانت في القرون الماضية أممٌ مثلنا، حكموا مشارق الأرض ومغاربها، أسَّسوا المدن والمنازل العامرة؛ ما زالت أطلالها شاهدةً على ما صنعته أيديهم من مجدٍ. ظنوا أن لا أحد يقدر عليهم، وصار أمرُهم إلى ضعفٍ وفتور، فأصبحتْ لعدوهم صولةٌ وجولةٌ، وكان الجبنُ وضعفُ القلوب وحب الدنيا سببًا كافيًا لينهزموا. لقدْ فقدنا اليوم أوترانتو..

اتسعت أعينُ الناس، ونبرة صوته ترتفع أكثر:

- لقد كان للكفار يوم أحد صولةٌ.. وما يوم أوترانتو إلا كيوم أُحد، سيتبعه العزة والمجد. وإن أوترانتو راجعةٌ إلينا، وسنخوضُ حربنا حتى نصلَ إلى أسوارِ روما. حتى وإن فقدنا كل المدن وكل الثغور، سيأتي من بعدنا من يُكمل الطريق.. وإن الجبناء ومَن هربوا من القتال سينالهم منا عذابٌ أليمٌ. إن أوترانتو راجعةٌ إليكم بإيمانكم بأن النصر من الله وأن الخذلان من أنفسنا.

ارتفعت صيحاتُ الرجال الهادرة، حتى طارت الحمائم الساكنة بالمئذنة. ضجَّت شوارعُ باري بالتكبير، وتناقلت الأزقة حكايات أمير أوترانتو ابن زيان، الذي هرب مع مجموعةٍ كبيرةٍ من الجند، حين رأى مائة سفينةٍ بيزنطيةٍ تقتربُ من الشواطئ. لا أحد يعلم مصيره، ومن استطاع النجاة من المحرقة ذهب إلى طارنت وبرنديزي، التي لم تستطع نجدة أختها. وفي الطريقِ إلى القصبة، تقابل الأغلبي وشرحبيل، الذي بدا حانقًا بعد خطبة سَودان في الناس، وقراره بالذهاب لاستعادة أوترانتو. كان الزحامُ كثيفًا على طريق القصبة، فقد تهافت المتطوعة من أهل المدينة. أفسح الرجالُ الطريق للأميريْن، فمرا وراء الصفوف. بعد أن ترجَّلا عن حصانيْهما، والأغلبي يُحدث شرحبيل قائلًا:

- ذلك الغبي ابن زيان.. لمَ هرب وترك المدينة تسقط بيد البيزنطيين؟

ابتسم شرحبيل رغم أن الموقفَ لا يحتمل السخرية:

- خشي ألا يكون بين ظهورنا حين يتم الأمر. يبدو أنه يطمعُ في بعض الذهب، ومنصبٍ أعلى من مجرد أميرٍ على مدينةٍ لم يكتمل بناؤها.

دلفا معًا إلى القصر، والأغلبي يتمتم:

- كل شيء انقلب رأسًا على عقب، وأسطولنا ما زال في طارنت، يخضع للترميم بعد معركته الأخيرة

مع سفنِ البندقية. سأخبر قسورة وابن هشام وبقية الرجال أن نؤجل الأمر إلى ما بعد استعادة أوترانتو..

توقف شرحبيل وأمسك بكتفه:

- ماذا تقول؟ بهذه الطريقة ستمنح سَودان فرصةً ليحتشد الناسُ والقادة حوله.

- إن الأمرَ شورى بيننا، لا تنسَ هذا يا شرحبيل. ما زال مسلمة في برنديزي، ولا نستطيع أن..

قاطعة شرحبيل بعصبيةٍ:

- علينا المضي قدمًا مهما كلف الأمرُ.. لقد سقطت أوترانتو بسبب سَودان، أليس هذا ما ستقولونه في اجتماعكم القادم؟ دعني أوفر عليكم الوقت والكثير من الحديث..

- أنت تشقُّ الصف يا شرحبيل!

- لقد قُضي الأمر يا أغلبي.. لقد اشتركنا جميعًا فيما خططتَ أنت، فلا تتراجع الآن. سأبلغ قسورة بأن علينا المضي وعزل سَودان قبل فوات الأوان.

كلماتُه كانت كحجرٍ ثقيلٍ ألقاه على صدر الأغلبي. كان شرسًا هذه المرة. لقد تبدَّل شرحبيل عن ذي قبل. تابعه ببصره وهو يعبر باب القاعة، بينما تيبستْ قدماه ولم يستطع أن يخطو خطوة واحدة، حين رآه يقفُ خلف أحد الأعمدة. جفت الدماءُ في عروقه، وتصبَّب العَرقُ من جبينهِ، وابنه يُحدق بوجهه غير مُصدِّقٍ لما سمع.

****

قبل حلولِ المغيب، خرج من بوابات المدينة سبعمائة فارسٍ، وألفانِ من المشاةِ، بقيادة قيس القيرواني. كان اختيارُ الأخير ليقودَ الجيش للجنوب مفاجأةً مدويةً ضربت عقولَ الرجال، دون يجد أحدُهم فرصةً للاعتراض. قيس القيرواني، ذو الخمسين عامًا، كان ذا حنكةٍ، ويحظى بالكثير من التقديرِ بين الجند. همس سَودان بأذنه أمامهم جميعًا بشيءٍ لم يُدركوه، جعل الوجلَ يلتمسُ طريقه إلى قلبِ شرحبيل، فما إن انتهى اجتماعُ سَودان بهم حتى راح صاحبُ الشرطة يُخبر أصحابه أن عليهم الاجتماع في منزل الصقلي الليلة. انتظروا حتى ابتلعَ الظلامُ آخر أفراد الجيش المتوجه جنوبًا، وتتابعوا فُرادى إلى منزل سليمان، الذي أخفى قنينة خمرٍ شارفت على الانتهاء قبل مجيئهم..

كان الأغلبي آخر من حضر. دخل دون أن يُلقي السلام، مكتفيًا بإشارةٍ من يده لقسورة، الذي كان يجلسُ على طرف المائدة. تطلع بوجوههم جميعًا، قبل أن يسحب مقعدًا خشبيًا، ويجلس قبالة شرحبيل الذي كان يقذفُ إلى فمه حبَّاتٍ من عنبٍ تباعًا، وعلى وجههِ لا مبالاة بما يعتريهم جميعًا. نهض الفقيهُ ابنُ هشام متكئًا على عصاه الغليظةً، وراح يقطعُ الغرفة ضاربًا الأرضَ بها، وعينا شرحبيل الزرقاوان تتطلعان إلى حركته البطيئة. كانت طرقاتُ العصا كمطرقةٍ تُهشم عظام رؤوسهم لتسحقَ ما تبقى من عقولهم.

- توقفْ عن الضجيج أيها العجوز، لكأن ما ينقصنا هو دبيبُ عصاك!

نطق بها سليمان بفجاجةٍ جعلت قسورة يلتفت إليه:

- اختر كلماتك يا هذا..!

اعتدل الصقلي في جلسته، ونظر بوجهِ قسورة بتحدٍّ:

- وإلا ماذا؟

- كُفّا عن الشجار كالصبية، ولنجد سبيلًا للمأزق الذي وضعنا فيه الوضيعُ ابنُ زيان.

يبدو أن كلمات الأغلبي الأخيرة لم ترق لشرحبيل، الذي مطَّ شفتيْه بعد أن رمى بفمه آخر حبة عنبٍ بحوزته. رمقه الأغلبي قبل أن يستطرد حديثه:

- لقد سقطت أوترانتو بسبب تخاذلِ أحدنا، وإن استمرَّ الوضعُ هذا، فسنخسر كل شيء.

- سنستعيد أوترانتو يا أغلبي.. ألم تسمع ما قاله سلطانُك!

كانت كلماتُ شرحبيل مطعمةً بسخريةٍ واضحةٍ، جعلت قسورة ينزل عن طرفِ الطاولة متوجهًا بالحديثِ لصاحبِ الشرطة الساخر:

- شرحبيل.. أرى أنك صرتَ تمتلكُ بعضًا من حسِّ الدعابة في الآونة الأخيرة.. أهذه العاهرةُ الرومية هي السبب في ذلك؟

نهض شرحبيل غاضبًا، واقترب منه حتى تلامس صدراهما واختلطت أنفاسُهما. بنظراتٍ تحمل الكثير تواجها وشرحبيل يقولُ بصوتٍ أشبه بزئير تحذيرٍ لهرٍّ غاضبٍ:

- احذر غضبتي يا قسورة..!

تدخل ابنُ هشام في تلك اللحظة التي ابتسم فيها قسورة وهَمَّ شرحبيل بقول شيء آخر. صوتُ العجوز كان أسبق:

- لن نفترقَ الآن.. ليس وقتنا العصيب هذا بوقتِ الترهات والخلاف.. علينا البتُّ في أمرنا قبل فوات الأوان، فهناك عدوٌّ يتربصُ بنا، وأخبارٌ تأتي من الشمال أن جيش ذلك الملك الكارولنجي ما زال يحتشدُ قُرب ساليرنو، ولم يبق لنا سوى ليلتين لتنفيذ ما اجتمعنا من أجله. سنمضي فيما نحن عازمون، ولن نتراجع. لقد أصبح أمرُ وجودنا جميعًا على المحك، وسَودان ما زال يحظى بحب الناس، وقد رأيتم كيف هتفوا باسمه في المسجد الجامع. كلنا نشعر بالغضب والأسى حيال ما حدث في أوترانتو، ومن الجيد أن قيس القيرواني ذهب للجنوب، وأظن أنه لن يعودَ قريبًا، وهذه فرصة مناسبةٌ لإنهاء الأمر كما يجب..

توجَّه ببصره إلى شرحبيل:

- الأمرُ برمته صار بين يديْك. سيعزل رجالك القصبة عن المدينة مع انتصافِ الليل، وسيحدث ذلك بهدوءٍ، دون أن يشعرَ أحدٌ. وحين يأتي الصباحُ، سيكون سَودان وزوجتاه ومن يريد الذهاب معه على ظهر سفينةٍ تأخذهم إلى إقريطش.

- لن يُصدق العامة أن سلطانهم هرب وتركهم..

قالها الأغلبي مقاطعًا حديث العجوز، الذي استطرد بنبرةٍ لم تخل من الحكمة:

- فلنُخبرهم إذن أنه لحق بجيش قيس القيرواني. الأمرُ أيسر من أن نتوقف على اختيار كلماتنا للعامة. وإن كنتم تخشون الناس، فدعوني أخبرهم بطريقتي. سننفذ ليلة الجمعة، وفي الصباح سأرتقي المنبر وأخبر أهل المدينة بما يحيق بهم من خطرٍ، ونُعلن البيعة للأمير قسورة وينتهي الأمر. أهناك أي شيء تودون قوله.

جملته الأخيرة كانت موجهةً إلى قسورة تحديدًا. هكذا شعر، حين التقت عيناه بعينيْ العجوز، وسليمان يقول مازحًا:

- أرى أنك الأجدرُ يا ابن هشام.. ولكن أليس علينا أن ننتظر قدوم مسلمة من برنديزي؟

- لقد أرسلتُ لمسلمة بالفعل.. سيهتم بأمر قيس القيرواني، وسيساعده في استعادة ما سُلب منا. وأظنه شيئًا كافيًا ليفرح الناسُ وينسوا أمر سلطانهم المفقود.

انتهى اجتماعُهم، ومضى كلٌّ في سبيله. سار قسورة ممسكًا بلجام جواده إلى جوار الأغلبي الذي فضَّل الصمت. لا يقطع سكون الليل سوى خطواتهم وريحٌ راح يُبعثر أوراق الأشجار الجافة بالدرب. نجومُ الليل تزاحمتْ لرؤيتهما، وانتظرتْ طويلًا حتى بدأ أحدُهما بالحديث، كان قسورة:

- أخشى أن نغرقَ جميعًا بالوحل يا أغلبي!

تمتم محمد وهو يرفع رأسَه متطلعًا إلى السماء:

- لقد سمع عبد الله حديثي مع شرحبيل..

- ماذا؟!

بحروفٍ غُمست في بئر الأسى جاءت كلماتُ الأغلبي:

- لقد ثار الفتى عليَّ، وحمل كل أمتعته إلى منزلِ أبي المغوار، مُعلنًا أنه سيقف إلى جوار سَودان.. وإن تحتم عليه قتلي ليبقى السلطان حيًّا.

توقَّف قسورة عن السير:

- لم يعد شيء كما كان.. رحل أبو المغوار، وسقطت أوترانتو، وابنك يعلم بالأمر وغاضبٌ منك. يا أغلبي، كذلك سيفعل كل من كان له عقلٌ.. نحن أخطأنا يا أغلبي، علينا الاعترافُ بذلك. لم أعد أستطيع النظر في وجه سَودان، أخشى أنه يعلمُ شيئًا. لقد اختار قيس القيرواني، في سابقةٍ لم نعهدها..

- هل تظن أن أبا المغوار أخبره بأمرنا؟

- لقد منحنا العجوز حق الاختيار.. أحكم وثاقَ أرجلنا، وألقى بنا في خضمِّ البحر، لنا حرية الاستسلام للغرق، أو نحل وثاقنا فننجو.

بدا على وجه الأغلبي الحزنُ وهو يُتمتم:

- على الأقل تحدَّث معك.. لقد أوجعني رحيلُه دون أن يُخبرني بالأمر على الأقل. لو كان هنا ما سقطت أوترانتو..

- كان الرجالُ يخشونه.. والآن أمسى الأمرُ جنونيًّا. لا شك أن ابن هشام وشرحبيل والصقلي قد رسموا مستقبلهم منذ اللحظة الأولى لاجتماعنا.. سَودان لم يُخطئ بقدر خطئنا يا أغلبي.. ما زال هناك متسعٌ من الوقت للتفكير، وأتمنى أن نتحلى بقدرٍ من الشجاعة قبل المواجهة.

امتطى جواده القوي وهو يستطرد:

- اذهب وابحث عن ولدك يا أغلبي.. تحدَّث معه، لعل الفتى يملك خيارًا آخر لك ولنا.

****

قال الرب إن النساء كالكرْمة التي تُزهر في جوانب البيت، وبنوك مثل غروس الزيتون حول مائدتك. ماريا الصغيرة.. وهبها الرب إلى لورينزو، ملاكٌ أرسلت من الملكوت لتعوضه فقدان ابنته. وُلدت من النور، وباركتها يدُ البابا في روما. كانت مباركة كخالتها، لها عينان واسعتان زرقاوان ممتلئتان بالحياة، وجنتاها لا يُفارقهما اللونُ الوردي. ثمرة زواج مباركة بين كاترينا وإليساندرو، الذي لم يرها سوى مرةٍ واحدةٍ.

كانت الفتاةُ قرة عين جدها. صار عمرُها عامًا، لا يُفارقها، يُداعبها لتمنحه ضحكاتٍ تمده بالأمل في استمرار الحياة. تبقى إلى جواره طوال اليوم، باستثناء وقت رضاعتها، تُرضعها كاترينا ثم تمنحها إلى العجوز يُهدهدها حتى تغفو، فيجلس جوار فراشها يتطلع إلى وجهها الرائق. منذ أن عاد من روما، صار أكثر قربًا إلى الرب، دائم الحضور بالكنيسة، يتحاور مع الأب ليو، الذي كان لا ينفك عن لومه كلما جاء إليه، أن أرسل ابنته إلى الجنوب. يذكِّره دومًا أن الرب نهى عن زواج غير المؤمنين، وماريا اختارت طريق الإثم حين رحلت لتُلقي بجسدها بين ذراعيْ وثني. لم تكن كلماتُ القس ليو المكررة لتقنع لورينزو، الذي كان يحفظ عن ظهر قلب قول المسيح "إن ما جمعه الله لا يفرقه إنسان".. لقد اختارت ابنته طريقها، فأبدله الرب بمريم الصغيرة.

قُرب النافذة، جلست كاترينا تخيط ثوبًا للصغيرة. عقلها شاردٌ في زوجها الذي غاب كثيرًا هذه المرة. مضى ما يقرب من أربعة أشهر، منذ مرَّ بهم أثناء ذهابه إلى ساليرنو، قادمًا من باري كما أخبرها. تفتقده، وتُراودها ذكرى نابولي وطرقاتها. أيامُها متشابهةٌ، بين مساعدة إيلينا وإرضاع الطفلة التي استحوذ عليها العجوزُ لورينزو. فراشها باردٌ دونه، وأهل القرية يتناقلون أخبار حرب تفوح رائحتها مع المارين بالمكان. الليل يعمره ضجيجُ الحانة البعيدة، والنهار مرتعٌ لصخب العامة وأطفالهم، زهد الرجل الحياة، وصارت هي من تستلم منهم المزروعات والأموال، وتباشر عمل الفلاحين، وتمنح الهبات لعمال الحظيرة. صارت صلدةً قويةً، ويُحبها الجميعُ، عدا سباستيان ذي الضحكة المقيتة والأسنان الكريهة. اشتاقت لماريا ومسامرتها، ودومًا ما كان الليلُ ونقيقُ الضفادع ونباح الكلب

الأجرب يُذكرانها بليالٍ أوت فيها إلى حضن إليساندرو.

جلبةٌ بساحة القرية جعلتها تترك إبرتها وما كانت تصنع، وتلقي ببصرها من النافذة. رؤوسٌ لخيولٍ وراياتٌ برزت بين الأجساد المحتشدة. من خلفها، جاء صوتُ لورينزو متسائلًا عما يحدث، أجابته وهي تهرعُ إلى باب المنزل:

- يبدو أنهم جندٌ كارولنجيون بالساحة.. لقد ميزت رايتهم الزرقاء ذات الورود الثلاثية الذهبية وأخرى صفراء ينتصفها نسرٌ أسود ذو رأسين..

تبعها إلى الخارج، بينما كانت تُهرول يدفعها الأمل. رأته ينزلُ عن حصانه، وابتسامةٌ عريضةٌ على وجهه. لم تدر بنفسها إلا وهي تبكي بين ذراعيْه. ربت على ظهرها، وهي تُنهنه وتقول:

- ظننتك لن تعودَ أبدًا..

- لقد اشتقتُ إليك كاترينا.. واشتقتُ لابنتنا.

قطع حديثه وهو يتطلع إلى أبيه الذي كان يقفُ بالقرب منهما، وقاوم رغبته بالركض واحتضانه، فما زال قلبُه يحمل البغض لما فعله والده بروما. تأبطت كاترينا ذراعه، وصعد بها الربوة متجاوزًا أباه، لكنه انحنى يُقبل يد أمه التي تقفُ بباب المنزل تبكي لرؤيته. جذبته إلى صدرها، وانهالت عليه بالقُبل، بينما كان لورينزو يُراقبهما بنظراتٍ حزينةٍ والفتى يُحدث أمه:

- لن أمكث طويلًا، فقط جئتُ من أجل مهمةٍ كُلفت بها من الملك لويس.

شهقت أمه، وأبدت دهشةً ممزوجةً بسعادةٍ على وجهها:

- هل قابلتَ الملك وجالسته؟

رمق أباه بنظرةٍ ساخرةٍ:

- نعم يا أماه.. وهو مَن أرسلني لحشد الرجال للحرب.

عادت كاترينا حاملةً الصغيرة النائمة وهي تقول بأسى:

- لقد وعدتني ألا تذهب للحرب مرةً أخرى..

حمل عنها ابنته برفقٍ، وتطلع إليها، ثم طبع قُبلة على جبينها قبل أن يُحدث زوجته:

- الأمورُ تبدلت الآن، وقريبًا سنتوجه إلى باري. لن أعودَ إلا بماريا وفيولا.

تبدلت ملامحُ أبيه حين سمع جملته الأخيرة. لم يكن لورينزو يعلم أن ابنه صار يملك كل هذا النفوذ، وكل ذلك الحنق. صار إليساندرو شخصًا غير الذي يعرفه.. شخصًا لن يُوقفه شيء عن مسعاه.

****

الخِل الوفي، أسطورةٍ من وحي خيال رجلٍ صاحب ظله في هجير الصحراء، حين نفد طعامُه وشرابُه، لم يمنحه الظل سبيلًا للنجاة، وحين سقط على وجهه لم يبق له أثرٌ، بعد أن كان عَيانًا، فلم يكن وفاء الخليل سوى سرابٍ رافقه إلى الموت. "ليس من شيم الرجال الطعن من الخلف"، كلمةٌ حُفرت بقلب قسورة، الذي قبع في بئر اللوم طيلة الليل. أين كان عقله حين منح شَرحبيل فرصةً لإقناعه بخيانةٍ لا عُذر لها؟.. "الصاحب لا يغدر"، صوتُ أبي المغوار لم يُفارقه أيضًا، وكل ما بُني مُهددٌ بالدمار، ذكرى تتبعُ أخرى، ووجوهٌ عدةٌ لا تبرح الجِدار، شعيب.. سَودان.. قيس القيرواني كانت ملامحهم قاسيةً. نهض واضعًا رأسه بدلو الماء، علَّ برودته تُرطب عقله، الذي صار كقطعةٍ من جمر. الأمرُ يقوده إلى الجنون، والرجالُ عازمون على الإطاحة بالسلطان؛ صديقه، من حمى ظهره ورافقه خلال سنواتِ الحرب والسلم. لم يكن أحدٌ أقرب منه إلى سَودان سوى شعيب.. رحل شعيب وحمل هو على عاتقه حماية ماريا. إن كان هناك من يجب إلقاء اللوم عليه، فهو الذي أتى بها إلى باري. هو وحده من منح الآخرين سببًا لبُغض السلطان والتعلل بمكوثه إلى جانب نسائه. هو أيضًا له من الزوجات ثلاثٌ، يُعاملهن بودٍ ولطفٍ؛ ومن منهم لا يهتم لنسائه، ويُعطي شهوته حقها؟!.. لو أطاحوا بسَودان، فحتمًا سيكون الدورُ القادم عليه، فجزاء الخيانة خيانةٌ مماثلةٌ، وكل ديْنٍ يُسد مهما طال أو قصر العمرُ. نزل من برجه قبل المغيب، فتوجَّه إلى داره، فاستقبلته زوجاته بترحابٍ لا يخلو من قلقٍ على ما أصابه، إذ كان الإجهادُ جليًّا بوجهه. داعب الابنة الوحيدة بين ستةٍ من الذكور، قبل أن يخرج مرةً أخرى يتبعه الصغار. أفسح المجال لهم، ليروا كيف يُسرج جواده، ساعده ابنه البكر في شد الأحزمة، وما إن انتهى، أمرهم بالعودة للمنزل، مع وعدٍ أن يأتي لهم بالحلوى من باري. تطلعوا إليه بفرح حين امتطى جواده بقفزةٍ جعلت الفتاة تضحك.. لوَّح لهم بيده مبتسمًا، ثم لكز الفحل لينطلق إلى بَاب الحصن.

في الطريق إلى المدينة، قابل الطبيب كاراس وعبد الله بن الأغلبي، متجهين إلى الحصن. أخبراه أنهما ذاهبان لمعالجة طفلٍ بالحصن، فتمنى لهما التيسير، ومضى في طريقه إلى المدينة. طرقاتُ باري أضاءتها المشاعل والقناديل، والجند انتشروا بكل الزوايا والأزقة، في انتظار أوامر صاحب الشرطة. كل شيء يتهيأ لما سيحدثُ. كانت البوابة الكبيرة مفتوحةً على مصراعيْها، وظلالُ الأبراج كغيلانٍ عملاقةٍ تتوهج عيونُها بالنيران، ودورياتُ الجند تجوبُ الحديقة على غير العادة. ترجَّل، بعد أن أخذَ أحدُ الرجال بلجام حصانه، ووقف لحظاتٍ يتطلع إلى واجهة القصر وقناديله المتراصة على الأعمدة الرخامية. عدل عمامته، وشدَّ قامته، وسار باتجاه الباب، الذي فتح بعد أن حيَّاه الحارسان ذوا الرماح الطويلة. ترك كل الأعذار وما علق برأسه من وساوس خلفه، مستقبلًا نفحاتٍ من ماضٍ تشاركه مع صاحبه، وصوتُ عقله يُخبره أن الثوب الدنس عليه أن يُطهر. اتخذ القرار، ولن يتراجع عنه، حتى لو ضُرب عنقه. سيُخبر سَودان بكل شيء، ويطلب الصفح والغفران. لن يستطيع مواصلة الخيانة، ولا يقدر على أخذ مكانٍ لا يستحقه.. فيضٌ من الشجاعة تبخر، حين رأى سَودان يُوليه ظهره بمنتصف القاعة الكبرى. كان على بُعد خطواتٍ من اعترافه بخيانته لصاحبه، الذي تحدَّث دون أن يلتفتَ له:

- لقد جئت في الوقت المناسب يا أمير الحرب.. كنتُ أتذكر قبل أن يُخبرني الحارسُ بمجيئك تلك القصة التي أخبرنا بها أبو المغوار يومًا.. عن أسدٍ كان ربيبًا للذئاب.. تذكرها، أليس كذلك؟

استدار سَودان حين كانت إجابة قسورة الصمت. كان يرتدي حلةً سوداء أنيقةً مطرزةً بخيوطٍ فضيةٍ، والتف حول خصره حزامٌ جلدي عريضٌ تدلى منه الغمدُ، رأسه كُشط حديثًا لربما قبل سُويعاتٍ، عيناه الثاقبتان وابتسامته الواثقة بعثت في نفس قسورة هيبةً وخشيةً. من خلفه، كانت رايةُ باري الخضراء

تتدلى على الحائط فوق الكرسي الكبير، كان يتطلع إلى نقوشها البيضاء حين جاءه صوتَ سَودان مستطردًا:

- لم يشفع للأسد أن تربى بين القطيع. اعتبره أفرادُه دخيلًا عليهم. كان أكثرُهم شجاعةً وقوةً ومهارةً، فاستحق أن يصلَ إلى سُدة القيادة. ورغم أن الأسد وفَّر لهم الكثير من العون والأمن والطعام، إلا أنه كان في أعينهم غريبًا، ليس فقط لكونه أسدًا وهم ذئاب، بل لأنهم كانوا يخشونه، فحسبوا أنه قد يفتك بهم يومًا، إن جاع ولم يجد ما يأكله. أو أنه سوف يركن إلى الخمول، بينما يُخاطرون، ليأكل أولًا ويترك لهم البقايا، كما تعودت كل الذئاب من الأسود. ولكن هذا الأسد تربى بين القطيع، وترسخ بداخله أنه واحدٌ منهم. وفي قطيع الذئاب، لا يأكلُ الأخ شقيقه، بل يحمي ظهره ويُسانده في الصيد. يتقاسمان الطعام القليل في الشتاء البارد. تعلم كل هذا، ولكنهم لم يتعلموا.

ولكن دعنا من الحديث عن الحيواناتِ وقصص الأطفال تلك.. قلتُ لك قبل قليلٍ إنك جئت في الوقت المناسب. في الصباح، ستأخذ سريةً من رجالك وتتوجه إلى الشمال.. هناك أخبارٌ عن تجمعٍ جديدٍ قرب بنفينتو، على الأرجح معسكرٌ للدوقية، يحتشد فيها خيالة ومشاة.

جمح عقلُ قسورة، بينما أخذ سَودان في استكمال حديثه عن تحالفٍ بين الكارولنجيين والبيزنطيين. ولكن قسورة كان بعيدًا كل البعد عن مجرى الحديث، ومئات الأسئلة تغرس بصدره، ورأسه كدمية التدريب على الرمي. هل يُبعده سَودان عما سيحدث، أم أنه يحتاجُ عونه؟ لماذا تلك القصة القديمة؟ وإن كان ما زال يثق به، فلماذا ولى قيسٍ القيرواني قيادة الحرب جنوبًا؟ هل السلطان يعلمُ بأمر اجتماعهم عليه؟ ولكن حديثه الآن مختلفٌ.. غمضت عليه نفسُ صاحبه. هل يُخبره الآن عن خيانته، أم ينتظر حتى يُنهي السلطان حديثه. أفاق على وكز سَودان له:

- ما بك يا رجلٌ، ألم تسمع ما أقول؟

انتبه، فقال متلعثمًا:

- عفوًا أمير باري.. نعم سمعتُ كل ما قلته، وسأعود إلى الحصن وأجمع الرجال وأذهب في الحال.

- ما الذي جاء بك يا قسورة؟ يبدو أن الأمر مهم، أليس كذلك؟

شيء ما أطبق على لسانه، لم ينطق بما أراد قوله، بل وجد نفسه يقول:

- جئتُ لأخبرك بما أفصحت أنت به الآن.. إن الناس قد جمعوا أمرهم لحربنا، وسنتصدى لهم مهما كلف الأمرُ..

نظر سَودان في عينيْه وهو يُتمتم:

- أثقُ في ذلك.. كما أثقُ أنك ستقومُ بالصواب يا صَاحبي.

ابتسم قسورة لكلمة سَودان الأخيرة، وأومأ برأسهِ وهو يتمتم:

- سأمر ببيت الأغلبي قبل العودة إلى الحصن..

استدار سَودان ليغادر القاعة قائلًا:

- أخبره أن يستعد لحملتنا على روما، فالأغالبة يُجهزون الأساطيل للغزوة الكبرى. أعلمه أن ما زال في العمر دربٌ نخوضه بما تعاهدنا عليه يومًا.

غادر قسورة إلى منزل محمد الأغلبي، ليُخبره بما حدث، وليُخبره أن كل شيء خططوا له يجب أن يُلغى. ولكنِ الأغلبي لم يكن بالمنزل. أخبرته زوجتُه أنه خرج قبلِ المغيب ولم يعد. أثار الأمرُ قلقه، وراح يبحث عن الرجل في أرجاء المدينة، ولكن لا أثر له. حتى شَرحبيل اختفى هو الآخر. مرَّ بمنزل الفقيه ابن هشام، فاستقبله ابنُه بوجهٍ شاحبٍ. كان ابنُ هشام طريحَ الفراش، يُنازع مرضًا مفاجئًا، زائغ العينيْن لا يقوى على الحراك والحديث. هلع قسورة مما أصاب الرجل الذي كان مُعافى في الأمس. طلب أن يكون معه وحدهما، فخرج الابنُ تاركًا كليْهما.. أمسك قسورة يده برفقٍ، وقال بخفوتٍ:

- لا أعلم ما أصابك يا أبا رشيد، ولكني جئتُ لأخبرك أننا كنا مخطئون بشأن سَودان.

ترقرق الدمعُ بعينيْ العجوز، وقبضت يمينه على يد قسورة، الذي تابع:

- لن أتم الأمر. بحثتُ عن الأغلبي وشَرحبيل لأخبرهما بذلك، فلم أجدهما.. وسليمان الصقلي يجلسُ وحيدًا قرب البحر، سأخبره.. أظن أن الوقت حان لنعاود الاصطفاف مرةً أخرى، وإن الحق في تجمعنا والخذلان في تفرقنا. أعلم أنك قد راجعت نفسك مرارًا، ولا أدري ما أصابك.. وآملُ أن يكون قرارك هذه المرة صائبًا.

أجهش الرجلُ، وانساب الدمعُ من عينيْه ليروي تجاعيد وجهه. كان ضعيفًا، يفيضُ وجهُه بالحزن، والوجع يشتد به. أومأ برأسه لقسورة الذي ابتسم:

- حياتُنا زائلةٌ وأعمالنا باقيةٌ. أسأل الله أن يُريح صدرك ويعافيك مما أصابك. سأطلب الطبيب كاراس، لعل عنده ما يُخفف عنك، وسأمر مرةً أخرى على منزل الاغلبي وشرحبيل لعلي أجدهما. سأزورك إن شاء الله بعد عودتي من الحرب. نسيتُ أن أخبرك، لقد عقد لي سَودان اللواء، وسأذهب في الصباح إلى مشارف فوجيبا.

الظلامُ في منزل أبي المغوار هذه المرة، أخبره بأن كاراس لم يعد بعد. تأخر الوقتُ، ولا بد له من العودة إلى الحصن. سيُكلف أحد رجاله بالمجيء برسالته إلى شرحبيل والأغلبي المختفييْن. غادر المدينةَ النائمةَ، واتخذ طريق العودة. كان النسيم يُحرك الأغصان، والجواد يحث الخُطى على الدرب الرملي، وهلالٌ ضئيلٌ فرش الأرض بضوءٍ شحيح، لم يبدد عتمة الليل. انتصبت أذنُ الأكحل ودارت. شعر قسورة بتوتره، فربت على عنقه قائلًا: لا علَيك يا فتى.. إنها الرياحُ تعبثُ بالأشجار.

اجتاح كتفه الأيسر ألمٌ مفاجئٌ. سهمٌ قصيرٌ غليظٌ كان يستقر بكتفه، ففجَّر الدم، وصهل الجوادُ. لم ير مَن فعلها، فالظلامُ يُغرق كل شيء. سهمٌ آخر استقرَّ بصدره هذه المرة، فدارت الدنيا به، وهاج الجواد وأسقطه أرضًا غارقًا في دمائه. رأى حصانه يبتعدُ، وصوتُ دبيبه يرج الأرض، وشخصٌ يتشحُ بالظلام يقتربُ منه ممسكًا بقوسٍ قصيرٍ.. وأظلمت الدنيا.

****

بعد شروق الشمس، عاد محمد الاغلبي إلى منزله. ليلة طويلة قضاها بمسجد باري بين الصلاة والتفكر. كان يُحاول أن يجد سبيلًا لما هو مُقبلٌ عليه. رأى قبل أن يلج إلى الجامع تجهيزات الجند، الذين أخذوا فى الانتشار حول سور القصبة. سُويعات وينتهي كل شيء. نفسه تُحدثه أنها مجرد البداية. تذكر حديثه مع قسورة وخصام ابنه له. أيامه مع سَودان منذ أن رآه لأول مرة، غرٌّ صغيرٌ حظي بحب الناس والقيادة، لا يستحق كل هذا. وجد سيلًا من الأعذار لما هو مقبلٌ عليه، وأقنع نفسه أن ما كُتب سيكون. فتح الباب، ليجدَ امرأته تنتظره، والقلقُ بادٍ على وجهها، وهي تتفحصه سائلةً عن ليلته أين قضاها ومع مَن؟ تشممت ملابسه حين مرَّ إلى جوارها. تبعته وهي تصرخُ في الفتيات أن اصعدن إلى غرفكن أو اهتممن بفعل أي شيء. تبعته إلى الغرفة وقد زاد تجاهله عصبيتها، فأغلقت الباب خلفها وهي تُحدثه:

- أين كنت يا أبا عبد الله؟

شَرع في تبديل ملابسه وهو يتطلع إليها ببرودٍ، فعاودت السؤال مرةً أخرى. كان عليه أن يُجيبها حتى تصمت:

- لقد كنتُ بالمسجد يا رقية.. أرجو ألا يُوقظني أحدٌ حتى أستيقظ وحدي.

لم تشف الإجابة غليلها، هَمت بالحديث مرةً أخرى، ولكنه أوقفها بإشارةٍ من يده قائلًا:

- لا مزيد من الحديث.

- أنت لا تُبالي بقلقي عليك.. إن الأمير قسورة مرَّ علينا في جوف الليل مرتين. أليس هذا كافيًا لإشعال نيران القلق بداخلي؟

تمتم عاقدًا حاجبيْه:

- قسورة؟!!

- نعم.. كما أن ابنك عبد الله لم يأت للمنزل منذ أمس.. هل هناك ما تُخفيه عني؟

- هل قال قسورة أي شيء؟

حملقت بوجهه لبرهةٍ، واحتقن وجهها. لكأن حديثها عن ابنه لم يشغله!

- يقول لك إنه ألغى فكرة الخروج إلى الصيد..

تجاوزها متجهًا إلى باب الغرفة، فتبعته غاضبةً، وأخذت تتمتم بكلماتٍ مبهمةٍ. غسل وجهه بحوض الماء الذي يتوسط الفناء، ثم التقط حذاءه وصوتها يُداهم عقله:

- ألم تكن تنوي النوم؟! هل ستخرج مرةً أخرى؟

لم يكن في حالٍ يسمح له بحديثٍ وجدالٍ آخر. توجَّه إلى باب المنزل، وقبل أن يفتحه فُتح. كان عبد الله يقف أمامه مرتبكًا، وقد بدا على وجهه الاستغرابُ والقلقُ. رماه الأغلبي بنظرةٍ طويلةٍ، قبل أن يمضي في طريقه. ترك الفتى لينالَ قسطًا من الحديث المتواصل مع أمه القلقة، أما هو فأمامه طريقٌ طويلٌ

إلى الحصن الغربي، لمقابلة أمير الحرب.

عاد الجوادُ الأكحل دون صاحبه. حالةٌ من الهلع عمَّت بيت الأمير الغائب، زوجاته وأطفاله لا يكفون عن البكاء، والجند في حيرةٍ من أمرهم. استجوب الأغلبي من كانوا يقومون بالحراسة أثناء الليل، ولكن لا إجابة شافية حصل عليها. تفحص حوافر الجواد، ولم يُبال بتحية ماركو الذي مرَّ بجانبه جاذبًا بغلة محملة بالأقمشة. أربك وجودُ الأغلبي الناس جميعًا. أعطى أوامره لقائد الجند، ثم امتطى حصانه يتخذ طريق العودة إلى المدينة، يجر خلفه جبالًا من القلق. وعيناه تتفحصان جوانب الطريق، وبداخله يقينٌ أن قسورة أصابه مكروهٌ. توقف عند بقعةٍ مكتظةٍ بالحشائش المرتفعة على الجانبين. ترجَّل وراح يبحث بنظره في الأرض.. آثار حوافر الخيل كثيرةٌ ومختلطةٌ، ولكن هذه غائرةٌ، يبدو أنها للأكحل الفزع. توقف أمام قطراتٍ من دماء، وآثار أقدام عدةٍ. تحسَّس الثرى بأصابع مرتجفةٍ وعقله يُحاول تخيل ما حدث. . طال بحثه بين الآجام وجذوع الأشجار، ولكن لا شيء. عليه العودة لباري، ووقف كل شيء حتى يتأكد من سلامة قسورة.. يجب ألا تُنفذ خطتهم قبل معرفة ما حدث لمن كان يجب أن يولوه أميرًا.

قُبيل العصر، كان يقف بحديقة القصر مع شَرحبيل.

- أخبرني الرجالُ أن قسورة كان هنا يتحادثُ مع سَودان.

مرَّر الأغلبي يده على رأسه، ومسح جبينه المُتعرق قائلًا:

- علينا أن نلغي الأمر.. على الأقل حتى يظهر قسورة، أو نعرف ما أصابه.

امتلأت عينا شرحبيل بالغضب:

- ماذا تقولُ يا أغلبي؟ أتريد أن يُصيبنا ما أصاب صاحبنا؟!

- لا نعرف ما أصابه.. لقد قلتُ لك إنه مرَّ على منزلي مرتين في جوف الليل. لا أعرفُ السبب، ولا أعرفُ ما دار بينه وبين سَودان ليأتي في وقتٍ متأخرٍ باحثًا عني.

اقترب منه شرحبيل هامسًا:

- أنت قُلتها.. لا نعرف ما دار بينه وبين سَودان.. لقد قتله سَودان.

وكأن رمحًا غُرس بصدر الأغلبي حين سمع الكلمة الأخيرة. راح عقله يُعيد عليه صوت سَودان هناك في الخيمة، حين كانوا يُحاصرون نابولي.. يوم هدده بقطع رأسه. مشهدُ رحيل أبي المغوار والسفينة تبتعد. لقد أخبره العجوزُ حتمًا بالأمر. ولكن لماذا لم يقبض عليهم جميعًا، أو يقتلهم جميعًا كما قتل قسورة؟! لا لا، إنه لم يقتل قسورة.. لن يفعل سَودان هذا. شرد بوجه شرحبيل الذي أشار نحو القصر:

- إن سَودانٍ سيقتلنا جميعًا، وعلينا أن نُباغته. لقد جاء ابنك منذ قليلٍ، ودخل عبر هذا الباب. قد لا يخرج مطلقًا، أو لعله يُفرق بينك وبينه. لا مجال للعودة يا أغلبي.. لا مجال للعودة يا رجل.

كاد أن يقول شيئًا، حين رأى ولده يخرج. تطلع إليه الفتى، ثم امتطى فرسه ومضى. تبادلا النظراتِ،

قبل أن يقول مُحدثا شرحبيل:

- أوقف كل شيء يا صاحب الشرطة..!

- ولكن..

- لن نقومَ بالأمر إلا إذا كان قسورة معنا. سأذهب الآن لمنزل ابن هشام، وسأمر بسليمان الصقلي، لأخبرهما أن الأمرَ سيُؤجل.. بث جندك ليبحثوا عن أي أثرٍ لأمير الحرب يا صاحب الشرطة.

****

حين تصطدم الأماني وما نطمح إليه بمخططاتِ الآخرين، لا يبقى أمامنا سوى التمسك والمقاومة من أجل تحقيقِ مُرادنا. وعندما يَهدم شخصٌ ما بنيناه، يكون البكاءُ على النبيذ المسكوب أمرًا لا نفع منه. احترقت حانة سباستيان بأمر الرب، كما قال إليساندرو. أكلت النيرانُ السقف الخشبي، وتهاوت الجدرانُ لتصيرَ ركامًا. لم يُفارق الرجل مكانه، وظلت عيناه تتطلعان إلى أعمدة دخانٍ أسود، صارت بيضاء حين خمدت النيران، ولكن الحريقَ لم ينطفئ بقلبه. كل ما حدث أنه اعترض طريق النبيل الشاب، ذلك المغرور الذي عاد للقرية ليجمع شبابها وشيوخها للحرب عنوةً. وحين رفض سباستيان الانصياع، وجمع الرجال عنده بالحانة يُحدثهم ويحثهم على عدم الذهاب لحربٍ لا دخل لهم فيها، فوجئ به يقفُ على باب الحانة، مع زمرةٍ من حرس الملك الكارولنجي. حديثٌ قليلٌ، وثلاثة قتلى، وفي النهاية أشعلت النيران باسم الرب..

الكلبُ العجوزُ دسَّ أنفه بالرماد، واضعًا ذيله بين فخذيْه، حزينًا لحزن صاحبه. مشهده يجلسُ ضامًّا ركبتيْه إلى صدره أثار نظرات الشفقة من نسوة القريةِ وأطفالها. لم يكن يأبه بهم، بل يُريد أن يصرخ معلنًا عن كرهه وبغضه لهم جميعًا، لا يُريد منهم شفقةً أو عطفًا. الملعون إليساندرو هدم مملكته الخاصة، التي بناها من عرقِ الرجال، وتنعم فيها بفروج نسائهم. انهار كل شيء، واحترق كما لم يكن. جمح عقله، بينما جُمعَ الناسُ بالساحة، الرجال والشباب مكبلين، تُحيط بهم الحراب والدروع، وعلى رأسهم يقفُ إليساندرو يُحدثهم عن الحرب المقدسة الواجبة، فتزوغ عيونُهم. بعد خطبةٍ قصيرةٍ، أمر رجاله بأن يفكوا الوثاق عنهم، ومنحهم حتى الصباح ليجهز كل منهم للذهاب.. فرصة أخيرة لوداع الأهل، قبل المضي إلى بنفينتو.

حلَّ الليلُ بقلب سباستيان، رغم الهلال الذي يتوسط السماء. القرية تغط في النومِ، وطنينُ الباعوض يُعمر الخواء، وشبحٌ بين الأكواخ يتحرك بحذرٍ ويُراقب تحركات من بقي مستيقظًا من جند إليساندرو، قرب منزل كاراس. كانوا يتحدثون مولين ظهورهم إلى الساحة، التي قطعها ركضًا. أخذ يُسرع كمجنونٍ، ينثر العُشب الجاف حول أبواب منزل لورينزو ونوافذه، ثم أفرغ زيت القناديلِ على العشب، عند البابِ الخشبي. جذب مشعلًا من على حائط المنزل، أضاء نصف وجه شيطان يحملُ ابتسامةً عريضةً، وما عاد يهمه أن يراه أحدٌ. اقترب من الباب، لتقبِّل النيرانُ الباب الخشبي، ثم ألقى بالجذوة فوق المنزل، بعد أن مررها فوق العشب الجاف. اندلع الحريقُ والصرخاتُ معًا، واستيقظ أهلُ القرية، وركض الجندُ نحو منزل لورينزو، بينما اختفى سباستيان تمامًا. انهمك الجندُ في إطفاء الحريق، وإذا بسيوف أهل القرية وشوك الحراثة تُحاصرهم من الخلف. كانت فرصةُ الثأر ممن قتلوا الشباب

بالأمس. معركة دارت رحاها حول منزل لورينزو المشتعل، بينما كان سباستيان يحرقُ منزل كاراس، ومن بعده حظيرة النبيل. كان في حالة نشوى، وضحكاته ترتفعُ مع ألسنة النار، التي لم تكتفِ بأعداء كاراسٍ، بل صارت تمتد من منزلٍ لآخر، وتسري كما نهرٍ من نيران يحرق سان فيلي التي كانت يومًا هادئة.

****

في وقتٍ متأخرٍ من الليل، دخل سَودان إلى غرفة ماريا، بعد أن أخبرته الجارية أن الأميرة أصابها الإعياءُ بينما تتجوَّل بالحديقة. شعرت بأنفاسه حين أزاح خصلات شعرها جانبًا، ولثم جبينها وتحسَّس وجنتها.. فتحت عينيْها الناعستيْن:

- أين كنت طوال هذا الوقت؟

جلس إلى جوارها محتضنًا كفَّها بيديْه:

- كان هناك الكثير من الأعمال وجب إنهاؤها.. أخبريني ماذا حدث، ولماذا لم يُرسل أحدٌ في طلب عمك كاراس؟

رفعت رأسها قليلًا، لتريحه على فخذه، فربت على شعرها راسمًا ابتسامةً على وجهه..

- لا تقلق، أنا بخيرٍ.. يبدو أن ابنك يستعجل المجيء.

- حسنًا يا أميرتي، اخلدي للنوم الآن، وما عدتِ ترهقين نفسك بالتجوال.

داهمها النعاسُ وخرجت كلماتُها كهمهماتٍ مبهمةٍ. هَمَّ بالنهوض، فتشبثت بيده قائلةً بصوتٍ خافتٍ:

- لا تُفلتني.

مكث إلى جوارها حتى غفت. عقله يُعيد عليه ما حدث اليوم..

كان غاضبًا من قسورة، الذي لم يخرج بالرجال إلى الشمال، فأرسل في طلبه، ولكن لا أثر للرجل. غلبته الحيرة، حتى جاءه عبد الله بن الأغلبي، ليُخبره أن الطبيب كاراس يطلب منه الحضور في الحال، دون أن يراه أحدٌ. رسالةٌ مقتضبةٌ جاء بها الشاب، كانت كافيةً لتُثير مخاوفه، التي تغلب عليها وذهب متخفيًا بزيٍّ أحد الجند. في منزل أبي المغوار، استقبله كاراس وعلى وجهه مسحةٌ من قلقٍ:

- سيدي، أعتذر عن الطريقة التي استدعيناك بها، ولكن كان يجب أن ترى هذا.

تبعه سَودان إلى حيث توجه. صعدا الدرج، بينما بقي ابنُ الأغلبي يُراقب الطريقَ من النافذة. في الطابق العلوي، كانت غرفة القاضي العجوز.. يعرفها جيدًا. فتح كاراس الباب برفقٍ، يسبقه ضوءُ القنديل، واتسعت عينا سَودان من المفاجأة.

كانا عائديْن من الحصن الغربي، حين مرَّ بهما جوادُ الأمير قسورة، يركضُ تجاه الحصنِ دون صاحبه، الأمر الذي أثار ريبتهما، حثا حصانيْهما تجاه باري، وسرعان ما شاهدا ظلًّا يقفُ بمنتصف الطريق، ركض حين رآهما نحو الآجام المرتفعة. طارده عبد الله، بينما اهتم كاراسُ بالأمير قسورة،

الذي كان غارقا في دمائه، وقد استقر بكتفه وصدره سهمان قصيران. نادى كاراس عبد الله أن يدع الفار ويعود إليه، فتردد لحظةً، ثم كرَّ إليه، فحملاه عائديْن إلى باري، وحمدا الله أن لم يلحظ الجند ما يحملان، حيث كانت العتمة والضباب قبيل الفجر. من حُسن حظه أن السهم الذي ضرب صدره منعته صديرية من زردٍ أن يخترق قلبه. كان قسورة يغط في النوم حين دخل سَودان عليه.. أراد أن يوقظه، ليسأله إن كان قد رأى مَن حاول قتله، ولكن كاراس منعه. غادر المنزل، بعد أن طلب منهما عدم البوح لأي شخصٍ بالأمر.

طرق الباب، فنهض متجهًا إليه، ليجد رملة، التي ابتهجت لرؤيته، ولكنها تفاجأت من ملابسه، وهمستْ:

- أين كنتَ؟ لقد أقلقتنا عليك. وما بالُ كل هؤلاء الجند حول القصبة؟ يقولون إن قسورة اختفى أو قُتل.

خرج إليها وأغلق الباب خلفه، لتنعم ماريا بنومٍ هادئٍ، وسار مع رملة قائلًا:

- تعالي لنتحدث بغرفتك!

حين دخلا إلى الغرفة، سألها عن الطفلين عمرٍ وعلي، فأخبرته أنهما نائمان بغرفتهما. ساعدته في خلع زي الحرس الذي يرتديه. كان جسده دافئًا. تحسست آثار الجروح القديمة وهي تقول:

- ما الذي يحدث في باري؟

- كل شيء انقلب منذ رحيل أبي المغوار.. جاءني قسورة في الليلة الماضية، وكلفته بالذهاب إلى تخوم بنفينتو. ولكن هناك من غدر به. لقد وجده الطبيبُ كاراس وعبد الله بن الأغلبي.. والآن هو بمنزل أبي المغوار فاقد الوعي..

بصوتٍ بلغ ذروة الارتياع سألته:

- مَن الذي فعل هذا؟

- لا أعلم. ولكن الرجال كانوا يحيكون شيئًا ضدي، ولقد أخبرني مسلمة أمير برنديزي قبل رحيله بما يحدثُ في منزل سليمان الصقلي. هذا كل ما أعرفه. رحل أبو المغوار دون أن يقول شيئًا عن ذلك، رغم علمه به، وهو ما كوى قلبي.

- لماذا لم تقبض عليهم جميعًا؟ إن كنت تعلم بما يُدبرون لنا؟

- لقد جاءني قسورةٍ ليُفصح عن الأمر، ولكني منحته سترًا. كنتُ أعرف أنه جاء من أجل ذلك، وأعرف أنه استشفَّ من حديثي معه علمي بالأمر. قسورة ذكي، وذو فراسةٍ ونجابةٍ، ولقد فطن للأمر، ولكن يبدو أن أحدهم قرَّر مباغتته قبيل الذهاب للشمال..

- إن الأمر يزدادُ سوءًا يا سَودان.

- لا عليك، ستسير الأمور بخير.. ولكنهم يتهامسون بأني فاعلها..

اتسعت عيناها وهي تتطلع بوجهه، بينما يستطرد:

- هل تظنين أني قاتل صاحبي؟.. لا والله، لو أردتَ لجمعتهم جمعًا، وألقيتَ بهم من فوق السفح إلى البحر. ولكن ليس سَودان مَن يقتلُ أصحابه.

- أنت حليمٌ يا سَودان.

لم يرُق له وصفها. كاد أنٍ يقول شيئًا، ولكن طرقاتٍ بالباب جعلته يبتلعُ ما كان ينوي قوله. نهض متوجهًا إلى الباب، ممسكًا بخنجرٍ خلف ظهره:
- مَن؟

جاءه صوتُ حارسه:

- سيدي، لقد مات الفقيه ابن هشام، وستكون صلاة جنازته بعد صلاة الظهر.

****

هرولت إحدى الفتيات إلى حيثٍ تجلسُ رفيقاتها. مالت الرؤوسُ واتسعت العيون جراء همساتها، وعلى مقربةٍ منهن كانت تقفُ فيولا. كانت تعلم أن أكثرهن ما عُدن يُحببنها، لكنها زينت وجهها بابتسامةٍ وهي تتوجه إليهن، وتسألهن عما يتهامسن به، وتلك الدهشة الممزوجة بالفرح. أجابتها كبيرتهن مبتهجة:

- سمعنا أنهم وجدوا الأمير قسورة.. وأنه مازال حيًّا.

تذكرت تلك الليلة، كانت تمر بالقرب من إحدى نوافذ القاعة الكبرى حين رأته مع السلطان، يتبادلان حديثًا لم تسمعه، ثم كان غيابه واختفاؤه حديث الجميع. مجملُ الثرثرة الآن أنه حي، ولم يُقتل كما أشيع منذ اختفائه. لهجاتٌ عدة تداولت حديثًا ضجَّ منه رأسُها، وشعرت بتجمد الدماء في عروقها. انسلت من بينهم، وقلبُها يُخفق بقوةٍ، وهي تمر إلى الرواق المؤدي إلى الحديقة. اصطدمت بجسدٍ قوي، أفزعها حين أمسك ذراعها بقوةٍ آلمتها، وانغرستْ أصابعُه بلحمها الأبيض. تبينته على ضوء النهار البعيد، ودفعها أمامه إلى غرفةٍ خاويةٍ إلا من نافذةٍ ضيقةٍ يتسرب منها شعاعٌ للشمس. كانت تتذكر قسمه جيدًا.. حين جاءته بخبر وجود قسورة مع سَودان استشاط غضبًا، وظل يُردد أن قسورة خائنٌ. وعدته بأنها ستمنحه ما لا يتوقع، فقط لأنها تُحبه. يستحق ما تفعله من أجله، أو ربما هي تستحق. كادت أن تمنحه عرش باري، ولكن أحلامها انهارت، لتجده يُلصقها بالحائط، ويضغط عنقها حتى جحظت عيناها، وانساب الدمعُ من عينيْها والهواء أصبح مستحيل المنال، بينما هو باردُ الملامح عازمٌ على أن يبر بقسمه، فقسورة ما زال حيًّا! لقد سبقها أحدُ أعينه إلى إخباره. زاغ بصرُها.. وراح العالمُ يتلاشى، ثم فجأةً أفلتها متراجعًا، لتسقط أرضًا ينتابها السعالُ، ويئن صدرُها بنشيجٍ متلاحقٍ. تحسست رقبتها الساخنة وقدٍ تركت أصابعه الغليظة حفرًا غائرةً في مسامها، كانت حيةً لسَببٍ ما.. لم ترفع رأسها، وقالت منتحبة:

- أقسم لك أنه سيموت الليلة. سأثبت لك كم أنا مخلصةٌ لك، وسأفعل لأجلك أي شيء.

قال بنبرةٍ غاضبةٍ آمرةٍ:

- إنه في منزل أبي المغوار.. عند الفجر، إن لم تأتني برأسه، سيكون رأسُك معلقا على رمحٍ بباب القصبة، إلى جوار بقية الخونة.

لامست طرفَ حذائه حين تحرك إلى الباب. كان غاضبًا حدَّ الوجع. كان عليه إنهاء الأمور مبكرًا، ليته كان أكثر حسمًا من الأغلبي الذي أصرَّ على تأجيل موعد خطتهم، حتى التأكد من مصير قسورة.
عاشِ الوِهم أيامًا كأمير باري القادم. تعقَّد الأمرُ على يد فيولا، والآن ليس أمامه سواها ليستعين بها مرةً ثانية. امتطى جواده، وراح يسيرُ في طرقات المدينة بين زحام الذاهبين إلى جنازة ابن هشام.
كانوا يُفسحون له الطريق، خشيةً ورهبةً لطلته، ويتندرون بأن خطوات مطيته معتدة بنفسها كصاحبها. سيصبح أمير هذه المدينة، حتى وإن قتل الأغلبي وبقية الرجال.

الشرُّ يستتر بالظلام، تخدمه الظلالُ ويحميه السكون عند منزلِ أبي المغوار. دارت بنظرها في أرجاء المكان، قبل أن تقترب بحذرٍ من الباب، فطرقته. كانت متوترةً، وبمجرد أن انفتح الباب، ورأت وجه الطبيب كاراس، على ضوءِ قنديلٍ يحمله بيده، أسرعت تُخبره:
- الأميرة ماريا مريضة، وتطلبك على الفور.

- هل أصابها مكروهٌ.. ماذا حدث لها؟..

- لم أفهم.. إنها فقط تُريدك محادثتك على عجلٍ.

- محادثتي! ادخلي، ريثما أرتدي ثيابي.

تركها الطبيب ودخل إلى غرفته، فعادت تفتح الباب لرفيقها. تحركا على أطرافِ أصابعهما بسرعةٍ، يفتشان أرجاء المنزل. استترت بالحائط عند رواقٍ به بابٌ وحيدٌ، وتقدمت إليه. بضع قطراتٍ من دماءٍ جافةٍ كانت كافيةً لتتوقع أن قسورة وراء هذا الباب، فأشارت إليه أن يتبعها. كأفعى مجلجلةٍ تتربص للدغ فريستها، وضعت خدها على الباب الخشبي البارد.. لحظات، ثم دفعت الباب برفقٍ، وبخفةٍ دلفت إلى الغرفة الواسعة. صوتٌ من خلفها جعلها تنتفض فزعًا..

- ماذا تفعلين هنا؟

كان ذلك عبد الله بن الأغلبي. استدارت، لتجده يقفُ عند باب الغرفة، يُكرر سؤاله..

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

انتظرت حتى اقترب منها، ولم تُمهله ليُكمل كلماته. اندفعت نحوه مسرعةً، تُشهر خنجرها، فأخذته المفاجأةُ، واستطاعت أن تضرب رقبته عند حبل الوريد. حاول أن يمسك بها لا أن يُقاتلها، ولكنها كانت في حالةٍ من الجنون، اختل توازنه مع الدمِ المندفع من عنقه، وكانت فرصتها لتدفعه عنها بكل ما أوتيت من قوةٍ، وفي نفس اللحظة أتته طعنةٌ أقوى من حيث لم ير صاحبها. تشبث بيدها كي لا تفر، لكنها قاومت كذئبةٍ شرسةٍ، فدفعها بما تبقى له من قوةٍ لترتطم بالمنضدة وتسقط أرضًا، ولكنها نهضت تُلملم ثوبها، بينما كان عبد الله يغرقُ في دمائه، وقد بدأ يفقد وعيه وهو لا يتبين شخص من طعنه في ظهره. همَّت للإجهاز عليه بخنجرها، ولكنها سمعت صوت كاراس يُنادي:
- عبد الله!

تراجعت مغلقة الباب خلفها، وتركت رفيقها يتم المهمة، وعادت مسرعة إلى حيث تركها، فوقفت في ركنٍ مظلم، كيلا يتبين الدماء التي لوثت ثوبها. نزل الدرج، وهو يُحدق بوجهها وقد اجتاح القلقُ مفاصله:

- هل سمعتي الصراخ؟

أومأت برأسها وأشارت باتجاه الغرفة:

- أتى من هذا الرواق.

تفحصها متوجسًا، ثم أسرع نحو حجرة قسورة..

- انتظريني قليلًا!

كانت قد اتخذت القرار بطعنه هو الآخر، فما إن ولَّاها ظهره، حتى تبعته مشهرةً خنجرها. ولكن بنهاية الرواقِ، كان عبد الله يتسند على الجدار، مشيرًا نحوها. هال كاراس ما رأى، واستدار ليجدها خلفه مباشرةً وخنجرها يستقرُّ بقلبه. تناثرت الدماء من فمه، وجحظت عيناه وحملقت في الفراغ. حاولت نزع الخنجر، ثم تركته يسقط مع كاراس وبصقت عليه. بإصرارٍ اتجهت نحو الفتى، الذي سقط أرضًا، وهي تتساءل كيف- رغم ذبح وريده- تغلب على فارسٍ من المحاربين! لقد خارت قواه، وآن لها أن تُزهق روحه، ولكن لتتركه الآن فلا خوف منه، ولتتمَ ما جاءت لأجله، قسورة.

دخلت إلى الحجرة، فوجدت الجندي الذي رشته بالمال مضرجًا في دمائه، فبصقت عليه أيضًا، وانحنت عليه تأخذ صرة المال التي لم يهنأ بها فعلقتها في نطاقِها، ثم فكت كفه عن خنجره الطويل، فقبضت عليه واتجهت إلى فراش قسورة، الذي لم يدر بشيء من كل هذه الجلبة والدماء. رفعته للأعلى، وجزت على أسنانها، وعرش باري يتراءى لها.

وقبل أن تهبط به إلى قلبه، أفزعها صهيلُ خيلٍ ووقع حوافر تتوقف بباب الدار. قفزت بسرعةٍ وراء ستار النافذة الصغيرة، فرأت شخصين يتحادثان ويُقبلان على الباب، يتقدمهما ضوءُ المشاعل. لم تكن بحاجةٍ لتبينهما.. جرتْ كفأرٍ حاصرته الهرر، فتخبط يدورُ حول نفسه، ولا يجد المفر. الهرب أو الموت.. لا تُريد أن تموت، وليذهب قسورة وشرحبيل معًا إلى الجحيم.

****

دخل الرجالُ إلى دار أبي المغوار شاهرين سيوفهم، وقد توجسوا شرًّا من الباب المفتوح. انتشروا في الدار، بالمشاعل الموقدة وصاح أحدهم حين دخل إلى الرواق الجانبي، فهرعوا إليه. انحنى الأغلبي على الجسد الملقى، فوجد الطبيب الرومي قد فارق الحياة، وفي صدره خنجرٌ لم يُقتلع. مدَّ بصره إلى نهاية الرواق، فوجد ما ظلَّ يخشاه طيلة حياته..

صرخ:

- عبد الله!

كان الشاب يستند إلى الجدار يتنفسُ بصعوبةٍ، سقط السيف وقد خلع عمامته وضغط بها رقبته، فتلونت بدمه. احتضن محمد ابنه باكيًا: عبد الله! مَن فعل بك هذا.. عبد الله، أجبني يا ولدي..

فتح الفتى عينيْه، وابتسم لأبيه، وحدثت نظرته الأغلبي بما لم يستطع لسانَه قوله.

- لا تتحدث يا عبد الله.. ستشفى يا ولدي، وسأثأر ممن فعلها بك؛ أقسم لك.

سعل عبد الله، قبل أن يُجاهد للكلام:

- وددت أن أكون معك في كل غزواتك يا أبت. وددت أن تعرف أن كل شيء إلى نهاية.. لم تدعني أختار موتتي.

- لن تموت يا ولدي..

ابتسم بصعوبةٍ:

- ستفخر بي، لأننا أنقذنا الأمير قسورة.. السلطان أفضل من يجمع شمل باري يا أبي، لا تخذله، لا تخذل باري..

- يا بني لا تتكلم، سأستدعي الطبيب.

سعالٌ مزَّق صدر الفتى، قبل أن يتمتم:

- فيولا مَن غدرت بنا.

اتسعت عينا الأغلبي، وانتابته موجةٌ عارمةٌ من الدهشة والغضب:

- أقسم أن أقتلها قبل أن تصعد الشمس إلى سمائها.. لكن لأطلب لك الطبيب أولًا!

قبض عبد الله على يد أبيه بيديْه الملطختيْن بالدماء، وتعلقت عيناه بوجهه:

- سلامٌ عليك يا أبا عبد الله.. أقرئ أمي وإخوتـي السـ..

لم يُكمل الفتى كلمته الأخيرة.. أخذ محمد يهز جسده منتحبًا:

- عبد الله، يا ولدي لا ترحل.. عبد الله!!

لم يُجب الفتى أباه. رجَّ صراخُ الأغلبي جدران منزل أبي المغوار، حتى ضاع صوته، بعد أن أقسم ألف مرةٍ أن يثأر لابنه. عاد صاحباه إليه بأيدٍ خاويةٍ، ولم يعثرا على أثرٍ لفيولا، عدا خنجرها الذي تركته في صدر كاراس.

****

- كان علينا التأكد ما إذا كان قسورة حيًّا، أم أنها مجرد كذبةٍ أطلقها شخصٌ ما لغرضٍ في نفسه. امتطينا الخيل وتوجهنا إلى منزل القاضي. كان حديثُ الأغلبي يفيض باللوم على ابنهً، الذي لم يُخبره بالأمر، ثم يعود للقول بأن عليه أن يتأكد أولًا من صدق الخبر. حين وصلنا كان الباب مفتوحًا، دخلنا وتوجَّه كل واحدٍ منا إلى ركنٍ يبحث فيه، وسرعان ما سمعتُ صراخ الأغلبي، فنزلنا ركضًا، ووجدنا جسد الطبيب كاراس مطعونًا بخنجرٍ، وفي آخر الرواق كان الأغلبي يحتضن عبد الله الذي كان

يحتضر. بعدها، حمل هو جسد ابنه إلى منزله، وجئنا نحن بجسد الطبيب الرومي إلى هنا.

أطال شرحبيل النظر بوجه الرجل، ثم اقترب منه قائلًا:

- هل عرفتم مَن القاتل، أو وجدتم أي أثرٍ يدل عليه؟

- لا سيدي، وجدنا الموت والدماء فقط.

- حسنًا، اذهب أنت الآن، فخذ مجموعةً من الجند، ولا تدعوا الأغلبي يخرج من منزله..

- معذرةً يا سيدي، لا أفهم ما....

قاطعه شرحبيل بحزمٍ:

- على الرجل أن يبقى في منزله، ولا يسعى للانتقام.. لو منحنا كل مكلومٍ فرصةً للقصاص بنفسه، لصارت المدينة كلها عبثًا وفوضى.. أليس كذلك؟

أومأ الرجلُ برأسه، ورحل عن المكان. أطلق شَرحبيل زفرةً طويلةً، وعضَّ شفته السفلى، يُحاول تخيل ما حدث، وما إذا كانت فيولا وراء الأمر. فيولا لم تعد إلى القصر، ومن حديث الرجلين، لم يذكر قسورة. تجول بساحة القصبة، يُعطي الأوامر لرجاله بالانتشار فوق الأسوار وبالساحة، وما إن جاء سليمان الصقلي، أخبره بأن الليلة سَيُقتل سَودان، لقتله قسورة وابن الأغلبي. لقد حان الوقتُ لإنهاء الأمر.

****

ريحٌ باردٌ يُلاعب البيارق، فتتمايل فوق جدران القصبة المكتظة بالمشاعل والجند. كُتب على باري أن تشهد خيانةً تلو الأخرى، منذ قُتل خلفون ومن بعده مِفرق، والآن جاء الدور على سَودان. لحظاتٌ تفصل شرحبيل عن مُلك باري وسائر الجنوب الإيطالي، وهو الآن يسيرُ بين اثني عشر رجلًا من حملة الرماح الطويلة، ممن يثقون به ويثق بهم، وإلى يمينه سليمان الصقلي يعتصرُ مقبض سيفه، وعلى يساره ابن زيان، الذي وصل قبل المغيبِ مع مجموعةٍ من رجاله. لم يكن الجند المنتشرون بالفناء وعلى الأسوار يعلمون ما يحدث، فتابعت أعينهم شرحبيل وزمرته يدلفون عبر الباب الكبير بخطواتٍ متناسقةٍ تضرب الأرض لتصطك الدروع. كان عليهم المرور بالبهو الكبير، قبل الوصول إلى مضجع سَودان، فتوقف شرحبيل لحظاتٍ أمام الباب الخشبي المُرصع بالحديد والنقوش، وقبل أن يُفتح الباب أشار لسليمان، الذي همس بالرجال:

- لا تقتلوا الصغار ولا النساء.. فقط سَودان ومن يُقاوم معه.. ما إن نعبر الباب، سيبقى أربعة منكم قرب العرش، والآخرون سيتبعونني إلى المهاجع، حيث يقبع الخائن سَودان.

تبادلوا النظرات من خلف الخوذات، وأطبق صمتٌ مهيبٌ عليهم، قطعه صريرُ الباب الذي دفعه شرحبيل بيديْه، وعيناه تنتظران أن تنعم برؤية كرسيه. قدم الرجال رماحهم فوق الدروع الدائرية الصغيرة، في وضعٍ دفاعي يُستخدم للأماكن الضيقة، وانفرج الباب..

كان سَودان متكئًا على كرسيه، باسم الثغر. أربكهم وجوده وهيئته، فتقدموا إلى القاعة بحذرٍ،

وسليمان الصقلي ينقل بصره بالأرجاء متوجسًا، وابن زيان يقبضَ على سيفه بعصبيةٍ وهو يتخذ موضعه خلف شَرحبيل، الذي أيقن أن لا تراجع الآن. بخطواتٍ ثابتةٍ، وصل إلى منتصف القاعة، وعيناه لا تفارقان وجه سَودان الساخر. رفع قبضته، فتوقف رجاله، وقد صارت ابتسامةُ سَودان أكثر وضوحًا..

- لقد أحسنت تدريبهم يا شرحبيل.. أشهد لك بذلك.

حاول شَرحبيل إخفاء توتره، ليقولَ بحزمٍ:

- لقد انتهى الأمر يا سَودان.. ترجل عن كرسيك، ولا داعي لأن يتلوث بالدماء.

- لقد نطقتَ بالحق دون أن تدري.. قلت "كرسي" وهو بالفعل كذلك. ولكني لستُ أعجب بما يفعله ذلك الشيء بعقول الرجال.. تُراق الدماء لأجله.. يخونُ الرجل صاحبه.. ويُحاول قتل الأقربين للحصول على كرسي!

- لسنا هنا لخوض حديثٍ..

قاطعه سَودان بغضبٍ:

- حين أتحدثُ عليك أن تُنصت ولا تُقاطعني. لقد توقعتُ خيانتك، ورأيتها في عينيْك يوم الغابة. كذَّبت نفسي حين رأيتك ترمي بالرمح لصدر الرجل. كنتُ أعلم كل شيء تفعله.. (تغيرت نبرته إلى النعومة وهو يُكمل) ومواقعتك لفيولا في قصري. إنها لم تعد إلى القصر، أقتلتها؟

هيمن الصمتُ لبرهةٍ، قبل أن يُغلق الباب خلف شَرحبيل ورجاله. توتر الرجالُ ودارت رؤوسهم في المكان، وابن زيان يُخاطبهم: اثبتوا!

ضحك شَرحبيل، ورددت جدرانُ البهو ضحكاته. نظر إليه سليمان، الذي ظن أن صاحبه قد جُن، وحين عاد ببصره إلى سَودان كان صاحبُ الشرطة يشير إليه بالسبابة:

- هل تظن أنك أوقعت بنا، بجعل أحد الحمقى يُغلق الباب؟ إن الرجال يُحاصرون القصبة، وقد عُزلت تمامًا عن بقية المدينة. لن تخرج حيًّا يا سَودان.. لقتلك قَسورة وابن الأغلبي وذلك الطبيب الرومي.. لقد قُضي الأمر.

تراجع سَودان في كرسيه، وتكلم بنبرةٍ أهدأ..

- نعم لقد قُضي الأمر يا هذا. ولعل أمير الحرب يود قول شيء لك.

وجم شرحبيل وكاد يشهق، حين برز في نفس اللحظة قَسورة التميمي من خلف الستار إلى كرسي سودان. كان ظهورُه كبرقٍ غشى الأعين، سليمًا مُعافى، وإن شحب وجهه وأحاط عينيْه السواد. بدا للرجال كأنه عاد من الموتِ ليقف إلى جوار سَودان..

- الحُكم نافذٌ في كل من تلوثت يده بالدماء. يا شَرحبيل، لطالما كان السيف والخنجر أفضل أصدقائك، فتُب إلى الله وكفاك آثامًا!

سحب شرحبيل سيفه بعنفٍ زاد من توتر رجاله وهو يصيح:

- إذن، هلموا لمعانقة صاحبي البراق..

همَّ قسورة، فرفع سَودان يده ينهاه، ونهض محافظًا على هدوئه:

- كم وددتُ أن تتراجع يا شرحبيل، فلك في الجهاد تاريخٌ لا أنساه... لن ألوث قاعة وسيف السلطان العادل بدمائكم.

مع إشارته، تحولت الأعمدة إلى فرسان.. خرج من ورائها رجالُ الكتيبة السَوداء، ليُحيطوا بالقاعة وكل من فيها. ما أبعد الواقع عن حلم شرحبيل ورجاله، الذين تراجعوا والتصقت ظهورهم ببعضٍ، فاحتكت دروعهم في رعبٍ. تعلقت عيونهم بسَودان، الذي جلس على كرسيه وزفر قائلًا:

- مَن سيُلقي سلاحه سننظرُ في أمره.. ومن يُريد القتال فليثبت حتى يرى ذووه جيفته معلقةً على جذوع النخل.

ألقى الرجالُ دروعهم ورماحهم أرضًا، وشرحبيل غير مصدقٍ أن برج طموحه ينهارُ ويتحول إلى قبرٍ. صاح بهم في جنونٍ:

- أيها الجبنـــــــاء..

حاول أن يطعن أحدهم، ولكن رجال الكتيبة السوداء أنهوا محاولته، ومحاولة ابن زيان وسليمان للمبارزة. لم يستسلم شرحبيل إلا بعد مقاومة يائسٍ عرف أنه ميتٌ لا محيص، وظل سَودان يُراقبه صامتًا، متحسرًا على شرحبيل المُحارب القوي، الذي ضربه مقبضُ سيف أحد الفرسان على رأسه، فخرَّ ساجدًا، وكان أولى به كرامةَ السجود لله، ومشاركة جيش باري غزواته.

****

في الأفقِ البعيدِ، كان خيط الفجر يفصل زرقة السماء عن عتمة البحر، وشرحبيل ورجاله يُساقون إلى سجن القَصبة مُكبلين بالسلاسل، تُحيط بهم أعينُ أهل القصر والجند المذهولين مما يحدث. والجواري يتساءلن عن علاقة غياب فيولا بكل هذا الدم واللغط. طفلا شعيب وقفا بجانب أمهما يُغالبان النعاس وهي تصر أن تفيقهما ليشهدا ما يحدث. تركت رملة ضرتها ماريا في فراشها، وأوصت الجواري أن يدعنها لا تدري عن كل ما يحدث شيئًا، فكفاها متاعب حملها، الذي أوشك أن يتمخض عن بُشرى ابنٍ جميلٍ للسلطان. خرج قسورة مع سَودان، ووراءهما الكتيبة السوداء في زهوها وهيبتها، يتبعون جميعهم السلطان لوجهةٍ غير معلومةٍ.

وبين نحيب وعويل النساء، قبع محمد الأغلبي مُجبرًا. بناته الأربع لم يتوقفن عن البكاء، وزوجته صارت عيناها كأسيْن من دماء، لا تكف عن ترديد "إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون"، وجسد الفتى يرقد بالفراش ملطخًا بدمائه الجافة الباردة، وقد ابيضَّ وجهه. أحداثٌ وأحداثٌ مرَّت بعقل الأغلبي وهو يحملُ ابنه من بيت أبي المغوار إلى منزله، أمورٌ لا تكف عن ضرب رأسه وقد زاده النحيب قوةً، نهض مغادرًا الغرفة إلى حيث يحتفظ بدرعه، سحب السيف الكبير وثبت الغمد بخصره. تبعته امرأته مرتاعةً:

- إلى أين ستذهب يا محمد؟! أما يكفي أن خسرنا ابننا؟!

قال وعيناه تحملان غضبًا يكفي لإزاحة مدنٍ كاملةٍ عن وجه الأرض:

- سأقتل تلك العاهرة ومَن وراءها..

أمسكت بذراعه، ولكن نظرةً في عينيه كانت كافيةً لتتركه يرحل. فتح الباب، ليجد فرقةً من رجال شرحبيل يُحيطون بالمنزل، ويسدون الحارة الضيقة. دار ببصره في وجوههم، وهَمَّ بالخروج ولكن قائدهم أوقفه بحركةٍ من يده، وكأن بركان الأغلبي ينقصه تلك الفعلة. سحب سيفه، فتراجع الرجل خطوةً للخلف قائلًا:

- سيدي، نحن هنا لحمايتك، ولدينا أمرٌ بعدم خروجك من المنزل.

- مَن سيُحاول منعي سأنحره ها هنا، وبعد أن أنتهي منكم جميعًا، سأقتل صاحبكم الخائن.

عقد الرجلُ حاجبيْه في عدم فهمٍ للجملة الأخيرة:

- لا داعي لهذا سيدي.. أرجو أن تتحلى بالصبر، فما......

"السلطان العادل سَودان الماوري"

صيحةٌ جلجلت عند مدخل الحارة، أفسح معها الرجالُ الطريق، ودقت رماحُهم الأرض، وسَودان يدخل الحارة على فرسه. وعلى ضوء الفجر والمشاعل، رأى الأغلبي سَودان، فكاد يبكي، ولكنه لمح إلى جواره قسورة، فتجمَّد مذهولًا. نزل الجميعُ عن خيولهم، والأغلبي ما زال متجمدًا على وضعه، شاهرًا سيفه، فحثَّ قسورة الخُطى باتجاهه، ووقف أمامه برهةً، ثم فتح له ذراعيْه. ابتسم سَودان، ثم أشار للجند قائلًا:

- مَن تتبعون؟

قال قائدُهم:

- نحن من رجال الشرطة سيدي.. وقد أمرنا مولاي شَرحبيل بحراسة منزل الأمير محمد الأغلبي، ومنعه من الخروج حتى الجنازة في الصباح.

ظهر الأسى على وجه سَودان وهو ينقلُ بصره إلى الأغلبي وقسورة، اللذين دلفا إلى الدار، ثم عاد ببصره إلى الرجل:

- عودوا إلى القصبة وسلموا أسلحتكم..

توجَّه بالحديث بعد ذلك لأحد رجاله:

- رافقوهم إلى هناك، واحرص على تسجيل أسمائهم وعناوين منازلهم.

انتظر حتى رحل الجمعُ من المكان، ولم يبق سواه وأربعة من حرسه الخاص، أمرهم بانتظاره. دخل بخطواتٍ ثقيلةٍ إلى منزل الأغلبي.. الحزنُ يجثمُ على الدار، والصغيرات يستندن بعضهن إلى بعض. توقف بالفناء حتى مررن إلى غرفهن، وغضَّ بصره حين مرَّت رقية زوجة الأغلبي وهي تقولُ له

بصوتٍ يفيضَ بالألم:

- لقد أحبك عبد الله كثيرًا.. لقد كان حلمه أن يكون مثلك يا سَودان.

- إن مُصابكم هو مُصابي، وأقسم أن أضرب عنق قاتله بسيفي أمام الأشهاد.

- إن من قتله وصيفة زوجتك الرومية.

أحسَّ سَودان بجبلٍ من ثلجٍ يهبط فوق رأسه. رفع عينيْه إليها مُتفاجئًا..

- فيولا؟!

لم تُجبه. اكتفت بنظرة لوم، وتبعت خطى بناتها. لن يخطر بعقل أحد أن تكون تلك الجارية الغنجة هي القاتلة. ما السبب؟!.. دخل إلى غرفة الفتى، حيث قسورة والأغلبي والصمت. اقترب سَودان من الفراش، وانحنى يلثم الجبين البارد، ثم تمتم بعدها بالدعاءِ وعيناه لا تُفارقان وجه عبد الله، وتترقرقان بدمعٍ يُكابر النزول. ربت قسورة على كتفه قائلًا:

- هل نذهب؟

استدار سَودان لينظر بوجه الأغلبي:

- إنا لفراق مَن نُحب لمحزونون. لقد افتدى هو وكاراس قسورة. نقلاه سرًّا إلى القصبة بأمري، وكانا يجمعان أدويتهما وأدواتهما، حين باغتهما القاتلُ الذي كان يسعى لقتل قسورة لما علم بأمر نجاته.

قال الأغلبي باقتضابٍ:

- قتلته عاهرة شَرحبيل الصهباء.

- ولكن مَن حاول قتلي رجلٌ نحيفٌ طويلُ القامة.

جاءت كلماتُ قسورة لتُكمل مفاجآت الساعات الأخيرة المشحونة.

نقل سَودان نظره بينهما، ثم أومأ برأسه:

- واضحٌ أن الخونة كُثر، وعلينا أن نتكاتف لنقتص لأحبائنا.. شَرحبيل وابن زيان وسليمان الصقلي ستُضرب أعناقهم بعد الجنازة..

قاطعه الأغلبي بعصبيةٍ:

- والفتاة؟

- الفتاة ليست سوى خنجرٍ بيد صاحبها. رغم ذلك، سنجدها ونثأر لعبد الله.. أعدك يا صاحبي أن نجدها، وستدفع ثمن فعلتها.

****

قرب مذبح الكنيسة القديمة، رقد تابوتٌ خشبي يحتضن جثمان كاراس، يرتدي أفخر ثيابه، وقام الأسقف بتعطيره، بينما تلت مجموعةٌ كبيرةٌ من أهلِ باري المسيحيين صلواتهم. فُتح الباب الكبير، لتدخل الأميرة ماريا تسندها الوصيفات. كان الإرهاقُ باديًا على وجهها إلى جانب الحزن. نهض الجميعُ حين رأوها، فمرَّت بينهم وعيناها المجهدتان لا تُفارقان التابوت. تركتها أيدي الفتاتين حين صارت أمام جثمان عمها. كان كما النائم وقد ارتاحت ملامحه. مررتْ أصابعها على وجهه برقةٍ، وأجهشت بالبكاء. حياتها كلها كانت معه. ساعدها كثيرًا وعلمها كثيرًا، وعطف عليها أكثر. كان أباها الحقيقي، الذي لطالما جاد عليها بالنصائح والعون. استندت إلى التابوت والألم يغزو صدرها، فهرعت خادمتها بسرعةٍ نحوها، قائلةً بخفوتٍ:

- مولاتي، عليك بالراحة.. إن سيدي كاراس كان طيبًا وسيحظى بمكانته في الملكوت. ما كان ليُرضيه إلا أن يراكِ في حالٍ حسنٍ.

تماسكت ماريا، وتمتمت بصلواتٍ طلبت فيها الغفران لعمها الطبيب الصالح، وعينا الأسقف تتابعانها بأسى. أومأ لها برأسهِ حالما انتهت من صلاتها، وتقدم هو ليقفَ أمام التابوت ويبدأ الصلاة. في نفس تلك الأثناء، كانت الصلاة قائمةً على عبد الله بن الأغلبي، وخرجت جموعُ المصلين، يتقدمهم نعشُ الفتى، يحمله أبوه وسَودان، بينما لم يستطع قسورة أن يُكمل السير في الجنازة، فاكتفى بالبقاء في المسجد بعد أن صلوا على الشهيد المغدور. التقت الجنازتان بوسط المدينة، فانصهر المشيعون، وتجاور المعلم وتلميذه محمولَيْن على أكتاف المدينة إلى مثواهما الأخير.

انفضَّ الجمعُ، وبقي الأغلبي قائمًا على قبر ولده، لا يُحدث أحدًا، وكذلك فعلت ماريا عند قبر عمها، حتى جاءها سَودان. احتضنها، فدفنت رأسها في صدره، وراحت تبكي.

- كان كاراس عزيزًا يا ماريا. لولاه- بعد الله- ما كان سَودان يحكم باري الآن.

أشار لحملة الهودج ليحملوها إلى القصر، أما هو، فعاد إلى قبر عبد الله، ليجد قسورة يقفُ خلف الأغلبي، الذي ما زال جاثيًا على ركبتيْه.

- يا محمد.. إن البقاء هنا لن يُجدي نفعًا. علينا العودة للقصبة، وتدبر أمر القصاص.

رفع الأغلبي رأسه ليتطلع بوجه سَودان:

- وماذا عن تلك الرومية؟!

- حتمًا سيجدها الرجال.. أرسلتُ فرق بحثٍ تجوب الأنحاء. أظنها لم تبتعد كثيرًا.

نهض الأغلبي، بعد أن ربت على القبر مودعًا. قال قسورة محدثًا سَودان:

- عليَّ العودة إلى الحصن لرؤية زوجاتي والأطفال..

- أظن أن عليك البقاء هنا، لنتأكد من خلو المكان من الخونة.

- أثقُ في أهلِ الحصن.

قاطعه سَودان:

- ولكني لا أثق في أحدٍ.

- فكيف إذن نَرتب الأمور هناك، قبل التوجه للشمال، كما أمرت سابقا؟

رده كان غالبًا، فلم يكن من مجال للجدال. مضى الأغلبي دون أن ينطق كلمةً، قسورة اتجه إلى حصنه، واتخذ السلطان طريقه إلى القصبة. كانت باري مختلفةً عن الأيام والسنوات الماضية. كانت الوجوه حزينةً، والحوانيت راكدة. تجوَّل بالطرقات دون حرس، يتفقد أمور الناس، كما كان يفعل أبو المغوار. ليته بقي، لكان كل شيء تبدل الآن. كان يقترب من القصبة، حين ظهر فارسٌ يقترب في سرعةٍ منه. تحسس مقبض سيفه وضاقت حدقتاه حتى جذب الفارس اللجام، ليقفَ الحصانُ بغتةً أمامه، والرجل يشير ناحية البحر:

- سيدي، أسطولٌ بيزنطي ضخمٌ يحتل الأفق!

****

(10)

حلقت النوارسُ بعيدًا عن الدخان الأسود ودمدمة الطبول. أعينها الصغيرة ترصد تحرك رماةٍ يأخذون مواقعهم فوق أسوار القصبة. قرب باب البحر، انتشر المشاة يثبتون المتاريس بالمرفأ، وقوارب البيزنطيين تقتربُ أكثر فأكثر، تشق الموج باتجاه الخليج الصغير. داهمتْ آلامُ الوضعِ ماريا، كما داهمت الحربُ مدينتها. لأيام بعد موت عمها لم تُغادر الفراش إلا مضطرةً. اشتد مرضها، وكانت رملة دومًا إلى جانبها، أما سَودانٌ فانشغل بالحرب. ترتجف كلما سمعت دوي القذائف، وتطمئنها رملة، بينما تهرع إحدى الفتيات إلى النافذة، وتعود وتُخبرها أنه بخير. لا شيء يُهدئ من روعها سوى رؤيته يدلف عبر هذا الباب. تقبضُ على يد رملة، والعرقُ يتصببُ من جبينها رغم برودة الأجواء، وتُحاول ألا تصرخ، ولكنها فشلت. امتزجت شهقاتُها بصليل السيوف وصيحات الرجال، وارتجت الغرفة بصراخ ميلادٍ تزامن مع دوي قذيفة منجنيق ضربت حائط القصبة الخارجي، وبين الألم والفزع كانت القابلة تحمل بين يديْها صبيًّا عمَّر المكان ببكاء الحياة. الدموع والفرح اقترنا بوجوه كل من بالغرفة، ودمع ماريا بلل خديْها، غير مصدقةٍ لتلك اللحظة التي تمنتها كثيرًا. "ولدٌ كبدر التمام" قالتها القابلة وهي تمسح جسده بخرقةٍ مبللةٍ بماءٍ دافئ، بعد أن قطعت حبله السري. لفَّته بقماشٍ مخملي، وأخذته رملة برفقٍ تتطلع إليه بشغفٍ، مغمض العينيْن يتثاءب ويضم قبضته الصغيرة. لثمته بقبلةٍ رقيقةٍ على شَعره البنّي الخفيف، واقتربت من ماريا وناولتها إياه بلطفٍ، فتأملته وعيناها تفيضان بالدمع، فما كان من القابلة إلا أن نهرتها من أجل الصغير. قبَّلت جبينه ثم قالت محدثةً رملة:

- يُشبه أباه، أليس كذلك؟

- نعم.. سيكون شجاعًا، لا يهاب أي شيء.

قالت رملة مبتسمةً وهي تجلسُ جوارها، وذكرى ماضٍ قريبٍ تُداهم عقلها.

خريفٌ طويلٌ ليس كسابقيه، تكالب الأعداء فيه على الثغور، وكأن الخيانة والدم أصابا المدن والقرى بغضب الأقدار. يبست الأشجار، كأهل المدينة الذين ضاقوا ذرعًا بما يحدث. توقفت قوارب الصيد عن

الإبحار، وأسطول البيزنطيين لا يكف عن محاولات اقتحام المدينة من ناحية القصبة القوية. سُفن الشواني المُعدة للحصار كانت تحمل على متنها أبراجًا خشبيةً ضخمة، وبعضها يحوي مقلاعًا لا يتوقف عن رجم المدينة، معارك ليلية قادها سَودان لصد الهجمات المتتالية، ونجح في إحراق وإغراق عدة سفنٍ بمعاونة رجاله. شهران وبضعة أيام والحصار يشتد على باري، مع الأنباء الآتية من الجنوب حيث تُقاوم برنديزي بقيادة قيس القيرواني، بعد مقتل مسلمة، وفي الشمال تساقط المحاربون كأوراق الأشجار، وتهاوت المدن تباعًا، حصارٌ هنا ومحرقةٌ هناكٍ. قاد قِسورة رجاله شمالًا، ليحاول وقف تقدم جيش الملك الكارولنجي قدر الإمكان، فكانت فرصة مثالية لدوقية بنفينتو التي جاءت بالعتاد والرجال لحصار الحصن الغربي، وصار الإيمان بالأمل كريشة طائرٍ تتقاذفها الرياح. بَرد الليل اختار جانبه أيضًا، فراح ينخر عظام ثكالى لا ينتظرن رحمةً من عدوٍّ غادرٍ يُحاصر الحصن منذ ثلاثة أسابيع. باري منهمكةٌ في فك الحصار البحري عنها، بينما يموت في الحصن كل يوم بضعة أنفس، ويوم تلو الآخر تختفي وجوهٌ مألوفةٌ، والأحياء أصبحوا أكثر شحوبًا من الموتى، وكلما جاء الهجومُ ظنوا أنها النهاية. بسالة المدافعين تقل يومًا بعد يوم، والإيمان بالنصر صار مجرد علاجٍ لا يدوم مفعوله طويلًا. لم يبق لهم سوى طلب النجدة من السماءً في دعاءٍ حجبته غيومُ شتاءٍ قريبٍ.

لم تعد الفرحة تعم المدينة عند التصدي لهجومٍ بحري، فقد صارت صفحة الخليج من دماءٍ وأخشاب وجثثٍ طافيةٍ. فشل البيزنطيون مرةً أخرى فيً الدخول إلى الميناء، وقرب باب البحر انهمك الجند في انتشال موتى البيزنطيين وحملهم إلى قوارب تُلقي بهم على الشاطئ، لتتناوب عليهم مجموعاتٌ من أهل المدينة يحملونهم على العربات المتجهة إلى خارج الأسوار لدفنهم. أما قتلى باري، فيُدفنون بعد أن يُصلى عليهم في المسجد الجامع. في الساحة، سيق عشراتُ الأسرى يُحيط بهم جند الأغلبي، الذي يقتادهم إلى سجن القصبة حيث القبو المظلم. كان كلما نزل ببعض الأسرى للقبو، توقف عند بوابةٍ مفتوحةٍ على مصراعيْها، وراءها هشم شَرحبيل رأس ابن زيان بضربها في الحائط الحجري، ومنها سُحب سليمان الصقلي على وجهه باكيًا، أما شرحبيل فخرج معتدًّا بنفسه، يسيرُ بخطى ثابتةٍ، بعد أن دفع الجند بعيدًا رغم الأغلال. كان يعرف أنها النهاية، فلم يطلب الصفح، كان يومًا مشهودًا في ساحة المدينة، المحاصرة من أسطولٍ يقوده بطريرك بيزنطي، وقد أجمع أولو الأمر في المدينة بحتمية قتل الخونة قبل أن تُشهر السيوفُ في وجه الأعداء. انتشله أحد الرجال من شروده، بإخباره أنهم أودعوا الأسرى في أماكنهم، فجاوبه بإيماءةٍ، ومضى عائدًا إلى القصبة، حيث سرى بين الجند خبرُ ولادة الطفل.

جاءت سَودان البُشرى، بينما كان يُتابع الرجال وهم يملأون جرار الزيت. حثَّ الخُطى مبتهجًا نحو القصر، وسط مباركاتٍ من العامة والخاصة. كان سعيدًا رغم ما يحدث في الآونة الأخيرة. طرق الباب، ففتحت رملة مبتسمةً، وأفسحت له الطريق وهي تتطلع إلى وجهه الذي غُمر بالغبطة. ما إن رأته ماريا، حاولت الاعتدال في الفراش..

- حمدًا لله على سلامتك.. حالما أخبروني جئتُ فورًا.

تطلع للصغير النائم إلى جوارها، مقطب الجبين، دُثر برداء من مخملٍ ليقيه البَرد. ولده، من محبوبته التي غامر من أجلها بكل شيء، وحسب في وقت ما أنه فقدها وانتهى الأمر. ها هو ذا يتطلع إلى ثمرة الصبر والحب. كان هائمًا في وجه الصغير المنير بالبراءة، لم تجرحه خيانة أو شقاء بعد.

- أي اسم اخترت يا سلطان باري؟

- عبد الله سأسميه عبد الله.. فالحمد لله على ما رزقني.

قالت رملة قبل أن تتوجه لمغادرة الغرفة:

- بارك الله فيما رزقك وجعله خير خلفٍ لك يا أمير باري.

قبَّل رأسِ الأم المنهكةِ، التي حملت الصغير ومدَّت يدها به نحوه، ولكنه لم يمد يديْه، فعقدت حاجبيْها مستغربةً، فقال ضاحكًا:

- أخشى أن تؤلمه يدي.. أخاف عليه من قسوة ساعد محارب.

- المرة الأولى التي تُفصح عن شيء تخاف منه..

- لكل منا مخاوف يا ماريا.

نظرت بعينيْه السوداويْن:

- لقد خلعتُ مخاوفي يوم رحلت عن روما وجئتُ إليك.. لا أخشى شيئًا وأنا جوارك وبين يديْك.

ابتسم وهو ينظر إلى ولده:

- أسمعت هذا؟ أمك تتغزل في أبيك يا فتى.

مرَّت لحظاتٌ وهي صامتةٌ تتأمل وجهه، فسألها عاقدًا حاجبيْه:

- ماذا بك؟

- أحب ضحكتك.. ولا أشبع من رؤياك.

قد تكون باري تحت الحصار البحري، ولكن المولود جاء بالأمل. كان موقنًا أن كل ضيقٍ نهايته فرجٌ، وأن المِحن تأتي قبل المنح. احتضنها، فأودعت رأسها في صدره، وشيء من خوف يلامس قلبها..

****

- سنهاجم قوات بنفينتو، ونرفع الحصار عن الحصن الغربي..

نطق بها سَودان، وهو يشير إلى المجسم الصغير للحصن على طاولته. كان رجاله يرون أن هذا القرار تأخر كثيرًا، فقابلوه بارتياح..

- قوات قَسورة لم تعد بعد، وأعدادُ المتطوعة من الجنوب تتناقصُ، والحرب قائمةٌ في برنديزي ومسلمة ما زال صامدًا. إن أفلحت خطتنا، سنكسرُ الحصار على البرج الغربي، وسنحرق أكبر عددٍ من سفن بيزنطة، ولنزينن البحر بمصابيح وقودها أشلاء بني الأصفر.

قاطعه الأغلبي بصرامته المعهودة:

- ليس بالنيات يا سيدي، اشرح لنا كيف لنا ذلك!

نظر إليه سودان لبرهةٍ.. الأغلبي يقول الحق، ولكنه لا يتفهم أهمية بث الحماسة وعلاج ضعف النفس. أكمل يشرح:

- ما إن نرفع الحصار عن الحصن الغربي، سننفذ هجومنا الثاني على القطع البحرية الأكبر حجمًا. مجموعاتٌ من السباحين المهرة يتسللون إلى السفن، ويضرمون النيران بها. لتنفيذ خطتنا يجب أن ننتظر المحاق، وحتى هذه اللحظة سيقوم الأغلبي بالإشراف على إعداد السبَّاحين..

- ولكنني أود الذهاب لفك الحصار عن الحصن الغربي.

- ومَن سيبقى ليُدير أمور باري في غيابي؟ سأقودُ المعركة بنفسي هذه المرة.. ولتبقَ أنت وصيًّا على باري ريثما أعود.. أليست قسمةً عادلةً؟

تبادل الرجالُ النظرات وقد توجَّسوا شيئًا لم يُدركوا ماهيته. هَمَّ الأغلبي بالكلام، ولكن سَودان تابع:

- ابن الرشيد، أريد منك جمع كل فرسان باري في ساحة القصبة قبيل ظهر الغد.. وأعلن في المدينة أننا ذاهبون للحرب.

انتهى الاجتماع، ومضى كلٌّ بما حمل من أوامر. بقي في الغرفة سَودان والأغلبي، تفصل بينهما المائدة الطويلة، تطلع كل منهما إلى الآخر لبرهةٍ، تحدث بعدها محمد قائلا:

- لمَ فعلت ذلك؟

- لأنني أثق بك يا أبا عبد الله..

تجمَّد الأغلبي أمام ابتسامة سَودان، الذي اتجه بخطواتٍ بطيئةٍ نحو الباب:

- على الناس أن تؤمن بما نستطيع تحقيقه، لذا سأقود الهجوم على الحصن الغربي. أنا أولى الناس بفعل ذلك، ولن يسبقني أحدٌ لنصرة إخواننا المحاصرين هناك.. كما فعلت يوم ذهبتُ إلى سان فيلي لإحضار كاراس لعلاجك. ذهبتُ لأجل إنقاذك يا أغلبي، وليس من أجلها.. والآن عليك أن تحميها هي وعبد الله الصغير.

ترك سَودان رفيقه الأغلبي منقبض الصدر غير متفائلٍ. لعل كل ما يحدث الآن هو مجرد وهمٍ. استند إلى الطاولة، وعيناه لا تُفارقان صورة باري على الخريطة الممتدة أمامه.

****

لملم جُند بنفينتو جرحاهم وقتلاهم من أمام بوابة الحصن، بعد يوم آخر يفشل فيه هجومهم ومحاولة تسلقهم للأسوار على سلالم خشبية، سرعان ما يحرقهم اللهب معًها، أو تُكسر فيسقطون من علٍ.

تزداد المحاولات صعوبة مع هطول الأمطار، لتتحول ساحة المعركة لبركةٍ من الطمي، فخ مناسبٌ ليصطادهم رُماة متحصنون بالأسوار القوية. أنهكهم القتال، وجيشهم يتناقص عدده كلما طالت أيام الحصار، لكنهم مطمئنون أن لا أحد سيُباغتهم، فباري محاصرةٌ من حلفائهم البيزنطيين. يبغضونهم، ولكن يبغضون عدوهم المشترك أكثر. الدوق إديلكي يريد نصرًا يمنحه المزيد من الامتيازات، وذلك الحصن هو جائزته في الطريق إلى باري، وعليه دخول الحصن قبل وصول جيش ملكه الكارولنجي. إنه يلوم نفسه على عدم اصطحاب المنجنيقات وقاذفات الرماح إلى الحصار. يحتسي شرابه، وعيناه لا تفارقان خوذته الذهبية التي وضعها أمامه على المنضدة، يتأمل رأس خنزير بري، هو شعار دوقيته التي يتمنى أن تصير مملكة في يوم ما. صرخاتُ هلع وفزع جذبته من حلم يقظةٍ لم يكتمل. زُلزلت الأرض، وحمحم الخيلُ والزبد يسيلُ من أشداقها، مع هجوم سَودان المباغت، وسرعان ما اشتعلت النيران في الخيام، وذعر الجند المنهكون. فرسان باري اقتحموا الجانب الأيسر من المعسكر، يفتكون بمن يُصادفهم، ترتطم نواصي الخيل بالراكضين، وتنغرس الرماح بالصدور والأعناق، وقائدهم يُراقبهم راضيًا، قبل أن يُرخي لجام فرسه، مطلقًا صيحةً جعلتها تُسرع كَسَهم بين الأجساد المتدافعة، ورمحه يسبقه للنيل من رجال بنفينتو. خطته تسيرُ كما أراد، قسَّم قواته إلى فرقتين، يقود هو إحداهما مخترقًا ميسرة جيش بنفينتو، بينما الأخرى تدورُ حول تل الحصن وتنقضُّ على الميمنة، إعصارٌ من خيلٍ ونار مريدة بالخيام.. وفوق أسوار الحصن اتسعت عيون الحاضرين، فقد جاء المدد أخيرًا بعد المغيب.

بين الفوضى السيوف والصيحات، كان حملة الرايات يُنفذون أوامر أديلكي، فاتخذ المشاة وضعًا دفاعيًّا، رافعين دروعهم لأعلى، يتوسطهم الدوق الذي حثَّ ما تبقى من خيالته على التقدم من الجانبين، للتصدي للهجوم الجارف. سقطت الرايات ودهستها سنابك الخيل، وكأن خنزير بنفينتو البري اعتاد أن يُصرع. هرب المرتزقة أولًا أمام عينيْه الفائضتيْن بالغل والاحتقار لوضاعتهم. رأى وجوه رجاله مكسيةً بخوفٍ منبعه القلوب، فأشار لقادته بالانسحاب، فدوى بوق الفرج، ليركض من بقي حيًّا إلى الغياض الكثيفة.

****

أصعبُ المعارك هي التي نخوضها ضد أنفسنا. نفعل أي شيء من أجل الحياة وما نشتهي، وتبقى الآثامُ أيسر الطرق لنمنح أنفسنا ما تطمح، بمجرد أن نجترئ عليها للمرة الأولى. الشعورُ بالذنب أو اللوم لم يعد يُجدي نفعًا تحت وطأة الحصار. كل ما يريده هو الحرية.. أن تفتح أبواب الحصن ليخرج ولا يعود، فقد اكتفى من كل ذلك. لم يصدق صياح الجند، حتى صعد إلى السور ليجد كل شيء حقيقيًّا، وسلطان باري أنهى الحصار بمعركةٍ واحدةٍ. تأخر كثيرًا، ولكنه قَدم بالنهاية حاملًا الفخر. اضطربت مشاعرُه، وتأرجحت بين الفرحة والخوف. اندسَّ بين حشود الجند والناس، ليرى المرة الأولى التي تُفتح فيها البوابة منذ ما يقرب الشهرين. مجموعة خيولٍ قوية اندفعت لتجوب جنبات الحصن، ومن خلفها دخل سَودان يمتطي فرسه البيضاء في درعها الجديد. استقبل بهتافات النصر والتكبير، وترك رجاله يفرحون بحصاد غنائم جيش بنفينتو الهارب..

وبين الضجيج والفرح، كان ماركو يتطلع إلى سَودان. غريبةٌ هي تصاريف القدر. لو كانت فيولا قتلت الأمير، لما جاء أحدٌ لنجدتهم. ذكرى فيولا جعلته يرتجفُ. دار بعينيْه باحثًا عن شخصٍ ما، وحين

التقت عيناهما، تعمد أن يراه السلطان مبتسمًا، قبل أن ينسل من بين الحشود عائدًا إلى منزله. وقف لبرهةٍ يُحدق بجدران الغرفة، التي أخذت تضيق عليه أكثر فأكثر. وكأن كل الحلول والأفكار رحلت من رأسه، لم تبق سوى ذكرى ذلك اليوم الذي ذهب فيه للمدينة، وكان سَودان يجتمع بقسورة، حين رآها تقف مع صاحب الشرطة، وحين وقعت عيناها عليه لثمت قُبلة على شفاه شرحبيل، في رسالةٍ واضحة المغزى. بعدها أتت إلى مكمنه لتُقايضه، حياة مقابل حياة، ودماء مقابل دماء. امتلكت من السلطة ما يكفي لقطع رأسه، ولكنها لن تفعل مقابل أن يقتل من أجلها، كما ستفعل هي من أجله: اقتل قسورة، وسأمنحك انتقامك يا ماركو!

في صباح اليوم التالي، سار المُنادون يُبلغون الناس بأمرِ الأمير بحزم أمتعتهم للرحيل إلى باري، فلن يبقى في الحصن إلا الجند ومن أراد التطوع للقتال فقط. سَودان ذهب إلى بيت قسورة يصطحبهم بنفسه، فسألته إحداهن عن زوجها مستريبةً، فدعا الله جهرًا أن يكون بخيرٍ هو ومن معه. زوجات قسورة لسن إلا ككثيرات ينتظرن عودة أزواجهن، وها هو ذا الشتاء يُوشكُ على النهاية، ولم يعد قَسورة وجيشه بعد، ولم يأت عنه خبرٌ. خرج إلى ساحة الحصن، ليُتابع ما وزَّع من مهام، فلمح ماركو يقفُ أمام منزله، فاتجه نحوه. كان يُوليه ظهره حين حدثه:

- هل تملك دابة تنقل بها بضاعتك إلى باري؟

انتفض الولد، وقد فاجأه صوتُ سَودان. خفض رأسه:

- إنه لكرمٌ بالغٌ سيدي السلطان.. ولكن لا بضاعة لديَّ الآن، فقد قُمتُ بتوزيعها على أهل الحصن، حين اشتد الحصار والبرد.

ابتسم له سَودان، في ودٍّ لم يره منه من قبل..

- أرى أخلاق شُعيب فيك.

اعتصر ماركو قبضتهٍ، وكظم ما جاش به صدره. كيف له أن يكون مثل شعيب، وهو خائنٌ لشعيب. كيف له أن يكون دمثًا وهو قاتلٌ؟ ليت ما حدث ما كان.. ليته رحل حين حانت له الفرصة. لا يدري أصار يُبغض تلك المرأة، أم ما زال حبها جاثمًا فوق صدره. مشاعره متضاربةٌ، والواقع صار أعقد من أن يرحم عقله. منذ صادف ذلك الشيطان المدعو إليساندرو، انبسط أمامه طريقُ جهنم.

استدار سَودان ليمضي في طريقه، فناداه بلهفةٍ:

- سيدي، لا أريد العودة إلى باري.

قفز الأميرُ إلى فرسه قائلًا:

- لا أظن أنك تستطيع القتال!

- بل أستطيعُ الرمي.. لقد تدربتُ كثيرًا في الآونة الأخيرة.

سكت سَودان يُفكر لبرهةٍ، قبل أن يقول له بابتسامةٍ مشجعةٍ:

- افعل ما يحلو لك. ولكن عليك أن تعلم بأن الحرب لم تنته، وسيكون هنا بأسٌ حقيقٌ، طالما ظل هذا الحصنُ قائمًا، وعليكم الصمود، عسى صاحب الحصن يعود، فيقوي شوكتكم. لا نعلم ما تُخفي الأيام

لنا.

- هل هناك أخبارٌ عن الأمير قسورة؟

كاد صوتُه يرتعشُ، لولا أنه الأمير المحارب. ردَّ بقوةٍ:

- حتمًا سيعود.. لا شيء سيُوقفه عن العودة.. هذا صاحبي وأعرفه جيدًا.

ابتسامةٌ باهتةٌ ارتسمت على شفتيْ ماركو، الذي تابع سَودان وهو يلكز فرسته لترحل عن الساحة. كان يُصارع وسواسًا بداخله. سيرحل حالما تنتهي الحرب، ويتوجه إلى روما ليبدأ حياةً جديدةً هناك. كان قد تيقن أن عليه فعل ذلك. إن السلطان لا يعرف بأمر أي شيء شارك فيه، ولن يعرف قسورة بالأمر أيضًا، وعليه ألَّا يتعثر في ظلمات الذكرى، فكل من يعرف بأمر ما حدث قد دُفن.

****

في كوخ صغير، ينفث دخان أبيض من مدخنةٍ سوداء، يُحيط به سياجٌ يمنع بضع عنزات من الخروج إلى غياَهب الغَابة، كان العجوزُ مقرفصًا، والصغيرة بين ذراعيْه، لا تكف عن البكاء منذ الليلة الماضية. غرس الجوعُ مخالبه بأحشائها، وهو قد طاف بها على قدميْه بحثًا عن شيء يُؤكل أو يُشرب، فحصانه مات منذ أسبوع. أهل القرى يستقبلونه بتوجسٍ وريبةٍ، ولكن الشفقة غلبت قلب إحدى القرويات، فصاحت بجرأةٍ في وجه زوجها، وأخذت مارياً فأرضعتها حتى شبعت، لكن أهل القرية أجبروه بعدها على الرحيل. رحل يجرُّ قدميْه، ويربت ظهر الرضيعة النائمة على كتفه، حتى وجد ذلك الكوخ، فوقف أمام السياج يتطلع إليه والثلج الخفيف يتطايرُ من حوله، واليأس من أن يترفق بهما ساكنه يأكل قلبه.

هل صفح عنه الرب، أم هي بركة ماريا الصغيرة الطاهرة؟ لقد فُتح الباب دون أن يطرقه، لتخرج منه عجوزٌ تحمل جرةً لا تتناسب مع حجم جسدها، بكت الصغيرة في هذه اللحظة، فتوقفت العجوز والتفتت ناحيتهما، وأخذت عيناها تتفحصانه.

داخل الكوخ جلس لورينزو يُتابع المرأة التي تغرف له الحساء الساخن. خوفُها على الرضيعة الجميلة هو ما منحه الدفء والمأوى. وضعت الطبق أمامه، وأخذت الطفلة منه لترضعها حليب الماعز. نام كالميت من شدة الإرهاق، تاركًا حفيدته لصاحبة الكوخ، حتى استيقظ على يد العذراء توقظه، ليجد أن النيران التهمت كل ما بناه، وسان فيلي تحترق، وصرخات زوجته إيلينا وهي تُهرول، وكاترينا تأكلها النيران فيما كانت غرفة إليساندرو جحيمًا مُستعرًا، فما درى كيف خاضٍ الدخانٍ والنار ليحمل الطفلة، ويقفز من النافذة المشتعلة. رأى رجاله صرعى، والخيل تركض مشتعلةً فزعةً، والصراخ يملأ سان فيلي.

فتح عينيْه على وجه صاحبة الكوخ، وهي تهزه بيدها بقوةٍ..

- لقد كنتَ تهذي وتصرخ. أهم السراسنة من حرقوا قريتك؟

اكفهرَّ وجهُه، واختلطت كلماته ببكائه..

- لا، لم يكن السراسنة من فعلوها..

هدهدت الصغيرة تعيدها للنوم، وسألته:

- أتنتمي لعائلتك، أم أنقذتها؟

- اسمها ماريا، حفيدتي، وكل ما تبقى لي بهذه الدنيا. لن نطيل عليك مكوثنا يا سيدتي، فأنا أنوي بلوغ روما بها قبل أن تتراكم الثلوج بالطرقات.

- يُمكنك المكوث هنا حتى ينقضي الشتاء. كما ترى، الكوخُ واسعٌ، أنا وحدي فيه، ليس معي سوى بضع عنزات وحقلي الصغير خلف الكوخ.

- إنه لطفٌ منك أن تؤوي غريبًا لا تعرفين اسمه.

ابتسمت..

- أوصى المسيح بضيافة الغرباء.. ولعله هو من قادك إلى هنا لحكمةٍ ما.. امكث، فالصغيرة تحتاجُ للدفء والرعاية.. نحن بعيدون عن طريق الجيوش وأرض النزال. الجنوب مستعرٌ، ومدن السراسنة تتهاوى، وفلول الجيوش تقتتل، ومن الخطأ أن تسير وحدك في تلك الأنحاء.

كانت صاحبة المنزل تُطيب خاطره بقلبٍ مؤمنٍ، جعله ينظر في قلبه بندم وحزنٍ. لقد خَسر البنت ثم الولد، ثم العشيرة والأملاك.. لم يبق له سوى حفيدةٍ جميلةٍ واهنةٍ، لا يعلَم إن كان الرب سيُنعم عليه بالعمر ليراها تكبر أمامه. يد الحزن الشرير تخترق صدره وتتلذذ بعصر قلبه، ولكن وجه العذراء ينتشله ويُهون عليه الألم، فقد جاءته يوم ميلاد ابنته وجاءته توقظه يوم الحريق، والآن لا تُفارق ذهنه هي وابنته ماريا. فكّر كثيرًا في الذهاب إلى باري بدلًا من روما، فربما هي الأولى برعاية ماريا الصغيرة. ولكن أخبار الحرب اللعينة تمنعه من كل شيء عدا أن يبقى في هذا الكوخ.

في تلك الأثناء، وعلى بعد مئات الأميال، كانت باري تستقبل الغيوم الرمادية الكئيبة. ورغم الحُمى، وبرودة الجو، إلا أنها نهضت من فراشها حين أخبروها بعودته من الحصن الغربي منتصرًا. قبَّلت جبين رضيعها، ثم دثرته بالفراش، وتطلعت بوجه رملة مبتسمةً في وهنٍ، قبل أن تتجه صوب الباب وهي تعدل وضع حجابها. هرولت إحدى الفتيات نحوها قائلة:

- مولاتي، لا تخرجي، فالبرد قارسٌ، وأنت محمومةٌ!

- أريد رؤية سَودان.

رمقت رملة الفتاة، فتنحت جانبًا، فوضعت رملة على كتفي ماريا عباءةً من فراء. ربتت رملة عليها وقالت:

- لا تبقي بالخارج كثيرًا!

- شكرًا لك رملة.. شكرًا على كل شيء. سأراه فقط، وأعود.. ألن تأتي؟

نظرت إليها رملة في إشفاقٍ، ثم ابتسمت لها وقالت:

- هيا يا ماريا، أدركي رجلك قبل أن ينشغل!

ابتسمت لها ماريا ممتنةً، واتجهت إلى الباب، ففتحته الجارية، فلفح الصقيعُ جسدها المحموم. بخطواتٍ مرتجفةٍ بطيئةٍ سارت عبر الحديقة تتكئ على ذراع جاريتها، فتابعتها أبصارُ الجند، والهواء يتلاعب براية باري فوق البرج الكبير، وهي تتجه إلى الساحة، حين رآها الأغلبي، فهمس بأذن صاحبه. انتفض سَودان واستدار، ليجدها تعبر حديقة الحصن الجرداء، فنزل الدرج بوثباتٍ سريعةٍ، حتى صار أمامها..

- ماريا! ما الذي جعلك تنهضين من الفراش؛ أنت تحتاجين للراحة!

غلبها الإعياء، وخانتها ساقاها، فكادت أن تسقط، لولا أن أدركها. كانت سعيدةً، ثغرها انفرج ببسمةٍ. بخفوتٍ قالت:

- كان لا بد أن أراك قبل أن تنشغل.

- مجنونة أنتِ.

- لقد كان كل شيء يستحق المجازفة والجنون، والموت أيضًا.

- ماذا الذي تقولين؟! اشتدت عليك الحمى حتمًا، سأحملك إلى غرفتك، وإياك أن تُغادريها ثانية.

- دعني إلى جوارك يا سَودان!

أتبعت كلماتها الخافتة بشهقةٍ آلمته، فانتفض محملقًا في وجهها الشاحب وهي تستطرد بصعوبةٍ:

- عرفت السعادة بهذا القصر. أحبك يا سَودان ولطالما فعلتُ.. ابننا سيحكي قصتنا دومًا.

- ستقصيها على مسامعه كل يوم حتى ينام، وسيكبر على عينك..

ارتسمت على وجهها جدية لم يعتدها عليها..

- سامحني إن خذلتك يومًا.. أنا لم أسامح نفسي منذ ذلك اليوم، حتى بعد أن جئتك. لقد كنت...

قاطعها سَودان :

- علينا العودة للداخل، بعيدًا عن هذا الصقيع. هيا تعافيْ بسرعةٍ يا ماريا، فهناك الكثير من القصص والأحلام أنتظر أن أسمعها منك..

تشبثت بذراعه:

- أنت الحُلم والواقع يا سَودان. أنت الدرع التي تحمي الآلاف من الناس. سيحكون الكثير من القصص والبطولات عنك، ولكن ستبقى أنشودتي وحدي.

تيبست على وجهها ابتسامةٌ شاحبةٌ، وارتخت جفونها الذابلة بعد عبارتها هذه. حدَّق فيها كثيرًا، قبل أن يهمس باسمها مرة.. اثنتين.. ثلاثا.. ولم تُجبه!

الغيمُ، والليل، والحربُ، وموتَ النقاء.. وصمتت ساحة الأحزان، والسماء تبكي شذراتٍ من ثلج بيضاء كقلب ماريا. حملها بين ذراعيْه، ولم يستحي من دمعه.. أراد أن يصرخ وأن يسمع العالم وجع قلبه. أخذ يحدثها..

- إنها تُثلج يا ماريا، كيوم مجيئك إلى باري..

اختلطت الصورُ في ذهنه.. أبو المغوار وهو يبتسم له ويقول له: أحبب من شئت فإنك مُفارقه.. سَودان الصغير في ليلةٍ شبيهةٍ يجلس على سور النافذة يُشاهد هطول المطرِ في صمتٍ وقد ماتت أمه.. عبد الله بن الأغلبي مُسجي في فراشه.. أبو المغوار على السفينة راحلا بلا رجعةٍ.. ماريا.. ماريا.. كل المشاهد صارت ماريا، حتى ليكاد يرى روحها تطل عليه من السماء.

يده المرتجفة أزاحت خصلات شعرها جانبًا, يُهدهدها بين ذراعيْه باكيًا, نشيجٌ ونحيبٌ وألمٌ يغزو صدور الحاضرين, دمعٌ دافئٌ انساب من أعينهم أنهارًا... يُباغتنا الفراقُ دومًا, وحين نُدرك أن لا عودة للذي فارق نحترق. يكتوي الوجدانُ ويستعر الفؤاد, وعندما نعي أنه لم يعد بالإمكان أن يُجمع بيننا بعد الآن نُهزم, ينتصر الحزنُ ويتملك من جوارحنا. تتأجج النيران بداخلنا تُحيل القلب إلى رمادٍ, نعلم جيدًا أن البكاء لا يُداوي جرحًا ولا يُحيي ميتًا, ولكننا نبكي... لأن الوجع أقوى من قدرتنا على التحمل... تمنى أنها لم تأت يومًا للمدينة, لعل الموت لم يكن ليمر بها, لو بقيت في سان فيلي ما ماتت بين ذراعيْه... كانت دومًا الأمل حين انقطع الأمل... كانت حبيبته... كانت ماريا.

****

عَنفت رملة ولديْها ليتوقفا عن الضجيج. لم تكن هذه عادتها أبدًا، نادتهما وربتت عليهما معتذرةً، وشرحت لهما بقدر ما تستوعب طفولتهما أن السلطان ما زال في حداده، وعليهما احترام حزنه. أمرت المُربي أن يشغلهما بدروس الكتابة والخط، ثم تركتهما إلى غرفتها لتتفقد الرضيع النائم في فراشه. لم يُفارق مضجعها منذ وفاة أمه. في الليلة الأولى، وبعد أن دُفنت، عاد سَودان إلى غرفة ماريا، وأوى إلى فراشها محتضنًا الصغير، وظل يُنهنه حتى بعد أنه غلبه النوم. كان أكثر أهل الأرض حزنًا. مرَّ على وفاتها شهرٌ، صار فيه أكثر صمتًا، لكنه يُشارك في كل المعارك بين الخليج والمرفأ، ولم يدع قدم عدو تطأ أرض باري إلا وقطعها. بعد صلاة العشاء، كل يوم يزور قبرها، فيبكي، تظله غيوم رمادية كئيبة لم تُفارق سماء باري، تذرف معه قطراتها، لتغسل عن قلبه الحزن وعن درعه الدماء. يسند ظهره إلى شجرة لوز تظلل القبر، وإن تعرت أغصانها، ويربت بيده على لحدها، يقضي ما يقرب الساعة، ثم يتجه إلى غرفته، بعد أن يمر برملة ليطمئن على الجميع، ويختص وليده ببضع دقائق يلصقه بقلبه.

حاولت رملة أن تُحيطه بدفئها، لعلها تعوضه عمن فقد، ولكنها فشلت. لم تجد سوى رعايتها الفائقة لابنه الرضيع مواساةً له. صار موعد مخاضها بين يوم وآخر، وراح عقلها يُراود ذلك الوسواس أن يصبح مصيرها كماريا، وتترك أطفالها الثلاث. تحسستً بطنها المنتفخ متمتمة:

- لا أدري إن كنتَ صبيًّا أو جارية، ولكن أعلم أني أحبك، وأن أباك لن يتخلى عن وجودك أنت وإخوتك مهما حدث.

...

فوق البوابةِ الرئيسيةِ للمدينةِ، كان الأغلبي يقف بين زمرة رجاله، يُنهي حديثه معهم، ليتوجه كل منهم إلى ما وكل به. أما هو، فقد استند بكلتي يديْه على حافة السور، متطلعًا إلى الحقول الممتدة، وقد أهلَّ الربيع عليها بكساء أخضر. لم يُهمل أهل باري أراضيهم، رغم الحصار البحري. يخرج أغلبُ الرجال للحرب، ولكن بقيتهم، ومعهم النساء يرعون الحقولِ بين المدينة والحصن الغربي، الذي تخلص من الحصار. عقد حاجبيْه وهو يُحدق بشيء ما. لم تُوقد الشعلة الكبيرة منذ عاد سَودان برجاله من الحصن. تجمَّد مكانه، بينما يتهافت الرجالُ لحافة السور، ليُشاهدوا ما يحدث، ثم بدأت الهمهماتُ، ثم أتبعتها الضحكات، وصاروا يُلوحون للقادمين من بين الأشجار، يتقدمهم الفحل الأسود ذو السرج الأرقط.

في كل مرةٍ تُكتب لنا النجاة، نعرف أن شيئًا جديدًا ينتظرنا في الأيام المُقبلة، مدَّت أعمارنا لنكونَ من يقوم به. هكذا كان يُفكر قسورة، حين دخل المدينة المبتهجة لعودته. التهليل عمَّ المدينة، والفرحة خرجت على استحيائها الطويل، مع عودة فرسان الكتيبة لمنازلهم. أما قسورةُ، فتوجه إلى القصبة، وقابله الأغلبي عند بوابتها، فعانقه مكبرًا، وبقية القادة. أخبره الأغلبي بانتقالِ أسرته إلى باري بأمر سَودان، لكن كان عليه أولًا أن يحكي للسلطان أنباء رحلته.

- ثلاثة أشهر قضيناها في معارك لا تتوقف، ضد قوات الملك الكارولنجي، وبين الكر والفر كانت لنا الغلبة. استطاع حشد المزيد من المرتزقة من شتى أنحاء أوروبا، فلم يكن من سبيلٍ للنصر التام أمام جيش يتضخم أكثر في كل يوم، فاخترت بعد مشورة الرجال أن نخلي القرى الواقعةَ على طريق الحرب، حتى نُجنب الناس الهَلاك مع تقدم جيش الإفرنج. خرج الركبُ من سبينازولا متجهًا إلى أعماق كالابيرا، بغالٌ وخيولٌ تحملُ متاع الراحلين عن ديارهم، يطمئنهم الرجال، ولكن قلوبهم كانت معلقة بمنازلهم، يرجون العودة يومًا. وبعد أن تم الإخلاء، أقمنا المتاريس، وتربصنا بجيش الإمبراطور على الطريق المؤدي للجنوب. لم يأت، فأرسلنا الكشافة، الذين عادوا ليُخبرونا أن جيش الإفرنج اتخذ طريقًا آخر، فعرفت أنه لا يريد كسب المزيد من القرى والمدن، بل إن هدفه القلب.. كان يريد باري.

سرت همهماتٌ في القاعة الكبرى، وبدا الوجومُ على وجه سَودان، الذي سأل بصوتٍ مرتفعٍ:

- كم بقي معك من الرجال؟

- ألف فارس، وثلاثة آلاف من المشاة، هم من تبقى من جيشٍ كان قوامه سبعة آلاف رجل.

ساد الصمتُ لبرهةٍ، قبل أن يسأل سَودان:

- وهم.. كم عددهم؟ ومن قائدهم؟!

بدا الحنقُ في وجه قسورة، بينما يقول:

- أربعون ألفًا، يزيدون أو ينقصون قليلًا، وعلى مقدمتهم إمبراطورهم المقدس لويس الثاني. الأسْرى أخبرونا أنه يقودُ حلفًا مع البيزنطيين الجاثمين بالبحر أمام باري. علينا حشد الجنوب، والإسراع في طلب العون من الأغالبة وإقريطش.

زفر سَودان تعبه، وقال بنبرةٍ باردةٍ..

- لقد مات مسلمة في حصار برنديزي، والآن قيس يُحاول المقاومة.. الأغالبة يُجهزون حملتهم إلى روما، والتي كان من المفترض أن نلحق بها.. وسفنُ إقريطش لم تأت بعد. كان من الخطأ الاعتماد على السرايا فقط في الصيف الماضي.. لقد أخطأتُ في تقدير الأمور، حين حسبت أن راحة الرجال فرصةٌ جيدةٌ لنشق طريقنا إلى روما مع الأغالبة، ولكن حدث ما حدث.

تطلع الرجال لوجه سَودان، الذي سار بينهم مستطردًا:

- كم يبتعدون عن باري؟

- خمسة أيام عن الحصن الغربي.

قالها قسورة وهو ينظر بعينيْ سَودان، الذي وجَّه حديثه لقادته:

- والآن، الأمرُ شورى بيننا.. ربما يبدو أن لا خيار سوى المواجهة هنا، أو في السهل الممتد بين الحصن والمدينة.. ولكنني أقترحُ أن نتخلص من البيزنطيين أولًا..

تبادلوا النظرات دون أن يُبادر أحدهم بالحديث. تعلقت العيون بسَودان في صمتٍ لم يدم طويلًا، قطعه الأغلبي بصوته الأجش:

- الرجالُ جاهزون منذ فترةٍ، وينتظرون إشعال المصابيح بالبحر.

أشار سَودان له بأن يُكمل حديثه. وقف الأغلبي يُواجه الرجال، وأخذ في شرح خطة الحرب، ثم انتظر لبرهةٍ، ونظر إلى سَودان، الذي قال:

- لم يعترض أحدٌ. على بركة الله إذن.

مضى سَودان إلى خارج القصر، تاركًا الرجال يتناقشون فيما بينهم. وقف عند حافة البركة، التي لطالما أحبتها ماريا، ينظر إلى أول زهرة تتفتح حولها منذ رحلت من كانت ترعاها. خريرُ الماء يُضفي صفاء على المكان ذكَّره بصفاء صاحبته. كان شاردًا، حين سمع صوت قسورة الممتلئ بالأسى من خلفه:

- إنما البقاء والدوام لله يا صاحبي. والله إني حزينٌ لما حلَّ بساحتك، للتو أخبرني الأغلبي، وقد كنتُ أتساءلُ عن السبب الذي اغتال الحماسَ الذي اعتدنا على وجهك. عجيبٌ أمرُ القدر وتصاريفه، ولكن لا مردَّ لقضاء الله.

أومأ سودان برأسه، وباح لصاحبِهِ، تفضح نبرتُه الحزينةُ مواجعه:

- أفتقدها يا قسورة. كانت نسمةً عبرت صحرائي، وما منحتها منِّي ما تمنت. مال الفقدُ يُصاحب أيامي يا قسورة؟!

لم يملك قسورة ردًّا على صاحبه، فما اعتاد منه إلا قوة القائد، وفاجأه منه هذا الإنسان المُحب الحزين، الذي كان يجب أن يعرف بوجوده ويرعاه من قبل، فهو الصديقُ الأقربُ له، ولكن كم يغفلُ الصديقِ عن غِياهب صديقه، ويكتفي بألا يرى إلا كما يرى الأبعدون. التفت إليه سَودان، يرسم ابتسامةً باردةً على شفتيْه..

- هي إرادة الله يا قسورة.. قريبًا ستلد رَملة، وسأصيرُ أبًا لاثنين، وهذا كرمٌ من الله.

ابتسم قسورة، حين شعر بأن صاحبه قد سكنت جوارحه، فوكزه مازحًا:

- إذا كان صبيًّا آخر، ستسميه قسورة؛ أليس كذلك؟

- ولربما كانت فتاةً.. لقد رأيتُ في منامي أبا المغوار يحملُ رضيعةً جميلةً يُناولها لي..

- أشتاقُ لأبي المغوار.. ترى كيف حاله، وأين حط؟

- جميعنا نشتاقُ لذلك العجوز، حتى جدران باري وبحرها. يعلم الله أنه لو كان هنا، لتركتُ له الأمر، وأخذتُ الجيش واخترقتُ الجموع، حتى أضع رايتي فوق بوابات رومية..

ربت قسورة على كتف سَودان وهو يقول بصوتٍ خافتٍ:

- سنفعلها معًا يا صاحبي..

سكت لحظةً، ثم قال:

-عليَّ الذهاب للبيت القديم لرؤية زوجاتي والصغار.. سَودان لك الشكر الجزيل على ما فعلته لأجل أسرتي وعائلات الحصن الغربي. لو كان أحدٌ غيرك ما فعلها.

****

حَمل الرجالُ الأشداء القوارب جديدة الصنع، المطلية بالأسود، ذات الثلاثة أزواج من المجاديف، والأغلبي يُشرف على مرور آخرِ قاربٍ، أسفل سقالةٍ تحمل قوسًا حجريًّا كبيرًا من بناءٍ لم يكتمل بعدُ في ظل الحرب. كان المكان ضيقًا جدًّا، فتعثر أحدُ الرجال ليرتطمَ بعمودٍ خشبي، فاختلَّ توازنُ القارب ليضربَ العارضة الكبيرة، وقبل أن ينتبه الأغلبي وبقية الرجال، كانت الأحجارُ تتهاوى فوق الرؤوس. ترك الرجالُ قواربهم، وهرعوا عائدين لتفقد رفاقهم، وقد ثار غبارٌ وجلبةٌ وحصيلةٌ من خمسة مصابين وسادسهم الأغلبي، الذي جُرح رأسُه وسالت الدماء على وجهه. بلغ سَودان الأمر، فأسرع برفقة قسورة إلى المكان. توتر الجندُ بعد إصابة قائدهم، الأغلبي، الذي كان يشعرُ بمرارةٍ تحرق جوفه، وقسورة يشير للرجال بحمله مع المصابين إلى القصر، وعلى حافةِ الشاطئ حلَّ محله سَودان، يُتابع نقل جرار الزيت إلى القوارب.

فُوجئ سودان بعودة الأغلبي وقد ضُمد رأسه، فضحك وهو يقول له:

- يا أبا عبد الله، ارفقْ بنفسك، فالمهمة جسيمةٌ، تحتاجُ عافيةً.

مرَّ الأغلبي بجانبه متوجهًا إلى القارب:

- أوقفني إن استطعت.. والله لن يُشعل القناديل بالبحر سواي.

فوق البرج الكبير، وقف سَودان وقسورة يتطلعان إلى باري، التى أمرت منازلها بإطفاء المشاعل، في ليلةٍ ظلماء، اختفت فيها القوارب السوداء في سواد البحر. طال الترقب، ومراقبة سفن بيزنطة الرابضة في الأفق، والحديثُ موصولٌ بين الصاحبيْن عن الأغلبي، والذكريات الطويلة. هلل أحدُ الجند فرحًا، وتبعه كلُّ مَن وقف يُراقب حاملا الرجاء، وتوجهت الليلة الظلماء بقناديل الأغلبي ورجاله.

احترقت سفن بيزنطة، وشاهدوا الشواني الكبيرة تغرق، ووصل الصراخَ إلى أسماع الواقفين على الشاطئ، وأضيئت باري من جديدٍ.
وما زال سَودان عاقدًا ذراعيْه أمام صدره يَرقب البحر.. حين توقف الضجيجُ، مع نداء الخطر..
الحصنُ الغربي يستغيثُ! استدار سَودان، ليرى منارة الإنذار مشتعلة، ومن بين الظلام الدامس، بدأت آلافُ المشاعل تظهر رويدًا بالأفقِ البعيد.

****

أخفافُ الإبل تتهادى فوق الرمال الناعمة، في قافلةٍ كبيرةٍ شقت طريقها بصحراء قاحلةٍ، وفي مقدمتها تجاور راكبان يتبادلان حديثًا عن أحد المسافرين معهم، ذلك العجوز ذي العين الواحدة، الذي أرهقهُ هَجيرُ القيظ، وتسلل الإعياء لجسده. أشهرٌ مرَّت، ورحلةٌ طويلةٌ قطعها بصحراءٍ محاطةٍ ببحر سراب، يتَوسطه مشهدُ الرحيل وأسوار باري العالية والمئذنة الشامخة تبدو صغيرةً عند الأفق، قبل أن يبتَلع البحرُ ذكرياتٍ تخطت ستة عقودٍ من الحرب والقضاء. رحل وترك كل شيء خلفه، حاملًا في نفسه سرًّا أثقل كاهله. مشقة الرحلة لم تُثنه عن إكمالها، فقد آن الوقت الأنسب للرحيل، ولم يبق من العمر سوى خريفِ النهاية، وبقاؤه سيُجبره على الميل إلى أحد الجانبيْن، وكأن الماضي يأبى إلا التكرار.

بعد الظهيرة، توقفت القافلة، وأناخ الغلامُ الجمَل، فترجل أبو المغوار متطلعًا إلى واحةٍ ذات نخيلٍ كثيفٍ وأشجارٍ ملتفةٍ على صخورٍ ضخمةٍ، قابعةٍ عند السفح الرملي. الخيالة ترجلوا يتشاورون مع قائد القافلة، وأُنزلت الهوادج عن ظهور الأبعرة، وأخبره أحدهم:

- سنُخيم هنا للراحة، وبعدها نُكمل رحلتنا.

أشار أبو المغوار نحو الواحة القريبة:

- أوليس من الأفضل أن نُخيم هناك؟

- أنت بعيدٌ جدًّا عن ديارك يا رفيق الدرب، وأظنك تجهل الكثير من أمور الصحراء. منذ أن خرجنا من الفسطاط لم تتحدث كثيرًا، هيئتك وملابسك يُوحيان لي أنك من سادة القوم، ويبدو أنك من ثغرٍ ما يُطل على بلاد الروم، لم تتحدث طوال الطريق مع أحدٍ سوى سائق دابتك، الذي أخبرني أنك وعدتهُ بأن تمنحه ثمن ناقةٍ حين تصل إلى مكة.. وما المقابل من ذلك، لماذا تركب رُحل البسطاء بدلًا من البحر.

ابتسم أبو المغوار بهدوءٍ وصوته الرخيم يخترق أذن الرجل:

- لم تُجبني عما سألتك..

أثار هدوؤه حنق صاحب القافلة، فردَّ بتأففٍ:

- تلك مأسدةٌ، من الخطر الاقتراب منها. سنبيت هنا، وستبعد النيران السِّباع عن مخيمنا.. الخيالة والصقارون وحدهم من سيذهبون للصيد وملء القرب.

التفت لينصرف عنه، فقال أبو المغوار:

- جُزيت خيرًا.. أرأيتَ أن إجابة السائل خيرٌ من الخوض في حديثٍ لا نفع منه.. من حيث جئتَ، يُوقر الناسُ شيخًا مثلي.

تلعثم الرجلُ محرجًا:

- عفوًا أيها الشيخ.. اعذرْ ما بدر مني، ولكن الفضول ينتابُ قلبي منذ رأيتك للمرة الأولى في الفسطاط.. بحثك عن قافلة حج في هذا الوقت المُبكر لا يقوم به سوى البسطاء، مَن لا يستطيع تحمل نفقة البحر..

ربت أبو المغوار على كتفه مبتسمًا:

- لا عليك يا رجل، سأسامحك بشرط.. أن أذهب مع الصقارين للصيد.

أومأ الرجل برأسه ضاحكًا:

- عليك أن تُريح جسدك، فقد كانت رحلتنا شاقةً.

- قد أبدو شيخًا، ولكن هل رأيت قامتي محنيةً؟! لقد امتطيت ظهور الخيل أكثر ما وطئت الأرض.

تعجب الخيالة من عجوز يمتطي جوادًا يقف على قائمتيْه الخلفيتيْن، يصهل ثم يعدو فوق الرمال الناعمة، خطواته تُثير الأرض. كان أبو المغوار فرحًا بما يفعل، كيافعٍ يمتطي الخيل لأول مرةٍ. أطلق العنان ليسبقهم نحو الوادي، رغم تحذيرهم له بعدم الاقتراب، وراح يدنو من الواحة، قبل أن ينتبه لوقع حوافر حصانٍ آخر يقترب منه بسرعةٍ، وفارسه يصيحُ:

- توقف يا سيدي.. توقف!

جذب اللجام ليُبطئ من سرعة الجواد، توقف، فاقترب منه الفارس وهو يشير إلى الأشجار القريبة:

- ليس علينا الدخول إلى هنا بهذه الطريقة.. فتلك عريسة سباع.. انظر هناك بين الأشجار الكثيفة..

نظر أبو المغوار حيث أشار إليه الفارسُ، فما رأى سوى أغصانٍ متشابكةٍ، وظلالٍ كثيفةٍ.. أطلق الفارسُ صفيرًا، فارتفعت رؤوسٌ ذهبيةٌ من بين الحشائش. جحظت عينه الوحيدةُ.. كان يُحدق في زمرةٍ من السباع، تربض على مسافةٍ منهما.. لبؤاتٌ ذهبيةُ الفراء، لها عيونٌ جميلةٌ وحشيةٌ تأسر القلب. لم ير هذا الجمال بين الضواري من قبل. لم يُصادف في حياته أسدًا حيًّا، فقد أتى من بلادٍ بعيدةٍ، الأسود فيها كُنية للبشر. خطر مُعلمه أسد بن الفرات في باله.. ولكن مهلًا.. أين كبيرهم؟ جال بعينه في المكان بحثًا عنه. ارتطم بصره به تحت نخلةٍ مائلة الجذع، يقف في تحدٍّ بلبدةٍ ذهبيةٍ كثيفةٍ، وعينيْن بلون شمس الصبيحة، واسعتيْن تُحدقان فيه بتحدٍّ، وقد انتصبت أذناه وبرزتا من بين شَعره الغزير. كان لقلب أبي المغوار نصيبٌ من الرهبة في تلك اللحظة.. وجهٌ لوجهٍ أمام ليثٍ حقيقي. أقصى ما رآه من السباع كانت ذئاب غابات فوجيا قرب بنفينتو، ويذكر أنه رأى يومًا وشقًا مقتولًا بسوق بنفينتو. انتشله الفارسُ من جموده هامسًا:

- سنكتفي بصيد طير الحبارى اليوم، وغدًا نرى أمر المياه.. فلنرحل الآن.

نيرانُ المخيم أضاءت تلك البقعة من الصحراء، ونامت القافلة إلا من تكفلوا بالحراسة، وبعض

الساهرين تجمَّعوا في حلقةٍ حول نيرانٍ تَدفئ أجسادهم. الصقيعُ تملّك الصحراء في غيابِ الريح. آلافَ النجوم تجمَّعت بالسماء، منذ بدء الخليقة تضيء دروب السالكين، وشهدت على أخبار السابقين. تُشبه نجوم باري وإن اختلفت الأرض. جلس أبو المغوار بين المتسامرين، الذين يُثرثرون عن كل شيء، حتى سأله أحدهم: من أي النواحي أنت؟

- لقد قضيتُ ثُلثي عمري بالقرب من رومية. ملكنا تلك الأنحاء من البر الطويل، وكان مقامي بإمارة باري، التي لا مثيل لها بين البلدان، ويُسميها أهلها بارة. كانت زاد عيني الواحدة، وقد اجتمع الحُسن فيها. مدينة قديمة على سيف بحر، تتكسر أمواجه على سورها بديع البنيان. في أيام الجَزر يظهر بأحد خلجانها كهفٌ يتصل بالقصبة، ومنه دخل الأمير الفاتح خلفون ورجاله، أحببتُ مئذنة المسجد الجامع المهيبة، وأسوارها المُحاطة بنخيلٍ، استجلبه سَودان من مصر والقيروان، إن السفن لا تتوقف عن الإياب والذهاب، وقرص الشمس يطفو كل يوم على بحرها، وفي المغيب ترى ظلال حصن قسورة التميمي تتوسط حمرة السماء، بينما في الشتاء تتشبه قمم الأشجار بالجبال البعيدة، وتعلوها ثلوجٌ ناعمةٌ كرمال الصحراء.

طال حديثُه عن بارة ونابولي وساليرنو.. عن جبل فيزوف والتلال الخضراء.. أخبرهم عن بلادٍ لم يتخيلوا ما بها، وثغورٍ بعيدةٍ، وقلاعٍ مكسوةٍ بثلوج الشتاء.. موانئ طارنت وبلرم ومياه الخلجان الصافية، وأمراء الحرب المرابطينَ هناك. أسهب في وصف الحروب، ويوم فقد عينه عند أسوار رومية العظيمة. كانوا شغوفين بحكاياته، فلطالما سمعوا عن قصور صقلية وعظمة رومية، وها هم أولاء الآن يجلسون إلى رجلٍ يُخبرهم عن إخوةٍ يُشاركونهم نفس الدين واللسان بها رغم البعد.. ظلت الحلقة تتسع للساهرين، ثم بدأوا يُبادلونه الحكاية بحكاية، ذاك يقص عن بغداد، وهذا يتغنى بعز دمشق. حين شَعر بالنعاس، استأذنهم ليُقيم ليله قبل أن يخلد للنوم بقرب النيران. وضع جانبه الأيمن على فرشٍ خشنٍ، وأرخى جفنه، فمرَّت بعتمته وجوهٌ وذكرياتٌ، ولكن شيئًا واحدًا استقر أمامه ليزيح البقية.. وجه الليث الذي قابله اليوم.

بعد يوم وليلةٍ من الراحة، حزمت القافلة متاعها من جديدٍ، يُثرثر أفرادُها عما دار عند بركة الماء، وكيف أصاب أحدُ الغلمان أسدًا كبيرًا بسهمه. كان أبو المغوار يستمع لحديثهم، فامتعض وعيناه ترقبان السهل المنبسط إلى الواحة. ربت قائد راحلته على كتفه، وقام الجملُ به ليتحرك مع الركب. قبل أن يتركوا مكانهم، رجَّ الزئيرُ ما بين السماوات والأرض، فتوترت الخيلُ والإبل، واشتعل لهيبُ الحرب في الوادي. ثلاثة أسود كبيرة تقاتل بشراسةٍ أسدًا أكبر منها حجمًا، لِبدته ذهبيةٌ لا يشوبها سواد. رغم جراحه كان صلدًا، أسال دماء ثلاثتهم بضرباته. إعصارٌ من غبارٍ عمَّ المعركة، وضرباتُ الأُسْدِ لا ترحم، تنغرسُ المخالب باللحم، وأنيابٌ تُمزق العضل، شهق الشهودُ عجبًا حين استطاع الأسدُ الكبير أن يعقر أحد مهاجميه، لم يتركه، فإذا بالآخريْن يستكينان فجأةً، ويخضعان بعد رؤية صاحبهما يُمزق.

سكن كل شيء، وظل الجمعُ يُتابع الأسدين يتشممان صاحبهما، وكأنهما سيتخذانه طعام اليوم. لم يُمهلهم قائد القافلة لمعرفة ما سيكون، وصاح بهم لمواصلة الطريق. مضى الركب وما زالت عينُ أبي المغوار ترسم على السراب أمامه مشاهد المعركة.

.....

يومان من المسير في رحلةٍ تبدو كأن لا نهاية لها، والليث لا يُفارق رأس أبي المغوار، حتى صار

شغله الشاغل أن يتنبأ بما حدث له. لم يعد يُفكر بشيء سواه تقريبًا، حتى كان ذلك اليوم، حين رآه، يتبع القافلة! أغمض عينه وفتحها، فلا بد أن كثرة تفكيره فيه رسمت له وهم وجوده. لكن خطواته اللحوحة وراءهم أخبرته أنه ليس وهمًا، وأكد له صهيل الخيل وتوتر الإبل أن الأسد أتاه حقًّا.

كانت خطواتُ الليث تشي بعظم إصابته. لماذا أتى؟ لعله فتك بمنافسيه، وجاء ساعيًا خلف من تسببوا في ذلك! مرةً أخرى صهلت الخيل وأسرعت الجمالُ، وصاحب القافلة يتحدث بلسان من يعلم كل شيء:

- لا تخافوا، واصلوا المسير.. سيرحل ذلك الهرُّ قريبًا، إنه فقط يطمئن أننا خارج أراضيه.

ولكن العجوز كان يحدس أن الأمر ليس كذلك. عينا السَبع كانتا تحملان شيئًا آخر غير ما يقول الأعرابي. غَربت الشمس، ولم يرحل الليث. بقي جاسمًا فوق تلٍّ قريب، يُتابع تحركهم، وهم يُحاولون ألا يُبالوا بوجوده.أشعلت نيران التخييم، وانتشر الرجالُ للحراسة متأهبين. كان الجميعُ نيامًا حين فرغ العجوز من قيامه. جال ببصره في الصحراء الشاسعة، متعجبًا كيف قطع هذا الأسد كل تلك المسافة! بحث عنه بعينه، ولكنه لم يجده. أوى لفرشته متطلعًا لسماء عامرةٍ بالنجوم حتى غفا. غزته رائحةٌ ثقيلةٌ، وشعر بصدره لا ينفتح للهواء، ففتح عينه لا يعلم كم استغرقت غفوته، ليتفاجأ به يقف فوقه! أضاءت النيرانُ حواف لبدته الذهبية. ارتجف العجوز بينما أخذ الأسد يتطلع إليه غير مهاجم. كان نحيلًا عن ذي قبل، جلده متيبسًا وقد انتشرت فيه الجروح وآثار الدم المتجلط. قرَّب أنفه من لحَية أبي المغوار، ثم تهاوى على صدره، واختفى كل شيء!

استيقظ على جلبةٍ، وشمسٍ حارةٍ لم يعتدها تجلده.

- قم يا شيخ، فصديقك الأسد ها هنا.

قام من مرقده، غير مستوعب أكان ما رآه حقًّا أم حلمًا.. رأى الرجال يتحلقون حول السبع المُحتضر الذي كان زئيرُه أشبه بمناجاةٍ، أو ربما كان نعيًا. كالمسحور تقدم منه، فشهق الرجال ونادوه، فلم يستمع. جلس إلى جوار الأسد على ركبتيه، وراح يمشط لبدته الكثيفة بأصابعه. كان يشعر بنبضات جسده الدافئ، وعينا الوحش الواهنتان كشمسٍ توشك على الرحيل. ربت على رأسه مُحدثًا إياه يُنهنه، وقد حط الذهول على الرجال حولهما:

- ها أنت وحيدٌ مثلي تمامًا. لا أعرف قصتك، وكيف كانت حياتك. لكنني كنتُ مهيبًا مثلك، محاطًا بجمعٍ يتملقونني مثلك، ورحلتُ الآن بعيدًا عنهم، مثلك تمامًا. سأفشي لك يا صديق الروح سرًّا لم يعلمه أحد، ولا يكف عن مطاردتي. كنتُ في قومي تُرافقني روحُ صديقٍ لي، لا تنفك تذكرني بما اقترفتْ يداي. والله إني لم أفعل سوى ما رأيته الصواب حينها.. لا أجزم الآن أنه كان صوابًا، ولكني فقدتُ صديقًا أنقذني من الموت مرارًا. حاولت بكل السُّبل أن أثنيه، ولكنه أبى إلا أن يقتل الأمير خلفون، فكان سيفي أسبق إليه. لقد كرهتُ الخيانة، وكرهتُ ما فعلت. بعد موت صاحبي، كذبت حتى لا يتذكره الناسُ بالسوء، وصار شهيدًا بطلًا، لأنه افتدى الأمير. أسطورةٌ أطلقتها بين العامة، الذين كانوا سيُهللون لرؤية رأسه إن قلتُ إنه خائنٌ. شيء ما بداخلي جعلني أحفظ ذكراه الطيبة، وكان عليَّ رد جزء مما فعله صاحبي لي. اعتنيت بابنه، وقربته حتى غار الأقرباء. دربته وعلمته وأحطته بالنصيحة، حتى صار أمير باري.

صمت لبرهةٍ يبتلع دموعه، ثم أكمل وهو يرتجفُ غضبًا:

- الخيانة إبليس اختلاف الرؤى يا صديقي.. المبرر ما أسهله عند الاختلاف، كما خبرت بنفسك أيها الليث العظيم. كان الأمر أثقل على روحي التي لم تعد كما أيام خلفون. اخترت الرحيل وترك الأمر

لهم.. فلم أكن أستطيع قتل أحدٍ أحبه ثانية. لقد أحببتهم جميعًا، وأعلم أنما تَحركهم النوايا الصالحة. حكمة سَودان، وعزم قسورة، وتأني الأغلبي.. ثلاثة رجال يستطيعون فعل أي شيء إن اجتمعوا.. حدثت سَودان قبل رحيلي، وقبلها تكلمت مع قسورة.. لم أودع الأغلبي، وحزينٌ إلى الآن لذلك. لطالما كنت أمنِّي النفس بالموت في باري، أو على أسوار رومية، ولكن لا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت.

صمت العجوز، في نفس اللحظة التي همدت أنفاسُ الليث، وأغمض كلاهما عينيْه، ووجم الرجالُ!

****

سقط الحصنُ الغربي، وتوجهت كل القوات لتتقاتل على أسوار باري. إنزالٌ بحري كبيرٌ قام به البيزنطيون بغضب اليائس جنوب المدينة، بعد حرق سفنهم. صارت باري محاطة من كل الاتجاهات، ولكن أسوارها ما زالت صامدة، ويُقاوم أهلها بشراسةٍ لا تفنى. كانت المرة الأولى التي يراها منذ رحيله عنها، يقفُ ومن خلفه مئاتٌ من الجند جاء بهم إلى هنا بأمر البابا. حثَّ ماركيزيو جواده الحربي للتقدم، ومن خلفه رجاله رافعين رايات لومبارديا وشعار نبالته، الحمل المجنح. في معسكر الحصار، كانت لا تزال هناك معركة قائمة على أسوار المدينة، اشتدت سواعد جنودها بالحماسة حين وصلت الإمدادات بقيادة الدوق. قاد جواده إلى حيث خيمة القيادة، والبوق يُعلن وصول شخصيةٍ بارزةٍ. خرج إديلكي من خيمته ليرى من القادم، فأخذته الدهشة، وتبادل النظرات مع وزير الملكِ الكارولنجي وبقية القادة. بعد الترحيب، انضم ماركيزيو إليهم في جولةٍ بالمعسكر، وكانت فرصةً ليسلم الوزير رسالةً من البابا، فتحها الرجلُ وطالعها بعينيه الزرقاويْن، ثم منحها لإديلكي قائلًا:

- أرى أن الدوق جاء ليحظى ببعض غنائم الحرب..

- لقد كُلفت من البابا بتولي شؤون الأسرى والتأكد من سلامتهم.

ضحك الرجالُ حين ضحك الوزير، بينما يدفع إديلكي بالرسالة لصدر ماركيزيو قائلًا:

- إن كان سبب وجودك الأسْرى، فلا أسْرى لدينا.. لقد تكفلت جاريةٌ روميةٌ بتسميمهم وفتح أبواب الحصن لنا، وتمت مكافأتها على ذلك، وتهريبها إلى روما. اسمع، إن كنتَ جئتَ للحرب فها هي ذي قائمة، وإن كنتَ جئتَ للاطمئنان على الأسْرى من رفاقك الوثنيين، فأنت غير مرحبٍ بك هنا أيها الدوق اللومباردي.

قطع الوزيرُ حديث إديلكي بحزمٍ:

- لا تأخذ كلام إديلكي على محمل الجد سيد ماركيزيو. إننا قد أشرفنا على النهاية هنا، تستطيع أن تنظر إلى ساحة المعركة. كل هذا سينتهي قبل أن يمضي هذا الشتاء. لقد جئتَ بالمدد في وقتك المناسب، فها نحن أولاء نتشاور في موعدٍ للاجتياح الكبير. لقد تركنا أبناءنا في الشمال لأشهرٍ طالت، وفقدنا الكثير من الرجال. الملك أقسم ألا نعود حتى نسترد باري، وسنفعلها.

سرت الهمهماتُ بين الرجال، وحاول ماركيزيو الحفاظ على هدوئه وهو يتحدث في وقارٍ:

- ما زالت هناك رسالةٌ عليَّ توصيلها إلى داخل باري.. بأمرٍ من البابا.

رمقه الوزير بنظرةٍ غاضبةٍ، قائلا وهو يُكمل المسير:

- اذهب.. ها هي ذي المدينة، فادخلها إن استطعت.. ولكن إن أصابتك سهامهم قبل أن تصل، لن يذهب أحدٌ لجلب جثتك.

...

أصبحت باري على غيم كثيفٍ، زاد الكآبة والحزن على وجوه المنازل، وأحاطت برودةُ الخريف بطرقاتٍ خاويةٍ إلا من دَوريات الجند تطوف بالأحياء لتلبية متطلبات الناس، يوزعون الطحين واللحم. لم يبالوا بماهية اللحم الجديد على القائمة، فالمدينة تحت الحصار منذ عام. قرب الأسوار كانت قدورُ الجند تفوح بالرائحة الزكية، وكل واحد منهم قد حصل على قطعةٍ من لحمَ خيلٍ وحساءٍ ساخنٍ. منحوا أيضًا برداتٍ جديدةً خضراء، لا تدفئهم ولكنها تمنحهم مظهرًا جيدًا رغم شهورِ الحربِ المتواصلة. وجوههم صارت إلى الشحوب، اختفت خلف لثام لا يُظهر سوى عيونٍ متحفزةٍ، يقاتلون على الأسوار وخارجها، وعددهم يتناقصُ كل يوم، ينتظرون المدد من إقريطش، وقد تأخر كثيرًا، كما بدا أن الأغالبة لم يسمعوا بأمرهم.

في الأيام الأخيرة، كانت المدينة تُقصف بالمنجنيق بعد كل أذانيْ فجر وعصر. اليوم، لم يهجم الإفرنج– الكارولنجيون- وحين أمر محمد الأغلبي بذبح الخيول، كان الجندُ في حالةٍ من الدهشة، زادت بعد أن وزعت عليهم سيوفٌ وتروسٌ جديدةٌ، كما أن تجار باري وزعوا عليهم الأقمشة الجديدة. لم يفهم أحدٌ ماذا يحدث.

صاح جندي من برج البوابة أن هناك فارسًا يقترب من البوابة. فارسٌ على جوادٍ أحمر قوي كان يركضُ نحو بوابة باري الغربية، حاملًا راية بيضاء. انتظروا أن يأتي الأمرُ من خيمة الأغلبي، الذي خرج متجهمًا آمرًا الجند بالانتشار، فراحوا يتراصون كما يأمرهم قادتهم، ثم اعتمر الأغلبي خوذته وهو يصيح في جند البوابة أن افتحوا الأبواب.

حمل مجموعةٌ من الرجال عارضةً خشبيةً، وفتحت البوابة بصريرٍ شديدٍ، وكانت الدهشة من نصيبِ الفارس القادم للمدينة. ضرب الجواد حوافره بالأرض، بعد أن جذبَ ماركيزيو لجامه. وقف برهةً، قبل أن يحث الجواد للتقدم بحذرٍ. بوابة المدينة التي خرج منها خائفًا تُفتح له مرة أخرى. عبر تحت البوابة وعيناه تدوران في الجندِ. ملابسهم نظيفة، وقدور الطعام خلفهم تفوح برائحة المرق.
كان الأغلبي يقفُ بالقرب من البوابة، عاقدًا حاجبيْه متابعًا تقدم الدوق، ولسان حاله يعترفُ بفراسة ودهاء سَودان. أمسك بخطم حصان ماركيزيو حين اقترب منه:

- يبدو أن باري قد راقت لك أيها الدوق.

حيَّاه ماركيزيو بإشارةٍ من يده:

- الأغلبي.. توقعت أن يستقبلني شخصٌ آخر.. ولكن على كلٍّ، لقد جئتُ هذه المرة إلى باري من أجل السلام.

- أي سلام في إبادة قرى ومدن كاملة؟

- أودّ مقابلة السلطان سَودان.

لم يرق للأغلبي جُملة الدوق الأخيرة. كظم غيظه وهو ينظر في وجه الدوق، وأشار إلى ثمانية فرسان أحاطوا بماركيزيو، عبرِ الدروب المؤدية للقصبة. لم تكن هذه باري التي رحل عنها منذ أكثر من عامين. كانت الجدران كئيبةً، أحواض الزهور خاوية إلا من طين. لكن سوق المدينة كان مزدحمًا، والباعة يُنادون على بضاعتهم، كالأيام الخوالي، حين كان يجوب طرقاتها مع حارسيْن عيَّنهما أبو المغوار عليه، لم يُحدثهما طوال فترة أسره. شعَر بحماسةٍ لملاقاة ذلك القاضي الهَرم. كان يحترمه، ولا ينسى أنه أعتق رقبته من القتل، ثم منحه حياةً جديدةً، حين أذن له بالرحيلِ عن باري. طوال الطريق إلى روما كان خائفًا من أن يُغدر به، ولكن ها هو ذا يعود إلى باري مطمئنًا، في محاولةٍ بائسةٍ قرَّر أن يخوضها وحده.

فتحت البوابة الحديدية للقصبة، على ثلاث نخلاتٍ باسقاتٍ وسَودان يقف مرتديًا درعًا من زرد ذهبي، تتدلى عن كتفه حرملة من مخمل أسود، كعمامته التي تحتضن الخوذة. عن يمينه كان يقفُ حارسُه ضخم الجثة، وخلفه صفوفٌ من جندٍ يُمسكون برماح طويلةٍ ودروع دائريةٍ صغيرةٍ. نزل ماركيزيو عن جواده، احنى رأسه قليلًا للأمام قائلًا بالعربية: السلام عليكم يا سلطان باري.

- وعليك السلام أيها الدوق.. أرى أن رياح الحرب حملتك إلى باري متأخرًا.

- لقد جئتُ ضمن فرقةِ الملك لويس الثاني لمباشرة الحصار.. ولكن ما فاجأني حقًّا أن أحظى بذلك الاستقبال المُعد مسبقًا..

قاطعه سَودان بثقةٍ:

- إنه أمرٌ متوقعٌ أن تأتي إلى آسرك، لترى خضوعه وخوفه.. كنتُ أعلم أنك ستعودُ إلى باري يومًا ما..

صمت ماركيزيو لبرهةٍ، ثما قال في هدوءٍ:

- بل إن الأمر ليس كذلك.

لوَّح سَودان للجند، فتنحوا عن الطريق إلى مدخل القصر. سار وخلفه الأغلبي وماركيزيو عبر الرواق الطويل، وتوقفوا قبالة شرفة تطل على البحر الهائج، وترى الأسطول البيزنطي في الأفق. لحظاتٌ من صمتٍ قطعها ماركيزيو:

- أنت تُزهق الأرواح دون فائدةٍ يا سَودان.. انظر لرجالك.. يحتاجون إلى الحياة، وأنت تُجبرهم على حربٍ خاسرةٍ.. أتستحق هذه الأرضُ كل هذه الدماء؟

- نحن لا نُقاتل من أجل الأرض أيها الدوق، بل هو شيء أكبر من أن يعيه عقلك.. اسألهم ما أقصى طموحهم. لا أظن أنك جئت لتهتم بأمور الجند!

تنهد ماركيزيو:

- حسنًا، لقد جئتُ للتفاوض، واستسلام يعقبه سلام.

آثر سَودان الصمت وانتظار تتمة الكلام، بينما اكفهر وجه الأغلبي، وبدا أنه يُجاهد ليكظم غيظه. كان ماركيزيو مترددًا بعض الشيء..

- لقد تبدلت المواضع الآن، وعليكم الاستسلام. الأعداد تتزايد في الخارج، والإمبراطور البيزنطي باسيل الأول عازمٌ على الدخول إلى باري بحرًا. والملك لويس الكارولينجي ينوي اقتحام المدينة برًّا. لقد صار الأمر سباقًا بينهما لمن يرفع رايته فوق مدينتك أولًا.. انتهى الأمرُ يا سلطان.

ابتسم سَودان وهو يلتفت للدوق قائلًا:

- أي أمر الذي انتهى أيها الدوق؟! يؤسفني إخبارك أن لا خيار لدينا يُدعى استسلامًا، وأن ملكيك إن أرادا باري فعليهما القتال من أجلها.

أطال ماركيزيو النظر لهذا القائد، الذي- وإن كان عدوه- فهو يحمل له الاحترام..

- سيدي السلطان، لقد قلتَ لي ذات يوم إن القائد الحقيقي من يُجنب الأبرياء القتل.

- سيد ماركيزيو.. منذ أشهرٍ، وقبل مجيئك، طلب بعض أهل الذمة المغادرة، ومعهم نفرٌ من المسلمين. ولكنهم ذُبحوا بدمٍ باردٍ، وألقيت رؤوسهم علينا بالمنجنيق. إن أهل المدينة أقسموا على الدفاع عنها.. يهودُها ومسيَّحيوها سيقفون أمام حصاركم إلى جانبنا. تستطيع أن تزور الكنيسة، وتسأل الأب بروسيدس عن كل تلك الأمور وحدكما.. إننا عازمون على المقاومة حتى ينكسرَ آخر سيف.

- أنت تُعقد الأمور يا سَودان.

كانت المرة الأولى التي يُخاطبه فيها باسمه دون لقبه، مما جعل سَودان يبتسم وهو يشير إلى الفُلك المنتشرة بالبحر:

- لقد هزمنا إمبراطوركم في البحر، وأغُرقت معظم حوارقه وقواديسه، بفضل ثلةٍ صغيرةٍ من الشجعان.

هزَّ ماركيزيو رأسه في أسفٍ..

- ولكنك خَسرت معظم سفنك أيضًا. ولن يأتيك أي مددٍ، فإقريطش تخوضُ حربها الخاصة مع البيزنطيين أيضًا.. لقد تحالفت أوروبا ضدك يا سَودان.. وأقسم الأباطرة والملوك ومن خلفهم البابا على اقتلاعكم من الجنوب الإيطالي.

- أرى أن علاقة البابا أضحت قويةً بما يكفي ليخوضَ حربًا مع حليفٍ يُبغضه.

- إنها السياسة كما تعلم.. وكان على الفرقاء توحيد الجهود لإزاحتك عن الخارطة.

- اسمع يا ماركيزيو.. أقدِّر لك ما فعلته في روما من أجل ماريا.. وأقدر لك مجيئك إلى هنا للبحث عن سبيل لوقف الحرب كما تدَّعي.. ولكن على حلفائك أن يعوا شيئًا مهمًّا.. أننا باقون هنا حتى النهاية.

- لستُ هنا يا سَودان إلا لأنني أردُّ قدرًا من كرم ورحمة أبي المغوار. وكنتُ أود أن يكون حاضرًا هنا، لعله يكون له رأي آخر..

قاطعه سَودان غاضبًا:

- لقد رحل أبو المغوار عن باري.. ولا تنس أنك تُحدث سلطانها.

- لم أنس سيدي، ولم أقصد ما ورد بعقلك.. ولولا أني خبرتُ ما لك من حكمةٍ في النصح بما لا ينساه عقلي، لما حدثتك هكذا. ادرس الواقع حولك يا سلطان باري، فإني- أقسم بالرب- أخشى عليكم الأسْر والقتل.

- يبدو أنك لم تعرفنا جيدًا أيها الدوق، رغم إقامتك بيننا. نحن قومٌ لا نستسيغ المهانة، وكل النهايات بالنسبة لنا نصرٌ. ستذكرنا المعامع كل وقتٍ على طول الحياة إلى الممات، فذاك الذكر باقٍ ليس يفنى، ومدى الأيام ماضٍ وآتٍ..

تعجَّب ماركيزيو من حديث سَودان، وكيف يستطيع الثبات هكذا، رغم الحصار الشديد والمعارك. تأكد له أن إقناع الرجل بالاستسلام مجرد أضغاث أحلام، فها هو ذا متماسكٌ، يتحدث من موضع قوةٍ خفيةٍ لا يعلم مصدرها. تبادل النظرات مع الأغلبي الصامت قبل أن يتمتم:

- وددت المساعدة فقط، وألا يوردكم العناد التهلكة.

أومأ له محمد برأسه، بينما حدَّثه سَودان:

- وقد أسعدني ما رأيت منك أيها الدوق. سيرافقك الرجال إلى بوابة القصبة.

...

في الطريق إلى بوابة المدينة، صادف ماركيزيو قسورة، الذي كان يقف بين رجاله. تبادل معه التحية، واقترب أمير الحرب من الجواد ممسكًا بلجامه قائلًا:

- لم أصدق حينما أخبروني أنك هنا.. كنتُ حريصًا على لقائك أيها الدوق.

- سعيدٌ لرؤيتك يا فارس باري.. كنتُ أتمنى أن ألقاك في وضعٍ غير هذا.

ربت قسورة على رقبة الجواد، وعيناه لم تنزلا عن وجه الدوق قائلًا:

- في الحقيقة، ما جعلني أنتظرك وأستوقفك ليس أن نتبادل كلمات التحايا، بل لأسألك عما حدث في الحصن الغربي؟

بملامح جامدةٍ، تطلع ماركيزيو إلى قسورة الذي ينتظر إجابته. فكَّر لحظات مرَّت قبل أن يقول: لقد سممت جاريتكم الرومية طعام رجالكم، فدخله الدوق إديلكي دون قتالٍ.

بُهت قسورة غير مصدق. لقد اختفت فيولا ونسوا أمرها وسط المعمعة. كيف تسللت إلى مطابخ الجند في الحصن, كانت طوال الوقت بين ظهورنا؟! أفلت قسورة لجام الجواد، ليمر الدوق بجانبه متجهًا إلى البوابة، بينما كان عقلُ أمير الحرب يُعيد عليه ذكريات المؤامرة.

****

لم تقم صلاةُ الجمعة في ذلك اليوم. كان أشرس هجوم منذ بدأ الحصار الكبير. استمر رجمُ المدينة من الظهيرة حتى المغيب، وقبل أن ترحل الشمسُ شهد أهلها انهيار جزءٍ من السور الجنوبي، واقتحم جندُ بيزنطة السور المُتداعي. تدفقوا كسيلٍ جارفٍ يكتسح كل شيء. الرايات القرمزية اندفعت في الشوارع والأزقة، وفرسان باري يُسابقون الريح إلى الجهة الجنوبية من المدينة، والأغلبي يركضُ تجاه منزله، ويحث كل من صادفهم على الذهاب إلى القصبة. هديرُ المعركة ازداد أكثر فأكثر، وأخرج الأغلبي زوجته وبناته الباكيات من المنزل، ليحتموا في القصبة ثم مضى في أثر الرجال. كان رجالُه يتمترسون خلف تروسٍ كبيرةٍ، شاهرين رماحهم، فنظر في وجوههم صائحًا:

- هل سنبقى هنا حتى يأتوا إلينا؟ لا والله، لن نترك رجالنا عند الأسوار يموتون، بينما نحن هنا ننتظر الدور. إن كانوا قد دخلوا إلى مدينتنا، فلن يخرج أحدٌ منهم حيًّا.. إلى القتـــــال!

ركض، ومن خلفه الرجال نحو المعركة الدائرة قرب السور الجنوبي، وعند الفجوة الكبيرة في السور، كان الرماة يُلقون بأقواسهم، ليحمل كل منهم سلاحًا للنزال. نجوم السماء شهدت على قوة المهاجمين واستماتة المدافعين. التفت سَودان وقد صرع مبارزه، ليجد الأغلبي ورجاله قادمين، والنيران تلتهم المنازل، والدماء تجري أنهارًا. حارت بصيرته بين صرخات الألم وصليلِ السيوف ومشهد قسورة يُقاتل بسيفيْه كإعصارٍ لا يُوقفه شيء، خفيف الحركة يميل ليتفادى طعنةً، بينما يصد أحد سيفيه ضربةً من آخر. كل هذا من اختيارك يا سَودان. أكان الأمر يستتب لو رضيت أن يصير هذا المقاتل العظيم سلطانًا مكانك؟ أكان الحق أم فتنة السلطان ما حرك قرارك؟.. تكالب على قسورة سبعة رجال، فركض سَودان بالهجان نحو صاحبه، تطيح بمن يقفُ في طريقها، ورمح صاحبها يفتك بجند بيزنطة. مع وصول الأغلبي ورجاله، أمطرت المدينة بالقذائف المشتعلة، وبدأ الكارولنجيون يهجمون أيضًا. مرَّت جِمار النار فوق الرؤوس، لتصطدم بالمباني والبيوت، وعلى وهج النيران كان سَودان يُقاتل ببسالةٍ، حين أصاب سهمٌ صدر الهجان، سَمع صوت اختراقه للحمها، صهلت متألمة، ووقفت على قائمتيها الخلفيتين، ورأى الجميع السلطان يكاد أن يسقط! نزلت بقائميها الأماميين فوق جندي بيزنطي تعيس الحظ، وراحت تدهسه وسَودان يترجل من فوقها، ويهجم عليه زمرةٌ من الرجال، يُحيطونه من كل الاتجاهات، فصرخ بالهَجان قائلًا:

- كأيامنا الخوالي يا أخلص الرفقــــاء.

والسهم في صدرها، قفزت به فوق المهاجمين، تتلقى الطعنات كدرع حيةٍ، ثم سقطت مطلقةً خوارًا مزَّق قلب سَودان. عَلقت ساقه تحتها، فأسرع نحوه أحد المشاة وعلى شفتيه ابتسامة فوز شرهة، شاهرًا سيفًا عريضًا تتموج عليه ضياء النيران و.. فصلت رأسه عن جسده، وسقط الرجل ليظهر خلفه قسورة باسم الثغر، وسيفاه يقطران دمًا. ساعد قسورة سَودان على النهوض، في اللحظة التي انهار فيها جزءٌ من الجدار الشمالي، وما زال الهجومُ حيث يقفان قائمًا. ألقى سَودان نظرةً على الهَجان، فربت قسورة على كتفه وجذبه من مكانه، فأصاب المكان في نفس اللحظة رمحٌ مسنون.

النيرانُ تأكل باري، وفوجٌ جديدٌ يقتحم المدينة في صفوفٍ مرصوصةٍ، يرفعون تروسهم فوق الرؤوس، ورماة باري لا يتوقفون عن الرمي. أعاد سَودان وقسورة ترتيب الصفوف في انتظار البيزنطيين، وفي الجانب الآخر كان الأغلبي ورجاله يخوضون معركةً ضارية، لا يبتغي فيها النصر، بل يمنح العامة سبيل الفرار إلى القصبة التي تخرج منها تعزيزاتُ الجند إلى حيث سَودان.. في وسط

كل هذا الدم والهرج والحزن، كانت ابتسامة أهل باري لرؤية ابن ميمون الحداد اليهودي يحمل ترسًا وسيفًا، لطالما تفاخر على الناس بصنعهما، ليقف بين الصفوف. مسح قسورة سيفيه في جثة جندي بيزنطي وهو يُحدث صاحبه:

- لم يكن ليخطر بعقلي أن نوضع في هذا المأزق.. ولم أتخيل أن يحدث لباري كل ذلك على أعيننا.

أجابه سَودان في هدوء من يرى النهايات..

- ولكن ها قد حدث، وها نحن هنا.

- والله لا أبرح حتى أردهم إلى خارج مدينتنا، وأجعلهم يتذكرون تلك الليلة.

ابتسم سَودان لقول صاحبه، وعاد يُفكر ثانية فيما لو كان قد نزل له عن الإمارة، فربما لم يكن ليحل بباري هذا البلاء .

...

ليلةٌ مشهودةٌ، على طول الحروب لم تر باري مثلها قط. مات خَلقٌ كثيرٌ، وتكومت الجثثُ واختلطت الأبدان والرايات، والسيوف تأبى أن تتوقف، حتى فرَّ عددٌ كبيرٌ من الجند البيزنطي والكارولنجي، وسيطر على الساحة جندُ باري المنهكون. قرب الفجوة بالسور الجنوبي، كان قسورة وسَودان لم يزالا يقاتلان إلى جانب بعضهما البعض، يفتكان بمن يُصادفهما، ظهراهما يتلاصقان أحيانًا، ويتبادلان الأدوار كثيرًا، قسورة وسيفاه، وسَودان ورمحه، وما عادا يريان من جيشهما أحدًا سواهما، فاحتسبا أنفسهما، وقررا أنه أحدُ خيارين يليق بمن رضي الله عنهم ووعدهم خيرًا.

انهمك سَودان بقتال رجلين، بينما قسورة يُحاط بثلاثة. صرع الأول، حين ضربه الآخر بضربةٍ مباغتةٍ، صدها قسورة بأحد سيفيه، بينما دار حول نفسه ليطعن الثالث، فلمح سَودان يجهز على أحد مبارزيه، وحين التفت ليعاود القتال، شعر بذلك الوتد الذي اخترق عضلات فخذه اليسرى، فانثنت ساقه، وسقط أرضًا. سهمٌ آخر انغرس بالأرض جانب رأسه، وصاحبه يركضُ نحوه، ليمطره بوابل من الضربات، استطاع قسورة التصدي لها، قبل أن يأتي سَودان ليطيح بالرجل بعيدًا، لينهض قسورة وقد فقد أحد سيفيْه. عاد الرجل مرةً أخرى، ليتصدى له سَودان، وقسورة يقطع من ثوبه ليربط على جرح فخذه النازفة، بعد أن كسر السهم. حين رفع بصره، جحظت عيناه وهو يرى أحد الجند يجذب قوسه ويُسدد نحو سَودان، فصاح لينتبه سَودان، الذي باغت مبارزه وأمسك بعنقه جاعلًا منه حائلًا أمام السهم، الذي استقر بصدر الرجل. بسرعةٍ أفلت سَودان القتيل من بين يديْه، وسحب الخنجر من حزامه، في الوقت الذي شدَّ النشاب قوسه ليظفر بالسلطان.. ورمى كلاهما.

تلقى قَسورة السهمٍ بدلًا عن صاحبه. رمى جسده, ليعترض طريق الموت. هلع سَودان لما أصاب صديقه. ألقى نظرةً على الجندي الرومي، الذي كان يزحف بعيدًا بعد إصابته، وعاد ببصره إلى قسورة، الذي كان يبتسم رغم ألمه. أصاب السهم الغليظ أعلى صدره، مما جعله يتنفس بصعوبةٍ:

- اللعنة على تلك السِهام القصيرة.

قبض على يد سَودان الذي بدا في صوته الارتياع:

- لمَ فعلت هذا يا صاحبي؟

- ألم تكن لتفعلها إن كنتُ مكانك؟.. إن الأخلَّاء لبعضهم لمفتدون، وإنك لسلطان باري وصاحبها.. عاهدتك ألا أبرح حتى أخرجهم خارج السور.

رفع سَودان عينيْه وجاب أنحاء المدينة:

- لقد فعلتها يا قسورة.. لقد أخرجناهم من مدينتنا.

شَعر برجفةٍ تسري بجسد قسورة، الذي قبض على يده، ولفظ فمه القليل من الدماء. تمتم بكلماتٍ لم يُفسرها سَودان، ثم استكان بين يديْه. أغمض سَودان عينيْ قسورة، اللتين لن ترعيانه بعد الآن، ثم نهض متوجهًا حيث ما زال الجندي الرومي المُصاب يزحف، فغرس الرمح في قفاه ليقضي عليه، ثم عاد إلى حيث جثمان قسورة، فحمله على كتفه، وسار بدربٍ اشتعلت منازله على الجانبين.

****

اشتدت برودة الشتاء، وتزاحمت المشاعرُ باحثةً عن الدفء، كما الأجساد المتراكمة بساحة القصبة. كل ناج من المدينة يسكن الآن القلعة والقصر، يفترشون الحديقة التي صارت مخيمًا يأوي من بقي حيًّا منَ أهل باري. المكانُ مكتظ، غرف القصر مُنحت للنساء والأطفال، وصار الأمر إلى حصارٍ أضيق، ولم يبق لهم ملاذٌ سوى هذه الجدران ومن خلفها البحر والسماء.

وبين البرد والألم، يتنحى الانكسارُ جانبًا، مُفسحًا الطريق لحنينٍ يُسيطر على الوجدان، ينبش الماضي منقبًا عن ماضٍ مستترٍ في ثنايا العقل، ويُزيح الغبار عن ذكرى حُفرت بالفؤاد. شاب يقص على مسامع الرجالً قصة منزله القديم بحارة الصباغين الضيقة، حيث كانت جدران البيوت الحجرية تحتضن الأطفال وغناءهم، وعلى ناصية الدرب كان هناك كهلٌ يتنسم دفء الشمس. قصص أمه عن خلفون ورفقته. بدا على وجهه الأسى وهو يذكر أمه وعائلته ورفاقًا كُثرًا يتسكع معهم ويقطفون ثمار البرتقال. حديث لا يتوقف عن الحب والحرب ومدينة طاف بها الموت. يقولون إن ما بين الحرب والحب حرفٌ، وكلاهما سيئ بقدر الآخر، فالحربُ كما الحب تسلب الأرواح وبينهما تنبت الآلام. رماد المنازل المحترقة جراء الحرب ما زال يحتفظ بقصصٍ عن الحب، بقيت رغم برودة شتاء بعد شتاء، وتلك الريحُ الباردة تطوف بالطرقات. لعلها أطيافٌ منَ الماضي تتهامسُ في أركان الضاحية المُهدمة. شخصٌ آخر كان يقفُ أعلى الأسوار، يتطلع إلى المئذنة الشامخة، التي بقيت رغم تهدم أجزاء كبيرة من المسجد، ورغم كل شيء بقيت رائحةُ الريحان في أنفه، تذكره ببائع ورد مات يوم الاجتياح الكبير. ما زال يذكر العجوز وهو يُقاتل بعصاه الغليظة. وها هي ذي المدينة قد أنهكتها الحرب وصارت أطلالًا يسكنها الخواء. إخلاء من بقي حيًّا كان ضربًا من الخيال. تقطعت بهم السبل، فوجدوا في وعد السماء خلاصهم. مُنحوا الحياة مقابل حياة أمير الحرب الذي قاتل حتى رد الروم خارج الأسوار. ما زال الجندُ يقصون كيف افتدى السلطان بنفسه، وكيف كان أثر ذلك على سَودان، الذي يَقف كل ليلة فوق القصبة وحيدًا ومعظم القريبين من قلبه رحلوا وتركوه. كانت المدينة تستعد للاحتفال بمولودته الجديدة، حين حدث الهجومُ الكبيرُ. فارقنا من نحب عنوة، وسنُكمل ما بقي من حياتنا عنوةً، نبحث عن أملٍ في كومةِ رمادٍ بللتها دموعُ العين. أيامٌ مرَّت وأخرى ستمر، ولا نملك سوى ذكرى لكل لحظاتنا سواء حلوةً كانت أم علقمًا، ستدفن معنا على كل حالٍ، فهذه هي الحياة، كل

شيء إلى نهاية.. وفي كل نهايةٍ بداية جديدة.

حَملت رملة رضيعتها تُهدهدها، وإلى جانبها كان عليٌّ يُلاعِب ابن ماريا الضاحك، أما الصغير عمر فكان يُغالب النوم. النسوة يتهامسن في زاوية الغرفة، وطفلٌ آخر يبكي وقد فقد أمه وأباه في المعركة الأخيرة، الحزن أحاط بمجلس الأميرة، التي كانت تقص عليهم قصة من هُجروا من الإسكندرية إلى البحر دونما أمل..

- اختفى شاطئ الإسكندرية رويدًا، والمنارة أصبحت مجرد شبح رمادي تبخر مع الوقت. أبحروا في رحلةٍ إلى قرص الشمس الغارب بالأفق، أربعون سفينة لم تلحقً بالضوء الأحمر الفاصل بين البحر والسماء، التحم ليلهما فوق الرؤوس الخائفة. كُتب عليهم الرحيل، وفي كل مرةٍ كان البحر ملاذهم، لا يعلمون على أي شاطئ سيُلقي بهم الموج. وعلى متنِ إحدى السفن، وقف جَدها الفقيه أبو حفص البلوطي، ليُعلن عن وجهةٍ جديدةٍ، فقد ضاقت بهم أرضُ الإسلام والمسلمين. وفي اليوم الرابع، أشرقت شمسُ إقريطش من بعيدٍ. جزيرة تتوهج بحمرة شمس الصبيحة. الفُلك طيورٌ عملاقة بيضاء تبرز في الأفق، تشق المياه باتجاه الشاطئ الرملي، وخفقت الأشرعة. قفزوا حاملين أسلحتهم، يهللون ويكبرون على مرأى ومسمع حاميةٍ بيزنطيةٍ تسكن قلعة مهترئة الجدران. كان وقع الصدمة كبيرًا على الفرقة البيزنطية، والسفن تتراص تباعًا على الشاطئ كحيتانِ البحر في موسم الانتحار، بقرت بطونها ليخرج البشر بكثافةٍ. اختلط الجميعُ نساء وأطفالا وشيوخًا وشبابًا، الأعداد تتزايد والرهبة تمتلك القلوب على الجانبين، أحدهما أدرك أنه مهزومٌ لا محالة، والآخر لم يعد هناك ما يخسره. إقريطش هي ابنة قرطبة والإسكندرية، جزيرة عُمرت بالمطرودين، شوارع ممهدة وبيوت بلون البحر والسماء، أبواب ونوافذ ونقوشٌ زرقاء تمنح المنازل البيضاء رونقًا خاصًّا مع أحواض الأزهار. قنواتُ المياه والحقول الخضراء والبساتين المثمرة تُحيط المدينة من كل جانب..

توقفت عن الحديث، وأرهفت السمع. توترت الوجوهُ وتبادل النسوة النظرات. كان شيء ما يحدث خلف جدار القبو. جلبة وهمهمات خافتة.. ناولت رملة طفلتها إلى الصغير عُمر، واتجهت إلى الحائط لتضع أذنها عليه، وأصابعها تقبضُ على خنجرٍ كان يومًا لشعيب. هَمست إحداهن: سأذهب لأخبر الجند بالأمر. أومأت لها رملة وقد عُقد حاجباها. ازداد الضجيجُ خلف الجدار.. ثم انزاح فجأة، مثيرًا عاصفةً من غبارٍ يتوهج بنيران مشعل يحمله رجلٌ طويل القامة يقول بصوتٍ أجش:

- لكم الأمان يا أهل باري من عبد الله طلحة السكندري.

...

على ضوء المشاعل، كان لقاء طلحة وسَودان بالقبو، بعد أن أفرغ من النساء والأطفال. حديثه كان مقتضبًا لبُّه هو إخلاء القصبة سرًّا والهرب. كان سَودان متجهمًا وهو يستمع إلى البحار الذي خاطر بكل شيء من أجل إنقاذه هو ومن معه. سقطت برنديزي، وقُتل قيس القيرواني وكل رجاله، والسفن قادمة من كرواتيا والبندقيةِ لتنضم إلى الحرب المُقدسة، كما أسموها. الخبرُ الوحيدُ المُبهج أن إقريطش تُجهز حملةً ضخمةً للمجيء، ولكنها قد تتأخر لما بعد الشتاء. لم يكن هناك وقتٌ للتفكير في حلٍ آخر. البحرُ منبسط تمامًا، والليلة مناسبة للإبحار دون أن يشعر الأسطول البيزنطي. غابت الرياح، كما اختفى القمر..

- لا وقت لدينا يا سلطان باري، عليك إخلاء أهلك ورجالك.

- كم سفينة لديك؟

- سفينتان.. ولا أظنهما تستطيعان حمل كل من بالقصبة والقصر.

قطع دخولُ الأغلبي شرود سَودان. انتظر حتى تبادل الرجلان السلام، ليقول محدثًا من جاء أخيرًا:

- أبا عبد الله، أخبر أهل القصبة أن علينا نقل النساء والأطفال على الفور.

حاول طلحة أن يعترض على ما قاله سَودان الذي رمقه مستطردًا:

- أظن أن السفينتين تستطيعان حمل عددٍ من الناس.

- ولكن يا سلطان.

- كل ما يُقال بعد "لكن" هو مجرد هراء.. سأبقى في باري أنا ومن يريد البقاء، سننتظر أن تأتي سفن إقريطش أو نفنى ونحن نُدافع عن مدينتنا.

...

ودَّع الرجالُ عائلاتهم بدموعٍ حارةٍ وأملٍ باللقاء. ستنقل القوارب النساء والأطفال إلى السفينتين، ثم تبحران إلى إقريطش. خطبَ سَودان في الناس، بأن من يريد الرحيل فليذهب، أما هو فسيبقى في باري، حتى لو ظل وحده، فشجعت كلماته الرجالَ على البقاء. وعلى ظهر أحد القوارب، كانت عائلةُ قسورة تُشاهد باري تختفي وسط الظلام.. وفي غرفتها، كان سَودان يبحث عن شيء ما، حين فُتح الباب من خلفه. لم يلتفت، وواصل بحثه في صندوق ماريا. لحظاتٌ مرَّت قبل أن تنطق رملة الواقفة خلفه:

- لن أرحل دونك.

استدار قابضًا على شيء ما بيده، تطلع إليها:

- سألحق بكم إن شاء الله.

- أريد البقاء..

قاطعها بصرامةٍ:

- يجب أن ترحلي..

دمعت عيناها واقتربت منه:

- إذن ارحل معنا..

- رملة، لا أستطيع الرحيل، هذا واجبي وما كُلفت به.. أحملُ على عاتقي سلامتكم وحماية مدينتي..

- لم يبق شيء هنا سوى الموت يا سَودان.. أطفالك بحاجةٍ إليك.

- عليَّ أن أحميكم جميعًا.. سيصلُ بكم طلحة إلى إقريطش. لقد أخبرني أن أسطولنا قادمٌ من طارنت.

سال الدمعُ بِلون كَحلها من طرف عينيها. بدا جامدًا، ولكن قلبه كان يتمزق. حاول أن يكون صلدًا ليمنحها قوة يحتاجها هو. وضع يده على كتفها، فارتمت بصدره.. احتضنها، واعتصرته بذراعيْها. أجهشت بالبكاء.. المرة الأولى التي يرى فيها كل هذا الضعف. مُجبرةٌ هي على الرحيل، كما أجبرت على البقاء في السابق. ربت على ظهرها برقةٍ، محاولًا التخفيف عنها:

- سآتي إلى إقريطش قريبًا، وسنعود مع أطفالنا إلى باري.. أعدك.

وعدٌ أملت أن يتحقق وهي ترفع رأسها نحوه. ابتسمت وعِيناها السوداوان تتطلعان إليه، فما كان منه إلا أن لثم شفتيْها بقبلةٍ رقيقةٍ، ثم أمسك بكفها ليضع دميةً لحصانٍ خشبي قائلًا:

- هذه لعبد الله من أمه.. احفظيها له. أما الصغيرة مريم، فستكون أميرةً جميلةً مثلك.

لفَّ وشاحًا أخضر، بلون علم باري حول الصغيرة المتثائبة مستطردًا:

- أعلم أنكِ لن تُفرقي بين أربعتهم.. قد يكون الوقتُ ضيقًا لاعترافٍ أخيرٍ، ولكن وجب عليَّ أن أخبرك بأنك امرأةٌ عظيمةٌ يا رملة.

...

أبحر آخر القوارب عن الخليج الصغير، حاملًا على متنه رملة والصغار. وداعٌ لم يدم طويلًا، تماسك فيه سَودان وهو يُقبل ابنه بين عينيْه، وحوارٌ سريعٌ دار بينه وبين أطفال شعيب، وهو يُداعب فتاته الصغيرة. كان يلوح لهم وقلبه ينزف ألمًا. رُزق بالأطفال كما تمنى، ولكن ها هم أولاء يبتعدون، بينما يقفُ هو على الشاطئ يُراقبهم في صمتٍ ووجعٍ.

****

أضاء بدرُ التمام ما تبقى من المدينة.. قصبةٌ متآكلة الجدران، تراكمت الثلوج على أسطحها، والرياح تعبث بالراية الكبيرة فوق برج باب البحر، وساحتها تعج بالفوضى وكومات من حجارة غطاها الثلج. المشاعل وزعت على الأسوار، كانت من قبل تاجًا من نورٍ يسطع في ظلام البحر. مضى شهرٌ على رحيل آخر قارب، حمل على متنه رملة وأطفالها مع نساءٍ وأطفال المدينة التي صارت أطلالًا مدمرةً، غطاها الشتاء بلون الحداد الأبيض. منذ ذلك الحين والمعارك لا تتوقف، يُحاول البيزنطيون اقتحامِ الأسوار يوميًّا، وعددُ المحاربين بباري يتقلص يومًا بعد يوم. لم يتبق سوى الأغلبي وسبعين رجلًا، صدُّوا الكثير من الهجمات بحرًا وبرًّا، واستبسلوا رغم الجراَح والدماء، ولم تأت سفنُ إقريطش. في كل ليلةٍ يجتمعون في حلقاتٍ حول النيران، يتشاركون قصص حياتهم وأحلامًا تحققت وأخرى لم تتحقق. ينتظرون الموت، لا يعلم أحدٌ متى تحين لحظته. كان الأغلبي يستمع لحواراتهم دون الخوض في الحديث. هذه الليلة، انتابه شعورٌ أن ذلك البدر هو الأخير. ظل يصقل سيفه بحجرٍ وعيناه لا تُفارقان القمر المتواري خلف البرج. رأى في ضيائه زوجته وبناته، وارتجفت يداه حين خُيل إليه عبد الله يبتسم له، وصوته يسري بعروقه:

"ودت لو أرافقك في كل غزواتك يا أبي"

يتذكر اليوم الذي قالها له، وخرج غاضبًا، بعد أن أصرَّ محمد أن يُودعه بيت أبي المغوار لتعلم الطب.

أشاح بنظرِه عن القمر، واستمر في صقل سيفه، ولكن النصل عكس الضياء وصوت الفتى يتردد برأسه مرةً أخرى:

"لقد قال لي أبو المغوار إن الأسود لا تتنازل عن مبادئها، وإن رأت صوبها المنون".

ليت الخنجر غُرس بجسده هو بدلًا عنه. سيطر الحزنُ على الأغلبي وهو يتذكرُ لحظات ابنه الأخيرة. ارتعشت يده، فترك الحجر وأعاد السيف لغمده، وسار بعيدًا عن تجمُّع الرجال متواريًا بالظلال، حتى لا يرى أحدٌ وجهه، صعد الدرج الزلق إلى سطح القصبة، حيث جند الحراسة فقط يقفون خلف المتاريس المتجمدة، لكل واحدٍ منهم قنديل، بالكاد يُضيء الشقوق التي يقفون بها. حيَّاهم، ولم ينتظر من الواهنين جهد الرد، وتوجَّه إلى تلك البقعة الخاوية قرب البرج الكبير. بردته تطايرت بفعل الهواء، فدسَّ يده بين طيات ملابسه، ووقف يرمقُ صفحة البحر الهائج، تتأرجح عليه سفنُ البيزنطيين والبنادقة، بعد أن كان يومًا عرين أسطول باري، القابع معظمُه في قاع البحر والميناء. لم يخطر بعقله يومًا أن يحدث هذا.. أن يبقى وحيدًا مع ثلةٍ لا يعرف معظمها، وأن يكون رفيقه إلى الموت سَودان الماوري. شرد بالغيوم التي تتجمع في الأفق البعيد، فإذا بالهواء البارد يثلج صدره، وسكينة اجتاحت فؤاده لا يعرف سببها..

- لطالما كان مشهدي المُفضل.. هنا على حافة العالم، كما أسميها

نطق بها سَودان، الذي كان يقف وراء الأغلبي مستطردًا:

- لم أتوقع أن يكون المشهد كما هو اليوم.. مثلك يا أغلبي.

ردَّ الأغلبي ساخرًا:

- هل عليَّ أن أذكرك دومًا أن لا أحد مثلي.

تقدَّم سَودان حتى وقف إلى جانبه:

- أعلم ذلك يا صاحبي.. أن لا أحد مثلك.. عليَّ الاعتراف بذلك.. أتعرف يا محمد، كنتَ دومًا تُسيء الظن بي.

مط الأغلبي شفتيْه:

- نعم هذه حقيقة.

- ولكنني لم أفعل.. لم أسئ الظن بكم، حتى حين عرفت بما يدور في منزل الصقلي.

- أبو المغوار مَن أبلغك؟

- لا، بل رحل دون أن ينطق بكلمةٍ، وهو ما أحزنني كثيرًا. لكنني فهمتُ فيما بعدُ أنه أراد منحنا جميعًا حق الاختيار. مسلمةٌ هو من أخبرني بعد أولِ اجتماعٍ لكم، قبيل رحيله إلى برنديزي، وتمنيت حينها ألا تكون أيديكم ملوثةً بدمائي يومًا.. وحده شُرحبيل مَن واجهني، بعد أن كوَّن مجموعته الخاصة. ولكن دعني أسألك؛ هل كنتم تنوون فعلها حقًا؟!

- لم يستأجر قابيل قاتلا ليقتل أخاه..

طال صمتهما بعد كلماتِ الأغلبي الموجزة. الغيومُ تقتربُ أكثر، والموجُ لا يكف عن الارتطام برأس الخليج القريب، وأغرق المدُّ خليج خلفون، حيث دخل الفاتحون أول مرة، وحيث كان خروج طلحة السكندري ومعه من تبقى من أهل المدينة. حلق نورسٌ بالقرب، يُراقص ضياء البدر، يتهادى مع الريح، وحيدًا كعقولهم الممتلئة بغمار حياةٍ قصيرةٍ ربما. سؤالُ مُلح راح يضربُ عقل الأغلبي، فقطع حبال الذكريات ليسأل صاحبه الشارد بالأفق:

- لماذا عفوتَ عنا؟

- لأنكم إخوتي..

- ولماذا لم تعف عن شَرحبيل؟!

- لأنه قاتلٌ.. تمادى في الكِبر، وانغمس في الغدر.

قضيا ليلتهما يتسامران مع الجند، وللمرة الأولى يسمع الجند ضحكات الأغلبي. كان سَودان يقص مواقفَ طريفةً، ويقوم بتقليد صوت أبي المغوار، يوم جعلهم يقفزون في مياه البحر الباردة. عقابه كان درسًا في تحمل الألم والصبر، قسورة تعلل بالمرض حينها، إذ كان يخشى ألا يعود لزوجاتهِ الثلاث كسابقِ عهده. على ذكر قسورة، توقفوا عن الحديث مرةً أخرى، ليخوض كلٌّ منهم رحلةً في نهر الذكرياتَ المتدفق من وجدانهم، في ليلةٍ تأخر بزوغُ فجرها. حلت الغيوم السوداء أخيرًا، ولملم القمرُ حبات نوره، وتدثر بالسحب.. لامس قلوبهم صقيعٌ احتضن القلعة بمن فيها، مئذنة باري كفت عن الأذان منذ ما يُناهز الشهرين، تقف باكيةً على أطلال مدينةٍ احترقت، تُناجي أبراج الحصن الأخير حين يُسمع فيه أذانُ فجر النهاية. استدار الأغلبي:

- الصلاة جامعة يا أبا أحمد.

كان سَودان يقفُ باسطًا يده أمامه:

- يبدو أنها ستمطر.

- مع المطر يأتي النصر.

مضى سَودان في أثر الأغلبي إلى الساحة، حيث الجند يستعدون للصلاة. توضأ كلاهما من نفس الإناء بماءٍ دافئٍ، وتقدم سَودان للإمامة، داعيًا جنده أن تكون تلك صلاة مُودِّع، ثم كَبَّر وصلى. أطال في سجوده، ولما فرغ من الصلاة، أشار للأغلبي الذي قام يخطبُ في الجندَ يحثهم على الصبر والجَلد، ترك سَودان الساحة المكتظة بالفوضى متوجهًا إلى الأروقة الخاوية إلا من صفير الريح، فضاق صدرُه، وأخذته خطواته إلى قبرها، حيث كانت حديقة القصر. عند قبرها، جثا على ركبتيْه، يُلامس بأنامله الثرى المخلوط بالثلج الهش. عجز عن النطق أو التعبير، وسرت رجفةٌ بجسده، فرفع رأسه نحو غيوم تُحارب ضوء الشروق، والثلوج تهبط من السماء حوله، وصوتها يغمره: إنها تُثلج يا أميري.. اَبتسم وهو يتمتم: أميرتي..
نهض مُعتمرًا عمامته، وعيناه لا تريدان مفارقة القبر. زفر..

- يومٌ صعبٌ آخر علينا خوضه.. لن يأتي أي مددٍ، ولم يبق منا إلا ثلة قليلة.. لن يكون هناك من يتغنى بأنشودةٍ تحمل اسمي يا ماريا.. كنت أحلم بالذهاب إلى روما فاتحًا.. مُنية سيحققها غيري ربما.. سأدافع عن مدينتي حتى آخر قطرةٍ من دمائي.. أسأل الله أن يُثبت قلوبنا وأن يغفر لنا تقصيرنا وما اقترفناه من ذنبٍ. ماريا، كم أشتاقُ لرفقتك يا حبة القلب.

ارتدى درعه، ولف الوشاح القرمزي حول رقبته، يستنشق فيه رائحتها. شدَّ على خصره حزام سيفه، وتحسس المقبض البارد وصوت حارس البرج يصلُ إلى مسامعه:

- قواربُ بيزنطة تقتربُ من باب البحر.

خرج غير متعجلٍ، ليجد الأغلبي يُوزع الرجال فوق البوابة، ومن بعيدٍ يأتي صوتُ دبيب جند الكارولنجيين. إنها لحظة الحسم. لم يأت مددٌ من إقريطش أو من صقليةٍ، انشغل كلٌ بحربه، وتناقص الرجال، وربيع باري انقضى سريعًا. الحياة وإن طالت قصيرةٌ، كان يأملُ أن تصير الإمارة لسلطنةٍ كبيرةٍ يحكي عنها العربُ والعجم، وأن تُصبح روما العظيمة مجرد مدينةٍ تحت سلطان دولةٍ تُضاهي عظمة مُلك بني أمية في الأندلس، ويكون لها نصيبٌ كما لبغداد ودمشق من العز. الأماني كثيرةٌ، كلها رحلت كما رحل الأحبة. تحرَّك بخفةٍ باتجاه سور البحر، فصعد الدرج الحجري ليرى الأوضاع. قواربُ البيزنطيين بالعشرات تُرصع سطح البحر، يُحيط بها ضبابٌ خفيفٌ، يُجدفون بحماس المنتصر، ويتقدمون بسرعةٍ نحو الشاطئ. أعدادٌ غفيرةٌ راحت تتجمع في الشمال والجنوب من القصبة. ومن الغرب كانت ضرباتُ المنجنيق تدك السور. بضع قوارير من زيتٍ هي كل ما تبقى، والرماة يُجهزون سهامًا من صُنع أيديهم، صامدون ليوم آخر، لعل طلحة يأتي بسفنه ورجاله. انهار جزءٌ من برج البوابة، وأطاحت كراتُ النار بالأجسادِ، واختلط الدخان بالثلج. نادى الأغلبي على الرجال، للنزول إلى الساحة ودفع مزيدٍ من المتاريس إلى البوابة.

وصلت الدبابة الخشبية يدفعها الجند. القضيبُ الخشبي ذو الرأس الضخم من الحديد يدفعه الرجال ليضرب البوابة الحديدية، حتى انبعجت وصوت ارتطامهما يصم الآذان. كان سَودان يدفع السلالم، ويُقاتل بضراوة اليائس فوق السور، حتى ضربت السورَ قذيفةٌ أطاحت به مع رجاله. يدٌ امتدت بين الركام لتجذبه. كان الأغلبي يبتسم على غير العادة. لعلها المرة الأولى التي يراه مبتسمًا. الضجيج خفت، إلا من صوت الموج وارتجاج البوابة. خلع سَودان خوذته المنبعجة وألقى بها وهو ينهض. سحبه الأغلبي، فتماس درعاهما. ربت سَودان على كتف صاحبه، الذي أومأ برأسه قائلًا: إنها النهاية على ما يبدو.

اخترق سَودان صفوفَ رجاله ليتقدمهم، وألقى نظرةً طويلةً على البوابة المرتجفة، استدار بعدها لينظر في وجوه رجاله محدثًا إياهم:

- سيقص التاريخ دومًا صمودكم وبسالتكم، وكيف لفئةٍ صغيرةٍ أذاقت أكبر جيوش الأرض هزيمةً نكراء. وقد لا يذكرنا أحدٌ على الإطلاق، ونصبح في طي النسيان، ولكننا حاولنا. خضنا الحرب، انتصرنا وهُزمنا.. وهكذا هو الحالُ دومًا، وإن نسي البشر، فترابُ باري سيشهد على ملاحمنا وحضارتنا.. يكفي ثراها فخرًا أننا سنُدفن بها.

كُسر البابُ الذي لطالما صمد. اندفع جنودُ الغزاة عبر فجوةٍ أخذت في الاتساع، ودروع رجال باري تصدهم وتُرجعهم للخلف؛ ولكن لكل درع أجلًا. مشاة الكارولنجيين خلخلوا الحائط الدفاعي لجند باري القليلين، ولكن سَودان صاح برجاله، فانزاحوا جانبًا، ليندفع الكارولنجيون بين فكين من السيوف،

يفتكان بهم. توقف فيضانُ الجيش بفعل ثلةٍ صغيرةٍ، تَقاتل بضراوةٍ لم تعهدها حربٌ من قبل. مرة أخرى يُغير سَودان ورجاله التشكيل، وبين الحين والآخر يسقط أحدهم، وبين التقدم والتراجع تأرجح الموقف. أصيب الأغلبي، طعن أحدهم فخذه، بينما كان يُقاتل آخر، لكنه لم يسقط. ظل واقفًا مكانه، يصرع من يلقاه، كان سَودان يُقاتل بشراسةٍ، فلمح الأغلبي لا يتحرك من وقفته، فشق طريقه في ساحة الوغى كإعصارٍ شديد البأس، ليتوقف عند الأغلبي الذي كان يلتقط أنفاسه:

- ماذا بك يا أبا عبد الله؟

رفع الأغلبي رأسه:

- ما زال أمامنا الكثير لنخوضه معًا يا صاح.

دار سودان ببصره في المكان، مشيرًا لرجاله بالتجمع مرةً أخرى قائلًا:

- علينا غلق تلك البوابة بأي شيء.

لم يكد يُنهي جملته، حتى رأى الفوج الثالث يدلف عبر البوابة المُحطمة.

...

فوق تلٍّ مرتفعٍ خارج المدينة، كان ماركيزيو يقفُ صامتًا، يُتابع اندفاع الجند إلى المدينة. قشعريرةٌ سَرت بجسده وعمَّ صدره الحزن. باري مدينة لا تستحق الدمار والموت. تمنى ألا يموت سَودان ورجاله، ولكن بدا أن الأمر قد حُسم، وها هي ذي المعركة تضع أوزارها بعد عام من الحصار برًّا وبحرًا. قُتل خلقٌ كثر، واستطاع سَودان أن يُخرج النساء والأطفال أحياء. سَودانٌ عدوٌّ نبيلٌ، يُحزن الدوق أن يفقد إحساسه بوجود مثله في الحياة. ألحانُ الأنشودة التي سمعها بسان فيلي تسربت إلى مسامعه، والدخان يُعانق السماء، والسفن البيزنطية تتأرجح فوق الموج بالأفق البعيد، ولربما سَودان وحيدٌ بالداخل. لو كان من خراف الرب، لخلدته ترنيمةٌ ما، ولبُنيت كنيسةٌ تحمل اسمه مع لقب قديس. شعورٌ بالخزي لامس قلبه، وهو لا يستطيع فعل شيء. خَلع الدوق عباءته، لتسقط تحت قدميْه، ومن بعدها درعه. أطال النظر إلى باري مودعًا، ودار بجواده ليرحل مبتعدًا.

...

علقت كسارة الأبواب الكبيرة بالسلاسل الحديدية التي تدعم البوابة، فهلل رجالُ سَودان. لم تعد المعركة أكثر من جيشٍ كثرته غلبت شجاعة القلة، ولكن أولئك القلة لم يُخلقوا للهزيمة، وخيارهم إن لم يكن النصر فهو الشهادة. ألقى سَودان برمحه، ليستقر بصدر من كاد يَفتك بالأغلبي، وراح يُبارز وكأن جسده فقد كافة أحاسيسه من كللٍ ويأسٍ ووجعٍ، وما عاد إلا أداة حرب مُشهرة لا تنكسر.

ارتوت السيوفُ حتى الثمالة، وشيئًا فشيئًا خفت صليلُ السيوف، حتى صَمت، وحلَّ محله الأنينُ والحشرجات، ولم يبق من البيارق والرايات إلا كل مُمزق.. دماء وأشلاء، خوذاتٌ منبعجةٌ، ورؤوسٌ داميةٌ، وراية النسر ذو الرأسين الصفراء سقطت.. انتهت المعركة مع انتصاف النهار. نَحر سَودان مبارزه الأخير، وسقطا معًا. ترك جسده يتهاوى بين القتلى، يلهث وعيناه ترقبان السماء الرمادية فوقه، والجوارح تطوف في انتظار وليمةٍ من الجثث. وجد التعب والألم سبيله إلى جسده أخيرًا. نهض جالسًا، ثم التقط سيفًا مُلقى إلى جواره، فتوكأ عليه ليقف. جال بعينيْه في الساحة المُكتظة بالقتلى، وأنينِ الجروح والاحتضار، فرأى الأغلبي يستند على الجدار مُتعبًا فناداه:

- يا أبا عبد الله.. أما زال هناك الكثير لنخوضه؟

استدار محمد ببطءٍ، فتهاوى. سقط أرضًا ويداه تحاولان الإمساك بأمعائه. أسرع سَودان ناحيته، وجثا إلى جواره، فنظر الأغلبي إليه نظرة الصامد:

- تمنيت أن يطول أكثر من هذا.. أجلسني يا سَودان، لا أريد الموت راقدًا.

أسند سَودان ظهره إلى صدره، فدار الأغلبي بعينيْن نصف مفتوحتين يتفحص جروح جسده، وضحك في تهكم وهو ينظر إلى أحشائه التي خرجت من بطنه. انتزع سَودان قِربة الماء من حزامه، وقرَّبها إلى شفاه الأغلبي، الذي أزاحها قائلًا: أعطها لذلك الرجل!

استدار سَودان، ليجد أحد الجرحى الكارولنجيين، وجهه مُغطى بالدماء، وعيناه ويداه يترجيان قِربة الماء. لم يجد ما يقول، فهذا هو الأغلبي كما عرفه عمرًا طويلًا زخر بالمواقف والمعامع. أسند ظهر صديقه إلى الجدار، وذهب إلى الرجل، فأسند رأسه وسقاه حتى ارتوى، ثم عاد ببصره إلى الأغلبي، الذي كان باسم الوجه وعيناه متعلقتان به، ولكن قد فاضت روحه وما عاد هنا.

رحل الصديقُ الأخيرُ، وما زالت راية باري تخفق أعلى البرج، لم ينتزعها أعداؤها بعدُ، وصوت البوق تُردده الجبال والجدران، يُعلن عن بدء الهجوم الثالث. الراية لا تزال تخفق، والحربُ قائمةٌ، وقَسمٌ يسري بوجدانه، لن يبرح باري إلا للسماء. كان وحيدًا، وعينا الأغلبي الجامدتان لا تزالان تُراقبانه. انتزع رمحًا من صدر أحد القتلى، ودبيب أقدام الجند يرج الأرض رجًّا، وقد أفلت من بين الغيم شعاعٌ من شمسٍ أصرَّ أن يشهد النهاية، غمر الساحة التي يقفُ بمنتصفها وعيناه تجولان بأرجاء القصبة.. فوجِئ بأبي المغوار يقفُ مهيبًا، يُومئ له برأسه قائلًا:

- قُم يا آخر الأبطالِ، إني علمتك ألا تكلُّ ولا تنام.

بالقرب منه، كانت سليمة تحمل الرضيع، وتقفُ إلى جوار والدها. وعلى الدرج، كان شُعيب بشعره الأشقر الكثيف وعيناه الزرقاوان، يجلس مبتسمًا مرتديًا درعه الأسود المذهب، وقد وضع سيفه على ركبتيْه. وفي الساحة، كان عبد الله بن الأغلبي يدور حول نفسه، مستعرضًا برمح صُقل نصله. ومسلمة يُمسك برايةٍ مخضبةٍ بالدماء، بينما قيس القيرواني يَشد قوسه مُستعدًا.. شذرات بَرَدٍ ذهبية تتساقط ببطء، أحاطتهم جميعًا، وفوق برميلٍ كبيرٍ جلس كاراس ضاحك الوجه، وها هو ذو قسورة يخرج من خلف أحد الأعمدة، ممسكًا بسيفيْه والرياح تعبثُ بخصلات شعره الفاحم. وعند حافة البركة المجمدة، كانت هي.. ماريا تبتسم له، وعيناها تغدقان عليه بالشوق. تركهم على الأرض، ورفع عينيْه إلى راية باري فوق البرج الكبير، تخفق بأملٍ أخيرٍ مع ريح بارد أثلج صدره. قبضت أصابعه على الرمح، مع بدء دخول الجند عبر البوابة، يركضون صارخين نحوه، بينما يقفُ ثابتًا في مكانه متطلعًا إليهم بهدوءٍ، وعلى شفتيْه ابتسامة ظفر.

تمَّت بحمدِ الله

جزى الله خيرًا كل مَن ساعد في خروج هذا العمل إلى النور... شكرًا لكل من اقتطع من وقته جزءًا ليقرأ ويُقيِّم حروفي.. لولاكم ما كانت (باري) لتخرجَ بأبهى صورةٍ لها... وستبقى أنشودةُ سَودان شاهدةً على ما قدمتموه لي من دعمٍ.

